

تاريخ إسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط
الخلافة القرطبية (٧١١-١٠٣١م)

النظم والمؤسسات والحياة الإجتماعية والفكرية

المجلد الثانى
(الجزء الأول)

بقلم المستشرق الفرنسى: ليفى بروفنسال
ترجمه إلى الإسبانية: إميليو جارثيا جومث

ترجمة: على عبد الرؤوف البمبى - على إبراهيم المنوفى
السيد عبد الظاهر عبد الله
مراجعة: صلاح فضل

321

هذه هى الترجمة الكاملة للمجلد الثانى من تاريخ إسبانيا الاسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، وقد اجتمعت فيه إسهامات العلامة ليفى بروفنسال والترجمة الرائعة لاميليو جارثيا جومث والختام الجوهرى والضرورى لأستاذ الأجيال فى ميدان الفنون والعمارة ليوبولدو تورس بلباس. ويكمل هذا المجلد سابقة الذى يحمل نفس العنوان، أى إننا نرى من خلال هذه الدراسة وذلك الإسهام العلمى الرفيع صورة متكاملة لفترة عزيزة علينا جميعاً وتتعلق أيضاً بجزء عزيز لا زلنا نذكره بتلك العبارة ذات الدلالات وهى «الفردوس المفقود» التى أصبحت عنواناً للأندلس.

تتسم هذه الدراسة بالبساطة النابعة من تراكم خبرات المؤلف وعبقريته، ولقد تمكن - من خلال هذين العنصرين - من التغلب على العقبات، وتمكن من إدماج المستجدات الكثيرة دون إبرازها والتهليل لها، والمصادر التى اعتمد عليها لم تكن معاصرة ومستفيضة فحسب، بل ثرية ببيانات لم يسبق نشرها. لقد جاء هذا المجلد فى جزأين نظراً لضخامة المتن وكثرة اللوحات والصور المصاحبة وثراء الحواشى والهوامش والتعليقات. والأمل كبير فى أن تكون الترجمة إلى العربية سبيلاً لزيادة عدد القرّاء من المتخصصين والدارسين وعامة القراء.

المجلس الأعلى للثقافة

HISTORIA DE ESPAÑA



الغلاف: أمين الصيرفى

المشروع القومى للترجمة

تاريخ إسبانيا الإسلامية

من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية

(٧١١ - ١٠٣١ م)

المجلد الثانى (الجزء الأول)

- النظم والمؤسسات، والحياة الاجتماعية والفكرية.

بقلم المستشرق الفرنسى / ليڤى بروڤنسال

ترجمه إلى الإسبانية / إميليو جارثيا جومث

ترجمة : على عبد الرءوف البمبى

على إبراهيم المنوفى

السيد عبد الظاهر عبد الله

مراجعة : صلاح فضل



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد ٣٢١
- تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح
إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١ - ١٠٣١ م)
المجلد الثانى (الجزء الأول)
النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية
- ليڤى پروڤنسال
- على عبد الرءوف اليمبى - على إبراهيم المنوفى - السيد عبد الظاهر عبد الله
- صلاح فضل
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة عن الإسبانية لكتاب :

HISTORIA DE España

Dirigida Por :

Ramón Menéndez Pidal

Espasa Calpe, S.A. الصادر عن :

MADRID - 1965 (2ª edición)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

تنـــــويه

- ترجم أ. د. / على عبد الرءوف اليمبى التمهيد ، والفصل الأول ، والثانى ، والثالث ، والرابع ، والخامس (من الجزء الأول) مع حواشيهم .
- ترجم د. / على إبراهيم المنوفى الفصل السادس (من الجزء الأول) والفصل الخامس ، والسادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع (من الجزء الثانى) مع حواشيهم .
- ترجم د. / السيد عبد الظاهر عبد الله الفصل السابع والثامن (من الجزء الأول) والفصل الأول ، والثانى ، والثالث ، والرابع (من الجزء الثانى) مع حواشيهم .

وقام أ. د. / صلاح فضل بمراجعة المجلد كله .

تمهيد

إميليو جارثيا جومث

العمل الأخير لليڤى پروڤنسال

اخترنا للصفحات التالية عنوان « تمهيد » بدلاً من « مقدمة » لسببين :

لقصرها المنافى لعقد آمال كبيرة عليها ، ولأن هذا المجلد - برغم فائدته وقيمته الثمينة - يعتبر تكملة للمجلد السابق ، والمقدمة المتواضعة التى افتتحناه بها (« الأمويون وحضارة قرطبة ») تنسحب - كما يُفهم من العنوان - على مجمل فترة الخلافة ، دون استثناء للجانب الحضارى .

فى تلك المقدمة أعلنا أننا سنُسلم القياد فى « تاريخ إسبانيا الإسلامية » العلاّمة « ليڤى بروڤنسال » ، وانتظرنا بفارغ الصبر مواصلة هذا التاريخ بمجلد ثالث بعد ترجمتنا للمجلدين الأولين عن اللغة الفرنسية ، ظننا - فى البداية - أن المجلد الثالث المنتظر سيتناول القرن الحادى عشر الميلادى - مفتاح تاريخنا الوسيط - أو « إسبانيا السِّيد » طبقًا للعنَّان الملهم الذى صدَّر به أستاذنا « الجليل » ميننديث بيدال إحدى دراساته الشهيرة ، ولما ظهر المجلد الثالث ووجدناه يتناول « المؤسسات والحياة الاجتماعية فى فترة الخلافة القرطبية » أصابنا - للوهلة الأولى-نوع من خيبة الرجاء . ومع هذا لا مفر من الاعتراف بأن هذا التأنّى كان مفيداً وله مبرراته .

لا نجافى الحقيقة إن قلنا إن كثرة أشغال المؤلف وضيق وقته - كما سنرى فيما بعد - لم يجهضا الأمل لديه (لأسباب شخصية عديدة) فى مواصلة تاريخه ، ومن جهة أخرى فإن قلعة تاريخ الطوائف - التى تضم مصاعب وتعقيدات توهن عزائم ومنطق أشد المتخصصين تسلحًا - كانت تتطلب بالفعل وقتًا للمراجعة والتفكير والاستعداد ، فمن قبيل المستحيل سرد تلك الحقبة من تاريخ الأندلس سرداً جيدا إلا من خلال منهج قادر على تفادى متاهة التفاصيل الصغيرة ، وذلك للمحافظة - إلى حد مقبول - على يقظة القارىء المستعد دائمًا للشرود . كان المؤلف - الذى تجمعنى به صداقة حميمة - يطلعنى على ما يَعنّ له من أفكار وخواطر وشكوك حول هذا الموضوع ، كان رأيه قد استقر أخيراً على جعل شخصية « ألفونسو السادس »

(لا « السيِّد القمبيطور ») بمثابة المحور الحقيقى للأحداث ، والخيط الذى يضفى شيئًا من التماسك والوحدة على فوضى تلك الحقبة ، لكن ضيق الوقت وكثرة الأشغال لم يمكناه من تحريك مادته العملية فى هذا الاتجاه ، أو نشرها على الورق بالترتيب والتكنيك المحكم الذى يتطلبه الموضوع ويتفق مع صرامته البحثية المعهودة .

ومن جهة أخرى ، نظن أن المؤلف كان بحاجة إلى وقت لتقييم مردود العمل الذى بين أيدينا ، فمن المعروف أن المفهوم الحديث لعلم « التاريخ » لم يعد يقتصر – كعهدنا به فى القرون السابقة – على الحقل السياسى والعسكرى ، بل امتد ليغزو آفاقًا أخرى عديدة ، وفترة الخلافة القرطبية تحتاج أكثر من غيرها إلى هذا التوسع . لماذا ؟ لأنها بمثابة الْمَرْقَب الكبير فى قمة هرم الإسلام الإسبانى ، وتحليلها المفصل يتيح لنا رصد الْبُنى : التأسيسية ، والسياسية ، والثقافية ، والاجتماعية التى تشكلت قبله ثم تحللت ببطء وتناثرت بعده .

تجدر الإشارة أخيراً إلى أن موضوع هذا المجلد لم يكن جديداً تماماً على المؤلف لأنه نشر منذ عشرين عاماً بحثًا مطولا عنوانه : « إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر : المؤسسات والحياة الاجتماعية » (باريس ، لاروس ، ١٩٣٢)، وهذا البحث – الذى تتطابق مادته العلمية إلى حد كبير مع مجلدنا الحالى – وإن كان يضم معلومات قديمة بعض الشئ إلا أنه لا يزال سارى المفعول كإطار عام ، ولايزال محتفظًا بتماسك وصلابة بنائه .. ربما جال بخاطر « بروفنسال » إعداد طبعة جديدة له ، مزيدة ومنقحة ، لكن عدم خروجها إلى النور أجدى وأفضل ، ذلك لأن كل كتاب وليد عصره ولحظة تبلوره ، ومن هنا سيظل الكتاب القديم متمتعًا باستقلاليته وسيظل بمثابة أرشيف لحفظ الكثير من البيانات التي لا غنى عنها برغم تجاوزها ، أما بخصوص المجلد الذى نقدمه الآن ... فإنه بالتأكيد شىء مختلف .

يعتبر هذا المجلد (الذى يحمل فى طبعته الفرنسية عنوان « عصر خلافة قرطبة») أشد « تبسيطًا » من قرينه القديم ، وهو بهذا الشكل يتناسب مع حقبة تاريخية سهلة القراءة ، متدفقة دون عوائق ، وقد وضعنا كلمة « تبسيطًا » بين قوسين لأن القارىء قد ينخدع بمدلولها الآخر (عامية أو فى متناول كل من هبّ ودب) ، ما أردت قوله يكمن باختصار فى أن هذه الدراسة تتسم بالبساطة النابعة من تراكم خبرات المؤلف (لأنها آخر عمل له) وعبقريته ، إذ استطاع بهما تعبيدها والتغلب على العقبات والنتوءات

الداخلية ، وتمكن - فى رشاقة - من إدماج المستجدات الكثيرة بها دون إبرازها والتهليل لها ، وبالفعل فالمصادر التى اعتمد عليها لم تكن معاصرة ومستفيضة فحسب ، بل ثرية ببيانات فى منتهى الحداثة لم يسبق نشرها ، وعلى سبيل المثال نذكر البيانات المستخلصة من « المقتبس » (الجزء الأول والثالث) لابن حيان ، أو المستقاة من مجموعات « الفتاوى » الأندلسية ، أو المأخوذة من صيغ المحررات والعقود الرائعة لكل من الجزيرى والقيسى (وهذه المحررات محفوظة فى « مدرسة الدراسات العربية بمدريد » ، وكان لى شرف إطلاع « بروفنسال » عليها) ، ومن هذه الأعمال ومن أخريات عديدة - مثل مؤلفات « الحسبة » و« المحتسب » التى لم تستفد منها دراسة بهذا الشكل حتى الآن - استخلص المؤلف ألونًا لصبغ لوحاته وجعلها مترعة بالحياة .

يحتوى المجلد الذى بين أيدينا (الثالث) على ثمانية فصول كبيرة ، وترتيب هذه الفصول فى الطبعة الفرنسية يتفق مع ترتيب فصول المجلدين الأول والثانى ، لكننا آثرنا ترقيمها فى الترجمة الإسبانية ترقيمًا مستقلاً على اعتبار أن هذا المجلد منفصل عن المجلدين السابقين ، تتناول الفصول الثمانية الموضوعات التالية : يتحدث الفصل الأول عن النِّسق السياسى (الحكومة المركزية ، النظام المالى والإدارى فى الكُوَر المختلفة) ، والثانى عن النظام العسكرى (النظام الدفاعى ، والجيش وصفوفه ووحداته ، والحملات العسكرية ، والأسطول الحربى) ، والثالث عن النظام القضائى (القضاء ، وهيئات القضاء الفرعية ، وتنفيذ الأحكام والحدود) ، والرابع عن المجتمع الأندلسى (توزيع السكان وأعدادهم التقريبية ، والعناصر الأصلية والوافدة ودرجة اندماجها ، والطبقات الاجتماعية ، وأهل الذمة) ، والخامس عن الحياة الاقتصادية (موارد الخزانة العامة ، ونظم الكيل والوزن والقياس ، والعملة ، والزراعة ، والتعدين ، والصيد ، والصناعة ، والتجارة) ، والسادس عن النهضة العمرانية (السمات العامة للمدن الأندلسية ، ومدينة قرطبة فى القرن العاشر) ، والسابع عن الحياة الاجتماعية (الأسرة ، والبيت ، والأثاث ، والملابس ، والغذاء ، والزينة ، والصحة ، والتسلية وتمضية أوقات الفراغ ، والسلوكيات) ، أما الفصل الثامن والأخير فيتناول الحياة الفكرية والدينية (الحياة الإسلامية بوجه عام ، والتيارات الشرعية والصوفية ، والإضافات الشرقية ، ورعاية الحكم الثانى للآداب والفنون ، وعلم التاريخ ، والعلوم والفنون) .

وكما هو متوقع فقد كان الفصل الأخير هو الأشد قناعة من بين الفصول الأخرى ؛ ذلك لأنه يتناول الحياة الروحية والأدبية والفنية فى عصر الخلافة القرطبية ، والحديث عن هذه القضايا يتطلب صفحات ينوء بحملها الكتاب وعنوانه ، ومن ثم فقد ترك المؤلف – انطلاقًا من معيار رشيد – مسألة الخوض المسهب فيها لأقلام المختصين ؛ وبرغم هذا فعندما جاء الدور على علم التاريخ كتب لنا المؤلف ، معتمداً على بيانات لم يسبق نشرها ، صفحات – لا أتردد قيد أنملة فى وصفها بالروعة – عن الرازى ومن سبقه من المؤرخين ، ومن شدة إعجابى بهذه الصفحات التى لم يعرها « بروفنسال » أهمية خاصة لكثرة اعتياده على استخدام المعلومات والبيانات الجديدة ، طلبت منه إعادة نشرها ، وقد لبّى رغبتى – طبقًا لاعترافه – ونشر نصوصها العربية فى مجلته « أرابيكا » (Arábica) (1955, II-2) ، ص ٢٨٨ – ٢٣٠) تحت عنوان : « عن إقامة الرازى فى إسبانيا » .

أما بقية المجالات الثقافية فلم يتوغل فيها – كما سبق وأشرنا – مهارة منه وتهذيبًا ؛ فمهارته تكمن فى يقظة حسه التاريخى الذى دلّه على أن التوسع القسرى الجديد لعلم التاريخ خارج نطاق السياسة وميدان الحروب ليس مطلقًا بل له حدوده ، وأن الأدب والفلسفة – خصوصًا فى إسبانيا الإسلامية – محيطان بلا شطآن ومن السهل ضل الطريق فيهما ، إن لم نقل الجنوح أو الغرق ؛ ولهذا – ومن منطلق غيرته وحرصه على عدم إلصاق تهمة الإطناب الفارغ أو الانحراف عن الجادة بأىّ جزء من عمله – اقتصر على الملاحة الحذرة بالقرب من الشواطىء ؛ أما بالنسبة لتهذيبه ، فإذا لم نَرُدُّه إلى فهمه لحدوده وتخلّيه عن ارتياد آفاق لا تدخل فى دائرة اختصاصه ، لا نملك إلا اعتباره نابعًا من احترامه لمنطق توزيع العمل .. ونحن معاشر المهتمين بالدراسات العربية قد تربينا على هذا المبدأ الذى ينبغى أن يسود العالم بأسره ، وهكذا فمثلما تُنَصِّبه المدرسة الإسبانية أميراً على كافة مؤرخى الأندلس ، فإنه قد تنازل راضيًا لمدارس أخرى عما يمكنها التجديد والتجويد فيه .

ولكل ما تقدم شرحه لم يخرج المجلد الحالى عن الحدود التى رسمها له « بروفنسال » إلا عند التخوم المشرفة على الفن ، ذلك لأن الفن لا يعتبر فقط من المواد المساعدة للتاريخ ، بل لقدرته الفائقة على إلقاء الضوء عليه وتوضيحه ، وخاصية الفن هذه لا غنى عنها فى أعمال مثل هذا العمل الذى لا يتمسح فى تقعرات التخصص بل يطمح فى التوجه إلى قاعدة عريضة من القراء .

لاشك أن الحضارة الإسلامية تفتقر - كما أوضحنا فى مناسبة أخرى - إلى الأجناس الأدبية الكاملة التى تعكس - صراحة - الأحاسيس والمشاعر المشتركة ، وتسجل حركة المجتمع الذى ولدت فيه ؛ وعلى سبيل المثال نذكر الملحمة ، والدراما ، والخطابة السياسية الفعلية أو القصة بمعناها الحقيقي ، بل إنها تعاني أيضا من نقص حاد في الفنون التشكيلية ، ولا نجد فيها - مثلاً - معادلاً للكوب الإغريقى بأطيافه السوداء لتحييد البريق البارد للرخام ، ولا ما ينوب عن الحُلّة الرومانية أو منمنمات العصر الوسيط من أجل تقديم الوعاء الذى يُصرف فيه الخيال ، حسناً : وبما أن الشجرة المُشذّبة تستجمع عصارتها فى الفرع المتبقى لها ، فإن الخيال العربى ينْقى ويطهر فى الحلْية المعمارية التى نطلق عليها اليوم مصطلح « الفنون الصناعية » ، وهى احراج خَلّفت لنا أعمالاً قيمة تضيىء بروعتها حوليات إسبانيا المسلمة ، وتسمح لنا - على الأقل - بالتعرف على خشبة المسرح التى أدى عليها الممثلون الكبار أدوارهم ، والأغراض التى امتدت إليها نواظرهم وداعبتها أناملهم .

وبهذا الجزء من تاريخ إسبانيا حالفنا الحظ بتولى « ليوبولدو توريس بلباس » أمره ، بما له من باع طويل فى هذا المجال : فهو تلميذ لأساطين علماء الآثار العربية من الإسبان ، وصديق لأفضل المتخصصين الأجانب ومساهم فعّال فى أعمالهم ، كتب العديد من الدراسات الممتازة ، تولى الإشراف على قصر الحمراء وفحص الآثار القومية ، كما تولى رئاسة تحرير قسم « تاريخ الآثار فى إسبانيا الإسلامية » بمجلة الأندلس ، إنه رجل يطير بجناحى النظرية والتطبيق ، ويتحرك بخفة وبراعة بين سقّالات الأعمال وكأنه يتحرك بين أرفف الكتب .

لو عدنا - بعد هذا الاستطراد الواجب - إلى عمل « بروفنسال » لوجدنا أن نقص الوثائق أو توافرها قد أخل بالتوازن بين هذا الفصل أو ذاك ، وهذا أمر طبيعى ومقبول . ففى « البنى التأسيسية » - على سبيل المثال - إذا لم نفاضل بعناية بين آلاف الملاحظات المستقاة من المدونات التاريخية ونخضع ما وقع عليه الاختيار للمقارنة بهدف إلقاء الضوء على نقاط معينة ، فإننا سنجد أنفسنا مضطرين للاكتفاء بلوحات تلخيصية رسمها بعض المُنظّرين ، وفى هذه الحالة علينا استخدامها بحذر شديد ذلك لأن النظرية لاتتطابق عادة مع الواقع عند المُنَظّرين المسلمين ، ولأن هذا التباعد (بين النظرية والواقع) يزعزع الثقة فى تسلسل التواريخ ويوقعنا - بالتالى - فى مشكلة تطبيق حالة قديمة على أخرى أحدث منها بكثير أو العكس ، أو تطبيق مفاهيم الشرق

على الغرب ، أو استخدام مصطلح فى غير ما وضـع له .. وعلى خلاف هذا ، ففى « الحياة الاجتماعية » تنقصنا فى كثير من الأحيان حدود النظرية وتتوافر لدينا فى المقابل الوثائق الخاصة المليئة بالأحاجى والألغاز ؛ لتلك الأسباب مجتمعة نجد أن بعض فصول المجلد تتسم بترابط وتماسك خيوطها ، بينما يحتوى البعض الآخر على لوحات مفصلة مترعة بالألوان الموزعة بالعدل والقسطاس ، كما توجد أيضًا فصول - مثل الوصف الطبوغرافى للمدن القديمة - لا تتعدى قيمتها اللمحة المختصرة المؤقتة التى تنتظر التغيير على يد الوثائق الجديدة المكتشفة محليًا ، ومع هذا فإن عبقرية المؤلف لا تكمن فقط فى قدرته على تشكيل هذه العجينة التاريخية الهائلة بل تمتد إلى وحدة الأسلوب والمعالجة الواعية المعتمدة على أفضل المصادر والمناهج المعاصرة ، ومن يتصفح المجلد يتنسم فيه رهبانية العلم ، وتسترعى انتباهه المستجدات الكثيرة والمقارنات السديدة بين إسبانيا الإسلامية والمغرب الحالية .

هناك بعض النقاط المدرجة بالمجلد يبدى المترجم اعتراضه المهذب عليها ؛ وعلى سبيل المثال ما يتعلق « بالشرطة » فى الأندلس : فالمؤلف قد افترض وجود ثلاث طبقات اجتماعية (عليا ، ووسطى ، وشعبية) ليبرر وجود ثلاث هيئات للشرطة فى عصر الخلافة ؛ ومن رأيى إن المسألة يمكن تفسيرها بشكل مختلف ، لكن المقام لا يتسع لتقديم الأدلة على ذلك ؛ كما توجد نقاط أخرى صغيرة ومحدودة توعز بتعديلات ، ومنها أورد اسم « ذبحة » الذى أطلقه المؤلف (ص ٩١) على الشهيدة المستعربة ، والاسم الصحيح - من وجهة نظرى - هو « دولشى - دولسى » ، وأذكر أننى كتبت بهذا الصدد بحثًا لم يعترض عليه المؤلف فى مجلة الأندلس (العدد ١٩، ص ٤٥١ - ٤٥٤) عنوانه : « دولسى ، شهيدة مستعربة فى بداية القرن العاشر » .. وبطبيعة الحال فإن الملاحظات القليلة السابقة لا أهمية لها ، أقول هذا لأننى سبق وقطعت عهدًا على نفسى بعدم المشاركة فى « الإرهاب النقدى » الذى استطال ليمسك بتلابيب المستشرقين المحليين والأجانب ، وبعدم التدخل فى عمل الغير إلا إذا كان لممارسة حق الدفاع المشروع أو لإماطة اللثام عن غش وتزييف .

لا نعتقد أن للنقد البنّاء شغل كثير هنا ، ومع هذا لا نستطيع الزعم بأن البُنى التأسيسية والحياة الاجتماعية قد أقفل موضوعهما بهذا المجلد : فبالإضافة إلى أنه لا يوجد فيما هو إنسانى - خاصة فى مجال العلم - شىء يمكن اعتباره نهائيًا أو خالدًا ، فالأمر يتعلق هنا بأرضية متحركة ، ونعتقد أن هذا المجلد بما يشتمل عليه

من نصوص جديدة ومعالجة ألمعية لما هو تاريخى محض واكتشافات أدبية سيغير كثيراً من النتائج : سواء التى كنا نعدّها مؤقتة أو تلك التى توهمنا أنها أصبحت راسخة ، وبرغم هذا لا يزال جزء كبير من التاريخ الحضارى للأندلس فى حاجة ماسة للارتياد والاستكشاف ، لكن لكل شيء وقته ، وفى وقتنا الراهن لا يوجد ما يطاول النظرية الموجزة التى صاغها « بروفنسال » لذلك التاريخ الحضارى ونقدمها اليوم للجمهور الناطق بالإسبانية ، فهى تجمع بين صرامة التقنية وتمام العمل الفنى ، وهذا فى حد ذاته كاف لمنحها صفة ثبات النصب التذكارية .

بعد فراغنا من التعليق على المجلد حان دور الحديث الذى تفاديناه عن صاحبه .. عندما تُرجم هذا المجلد وعند طباعته ، بل وحتى عند تصحيح بروفته الأولى والثانية ، كان « التاريخ » الذى بدأه « بروفنسال » لا يزال جسداً حيًا تشع منه إمكانية متابعة النمو وملء فراغات دائرة إسبانيا الإسلامية ، لكنه تحول اليوم - عند صدوره إلى الجمهور - إلى مجرد شِلْوٍ مؤلم ، ففى يوم الجمعة ، الثالث والعشرين من مارس ١٩٥٦ غادر مؤلفه ، من موقعه فى باريس ، عالم الأحياء إلى الأبد .

يبدو أن قدراً مشئومًا يقف بالمرصاد لمحاولة كتابة تاريخ كامل لسيطرة الإسلام على شبه جزيرة إيبيريا بقلم واحد ، لا يوجد إلى الآن فى أية لغة أوربية - ولا حتى فى العربية - مثل هذا التاريخ ، اللهم إلا نتف منه وبأيدى مصنفين متأخرين ، ومن الحالات الأكثر شهرة فى أوربا مازلنا نذكر أن مجلد « كوندى » الثالث ظهر بعد وفاته ولم يحرره مؤلفه ، وتاريخ « دوزى » الذى استمر مفعوله لفترة طويلة ، لم يصل لأبعد من دخول المرابطين شبه الجزيرة .. صحيح أن « حرب الاسترداد » كانت طويلة ومتقطعة ، وأن نفوذ المسلمين فى إسبانيا مرّ بمراحل شديدة التباين على كافة الأصعدة ، وصحيح أيضًا أن تلك المراحل قد حظيت بأنصبة متفاوتة من الدراسة والوضوح : فإذا كانت الحلقات الكبرى فى السلسلة [مثل عصر الخلافة وبداية الطوائف - برغم تعقيدها الشديد-وعصر الهيمنة الإفريقية (المرابطون والموحدون)] قد اجتلت بفعل النصوص الجديدة المكتشفة وإسهامات الدراسات المختلفة ، فمازال الصدأ يغطى حتى الآن الحلقة الأولى (الفتح) والأخيرة من السلسلة (المملكة الناصرية ، برغم تَقَدُّمها) علاوة على بعض وصلاتها الأخرى .. لو فتّش عصرنا ونقّب عن شخص باستطاعته ملء الفراغ المحزن فى سلسلة الحضور الإسلامى على أرض شبه الجزيرة لما وجد أفضل من « ليفى بروفنسال » ؛ فدراسات هذا الرجل الأحادية

الموضوع ، وطبعاته المتميزة ، وقدرته الفائقة على التحليل ، واكتشافاته الشهيرة ، وحسه الواعي وفهمه العميق ، وأسلوبه الواضح الشامخ كانت - مؤتلفة - خير معين على المهمة الشاقة ، لكنه مات ، وبموته أصيبت المهمة مرة أخرى بطعنة الخذلان ومرارته .

أريد فيما تبقى من « التمهيد » تسجيل بعض الكلمات تكريمًا للعالم الجليل والصديق العزيز الغائب ، ومعظم هذه الكلمات مجرد تلخيص لبعض ما ورد في الترجمة المطولة التي كتبتها عنه عقب وفاته ونشرتها بمجلة الأندلس (XXI-I) ، وأنا أعود إليها الآن لأن الكلمات الصادقة لا تخرج إلا مع حرارة المشاعر ولا تُكتب إلا مرة واحدة .

مات « بروفنسال » عن اثنين وستين عامًا إلا ثلاثة أشهر ، ذلك لأنه ولد في الجزائر يوم الرابع من يناير سنة ١٨٩٤ ، حصل على الشهادة الثانوية من مدرسة الليسيه بمدينة قسطنطينة ، ثم على الإجازة العالية (الليسانس) من جامعة الجزائر ، وفي عام ١٩١٣ نشر بمجلة (Revue Africaine) ثلاثة أبحاث عن علم الكتابة والنقوش اللاتيني، يبدو أن الدراسات الكلاسيكية قد صادفت هوى في نفسه منذ نعومة أظفاره : فإلى جانب دراساته العربية - التي لا نعرف مداها - بحكم ولادته ونشأته وتعلمه في بيئة عربية ،فقد حالفه الحظ بالتتلمذ فيها - بأرض الجزائر أيضًا - على واحد من أساطينها ونعني به J. Carcopino . وتشكيله الكلاسيكي هذا جدير بالتنويه لأننا نجده عند أفضل المتخصصين في الدراسات العربية . كان « كاركوبينو » هو الذي نصحه بتطبيق المناهج التي اكتسبها من دراسته للإنسانيات الإغريقية / اللاتينية على الثقافة الشرقية .

عندما هبت نحو الشرق الريح العاصف للحرب العالمية الأولى حملته كمقاتل إلى الدردنيل ، أصيب عام ١٩١٥ وحُمل إلى مصر ليُداوى فيها من جراحه ، وبعد فترة النقاهة أرسل إلى المغرب التي دخلها عام ١٩١٧ بصفته مختصًا بشئون أهل البلاد الأصليين ، مارس تلك الوظيفة في وادي « ورجة » (Warga) الواقع بين منطقة الأشراف وفاس (وأبحاثه العربية الأولى ترجع إلى تلك الفترة) .. بعد حصوله على ليسانس الخدمات العسكرية عام ١٩١٩ انتقل إلى امبراطورية الأشراف : عمل في البداية خلال بضعة أشهر في مدرسة الليسيه بطنجة ثم انتقل إلى المدرسة العليا بالرباط (وقد تحول اسمها بعد قليل من وصوله إلى « معهد الدراسات العليا ») .

فى تلك المؤسسة التعليمية انضم إلى الفريق الذهبى للاستشراق الفرنسى الذى كان يعمل بها ، ولم يبق الآن من أفراده سوى « هنرى تيرّاس » و « جورج سى . كولين » . لقد شهدت تلك الفترة أولى مراحل حياته الجادة المترعة بالنشاط : أعدّ خلالها أُطروحته للدكتوراه عن تاريخ الأشراف ، وكتب العديد من الدراسات عن مغرب العصر الوسيط ، ودفعته هذه الدراسات إلى البحث والتنقيب عن المصادر القيمة والمخطوطات النادرة والاهتمام بتاريخ الموحدين .

بعد موت « هنرى باست » عام ١٩٢٦ انتقلت إليه زعامة فريق الاستشراق ، ورئاسة تحرير مجلة (Hespéris) وإدارة الطبعة الفرنسية للموسوعة الإسلامية ، وفى العام التالى شغل منصب أستاذ كرسى بجامعة الجزائر ، وظل يمارس وظيفته الجديدة إلى جوار مهامه السابقة بالرباط ، ومن عام ١٩٣٠ بدأ يلقى محاضرات ودروسًا سنوية فى جامعة السوربون ، استهل سنوات منتصف العمر بسلسلة من الاكتشافات الرائعة للعديد من النصوص التاريخية ، وبظهور موضوع إسبانيا فى نطاق آفاقه العلمية ، ربما كان هذا الاهتمام نتيجة لتكليفه بمواصلة العمل فى فهرسة المخطوطات العربية بالإسكوريال ، وهى المهمة التى تركها « درينبورج » دون إتمام ، ومن بين كومات الأوراق غير المفهرسة الناجية من الحريق الذى شبّ بالإسكوريال اكتشف مذكرات « البيدق » المدهشة ، وحسن الطالع الذى هداه للاكتشافات السابقة سرعان ما أغدق عليه بأخريات عديدة ، إلى أن قاده – فى يوم سعد – إلى قمة المجد وفتح له جدران الغرفة الحصينة فى « قرويين » فاس ليستخرج منها – بين كنوز أخرى – المجلد الثالث من « البيان » ، السيرة الذاتية لآخر ملوك غرناطة الزيريين (عبد الله) بالإضافة إلى أجزاء كثيرة من « المقتبس » لابن حيان . تحكمت هذه الاكتشافات فى توجيه دفة أبحاثه خلال تلك الفترة التى بدأ فى نهايتها يُعنى بإسبانيا الأيبيرية ويوقف جلّ نشاطه العلمى عليها ، ومن أهم ثمار تلك الفترة نشير إلى كتاب (إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر: البنى التأسيسية والحياة الاجتماعية) وإلى الطبعة المزيدة والمنقحة لـ « تاريخ المسلمين فى إسبانيا» للعلامة « دوزى » ، وفى هذا المقام تجدر الإشارة إلى أن كتبه وأبحاثه فى تلك الحقبة تتسم بالمزاوجة بين تاريخ المغرب فى العصر الوسيط وبين إسبانيا الإسلامية ، وقد أضفت تلك المزاوجة طابع الوحدة والتناغم على ما نطلق عليه اليوم مفهوم « الغرب الإسلامى » . لقد استطاع فريق الرباط الفرنسى – وعلى رأسه بروفنسال – حقن هذا المفهوم بجرعة مكثفة من

المستحدثات العلمية والمضامين الحية التي كنا نجهلها حتى ذلك الوقت نتيجة لجهلنا بالخبايا المغربية . وفي تلك الآونة ، التي أخذ فيها ولعه بتاريخ إسبانيا يعظم ويتسع ليمتد إلى كل ما هو إسباني ، جمعتني به عُرى الصداقة والأخوّة حتى اختطفه الموت .

لم يُحدث انتقال « بروفنسال » إلى الجزائر عام ١٩٢٥ تغييراً يُذكر في أنشطته ، هذا إذا استثنينا اهتمامه الوليد بالشرق الأدنى واستئناف رحلاته إليه ، ولم تكد تمر بضع سنوات على هذا الانتقال حتى نشبت الحرب العالمية الثانية وهبت معها أزمة خطيرة ، ومثل أشياء إنسانية كثيرة فقد كان لهذه الأزمة وجهان : أحدهما سلبي والآخر إيجابي ؛ يتمثل الجانب السلبي في إقصائه عن منصبه الجامعي كأستاذ كرسي (لا لشيء إلا لكونه فرنسيًا محبًا لوطنه) وما تبع ذلك من هدم سعادته الأسرية وتخريب زواجه ، وعلى صعيد الجانب الآخر يمكن القول إن فترة الشعور بالمرارة والألم عادة ما تكون أخصب الفترات في حياة الإنسان ، وبناء على هذا ، فإلى فترة توقف نشاطه الجامعي وآلامه الشخصية ندين بهذا العمل الضخم الذي نعرفه جيداً (لأننا ترجمناه من قبل ونشرناه) : « تاريخ إسبانيا الإسلامية ، من الفتح حتى سقوطة الخلافة القرطبية » .

بعد انتهاء الحرب وعودة الأمور إلى نصابها رجع إلى فرنسا في شهر أبريل من عام ١٩٤٥ ليشغل كرسي الدراسات الإسلامية (الذي أنشيء خصيصاً له) بجامعة السوربون ، وليدير أيضًا معهدين علميين ... أصبح رسميًا أهم شخصية فرنسية في الدراسات العربية ، لكن حياته التي عرفت الاستقرار العائلي من جديد (بعد زواجه من سيدة من أصل إسباني) كانت حافلة بالنشاط الدائب والحركة المستمرة : الموسوعة الإسلامية في طبعتها الثانية تطلبت منه الكثير من الجهد والرحلات المتكررة ، وحضور المؤتمرات العالمية ، وإلقاء محاضرات في دول عديدة ، ورحلة سنوية للشرق الأدنى ، وزيارة كل عام لإسبانيا ومنها إلى البرتغال والمغرب ، وشيئًا فشيئًا أضيفت إليه أعباء أخرى : رحلة سنوية إلى تونس ، طَبع نصوص في « ليدن » ، رئاسة تحرير سلسلة للدراسات العربية في دار نشر خاصة ، تأسيس مجلة .. أبعد هذه الحركة الدائبة والأنشطة المتعددة يمكن أن يجد وقتًا لالتقاط الأنفاس وتنفيذ مهام أدبية ؟ أبداً لم يعد قلمه لخط كتاب مهم ، لكن القوة الكامنة في نشاطه الإبداعي السابق ، والمهارة التي اكتسبتها يداه ، والمادة العلمية الثرية المتراكمة لديه تضافرت جميعًا لتمدنا بدراسات أحادية الموضوع من العيار الثقيل .

كانت ما تزال تبدو عليه – حتى فى شهوره الأخيرة – أمارات العنفوان الجسمانى كما تشهد بها حركته الدائبة ونشاطه المتواصل وحيويته الشابة ، وإلى عهد قريب كنا نداعبه ونعيد على مسامعه باستمرار الكلمات التى استقبله بها « خوليان ريبيرا » عندما رآه أول مرة : « ياله من شاب يتفجر قوة وحيوية ! » ، لكن أصدقاءه كانوا يعلمون أن الصدوع تنخر منذ وقت ليس بالقصير فى أساسات ذلك المبنى المتماسك من الخارج ، لقد بدأت أدرك خطورة تلك الصدوع عندما رأيته فى « كوبنهاجن » خلال شهر سبتمبر عام ١٩٥٥ ، وعندما زرته فى بيته بباريس خلال ديسمبر من العام نفسه وجدته نصف ميت ، لكنه ظل حتى ذلك الوقت يُعد الخطط ويرتب الأدوات لاستكمال « تاريخه » .. هذا التاريخ الذى كنا على يقين من أنه لن يكتمل أبداً ، لأنه لم يعد للعمل الجاد فيه منذ رجوعه إلى فرنسا ، وبرغم هذا استطاع – مدفوعًا بأحلامه وبشغف القُرّاء – أن يضيف إلى ذلك التاريخ – فى ظل الظروف التى أشرنا إليها – هذا المجلد الرائع الذى نقدمه الآن للناطقين بالإسبانية .

لا أدرى ما إذا كان بمقدور هذا السرد الخاطف لأوجه النشاط الطاغى للصديق الذى نبكيه توضيح حجم الخسارة التى منينا بها عند فقده ، إنه نشاط – دون الخوض فى الضائقة الاقتصادية التى لم يشكُ بروفنسال أبداً منها – « بلزاكى » (نسبة إلى بلزاك) : للنار المتقدة بداخله ، لفوضى الاحتدام الإبداعى الذى يتنافى مع الترتيب المنظم لمائدته وأوراقه ، وللكفاح المستمر البعيد عن التيارات الرسمية وإن كان لا يزدريها ..

من العجب العجاب أن يموت فى مثل هذه السن والشهرة دون أن ينال « الدكتوراه الفخرية » من أية جامعة أجنبية ، أو يكون عضوا بالمجمع الفرنسى .. كان يترك رجالات الصف الأول فى دولته والدول الأخرى ينادونه بـ « الأستاذ » ، لكنه لم يكن يسمح بها لواحد من تلاميذه الأوفياء لمنهجه ... كانت حياته مُغلَّفة بقدر غريب : لا أسميه دراما صاخبة بل ضيقاً دفيناً لم يتحدث عنه أبداً ، لكنه كان يظهر أحيانا فى شكل تكشيرة على فمه العريض ، وعندئذ كان شدقاه يغوصان فيبدو مثل رجل الدين البوذى الحزين .. كان خجله العجيب من معاناته الداخلية يكسوه بلحاء خارجى صلب ، وعندما انتزع الموت هذا اللحاء وألحقه بمن سبقه من الأهل رفرف عليه السلام وعادت أهازيج الطفولة ترنّ بعذوبة فوق جثمانه .

كان من المستحيل ألا نشْدَه بأعماله الجبارة وشخصيته القوية ، كما كان من العسير تفادى الإعجاب به . ونضيف - إحقاقًا للحق - أنه كان من الصعب أيضًا الوقوع فى حبه لأول وهلة ، وذلك لخشونته وتجهمه ودمدمته ولاعتراضه على أى شىء من البداية ، لكن هذا - كما أسلفنا القول - كان مجرد لحاء ... لم تكن صداقته مثل مياه النهر - الملوثة أحيانًا - التى تعرض نفسها لنظر كل عابر ، بل مثل ينبوع خفى يتدفق بين الصخور ، ومن أجل هذا ، من يتمكن من الوصول إلى مكان انبثاق العين والتنعم بنضارة مودتها الحقيقية يصبح صديقه إلى الأبد : فى حميمية تبزّ ما عداها. فى واحة الثقة كان « بروفنسال » يتحول ويتغير شكله : تجده حنونًا كريمًا ، بشوشًا ، طفوليًا (لدرجة لا تصدق) حيث يراه الآخرون قاسيًا وبخيلاً وعبوسًا ، لقد كان بالفعل طفلاً مدللاً ويائسًا فى آن واحد ، لكن شراهته للدعابة والعطف لم يكن لها حدود ، ومن أجل هذا لم يكن أنموذجه العطوف ينسجم مع القالب الاجتماعى الفرنسى ، بل يتسق - فى المقابل - اتساقًا مدهشًا مع عصارة الروح الأيبيرية .

لقد فرّ صولجان تاريخ إسبانيا العربى من « كوندى » (Conde) إلى « دوزى » (Dozy) ، ثم من « دوزى » إلى كوديرا (Codera) . وفى شُغُلنا، نحن « بنى كوديرا » ، باستعمار الأراضى الجديدة التى اكتشفها « ريبيرا » و « أسين بلاثيوس » غفلنا قليلاً عن ذلك الجزء من ميراثنا القديم فانتقل إلى « ليفى بروفنسال » .. ونود - اليوم - أن يتقدم فتى إسبانى ويعيد هذا الصولجان برفق وثبات إلى أرض الوطن بعد سحبه من تابوت العالم الفذ الذى دبّت على يديه الحياة ثانية فى حوليات إسبانيا الإسلامية وتقدمت تقدمًا مدهشًا لأكثر من ربع قرن ، من خلال أعمال تجلّ أرضنا ومحاطة بأسمى أيات التقدير العالمى .

إميليو جارثيا جومث

الجزء الأول

النُّظم والمؤسسات ، والحياة الاجتماعية والفكرية

بقلم المستشرق الفرنسى / ليڤى پروڤنسال

ترجمه إلى الإسبانية ، العلامة / إميليو جارثيا جومث

الفصل الأول

النَّسق السياسى للخلافة الأموية [1]

عناوين الفصل الأول : -

١ - الخصائص والسمات العامة للمؤسسات الأموية :

شحّة الوثائق المتاحة وعدم دقتها – « الواجهة الشرقية » للدولة القرطبية .

٢ - الحكومة المركزية :

العاهل – الشارات الرمزية للدولة ، ومراسم تنصيب العاهل – الحجابة وشرف الوزارة – الإدارة المركزية والأمانة العامة للدولة .

٣ - النظام المالى :

الخزانة العامة ومواردها – الضرائب بأنواعها المختلفة – احتكار سك العملة – الموارد أو المخصصات الملكية .

٤ - التنظيم الإقليمى :

الكُوَر أو الدوائر الإقليمية – الإدارات الإقليمية .

حواشى الفصل الأول

١ - الخصائص والسمات العامة للمؤسسات الأموية

شحّة الوثائق المتاحة وعدم دقتها : -

لو نظرنا إلى مجمل تاريخ إسبانيا الإسلامية لوجدنا أن القرن الخاص بالخلافة القرطبية يمثل نقطة ارتقاء تَبُزّ ما عداها ، ولا يرجع هذا فقط إلى ما يتميز به ذلك القرن من استقرار سياسي وازدهار مادى غير مسبوقين على أرض شبه الجزيرة منذ الفتح العربى ، بل - أيضًا - لفترة الشلل الطويلة التى فرضتها الهيمنة العربية الأموية على البواعث الهجومية للممالك المسيحية المتاخمة .

ولو أردنا ترسيم حدود دقيقة لتلك الفترة لبدأناها بتأسيس الخلافة على يد عبد الرحمن الثالث عام ٩٢٩ م (٣١٦ هـ) وختمناها بوفاة « حاجب القصر » الثانى ، العامرى : عبد الملك المظفر (١٠٠٨ م - ٣٢٩ هـ) ، إنه عصر يمكن تمثيله فى الرسم البيانى لحوليات الأندلس بالمنبسط العريض المسبوق بمنحنى بطيء صاعد ، والمتبوع - من بداية القرن الحادى عشر - بانحدار رأسي فجائى .

يبدو مناسبا ، بالتالى ، تبنى هذا الإطار الزمنى لعمل دراسة مستفيضة بعض الشيء للمؤسسات السياسية والهيكل الاجتماعى ، للحياة الاقتصادية والدينية والثقافية لإسبانيا الأموية ، انطلاقا من أن عصراً مترع الثمرات مثل هذا العصر لابد وأن يكون مناخا مناسبا للتبلور النهائى سواء فى نظم الحكم والطبقات الاجتماعية ، أو الاستثمار الأمثل للموارد الطبيعية للبلاد ، أو للتطور التجارى / الصناعى المكثف والتقدم الجلىّ فى شتى ميادين الفكر والأدب والفن .

إن الثمار المرجوّة من هذه الدراسة هى الدافع لتحبير الصفحات التالية ، لكن علينا تحذير القارىء مقدمًا من أن اقتصارنا - عن عمد - فى هذه المهمة على دائرة تاريخية مغلقة بشدة وصرامة يجعلنا عرضة للتوصل إلى نتائج قصيرة المدى ، وإن انتفت عنها صفة السلبية المطلقة ، ومن ثَم يجب التنويه إلى أننا سنضطر للانفلات - فى كل آن - من المسطح الزمنى للقرن العاشر والتعريج على شواهد سابقة أو أخرى لاحقة (على وجه الخصوص) فى محاولة للتعويض - بقدر المستطاع - عن جفاف المصادر التاريخية المثير للأسى .

من الثابت أن المؤرخين العرب لا يلقون بالا للوصف التفصيلي لدور و «ميكانيزم » الخدمات العامة في الدول الإسلامية ، وبالرغم من أن المصادفة البحتة قد تقودنا - ذات يوم حسن الطالع - للعثور على الأعمال الكاملة لمشاهير مؤرخي سلالة قرطبة الأموية (الرّازى أو ابن حيان ، مثلاً) إلا أننا لن نجد بها ما ينقع الغلّة من معلومات متماسكة حول تنظيم دولة الخلافة وتطور النظام السياسى الأموى ، مما يحول فى النهاية دون إعداد وصف موجز يمكن مقارنته بالمحاولات الناجحة لحقب متزامنة أو لاحقة فى تاريخ الشرق الإسلامي خلال العصر الوسيط ، إن أعمال المؤرخين الغربيين - بما فيهم أولئك الذين يستحقون وافر الثناء والتقدير - لا تزودنا إلا ببعض الإشارات الجافة حول طبيعة وأداء الخدمات العامة خلال فترة تاريخية محددة ، صحيح أن كافة المدونات التاريخية تسلط الضوء باستمرار على شخصية العاهل المحورية ، وتموج بألقاب ووظائف جمهرة من رجالات الحكومة ، إلا أنها لا تعمد أبداً إلى التحديد الواضح لدوائر اختصاصهم ولطبيعة المهام المنوطة بهم ، وعلاوة على هذه الفاقة الوثائقية فإن تذبذب المصطلحات [٢] وعدم ثباتها فى معظم الأحيان يزيد الطين بلة : فهنا وهناك - خلال السرد - تصدر مسميات يُراد بها وظيفة أو منصب إدارى أو مالى ، دون أن يسمح لنا السياق مطلقًا بالتحديد الدقيق لأبعاده ومراميه ، ومع كل هذا فليس أمامنا من سبيل سوى الاستعانة الفطنة بتلك الشذرات المعلوماتية المبثوثة كيفما اتفق فى الحوليات العربية ، لأنها - وبرغم شحتها - تعتبر الوحيدة تقريبًا التى تعكس الواقع الفعلى للأشياء وتبتعد - بالتالي - عن الحدس والافتراضات المحضة .

قد يبدو من قبيل التكرار الإشارة هنا إلى معلومة معروفة مفادها أن العيب الجوهرى فى بعض الأعمال التاريخية القديمة - نوعًا ما - التى تتناول أسس الحقوق العامة فى الإسلام [٣] يكمن فى محاولاتها تقديم صورة مثالية للحكومة فى الدولة الإسلامية بدلاً من وصف نظامها الحقيقى ، وفيما يخص شبه الجزيرة إيبيريا ، فقد قُدّر علينا الانتظار حتى نهاية العصر الوسيط لكي يشرع كاتبان مغربيان شهيران (ابن سعيد وابن خلدون) فى رسم لوحة مجملة للبُنى التحتية المختلفة للدولة القرطبية فى عصر الخلافة ، وقد قام المؤلف الأول بعمل هذا ، لكن بشكل موجز للغاية ودون توخى الدقة بالنسبة للفواصل الزمنية ، أما الأخبار التى يسوقها لنا ابن خلدون فى « المقدمة » الذائعة الصيت لتاريخه العام أو « كتاب العبر » فهى أيضًا لا تستحق

ثقتنا الكاملة لافتقارها إلى الدقة فى معظم الأحيان ، هذا لأن المصطلحات الخاصة بالمؤسسات القرطبية خلال القرن العاشر لم تكن مألوفة - بعد مرور أربعة قرون - لدى السياسى المغربى الكبير الأكثر علماً وإحاطة بالنظم الحكومية المعمول بها أيامه فى الممالك الإسلامية فى الغرب والتى لحقها التحوير نتيجة للتغييرات التى أحدثها الموحدون - فى نهاية القرن الثانى عشر - بنظم الدولة الأموية .

" الواجهة الشرقية " للدولة القرطبية : -

بالرغم من أن شحة المصادر التى لدينا وعدم دقتها يعوقان استجلاء كنه تفاصيل النّسق السياسى للخلافة الأموية ، إلا أن ما نعرفه يُعد كافياً لسوْق الملاحظة التالية : إن ذلك النّسق لم يكن نتيجة لمبادرة نبعت من أمير المؤمنين الأول : عبد الرحمن الثالث (وهو الاعتقاد الخاطىء الذى ظل سائداً حتى وقت قريب) ؛ بل كان - بالرغم من أن العداوة القديمة كانت ما تزال تفصل فى القرن العاشر بين بغداد وقرطبة - مجرد نقل للنظام السياسى لخلافة الشرق العباسية ، صحيح أن هذا النقل قد خضع للتعديل فى بعض الجوانب المحددة ليتكيف مع الأطر البشرية والجغرافية الجديدة ، إلا أنه كان بوجه عام نسخاً وفياً لا شية فيه ، وهاتان الحقيقتان - المرتبطتان ارتباطاً وثيقاً - قد عززهما مؤخراً الجزء المكتشف من « المقتبس » (لابن حيان) والذى يغطى فترة ولاية الأميرين الأمويين : الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى .

وكما رأينا من قبل(٤) ، فإن الأمير عبد الرحمن الثانى هو الذى قام بإدخال النظام الإدارى المتبع وقتها فى الدولة العباسية إلى إمارته الأندلسية ، وبالطبع فإن هذا النظام لم يحل فجأة محل النظام السياسى السابق للإمارة القرطبية والمنقول بحذافيره من امبراطورية دمشق الأموية ، وأغلب الظن أن تبنى هذا النظام قد تم بالتدريج : ربما يكون الحكم الأول هو الذى بدأه وسار على نهجه بعد ذلك عبد الرحمن الثانى ثم الأمير محمد الأول ، على أى حال ، فإننا لو نحيناً جانبا عبد الرحمن الداخل (لأنه مؤسس الحكم المروانى ولديه كل ما يمكن تخيله من الأسباب والدوافع التى تجعله - فى منفاه الذى حوله إلى مملكة - المحافظ الوفى على « التقاليد السورية » ، والخصم اللدود للخلفاء الذين اغتصبوا عرش الخلافة من ذويه) لأمكننا القطع بأن أمراء قرطبة كانوا - طيلة القرن التاسع - على علم تام بنظم الحكومة العباسية - المنسوخة حرفياً بواسطة إمارة الأغالبة الإفريقية القريبة جداً من إسبانيا (٥) - وأنهم استلهموها فى إصلاحاتهم الإدارية المتباعدة ، التى قد لا يقدر لنا أبداً الوقوف على دقائقها وتفصيلاتها .

وعلى خلاف ما تقدم فنحن نعلم الكثير عن المؤسسات السياسية للامبراطورية العباسية ، خاصة في عهود خلفائها الكبار ، وكما هو معروف ، فتلك المؤسسات تنضح بالصبغة الإيرانية ، ذلك لأن العباسيين عندما أرادوا إحداث تغييرات شاملة في الامبراطورية السورية التي آلت إليهم ، لم يجدوا أفضل من الفرس الذين ساعدوهم كثيراً في رفع قواعد دولتهم الجديدة ، وعلى هذا ، فإن الهيكل الحربي القديم - الذي كان تماسكه عُرضَة للانفراط الدائم من جرّاء الخصومات بين العشائر العربية - قد تحول الآن إلى امبرطورية ليبرالية يضطلع فيها الانتشار السريع للغة القرآن ، وسموّ العقيدة الإسلامية وتطبيق قواعدها الاجتماعية على المسلمين الجدد بمهمة الحفاظ على وحدتها .

ومما لاشك فيه أن تفشي المقومات التأسيسية الفارسية [٦] في أوصال هذه الدولة المترامية الأطراف قد أدى إلى توارى طابعها « العربي » الخالص ، وإلى إبراز صفتها « الشرقية » ، إن الاقتباسات التي لا تحصى من الحضارة الساسانية تظهر بجلاء على قصر الخلافة وعلى حاشية العاهل .

أما بيزنطة (مستودع تراث الامبراطورية الرومانية) فقد اضطلعت هي الأخرى بدور فعّال ؛ قد تنتفي عنه صفة المباشرة الصريحة إلا أن آثاره واضحة للعيان ، وعما قريب ، وفي دورة طويلة وفريدة ، سيقوم هذا الحضور التراثي لامبراطوريتي الأكاسرة والقياصرة في الدولة العباسية بالإعلان عن نفسه ثانية في الطرف الغربي للعالم الإسلامي .

لابد أن المملكة الأموية في الأندلس قد تمكنت من مراقبة التسلل المستمر لهذه التأثيرات البعيدة التي تنضح بها واجهة الامبراطورية الشرقية المنتصبة على الطرف الآخر للبحر الأبيض المتوسط ، ولم يعوقها نسيجها البشري المعقد ، ولا جغرافيتها ، ولا شدة قربها من المسيحية الأيبيرية والفرنجية ، من تبنى جوهر المستحدثات السياسية لخلفاء بغداد ، أو السير على نهجهم في التخفُّف من بعض التشريعات الإسلامية النظرية التي تستعصي على التطبيق نظراً لصرامتها الشديدة ، وعلى خلاف هذا ، لم يعمد أمراء وخلفاء قرطبة إلى الأخذ بشيء من المقومات التأسيسية ، التي كانت سارية المفعول في إسبانيا القوطية وقت دخول الغزاة المسلمين ، اللهم - وحتى على هذا لا يوجد دليل قاطع - إلا فيما يخص بعض قواعد الأحوال الشخصية

لتطبيقها على المستعربين ، والنظام الخاص بملكية العقارات . وفي المقابل ، كانت الممالك المسيحية فى شبه جزيرة أيبيريا هى التى قامت بالنقل المتنامى للعديد من الأسس والنظم السياسية لملكة الأندلس ، وعندما اتضحت معالم « حرب الاسترداد » تسربت المسميات العربية لهذه البُنى التأسيسية ومسميات وظائف القائمين عليها إلى القاموس الإدارى لكل من قشتالة و« رغون » ، ويكفى أن نشير بإيجاز إلى أن المصطلحات الإدارية والضرائبية فى العصر الوسيط كانت مجرد نسخ أو تحريف - باللغة الرومانثية (الأعجمية) - للمصطلحات العربية ، ومن فوق قنطرة إسبانيا الإسلامية عبرت جبال البرانس (من خلال الممالك المسيحية الإيبيرية) مجموعة من المقومات التأسيسية المتعلقة بشئون الدولة - وبخاصة تلك التى تتصل بوظائف قصر الحكم ، ذات الأصل الفارسى الساسانى الواردة من بغداد - ووصلت إلى غرب أوربا وظل بعضها فيه حتى العصر الحديث .

٢ - الحكومة المركزية

العاهل : -

بإمكاننا الحديث - تحت هذا العنوان - عن الحياة اليومية للخليفة فى مقره بقرطبة ، أو فى قصره المنيف بمدينة الزهراء ، عن « البروتوكول » الصارم المعقد الذى يتحكم فى أدق تفاصيل نشاط الخليفة الرسمى ، عن المجالس وحفلات الاستقبال الخاضعة للبروتوكلات التى تطبق بعناية على الشرائح الاجتماعية المختلفة من رعايا المملكة والمماثلة للمعمول به فى بلاط بغداد وبيزنطة ، لقد أصبح الأموى الإسبانى فى القرن العاشر أشد تشبها بالخليفة العباسى منه إلى صورة أسلافه السوريين ، أصحاب السجايا والخلال الحميدة ، الأوفياء فى بعض المظاهر لعروبتهم ، البسطاء فى أغلب الأحوال والأسريون أحياناً ، ومنذ اليوم الأول الذى تجاسر فيه عبد الرحمن الثالث على التلقب « بأمير المؤمنين » وهو على وعى تام بضرورة إحاطة جميع أنشطته العامة بهالة من الجلال والوقار ، صحيح أن أسلافه - ربما باستثناء جده عبد الله - كانوا قد تخلوا منذ زمن عن الظهور المستمر أمام رعاياهم ، وكانوا يحيطون أنفسهم كل مرة يظهرون فيها بهالة من الأبهة والفخامة ، لكن بعد التحول إلى خليفة ، غدا العاهل الأندلسى يقود جماهير شعبه من عَلُ باعتباره إمامها : أى الموجه الأعلى لضميرها ، والمسئول فى جميع أرجاء المملكة عن الحفاظ على سلامة ووحدة القانون المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية طبقاً لصيغة التفسير المالكى الصارمة ، على عاتقه ، قبل أى إنسان آخر ، تقع مسئولية تطبيق الوصفة السحرية التى تضبط إيقاع سلوكيات وتصرفات المجتمع الإسلامى : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » . كان عاهلاً مستبداً ، مطلق السلطات ، يقرر كل شىء بنفسه ، وعلى هواه ، إذا تنازل وفوض بعض كبار الموظفين فى ممارسة جزء من سلطاته ، لا يحاسبهم عليها أحد غيره ، وبإمكانه عزلهم وقتما يشاء ، دون أن يكون لهم الحق فى الدفاع عن أنفسهم ، يهب الحياة ويقضى بالموت ، وكأنه يمتلك مصائر الجميع ، زعيم دينى ودنيوى بكل ما تتسع له هذه الكلمات من معان ؛ يؤم - فى البداية - صلاة الجمعة ؛ يصدر الأحكام النهائية التى لا رجعة فيها ، يسك النقود باسمه ؛ يتحكم فى الإنفاق العام ويوجهه حيثما أراد ، لا توجد قاعدة ما يمكن أن تخفف من تعسفه المحتمل فى ممارسة

السلطة ، ليس له من ضابط سوى القانون المكلف هو بتطبيقه ، والذى يملى عليه تجنب الظلم ونشر العدل بين رعاياه دون تمييز بينهم ؛ وفى حالة صدور قرارات جائرة يسمح هذا القانون للرأى العام بالتدخل - من خلال رجال الدين فى حاشيته - وتوجيهه إلى جادة الصواب .

كان الخليفة هو القائد العام لقواته ؛ من يتولى - خاصة فى البداية - قيادة جيوشه فى المعارك ؛ من يعنى شخصيًا بإعداد الصوائف ؛ من يضع خطة العمليات الحربية ، كان يقود السياسة الخارجية ، ويختار مندوبى وأعضاء سفاراته ، ويستقبل فى أبهة وفخامة الحاملين للرسائل أو الهدايا من الملوك الكبار أو الصغار ، سواء كانوا من العالم الإسلامى أو المسيحى ، ينفق الأموال الطائلة لإعاشة بيته ، وعلى علم تام بإيرادات الخزانة العامة وإيرادات أملاكه الخاصة ، وللاضطلاع بهذه المهام الجسام بدقة وتفان - مثلما فعل عبد الرحمن (الناصر) - كان عليه التخلى عن التمتع بحياته والتحول إلى حركة دائبة - حتى ولو لم يكن على رأس إحدى الحملات فى ثغر من ثغوره البعيدة - ، وأن يضرب صفحًا - بالتالى - عن تزكية الروح أو الترويح عن النفس . وإذا كان عاهلاً مثل الحكم الثانى قد استطاع أن يوفر لنفسه الوقت الكافى للتأمل والدراسة فقد كان هذا لأنه عندما اعتلى العرش وجد الماكينة الإدارية تعمل بكفاءة ودون معوقات ، ولأنه - من جهة أخرى - اعتقد أن بإمكانه تكليف أحد الثقات (خاصة وزير الدولة) بأداء بعض مهامه ، دون أن يتخيل أن مثل هذا التفويض سيصبح أحد الأسباب الرئيسية لزوال مُلك عائلته .

بالفعل ، رأينا كيف انتقلت بعد الحكم الثانى معظم الاختصاصات الملكية ليد المنصور بن أبى عامر ، الذى لم يكتف بموقعه كحاجب أول القصر ، واستطاع فى بضع سنوات (دون رد فعل من الشعب الذى سرعان ما تحول ذعره فى البداية - نتيجة للقمع العنيف لأية باردة احتجاج تصدر منه - إلى فتنة بمواهب الرجل السياسية وانتصاراته الحربية المدوية) تجريد الخليفة الأندلسى من كل سلطاته ، لم يترك المنصور للعاجز هشام الثانى سوى لقب « أمير المؤمنين » ، وإمهار المراسيم الملكية المُمْلاة عليه بتوقيعه وخاتمه ، والدعاء له على منابر المساجد الكبرى فى خطبة الجمعة ، وبهذا الشكل ظلت واجهة الملكية الأموية محترمة ، وبالرغم من أنه كان الحاكم الفعلى ويمارس السلطة على هواه إلا أن اللقب الذى ارتضاه لنفسه كان يقل

درجة عن اللقب الرسمي للأمير ، وعلى صعيد الهيمنة الروحية (الدينية) فعل الشيء نفسه عندما جعل اسمه يأتي تاليًا لاسم المرواني في دعوات وابتهالات الوعاظ والأئمة ، لم يخدش الوضع الاستثنائي الذي ابتدعه « حاجب القصر » العامري الهيكل الإداري للمملكة : إذ ظل سلّم المواقع والوظائف دون مساس ؛ وظلت مكاتب الحكومة المركزية – التي انتقلت بكاملها تقريبًا إلى « الزاهرة » – تعمل كما كانت من قبل ، أو ربما بكفاءة أعلى تحت الإدارة الشخصية والمراقبة الدؤوب لمن استطاع (وفي هذا يعتبر ندًا لعبد الرحمن الثالث) أن يقود إسبانيا المسلمة إلى أسمى الآفاق ، ولمن كان أهلاً – لو اعتلى ذات يوم قمة السلطة – لحمل اللقب المهيب : « ملك كريم » ، وإن كان قد تسلح بالشجاعة واستباحه لنفسه ، بيد أنه جعله تاليًا لجلال الخلافة التي ظلت محتفظة بشكلها الخارجي .

*** الشارات الرمزية للدولة ، ومراسم تنصيب العاهل : –**

يعتبر من قبيل الخروج عن الموضوع لو تطرقنا الآن لعرض الميزات المختلفة للمُلك في العالم الإسلامي خلال الفترة التي نحن بصددها ، تكفي الإشارة إلى أن مملكة الأندلس لم تطمح إلى التفرد في هذا المجال ، كانت الشّارات الرمزية للدولة الأندلسية – حتى منتصف القرن العاشر ، على الأقل – مطابقة لمثيلاتها في الامبراطورية الأموية بالمشرق ، أي أنها كانت متواضعة للغاية ، لكن بعد تأسيس الخلافة على يد عبد الرحمن الناصر بدأت تظهر أصداء البروتوكول العباسي في الأمانة العامة للدولة ، لدرجة أنها تغلغلت في أدق تفاصيل تشريفات البلاط الأموي ، ويشهد بذلك الملف الذي أعده المؤرخ « عيسى الرّازي » (واحتفظ به ابن حيان) ويغطي ثلاث سنوات من عهد الحكم الثاني ، كان من الضروري انتظار المناسبات الاستثنائية – علاوة على الاحتفالات الدينية الموسمية المرتبطة بالتقويم الهجري – لكي تعلن كل مظاهر الأبهة والعظمة في مقر العاهل بالعاصمة أو في مدينة الزهراء عن نفسها ، ولتتمكن العامة في قرطبة من الافتتان بتأمل العُروض التي لا تنتهي ، والمواكب الفاخرة التي ترافق الأمراء والسفراء المسلمين والمسيحيين (٧) حتى مجلس الخليفة .

أما « التاج » (الشارة الرفيعة السامية لملوك إسبانيا المسيحية في القرن العاشر باستثناء مملكة ليون) فلم يكن له وجود في قرطبة المروانية (٨) ، وفي المقابل ، وعلى

غرار خلفاء بغداد ، فإن العاهل الأندلسي كان يجلس – أثناء حفلات الاستقبال المهيبة – على العرش (الكرسي) ويمسك بيده صولجانًا (عبارة عن عصا طويلة من الخيزران معقوفة الطرف) [٩] .

وعلى هذه الهيئة أخذ الحكم الثاني البيعة من « الخاصّة » عندما تولى مقاليد السلطة في ١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م (٣ رمضان ٣٥٠ هـ) . يبدو أن هذا التقليد كان من ابتداع الخليفة القرطبي الثاني ، ذلك لأن والده لم يلجأ إليه حتى في أواخر عهده ، ربما لأنه آثر الابتعاد عن مشقة الجلوس منحنيًا على الكرسي المُطهَّم طيلة وقت انعقاد المجلس ، لدينا – على الأقل – في هذا الخصوص دليل حاسم تركه لنا كاتب التراجم « خوان دي جورثي » (Juan de Gorze) : عندما جاء رئيس دير « لورينا » موفدًا من قبل الامبراطور « أوتون الكبير » (Otón el Grande) استقبله عبد الرحمن الثالث (في ٢١ يونيو ٩٥٦ م) وهو شبه متمدد على أريكة ، ذلك لأن – يوضح النص – ملوك قرطبة « لا يستخدمون ، مثل بقية الشعوب ، عروشًا ولا كراسي ، بل أسرّة أو حشايا يجلسون عليها واضعين ساقًا على ساق لكي يتجاذبوا أطراف الحديث أو لتناول الطعام » [١٠] .

وطبقًا للمؤرخين المسلمين فإن علامة المُلك الحقيقية يمثلها – دون منازع – الخاتم الملكي : خاتم من الذهب الخالص منقوش عليه شعار العاهل المتمثل في جملة موجزة (كانت معروفة لدى معظم أمراء بني أمية السابقين واستخدمها الخليفة الأول والثاني) تقول كلماتها : « عبد الرحمن (أو الحكم) بقضاء الله راض » ؛ أما الخليفة الثالث فقد حوّرها لتصبح : « هشام بن الحكم بالله يعتصم » [١١] ، كان الشعار ذاته مطبوعًا على الرايات التي تسلم للقادة عند خروجهم للقتال على رأس الحملات الحربية ، كما كان موجودًا – دون شك – على حواشي الأقمشة المزركشة التي تنسجها دار الصناعة الملكية ، وفي هذا أيضًا كانت قرطبة تسير على نهج دمشق وبغداد .

ومن صميم التقاليد الشرقية أيضًا مراسم أخذ البيعة [١٢] ، التي كانت تتم في قرطبة خلال القرن التاسع والعاشر ، بهدف تقديم الطاعة والولاء للعاهل عند تنصيبه ، وأحيانًا لولي العهد عندما يتم تعيينه [١٣] ، أعدّ لنا المؤرخون تقارير ضافية عن الاحتفالات الرسمية أثناء عصر الخلافة في الأندلس ، وخاصة ما يتعلق منها بتنصيب

الحكم الثاني وهشام الثاني ، وهذه التقارير ذات أهمية بالغة لأنها تتضمن أسماء الشرائح الاجتماعية (الطبقات) التي كانت تحتل مكان الصدارة في مراسم تقديم الولاء للعاهل الجديد (١٤) .

وتقديم الطبقة الأرستقراطية (الخاصة) لفروض الولاء والطاعة كان يتم داخل إحدى صالات الاستقبال بالقصر ، وبصفة شخصية (دون إنابة) ، وطبقًا لبروتوكول صارم أعد سلفًا ، أما « بيعة العامة » التي تستمر بعد ذلك عدة أيام في العاصمة وعواصم الأقاليم (الكُوَر) المختلفة ، فكانت على هذا النحو : يفوض العاهل عدداً من الموظفين والقضاة لأخذ البيعة من العامة نيابة عنه ، ثم يجتمع هؤلاء في المساجد الكبرى المنتشرة في جميع أرجاء المملكة لتلقى فروض الطاعة من طوائف الشعب (سكان المدن ، القرى ، المزارع والضياع ... ألخ) وصيغة القسم وكيفيته كانت مأخوذة أيضًا – بالنسبة للخاصة ، على الأقل – من التقاليد الشرقية : إذ كان المبايع يضع يده على راحة المبايَع قائلاً له « أقسم بالله العظيم ، الواحد الأحد ، على الولاء والطاعة لك فيما يوافق شرع الله وسنة نبيه ، وأن أحافظ على هذا العهد بكل ما أوتيت من قوة » (١٥) .

وهناك ميزة أخرى للعاهل تتمثل في ذكر اسمه وألقابه الرسمية والدعاء له على المنابر في خطبة الجمعة ، ولن نتوقف كثيراً عند هذه النقطة لأننا تطرقنا إليها من قبل (١٦) ، تكفي التذكرة بأنه حتى اللحظة التي قطع فيها عبد الرحمن الثالث كل الصلات ببغداد باتخاذه لقب « أمير المؤمنين » لم يكن قد دار بخلد الناصر ولا بخلد المروانيين السابقين منع الوعاظ والخطباء من الدعاء على المنابر للحكام العباسين باعتبارهم الخلفاء الشرعيين الوحيدين في العالم الإسلامي ، ومنذ عام ٩٢٩ م (٣١٦ هـ) حتى سقوط الدولة الأموية – دون استثناء زمن الديكتاتور العامري – تحول الدعاء في خطبة الجمعة إلى المرواني الحاكم في قرطبة ، وظل الأمر هكذا حتى استولى المرابطون على الأندلس ، وعندما حولوا الدعاء ثانية – وإن كان لبعض الوقت – لصالح خلفاء الشرق.

الحجابة وشرف الوزارة : –

عندما لم يكن هناك سوى منصب واحد ، فإن وزير الدولة كان يطلق عليه في الأندلس لقب « حاجب » (١٧) وهو يساوي لقب « وزير » في البلاط العباسي (١٨) ، كان

هذا المنصب [١٩] يعتبر – بالإضافة إلى منصب قاضى الجماعة (قاضى القضاة) – من أرفع المناصب بالمملكة ، ومثل الوزير فى الشرق ، فإن « الحاجب » الأندلسى كان ينوب عن الأمير فى ممارسة السلطة ، ويتولى رئاسة الإدارة المركزية والحربية والإقليمية ، لقد كان – باختصار – شخصية غاية فى الأهمية ، يتلقى من العاهل راتباً كبيراً علاوة على الهبات والمنح العقارية ، كانت مسئولية الأمن العام تقع على عاتقه ، ولهذا الغرض كان لديه حشد كبير من الجواسيس ورجال الأمن ، يلتقى بالعاهل يومياً ليقدم له التقارير ، ومن النادر أن يتولى بنفسه – خلال فترة الخلافة ، وباستثناء حالة « العامريين » – قيادة إحدى الصوائف المتجهة إلى أرض الأعداء فى حين أن هذا كان من الأمور الشائعة فى عهود الأمراء الأمويين .

والآن يحق لنا التساؤل : لماذا حمل وزير الدولة فى إسبانيا لقب « حاجب » بينما كان اسمه فى بقية الدول الإسلامية Chambelán الأمير ؟ صحيح أن اللقب الأخير كان يشير إلى رفعة مقام صاحبه ، لكنه لا يحمل فى طياته أدنى مدلول للتفويض فى السلطة ، يبدو أن السبب يكمن فى أن لقب الوزير لم يكن يستخدم فى تقاليد البلاط الأموى القديمة لتحديد مهام منصب معين ، بل للإشارة إلى صفتى الرفعة والشرف اللتين يتحلى بهما شخص ما ، ومن البديهى أن « الحاجب » كان واحدا من مجموعة الوزراء ، لكنه كان الأقرب منهم جميعاً إلى العاهل .

قام ابن سعيد وابن خلدون بتحديد صفة منصب « الحاجب » فى إسبانيا الأموية بدقة متناهية ، وطبقاً للمؤرخ الأول [٢٠] فإن الأمير القرطبى فى القرن العاشر كان يمنح لقب « وزير » لعدد من الأشخاص يختارهم ليكونوا « معاونين » و « مستشارين » له ، وكان يُفرد من بينهم واحداً يرأسهم ولينوب عنه إذا اقتضى الأمر ؛ هذا الواحد كان يطلق عليه فى إسبانيا « حاجب » وفى الشرق « وزير » ، أما ابن خلدون [٢١] فقد أوضح بجلاء هذا المدلول القرطبى الخاص قائلاً : « أما دولة بنى أمية فى الأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر فى أحوال الثغور وزيراً ، وجُعل لهم بيت يجلسون فيه على فُرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كُلٌ فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب » [٢٢] .

لا يتفق المؤرخون الأقدمون مع ابن خلدون فى تصنيفه السالف لوزراء الخلافة القرطبية ، ولا فى وصفه لطبيعة أعمالهم ؛ ويبدو أن صاحب « كتاب العبر » قد مال – مرة أخرى – لنزعة التعميم العارية عن البراهين الثابتة ، كما أنه لم يسلم من الخطأ ثانية عندما أعلن بعد قليل من كلامه السابق عن بقاء هذا النظام حتى زوال الدولة الأموية ، فى حين أن المدونات التاريخية تنطق بخلاف هذا ، فبمجرد الاطلاع على تلك المدونات التاريخية نعرف أنه في نهاية القرن التاسع وبداية العاشر لم يكن هناك « حاجب » بهذه المواصفات ، لأن الأمير عبد الله بعد تعيينه لوزيرين للدولة ألغى الوظيفة إلى أن قام عبد الرحمن الثالث بإعادتها بعد ذلك (٢٣) ، كان لعبد الرحمن الثالث « حاجبان » : بدر بن موسى ، ثم موسى بن حُضير (Hudair) ؛ ولما مات الأخير (عام ٩٣٢ م – ٣٢٠ هـ) لم يعين خلفًا له وظل دون حاجب حتى نهاية عهده ، أما الحكم الثانى فقد اتخذ منذ توليه السلطة القائد « جعفر الصقلبى » وزيراً للدولة ، وعندما مات الصقلبى حل محله « جعفر المصحفي » الذى ظل محتفظًا بالحجابة إلى أن أخذها منه محمد بن أبى عامر .

وعندما اتخذ المنصور لقب السلطان جعل ابنه عبد الملك (المظفر) حاجبًا ، وبقى اللقب ملازمًا له بعد وفاة والده ، لقد كان للقب « الحاجب » شأن جليل فى إسبانيا لدرجة أن عدداً من ملوك الطوائف الأول فضلوه على لقب الملك أو السلطان واهتموا بنقشه على عُملاتهم وإثباته فى بروتوكولاتهم (٢٤) .

وفى مقابل هذا ، يبدو أن لقب « وزير » قد فقد بريقه بسرعة ، خاصة عندما تحول في القرن العاشر والثانى عشر إلى مجرد درجة وظيفية عالية ، فمنذ نهاية القرن العاشر كانت السلالة الحاكمة – كما فى حالة الديكتاتور العامرى – تتوسع فى منحه لمن تريد تشريفهم أو إدخال البهجة عليهم ؛ لكن علينا ألا ننسى الهوان الذى لحق بهذا اللقب عندما منحته قرطبة للزعيم « الزيرى بن عطية »(٢٥) . يبدو أن الترقى لدرجة الوزارة لم يكن يعنى بالضرورة ترك صاحبها لمنصبه السابق ، بل صعوده إلى درجة أعلى فى السلّم الاجتماعى والتمتع براتب معين (رزْق) مدى الحياة ، وهذا الراتب الذى يمكن أن يكون صاحبه موظفًا أو قائدًا أو مجرد قاض (٢٦) يفوق ما يتلقاه بقية موظفى الدولة ، لكنه لا يصل إلى ما يتقاضاه الحاجب ، ولو أراد الخليفة تمييز واحد من بين مجموعة الوزراء ، فإنه يعمد إلى مضاعفة راتبه الأبدى وليتحول لقبه ، بالتالى ، إلى « ذى الوزارتين » .

وهذا اللقب « ذو الوزارتين » كان معروفًا في الشرق ويحمله أصحاب المقام الرفيع من العباسيين عندما منحه عبد الرحمن الثالث عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) – ولأول مرة في إسبانيا – لأحد خلصائه المقربين ، ونعني به أحمد بن شهيد ، الرجل الواسع الثراء الذي قَدَّم للخليفة سلسلة طويلة من الهدايا الثمينة التي احتفظ لنا المؤرخون بقوائمها التفصيلية (٢٧) ، وطبقًا لبيانات هؤلاء المؤرخين فإن الناصر ضاعف عندئذ لابن شهيد راتب الوزير الذي كان يصل أيامها إلى ٨٠ ألف دينار (وهو على ما يبدو رقم مبالغ فيه) (٢٨) ، على أي حال ، فمن قبيل المؤكد أن أصحاب « الوزارتين » – وهم كثيرون دون حساب العامريين – لم يكونوا ، على خلاف ما يُعتقد أحيانًا كثيرة ، يُخاطبون بهذا اللقب نظرًا لأن مهمتهم كانت تتمثل في الإشراف على العديد من الوظائف الحربية والمدنية العليا في آن واحد ، وبعد ذلك بوقت طويل – وبالتحديد أيام الناصريين في غرناطة – أصبح اللقب يطلق على القائم بعمل محدد داخل الحكومة ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت توجد ألقاب أخرى كثيرة تعني « الازدواجية » ، ولكنها كانت جميعًا تشريفية مثل : ذو السيفين » (الذي خلعه الحكم الثاني على القائد « غالب » بعد انتصاره على الإدريسيين في المغرب) ، « ذو المجدين » ، « ذو السيادتين أو ذو الرياستين » والتي سنراها عما قريب ماثلة في بروتوكولات بعض ملوك الطوائف الأندلسيين (٢٩) .

الإدارة المركزية والأمانة العامة للدولة : –

في العهود الأموية كانت تعمل تحت سلطة العاهل وتوجيهه – أو « الحاجب » عندما يتكرم الخليفة ويفوضه في جزء منها – إدارة مركزية تتكفل بحسن سير الشئون المدنية والمالية ، وبالطبع ، فإن تلك الإدارة (خدمة الخلافة) يلزمها تجنيد عدد كبير من الموظفين لكي تنهض بما عليها من أعباء ، وهي في مجملها لا تختلف – على بعد المسافة – اختلافًا جوهريًا عن مثيلتها في الامبراطورية العباسية أو حتى البيزنطية ، وكان موظفوها يختارون من بين أصحاب المقامات الرفيعة في البلاط ويصنفون في درجات متفاوتة طبقًا لنظام مُحْكَم ، وللأمير الحق في فصلهم نهائيًا – بسبب أو بدونه – لتُسدل عليهم من جديد ، مؤقتًا أو للأبد ، ستائر النسيان .

وكما كان متبعًا في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط فإن الخدْمات المركزية للإدارة كانت تقع داخل حرم قصر الخلافة ، في الملحقات الشاسعة للقصر المطلّة على الرصيف ، في مواجهة الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير ، وكان يطلق على مُجَمَّع

المكاتب هذا « باب السُدَّة » [٣٠] . كان لبعض هذه المكاتب فروع في مدينة الزهراء ، لكنها انتقلت بكاملها بعد ذلك إلى مدينة الزاهرة (المقر الإدارى القصير الأمد للعامريين) .

نتعرف - من خلال ابن سعيد - على وصف مجمل للخدْمات المركزية لتلك الإدارة في القرن الثاني عشر ، والتي يطلق عليها « الكتابة » أو « سكرتارية الدولة » ، وطبقًا للمؤرخ المذكور [٣١] فإنها تتمثل فى مهمتين أساسيتين : المهمة العليا ، ويضطلع بها « كاتب الرسائل » أو « الكاتب » فحسب بالنسبة للأندلسيين الذين لم يكونوا يغفرون له أدنى هفوة في فن تدوين الرسائل ، ولذا لزم أن يكون ، هو ومعاونوه ، على دراية تامة به ؛ أما المهمة الأخرى فتخص إدارة المال العام ويضطلع بها « كاتب الزِّمام » ، وقد أطلق عليه هذا اللقب نظراً لطبيعة عمله المتمثلة فى تسجيل أو « زمام » الإيرادات والنفقات ؛ كما كان يطلق عليه أحيانًا « صاحب الأشغال الخراجية » .

لكن يبدو أن هذا الوصف المجمل لابن سعيد ينطبق ويتناسب أكثر مع الإدارة الأندلسية في عهد المرابطين عن عصر الخلافة الذى لابد وأن يكون « ميكانيزم » إدارته أشد تعقيداً ، وللتدليل على هذا تكفى مجرد إطلالة على قوائم التعيينات الموجودة بمدونة « عارب بن سعيد » التاريخية ، والتى تنطق - علاوة على هذا - بمسميات ومصطلحات مغايرة ، ومن تلك القوائم يتضح كذلك شيوع ودوام التغيير فى أصحاب المناصب العليا الذين كان يعمل تحت إمرتهم جيش من الموظفين المغمورين في وظائف متواضعة ، وهم وإن كانوا من طبقات اجتماعية غير بارزة إلا أنهم كانوا أكثر استمراراً وديمومة ، ولذا فقد تكفلوا بسير دولاب العمل في المصالح المختلفة وحافظوا على التقاليد الإدارية التى أدخلها أمراء بنى أمية الأول أو من سبقهم من حكام .

من الغوص في تلافيف علم التاريخ المعاصر يتبين لنا أن رئيس الأمانة العامة للخلافة القرطبية كان شخصية بالغة الأهمية ، له مثل ما للوزير من شرف وراتب ؛ وكان يحمل لقب « الكاتب » أو « صاحب الرسائل » ؛ وكانت له اختصاصات متعددة إلى أن قام عبد الرحمن الثالث فى أواخر عهده الطويل (عام ٩٥٥ م - ٣٤٤ هـ) بتقسيم المنصب مضيفًا إلى كل قسم من قسمى الأمانة العامة هيئة تفتيشية ، وبهذا الشكل أصبحت مكاتب الأمانة العامة للدولة تحت سلطة أربعة من « كبار الموظفين » ،

كل واحد منهم بدرجة وزير : الأول « جَهْوَر بن أبى عَبْدة » ، ومهمته فحص جميع الرسائل الواردة من موظفي الأقاليم ؛ الثاني ، « عيسى بن فطيس » ، ويختص برسائل ممثلي الحكومة في الثغور والقلاع الساحلية ؛ الثالث « عبد الرحمن الزّجالى » ، ومهمته متابعة تنفيذ قرارات العاهل الإدارية الصادرة في مراسيم ملكية ؛ والرابع ، « محمد بن حُضير » ، وكان يدرس الشكاوى التى تصل إلى القصر ويقوم – بعد التأكد من صحتها – باتخاذ التدابير اللازمة لحلها ، « وبهذا الشكل – ينهى المؤرخ حديثه عن الإصلاحات الإدارية للناصر [٣٢] – أصبح لمنصب كل واحد مهمة محددة ، وتوزع العمل بالقسطاس ، وقضيت مصالح العامة فى سهولة ويسر » .

وبالإضافة إلى خدْمات الأمانة العامة للدولة ، كان للعاهل سكرتير خاص (كاتب خاص) يملي عليه القرارات والردود التى يتعين إبلاغها لكبار موظفي الدولة ، سواء فى قرطبة أو عواصم الكُوَر أو الثغور ، هذه البيانات القصيرة (توقيعات) لم تكن سوى مسودات [٣٣] يقوم بعد ذلك محرر مختص (صاحب الإنشاء) بإعادة صياغتها – بأسلوب بليغ مثقل بشتي ضروب الزخارف اللفظية ، كما جرت العادة فى الأمانات العامة للدول الإسلامية شرقًا وغربيًا – وتحويلها إلى : «بطاقة » ، « رسالة » ، كتاب دورى (قونداق) [٣٤] ؛ أو إلى « صك » ، « منشور » ، « سجل » (تعيين) [٣٥] . كان استخدام السجع في النثر ، والإكثار من الاستشهادات والاقتباسات القرآنية والأدبية ، التوزيع المتناغم للنص – من أوله إلى آخره – إلى فقرات متساوية ، يعني سعة ثقافة الكتبة الإداريين وتمرسهم الطويل ، والنماذج الكثيرة التي وصلت إلينا من الوثائق البيروقراطية القرطبية فى القرن العاشر تجعلنا نجزم بأن فن تحرير الرسائل الأندلسى لم يكن يقل عن مثيله فى الشرق العربى خلال تلك الفترة ، بالرغم من أنه لم يبلغ قمة نضجه إلا فى القرن التالى ، أى فى عصر ملوك الطوائف .

لسوء الحظ لا يتوافر لدينا كتاب ولو صغير مخصص لرسائل الأمانة العامة أثناء فترة الخلافة نستطيع الوقوف من خلاله على التعريفات الدقيقة لمجموعة من المصطلحات الفنية ، التى كثيراً ما نحتار فى الاهتداء إلى معناها الصحيح ، وبالرغم من هذا سنشير إلى بعض قواعد فن تحرير الرسائل الرسمية وإلى عناية الأندلسيين بمادة كتابتها استناداً إلى ما ورد بإحدى فقرات رسالة دورية حررها باسم « عبد الملك المظفر » الكاتب الشهير « أحمد بن بُرد » [٣٦] ، وكانت

موجهة إلى المناصب المختلفة بالإدارة المركزية والإدارات الإقليمية بقصد التذكرة بالأوامر التى أصدرها المنصور بن أبى عامر قبل سنوات . تأمر هذه الفقرة ضباط الجيش ومحصلى الضرائب بأن يقوموا شخصياً بتدوين حالة الأرصدة وحسابات الصندوق وإرسال تلك الوثائق - مؤرخة ومرقمة بعناية - إلى مقر الحكومة بصفة دورية ، وأن أية رسالة ستستعصى على القراءة أو تُكتب بمداد ردىء أو على رقاع من نوعية سيئة فلن يلتفت إليها .

تساعدنا هذه النتف القصيرة على تخيل ما كانت عليه مكاتب قرطبة الإدارية وخدمات الأرشيف من نشاط وحركة دائبة ، وإن كنا لا نملك عنها خلال عصر الحكم الثانى سوى إشارات مبهمة ، فهذا الخليفة (البيروقراطى الذى لاتفوته شاردة ولا واردة) لابد وأن يكون هو الذى اعتنى منذ اعتلائه العرش بتحديد نظم وقواعد « الكتابة » القرطبية ، وبتوحيد شكل الوثائق التى تخرج من أمانة سر دولته ، والتى لم تصل إلينا منها وثيقة واحدة فى صورتها الأصلية .

لابد أن نظام الأمانة العامة للدولة الأموية قد استمر دون تغيير يذكر حتى نهاية العصر الوسيط ، ولابد أن المرابطين قد نقلوه إلى عاصمتهم مراكش ، وبعد ذلك قام الموحدون - المغرمون بالتجديد - بإحداث بعض التعديلات ، مثل : إضافة شعار أو علامة صلاحية (علامة) إلى كل وثيقة رسمية (وتتمثل فى آية قرآنية قصيرة مرسومة بخط معين [٢٧])، أو تحريم الاستعانة - نظرياً ، على الأقل - بكتبة يهود أو مسيحيين فى مكاتب الدولة ، وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن صغار موظفى قصر الحمراء الغرناطى كانوا يشبهون إلى حد كبير نظراءهم فى القصر القرطبى قبل خمسة قرون ، ولابد أن هؤلاء وأولئك قد تركوا بصماتهم على موظفى « المخزن » المغربى الذين ظلوا حتى وقت قريب يمارسون نشاطهم الروتينى تحت ظلال قصور الأشراف ، من شاهدهم وهم يعملون لابد وأن يدور بخلده شكل الأمانات العامة الأندلسية : صالات فسيحة ، أرضياتها مغطاة بالحُصر والملفات مكومّة إلى جوار الحائط ، وبداخلها بعض الكتبة جالسين القرفصاء أمام مكاتب منخفضة يطالعون السجلات أو يحررون - والقرطاس والقلم فى أيديهم - الرسائل والشهادات التى سيمهرها الملوك بعد ذلك بأختامهم [٢٨] .

ويتطلب وصول الأوراق الرسمية بسرعة إلى غايتها وجود الخدمات البريدية فى الدولة القرطبية لربط البلاط بعواصم الكُور المختلفة ، ومن المعروف أن الامبراطورية العباسية عرفت البريد [٢٩] عن طريق فارس الساسانية وبيزنطة ، وكلمة

« بريد» ليست عربية، ويبدو أنها مشتقة من الكلمة اللاتينية « بيريدوس» (Veredus) .
وقد كان البريد متقدمًا جدًا خلال ذلك العصر فى الشرق الإسلامى ، وخاصة فيما يتعلق بالمناوبة فى المسافات الطويلة وتجهيز المحطات على الطرق والحراسة المشددة للطرق التى يسلكها سُعاة البريد ، كانت وظيفة « صاحب البريد » فى غاية الأهمية ، ويتمتع صاحبها بهيبة كبيرة ، فبفضل موظفيه الكثيرين المنتشرين فى كافة الأقاليم - والذين يضطلعون فى نفس الوقت بدور الاستخبار - كان « صاحب البريد » يعرف جميع الأخبار ، ويتلقى المعلومات السرية الخطيرة والمؤثرة ، ولهذا السبب تحول إلى زعيم حقيقى لهؤلاء الموظفين ويبسط هيمنته المطلقة عليهم ، لا يبدو أن شيئًا من هذا قد حدث فى الخلافة الإسبانية ، خاصة وأننا لانعرف الكثير عن المكلف بالبريد (المسمى هنا بـ « صاحب البُرُد ») أو عن الخدمات التى كان يتولى أمرها [٤٠] ، وبالرغم من هذا ، توجد - على الأقل - إشارتان لهذا المنصب خلال القرن العاشر : الأولى تتعلق بقيام عبد الرحمن الثالث ، فور وصوله إلى السلطة ، بإسناده إلى « بدر » إضافة إلى عمله كحاجب ؛ والثانية ترجع لنهاية عهد الحكم الثانى عندما جمع القائد الصقلبى « فائق النظامى » بينه وبين منصب إدارة مصانع النسيج الملكية [٤١] ، ومن المرجح أن الرسائل كانت تنقل بواسطة سُعاة بريد يمتطون البغال وترافقهم مجموعة من الحراس ، أو بواسطة سودانيين سود ، وقد كانوا مشهورين فى إسبانيا بالتفانى فى العمل ويتحمل المسافات الطويلة سيرًا على الأقدام ، ومنذ القرن الحادى عشر فقط نجد أخبارًا تفيد باستخدام الحمام الزّاجل ، ويغلب الظن أن هذه الوسيلة كانت تستخدم فى الرسائل العاجلة [٤٢] ؛ ونعتقد أيضًا بوجود نظام الإشارات المرئية وخاصة على السواحل التى تنتشر بها أبراج المراقبة [٤٣] .

٣ - النظام المـــالى

الخزانة العامة ومواردها :

يمت النظام المـالى للدولة الأموية فى القرن العاشر أيضًا بصلة قرابة مباشرة للنظام المعاصر له فى دول الشرق الإسلامى [٤٤] ، لم يصل إلينا - للأسف - أى كتيب يمكن الاعتماد عليه لوصف هذا النظام فى الخلافة القرطبية ، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى فى مواجهة بيانات غريبة مبثوثة فى السَّرْد التاريخى ولكنها - بالرغم من قصرها واحتوائها على مصطلحات فنية يتعذر الوقوف ، فى معظم الأحيان ، على معناها المحدد - توضح بجلاء ، وفى هذا المجال أيضًا ، الهُوّة السحيقة التى تفصل بين الواقع وبين الصورة المثالية التى يرسمها المؤرخون العرب للدولة الإسلامية فى العصور الوسطى من خلال تهويماتهم النظرية .

لايتحدث علماء التاريخ الأندلسيون فى قوائمهم عن أصحاب المناصب العليا المعينين حديثًا إلا عن شريحة واحدة من موظفى المـالية : أمناء الصندوق « خزنة المـال » أو « أصحاب المخزون » [٤٥] وجميعهم ينتمى إلى الارستقراطية العربية القرطبية ، كان العديدون يشتركون فى المهمة ، ولأن مسئولية تقديم كشف الحساب تقع على عاتقهم فقد كانوا - باستمرار - عرضة لغضب الأمير الذى لم يكن يتوانى فى إقالتهم ، وعلى سبيل المثال ، فقد قام عبد الرحمن الثالث ٣٩٢٨ م (٣١٦ هـ) بتنحية خمسة أمناء للصنـدوق دفعة واحدة وتعيين أربعة من عائلات قرطبية معروفة بدلاً منهم [٤٦] .

أما « كاتب الذمم » ، فإن إشارة ابن سعيد إليه أثناء حديثه عن نظام الأمانة العامة للدولة لا تشفى الغليل وأغلب الظن أن هذا اللقب دخل إسبانيا فى عهد الموحدين ، أى بعد فترة من سقوط الدولة الأموية .

ومن جهة أخرى ، فلازلنا نفتقر إلى القرائن التى تسمح لنا بتحديد ماهية عمل « خزنة المـال » أو صلاحياتهم ، ومع هذا ، يمكننا التكهن بوجود نظام متكامل للإدارة المـالية - تحت قيادة هؤلاء وفى قصر الخليفة ذاته - يضطلع بمهام الموازنة العامة للدولة التى كانت فى زيادة مستمرة ، ومما لا شك فيه أن سر تفادى محللى السلالة

الأموية التعرض لهذا النظام المـالى يكمن فى شَغْل غير المسلمين (من مستعربين ويهود) لوظائفه الرئيسية ؛ وقد برهن ابن سعيد بطريقته على هذا فى الفقرة المشار إليها آنفًا عند قيامه بالثناء على سادة الأندلس فى عصره (ونعنى بهم الموحدين) لعدم استعانتهم بالذميين فى تصريف الشئون المـالية للدولة ، وفى هذه المناسبة ، نذكر أن الطبيب اليهودى « حسداى بن شبروت » كان يكلف فى عهد عبد الرحمن الثالث بالمهام الدبلوماسية ، علاوة على رئاسته لأحد مكاتب المـال ، ويبدو أنه كان مكتبًا خاصًا بالجمارك (٤٧) ؛ وأن الحكم الأول قد عهد قبل ذلك بتحصيل الجزية فى مملكته للقومس المستعرب « ربيع » ، ابن « تيودولفو » (٤٨) ؛ وأن حفيده الأمير محمد الأول ، قد أثار غضب الأوساط الدينية فى بلاطه بسبب زيادة أعداد الذميين فى المكاتب الحكومية (٤٩) .

وطبقًا للنصوص المعاصرة ، فإن الخزانة العامة فى إسبانيا الأموية لم تكن تسمى – كما فى بقية الأصقاع الأخرى فى العالم الإسلامى – « بيت المـال » ، بل « خزانة المـال » ، وفى قرطبة كان المصطلح الأول (بيت المـال) يطلق على خزانة مؤسسات البر والتقوى ، التى يديرها الفقهاء ، وتتكفل – معنويًا – جماعة المسلمين بحراستها ، ومقرها أحد المبانى الملحقة بالمسجد الجامع (ولنا عودة للحديث عن ملحقات هذا المسجد) ، أما « خزانة المـال » فقد كانت تقع داخل حرم القصر حيث خصصت لها الخزانات الحصينة المغلقة بالأقفال المنيعة ، وعلينا ألا نخلط بينها وبين الخزانة الخاصة بالعاهل (خاصية بيت المـال) التى تتلقى إيراداته الشخصية والإيرادات العامة الموجهة – قانونًا – إلى القائمة المدنية للخلافة .

أما بالنسبة لمصادر موارد الخزانة العامة للدولة الأموية ، فيمكن القول بأن معظمها كان يأتى عن طريق الجزية والزكاة والضرائب المباشرة وغير المباشرة (أو بمعنى أصح : الشرعية وغير الشرعية) ، ودراسة هذا النظام المـالى غاية فى الصعوبة للاصطدام شبه المستمر بالعقبات الكئود المتمثلة فى شحة المصادر التاريخية وعدم دقة المصطلحات المستخدمة ، وقبل الحديث عن هذا النظام نرى من المناسب ذكر بعض الكلمات عن الزيادة المطردة فى الإيرادات العامة للدولة خلال القرنين : التاسع والعاشر .

لدينا لدراسة هذه الزيادة - سواء في فترة الإمارة أو الخلافة - بعض الأرقام المعبرة ، وكان من الممكن أن تصبح أشد تعبيراً - بلا شك - لو قدر لنا معرفة القيمة النسبية للدينار (الوحدة النقدية المذكورة بتلك الأرقام) وكسوره المتمثلة في الدراهم ، وطبقًا للجغرافي « البكري » ، فإن الأندلس الوسطى والغربية والجنوبية كانت تضخ في الخزانة العامة أيام الحكم الأول - دون حساب الإيرادات العينية - ما يزيد عن ربع مليون دينار سنويًا، أما إيرادات جميع أقاليم المملكة فقد وصلت إلي ٦٠٠ ألف دينار ، وفي عهد عبد الرحمن الثاني وصلت إلي مليون دينار ، وفي عهود الأمراء الثلاثة التالين انخفضت تلك الإيرادات تدريجيًا تبعًا لمساحة الأراضي التي اقتطعها المتمردون من جسد الدولة ؛ لكنها سرعان ما عادت إلى الصعود وبدرجة كبيرة في عهد عبدالرحمن الثالث حيث وصلت إلى ٥٤٨٠٠٠٠ دينار ، منها ٧٦٥٠٠٠ دينار تتجه مباشرة إلي الخزينة الخاصة بالخليفة (٥٠) ، ولقد ظل الرقم الأخير على ما هو عليه تقريباً في عهد الحكم الثاني وأثناء ديكتاتورية المنصور بن أبي عامر .

يوجد المزيد من التفاصيل التي زودنا بها الجغرافي المشرقي ابن حوقل الذي لم يزر إسبانيا إلا عام ٩٤٨ م (٣٣٧ هـ) ، لكنه تابع باهتمام وضعها المالي خلال العشرين سنة التالية ، وبالرغم من انتفاء شبهة انحيازه للأمويين - نظراً لعمالته السرية المؤكدة للخليفة الفاطمي - إلا أنه استخف طرباً أمام ثراء الخزانة القرطبية التي لم يكن لها منافس في كافة أرجاء العالم الإسلامي وقتها سوى خزانة الحمداني « أبو تغلب فضل الله » ، أمير الموصل (٥١) . في عام ٩٥١ م (٣٤٠ هـ) (أي في منتصف عهد الناصر ، تقريبًا) تناهى إلي علم ابن حوقل - عن طريق أندلسيين على بينة بدقائق الأمور - أن الاحتياطي النقدي في خزائن العاهل الأموي يصل إلى عشرين مليون دينار ، وأثناء تدوينه لمؤلفه (أي عام ٩٧٧ م - ٣٦٧ هـ) - وهو العام الذي مات فيه الحكم الثاني - وصل المخزون الاحتياطي إلى الضعف (٥٢) ، وقد أشار المؤلف نفسه إلى مصادر تلك الموارد (التي كانت تغطي النفقات العادية والاستثنائية للدولة وتسمح في ذات الوقت بتجميع هذا الاحتياطي الضخم) وحددها بما يلي : حقوق سك العملة ، الزكاة (الضريبة الشرعية) ، الجزية ، والمكوس ، والجمارك التي تحصل في الموانيء على البضائع المصدرة والمستوردة ، وأخيراً ، الرسوم المفروضة على الصفقات المتعاقد عليها في الأسواق .

لاشك أن معلومات ابن حوقل تحتوى على قدر كبير من المصداقية لكنها ليست كاملة ؛ ذلك لأن موارد الدولة – التى يطلق عليها فى إسبانيا المسمى الشائع «جباية » [٥٣] – لا تقتصر على ناتج الضرائب والرسوم على الصفقات ، بل تضم أيضًا سلسلة طويلة من الموارد الاستثنائية التى تتغير حصيلتها تغيرًا ملموسًا من عام لآخر ، ففى ميزانية المنصور – طبقًا للمعلومة التى استقاها المؤرخ ابن حيان من أحد العارفين بدقائق الأمور [٥٤] – تظهر « الجباية » فى خانة الجانب الدائن من الحساب بما قيمته ٤ مليون دينار ؛ لكن علينا إضافة ما يلى إلى هذا الرقم : ناتج التركات التى ليس لها وريث شرعى ، وحصة الدولة فى الأسرى وغنائم الصوائف (الخمس) ، والمبالغ المحولة إلى الخزانة نتيجة مصادرة الثروات غير المشروعة ، والأموال المرتجعة من الموظفين المدانين باختلاس المغارم المفروضة على الناس .

الضرائب بأنواعها المختلفة : –

علينا أن ندرك فى هذا المقام – وإسبانيا لا تختلف فى هذا عن بقية العالم الإسلامى – الفرق بين الضرائب الشرعية الواجبة على المسلمين وبين المفروضة على الذميين ؛ كما ينبغى التمييز بين الضرائب على المنقولات – التى تسدد نقدًا أو عينًا (من جنس المنقول) – وبين الضرائب على العقارات والأراضى .

تلزم الشريعة الإسلامية كل مسلم قادر بسداد نوع من الضريبة لمجتمعه تعادل عشر ما يملك من قطعان أو محاصيل أو بضائع ، وهذا العشر (الزكاة) يعتبر (نظريا) – طبقا للشريعة الإسلامية – المورد الوحيد لميزانية الدولة . فى البداية ، كان هذا العشر (الزكاة) يسدد عينا (من جنس الشىء المملوك) ويطبق على المنقولات فقط . أما غير المسلمين – من أهل الكتاب – فالبالغ الذكر منهم ملزم فى المقابل بسداد رسم « جزية » يتم تحديده طبقًا للحالة المادية التى عليها المساهم ، وهى مقسمة إلى ثلاث فئات : الأغنياء ، ومتوسطى الحال ، والفقراء . ومن جهة أخرى ، فإن الذميين الذين يعيشون فى أقاليم استولى عليها المسلمون صلحًا دون قتال ، يحق لهم الاحتفاظ بملكية أراضيهم والانتفاع بها مقابل سداد ضريبة تحدد قيمتها سنويًا ، ويطلق عليها « خراج » ، ومع هذا ، فسرعان ما تحول تحصيل « الخراج » إلى قاعدة عامة تطبق حتى على الذين تركوا دينهم الأصلى ودخلوا طواعية الإسلام ، أما بالنسبة للأراضى التى يستولى عليها المسلمون بقوة السلاح فتنتزع

ملكيتها وتصبح في جميع الأحوال غنيمة حرب « فيء » لله ، ويعتبر شاغلوها مؤقتين - أي يمكن تنحيتهم والإتيان بغيرهم - وملزمين بدفع إيجار يتولى العامل تقديره .

لسنا بحاجة إلى القول بأن البيانات التي عرضناها آنفًا بشكل موجز لا قيمة لها إلا على المستوى النظري فحسب ، وأننا لم نقصد بها دراسة تطور مفهوم مصادر تمويل خزانة الدولة في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي ، ولاحتى مجرد الإشارة إلى أن الأمويين في الشرق ومن بعدهم العباسيين قد تملصوا شيئًا فشيئًا من الضوابط الشرعية الصارمة الخاصة بتحصيل « الزكاة » أو « الخراج » حتى يتسنى لهم توسيع قاعدة التمويل لضمان حسن سير خزائنهم ، هذا بالإضافة إلى أن المسائل السابقة يكتنفها كثير من الغموض لأن الدراسات القليلة الموثوق بها لم تهتم كما ينبغي بإلقاء الضوء عليها (٥٥) ، وبالطبع فإن هذا الضوء لن يكون مصدره الوثائق العربية .

سنرى فيما بعد - عند محاولتنا تحديد طبيعة نظام ملكية الأراضي في الأندلس - كيف سنضطر إلى الاعتماد على بيانات شحيحة للتكهن ببعض الافتراضات الخجولة حول هذه القضية الاجتماعية ذات الأهمية القصوى ، ما نستطيع قوله الآن بالنسبة لمسألة تحصيل الضرائب الشرعية هو إن إسبانيا الإسلامية قد حذت حذو الشرق الإسلامي ، وإنها أيضًا أدخلت - مثله - عند التطبيق العملي للقواعد الشرعية العديد من التعديلات التي أوحت بها الحاجات الملحة للميزانية والظروف الخاصة بجموع الممولين .

وخلال فترة طويلة ظلت الضرائب (الزكاة) على المنقولات تسدد في شبه جزيرة إيبريا نقدا أو عينا ، والنوع الأول يطلق عليه « نض » والثاني « وظيفة » .

وطبقًا للبكري (الجغرافي) (٥٦) فإن محافظة قرطبة وحدها كانت تغل من النوع الثاني (وظيفة) في عهد الحكم الأول ٥٢٠٠٠ قدح من القمح ، ٧٢٠٠٠ من الشعير ، كانت الحبوب تدخل صوامع الدولة ثم يطرح جزء منها للبيع في الأسواق بالأسعار الرسمية ، ويدخر الباقي كاحتياطي تحسبًا لسنوات الجفاف التي كانت - طبقًا للمؤرخين - معهودة وشائعة في ذلك الزمان ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت الضريبة العينية على القطعان وحيوانات الجر تتطلب توفير الحظائر المناسبة والمراعي

الشاسعة ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى فى التعجيل بإلغائها ؛ لكن الزكاة العينية على الغلال استمرت حتى بداية القرن الحادى عشر ، كما يشهد بذلك كتاب دورى صادر عن « على بن حمود » ، قام « أحمد بن برد » بتحريره ووصل إلينا نصه (٥٧) ، يتوجّه الكتاب إلى المولين فى محافظة « جيان » قائلاً : إنه من الآن فصاعدًا ، وتفاديًا لمشقة حمل الحبوب إلى صوامع الدولة ، لن يتم تسديد العشر عينا بل نقدًا (نض) بما قيمته ست دينارات لقدح القمح وثلاثة لقدح الشعير ، أما « الخراج » على الأراضى فيبدو أنه يعتبر فى إسبانيا ، ومنذ القرن التاسع (٥٨) ، بمثابة المساهمة السنوية الرئيسية ، وإن كان هذا لا ينفى احتمال إلغائه فى بعض الأوقات ثم العودة إلى فرضه من جديد .

وعلاوة على الضريبة الشرعية (الزكاة) كانت توجد المساهمات الاستثنائية (المغارم) (٥٩) التى كانت دائمًا محل سخط الناس سواء فى إسبانيا أو فى غيرها من بلدان العالم الإسلامى ، ولذلك فإن العاهل الذى يهتم بشعبيته كان يعجل بإلغائها بالكامل ، أو إلغاء جزء منها ، أو بتخفيضها بنسبة كبيرة ، وهذا ما فعله الحكم الثانى عام ٩٧٥ م (٣٦٤ هـ) ، وبعده بخمس وعشرين سنة قام العامرى « عبد الملك » بتخفيض المغارم والجباية إلى السدس ، وفى فترة تداعى أركان الخلافة القرطبية تحمل الأندلسيون عبء الزيادة الكبيرة فى هذا النوع من المساهمات الضريبية (٦٠) ، وابن حزم يبث مر شكواه من هذا الأمر قائلاً : بينما كانت هذه المغارم تفرض من قبل على العقارات فقط (٦١) فإنها قد تضاعفت فى عصره ولحقت أشياء كثيرة ، مثل : الضريبة على الرؤوس (وهى تحصل شهريًا من كل مسلم) ؛ الضريبة على حيوانات الجر والقطعان والمناحل ؛ وضريبة المبيعات المفروضة على التعامل فى الأسواق ؛ وأخيرًا ، الضريبة على تجارة النبيذ (٦٢) الرائجة فى ذلك الزمان والتى كان يعمل فيها المسلمون (لتراجع تمسكهم بتعاليم دينهم) وأهل الذمة سواء بسواء .

كان يتكفل عادة بسداد جانب من هذه الضرائب – وخاصة النوعين الآخيرين – عدد من المحصلين (مُتَقَبِّل) (٦٣) الذين لم يكونوا يكتفون بجمع ما قدموه ، بل يضيفون إليه فوائد باهظة ، وإلى جانب المُحَصِّلين كان يوجد من يقومون بتقدير المحاصيل قبل جمعها (خارص) (٦٤) ، أما مواعيد التحصيل فكانت مرتبطة بتواريخ ثابتة فى التقويم الهجرى (نجم) ، وهو يماثل التقويم الشمسى (٦٥) . وفى بعض

الأحيان كان العاهل يقوم – رحمة بمواطنيه أو حفاظًا على شعبيته – بإعفاء المولين من المتأخرات الضريبية (بقية) التى لم تسدد بعد [٦٦] ، كما كان يؤخذ فى الحسبان عند التحصيل نقص المحاصيل التى تغلها الأراضى بسبب العديد من المشاكل الزراعية مثل تساقط الجليد أو غزارة الأمطار أو الجفاف أو التعرض للآفات والجراد ... إلخ ، ولم يكن هذا النظام من ابتداع الأندلس بل كان معروفًا فى الشرق الإسلامى كذلك .

وعلاوة على هذه الضرائب الدورية المتعددة ذات المواعيد الثابتة توجد مساهمات أخرى ذات طابع عرضى يقررها العاهل نتيجة لعقوبة ما ، أو لتخفيف أعباء نفقات القوات في الحملات الحربية ، ومن بينها نذكر : « النزيلة » أو « الإنزال » وهى ضريبة تسدد نقداً ويوجه عائدها للصرف على إقامة الجند ؛ و « التقوية » التى فرضت – على ما يبدو – فى نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر وبموجبها يتكفل كل مواطن ولمرة واحدة بدفع ما يكفى لتسليح وإعاشة جندى .

وبالرغم من تمركز الإدارة العامة للضرائب فى قرطبة إلا أن عاصمة كل إقليم (كورة) كانت تضم مجموعة من الموظفين يعملون تحت إمرة مفتشين (مشرفين وأمناء) ، وكان يطلق عليهم جميعاً لفظ « عمال » (ومفردها : عامل) [٦٧] .

أما بالنسبة لأوجه صرف إيرادات هذه الضرائب فالمعلومات التى لدينا لا تتسم بالدقة الكاملة ، ومع هذا يمكن القول أن ناتج « الخراج » كان يقسم فى ظل الإمارة القرطبية إلى ثلاثة أجزاء متساوية : جزء يخصص للإنفاق على الجيش ، والثانى للنفقات الطارئة فى الأوقات الحرجة ، والجزء الثالث يبقى احتياطيًا [٦٨] .

وقد قسم الناصر « الجباية » بنفس الطريقة ، لكنه خصص جزءًا من الثلاثة للإنفاق على البناء والمعمار [٦٩] ويروى أحد مؤرخى المنصور [٧٠] أن ناتج إيرادات الضرائب كان يُحفظ أيام الديكتاتور العامرى فى أربع خزائن حصينة ، يستخرج منها كل شهر للإنفاق العام (النفقات السلطانية) ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ ألف دينار ، ومن بداية شهر يونيو – عند تجهيز الصوائف – كانت النفقات تصل إلى نصف مليون دينار ، وفى نهاية كل « سنة مالية » – إن حق لنا استخدام هذا المصطلح الحديث – يتم تحويل « الرصيد الفائض » لتدعيم احتياطى « الخزانة العامة » .

احتكار سك العملة : -

في الفقرة المذكورة آنفًا لابن حوقل ، يورد الجغرافي المشرقي المبالغ المحصلة من حق سك العملة كأحد الروافد الأساسية للخزانة القرطبية ، لقد كان سك العملة حكرًا بالفعل على الدولة ؛ لكن الخواص كان لهم مطلق الحرية في حمل ما لديهم من ذهب أو فضة إلى « دار السك » لتحويلهما إلى نقود حقيقية مقابل سداد رسوم (حق) ، وكان هذا « الحق» عاليًا نسبيًا : نعرف أنه كان يصل في فاس خلال القرن الرابع عشر إلى ١,٧٥٪ بالنسبة للذهب وإلى أقل قليلاً من ٣٪ بالنسب للفضة [٧١] ؛ ولابد أن تكون هذه التعريفة هي نفسها المتبعة في إسبانيا خلال ذلك الوقت المتقدم من العصر الوسيط ، وعلى هذا فلنا أن نتخيل كم القطع الذهبية والفضية المحولة سنويًا في دار السك التابعة للخلافة الأموية ، وإذا كان ابن حوقل قد أوضح أن حقوق سك العملة كانت تدر للدولة سنويًا أيام الناصر مائتي ألف دينار ، وكل دينار يساوي - تبعًا لتقديره - ١٧ درهمًا ، يمكننا القول - من خلال عملية حسابية بسيطة - إن الدولة كانت تسك سنويًا حوالي ٨ مليون دينار ؛ وبما أن كمية المسكوكات الفضية كانت ثلاثة أضعاف المسكوكات الذهبية فإن متوسط حق السك يوازي ٢,٥٪ .

يؤكد معظم المؤرخين المسلمين أن الأمير عبد الرحمن الثاني هو أول من نظم السك الرسمي للعملة ؛ وقد وصل الأمر بأحدهم إلى القول بأن سكان الأندلس لم يكن لديهم - منذ الفتح وحتى نهاية عهد الحكم - عملة قومية حقيقة ، وأنهم كانوا يتعاملون إما بقطع قوطية أو بعملات ذهبية وفضية مجلوبة - بكميات ضئيلة - بواسطة التجار والمسافرين القادمين من إفريقيا أو الشرق الإسلامي ، وقد ترتب على هذا ندرة دوران النقد داخل البلد وإلى عقد الصفقات عن طريق المقايضة ، ولكي يعالج عبد الرحمن الثاني هذه الظاهرة فقد قرر - بإيعاز من رجل يدعى « الحارث بن أبي شبل » - القيام بسك العملة في قرطبة ذاتها، ومع هذا ظل النقد الأجنبي يشكل جزءًا كبيرًا من العملات المتداولة حتى نهاية عهده [٧٢] ذلك لأن الكميات الصادرة عن دار سكته كانت تخرج على فترات متباعدة .

وبالطبع فإن هذه المعلومات لا تتسم جميعها بالدقة وذلك للعثور على مجموعات من العملات الذهبية والفضية التي يعود تاريخ سكها لعصر حكام إسبانيا الأول [٧٣] ، ولوجود نماذج من الدراهم المسكوكة في الأندلس ترجع تواريخها الهجرية إلى عهود

الأمراء الأمويين المتقدمين على عبد الرحمن الثانى ، هذا بالإضافة إلى كسور الدراهم المصنوعة من البرونز (٧٤) ، فعلى أى أساس إذن يمكن أن ننسب لهذا الأمير (عبد الرحمن الثانى) مبادرة تأسيس أول دار رسمية لسك العملة فى قرطبة ، والتى كانت تقع - طبقًا للجغرافى المشرقى « ابن الفقيه » (٧٥) - بالقرب من المسجد الجامع ، ناحية « باب العطارين » ؟ (٧٦) ، ومن جهة أخرى ، فإن « دار الضرب » هذه (أو « دار السكّة ») لم تكن تضرب سوى العملات الفضية ، وكان عليها الانتظار حتى يتخذ عبد الرحمن الثالث لقب خليفة لكى يأمر بضرب العملات الذهبية الأولى للأمويين ، ويقوم بتجديد « دار السكّة » القديمة عام ٩٢٨ م (٣١٦ هـ) ، ويوجه تعليماته بسك الدراهم والدنانير فى آن واحد من الذهب والفضة الخالصين .

أما إدارة السك فكان يعهد بها إلى موظف رفيع المستوى يطلق عليه « صاحب السكة » وكان مخولاً بنقش اسمه على النقود تحت اسم الأمير الحاكم (٧٧) ، وفى عام ٩٤٧ م (٣٣٦ هـ) انتقلت « دار السكة » من قرطبة إلى مدينة الزهراء (٧٨) .

الموارد أو المخصصات الملكية : -

لا يجب الخلط بأى حال بين « خاصية بيت المال » (أى الخزانة الخاصة بخليفة قرطبة) وبين خزانة الدولة ، أو بينهما وبين « بيت مال المسلمين » (خزانة مؤسسات البر) ، فعائدات المخصصات الملكية كان يوجهها العاهل بنفسه لتغطية نفقاته الباهظة التى تشمل الإنفاق على بيته وصرف أجور العاملين لديه - وربما رواتب حرسه الخاص - وبناء المؤسسات ذات النفع العام وتمويل أنشطتها ، واستمالة الكثيرين من أعضاء العائلة المروانية المقيمين بالعاصمة أو الأقاليم ، وأخيراً المكافآت التى تصرف لمادحيه ولرجال العلم والأدب والفن الدائرين فى فلكه ، لقد كان الخليفة يجرى الذهب أنهاراً فى مناسبات عديدة من السنة ، خاصة فى عيدى الفطر والأضحى ، فى صورة إنعامات نقدية (صلة أو معروف) تذهب إلى وجهاء البلاط نظير تفانيهم فى خدمة الأسرة الأموية ، كما كانت توزع عليهم ملابس الجهاز الحاكم (خلافة) التى تقوم المصانع الملكية بنسجها وتفصيلها .

وللوفاء بهذا الكرم الحاتمى - الذى لا ينقطع - فإن خزانة العاهل لابد وأن تكون مترعة دائمًا ، لا بناتج عائداته الشخصية فحسب ، بل أيضًا ببعض موارد الدولة التى تحفظ خصيصاً له ؛ ومن بينها التعاقدات التجارية التى نجهل النسبة المفروضة فيها ، ويشير إليها المؤرخون بمصطلح « زكاة السوق » ، وكما رأينا فإن « زكاة السوق »

هذه كانت حصيلتها السنوية تبلغ أيام عبد الرحمن الثالث ٧٦٥ ألف دينار ، دون حساب ما يدره « المسْتَخْلَص » . والمصطلح الأخير كان يراد به في العصر الوسيط الممتلكات الخاصة بالعاهل ، ومن معناه يبدو أن غالبية تلك الممتلكات كانت تأتي عن طريق مصادرة الأراضي لأى سبب من الأسباب [٧٩] ، كانت مزارع العاهل الخاصة (الضياع) منتشرة بجميع كُوَر إسبانيا المسلمة - حتى في الثغور - ، وكان يفلحها مزارعون نظير الاحتفاظ بجزء من محصولها وفقًا لإجراءات وشروط سنتحدث عنها فيما بعد ، ومراجعة حسابات هذه الضياع الريفية والإشراف عليها يعني وجود جيش عرمرم من الإداريين والمحاسبين على رأسهم رجل يتمتع بثقة الخليفة يطلق عليه « صاحب الضياع » [٨٠] وطبقًا لأحد المؤرخين ، فإن الناصر عند موته خلف وراءه عددًا كبيرًا من الضياع لدرجة أن ابنه الحكم الثاني قرر - في لمحة كرم منه - تخصيص ربع عائداتها للأعمال الخيرية التي تخدم فقراء عاصمته [٨١] .

لاتوجد أية إشارة صريحة تسمح لنا بالتأكيد على أن خليفة قرطبة كان يتمتع - علاوة على الموارد المذكورة آنفًا - بحصة من الأرصدة المدنية في الخزانة العامة ، وبالرغم من هذا ، فهذا أمر وارد إذا أخذنا في الاعتبار تلاشي الفواصل في ذلك العصر بين ميزانية الدولة وميزانية العاهل ، الشيء المؤكد هو أن العاهل كان يتصرف على هواه في موارد الدولة كلما دعاه داع من حاجة أو طمع ، وبالإضافة إلى ذلك لدينا مؤشرات عديدة تفيد بأن العاهل لم يكن يأنف أو يتورع عن التعدي - لأتفه الأسباب - على من يملكون ثروات تبدو له متضخمة ، ومن المحتمل أيضًا أنه يُنْعِم في بعض الحالات بالمناصب التشريفية أو التي يرجى منها النفع نظير إيداع المرشحين لها لأكوام من الذهب في خزانته الخاصة ، ولأن الرشوة من أجل الحصول على المناصب كانت إحدى مثالب الدول الإسلامية في الشرق والغرب فليس من المستبعد لجوء الخلفاء الأمويين إليها وممارستها باعتياد في نظامهم للحكم .

٤ - التنظيم الإقليمي

الكُوَر أو الدوائر الإقليمية : -

عندما هيمن السلام الداخلي - في أواسط القرن العاشر - وتلاشت مشاكل العاهل الحاكم في قرطبة واستسلمت « ببشتر» (Bobastro) والمناطق الجبلية في جنوب شبه الجزيرة ومعهما انتهت آمال الزعماء المحليين (من العرب والبربر و المولدين) في التمرد والعصيان بعد أن أرقوا لفترة طويلة مضاجع أمراء بني أمية ، استردت مملكة الأندلس استقرارها السياسي الذي سمح لها بإعادة النظام الإقليمي إلى الوضع الطبيعي الذي كان عليه في بداية عهدها ، لكي يضطلع من جديد بدوره داخل الميكانيزم المعقد للدولة ، في تلك الآونة كان الجانب الأعظم من أراضي إسبانيا خاضعًا لنظام الإدارة المدنية ، أما منطقة الحدود العريضة للثغور فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر الخاضعة للقيادة العسكرية أو (خاصة في حوض « إبره ») سلسلة من الإقطاعيات المتوارثة التي رسخت واشتد ساعدها ولم تعد لقرطبة هيمنة حقيقية عليها .

والمصطلحان الشائعان لدى المؤلفين الأندلسيين لتعيين «الإقليم » هما:«ناحية» ، « كورة ».. ويبدو أن المصطلح الأول لم يكتسب قيمة رسمية على الإطلاق [٨٢] ؛ أما الثاني فكان الوحيد المستخدم للإشارة إلى « التقسيم المساحي » . كما يوجد مصطلح ثالث اكتسب في إسبانيا مدلولاً خاصًا ، ونعني به « إقليم » [٨٣] الذي يقصد به في المصطلحات الإدارية « القسم » أو « المنطقة » ومساحته أقل من « الكورة ». وعلى هذا الأساس فقد كانت « الكورة » الواحدة تضم عددًا يقل أو يكثر من « الأقاليم » ، ومجموعها كان يطلق عليه أيضا - وفي بعض الأحيان - « عَمَل » ، « حَوْز » أو « نظر » [٨٤] .

عرفت شبه الجزيرة لفظ « كورة » (وجمعها : كُوَر) [٨٥] في القرن الثامن الميلادي ، وكان يطلق فيها - منذ عصر الحكام - على « الدائرة الإقليمية » ، وكلمة « كورة » ، التي أخذها عرب إسبانيا من الشرق ، أصلها إغريقي وكانت تستخدم في مصر للإشارة إلى « القسم » الذي يماثل « باجاركية » Pagarquía في النظام

البيزنطى ، لكن « الكورة » الأندلسية - كما أشار إلى ذلك صراحة « المقدسى » [٨٦] - كانت عبارة عن تقسيم إدارى أكثر اتساعًا من كُوَر الشرق التى تقترب مساحتها من « الأقاليم » الأندلسية ، وسبب هذا الخلاف فى مساحة الكُورة الأندلسية عن نظيرتها المشرقية يكمن - على الأرجح - فى أن العرب عندما فتحوا إسبانيا آثروا الإبقاء على الهيكل الإدارى للبلد دون مساس ، واكتفوا بتحويل « دوقيات » (Ducados) و « كونتات » (Condados) النظام القوطى إلى « كُوَر » ، نعتقد أن هذا ما حدث بالفعل ، لكن علينا ألا نغفل - أيضًا - إمكانية التأثر فى تحديد الكور وعواصمها « بتقسيم قسطنطين » الذى امتدت شهرته حتى القرن الحادى عشر كما يتضح من الدراسة المفصلة التى أعدها الجغرافى الأندلسى « أبو عبيد البكرى » [٨٧] .

لن نفاجأ - لا عتيادنا على أوجه قصور مماثلة - لو عرفنا أنه لا يوجد مؤلف أندلسى واحد كلف نفسه عناء إعداد قائمة كاملة [٨٨] بكُوَر المملكة الأموية فى عصر الخلافة ، أما القائمة التى تركها لنا الرحالة المشرقى « المقدسى » وتحتوى على ثمانية عشر اسمًا فقط [٨٩] فصاحبها نفسه يعترف بعدم تمامها أو وفائها ، وبالنسبة لقائمة الحموىّ الجغرافية [٩٠] - التى اعتمد صاحبها على وصف إسبانيا لأحمد الرازى - فإنها تضم ٤١ اسمًا ، لكنها - علاوة على اشتمالها على عدد من مدن الثغور العليا والوسطى التى لا ينبغى إدراجها - تحتوى على أسماء مغايرة لعواصمها الإقليمية ، والإدريسى ، من جهته [٩١] ، يقسم شبه جريزة إيبريا إلى كُوَر ، لكن وفقًا للمدلول الجغرافى القديم للمصطلح ، ومن ثَمَّ فإن عمله يخلو من أية قيمة إدارية .

لايوجد ، بالتالى ، منهاج آمن للتعرف على الدوائر الإقليمية فى إسبانيا خلال عصر الخلافة سوى الغوص فى تلافيف المدونات التاريخية وقوائم التراجم الأكثر قدمًا - قوائم ابن الفرضى ، وابن بشكوال ، على سبيل المثال - لالتقاط الأعلام الجغرافية التى ذكرت فيها صراحة كمسميات للكُوَر .

من الطواف بالمصادر المذكورة آنفًا - علاوة على البيانات المستقاة من «البكرى » (الجغرافى الإسبانى » - يتضح أن أرض الأندلس (دون حساب مناطق الحدود) كانت مقسمة إلى ٢١ كورة ، سبع منهن يحملن مسميات مغايرة لمسميات عواصمهن والباقيات يُعرفن بأسماء عواصمهن ؛ لدينا ، فى المقام الأول ، كورة « قرطبة » التى

تحدها من الشمال كورة « فحص البلوط » وعاصمتها « غافق » (٩٢) ، وعلى الجانب الآخر من كورة قرطبة المترامية الأطراف تقع جنوب الوادى الكبير كورتا « قَبْرة » و « إسْتِجَّة » (ÉCIJA) الأقل اتساعًا ، أما « إشبيلية » و « قرمونة » فكانتا عاصمتى الإقليمين اللذين يحملان اسميهما ، كذلك «لَبلة »(Niebla)، وفي الغرب (Algarve) – أى على الساحل الجنوبى للبرتغال حاليًا – توجد كورة « أكشونبة » (عاصمتها : « شلْت » Silves) ، وإلى شمالها تقع كورة « باجة » (BEJA) ، وفي أقصى جنوب الأندلسى توجد أربع كُوَر : « مَوْرور » ، « شذونة » (وعاصمتها « كلسينا » (CALSENA) ، « الجزيرة الخضراء » و « تاكرونا » (عاصمتها « رُنْدة ») (٩٣) .

وفى أقصى الشرق من الكورة السابقة تقع « مالقة » – المسماة أيضًا « ريَّهْ » (٩٤) (REYYO) – تليها « إلبيرة » ، ثم « جَيَّان » ، ثم « بَجَّانة » (PECHINA) التى انتقلت عاصمتها إلى « ألمرِيَّة » فى النصف الثانى من القرن العاشر .

أما الساحل الشرقى للبحر المتوسط فيضم من الشمال إلى الجنوب ثلاثة أقاليم : كورة « تُدْمير » الشاسعة (التى كانت تابعة قديما للقوطى « تيودمير » ، وظلت محتفظة باسمها بالرغم من نقل عاصمتها إلى مدينة « مرسية ») ؛ كورة « شاطبة » ثم « بلنسية » التى تصل حدودها إلى مشارف مصب نهر « إبْرُه » ، وإلى جوار إقليم « طليطلة » من جهة الشرق تقع كورة « شنت بَرِيَّة » (SANTAVER) وعاصمتها « إقْليش» (UCLÉS) ، أما جزر « البليار » فأغلب الظن أنها كانت تعتبر فى القرن العاشر إقليمًا إداريًا مستقلاً شأنها فى ذلك شأن أقاليم الغرب المستأنسة حديثا ، وهى « ماردة »، « بَطَلْيَوس » ، « شنترين » (SANTAREN) ، «لشبونة » وربما « قُلُمْرِية » (COIMBRA) .

تسعة من هذه الأقاليم كانت تتمتع – حتى عصر الخلافة – بقانون ولوائح خاصة منذ قيام الحاكم « أبو الخطار الكلبى » عام ٧٤٢ م (١٢٥ هـ) بمنح أراضيها كإقطاعيات للجند السوريين الذين كانوا تحت قيادة « بلج القشيرى » .

ونذكر ، فى هذا المقام ، أن جند دمشق كانوا قد استوطنوا « إلبيرة » ، وأقام جند الأردن فى « ريَّه » ، وجند فلسطين فى « شذونة » ، وجند حمص فى « لَبلة » وإشبيلية – ولهذا السبب كان الأدباء والشعراء يطلقون على الأخيرة ، أحيانًا ، « حمص » (٩٥) –، ونزل جند قنسرين فى « جيَّان »، بينما استوطن جند مصر «باجة »

و« أكشونبة » و«تدمير » (مرسية) ، وهكذا ستظل هذه الكور تتحلى – حتى انهيار الخلافة القرطبية – بنعت « مُجَنَّدة » : أى « متمتعة بالقانون الخاص بالجند » [٩٦] .

الإدارات الإقليمية : –

في عاصمة كل كورة كان يقيم الحاكم (الوالى) المعين بمرسوم من الخليفة ، وهو بمثابة الممثل الشخصى للخليفة وخاصة فيما يتعلق بصلاة الجمعة والمناسبات الدينية الأخرى ، كان الوالى يقطن – عادة – « قصبة » العاصمة التى تضم أيضًا المكاتب المختلفة للإدارة الإقليمية ، وأمانة التخاطب الرسمي مع « باب السدة » فى قرطبة ، وخدمات تحديد الضرائب والإشراف عليها ، وأخيرًا ، الخزانة التى تحفظ فيها إيرادات الأقاليم . إنها – باختصار – صورة مصغرة لمكاتب قصر الخلافة ، وبالطبع فالمهمة الرئيسية لهذا التنظيم الإقليمى تضطلع بها مفوضيات المال التى يديرها – كالحال فى قرطبة – أمناء أو خَزَنة [٩٧] بمعاونة مُحَصِّلين وخُرَّاص وممسكى الدفاتر ، أما نفقات إدارة الكورة وماهيات الموظفين ورواتب قوات الحامية والقلاع الاستراتيجية فكانت تستقطع من الموارد المتاحة بينما يرسل الباقى (الفائض) – كما ذكرنا من قبل – فى حراسة مشددة إلى خزائن قرطبة .

وبوجه عام ، لم تكن الحكومة المركزية تترك الوالى فى منصبه مدة طويلة ، ولذا شاعت حالات التغيير والعزل ، كانت مجرد شكوى من سوء استخدام السلطة كافية لكى يبادر الخليفة – بعد التحقق التام من الواقعة – بعقاب صاحبها ؛ ولم يكن الخليفة يتردد كذلك فى عقاب الولاة الذين تتضخم ثرواتهم بسرعة ، أما حكومات الأقاليم البعيدة عن العاصمة – مثل طليطلة أو بلنسية – فقد كان باستطاعة ولاتها تفادى رقابة المكاتب المركزية ، ولهذا تحولوا بالفعل إلى ملوك غير متوجين [٩٨] ، ومن جهة أخرى ، فإن عواصم الكور الأكثر أهمية – إشبيلية ، غرناطة (التى حلت محل «إلبيرة » فى بداية القرن العاشر [٩٩]) ، مالقة ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وطليطلة وسرقسطة المتخمة بالثراء – قد تحولت عند سقوط الخلافة إلى رؤوس ممالك صغيرة ظلت تحتفظ بالنظام الإدارى للخلافة دون مساس إلى أن تبناه المرابطون بدورهم مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة وخاصة فيما يتعلق بمسميات شاغلى الوظائف .

هوامش الفصل الأول

(١) بالإضافة إلى المصادر العربية – سواء التاريخية أو الجغرافية أو التشريعية – التى أوردها ليفى بروفنسال فى (Esp. mus. Xo siècle, capítulosII, III, IV) يمكن الرجوع إلى الأجزاء المكتشفة حديثًا من « المقتبس » لابن حيان ، والتى تلقى الضوء على عهود كل من الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى ، ومحمد الأول ، وعبد الرحمن الناصر .

كما يمكن الرجوع إلى المعلومات الهامة التى ذكرها ابن الخطيب (« أعمال الأعلام ... » ص ١١٤ – ١٢٢) عن المنصور بن أبى عامر ، وإلى المعلومات المبثوثة فى ثنايا « الذخيرة » لابن بسام حول الفترة الأخيرة للخلافة القرطبية .

بعض المؤلفات التى ظهرت فى إسبانيا خلال السنوات الأخيرة اعتمدت اعتمادًا مباشرًا فى تناولها للموضوع على ليفى بروفنسال (Esp. mus. Xo siècle, capítulos II, III, IV) ؛ والمؤلفات المذكورة هى :

- M, Aguado Bleye : Manual de Historia de España, I, pág. 445 - 450

- L. G. De Valdeavellanos : Historia de España, I, p. 646 - 651 .

ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لبعض المؤلفات التى ظهرت حديثًا فى فرنسا ، وهى :

- G. Marçais, en el t. 111 de la Histoire du Moyen Age de Glotz, p. 369 Y sigs .

- Ch. Verlinden : L' Espagne au Xo siécle. Aux origines d' une civilisation composite, en Revue de cours et conférences, t. XXXVI, paris, 1936 - 1937, pp. 113 - 141, 261 - 278 .

وبالنسبة للتأثيرات الشرقية فى أنظمة الدولة الأموية ، انظر :

- Lévi-Provençal : La civilisation arabe en Espagne, cap. II.

- Mez : Die Renaissance des Islâms (trad. Española de S. Vila).

- M. Gaudefroy - Demombynes, t. VII de Histoire du Monde de E. Cavaignac [Gaudefroy - Demombynes et Platonov :

Le monde musulman et byzantin jusqu' aux Croisades. Paris, 1931] .

أما بالنسبة للتأثيرات الأندلسية فى إسبانيا المسيحية فلا تزال الدراستان اللتان أعدهما جونثالث بالنثيا هما الأكثر وفاء فى هذا المجال :

- A. González Palencia El Islam y Occidente, Madrid, 1929, (reproducido en Moros y Cristianas en la España medieval, Madrid, 1945, pág. 1-59).

- A. González Palencia :Hist. Esp. Mus., 2a ed., pág. 196-199.

(٢) لم تساعدنا المعاجم العربية كثيراً فى شرح هذه المصطلحات ، أما «دوزى» فإنه على الرغم من تعرضه لدراسة النظام السياسى لإسبانيا فى عصر الخلافة الأموية فى تاريخه أو فى عمله الآخر (Recherches) إلا أن مُلْحقه الرائع الذى يحمل عنوان Supplément aux diccionaires arabes يجعل منه المستشرق الوحيد الذى له دراية تامة وواضحة بالموضوع خلال القرن التاسع عشر .

ومصدرنا الأساسى فى هذا المجال ينحصر فى مدونة « عارب بن سعيد » الملحقة بالجزء الثانى من « البيان المغرب » لابن عذارى ، التى تمدنا بكم وافر من المصطلحات الفنية الإدارية ، ويبدو أن « فاجنان » لم يحسن فهم المصطلحات ولذا جاءت ترجمته لها مليئة بالأخطاء .

(٣) نذكر هنا بصفة « كتاب الأحكام السلطانية » للموردى (المتوفى عام ١٠٥٨ م - ٤٥٠هـ) ، وقد قام R.Enger بطبع هذا الكتاب فى بون عام ١٨٥٣ تحت عنوان : Constitutiones politicae ؛ ويعد ذلك ترجم أجزاء منه كل من L. Ostrorog (Paris, 1900-1905) و E. Fagnan (Argel, 1915) .

لانجد فى هذا الكتاب سوى مدائح غير واقعية على غرار ما جاء فى « سيرة الملوك » لأبى بكر الطرطوشى (المتوفى بمصر عام ١١٢٦ م - ٥٢٠ هـ) الذى طبع عدة مرات فى الشرق وقام M. Alarcòn بترجمته إلى الإسبانية تحت عنوان : Lámpara de príncipes, Madrid, 1930-1931 .

(٤) انظر المجلد الرابع (الفصل الثانى) .

(٥) انظر الصفحات القيمة للكتاب التالى :

- G. Marçais : La Berbérie el l' Orient, p. 57 y sigs.

أما كتاب :

- M. Vanderheyden : La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoû' l-Arab (800- 900), paris, 1927.

فيعتبر ناقصًا وغير مناسب ، وخاصة ما جاء بصفحاته (من ١٥٩ إلى ١٨٥) عن النظام الإدارى للأغالبة .

(٦) انظر أعمال A. Christensen وخاصة :

- L' Iran sous les Sassanides, 2^{a} ed., Copenhague, 1944 .

والتى ستظل لفترة طويلة تحتل أهمية مطلقة فى هذا المجال .

وبالرغم من أن التأثير الإيرانى قد اكتمل عنفوانه أثناء حكم العباسيين إلا أن هذا لا يمنع من الظن أن سريانه فى أوصال نظم الدولة العربية قد بدأ خلال المرحلة الأخيرة من الخلافة الأموية .

(٧) للتعرف على احتفالات ومواكب الفاطميين منذ استقرارهم في القاهرة ، انظر :

- M. Canrad : Le Cérémonial fatimie et le cérémonial byzantin : essai de comparaison, en Byzantion. XXI, 1951, págs. 355-420.

(٨) لنذكر في هذا المقام أن عبد العزيز بن موسى بن نصير عندما تولى الحكم تبنى – بعد إلحاح من الأميرة القوطية « إيجلونه » أو « أم عاصم » – استخدام التاج (أو الإكليل ، بمعنى أصح) ، وقد أثار تصرفه هذا استهجان العرب الفاتحين وغضبهم منه ، وطبقًا للمؤرخ :

- Ibn Hamado (Histoire de Rois' Obaidides, ed. Y traducción M. Vonderheyden, Argel-paris, 1927, texto p. 45; trad. P. 96).

فإن الخليفة الفاطمي المعز كان أول فاطمي يستخدم التاج .

(٩) أما « المظلّة » التي كان يستخدمها العباسيون والفاطميون كشارة للعاهل فأغلب الظن أنها انتقلت إلى الغرب الإسلامي قبل الموحدين بزمن طويل ، لأنها – كما سنرى فيما بعد – كانت الشارة التي يستخدمها القائد العام للقوات في الحملات الحربية – انظر :

- Mez : Ren. Isl., Trad. Vila, p. 174-175 .

وكلمة المظلة « تختلف في إسبانيا عن « المظل » (Mazall) الذي يقصد به خيمة العاهل في المعسكر الحربي : انظر الأمثلة المستقاة من ابن حيان والتي ذكرها « دوزي » في . Suppl . dict. ar., II, p. 84

- Cap. 133, p. 73 de la ed. de A. paz y Melia [cf. Supra, IV, p. 352, nota (١٠) 170] .

(١١) ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ص ١٦١ – ٢٤٩ (١٥٦ – ٢٣٣) من النص الأصلي ، ص ٢٦٠ – ٢٨٥ ، ٤١٩ من الترجمة .

(١٢) عن البيعة في عصر الخلافة القرطبية ، انظر :

- M. M. Antuña : La jura en el Califato de Córdoba, en An. Hist. Der. Esp., VI, Madrid, 1930, págs. 108-144 .

(١٣) سواء تم هذا التعيين في حياة سلفه أو عند موته أو قبل موته بقليل (كما حدث مع عبد الرحمن الثاني الذي عين قبل موت الحكم الأول) ، وقد احتفظ المؤرخون الأندلسيون بالنص الكامل لمحضر « ولاية العهد » الذي صاغه الخليفة هشام الثاني لصالح عبد الرحمن شنجول ، وقد حرر هذه الوثيقة أمين سر الدولة « أحمد بن برد » ووقع عليها قاضي الجماعة في قرطبة « أحمد بن زكوان » وتسعة وعشرون من أصحاب المناصب الرفيعة بدرجة وزير ، علاوة على ١٨٦ فقيهًا يعملون بالمناصب القضائية المختلفة .

(١٤) قدم ابن حيان فى تاريخه عن العامريين قائمة بأسماء فقهاء قرطبة الذين أدوا يمين الطاعة لهشام الثانى عند توليه السلطة ، وتضم هذه القائمة – التى أوردها وأضاف إليها ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام ... » (ص – ٥٦ – ٦٥) – عدداً كبيراً من الوجهاء والقضاة الذين يسهل التعرف عليهم بينهم سبعة تولوا قضاء قرطبة .

(١٥) ويسط « راحة اليد » كرمز للبيعة ثابت في مبايعة محمد الثانى (المهدى) ، انظر / ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثالث ، ص ٦٠ .

(١٦) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(١٧) عن الحاجب فى الإسلام ، انظر المقال التالى :

- M. Sobernheim, en la Enc. Isl., II,P.219 .

(١٨) عن أصول منصب الوزير ، انظر :

- S. D. Goitein : the origen of the vizirato and its true character, en Islamic Culture, XVI, 1942, PP. 255-263 y 380-392.

(١٩) فى اللغة العربية « خُطّة » ، وجمعها « خطط » .

(٢٠) عن المقرى « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ١٣٣ .

21 - Prolégoménes, trad. De Slane, II, p. 13 .

(٢٢) يذكر ابن القوطية (« تاريخ افتتاح الأندلس » ، ص ٦١ – ٦٢ من النص ، ص ٤٩ فى الترجمة) أن عبد الرحمن الثانى هو أول من قنن حضور الوزراء إلى المجلس الملكى ، وطبقًا لابن حيان (« المقتبس » ، الجزء الأول ، ص ١٩٦) فقد ظلت تلك القواعد التى ابتدعها عبد الرحمن الثانى سارية المفعول فى القرن العاشر الميلادى .

(٢٣) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٢٤) وبهذا الشكل فقد حمل لقب « الحاجب » – الذى يساوى فى القيمة لقب العامل – فى النصف الأول من القرن الحادى عشر كل من : أحمد بن قاسم ، أمير « ألبونت » (Alpuente) ؛ « صبور » ، أول مستشار مستقل لبطليوس ؛ الزيرى « باديس بن حبوس » ملك غرناطة . انظر :

- Lévi - Provençal : Inscr. ar. d'Esp, p. 54 y 91 .

(٢٥) انظر المجلد الرابع (الفصل السادس) .

(٢٦) تشير إحدى فقرات « بغية الملتمس » (ص ٢٨٨) للضبى إلى أن لقب الوزير فى عهد الأمويين بإسبانيا كان يعنى فى المقام الأول الحصول على وضع معين داخل الهرم الاجتماعى .

(٢٧) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٢٨) انظر « نفح الطيب » للمقرى ، الجزء الأول ، ص ٢٣٣ . :

(٢٩) عن الألقاب التى تعنى الازدواجية فى الإسلام ، انظر :

- I. Goldziher : über Dualtitel, en Wiener Zeitschrift für die kunde des Morgenlandes, VII, págs. 321-329 .

وبالنسبة لإسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Lévi - Provençal : Inscr. Ar. d'Esp., p. 66 y nota 2.

(٣٠) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٣١) عن « نفح الطيب » ، للمقرى ، الجزء الأول ، ص ١٣٤ .

(٣٢) ابن عذارى « البيان المغرب ... » الجزء الثانى ، ص ٢٣٦ (٢٢٠) من النص الأصلى ، ص ٣٦٥ – ٣٦٦ من الترجمة .

(٣٣) انظر التعريف الصائب فى :

- Gaudefroy - Demombynes: Le monde musulman, p. 399 y nota 3.

(٣٤) ورد لفظ « قونداق » – المأخوذة دون شك من المصطلحات الإدارية البيزنطية – و« بطاقة » فى فقرة من « كتاب الصلة » لابن بشكوال ، رقم ١٠٤٢ .

كما أطلق نفس المصطلح (قونداق) على رسالة توبيخ صادرة من « عبد الملك المظفر » ، قام بتحريرها سكرتير الأمانة العامة للدولة « أحمد بن برد » (انظر : «الذخيرة ... » لابن بسام ، الجزء الأول ، ص ٨٧) .

(٣٥) توجد فقرة فى « الحلة السيراء » (ص ١٣٧) لابن الأبار تصف « عبد الرحمن بن بدر » بأنه « كان المفوض الوحيد من قبل العاهل لمنح الولاية ، وكانت سجلات التعيين تحرر فى بيته ثم تحمل إلى القصر لختمها ، وبعد أن تعود إليه يتكفل بإيصالها إلى المرسل إليه عن طريق حكام الأقاليم .

(٣٦) ابن بسام « الذخيرة » الأول – ١ ، ص ٨٦ – ٨٨ .

(٣٧) انظر :

- Lévi - Provençal : un recucil de lettres officielles almohades, Paris, 1942,p.17-19 .

(٣٨) طبقًا لإشارة قصيرة وردت فى « نفح الطيب » (الجزء الأول ، ص ٢٧٢) للمقرى ، فإن مكاتب الإدارة المركزية فى قرطبة كانت تغلق أبوابها يوم الأحد وليس الجمعة كما يعتقد ، كما توجد إشارة أخرى تجعلنا نجزم أن الأحد كان يوم عطلة فى إسبانيا الإسلامية سواء فى المدن أو القرى ، ويبدو أن اختيار يوم الأحد لراحة الموظفين يعود لأيام الأمير محمد الأول ، كما تشير عبارة وردت فى الجزء المكتشف حديثًا من

« المقتبس » لابن حيان (الجزء الأول ، ورقة ٢٢٣ V) ومفادها : أن القومس المسيحي ، ابن أنطونيانو ، عندما عين رئيسا لأمانة قرطبة العامة اشترط تفرغه أيام الآحاد لكي يتمكن من ممارسة شعائره الدينية .

(٣٩) انظر :

- R. Hartmann: Enc. Isl. I, p. 678 .

- Mez : Ren. Isl., Trad. Vila, p. 385 y sigs .

- Gaudefroy - Demombynes : Le monde musulman, p. 397-398.

(٤٠) يبدو أن حكومة قرطبة المركزية كان لديها – داخل المملكة وخارجها – شبكة واسعة من الجواسيس ونقلة المعلومات الذين يطلق عليهم ابن حوقل (الجزء الأول ، ص ١١٦ من طبعة Kramers) « مخلفين على رفع الأخبار » .

(٤١) انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. Xo siécle, p. 55 y nota 2.

ولقد ارتكب « فاجنان » خطأً فادحًا في ترجمته لـ البيان المغرب .. » (الجزء الثاني ، ص ٤٣١) عندما فسر كلمة « بُرُد » على أنها جمع « بردة » ، أي « لباس» .

(٤٢) بالنسبة للشرق في القرن العاشر ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, pp. 592-594 .

(٤٣) المرجع السابق ، ص ٥٩٢ .

(٤٤) للتعرف على النظام المالي في الدولة العباسية ، انظر :

- F. Lokkegaard : Islamic taxation in the classic period with special reference to circumstance in Iraq, Copenhague, 1950.

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, págs. 138-172.

(٤٥) ظهر التعبير الأخير في عهد الحكم الثاني فقط ، وقد استخدمه كل من عيسى الرازي وابن حيان (المقتبس ، الجزء الثالث ، Passim) .

(٤٦) ابن عذاري « البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ، ص ٢١١ (١٩٧) من النص الأصلي ، ص ٣٢٦-٣٢٧ في الترجمة .

(٤٧) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٤٨) انظر المجلد الرابع (الفصل الثاني) .

(٤٩) انظر المجلد الرابع (الفصل الرابع) .

(٥٠) تنسب هذه البيانات لابن بشكوال ، وقد ذكرها عنه كل من المقرى (« نفح الطيب ، الجزء الأول ، ص ١٣٠) وابن عذارى (« البيان المغرب ... » الجزء الثاني ، ص ٢٤٧ (٢٣١) من الأصل ٢٨٢ من الترجمة) .

(٥١) « كتاب صورة الأرض » طبعة Kramers (الجزء الأول ، ص ١١٢) ، يلمح ابن حوقل أيضاً من طرف خفى إلى أن الزيادة الهائلة في المالية أيام الحكم الثاني ترجع لمصادرة العامل لثروات عدد كبير من الموظفين الذين كانوا يعملون في إدارة سلفه .

(٥٢) « لابد وأن تكون الإشارة مبنية على أساس المقارنة بجملة احتياطي آخر ، ذلك لأن ابن خلدون قد أشار في مقدمته – الجزء الأول ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ – إلى أن عبد الرحمن الثالث قد ترك عند موته مخزوناً يقدر بخمسة ملايين دينار يصل وزنها إلى ٥٠٠ قنطار من الذهب .

(٥٣) بالنسبة للشرق في نفس العصر ، انظر :

- Lokkegaard : Islamic taxation, p. 128

تجدر المقارنة في هذا المقام بين الأرقام التى أوردها المؤرخون والجغرافيون هنا وبين ميزانية الدولة العباسية عام ٩١٨ / ٩١٩ م (٣٠٦ هـ) ، وهي كالتالي : ١٤٨٢٩١٨٨ دينار إيرادات) ، ١٦٩١٩٠٨٢ دينار (نفقات) ، وقد وصل احتياطي الخزانة عام ٩٠٨ م إلى ١٥ مليون دينار .

(٥٤) عن ابن الخطيب « كتاب أعمال الأعلام ... » ، ص ١١٤ – ١١٥ .

(٥٥) انظر ، على وجه الخصوص :

- M. Van Berchen : La Propiété territoriale et l' impôt foncier sous les premiers califes. Etude sur 1' impôt du kharâg' Ginebra, 1886.

- C. H. Becker : Islamstudien, I, Leipzig, 1924.

- Gaudefroy-Demombynes: Le monde musulman, p. 195 y sigs., y P.337 ysigs.

(٥٦) انظر :

- Lévi - Provençal : Péninsule Ibérique, p. 251 .

(٥٧) ابن بسام « الذخيرة » ، الجزء الأول – ١ ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(٥٨) إذا أخذنا في الاعتبار ما أورده البكري ، انظر :

- Lévi - Provençal : Péninsule Ibérique, p. 251 .

(٥٩) فى فقرة هامة لابن عذارى (« البيان المغرب .. » ، الجزء الأول ص ٢٣٦ (٢٢٧) من النص ، ص ٣٣١ من الترجمة) ورد لفظ « مغارم » مع النعت « سلطانية » إلى جوار التعبير « وظيفة مخزنية » ، ولقد تم إعفاء سكان « سبته » من كلتا الضريبتين بموجب مرسوم « سجل » من الخليفة الحكم الثانى صدر فى فبراير / مارس ٩٦٤ م (صفر ٣٥٢ هـ) ، وحولت قيمة الضريبتين على سكان « الشرف » التابعة لإقليم إشبيلية .

(٦٠) انظر :

- M. Asín Palacios:Un códice inexplorado del Cordobés Ibn Hazm, en Al-Andalus, II, p. 37 [trad. Española, p.37 42].

(٦١) الضريبة الاستثنائية على الضياع (مفردها : ضيعة) المسماه « تضييع » (Tadyi') والمفروضة فى إفريقيا عام ٩١٧ م (٣٠٥ هـ) - طبقًا لعارب الذى أخذ عنه ابن عذارى (« البيان المغرب » ، الجزء الأول ص ١٨٤ (١٨١) من النص ، ص ٢٥٦ من الترجمة) - ، لا يبدو أنها كانت تسمى بنفس الاسم فى إسبانيا الإسلامية التى كانت تحصل فيها خلال القرن العاشر .

(٦٢) بالنسبة للشرق ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, p. 157 nota 4.

(٦٣) يذكر أن سوق النبيذ فى « شقندة » (Secunda) كان مؤجرا أيام الحكم الأول لشخص يدعى « حيون » (Hayyun) .

(٦٤) للتأكد من ورود اللفظ المذكور هكذا ، انظر :

- Lévi - Provençal : Seville musulmane, p. 142.

(٦٥) ومع هذا فقد فرض فى قرطبة خلال القرن التاسع تحصيل الضريبة على اثنتى عشرة دفعة موزعة على الشهور الهجرية ، ويؤكد هذا ما جاء فى كتابات مستعربى ذلك العصر ، انظر :

- Leovigildo : De habitu clericorum (España sagrada, XI, p. 523).

- Simonet : Hist. de los mozárabes, p. 93 y nota 2.

(٦٦) والتفضل بالتنازل عن تسديد البقية (والكلمة لا زالت تحتفظ بها اللغة الإسبانية حتى اليوم ، وتعنى « بقية الدين ») كان معروفًا فى التراث الساسانى .

(٦٧) بالفعل ، فإن لفظ « عامل » يعنى فى النصوص التاريخية الخاصة بالغرب الإسلامى فى العصر الوسيط : « موظف الإدارة المالية » .

(٦٨) انظر ابن خلدون « العبر ... » ، الجزء الرابع ، ص ١٣٣ .

(٦٩) انظر ابن عذارى « البيان المغرب ... » الجزء الثانى » ص ٢٤٧ (٢٣١ - ٢٣٢) من النص الأصلى ، ص ٣٨٢ من الترجمة .

(٧٠) انظر ابن الخطيب « كتاب أعمال الأعلام ... » ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٧١) استقينا هذه المعلومة من « اللوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة » لعلي بن يوسف المديوني ، وأقوم حاليًا بإعداد ملخص سيتم إدارجه في :

- Matériaux pour servir á l' histoire économique et sociale de l' occident musulman au Moyen Age.

(٧٢) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X° siécle, p. 75 y nota 2.

(طبقًا للمجموعة الصغيرة المجهولة المؤلف التي تحمل عنوان : « كتاب الزهرة المنثورة في الأخبار المأثورة ») .

- G. C. Miles : The Coinage of the Umayyads of Spain, Nueva York, 1950, págs. 39-40.

(٧٣) انظر :

- Miles : op. cit, pp. 20-22 y 113-126 .

في الصفحة رقم ٢٢ والملاحظة ١ يمكن الاطلاع على رأى هذا الباحث حول بعض الدراهم المسكوكة في « الوسيط » (Wasit) ليتم التعامل بها في إسبانيا وفي شمال إفريقيا ، ولهذا السبب كانت تحمل على أحد وجهيها « سكت في إسبانيا » ، وعلى الوجه الآخر « سكت في إفريقيا » .

(٧٤) المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ ، ١٣١ - ٢٣٤ .

(٧٥) « مختصر كتاب البلدان » (B. G. A.) ، الجزء الخامس ، ١٨٨٥ ، ص ٨٨ . طبعة وترجمة :

- Hadjsadok: Description du Magreb et de l' Europe au III = IXsiècles, Argel, 1949, pags. 50-51.

(٧٦) هذا الباب الذي يسمى أيضا « باب إشبيلية » كان يؤدي إلى « الجانب الغربي » من مدينة قرطبة .

(٧٧) انظر : ابن عذاري « البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ، ص ٢١١ (١٩٨) من النص ، ص ٣٢٧ من الترجمة .

- Lévi-provençal : Esp. mus. X° siécle, págs. 75-76.

(٧٨) سنتحدث فيما بعد عند تناولنا للمقاييس والموازين في إسبانيا الإسلامية عن المواصفات الأساسية للعملات الأموية .

(٧٩) قام النباهي بشرح مصطلح « المستخلَص » شرحًا وافيًا في كتابه « المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » (ص ١١٤) .

أمـا « صاحب المستخلص » أبو علي بن حدُاية فقد ذكر بروفنسال (Esp. mus. X° siècle, p. 75-76) إنه كـان يعـمل في خـدمـة بني نصـر ، والصـحـيح أنه كـان يعـمل في خـدمـة المرابطين .

(٨٠) أكد « عارب » في مناسبتين مختلفتين على وجود هذه الوظيفة . انظر :

ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، الجزء الثاني ، ص ٢١٢ (١٩٩) ، ٢٢١ (٢٠٥) من الأصل ، ص ٣٢٩ ، ٣٤٠ في الترجمة .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ (٢٢٤) من الأصل ، ص ٣٨٧ من الترجمة .

(٨٢) ونفس الشيء يمكن قوله أيضا بالنسبة لكلمة « جهة » .

(٨٣) قام « ياقوت الحموى » بشرح هذا اللفظ في « معجم البلدان » (الجزء الأول ، ص ٢٧) .

(٨٤) انظر :

- Lévi-provençal : Esp. mus. X° siécle, P. 119, nota 4.

(٨٥) يستخدم الجغرافيون أحيانا الجمع « كُوَر » للدلالة على المفرد ، انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, glosario, p. 278, s.V° .

(٨٦) انظر :

- B. G. A., III,p. 235 (trad. pellat, Argel, 1950, p. 39).

- Alemany, Georg: pén. Ibér, págs. 38-39.

(٨٧) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, págs. 246-249 .

(٨٨) نشير في هذا الصدد إلى أن معظم أسماء « الكور » الأندلسية التي وردت في « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد لا تتفق مطلقًا مع الواقع الإدارى لا في القرن العاشر ولا في الأزمنة التالية له .

(٨٩) انظر :

- Lévi-provençal : Esp. mus. Xo siécle, P. 116, Nota 3.

(٩٠) المرجع السابق ، ص ١١٧ ، ملاحظة ٣ .

(٩١) المرجع السابق ، ص ١١٧-١١٨ ، ملاحظة ١ .

(٩٢) ثبت بالدليل القاطع أن « غافق » كانت توجد في نفس مكان « بِلا لقصر » الحالي (Belálcazar) التي تبعد ثمانية كيلو مترات عن (Hinojosa del Duque) .

انظر :

- F. Fernández Jiménez : Estudios de geografía histórica española, VII: Gafiq, Gahete = Belàlcazar. en Al-Andalus, IX, 1944, págs. 71-109.

(٩٣) عن مسمى هذه الكورة ، انظر :

- Lévi-Provençal : en Enc, Isl., IV, p. 663, S. V°.

(٩٤) المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٢٢١ .S. Vo .

قبل القرن العاشر كانت « أرشذونة » هي عاصمة كورة « ريّة » .

(٩٥) توجد أمثلة على ذلك في :

- Pérés : Poésie andalouse, pp. 105, 119, 142, 192 .

(٩٦) لنا عودة فيما بعد للحديث عن القانون الخاص بهذه الكور والجند المقيمين بها .

(٩٧) تحدث ابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٨٠٨) عن أمين كورة مالقة في القرن العاشر .

(٩٨) سنتحدث فيما بعد عن الثروة الطائلة التي جمعها « عبد الملك بن شهيد » عندما رأس خلال تسع سنوات – في عهد المنصور بن أبي عامر – الإدارتين الإقليميتين لكل من كورة « بلنسية » و« تدمير » ، وقد تحول بهذا المنصب إلى ملك غير متوّج على شرق الأندلس بكامله .

(٩٩) أثبت « أحمد الرازي » في وصفه لإسبانيا الوجود المتزامن لغرناطة وإلبيرة خلال القرن العاشر ، وأيّده في هذا ابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » رقم ١٤٤١) عند حديثه عن الأديب « مطرف بن عيسى الغساني » الذي عاش في عاصمة المستقبل للزيريين وتوفي بها عام ٩٦٧ م (٣٥٦ أو ٣٥٧ هـ) .

الفصل الثانى

النظام العسكرى [1]

عناوين الفصل الثانى :

١ - مناطق الحماية والنظم الدفاعية :

ثغور الأندلس – النظام الدفاعى – القلاع .

٢ - جيش الخلافة :

عناصر الجيش النظامى ، وكيفية تجنيدها – المرتزقة – وحدات الجيش – المتطوعون للجهاد – إدخال التشكيلات البربرية فى جيش الخلافة – إصلاحات المنصور العسكرية ..

٣ - الحملات الحربية :

إعداد وتجهيز الحملات – معدات الجيش وأسلحته – طوابير الجيش ومهماته العسكرية – فنون القتال وفرض الحصار – المُحَصِّلَة النهائية للحملات العسكرية .

٤ - الأسطول والدفاع عن السواحل :

الأسطول وموانىء الحرب – الدفاع عن السواحل

- حواشى الفصل الثانى .

١ - مناطق الحماية والنظم الدفاعية

ثغور الأندلس (Las Marcas) :

كانت سلامة البناء الذى أقامه الأمويون فى إسبانيا الإسلامية مرهونة دائمًا - سواء فى القرن العاشر أو عصر الإمارة - بقوة عاهل قرطبة العسكرية ، والحفاظ على تلك القوة كاملة غير منقوصة ، وتعزيزها كلما سنحت الفرصة كان الشغل الشاغل للخليفة ؛ ذلك لأن تدنيها العارض ينعكس فى الحال على هذا المكان أو ذاك من المملكة فى صورة تمردات ريفية أو أعمال شغب من قبل السوقة ، وكان - على الصعيد الخارجي - يوقظ شهية الجيران من مسيحى شمال شبه الجزيرة أو شيعة إفريقيا . وللتصدى لنزوات القشتاليين والبشكنس والفرنجة والليونيين العدوانية ، كان من الضرورى تبنى نظام دفاعى محكم يستند على مواقع استراتيجية ، تؤمن طرق الاتصال وتستخدم كخط دفاعي متقدم ، أو نقاط مساندة لحملات الردع الموجهة إلى أرض الأعداء ، كما كان على قرطبة فى نفس الوقت - لمواجهة قوة الفاطميين المتزايدة - تقوية دفاعات السواحل الضعيفة (خاصة فى الجانب الشرقى) من خلال إعداد أسطول حربى وزيادة عدد الترسانات البحرية ومحاولة نقل الصراع إلى الأراضى الإفريقية بعيدًا عن الأندلس .

تحدثنا كثيرًا فى المجلد الرابع عن تلك (الماركات - Marcas) التى تتولى حماية إسبانيا الإسلامية فى الجانب المواجه للممالك المسيحية ، وعن الدور الذى تضطلع به ، سواء فى عصر الإمارة أو الخلافة ، وبوجه عام ، فقد كانت تلك الثغور (التى تختلف عن التقسيمات الإدارية الداخلية المسماة بالكور) صورة طبق الأصل من ثغور الإمبراطورية العباسية الواقعة على حدودها مع الإمبراطورية البيزنطية ، ومثل الأخيرة ، فقد كانت مناطق حرب تعيش حالة الاستنفار الدائم وتقع على مقربة من الحدود التى تشكلها الأنهار الكبيرة ، مثل « الدويره » و « التاجه » حتى لا تكون فريسة سهلة ؛لكن علينا ألا نظن أن تلك الثغور كانت دائمًا مناطق خالية من السكان ؛ ذلك لأنه إلى جوار المناطق الصحراوية وبعد تجاوز الخط الاستراتيجى كانت تنفتح - فى الغالب - أقاليم

شاسعة خصبة تمثلها أحواض الأنهار التى تشكل تخوم الأراضى الإسلامية مع الأعداء ، والوديان التى تتخللها الفروع الجنوبية لتلك الأنهار ، ما حدث بالفعل هو أن تلك الثغور كانت تتمتع بلوائح سياسية مختلفة عن القوانين الخاصة بالتقسيمات الإدارية الداخلية ؛ نظراً لوجودها على الحدود مع الأراضى المسيحية ولبعدها النسبى عن العاصمة ، وللمهمة الحربية الملقاة على عاتقها بصفتها الدروع التى تتلقى الصدمات الأولى لهجمات المعتدين ، ولأنها أراضى حربية فلم يكن الذى يمارس السلطة فيها – بتفويض من الأمير أو الخليفة – حاكمًا مدنيًا (واليًا) مثل الكُوَر ، بل « قائداً » عسكريًا (مثل « الماركيز » فى الجانب المسيحى) .

وطبقًا للمؤرخين المسلمين فإن الثغور المتقدمة فى الأندلس كانت ثلاثة : الثغر « الأعلى » ، و« الأوسط » ، و« الأدنى » .

كان هذا التقسيم مطابقا للواقع بالفعل خلال حقب تاريخية معينة (خاصة فى القرن التاسع) ، أى قبل حلول السلام النهائى بالأراضى التى تمتد غرب شبه جزيرة أيبيريا ، ويمثلها حاليًا إقليم « إكستريمادورا » ووسط البرتغال .

أما فى عصر الخلافة فقد كانت مناطق الثغور تقتصر على مجموعتين : مجموعة « الثغر الأعلى أو الأقصى » ، وعاصمتها سرقسطة ؛ ومجموعة « الثغر الأوسط أو الأدنى » ، المواجهة لملكتى قشتالة وليون ، وعاصمتها « مدينة سالم » ، ومقر القيادة الأخير حلّ فى نهاية عهد الناصر محل « طليطلة » البعيدة عن مسارح الأحداث وقرون الاستشعار التى كانت تزحف من « مدريد » و« طلبيرة » و« قورية » و« قلُمْرية » نحو مرتفعات جبال « وادى الرَّملة » والمجرى الأدنى لنهر « الدويرة » و« جليقية » .

يبدو من قبيل الإطالة التى لا معنى لها العودة هنا للحديث عن نشاط قادة الحرب الرئيسيين الذين اكتسبوا فى القرن العاشر شهرة طبقت الآفاق أثناء توليهم قيادة هذا الثغر أو ذاك ، لونسينا فلا يحق لنا نسيان المشار الرائع لمولى عبد الرحمن الثالث : « غالب هلناصرى» (صاحب الثغر الأعلى) الذى عهد إليه خليفة قرطبة عام ٩٤٦ م (٣٣٥ هـ) بإعادة « مدينة سالم » المنيعة إلى ما كانت عليه ، وتحويلها

إلى نقطة انطلاق راسخة للصوائف المتجهة إلى المواقع المسيحية فى الحوض الأعلى والأوسط لنهر « الدويرة » ؛ هذا الفارس المقدام الذى لقى حتفه عام ٩٨١ م (٣٧٠هـ) فى ظروف مأساوية (٢) بعد انتصاراته المدوية على « أدارسة » المغرب المنشقين ، ولن ننسى كذلك الدور السياسى الذى لعبه فى الثغر الأعلى (خلال القرن العاشر) عدد من أفراد عائلة « بنى توجب » العربية مثل ابن هشام وولده يحيى .

وكما عهدنا من قبل ، فإن المصادر التاريخية التى بين أيدينا لا تمدنا بشىء نستطيع من خلاله التعرف على مدى اختلاف واجبات وحقوق سكان الثغور عن الشائع منهما بين سكان الأقاليم الخاضعة للإدارة المدنية ، كل ما نستطيع قوله يتلخص فى أن طليطلة وسرقسطة شرعتا - بعد انضوائهما الأخير فى القرن العاشر تحت لواء قرطبة - فى ممارسة دور الحواضر السياسية والثقافية ، وقد اكتمل هذا الدور فى القرن التالى عندما أصبحت كل منهما عاصمة لمملكة من ممالك الطوائف الهامة ، وفى سرقسطة - على الأقل - يبدو أن تأسيس إمارة بنى هود فيها خلال القرن الحادى عشر لم يكن أكثر من ترسيخ لوضع كان قائمًا بالفعل ، ذلك لأنها كانت تتمتع - حتى فى عهد الناصر نفسه - بنظام سياسى أقرب إلى ما نسميه بالحماية : بمعنى أن الزعيم « المحمى » يعترف فى كل وقت بخضوعه للأمير « الحامى » ولا يضن عليه بالتعاون العسكرى أو المالى ؛ وفى مقابل هذا يحتفظ هذا الزعيم بالعديد من الامتيازات السلطانية ويصبح كالسيد الإقطاعى على الزعماء الصغار الذين يحكمون الأجزاء المختلفة من أراضى الإقليم (٣) .

النظام الدفاعى : القلاع : -

من المناظر الطبيعية الأيبيرية الأكثر أصالة (سواء فى هضاب ليون وقشتالة الشاسعة أو الكتل المُضَفَّرة التى ترتفع خلف السواحل الأندلسية الشرقية) صورة الخيال المُحَدَّب أو المربع للقلعة التى تُشرف من فوق قمة صخرة على المناطق المحيطة بها ، وبالطبع فإن جميع قلاع إسبانيا والبرتغال ليست معاصرة لهيمنة الإسلام على شبه الجزيرة ، لكن عددًا كبيرًا منهما إسلامى الأصل ، وكثرة هذه القلاع (التى يحتفظ معظمها باسمه العربى) يعتبر أبلغ تعبير عن الجهود المُكَلِّفة التى بذلها

الأمويون – في جنوب الأندلس ، على الأقل – للتمتع والحفاظ على سلام قلب دولتهم . وبالرغم من هذا ، يمكننا التأكيد على أن معظم جهودهم في القرن العاشر قد انصرفت إلى قلاع الخط الحدودي الإسلامي / المسيحي (الثغور) الذي يحيط بملك الخلفاء ، على شكل قوس ، يمتد طرفاه من شاطىء المتوسط حتى ساحل الأطلنطي .

والقلاع من حيث التصنيف والتسمية أنواع : الأكبر حجماً منها والذي يعتبر في الوقت نفسه مركزًا حضريًا ، ويشبه الحصون المنيعة التي تسيطر على السهول الخصبة الآهلة بالسكان ، يطلق عليه « قلعة » (ولاتزال اللغة الإسبانية تحتفظ بهذا اللفظ العربي) ، ومدلول « القلعة » بهذا الشكل يختلف عن مفهومها في الشرق حيث كانت تُطلق فيه على « المَعْقل » الكائن بمدينة ما ، وهو يساوي في الغرب الإسلامي مصطلح « قصبة » .

وفي إسبانيا الحالية توجد أعلام جغرافية كثيرة تحمل اسم « قلعة » ، نذكر منها على سبيل المثال » « قلعة جابر » (Alcalá de Guadaira) (بالقرب من إشبيلية) ؛ « قلعة جَرْوَلة » (Alcalá de los Gazules) [٤] (بمحافظة « شذونة ») ؛ «قلعة يحْصُب » (Alcalá la Real) [٥] (بإقليم غرناطة) ؛« قلعة النهر » أو« قلعة عبد السلام » (Alcalá de Henares) (بين مدريد ووادي الحجارة)؛ « قلعة أيوب » (Calatayud) (بين مدينة سالم وسرقسطة) ؛ « قلعة التراب »(Calatorao) ؛ « قلعة النسور » (Calatañazor) ؛« قلعة رباح » (Calatrava) [٦] ، أما «كاستيا » (Castilla) (بلد القلاع) فقد كان يطلق عليها في البداية الاسم العربي « القلاع » مقترنًا بـ « ألبة » (ألبة والقلاع) ، ويبدو أن هذا المسمى يسبق بنحو قرن على الأقل ما يعرف بـ « قشتالة » التي تعتبر تحويراً للفظة الرومانثية : Castella ، ثم Castilla .

ويعد القلاع – من حيث المساحة والحجم – تأتي الحصون التي تزيد أعدادها بكثير عن القلاع ، وبالرغم من أن كلمة « حصن » قد دخلت – أحيانًا – في تشكيل مسميات أعلام جغرافية عربية خالصة (مثل « حصن اللّوز » = Iznlloz ؛ « حصن القصر » = Aznalcázar) ، إلا أنها ظلت – في الغالب – تحتفظ بمدلولها الروماني أو الإيبيري القديم دون تغيير [٧] . والحصن ، الذي يقوم دائمًا على مكان مرتفع أو – بمعنى أصح – على قمة تلّ يصعب الوصول إليه ، يتكون أساسًا من سور ضخم

متماسك يحيط به من كل الجهات ، وإذا كانت جهة منه تُشرف علي أخدود فإنه يكتفى فيها بالحائط الطبيعي ، وفي زوايا هذا السور – المبنى من الدبْش (حجارة غير مصقولة) أو الآجرّ – ترتفع الأبراج ، كما يحتوى السور على شرفات وممشى لطواف نوبات الحراسة ، وفي معظم الأحوال يلتف السور حول فراغ أو مساحة صغيرة غير ممهدة ، ولا توجد به سوى بوابة واحدة قوية مبطنة بصفائح من الحديد ، وكانت البوابة تلى – أحيانًا – قنطرة متحركة تسمح باجتياز الخندق فى حالة وجوده .

لم يكن هذا المكان المُسَوَّر المحدود المساحة – « حرم الحصن » [٨] – سوى استحكام دفاعي قادر على التصدى لهجمات الأعداء وتَحَمُّل حصارهم ؛ ولذا فلم يكن يحتوى إلا على عدد قليل من المنشآت الدائمة ، مثل : صهاريج لحفظ مياه المطر ، مخزن أو أكثر للسلاح أو لتخزين المواد الغذائية ، عدد من غرف الإقامة في الأبراج الكبيرة وفي برج التشريفة ، وخارج هذا الحرم – تحت أقدام الحصن ، حيث يقل ارتفاع التلّ – يقع « الربض » الذى يعيش فيه الجنود مع عائلاتهم ، بالإضافة إلى عدد من الحرفيين والتجار الذين يمارسون التجارة فى سوق صغير إلى جوار مسجد متواضع الأبعاد ، ويتمتع جنود الحامية النظاميون – عادة – بحق زراعة قطعة أرض صغيرة « مَحْرَث » على مقربة من الحصن والاستفادة من محاصيلها [٩] ، وفى حالة الخطر يقوم سكان « الرَّبض » بالانتقال إلى الحصن بعد أن يحملوا إليه كافة منقولاتهم ومخزون صوامعهم ، وهذا النظام الذى يمنح الجندى حق الاستفادة من عائد أرضه قد تكفل بتحويله – شيئًا فشيئًا – إلى مزارع مرتبط بالمكان وعلى استعداد – بالتالى – للتضحية بنفسه فى الدفاع عن أبراجه ضد هجمات الأعداء ومحاولاتهم لسلب محتوياته ، ومن جهة أخرى ، يبدو أن هذا النظام قد استُخدم كأساس لسياسة « إعادة تعمير » المناطق المحيطة بالحدود فى كلتا الجهتين .

وبالإضافة إلى « القلعة » و « الحصن » لم تخل إسبانيا الإسلامية كذلك – خاصة فى مناطق الجنوب الجبلية – من مواقع أخرى حصينة (أقل حجمًا من الحصن) على قمم المنحدرات الصخرية ، كانت عبارة عن معاقل طبيعية منيعة لم تلحقها يد التعديل إلا لمامًا ، يطلق عليها « صخرة » ويبدو أنها لم تكن مزودة – فى الغالب – بحاميات مستقرة استقرارًا دائمًا [١٠] .

لقد استخدم المسيحيون كل هذه القلاع–بعد وقوعها أو عودة وقوعها فى أيديهم ، تبعًا لسير « حرب الاسترداد » – ضد المسلمين فى العصور الوسطى بعد إدخال

بعض التعديلات عليها ، ولاتزال غالبية هذه القلاع باقية – تقريبًا – على حالتها التى كانت عليها أيام المسلمين بالرغم من عوامل التعرية وتعديات سكان القرى المجاورة الذين يستخدمونها كمحاجر لبناء منازلهم ، كما يحتفظ بعضها إلى الآن – سواء على الساحل الأندلسى أو فى الداخل أو فى منطقة الحدود القديمة مع أشتوريش وليون وقشتالة – بالنقوش والكتابات التى تخلد ذكرى تأسيسه أو تعزيزه فى القرن العاشر ، ومن هذه القلاع نذكر قلعة « برج الحمّة » (Baños de la Encina) (بمحافظة « جيان » ، شمال « بايلين » Bailén) التى يستغل حرمها الآن – مثل قلاع أندلسية أخرى – فى دفن الموتى ؛ وقد تم بناء برجها – وفقًا لنص خاص بعلم المدونات والنقوش – على يد القائد الصقلبى « ميسور » (فى صيف ٩٦٨ م – ٣٥٧ هـ) بتكليف من الحكم الثانى ، أما تاريخ بناء برج قلعة « طريف » (على مضيق جبل طارق) فيرجع إلى أحرج فترات التهديدات الفاطمية :أى إلى عام ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) . ونشير فى النهاية إلى قلعة كانت بمثابة مفتاح دفاعى حقيقى فى الخط الاستراتيجى لدولة الخلافة : قلعة « غُرماج » (Gormáz) التى تقع بين « وخشمة » (Osma) وبين « بيرلانجة » (Berlanga) ، وتُشرف من فوق قمة تلّ يرتفع لأكثر من ١٢٠ مترًا على الوادى الأعلى لنهر « الدويرة » ، إنها لا تزال رابضة إلى يومنا هذا ، مشرئبة العنق نحو السماء ، بخيال حرمها الشاسع الذى يتمطى لما يقرب من الكيلو متر ، كحارس ورقيب على غوْطة تتماوج بالخُضْرة ، وهناك نقوش ، تساندها الوثائق التاريخية ، تفيد أن الحكم الثانى هو الذى أمر ببناء هذه القلعة – أو على الأقل ترميمها – عام ٩٦٥ م (٣٥٤ هـ) تقريبًا [١١] .

وهناك دراسة حديثة نسبيًا [١٢] عن قلعة « غُرماج » تلقى الضوء على مهارة مسلمى القرن العاشر الإسبانى فى فن تشييد الحصون والاستحكامات ، وتنعتها بالتفوق على بقية أوروبا الغربية ، إن نوعية البناء ، بالإضافة إلى اعتدال خطوطه المعمارية والترشيد فى الاستفادة من المساحة المتاحة تجعل من أطلال هذه القلعة دليلاً دامغًا على قوة الأمويين الحربية وعلى القدرات الضخمة التى كان بإمكانهم استثمارها لبناء مجمعات استراتيجية على هذا القدر من الأهمية .

لن يكون من قبيل الإطناب إذا أشرنا – ونحن نتحدث عن هذا الموضوع – إلى أن المصطلحات الخاصة بالأجزاء المختلفة للقلعة قد انتقل معظمها إلى اللغة الإسبانية منذ العصر الوسيط ، صحيح أن المسلمين تبنوا لتلك المصطلحات بعض المفردات ذات الأصل الإيبيرى (مثل « قَلَهُرَّة » للإشارة إلى « القصبة ») لكن جيرانهم العدوانيين من المسيحيين أخذوا عنهم كلمات أكثر ، مثل « دُرْب » (adarve) للإشارة إلى « ممشى الدورية » ؛ « ستارة» (acitara) للإشارة إلى «الحاجز الواقي»؛« طليعة » (atalaya) للإشارة إلى « برج المراقبة » ، ، « بَرَّانية » (albarrana) للإشارة إلى « البرج الخارجى » ؛ ... إلخ [١٢] ، وفيما بعد سنرى أن تلك الاستعارات اللغوية لم تقتصر – فى مادة الحرب – على فن تشييد الحصون والاستحكامات .

أ - جيش الخلافة

عناصر الجيش النظامى ، وكيفية تجنيدها : -

كان جيش الخلافة يتألف فى القرن العاشر من عنصرين يتعين علينا دراسة نظام ولوائح تجنيدهما فى ضوء ما تسمح به الوثائق المتاحة : فهناك - من جهة - الفرق الدائمة المجمعة من خلال التجنيد الإجبارى للأندلسيين المكلفين بأداء الخدمة العسكرية ؛ وهناك - من جهة أخرى - المرتزقة الأجانب .

وإلى هذين العنصرين تجب إضافة قوات الدعم الاستثنائية المؤلفة من كتائب المجاهدين (أهل الرباط) .

كان الوفاء بأرزاق جيش غير متجانس على هذا النحو ، وصرف رواتب القوات التى تشكل صفوفه يعنى - بالنسبة للخليفة ولجهاز خدماته المركزية - تخصيص ميزانية ضخمة ودائمة يتم اقتطاعها من موارد الخزانة العامة ، ولهذا السبب يَجْمَع واضعو نظريات الحقوق العامة فى الإسلام - مثل ابن خلدون فى القرن الرابع عشر (١٤) - فى دراساتهم بين التنظيم المالى للدولة وبين مالية الجيش (أو « ديوان الجيش » ، بتعبير أدق) . يكثُر الحديث فى المدونات التاريخية الخاصة بإسبانيا الأموية عن هذا « الديوان الحربى » والذى كان في الأصل « سجلّ» لتدوين القوات العاملة التى تتمتع برواتب ثابتة سواء كانوا جنوداً أم ضباطًا ، والكل يطلق عليه لفظ « مُتَدَوَّن » ، وإلى القوائم التى يتألف منها هذا « السجلّ» يمكن - فى مناسبات خاصة - إضافة « ملاحق الديوان » (١٥) ، وهى عبارة عن قوائم تكميلية .

والنصوص التى يمكن الرجوع إليها للتعرف على الطريقة التى كان يتم بها التجنيد أو المرتبة الاجتماعية لسكان الأندلس المكلفين بأداء الخدمة العسكرية يكتنفها كثير من الغموض والإبهام ، ومن بين سكان الأندلس المكلفين بأداء هذا الواجب يأتى فى المقام الأول العرب السوريون ، أحفاد « جُند » بلج القشيرى ، الذين ظلوا مقيمين

فى أراضى أسلافهم ومتمتعين - فى البداية ، على الأقل - بما كان لهم من ميزات ، ومتجمعين فى أقاليم ظلت محتفظة باسمها الرسمي القديم : « كُور مُجَنَّدة » .

لازلنا نذكر أن « الجند » الأوائل الذين مُنحوا « إقطاعات أو مقاطعاتٍ » آلت إلى حفدتهم ، كانوا فى رباط دائم وملزمين بتلبية نداء الأمير كلما دعته الحاجة إلى انخراطهم فى سلك الجندية ، دون انتظار لمقابل ، لكن هذا الالتزام سرعان ما توارى وأصبح الإقطاعيون السوريون يتلقون المقابل المادى أو العينى الضخم مثل بقية فرق الجيش الدائمة أو شبه الدائمة .

ومن جهة أخرى ، فإن مسمى « جُند » أو « أجناد » (ومفردها : جندى) لم يكن يُطلق فى القرن العاشر على حفدة أصحاب « بلج » فقط ، بل اتسع ليشمل بعض الفئات الأندلسية (من العرب والبربر والمولدين الأحرار فى سن التجنيد) التى يقع على عاتقها أداء الخدمة العسكرية .

كان العاهل إذا أراد إعداد حملة عسكرية أو تعبئة قواته لأى ظرف طارىء يلجأ إلى إعلان « الاستنفار أو النفير » فى جميع كور المملكة ، بما فيها قرطبة ، وبناء على هذا يقوم كل والٍ بإرسال الرجال المقيدين بديوان كورته (الجند العاملين) إلى العاصمة أو إلى المكان المحدد للتجمع ، ويلحق بهم المتطوعون (الحشود ، ومفردها : حشد) ، وبهذا الشكل نستطيع فهم هذا التعبير الذى يستخدمه مؤرخو الغرب الإسلامى باستمرار : « الجنود والحشود » ، فالكلمة الأولى تعنى القوات العاملة الدائمة المقيدة بـ« ديوان » الكور المختلفة ؛ أما الثانية فيراد بها المتقدمين للتطوع من غير القوات العاملة ، كان يتكفل بتجنيد هؤلاء المتطوعة رجال يُطلق عليهم « حاشدون أو حُشَّاد » (مفردهما : حاشد وحَشَّاد) ، وكانوا يلجأون إلى الطرق التقليدية فى عملهم (١٦) بهدف زيادة عدد الجنود الذين تشملهم التعبئة (١٧) .

وللتعرف على مساهمات الكور المختلفة فى تعبئة الجيش الأموى لدينا - لحسن الحظ - إحصائية دقيقة (نطمئن لصحتها لعدم المبالغة فيما ورد بها من أرقام) تتعلق بعهد الأمير محمد الأول (النصف الثانى من القرن التاسع) قام بإعدادها ابن حيان (١٨) ، والإحصائية التى نتحدث عنها عبارة عن قائمة بأعداد الفرسان الذين أرسلتهم الكور الأندلسية وأقاليمها للمشاركة فى الحملة العسكرية الموجهة لأشتوريش

عام ٨٦٣ م (٢٤٩ هـ) ، وقد تضمنت ما يلي : شاركت كورة «إلبيرة» بـ ٢٩٠٠ فارس ؛ وأخرجت «قبْره» ١٨٠٠ ؛ و «باغة» (Priego) ٩٠٠ ؛ «تاكرونا» ٢٦٩ ؛ «الجزيرة الخضراء» ٢٩٠ ، «إستجة» ١٢٠ ؛ «قرمونة» ١٨٥ ؛ «شذونة» ٦٧٩٠ ؛ «ريّه» ٢٦٠٧ ؛ «فريْش» ٢٤٢ ؛ «فحص البلوط» ٤٠٠ ؛ «مَوْرور» ١٤٠٣ ؛ «تدْمير» ٢٥٦ ؛ «روبينة» (Rovina) ١٠٦ ؛ «قلعة رباح» و «أوربط» (Oreto) ٣٨٧ ، وهذه الأرقام (التى يصل إجمالها إلى حوالى ٢٢٠٠٠ فارس) لا تتناسب فقط مع تعداد سكان كل كورة ، بل أيضًا مع مساحتها الجغرافية وحالة الاستقرار الداخلى بها .

ومن بين هذه القوات يتمتع ذوو الأصول العربية - من السوريين والبلديين (أحفاد الفاتحين لشبه الجزيرة) - بمعاملة متميزة ووضع خاص ، هذا على الأقل ما يمكن استخلاصه من نص غامض للمؤرخ « أحمد الرازى » أورده فى القرن الرابع عشر المؤلف الغرناطى ابن الخطيب [١٩] ؛ وبالرغم من صعوبة تفسيره إلا أنه ذات أهمية كبيرة فيما يتعلق بدراسة نظام تعبئة القوات العسكرية أثناء حكم الأمويين ، يشير النص إلى أن الحكومة المركزية كانت تستدعى ربيع كل عام نصف الجند السوريين العاملين بكامل تشكيلاتهم للمشاركة فى العمليات الحربية التى تقررها ، وبعد مضى ثلاثة أشهر على الحملة يحل النصف الثانى محل النصف المستدعى أولاً ، وعلى غرار العرب السوريين كانت القوات المؤلفة من « البلديين » تشارك فى الصوائف بالطريقة نفسها : أى على أساس النصف وبالتناوب .

ويشير الرازى إلى طائفة ثالثة من الجنود يطلق عليهم « النُّصَرَاء » ويبدو أنها تتعلق بقوات تكميلية يتم تجنيدها للصوائف .

وفى هذا المقام يحق لنا طرح السؤال التالى : ما هى الجدوى الفعلية لتلك الاستنفارات الأندلسية من وجهة النظر الحربية ؟ الملابسات جميعها تشير - بعامة - إلى أنها لم تكن تزيد فى الفاعلية عن المتوسط ويعضد هذا الانطباع الشهادة - المتحيزة والمتحاملة - للرحالة المشرقى ابن حوقل الذى أكد فى أوج القرن العاشر - وفى أكثر من مناسبة - على تراجع فاعلية الأندلسيين الحربية وعلى عدم خبرتهم فى ركوب الخيل للقتال ، ويضيف الرحالة المشرقى - بسوء طوية لا تخفى على لبيب - أن تواضع إمكانيات قوات الخليفة كان يُعَوَّض بعضه اللجوء إلى خديعة الأعداء والتغرير بهم ، وطبقًا لما أورده المؤلف نفسه ، فإن عبد الرحمن الثالث - وكذلك سلفه - لم يكن بمقدوره تجميع وكفالة أكثر من خمسة آلاف فارس [٢٠] .

على أى حال ، من واجبنا الاعتراف بأن حكومة قرطبة (وهى فى هذا لا تختلف عما كان يحدث فى المشرق العربى وفى بيزنطة خلال العصر الوسيط) قد أدركت مبكرًا - ومنذ عهد عبد الرحمن الأول ، دون شك - حتمية الاستعانة بالمرتزقة لتدعيم صفوف القوات الوطنية العاملة ، ولتوفير الموارد اللازمة لكفالة هؤلاء الجنود الأجانب سيضطر ملوك الأندلس بعد ذلك للسماح لبعض رعاياهم بالإعفاء من أداء الخدمة العسكرية المكلفين بها (مثلما كان يحدث فى بقاع أخرى) مقابل فدية معتبرة تُسدد نقداً .

وهكذا ، يبدو أن المدن الكبرى (وقرطبة على رأسها) قد استطاعت - لا فى القرن العاشر فحسب ، بل فى السابق أيضًا بكل تأكيد [٢١] - التخلص ، بفضل المال ، من ربْقة الاستنفار المستمر .

المرتزقة : -

تتفق المدونات التاريخية [٢٢] على نسبة إدخال الكتائب الأجنبية فى الماكينة الحربية الأموية إلى الحكم الأول ؛ هذا على الرغم من أنها توحى بأن سلفيه - عبد الرحمن الأول [٢٣] وهشام الأول - قد استعانا فى جيوشهما بخدمات بعض الفصائل الأجنبية ، كان يُطلق على القوات المرتزقة - وفى جميع العصور - المسمى الشائع « عَجَمٌ » [٢٤] ، وهو يقابل « الجند أو الأجناد » ، فالمسمى الأخير يقصد به دائمًا المقاتلين الوطنيين ؛ أما الأول فيطلق على المحاربين أصحاب العطاءات المجلوبين من خارج الأندلس سواء كانوا أفارقة أم أوروبيين ، سوداً كانوا أم بيضاً .

ومبادرة الحكم الأول هذه واكبت إعادة تنظيمه للجيش حيث قسَّم قواته إلى فرق نظامية حدد عطاءاتها ، وبنى فى قرطبة - داخل حرم القصر - مخازن للسلاح والمعدات الحربية التى كانت تزيد باضطراد نتيجة لما تخرجه المصانع الرسمية ؛ كما اهتم بتشكيل وحدة حراسة دائمة للقصر (عِرافة) [٢٥] كانت تتألف من ثلاثة آلاف فارس وألفين من المشاة ، وجميع أفرادها من المماليك (جاليقيين وفرنجة ، وربما صقالبة) الذين اشتراهم من خارج الأندلس وألحق بهم بعض الأسرى من سبتمانيا .

ولقد ذكرنا فى المجلد الرابع شيئًا عن حرس الأمير الخاص الذى يدين له بالولاء الشديد والمؤلف من ١٥٠ رجلاً مسلحًا من « أربونة » ، وكما أشرنا فى حينه فقد كان القرطبيون (المرتعدون فرقًا من هذا الحرس القوى الشكيمة الذى لا يتردد فى

استخدام كافة أنواع القمح) يطلقون عليهم « الخرس » نظراً لجهلهم باللغة العربية ، وكان هذا الحرس المسيحي - الذي يقيم بملحقات القصر ويقوده رجل يدعى القومس « ربيع » (ابن تيودولفو) - مقسماً إلى فصائل ، في كل فصيلة ١٠٠ رجل .

وبتشكيل الحكم الأول لهذا الحرس الخاص من غير العرب - مقلداً في هذا ملوك بيزنطة وبغداد - يكون قد سن سنة يجب أن تتبع في إسبانيا المسلمة - وفي المغرب كذلك - حتى نهاية العصر الوسيط ، فمن أتوا بعده اتخذوا حرسهم الخاص من المرتزقة الأجانب الذين كان من السهل تجنيدهم منذ أن انضم إلى « الخُرْس » القدامى مغامرون أحراراً ، تستهويهم الرواتب العالية ويحدوهم الأمل في الوصول إلى شغل المناصب الهامة بالقصر ، وبهذا الشكل أخذت الميليشيات ذات الأصل المسيحي - سواء اعتنقت الإسلام بعد ذلك أو لم تعتنقه - تلتحم تدريجياً بنسيج المجتمع الأندلسي واستطاع عدد كبير من أفرادها الحصول على حريته من الأمير والتمتع بحق « المولى » .

وهكذا تشكلت طبقة من الصقالبة تحدثنا من قبل عن نشاطها وتأثيرها المتنامي في قرطبة منذ عهد الناصر [٢٦] ، أما الذين فضلوا - من بين هؤلاء المرتزقة ذوي الأصول الأجنبية - الاستمرار في ممارسة الجندية فقد كانوا يتميزون بالوفاء لساداتهم وبشجاعتهم وإقدامهم في الحروب ؛ ومن ثم فقد كانوا لملوك الأندلس بمثابة الدرع الواقي والقناة التي لا تلين [٢٧] .

وإلى جانب تلك الطائفة من المرتزقة الأجانب (عجم) ستظهر في قوائم الحرب الأموية (منذ بداية القرن التاسع ، على الأقل) طائفة أخرى مؤلفة من البربر المغاربة ومن العبيد السودانيين (بأعداد أقل). ندين بفضل التعرف على دور هؤلاء الأفارقة في الجيش الأموي لنص هام ورد في « المقتبس » لابن حيان - تم نشره حديثاً لأول مرة [٢٨] - ؛ هذا المؤرخ الذي استطاع - بألمعية منقطعة النظير - الاهتداء إلى الأسباب الحقيقية التي أودت بحياة دولة الأمويين في الأندلس ، في هذا النص يروي لنا ابن حيان - بعد تناوله لسقوط سبتة في يد عبد الرحمن الثالث - كيف أنف العاهل الأندلسي من طلب تعزيزات لجيشه من أمراء شمال المغرب (الأدارسة) الذين أخضعهم لسيادته ، وكيف اقتصر - طوال عهده - على الاستعانة بعدد ضئيل من الكتائب البربرية قليلة الشأن (من الطنجيين - نسبة إلى طنجة) ومن العبيد الأفارقة

السود الذين كانوا يحتلون الدّرك الأسفل من السلّم العسكرى ويكلّفون بأحط الأعمال وأشقها ، كما يشير ابن حيان إلى أن الحكم الثاني بعد توليه السلطة وجد نفسه مضطراً - الظروف التى سنتعرض لها فيما بعد - لانتهاج سياسة مخالفة تماماً لوالده .

ووجود الكتائب الطنجية (نسبة إلى طنجة التى كانت تتجمع بها قبل رحيلها إلى إسبانيا) فى الجيش الأموى شيء مؤكد ، إذ استعان بهم الأمير عبد الله (٢٩) فى صراعة الطويل والمرير مع ابن حفصون ومتمردى جنوب الأندلس ، لقد كان من الطبيعي أن توجه قرطبة ناظريها إلى بلاد البربر القريبة لتستمد منها ما ينقصها من قوات أشد تمرسا على الحرب والنزال من الأندلسيين ذوى الأصول العربية أو المولدين ؛ قوات تتوافر فيها صفات مماثلة للبربر المتأسبنين المقيمين فى الثغور الأندلسية من حيث قوة التحمل الجسماني والاعتياد على القتال فى الأراضى الوعرة .

وحدات الجيش : -

من الصعوبة بمكان معرفة العدد الإجمالى لجنود الجيش النظامى فى نهاية عهد عبد الرحمن الثالث ، لكن يجب ألا يسوقنا هذا إلى المبالغة فى تقدير الأعداد المشاركة فى كل صائفة من الصوائف السنوية . سبق وتعرفنا على حجم مشاركة الكُور فى إحدى حملات الأمير محمد الأول ، ورأينا أنها لم تزد إلا بقليل عن ٢١ ألف فارس ، وحتى لو أضفنا إليهم المرتزقة فلن يزيد الإجمالى بأى حال عن عدد يتراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ مقاتل ، وبالرغم من إمكانية تضاعف هذا الرقم فى عهد المنصور إلا أن الجيش العرمرم لم يكن له وجود - سواء فى الغرب أو الشرق - إلا فى مخيلة المؤرخين ، تجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن الطوابير الأموية لم تكن تواجه قوات معادية تفوقها حجماً بشكل ملموس إلا فيما نُدُر .

وبالطبع ، لابد أن تكون عناصر الجيش - المؤلفة من « الفرسان » (وهم الغالبية) و« الرّجالة » - خاضعة لنظام معين ومزودة بكوادر قيادية ؛ وعلينا أن نتسلح بالشجاعة ونعترف بأن معلوماتنا عن هذه المسألة يشوبها نقص واضح . وكما هو منطقى ، فقد كان يتولى قيادة الكتائب السورية (الجند) - أثناء احتفاظها بوضعها المتمثل فى الخدمة العسكرية الدائمة - قواد وضباط مختارون من بين صفوفها تحولوا إلى نوع من الأرستقراطية الحربية التى أثبتت - وفى كل العصور - ولاءها لعاهل

قرطبة ، بالرغم من أنها لم تكف فى بعض الأحيان (خاصة فى إلبيرة وإشبيلية) عن ارتكاب حماقة التمرد .

ومن بين قوّاد « الجند » هؤلاء يوجد الكثيرون الذين حازوا فى القرن التاسع الفخار أمام الأعداء وهم يتولون إمرة قوات الإمارة ؛ ومع هذا فمن السهولة التى رأينا بها تلك القوات – طبقًا لبعض الروايات – تتفكك وتؤثر السلامة بالفرار من ميدان المعركة ، نخلص إلى أنها لم تكن منضبطة بالقدر الكافى ، وأنها فقدت منذ زمن ليس بالقصير – وفقًا لابن حوقل – لامواهبها العسكرية فحسب بل حِسَّها الوطنى ، وعلى خلاف هذا كان المرتزقة يمتازون بالتجانس وروعة التنظيم والتدريب والانصياع للأوامر نتيجة لعدم تَبَسُّط ضباطهم معهم .

أما بالنسبة لتقسيم قوات الجيش إلى وحدات ، فالمعلومات التى لدينا متأخرة كثيرًا عن القرن العاشر ؛ ومع هذا ليس أمامنا من سبيل سوى الاعتماد عليها لخلو الساحة مما يفضلها ، ومصدر هذه المعلومات الكاتب الغرناطى ابن هذيل (الذى وضع أيام الناصريين فى نهاية العصر الوسيط مؤلفًا عن الحرب المقدسة (الجهاد) [٣٠]) ؛ وطبقًا للمؤلف المذكور فإن التقسيم كان يعتمد على رقم خمسة : فالجيش ينقسم إلى فرق ، وكل فرقة تضم خمسة آلاف رجل عليهم « أمير » يحمل « راية » ؛ وتنقسم الفرقة إلى خمس كتائب ،كل كتيبة من ألف رجل عليهم « قائد» يحمل « علمًا » والكتيبة بدورها تنقسم إلى خمسة ألوية ، يضم كل لواء مائتى جندى عليهم « نقيب » يحمل « لواءً » ؛ وينقسم اللواء إلى خمس سرايا ، قوام الواحدة منها أربعون رجلاً عليهم « عريف » يحمل « بَنْدًا » ؛ وأخيرًا ، تنقسم السرية إلى خمس فصائل ، فى كل فصيلة ثمانية رجال عليهم « ناظر » يحمل « عُقدة » ، وكانت الأوامر تسرى من أعلى السلم القيادى إلى نهايته، وتقع مسئولية تنفيذها على ضابط كل قوة .

ومن المحتمل أن التقسيم السابق لم يكن له وجود على أرض الواقع وأنه لم يتجاوز الجانب التنظيرى ، ومن بين أسماء القادة المذكورة آنفًا فإن الأكثر استخداما منها لدى المؤرخين اثنان : « قائد » و« عريف » ، ويبدو أن الأول كان يقصد به « القائد الأعلى » بينما يُطلق الثانى على « نائبه »، أما بقية الرُّتب فإن معناها مذبذب ولا يثبت على حال ، أما بالنسبة لمسميات الرّتب الأكثر رفعة (مثل « قائد الأعنَّة » [٣١] التى تطلق على القائد العام لسلاح الفرسان) فيبدو أنها استخدمت على فترات ، ومن

جهة أخرى ، فنحن لا نعلم شيئًا عن النظام المتبع لترقية الضباط إلى درجات أعلى ، ومن ثَمَّ يتعين علينا الاكتفاء فيه بمجرد التكهن .

المتطوعون للجهاد : -

وبالإضافة إلى قواته النظامية فقد كان بإمكان عاهل قرطبة تعضيد حملاته إلى الحدود المسيحية بجموع غفيرة - إلى حد ما - من المتطوعين للجهاد ، لأن ذلك العصر لم يكن يخلو - سواء فى أقاليم الأندلس وثغورها أو فى أرض المغرب على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق [٣٢] - من المسلمين الأتقياء الراغبين فى الوفاء ، ولو مرة فى حياتهم ، بفريضة الجهاد ، ومن ثَمَّ فقد كانوا يسارعون بالانضمام إلى الطوابير المتجهة لخوض غمار الحرب المقدسة ضد الكافرين .

ولم يكن هؤلاء المتطوعة يتلقون أرزاقًا (رواتب) بل يكتفون بنصيبهم من الغنائم ، وكان يُطلق عليهم « أهل الرباط » ذلك لأن بعضهم كان يتطوع - حتى فى فترات التوقف بين الحملات - للانضمام إلى حاميات الثغور لممارسة الأنشطة الحربية أو للقيام بالتوعية الدينية ، ومن هنا فقد كانوا فى حالة « رباط » [٣٣] ؛ والمسمى الأخير أطلق على منظمة إسلامية أخذت ، من بداية القرن الحادى عشر ، فى الانتشار السريع داخل إسبانيا ، ولنا عودة للحديث عنها فيما بعد [٣٤] ، فالجنود النظاميون أصحاب الرواتب (أرزاق) يسمون « مرتزقة » ، أما « أهل الرباط » فيعرفون بالمسمى الرسمى « متطوعة » [٣٥] .

إدخال التشكيلات البربرية فى جيش الخلافة : إصلاحات المنصور العسكرية : -

لدراسة هذا الموضوع ، لا يوجد بين أيدينا حتى الآن ما هو أفضل من الفصل المنشور حديثًا لابن حيان وأشرنا إليه منذ قليل ، فى هذا الفصل يتحدث ابن حيان عن السياسة الجديدة التى انتهجها الخليفة الحكم الثانى فيما يخص تجنيد القوات المرتزقة ، ففى عهده شُرع بالفعل فى « بربرة » قوات الخلافة ، وهى السياسة التى توسع فيها وأكملها بعد قليل الديكتاتور المنصور بن أبى عامر عندما أجرى إصلاحات شاملة فى نظم الجيش التقليدية .

ونسوق فيما يلى موجزًا لما أورده المؤرخ القرطبى : بعد إرسال الحكم الثانى لقائده الأشهر « غالب » على رأس جيش جرّار إلى شمال المغرب ، وانتصاره فى ٩٧٤ م (٣٦٣ هـ) على الأمير الإدريسى « الحسن بن كنون » ، وانتقامه بهذا الشكل للهزيمة الماحقة التى منيت بها قواته قبل عامين فى « مهران » ، أعد الخليفة استقبالاً رائعًا فى قرطبة للأمير المهزوم ولأقاربه من فرع « بنى محمد » ، ولما كان هؤلاء قد وصلوا إلى العاصمة بصحبة كتيبة من المحاربين الأشاوس الموالين للأدارسة فقد قرر الخليفة التعجيل بضمهم إلى جيشه بعد تأمين أرزاقهم ومعسكراتهم (٣٦) .

كان الحكم الثانى قد ألحق بخدمته قبل ذلك كتيبة الزنوج (العبيد) التى رافقت حليف الفاطميين القديم « جعفر بن على بن الأندلسى » وأخيه « يحيى » عندما قدما إلى قرطبة بعد انتصارهما المدوى على الزيرى « ابن مناد » (٣٧) : لقد لجأ العاهل الأموى إلى كافة أساليب الضغط ليشترى هؤلاء الزنوج من ابن الأندلسى وأخيه ، وبعد إتمام الصفقة ألحقهم ، مع بعض أعوان الأخوين، بطوابير «العجم » ، فى ذلك الوقت ، وبرغم اعتناقهم لفكر الخوارج الإبضيين ، دعا الخليفة أيضًا للقدوم إلى إسبانيا الكتائب التى ساعد بها « بنو بيرزال » (فرع من قبيلة بنى ضمّار) ابن الأندلسى فى نصره المؤزر على الزيرى « ابن مناد » (٣٨) ، وبهذا الشكل - ينهى المؤرخ حديثه - أصبح لدى الحكم الثانى فى أواخر عهده القصير قوة من الفرسان البربر قوامها ٧٠٠ رجل، لقد كانت هذه القوة - التى ظلت محتفظة بتنظيمها الداخلى وبمعداتها التقليدية - موضع عناية العاهل ومحطًا للكثير من عطاياه وهباته .

وهكذا فتح الخليفة المستنصر الباب على مصراعيه أمام خلفه الحقيقى محمد بن أبى عامر الذى أدرك بمجرد إمساكه بزمام دولة الأندلس المزايا الجمّة التى يمكن أن تعود عليه من وراء تجنيد قوات بربرية من شمال إفريقيا ، والتى لا تقتصر على زيادة أعداد الجيش لوفاء بطموحاته فى إرسال الحملات الصيفية وغير الصيفية إلى إسبانيا المسيحية ، بل تفيد أيضًا فى إلحاق الوهن ثم القضاء - فى النهاية - على نفوذ الأرستقراطية الحربية العربية وفى الحد نهائيًا من غطرسة صقالبة العاصمة .

كانت المغرب [العدوة ، حسب تسمية ذلك الزمان] وإفريقيا بمثابة المنجم الذى لا ينضب ، ولم يتردد المنصور فى استخدام كافة أساليب الترغيب لاستقطاب شباب البربر منهما ، وسرعان ما شهدت موانىء الأندلس القريبة من السواحل الإفريقية -

مثل « الجزيرة الخضراء » و « مالقة » و « ألمرية » – سيلاً متدفقًا ومتجدداً من العابرين إلى شبه الجزيرة ، كان معظم الملبين لدعوة المنصور عبارة عن مجموعات قبلية متكاملة تحت إمرة رؤسائها ، ولا زالنا نذكر التواريخ المتوالية لمجيئهم إلى قرطبة : في عام ٩٨٥ م (٣٧٥ هـ) وصلت قوات مغربية كانت تشكل جزءاً من جيش الإدريسي المتمرد « الحسن بن كنون » ؛ وفي عام ٩٩١ م (٣٨١ هـ) وصل أتباع « ابن دوناس » من « بني إفران » ؛ وقبل بضع سنوات من موت العامرى حضرت – تحت قيادة « زاوى بن زيرى » – مجموعة الأمراء الزيريين الصنهاجية [التى شقت عصا الطاعة حديثًا على عاهل القيروان : قريبهم « باديس بن المنصور بن بولوجين »] بصحبة أشياعهم للالتحاق بخدمة الخلافة الأموية (٣٩) التى سيستفيدون لاحقًا من بعض أشلائها فى تأسيس ملك لهم ، عاصمته غرناطة .

و « عبد الله بن بولوجين بن باديس » (آخر ملوك غرناطة الزيرية) هو الذى تحدث فى مذكراته (٤٠) ، التي دونها في منفاه بالمغرب بعد خلعه فى نهاية القرن الحادى عشر على يد المرابطي يوسف بن تاشفين ، عن أسباب جلب ابن أبى عامر للمجندين من شمال إفريقيا وعن إصلاحاته العسكرية التي أشار إليها المؤرخون باقتضاب . يشير كاتب المذكرات إلى أن المنصور كان يقلقه هيكل جيش الخلافة النظامى ، ذلك لأن تجانسه واقتصار كل وحدة من وحداته على عنصر واحد كان يعنى إمكانية التمرد عليه وخلعه من منصبه ، وهذا الخوف هو الذى دفعه لإحداث تغيير جذرى فى تركيبة الجيش ؛ وهكذا ، فبدلاً من أن يترك التشكيلات العسكرية على ما كانت عليه (أى مؤلفة من جنود وضباط من نفس الجنس أو العشيرة) قرر المزج بين العناصر والأجناس المختلفة داخل كل وحدة حتى لا يقوى نفوذ أحد اعتماداً على صلات القرابة والموالاة ، لكن ما هو المنهاج الذى ارتكزت عليه هذه الثورة الإصلاحية ؟ كنا نتمنى أن يكلف المؤرخون أنفسهم عناء التعمق فيها بدلاً من تقديمهم للإشارات المقتضبة (٤١) .

وبعد ذلك مباشرة ، يسوق لنا الملك الزيرى (عبد الله) فى مذكراته معلومات هامة عن تجنيد المنصور لأعداد ضخمة من البربر ، وعن حملات الدعاية المكثفة التى كلف بها أعوانه لاستمالة المتطوعين للجهاد من شمال إفريقيا ، وطبقًا للمؤلف ، فإن رعايا الأندلس طلبوا من الديكتاتور العامرى إعفاءهم من الخدمة العسكرية للتفرغ لزراعة الأرض مقابل تحملهم لنفقات المرتزقة الذين سيحلون محلهم (٤٢) ، وبهذا المعنى أبرم بالفعل اتفاق بين الطرفين .

وبهذا الإحلال التدريجي لكتل المرتزقة المسلمة القادمة من شمال إفريقيا محل المجندين الوطنيين يكون المنصور قد دقّ المسمار الأخير في نعش الخلافة الأموية ، لا أحد ينكر أنه استطاع بهذه السياسة إلحاق الوهن بالروابط القبيلية داخل الطبقة الحربية العربية الأندلسية ، وأنه أجهز على ما تبقى من نظام « الجند » القديم ؛ لكن العواقب الوخيمة لـ « بربرة » الجيش سرعان ما ظهرت بمجرد اختفائه هو وخلفه « المظفر » من على مسرح الأحداث ، فقد أخذت تتوافد على أسوار قرطبة سيول المهاجرين المغاربة والأفارقة ، مما استوجب توسيع المدينة وإنشاء أحياء جديدة ، وعمل توسعة أخرى للمسجد الجامع من خلال إضافة أروقة جانبية لأن التوسعة التي أحدثها الحكم الثاني قبل سنوات لم تعد كافية ؛ كانت تنضم كل عام إلى المرتزقة – أصحاب الرواتب والمجندين المؤقتين – كتائب من المجاهدين الأفارقة ، وإن كنا نظن أنه لم يكن هناك ما يمنع من ركوب هؤلاء المتطوعة للبحر ثانية عائدين إلى بلادهم بعد انتهاء الحملات التي شاركوا فيها .

٣ - الحملات الحربية

إعداد وتجهيز الحملات :

قبل تناول مسألة تجهيز الحملات والتعرض لمعدات وأسلحة ومهمات الجيش تجب الإشارة إلى أن الوثائق المحدودة التى كنا نعتمد عليها فى هذا الصدد قد اتسعت بفضل عدة صفحات تركها لنا المؤرخ ابن حيان عن عهد المنصور [٤٣] ، والمعلومات القيمة التى تشتمل عليها هذه الصفحات تجعلنا ننعى بمزيد من الأسى فقدان المدوّنة التى كتبها نفس المؤرخ (عام ١٠٤٤ م ، تقريبا) عن العامريين ، فى تلك الصفحات يعتمد ابن حيان على ثلاثة من الرُّواة الثِّقات المعاصرين للمنصور ، وقد ذكر أسماءهم جميعًا ومن بينهم أبو عبد الله بن سعيد التيجانى (أو البَجَّانى) الذى لا نعرف عنه شيئًا ، ونوجه عناية القارىء إلى أننا سنعتمد فيما يلى من صفحات على ما جاء فى بيانات ابن حيان الجديدة .

عادة ما كان يتم سنويًا وفى فصل الصيف إعداد الحملات الحربية (الغزوات) [٤٤] الموجهة إلى الأراضى المسيحية (« دار الحرب » فى جميع الأوقات باستثناء فترات « الهدنة » النادرة) ، ولهذا فقد عُرفت فى جميع أنحاء العالم العربى باسم « الصوائف » (مفردها : « صائفة » التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية منذ العصر الوسيط مع بعض التحوير : aceifa) ، وفى حالات عارضة كان من الممكن - تلبية لظروف سياسية معينة أو لتحقيق أهداف محدودة - أن تحدث الغزوة فى الفصول الباردة ، وفى تلك الحالات كان يطلق عليها « شتوية » [٤٥] .

كان الإعداد للصائفة يبدأ فى شهر يونيو ، ولذا فقد كان يزيد - اعتباراً من هذا التاريخ - حجم المخصصات المربوطة لهذه الغاية فى الخزانة العامة ، وكما رأينا من قبل ، فقد كانت المخصصات الشهرية لميزانية حرب الصيف تصل فى عهد المنصور إلى مليون دينار ؛ وهذا الرقم الضخم - المجموع من عوائد الضرائب المباشرة - كان يُضاف إلى الميزانية الاعتيادية المخصصة للإنفاق على القوات النظامية وللوفاء برواتبها والعلاوات الاستثنائية (الإنعامات) .

كان الأمير هو الذى يتخذ – بالطبع – قرار إعداد الحملة بعد التشاور مع قواده ورسم خطة العمليات الحربية التى تظل طى الكتمان حتى أخر لحظة ، لكن القرار لم يكن يُتخذ إلا بعد وصول التقارير المواتية إلى قرطبة عن حالة المحاصيل فى الأقاليم التى سيجتازها الجيش [٤٦] ، وبما أن الجيش كان يعتمد فى طريقه على ما تجود به الأراضى التى سيمر بها ، فقد كان يتم إلغاء الحملات فى سنوات الجفاف الشديد كما حدث فى صيف ٩١٥ م (٣٠٣ هـ) فى بداية عهد عبد الرحمن الثالث [٤٧] .

لكن هذا الاعتبار لم تعد له أهمية فى نهاية القرن العاشر عندما لم يتمكن من إفساد مشاريع ابن أبى عامر الحربية لأن الأخير لم يكف – قبل وبعد الجفاف الذى ألهب أسبانيا بسياطه عام ٩٨٨م (٣٧٨هـ) والأعوام التالية – عن بناء صوامع الغلال الضخمة فى قرطبة والأماكن الرئيسية على الحدود[٤٨] تحسباً لمثل هذه الظروف .

لو أخذنا بالتعريف الدقيق الذى وضعه ابن حيان [٤٩] "للمُرْتزِق" ، فإن الفارس (مهما كانت درجته أو طبقته الاجتماعية) كانت تُفرض له – علاوة على راتبه الشهرى – عدة حقوق من بداية تعبئة الجيش للحرب ، وتتمثل فيما يلى : ركوبة مع ما تتطلبه من "حلْية" ؛ السلاح ؛ السكن ؛ مصاريف الطعام (نفقة) والعلف اللازم لركوبته (علُوفة) ، والوفاء بهذه المتطلبات – نقداً أو عيناً – كان يقع على عاتق ما يمكن تسميته بإدارة التموين والإمدادات التى يرأسها موظف يطلق عليه " صاحب العَرْض " ، وأحياناً " عارض الجيش "[٥٠] ، ونظير هذا الموظف (الذى كان همزة الوصل بين الجيش والإدارة المالية للخلافة ، ويشرف كذلك على صرف رواتب المقاتلين الذين شملتهم التعبئة الحربية) فى جيوش أسبانيا المسيحية يعرف باسم (Maestre nacional) [٥١] .

ولتحديد أعمق للمفاهيم ، نشير إلى أن كلمة « عرْض » و« اعتراض » – علاوة على المرادف "تمييز" الذى كان يستخدم أحياناً [٥٢] – كانت جميعها تعنى "الاستعراض الدورى للقوات العسكرية " [٥٣] ، أى استعراض الرجال المسجلين بـ "ديوان الجيش" من خلال تجمُّع [٥٤] يتم بميدان السلاح ، ولم يكن الغرض منه يقتصر على التأكد من وجود الجندى المسجل بكشف الرواتب ، بل الاطمئنان كذلك على معداته وأسلحته ، ولم يكن هذا الإجراء حكراً على إسبانيا الإسلامية ، بل كان

متبعًا – وفوق هذا ضروريًا – في جيوش العالم الإسلامي التي كانت تتألف في العصر الوسيط من أخلاط بشرية متعددة (٥٥) .

كان "صاحب العرض" ومساعدوه يقومون بأعمال مكثفة خلال فترة الإعداد للصائفة ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار احتمال تكليفهم أيضًا بالتفتيش على ما تنتجه المصانع الرسمية والورش الخاصة من أسلحة ومعدات حربية (٥٦) .

كان إعداد الحملة يستغرق – حسب ظروف كل منها – ما بين عشرين وأربعين يومًا (شهر تقريبًا) ، وبمجرد أن يتخذ القرار يُؤمر حكام (ولاة) الكُور باستنفار القوات المكلفة بالخدمة العسكرية وإرسالها إلى قرطبة ، حيث تتجمع أمام أسوارها ، وفي ذات الوقت كان على زعماء الثغور اتخاذ التدابير اللازمة للانضمام بقواتهم إلى طوابير جيش الخلافة عند اقترابها من أرض العدو .

كان العاهل يتولى بنفسه – حتى ولو لم يكن معنيًا بقيادة الحملة المزمعة – الإشراف على مراحل الإعداد والتجهيز ، ولهذا الغرض كان يترك مؤقتًا قصره وينتقل مع حرسه الخاص للإقامة بالقرب من مركز تجميع القوات ، في المساحة الشاسعة الواقعة شمال قرطبة والمعروفة بـ « فحص السرادق » ، وسبب التسمية يرجع لضرب المعسكر الملكي (السرادق) فيها (٥٧) ، وقد كان يتألف من مجموعة من الخيام (مظلات أو قباب) ، وانتقال العاهل من قصره إلى المعسكر كان – على الأقل في زمن الناصر – مناسبة احتفالية حيث تتظاهر جموع الشعب معلنة ولاءها ؛ ووسط هدير هتافاتهم كان يجتاز العاصمة في موكبه الفاخر وهو يمتطي صهوة جواده ، وبهذه المناسبة كان يجرى أيضًا عرض عسكري على أعلى مستوى (بُروز أو تبريز) لم يغفل المؤرخون – عادة – وصفه ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بحملة هامة إلى أراضي الأعداء (٥٨) .

كما كان مسجد قرطبة الجامع يشهد في يوم الجمعة السابق لرحيل القوات احتفالاً آخر يسمى « عَقْد الألوية » في هذا الاحتفال كانت توزع – في مهابة – الألوية المختلفة على قادة الجيش وتُعقد في أسنَّة رماحهم ، وعند العودة من الحرب كانت تُجمع تلك الرايات لتعلق ثانية على أحد حوائط المسجد (٥٩) ، إنه تقليد شرقي ، ظل حيًا لفترة طويلة في الغرب ، إذ أثبتت الشواهد احتفالاً مماثلاً جرت وقائعه عام ١١٩٠ م (٥٨٦ هـ) في عهد الموحدي : يعقوب المنصور (٦٠) .

معدات الجيش وأسلحته : -

رأينا فيما سبق كيف كان الفرسان يشكلون ثلاثة أخماس جيش الخلافة بينما يشكل المشاة خمسيه الباقيين ، أما فى نهاية القرن العاشر وبعد انضمام كتائب شمال إفريقيا - المحمولة فى معظمها - فقد أصبح الجيش يتألف - تقريبًا - من الفرسان فقط ، وتَمَّ ادخار المشاة للاستفادة منهم فى فرض الحصار أو للإحلال - بالتناوب - محل حاميات القلاع الواقعة فى مناطق الحماية ، وكانت المصادرة (٦١) إحدى الوسائل المتبعة لتوفير الجياد اللازمة لمن لا يملكون خيولا خاصة بهم ، ولتأمين الخيول للجيش عمل المنصور على إنشاء مزارع لتربيتها فى الجزر الكائنة بنهر الوادى الكبير أسفل إشبيلية والتى كانت تعرف أيامها بـ « المدائن » (المستنقعات الشهيرة فى الوادى الكبير) . وطبقًا لابن حيان فقد وصل عدد الأفراس الحوامل بتلك المدائن إلى ثلاثمائة ، وعدد الفحول إلى مائة (٦٢) ، ولتغطية بقية احتياجات الجيش كان يتم على فترات شراء خيول من الساحل الأطلسى للمغرب ، وشراء البغال المُسْرَجة وبغال الحمل والجرّ من المناطق الجبلية فى المغرب وفى جنوب الأندلس .

يبدو أن توفير سروج الخيل وأطقمها كان من اختصاص « العارض » ، فى نهاية القرن العاشر كان يوجد نوعان من السروج : الأندلسى والإفريقى ، والنوع الأخير يقل كثيرا فى الارتفاع عن الأول (٦٣) ، بعد ذلك بأربعة قرون قام الغرناطى « ابن هذيل » بوصف السروج فى زمنه وصفًا تفصيليًا (٦٤) ، ومن المحتمل أنها لم تتغير كثيرًا عما كانت عليه فى نهاية عصر الخلافة ، لكن الشيء المؤكد هو قيام فرسان شمال إفريقيا بإدخال تحسينات عديدة على فن ركوب الخيل ، وهو الفن - طبقًا لإشارة الجغرافى ابن حوقل الخبيثة - الذى لم يكن للأندلسيين فيه باع طويل .

كان يساعد الفارس فى المعركة « تابع » (٦٥) يقود دابة تحمل متاعًا مكونًا من عدد من القذائف الاحتياطية والأسلحة الدفاعية ، علاوة على خيمة لكليهما .

أما الأسلحة الهجومية التى لم يلحقها تغيير يذكر فى عصر الخلافة والتى تماثل نظائرها فى جيوش إسبانيا المسيحية (٦٦) فكانت كما يلى : الرمح والفأس الطويلة ذات الحدين للفارس ؛ والحربة والدبّوس للرّاجل ، والحسام والخنجر لكل من الفارس والرّاجل ، وبعض المشاة كانوا مزودين بالمزاريق والمقاليع (٦٧) . أما القوس (٦٨) فكان

يستخدمه الفارس والراّجل سواء بسواء ، وكان منه « العربي » و« التركي » و« الإفرنجي » ، ولابد أن القوس الإفرنجي (الذى انتشر استخدامه خلال عصر ابن هذيل) كان يشبه قوس الفولاذ ، ومن المحتمل أنه لم يكن فى نهاية القرن العاشر (٦٩) سوى سلاح بدائى غير منتشر على نطاق واسع .

وبالنسبة للأسلحة الدفاعية لدينا مسميات عديدة مبثوثة فى ثنايا الأدب الأندلسى ، شعراً كان أم نثراً (٧٠) ؛ ويبدو أن الدروع الحديدية كانت حكراً على أقلية من المحاربين ، وأن السترات الواقية كانت تُصنع – كما هو الحال على الجانب الآخر من الحدود – من جلد سميك مدعوم فى بعض الأجزاء بشرائح معدنية .

وكانت الدروع فضفاضة لتغطى ساقى الفارس على جواده (سابغة) ؛ كما كانت توجد دروع أخرى مصنوعة من الأسلاك الرقيقة على مقاس الجسد مثل الجلباب ، وكانت تستخدم أيضًا المشدَّات (بَدَن) وصدور الدروع (جوسن) ، ولكل نوع من الأنواع السابقة توجد عدة مسميات تكشف عن أصلها الشرقى ، ولذا يمكن القول بأنها كانت منسوخة من النماذج العباسية ، ولحماية الرأس فى القرن العاشر توجد : « البيضة » ، و« الخوذة » ، و« المغفر » .

وإلى ما تقدم من الأسلحة الدفاعية يمكن إضافة « الصاعد » و« الساق » .

وبالنسبة للترس (٧١) – السلاح الدفاعى الأكثر استخداماً فى الجيش الأندلسى – يجب التمييز بين ما يحمله الفارس والمزود به الراجل : فما يحمله الفارس (درقة) خفيف صغير الحجم ، مصنوع من الجلد السميك المشدود على هيكل خشبى ؛ أما ما يحمله الراجل (ترس) فهو مستدير الشكل ، وحجمه ووزنه أكبر من الدرقة ، ومصنوع من الخشب المكسو أحيانًا بصفائح أو نتوءات حديدية تفيد فى انحراف ضربات الخصم ، وترس الراجل أنواع : فمنه « السلطانى » و« العامرى » ، و« الحفصونى » ، والدرقات الأكثر طلبًا كانت المصنوعة من جلد « اللامت » (Lamt) ، والمسمى لإحدى الظباء الصحراوية التى اشتهر جلدها المدبوغ بمقاومته للرماح والسيوف ومعظم أنواع السهام ، وبالتأكيد كانت تجلب فى ذلك العصر من إفريقيا .

وبالطبع كنا نود تتويج وصفنا للأسلحة الهجومية والدفاعية [٧٢] بوثائق مصورة لكننا للأسف نفتقدها ، ومع هذا يمكننا لفت النظر إلى الأشكال المنحوتة على أحد جانبي قوس من العاج - تم تصنيعه عام ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) للعامرى عبد الملك المظفر ، وتحتفظ به حاليًا خزائن كاتدرائية بنبلونة [٧٣] - وهى تجسد مشهدًا لنزال بين فارسين مسلحين بالدرقات والشيش العريض (الذى يمكن استخدامه فى الحرب أو الصيد) .

ولحفظ كل هذه الأسلحة كان يوجد فى قرطبة « خزانة السلاح » الهامة ، وقد أشارت بعض نصوص ذلك العصر إلى تلك الخزانة ، لكن أبلغها على الإطلاق نص ابن حيان [٧٤] الذى يعلن فيه - من بين أشياء أخرى ، غاية فى الأهمية - أن مصنعى التروس كانوا مكلفين بتسليم ١٣٠٠٠ ترس فى السنة ؛ بينما تنتج تبلغ حصة مصنعى الأقواس ١٢٠٠٠ قوس (ما بين عربية وتركية) تنتج نصفها ورشة رجل قرطبى من أصول شرقية يدعى « أبو العباس البغدادى » ، بينما النصف الآخر ورشة « طلحة الصقلبى » الموجودة بمدينة الزهراء . أما الإنتاج الشهرى للسهام فكان لا يقل بأى حال عن ٢٠٠٠٠ سهم ، وطبقًا لنفس المصدر فقد كان يوجد بمقر العامرى فى الزهراء مخزن لحلل التشريفة التى كانت توزع على الأمراء فى احتفالات المبارزة أو عند مصاحبتهم للمواكب الرسمية ، وكانت خيام ومضارب الجيش تصنع بمعدل ٣٠٠٠ خيمة فى السنة .

طوابير الجيش ومهماته العسكرية : -

من التفاصيل العامة التى يخوض فيها ابن حيان [٧٥] ما يتعلق بطوابير الجيش ومهماته العسكرية زمن اقتياد المنصور لحملاته الشهيرة ضد إسبانيا المسيحية .

كان تعداد الجيش يختلف تبعًا للغاية المرصودة والعدد الذى يمكن أن يجمعه الخصوم ، ففى إحدى حملات المنصور - التى تجهل تاريخها - بلغت أعداد الجيش ٤٦٠٠٠ فارس و ٢٦٠٠٠ راجل ، بالإضافة إلى ٨٠٠ فارس لحراسة المهمات و ١٣ طبّالا ، وفى حملة ١٠٠٢ م (٣٩٢ هـ) التى لقى فيها حتفه عند عودته ، لم يتمكن المنصور من توفير مطايا لجميع الفرسان فحسب ، بل إنه اصطحب ٧٠٠ جوادًا احتياطيًا ، علاوة على ٥٠ جوادًا أصيلا كانت لا ستخدامه الشخصى ؛ وفوق كل هذا

كان قد خلّف وراءه في قرطبة ألف جواد جُلبت من شمال إفريقيا ، وفي الطريق ما بين قرطبة ومدينة سالم اشترى خيلا ليصل جملة ما لديه من احتياطي إلى ألف جواد .

وبالإضافة إلى مهمات الجيش العسكرية ، كانت معه لخدمته الشخصية ٢٥٠ دابة للحمل والجرّ و ٣٩٠٠ جملا لنقل المعدات الثقيلة ، وكانت هذه الجمال ترعى وقت السلم في سهولة كورة مرسية الشاسعة (٧٦) .

كانت هناك ٢٠٠٠ دابة مخصصة لنقل الأمتعة الشخصية لحاجب القصر وضباطه الصقالبة (غلمانه) ، ومائة بغل لحمل الطواحين المتنقلة التي يُطحن فيها القمح اللازم لإعداد الخبز للجنود .

ولم تكن أمتعة المنصور تقتصر على خيام معسكره (سرادقه) بل كانت تضم أيضاً معدات المطبخ وأدوات الزينة وورشة إصلاح وأغلال لتقييد الجنود المحبوسين في سجن المعسكر ، وتعتبر من المهمات كذلك الصناديق المنيعة التي تحتوى على ميزانية الحرب ، وهوادج النساء المصاحبات للقوات (النساء الغوازى) (٧٧) ، وبما أنه كانت تُنصب في كل مرحلة من مرحل الطريق ، بداخل معسكر القائد العام ، ١٠٠ خيمة لفتيان حاشيته و ٣٠ خيمة كبيرة وفخمة لإيواء ضيوفه والسفارات القادمة إليه (٧٨) ، فمن البديهي اشتمال المهمات على الأمتعة اللازمة لفرش تلك الخيام من حَشيّات وأغطية ووسائد وبُسُط وخلافه ، أما معدات الحرب فقد كانت كثيرة : الصناديق المملوءة بالسهام والدروع والزُّرد ، والزيت ، والنفط ، والقار والنُّسالة ، بالإضافة إلى ماكينات الحرب والمقاليع اللازمة لفرض الحصار على القلاع الحصينة .

ولرسم صورة تقريبية في المُخَيِّلة لانتشار قافلة بهذا الحجم على طول بضعة كيلو مترات ، وهي تثير سحابات الغبار أو تغوص في الأوحال ، علينا أن نستحضر صورة فيالق جنود الريف المغاربة في القرن التاسع عشر .

ومن دواعي الغرابة إغفال جميع النصوص التاريخية المُستَخْدَمة لذكر العربة (عَجلَة) ، علماً بأنها كانت خلال القرن العاشر وسيلة نقل شائعة في إسبانيا المسيحية (٧٩) وبين مستعربي قرطبة أيضاً .

عندما يتحرك الجيش كان يأخذ التشكيل التالى : فى الأمام المقدمة ، تتبعها كتل القوات المختلفة التى تحميها من الأجنحة كتائب خفيفة من الفرسان ، وفى المؤخرة (السَّاقة) تأتى المهمات المحمولة بصحبة حراسها ، وبمجرد اقتراب الجيش من أراضى العدو يقوم جهاز الاستخبارات (الذى يملك شبكة واسعة من الجواسيس) بتزويد القائد الأعلى بالمعلومات ، بينما يقوم « الأدلاّء » (وهم بوجه عام فارّون من معسكر الأعداء ، وعلى دراية تامة بطبوغرافية المنطقة المستهدفة) فى القيادة العامة بتحديد المراحل الواجب اتباعها ثم يرافقون طليعة الجيش فى تقدمها ، بعد أيام من السير يتجه الجيش إلى المركز المتقدم للقيادة العامة (وكانت تمثله فى أغلب الأحيان مدينة سالم) ليرابط فيه بعض الوقت حتى يكتمل انضمام قوات الدعم الوافدة من الثغور . رأينا فيما سبق (فى المجلد الرابع) كيف قام المنصور – فى حملته الشهيرة على « شنت ياقب » عام ٩٩٧ م (٣٨٧ هـ) – باجتياز أقصر الطرق (الطريق المار بـ « قورية » و « بازو ») ، وكيف قام بنقل معظم المهمات العسكرية عن طريق البحر (من « قصر أبى دانس » أو « قصر الفتح » (Alcacer do Sal) إلى «بورتو » (Oporto) ») .

فنون القتال وفرض الحصار : –

لاتوجد لدينا سوى إشارات متفرقة فى المدونات التاريخية عن « التكتيكات » التى كانت تستخدمها القوات الأموية فى المعارك ، أعلينا أن نتذكر مرة أخرى مقولة ابن حوقل – على ما فيها من تحامل بيِّن – من أن مسلمى إسبانيا كانوا يعتمدون على الخديعة للظفر بأعدائهم أكثر من اعتمادهم على التكتيك والشجاعة والإقدام ؟ لا شك أن الطرق التقليدية للحرب فى السهول ، والتى عرفها العرب فى صدر الإسلام ، لم تعد ذات جدوى كبيرة فى الأراضى الوعرة مثل أراضى شبه جزيرة إيبيريا ، وبالرغم من ذلك ، ففى عدد من المعارك التى دارت رحاها على الأراضى المنبسطة احتفظ التكتيك القديم المتمثل فى « الكر والفرّ » بكامل فاعليته ، بدليل أن المسيحيين اقتبسوه واتخذوا له مسمى مماثلا [٨٠] ، ومع هذا لا نعتقد أن استراتيجيا داهية فى قامة المنصور سيحجم فى نهاية القرن العاشر عن استخدام خطط أكثر تعقيداً تتضمن حركات الالتفاف المفاجىء والغارات الخاطفة المدوية على مؤخرة جيش الأعداء [٨١] .

بالنسبة للغرب الإسلامي فإن الوصف الوحيد ، الدقيق والمتكامل ، للحظة التقاء الجمعين في المعركة قد انفرد به كاتب من أصل إسباني يدعى « أبو بكر الطرطوشي » في كتابه « سراج الملوك » ؛ وبالرغم من أن الكاتب كان يعيش في نهاية القرن الحادى عشر إلا أن وصفه يمكن أن ينطبق على ما كان يجرى قبل قرن من الزمان،يقول (٨٢) :
وها هو الترتيب الأشد فعالية في اشتباكنا مع العدو والذى تتبعه قواتنا في المعركة ؛ في المقدمة ينتظم المشاة في صفوف ومعهم التروس والحراب والنبال المصنوعة من الصلب الرقيق القادر على الاختراق ، كان المشاة يرتكزون بالركبة اليسرى على الأرض ويمسكون بشمائلهم التروس وبأيمانهم الحراب المنحرفة على أكتافهم ، جاعلين زجّ الرمح ملامسًا للأرض وسنّه في اتجاه العدو ، وخلف المشاة يقف الرّماة المهرة الذين يستطيعون بسهامهم اختراق الدروع المنيعة ، وخلف الرّماة تصطف فرق الخيّالة . عندما يبدأ المسيحيون الهجوم لا يتحرك المشاة المعتمدون بركبهم على الأرض ، وبمجرد اقتراب الأعداء يسدد عليهم الرُّماة دَفْقة من السهام ، بينما يطلق عليهم المشاة نبالهم ويعترضونهم بعد ذلك بأسنة الرماح ، بعد ذلك فقط تنفتح صفوف المشاة والرّماة بالتحرك انحرافًا جهة اليمين وجهة اليسار ، ومن خلال هذه الفُرجة الخالية يندفع الفرسان نحو الخصم ويجبرونه على الفرار بعون الله .

أما العادة القديمة المتمثلة في خروج الأبطال (المبارزين) من كلا الفريقين وإعلانهم التحدى لخوض غمار المعارك الفردية ، فيبدو أنها ظلت موجودة في نهاية الخلافة الأموية (٨٣) ؛ لكن مصير المعارك كانت تحدده في الغالب الصدامات الدموية والقتال المتلاحم ، كان الدور الرئيسي للقائد العام يكمن في متابعة سير القتال من فوق مرتفع يسمح له برؤية ميدان المعركة بالكامل ، وفي إرسال التعزيزات بسرعة للقوات التي لاتحرز تقدمًا أو التي تتخلى عن مواقعها أمام كثرة الخصوم ، وبما أن القائد كان ينشر « المظلة » الدّالة على رتبته (٨٤) فإنه كان هدفًا للأعداء ، لكن حرسه الخاص كان يتولى إجهاض أية محاولة للهجوم عليه أو تطويقه .

ومن جهة أخرى ، كانت تُتخذ التدابير اللازمة لتأمين المكان الذى توجد به مهمات الجيش لأن وصول الأعداء إليه يؤدى إلى كارثة ، وغالبية الأسرى في تلك المعارك لم يكونوا من الجنود بل من الفلاحين وذويهم الذين لم يتمكنوا من الفرار في الوقت المناسب وداهمتهم القوات المعادية .

كان الهدف من إرسال الصوائف إلى الحدود يكمن عادة فيما يلى : تحرير قلعة مسلمة من حصار المسيحيين ؛ استرجاع أخرى تمكن منها الأعداء ؛ فرض الحصار على معقل حصين بمملكة ليون أو قشتالة أو بلاد البشكنس.

كانت القوات المحاصرة تعمل أولا على إزالة الأشجار والأحراج من المناطق المجاورة ، ثم تتوغل كتائب منها إلى المواقع الاستراتيجية لقطع الإمدادات عن الحامية المحاصَرة ، وبعد إحكام قبضتها على المكان تنتظر حتى ينال الجوع والعطش من أفراده ، وفى نفس الوقت تقوم فرق خاصة (نقَّابة) مزودة بالمعاول بإحداث فجوة فى السور ، ويتمكنون من هدم الجزء العلوى منه بعد إضرام النيران فى الأخشاب التى استخدموها كدعامات فى تنقيباتهم ، ولدكّ أبواب القلعة كانوا يستخدمون « كباشًا » قوية (مفردها : كَبْش *) . كما كان يقوم رماة متخصصون بإلقاء القذائف الملتهبة داخل حرم القلعة ، وفى بعض الأحيان كانوا يستخدمون المنجنيق أو « الرَّعادة » [٨٥] ، وعندما تظهر بوادر التعب والخَوَر على أفراد الحامية يتم الاقتحام باستخدام السلالم ، عادة ما كانت الحاميات المسيحية تقاوم شبرا شبرا دون أن تفتر عزائمها ؛ لكنها فى حالة الاستسلام كانت تضمن البقاء على قيد الحياة مع التحول إلى الأسر ومعها النساء والأطفال الذين لم يتمكنوا من الهرب ، ومن قبيل الإنصاف ، تجدر الإشارة هنا إلى أن الحاميات المسلمة كانت تلقى – وفى أفضل الأحوال – المصير نفسه عند استيلاء المسيحيين على قلاعهم [٨٦] .

المحَصِّلَة النهائية للحملات العسكرية : –

وآتتنا الفرصة من قبل كى نلقى الضوء على تواضع نتائج عمليات قرطبة العسكرية ضد إسبانيا المسيحية [٨٧] ، وبالفعل ، لم تتمكن الصوائف الصاعقة – ولو مؤقتًا – من ضم أراض جديدة أو زحزحة الحدود لأبعد مما كانت عليه فى بداية القرن العاشر ، لو أخذنا فى الاعتبار ضخامة الوسائل المستخدمة ، والنفقات الباهظة المطلوبة سنويًا لإعالة وإرسال طوابير الحرب الصيفية ، علاوة على التجانس العسكرى لجيوش الخلافة (والذى أقرّت به الأعداء) لا عترتنا الدهشة من جرّاء إحجام الأمويين

(*) الكَبْش : آلة حربية قديمة كانت تستخدم فى دكّ أبواب القلاع (المترجم) .

والعامريين عن التفكير في توسيع تخوم ذلك الركن من « دار الإسـلام » نحو الشمال (إلى جبال البرانس أو إلى ما هو أبعد منها) وقد كانوا المتحملين ماديًا لعبء الدفاع عنه والمسئولين أخلاقيًا عن وحدة وسلامة أراضيه أمام رعاياهم وأمام عموم المجتمع الإسلامي .

لاحظنا كذلك – بالنسبة للمنصور ، على الأقل – أن النشاط العسكرى المستمر للجيوش الأندلسية ضد المسيحية (والذى كان يديره شخصيًا بعزم وإصرار منقطعي النظير)كان مبعثه الأساسي الوفاء بواجب الجهاد (أي الحرب المقدسة ضد الكافرين) ، فلم يكن يعنيه اقتطاع أراض ومدن من العدو بقدر ما يعنيه إذلاله بهزيمته في ساحة القتال ، ولا يوجد إذلال أنكى من إجباره على تقديم فروض الطاعة والإذعان للمنتصر المسلم والاعتراف بسلطته . لا شك أن التداخل بين شعوب الإسبانيتين فى القرن العاشر (وقد كان أعمق بكثير مما توحي به المدونات التاريخية المتحيزة والقصيرة النظر في كلا الجانبين) كان يجعل – على خلاف ما يتبادر إلى الذهن من الوهلة الأولى – من تقديم التابع (دافع الجزية) لفروض الطاعة أمرًا عاديًا ومألوفًا ، لقد كانت الحرب المقدسة – فى كلا الجانبين – كفيلة باستقطاب الكتل البشرية الطامحة فى التضحية من أجل قيمة عليا تسمو بكثير فوق متاع الدنيا البائس .

ومع أن دافع الوفاء بواجب الجهاد كان يستقطب آلاف المتطوعة الأندلسيين والأفارقة إلى صفوف المنصور ، إلا أن هذه النزعة الصوفية فى المخاطرة بالحياة ، كان يخالطها عادة هدف المنفعة المادية : أى الحصول على نصيب من الغنيمة ، وهناك فقرة في بنود العقد مع « البديل » (المُستأجَر للاحلال فى الحملة محل المتعاقد) تدعو للتأمل : يتعهد البديل « بالمساهمة » – قدر المستطاع – فى تحريق بساتين أعداء الله وتخريب ديارهم وتدمير محاصيلهم ، إلا إذا كانت تلك المحاصيل مما يمكن للمسلمين حمله وأمر القائد العام بذلك [٨٨] . نخلص من هذا إلى أن الغنائم (بما تشتمل عليه من محاصيل وقطعان وأسرى من الجنسين ... إلخ) إذا لم تكن هى الباعث الرئيسى للحملة ، فقد كانت – على الأقل – مما يمكن للمشارك المطالبة بنصيبه فيها .

فى عهد المنصور كان سوق العبيد بقرطبة يغصّ – بصفة دورية – بالأسيرات المسيحيات (اللاتى يشتد عليهن الطلب ، بالإضافة إلى الزنجيات) وبالرجال من كل

صنف : قساوسة ، مدنيون ومزارعون بسطاء ، ولما توفى العامرى الأول كان أهالى قرطبة يتحسرون قائلين : « مات الذى كان يمدنا بالعبيد » [٨٩] .

كانت الغنيمة توزع طبقًا للشريعة الإسلامية ، بعد خصم حصة الدولة يقسم الباقى على المقاتلين (كلّ على حسب درجته ونظامه العسكرى وطبقته الاجتماعية) الذين كانوا يسارعون ببيع أنصبتهم فى مزاد عام لتحويلها إلى نقود سائلة ، ومن جهة أخرى ، فقد كانت الجزية السنوية المفروضة - من بداية عهد الحكم الثانى - على الأمراء المسيحيين تشكل رافداً من الروافد الهامة لخزانة الدولة ؛ لكن الحفاظ على هذا المورد الهام كان عالى التكلفة أيضا ، ذلك لأن تأخير الجزية عن موعدها المحدد كان سببًا كافيًا لاتخاذ القرار بإرسال الحملات التأديبية .

كان أسرى الحرب - من المسلمين أو المسيحيين - هدفًا فى معظم الأحيان لمفاوضات التبادل أو الفدية ، لدينا - على الأقل - علم بوجود منظمة لمحررى الأسرى (فُكّاكين) فى قرطبة منذ القرن العاشر - وربما قبله [٩٠] - كانت تقدم خدماتها للعائلات التى لها أسير أو أكثر فى أراضى الكفار ، كان « الفكّاك » يتعهد - من خلال وثيقة معتمدة تنص على مبلغ معين - بالرحيل إلى أرض الأعداء للتفاوض بشأن تحرير الأسير ودفع فديته .

كانت الوثيقة تتضمن أيضًا بنوداً إضافية تتعلق بتوقعات هرب الأسير المعنى أو موته [٩١] ، وطبقًا لما أورده ابن الفرضى ، فقد استرد القاضى « ابن الإمام» (قاضى « تطيلة » فى الفترة من ٩٣٥ إلى ٩٤٨ م ، ٣٢٥ - ٣٣٧ هـ) وابنه وأخوه حرياتهم مقابل فدية قدرها خمسة عشر ألف دينار أخذها المسيحيون [٩٢] .

٤ - الأسطول والدفاع عن السواحل

الأسطول وموانىء الحرب :

عند الحديث عن التاريخ السياسى لإسبانيا الأموية ، تعرفنا على اهتمام ملوك قرطبة المبكر بامتلاك أسطول حربى ، وبإنشاء ترسانات على ساحل المتوسط ، وعلى الساحل الأطلسى أيضًا ، وإن كان بدرجة أقل ، لقد أدى الامتداد الشاسع لسواحلهم - من مصب نهر « إبره » حتى مصب نهر « التّاجه » ، على أقل تقدير - إلى جعل الأندلس عُرضة (خاصة فى القرن التاسع والعاشر) لغارات القراصنة أو لهجوم وإبرار القوات المعادية ، ففى عهدى عبد الرحمن الثانى ومحمد الأول أبرزت غارة الفايكنج الحاجة الملحة للشروع فى تنظيم جبهة بحرية وبناء سفن جديدة ، لكن الخطر الفاطمى - الذى حل ، وبخطورة أشد ، محل النورماندى - هو الذى دفع خلفاء قرطبة لتبنى سياسة بحرية واقعية ، تستطيع النهوض بأعباء الدفاع والهجوم فى آن واحد .

بدأ المؤرخون المسلمون يتحدثون منذ القرن التاسع عن الأساطيل الحربية الأندلسية ؛ لكن حديثهم مقتضب كالعادة ولايشفى الغليل وخاصة فيما يتعلق بحجم الوحدات البحرية أو تسليحها . رأينا فيما سبق ، كيف تحمل أسطول قوامه ٣٠٠ سفينة مسئولية إخماد نيران العصيان فى « ميورقة » و « منورقة » عام ٨٤٨ - ٨٤٩م (٢٣٤ هـ) [٩٣] . كان عبد الرحمن الثانى هو الذى قام قبل هذا التاريخ بأربع سنوات - بعد الهجوم النورماندى على سواحل إشبيلية - ببناء ذلك الأسطول وإنشاء الترسانات البحرية ، وحاول محمد الأول ، بعد ذلك ، استخدام نفس الأسطول فى الهجوم على « جليقية » لكن محاولته باءت بالفشل الذريع [٩٤] ، وفى بداية عهد عبد الرحمن الثالث كانت الوحدات البحرية الخفيفة تجوب ليل نهار مضيق جبل طارق لمنع وصول المؤن والتعزيزات من شمال إفريقيا لابن حفصون [٩٥] ، وعندما أدرك الناصر فيما بعد مدى الخطر الذى يمثله الفاطميون - ورثة الأسطول الأغالبى القوى - عزز أسطوله بشكل أتاح له الاستيلاء على « مليلة » (عام ٩٢٧ م - ٣١٤ هـ) ، وعلى « سبتة » بعد ذلك بأربع سنوات . من تلك اللحظة أصبحت أساطيل الحرب الأموية

تمثل – بدورها – تهديداً حقيقيًا للسيادة الفاطمية ؛ وهكذا – وكرد فعل لنهب « المرية» عام ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) – قامت قطع بحرية ترفرف عليها رايات الأمويين البيضاء بإضرام النيران في ميناء « مرسى خرز » التونسي وتخريب نواحي « سوسة » [٩٦] ، وفي عهد الحكم الثاني استطاعت قوة بحرية أندلسية اللحاق بتشكيل للمجوس بالقرب من « شِلْب » (Silves) وأجهزت على معظمه .

وحدات بحرية أخرى استخدمها المنصور في حملاته على شواطئ « قطلونية » و « جليقية » عامي : ٩٨٥ م (٣٧٤ هـ) ٩٩٧ م (٣٨٧) هـ ، على التوالي ، كل هذه الأخبار المستقاة من بطون المدونات التاريخية تجعلنا نعتقد أن البحرية الأموية كانت في القرن العاشر آلة حربية غاية في القوة والفاعلية ؛ لكن معلوماتنا عن تنظيمها مازالت – لسوء الحظ – تعاني حتى الآن من القصور البيِّن .

عند حديثنا عن تأسيس مجموعة من البحارة الأندلسيين لفيدرالية « بَجّانة » عام ٨٤٤ م (٢٧١ هـ) ، أشرنا في حينه إلى قيام هذه الجمهورية الصغيرة للبحّارة المولدين والمستعربين بإنشاء الميناء الذي سيصبح فيما بعد الأكثر أهمية في المملكة ، سواء اعتبرناه قاعدة بحرية أو مركزًا للحركة التجارية بين إسبانيا وموانيء البحر المتوسط الغربية والشرقية : إنه « مَريّة بجانة » أو باختصار « مَريّة » ، أي « المرية » ، سنتعرض لاحقًا للدور الذي لعبته أثناء الخلافة وبعدها تلك المدينة الساحلية واسعة الثراء على الصعيدين : التجاري والصناعي ، نكتفي الآن بالإشارة إلى أنها كانت أقوى ميناء حربي لإسبانيا المسلمة في القرن العاشر ، وأن معظم قطع البحرية الأموية كانت ترسو في خليجها الصغير ، وأنها كانت مقر القيادة العامة لقادة البحر ، ومن بينهم « عبد الرحمن بن رماحس » الذي لمع نجمه في عهد الحكم الثاني ، وكان بالإضافة إلى ذلك واليًا على إقليمي بَجّانة والبيرة ، وخدماته الجليلة كافأه عليها ابن أبي عامر أفدح مكافأة عندما أزاحه من طريقه – ربما لغيرته من نفوذه ومكانته – بدس السم له عام ٩٨٠ م (٣٦٩ هـ) ، وطبقًا لما أورده مؤلف أندلسي [٩٧] ، فإن العاهل الأندلسي في ذلك العصر كان يطلب المشورة في الأمور الهامة من ثلاثة رجال : قائد البحر وقائد الثغر الأعلى وقاضي الجماعة (قاضي القضاة) ، ويختم المؤلف كلامه قائلا : « لقد كان قائد أسطول المرية يقاسم الخليفة السلطة بشكل ما : فأحدهما يبسط ملكه على البر والآخر يبسطه على البحر »

من الصعب معرفة عدد الوحدات الثقيلة والخفيفة التي كان من الممكن تجميعها في القواعد البحرية للشواطىء الأندلسية عندما اكتمل عنفوان الأسطول الأموى ، من المؤكد أنها كانت سفن تعمل بالأشرعة والمجاديف ، لكن مؤرخو ذلك العصر لم يتطرقوا أبدًا لوصفها ، في حين أنهم فعلوا ذلك متأخرا ، خاصة في عصر الموحدين .

وطبقًا لابن خلدون – ويقدر ما تسمح لنا الثقة في كلامه نظرا لتأخره [٩٨] – فقد كان الأسطول في عهد الناصر يضم ٢٠٠ سفينة ، وهو نفس عدد وحدات الأسطول الفاطمي تقريبًا ، ويضيف المؤرخ قائلا : كان يتولى إمرة كل سفينة ضابطان ، أحدهما يسمى « قائد » ويختص بالشق العسكرى من سلاح ومقاتلين ومعارك ، ويسمى الثانى « ريِّس » وعلى عاتقه تقع عملية تسيير السفينة بالأشرعة أو المجاديف ومناورات الرسوّ والإبحار ، ولو أخذنا بكلام مؤرخ آخر [٩٩] فقد كان أسطول المرية يتألف في عهد الحكم الثاني من ٣٠٠ قطعة بحرية .

وبخلاف « ألمريّة » كانت توجد قواعد بحرية أخرى – تقل أو تكبر في الأهمية – على السواحل الأندلسية ، مزودة بترسانات تعرف باسم « دار الإنشاء » أو « دار صناعة المراكب » أو « دار الصناعة » فقط [١٠٠] ؛ ومن هذه القواعد نخص بالذكر : « قصر أبي دانس أو قصر الفتح » ، و « شِلْب» ، و « الجزيرة الخضراء »، و «مالقة » ، و « لَقَنْت » و « دانية » .

وتخبرنا إحدى الوثائق أن عبد الرحمن الثالث [١٠١] أمر عام ٩٤٥ م (٣٣٣ هـ) بإنشاء ترسانة بحرية في « طرطوشة » بالقرب من « قطلونية » ، وجميع هذه الترسانات – التي كانت تعمل أيضًا في صناعة السفن التجارية (ولنا معها وقفة في فصل آخر) – ستظل تمارس نشاطها في القرن الحادى عشر وستسمح لإمارات صغيرة جداً – مثل ألمرية ودانية – بالاعتماد في معظم مواردها على النشاط البحرى : تجاريًا كان أم قرصانيًا .

الدفاع عن السواحل : –

لا حاجة لنا هنا بتكرار ما قلناه عن امتداد أعمال القرصنة في القرن العاشر إلى كافة أنحاء الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ولا عن الذعر الذى أثاره القراصنة

الإسبان – مسلمون ومسيحيون – فى الجزر الكبيرة لذلك الحوض وفى شواطىء فرنسا وإيطاليا ، ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن نشاط هؤلاء القراصنة ، علاوة على الخوف من إبرار فاطمى أو هجوم نورماندى جديد ، هو الذى دفع حكومة قرطبة لا إلى الإسراع بتبنى نظام دفاعى للسواحل الأندلسية أو تعزيز أسطولها فحسب ، بل أيضاً لإقامة سلسلة من الاستحكامات فى النقاط الساحلية التى يُظن أنها عُرضة للهجوم أكثر من غيرها ، ومن بداية ذلك العصر ، شُيدت فى أماكن عديدة على ساحل البحر المتوسط أبراج مراقبة (طليعة) تستطيع تبادل الإشارات والقذائف الضوئية أثناء الليل لتحذير جنود السواحل فى حالة الخطر .

كما شُيدت فى نفس الوقت – وفى بعض الأماكن التى يسهل اختراقها – استكامات ذات حرم مُسَوَّر كان يطلق عليها « رابطات » (مفردها : رابطة) يتولى الحراسة بداخلها – مثل بعض قلاع الثغر الأعلى – متطوعة (يتم تجنيدهم على فترات) يمارسون حياة المتصوفة [١٠٢] ، وأشهر تلك الاستحكامات الدينية (الأديرة المُحَصَّنة) على شاطىء المتوسط كان يقع على الطرف الشمالى لخليج المرية الصغير ويسمى « القابطة » ، وقد قام الحكم الثانى بزيارته عام ٩٦٤ م (٣٥٣ هـ) ، وهناك « رابطة » أخرى شهيرة تسمى « التوبة » كانت تطل على مضيق جبل طارق وترتفع فى مواجهة « ولبة » بالقرب من مصب « النهر الأحمر » (Río Tinto) ؛ وفى نفس مكانها القديم يوجد حاليًا دير « الرَّابضة » وكأنه تجسيد حى للتراث الإسلامى فى نهاية العصر الوسيط [١٠٣] .

ويحق لنا فى النهاية طرح هذا التساؤل : أكان باستطاعة هذا النظام الدفاعى (الذى لا نعرف عنه سوى القليل) توفير الحماية الفعَّالة للسواحل الأندلسية الممتدة – شرقًا وجنوبيًا وغربيًا – لمئات الكيلومترات ؟ بالطبع لا ، ولهذا ، فقد كان على سكان السواحل – المتجمعين فى قرى معلقة على المرتفعات التى تفصلها مسافة عن الشاطئ – تحمل عبء الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات المباغتة لأنهم أول من سيذوق ويلاتها ، سواء كانوا يعيشون فى العصر الأموى أو العصور اللاحقة [١٠٤] .

هوامش الفصل الثانى

(١) أسهمت النصوص التى اكتشفها أو نشرها حديثًا ليفى بروفنسال فى تقديم كمٌ لا بأس به من البيانات الجديدة عن النظام العسكرى لإسبانيا الأموية ، وغيرت فى الوقت نفسه كثيرًا من المفاهيم التى أوردها بروفنسال فى Esp. mus. X° siécle,PP. 121-156 .

ومع ذلك نوصى القارئ بالاستمرار فى استشارة هذا الكتاب .

لاتوجد حتى الآن سوى دراسات قليلة عن النظام العسكرى للامبراطورية العربية فى الشرق خلال القرن العاشر . انظر بهذا الخصوص :

- Mez: Ren. Isl., trad. Vila, pàgs. 386-388 .

وبالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، انظر :

- Diehl : Histoire du Moyen Age de Glotz, III, P. 463 y sigs.

أما بالنسبة لإسبانيا المسيحية فيمكن العثور على بعض المعلومات الموجزة فى : –

- Sánchez - Albornoz : Estampas, págs. 80-107.

- L. G. de Valdeavellano : Hist. de Esp., I, PP. 597 y 689-690.

ولمزيد من الاطلاع ، انظر :

- - S. Estébanez Calderón : De La milicia de los árabes en España, en Revista Militar, t. IV, Madrid, 1849.

(٢) تحدث الحميدى فى نقده لـ « نُقَط العروس » لابن حزم (طبعة شوقى ضيف ، القاهرة ، ص ٨١ – ٨٢) عن النهاية المأسوية لغالب بالتفصيل .

(٣) انظر :

- Lévi- Provençal: Le rôle de la Marche Superieur dans l'histoire politique de l'Espagne califienne, en pirienos, publicación del Instituto de Estudios Pirenaicos, múm. 15-16, Zaragoza, 1950, PP. 35-52.

(٤) كانت تسمى فى العصر الوسيط « قلعة خولان » .

(٥) لهذه القلعة عدة أسماء ، أقدمها « قلعة أسطالير astalir » ، ثم « قلعة يحصب » (نسبة إلى قبيلة يمنية استقر أحد أفرادها بالمكان بعد الفتح مباشرة) ، ثم « قلعة بنى سعيد » (« انظر نفح الطيب » للمقرى ، الجزء الأول ، ص ٦٨١) .

(٦) وكما نرى فكلمة « قلعة » تأتى عادة متبوعة باسم شخص (علم) ، كما توجد حالات أخرى لاتندرج تحت هذه القاعدة ، مثل : « قلعة التراب » ، « قلعة النسور » ... الخ .

(٧) سواء كان مسبوقًا بكلمة « حصن » أم لا ، ، وعلى سبيل المثال Iznajar بإقليم غرناطة (وهو يساوى العلم الجغرافى العربى « حصن أشر » (Hisn Ashar) .

(٨) أورد ابن عذارى هذا التعبير فى « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٢١ . انظر :

- Lévi-Provençal: Esp. mus. X° siècle, p. 151 .

(٩) انظر الفقرة التى أوردها ابن عذارى فى « البيان المغرب » (الجزء الثالث ، ص ٧) وترجمها بروفنسال فى المرجع السابق (ص ١٥١) بشأن تزويد العامرى « المظفر » لـ « حصن ممقصر » (Monmagastre) بحامية عام ١٠٠٢ م (٣٩٣ هـ) .

(١٠) أمدتنا « مذكرات ملك غرناطة الزيرى » عبد الله » باسم معقلين من هذه المعاقل : « صخرة دومس » و « صخرة حبيب » ، ونشير فى إيجاز إلى أن كلمة « معقل » كان يستخدمها مؤرخو الأندلس بدلا من « حصن » للإشارة إلى « القلعة » ، لكن هذه اللفظة (معقل) لم تطلق على أى علم جغرافى .

(١١) لو أخذنا بمقولة ابن بشكوال (« كتاب الصلة » ، ص ٩٨٠) فقد تم فى عهد المنصور بن أبى عامر (سنة ١٠١٣ م - ٤٠٣ هـ) ترميم قلعتى : « ويكاس » (Huecas) و « مكادة » (Maqueda) الواقعتين شمال غرب طليطلة ، على نفقة رجل البر الطليطلى « أبو نصر فتح بن إبراهيم الأموى » كما ينسب للرجل نفسه بناء مسجدين آخرين بطليطلة .

(١٢) J. A. Gaya Nuño: Gormáz, Castillo califal, en Al-Andalus, VIII, 1943, PP. 431-450 .

(١٣)

- L. Torres Balbás : Los adarves de las ciudades hispano- musulmanas, en Al-Andalus, XII, 1947, pp. 164-193.

وعن العمارة الحربية فى إسبانيا الأموية ، انظر كذلك :

- G. Marçais: Manuel d'art musulman, I, págs. 248-252.

- H. Terrase: L' art hispano- mauresque, págs. 153-162.

(١٤) انظر : مقدمة ابن خلدون ، الجزء الثانى ، ص ١٩ .

(١٥) انظر ابن عذارى « البيان المغرب .. » الجزء الثالث ، ص ٦٢ .

- Lévi- Provençal: Esp. mus. X° siècle, p. 129 y nota I.

(١٦) نفس الأسلوب كان يتبعه الأغالبة ومن بعدهم الفاطميون فى إفريقيا ، انظر :

- Dozy : Suppl, dict. ar., I, 290 .

- Rev. Et. Isl., Paris, 1936, págs. 169-170.

(١٧) يشير (Ei Calendario de Córdoba ، ص ٣٢) إلى أنه بمجرد انصرام شهر فبراير كانت تُرسل التعليمات من العاصمة إلى ولاة الكُور لكي يقوموا بتجميع « الحشود » التي ستشارك في الحملات المزمعة خلال الصيف (الصوائف) .

(١٨) ندين بالفضل فى معرفة هذه المعلومات لابن عذارى لأنه أوردها في الجزء الثاني من « البيان المغرب » (ص ١١١ - ١١٢ في النص الأصلى ، ص ١٧٨ - ١٧٩ فى الترجمة) ؛ لكنها موجودة الأن في الجزء المكتشف حديثًا من المجلد الأول لمقتبس ابن حيان fol. 254 Vo) .

(١٩) ابن الخطيب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، انظر طبعة القاهرة المختصرة (مركز الإحاطة) ، ص ١٩ ، وانظر أيضًا :

- Lévi - provençal : Esp. mus. Xo siècle, p. 132, 133:

- Dozy : Recherches 3, I,págs. 81-89 y apéndice II, pp. VIII-X.

(٢٠) ابن حوقل : « كتاب صورة الأرض » ، طبعة Kramers ، الجزء الأول ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ص ١١٣ . يمكن مقارنة الرأى المتحامل لابن حوقل بآخر أعنف نسبه القاضى الأشهر « أبو حنيفة النعمان » إلى الخليفة الفاطمى « المعزّ » (« كتاب المجالس والمسايرات » m.s.n. o 2606 بمكتبة جامعة القاهرة ، الجزء الأول ، ص ٢٤٨ - ٢٨٦) ؛ وأورده كذلك كلٌ من حسن إبراهيم ، طه أحمد شرف في كتابهما : « المعز لدين الله » (القاهرة ، ١٩٤٨ (١٣٦٧ هـ) ، ص ٢٢٧ - ٢٣٨ وصفحة ٢٣٣على وجه الخصوص .

(٢١) هذا ما نستشفه من إشارة ابن عذارى (المنقولة عن ابن حيان) إلى عهد الأمير محمد الأول (« البيان المغرب ... » ، الجزء الثانى ، ص ١١١ - ١١٢) يذكر ابن حيان في الجزء المكتشف من «المقتبس » (fol. 254V°) أنه أخذ هذه المعلومة عن المؤرخ الأموى الأصل ، « معاوية بن هشام » . والجدير بالذكر أن أعمال هذا المؤرخ - بالإضافة إلى أعمال كل من أحمد الرازى وابنه عيسى - كانت من المصادر الأساسية لابن حيان .

(٢٢) انظر : - Lévi-provençal: Esp. mus. Xo siècle, págs. 129, 130

ومبادرة الحكم الأول هذه أوردها - من خلال ابن حيان - كل من : ابن عذارى ، ابن الأثير ، النويرى ، ابن خلدون والمقرى .

(٢٣) نستخلص من فقرة غامضة جاءت في « أخبار مجموعة » (ص ١٠٩ من النص ، ص ١٠١ في الترجمة) أن عبد الرحمن الأول اتخذ لنفسه حرسًا من السود ، وقد أسمتهم المدونة « عرافة السُّود » .

(٢٤) عانت كلمة « عجم » من التفسير الخاطىء زمنًا طويلاً ، فعندما تناول دوزى Sppl. dict. ar.I, p. 291) عصر المرابطين سجل لها المدلول التالى : « الكتائب المرتزقة » ، وفى الفترة التى تفصل بين عصر الخلافة وعصر المرابطين كانت هى اللفظة الوحيدة المستخدمة للدلالة على « الفرق التى لها رواتب » ، وقد ظهرت بهذا المدلول فى نصوص القرن الحادى عشر التاريخية ، وفى مقدمتها « مذكرات » ملك غرناطة الزيرى « عبد الله » ، وفى بداية توسع الموحدين بالمغرب كانت تطلق عليهم وعلى أتباعهم ، وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن الجمع « عُجْم » (المقابل لـ « أجناد ») مذكور فى « المقتبس » لابن حيان (الجزء الثالث ، fol. 105 V°) .

(٢٥) أخذنا هذه اللفظة من « أخبار مجموعة » (ص ١٠٩ من الأصل ، ص ١٠١ فى الترجمة) ، كما ورد بنفس المدونة (ص ١٢٩ من الأصل ، ص ١١٦ فى الترجمة) أن الحرس الخاص للحكم الأول كان يضم ألفى فارس ، مقسمين إلى عشرين فصيلة ، بكل منها مائة رجل على رأسهم « عريف » .

(٢٦) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٢٧) كان معظم الحرس الخاص للملوك المرابطين فى القرن الثانى عشر من المرتزقة المسيحيين المجلوبين من « قطلونية » وجنوب فرنسا ، ومن أبرز قواد هذا الحرس « (ريفيرتر Riverter) نائب كونت برشلونة الذى تميز بشدة ولائه - روحًا وجسدًا - لسادته المسلمين .

(٢٨) نقصد أحد فصول المجلد الثالث من « المقتبس » (fols. 105 r° - 107 r°) - المحفوظ بأكاديمية التاريخ الملكية ، مدريد - والذى قام إميليوجارثيا جومث بنشره مع ترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان :

Al- Hakam II y los Berebéres, según un texto inédito de Ibn Hayyan, en Al - Andalus, XIII, 1948, págs. 209-226.

(٢٩) انظر « المقتبس » لابن حيان (الجزء الثالث ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، ص ١٤١ و ١٤٧ من طبعة M. Antuna والتى تتناول الأعوام التالية : ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٩ هـ) . ويتحدث الجزء الخاص بعام ٩١١ م (٢٩٨ هـ) (والذى أورده ابن عذارى فى « البيان المغرب ... » الجزء الثانى ، ص ١٥٢ فى الأصل ، ص ٢٢٤ - ٢٤٥ فى الترجمة) عن عصيان مزدوج للبربر الطنجيين عندما ذهبوا إلى جنوب الأندلس وانضم بعضهم إلى ابن حفصون والبعض الآخر لابن هذيل ، ومع بداية القرن الحادى عشر أخذوا يطلقون فى إسبانيا لفظ « غازى » (جمعها : غزاة) على الجنود أو المرتزقة أو المتطوعة للجهاد الوافدين من شمال إفريقيا وبخاصة المغرب (ابن عذارى « البيان المغرب ... » ، ص ٧٥ ، السطر الأخير) ، وعندما جاء الموحدون تبنوا اللفظة وأطلقوها على إحدى شرائحهم الاجتماعية (طبقة كتائب الجهاد) ، وفى القرن الرابع عشر - خلال عهد بنى نصر - لعب الغزاة المغاربة ، الذين كانوا فى خدمة المملكة الغرناطية ، دورًا أساسيًا هامًا ومشئومًا .

(٣٠) على بن عبد الرحمن بن هذيل « تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس » ، طبعة :

- L. Mercier (L' ornement des âmes et la devise des habitants d'el Andalus) Paris, 1936, págs. 24-25.

(٣١) يخبرنا ابن الأبار (الحلة السيراء ، ص ١٤٠) أن الناصر منح هذا اللقب ، عام ٩٥٤ م (٣٤٣) هـ لعبيد الله (ابن القائد أحمد بن يعلى) .

(٣٢) تشهد بهذا كثير من البيانات المبثوثة في المدونات التاريخية وكتب التراجم الأندلسية ، وعلى سبيل المثال ، فقد حدثنا ابن حيان (« المقتبس » ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦) عن الفقيه « عباس بن ناصح » الذى اعتاد القدوم على فترات إلى إقليم « وادى الحجارة » لتأدية واجب « الرِّباط » ومن جهة أخرى ، لم يُجمع الجغرافيون العرب على إطلاق مصطلح « دار الجهاد » على بلد في الغرب الإسلامي مثلما أجمعوا على إطلاقه على إسبانيا . انظر :

- Lévi - provençal : Péninsule Ibérique, p. 6.

(٣٣) عن مدلول هذا التعبير ، انظر :

- G. Marçais, en la Enc. Isl., III, págs. 1231-1232.

(٣٤) تكفى الإشارة حاليًا إلى أن كلمة « مُرابط » التى تطلق على المسلم في حالة « الرِّباط » ، كان يُراد بها في نهاية القرن الحادى عشر سلالة المرابطين الذين شيدوا « اللامتونات » (Los Lamtuna) في جنوب المغرب ، كانت كلمة « رباط » تحمل في إسبانيا نفس معنى « وَقْف النفس على أعمال البر والتقوى » الذى كان يُمارس على الحدود البحرية (وهى مثل الثغور) داخل أسوار محصنة يطلق عليها « رابطات » . انظر :

- G. Marçais:Note sur les ribâts en Berbérie, en Mélanges René Basset, Paris, 1925. II, págs. 395-430.

- Lévi - provençal : Esp. mus. X° siècle, págs. 138- 139:

(٣٥) في بداية القرن الحادى عشر وخلال عهد العامرى « المظفر » كان معظم المتطوعة من المغاربة المستعدين دائمًا لتلبية نداء حكومة قرطبة . انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٤ ؛ والمرجع السابق لـ ليفى بروفنسال ، ص ١٣٨ وملاحظة رقم ١ .

(٣٦) تعزز هذه المعلومة فقرة أخرى أوردها ابن حيان ، انظر :

- Lévi - provençal : Fragments historiques, p. 10.

(٣٧) انظر المجلد الرابع (الفصل السادس) .

(٣٨) المرجع السابق (الفصل السادس) . كما وردت هذه المعلومة أيضًا في :

Fragments historiques, p. 44.

(٣٩) انظر المجلد الرابع (الفصل السادس) . حيث يذكر أن الدعوى لم تُوجَّه للزيريين لعبور المضيق والمجيء لإسبانيا إلا عند موت المنصور .

(٤٠) توجد هذه الصفحة فى بداية المذكرات .

(٤١) انظر ، على وجه الخصوص : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٦ (فى النص الأصلى) ، ص ٤٥٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٨ ، ٤٩٠ (فى الترجمة) .

– ابن خلدون « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .. » ، الجزء الرابع ، ص ١٤٧ .

– المقرى « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ١٨٦ ، ٢٥٨ .

(٤٢) يبدو أن إسبانيا الإسلامية تبنت منذ القرن التاسع نظام إعفاء المواطنين من الخدمة العسكرية مقابل تسديدهم لضريبة خاصة تسمى « حشد » ، انظر ما أورده البكرى وأثبته ليفى بروفنسال فى كتابه « شبه جزيرة إيبيريا » (ص ٢٥٠ – ٢٥١ ، ٢٦٢) . كما يبدو أن هذا النظام ظل متبعًا فى عصر الخلافة عند التعبئة للصوائف ، حيث كان يتم « استئجار » بديل (نائب) نظير مبلغ من المال يُسدد نقداً .

(٤٣) وأوردها ابن الخطيب فى « كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » ، من ص ١١٥ إلى ص ١٢٠ .

(٤٤) رأينا من قبل ، كيف كان العاهل – خاصة فى القرن التاسع – يتولى بنفسه قيادة معظم هذه الصوائف ، وفى تخلفه لسبب من الأسباب ، كان يعهد بها لواحد من أبنائه أو إخوته ، وفى الحالة الأخيرة كان يتولى القيادة العامة قائد حربى متمرس ، ويرافق الأمير مستشار سياسى « مُدَبِّر » . وهذا ما نستخلصه من بعض البيانات التى تتضمنها المدونات التاريخية ، وعلى سبيل المثال ما جاء فى الجزء الأول من «المقتبس » لابن حيان .

(٤٥) ومن تلك « الشتويات » نذكر التى جرت وقائعها فى عهد عبد الملك (المظفر) عام ١٠٠٧ م (٣٩٨ هـ) ، والتى أشار إليها ابن عذارى فى « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٢١ .

(٤٦) انظر – على سبيل المثال – ما تم فى صائفة ٩١٩ (٣٠٦ هـ) ضد « البلدة » (Belda) (ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ١٨١ (١٧٣) فى النص الأصلى ، ص ٢٨٨ فى الترجمة) .

(٤٧) انظر المرجع السابق ، ص ١٧٤ – ١٧٥ (١٦٧ – ١٦٨) فى النص الأصلى ، ص ٢٧٩ فى الترجمة وأيضاً :

- Lévi - provençal : Esp. mus. X° siècle, págs.. 139- 140:

(٤٨) لدينا بهذا الخصوص شهادة قيمة تنسب لابن حيان وأوردها ابن الخطيب فى « كتاب أعمال الأعلام » (ص ١٤٥) . وطبقًا للمؤرخ القرطبى فإن المنصور عندما قرر فى عام ٩٨٥ م (٣٧٤ هـ) إرسال حملة إلى برشلونة أراد أن يتأكد بنفسه من مخزون القمح فى صوامع الدولة ، ولما وجده يربو على مائتى ألف قدح ، صاح فى عنجهية : « بصوامعى غلال أكثر مما لدى المسيح ذاته » . ومع هذا فلم يمر وقت طويل حتى أتت سنوات عجاف على ذلك المخزون ، لدرجة أن الديكتاتور فكر فى إرسال حملة إلى شمال إفريقيا ، الذى لم

يلحقه الجفاف ، لجلب الزاد والمؤن للأندلس . وبعد انقضاء فترة الجفاف العصيبة عمل المنصور جاهداً على زيادة عدد الصوامع ، وخصص جزءًا كبيراً من ميزانية الدولة لشراء الغلال .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٥٠) ثبت استخدام المصطلح الأخير (عارض الجيش) في عهد العامريين . انظر « نفح الطيب » ، الجزء الثاني ، ص ٤٢٢ .

(51) A. González Palencia : Hist. Esp. Mus., 2ª ed., p. 199

(٥٢) في إحدى النوادر التي ينسبها المقرى للمنصور (نفح الطيب ، الجزء الأول ، ص ٢٧٢) ، استخدم العامري كلمتي « عارض » و « تمييز » بمعنى واحد .

(٥٣) شاع استخدام هذا المصطلح في العالم الإسلامي طوال العصر الوسيط انظر :

- Lévi - provençal : Esp. mus. X° siècle, p. 142- 142 nota 2 .

(٥٤) طبقًا للمقرى (نفح الطيب ، الجزء الثاني ، ص ١٨٠) فإن القوات كانت تتجمع للعرض بعد سماعها لصوت النفير .

(٥٥) يبدو أن كلمة « عَرْض » كانت تساوي في الدلالة كلمة « ديوان » خلال القرن العاشر . يقول ابن حيان (Fragments historiques, p. 20) : ألحق المنصور « البربر الأفارقة بالقوات المغربية العاملة « (عرض المغاربة) .

(٥٦) كان مصطلح « دار الصناعة » يطلق على مصانع الأسلحة الرسمية وعلى ورش تصنيع السلاح الخاصة وعلى ترسانات بناء السفن .

(٥٧) ستختفي هذه الكلمة ذات الأصل الفارسي من الغرب الإسلامي ابتداءً من القرن الثاني عشر ، لتفسح المجال أمام الكلمة البربرية « أفراج » التي استخدمت في المغرب للدلالة على ساتر القماش الذي يفصل معسكر العاهل (المكَوَّن من خيام حاشيته) عن مَحِلاّت الأشراف . انظر : -

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 647 b.

(٥٨) انظر : - Lévi-Provençal : Esp. mus. X° siècle, p. 141 y nota I

(٥٩) أشار ابن حيان في « المقتبس » (الجزء الأول fol. 284 r°) إلى احتفال « لعقد الأولية » تم في عهد الأمير محمد الأول في مسجد قرطبة الجامع بمناسبة الحملة البحرية لعام ٨٧٩ م (٢٦٦ هـ) .

(٦٠) انظر : - Lévi-Provençal : péninsule Ibérique, p. 131 y nota 2

(٦١) طبقًا لـ (El Calendario de Córdoba, p. 14) فقد كانت تُوَجَّه تعليمات بهذا الغرض خلال شهر مارس لموظفي المالية بالأقاليم .

(٦٢) أثبت المرجع السابق (ص ٣٧ ص ٤٧) وجود مزارع الأفراس المذكورة ، وبالنسبة لـ «المدائن» (جزر نهر الوادى الكبير التي تسمى حاليًا Menor ، وكانت تعرف في القديم باسم Captel y Mayor) ، انظر :

- Lévi - provençal : Péninsule Ibérique, p. 27 y nota3-Seville musulmane, p. 153, nota 118.

(٦٣) تحدث ابن حيان (المقتبس ، الجزء الثالث ، fol. 150 Vo) عن استخدام السرج الإفريقى أيام الحكم الثاني وأشار إلى شيوعه في عهد المنصور . انظر أيضًا : -

- E. Carcía Gómez : Al- Hakam II y los beréberes, en Al-Andalus, XIII, 1948, p. 214 del texto, 221 de la trad.

(٦٤) انظر مؤلفه عن الطب البيطرى للخيول بعنوان « حلية الفرسان وشعار الشجعان » الذى طبعه وترجمه وعلق عليه :

- L. Mercier : La parure des cavaliers et l'insigne des preux, paris, 1922-1924.

(٦٥) في اللغة العربية « سائس » .

(٦٦) أعد (Pérès : Poèsie andalouse, PP. 352-354) قائمة بأسماء الأسلحة الدفاعية والهجومية التي وردت بقصائد شعراء الأندلس خلال القرن التاسع . أما الفصل الذى يشتمل عليه الكتاب التالى : -

Manuel d' art musulman : Arts plastiques et industriels, de G. Migeon, paris, 1977, I, PP. 408-425.

فينصح بتوخى الحذر عند الرجوع إليه وخاصة فيما يتعلق بإسبانيا الإسلامية أما بالنسبة للأسلحة المستخدمة في إسبانيا المسيحية خلال القرن العاشر ، انظر :

- Sánchez - Albornoz : Estampas, pp. 92-94 y notas 42, 47.

- Aguado Bleye : Man. Hist. Esp., I, p. 536 .

(٦٧) أثبت ابن القوطية استخدام المقلاع في عهد عبد الرحمن الثانى ضد القراصنة النورمانديين . انظر :

- Dozy : Rech. 3, II, pp. 262 y LXXX .

- Fagnan : Extraits inédits, p. 211.

(٦٨) طبقًا لـ (El Calendario de Córdoba, p. 67) فقد كانت الحكومة تنظم مطاردات للصيد خلال شهر يونيو من كل عام وذلك بغرض الحصول على قرون الأيائل لاستخدامها في صناعة الأقواس ، كما كان يستخدم لهذا الغرض أيضًا خشب « الزرنب » المجلوب من غابات إقليم « شقورة » (Segura) انظر :

- Lévi - provençal : Péninsule Ibérique, p. 129 .

(٦٩) انظر : ابن هذيل « حلية الفرسان ... » ، ص ٢١١ - ٢١٢ (في النص الأصلى) ، ص ٢٥١ - ٢٥٣ (في ترجمة Mercier) .

(٧٠)المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ (في النص الأصلي) ، ص ٢٦٩ - ٢٧١ (في الترجمة) .

(٧١) Lévi - provençal : Esp. mus. X° siècle, p. 145 y nota 2- Péninsule Ibérique, P. 106 y nota I.

يقدم أبو حامد الغرناطي في « تحفة الألباب » (طبعة وترجمة Ferrand ، باريس ١٩٢٥ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وملاحظة رقم ١) معلومات هامة عن التروس المصنوعة من جلد « اللامت » (Lamt) .

(٧٢) معظم مسميات الأسلحة الهجومية والدفاعية التي تحدثنا عنها موجودة في ملخص تاريخ العامريين الذي أعده ابن حيان وأورده ابن الخطيب في « كتاب أعمال الأعلام » .

(73) Lévi-Provençal : Inscriptions arabes d' Espagne, múm. 204, p. 189 y nota 60.

(٧٤) انظر : ابن الخطيب « كتاب أعمال الأعلام ... » ، ص ١١٨ .

(٧٥) انظر المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٧٦) تسبب الاعتماد على ما أورده الكاتب المشرقي ابن خلكان عند وصفه لمعركة « الزلاقة » (Enc. Isl., IV, p. 1273) في شيوع مغالطة مفادها : أن إسبانيا كانت تخلو من الجمال قبل مجيئ المرابطين إليها في القرن الحادي عشر . وفي هذا المقام نذكر بأن جثمان الأمير « المنذر » نقل إلى قرطبة على ظهر جمل عام ٨٨٨ م (٢٧٥ هـ) .

(٧٧) لاندري هل تشير كلمة « غوازي » (مفردها : غازية) - في فقرة ابن حيان المذكورة - إلى حريم القائد العام ، أم أن المقصود بها - كما هو محتمل - النساء الساقطات اللاتي يعرفن في مصر الحديثة بالغوازي ؟ انظر :

- Dozy : suppl. Dict. ar., II, p. 212 b.

(٧٨) كان يطلق على الضابط الذي يتولى ، في كل مرحلة من مراحل الطريق ، إعداد معسكر القائد العام اسم « صاحب الأبنية » ، وهو يختلف عن « صاحب البنيان » الذي كان مكلفًا بصيانة وترميم المباني الملكية انظر : ابن عذاري « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ص ، ١٠ .

(٧٩) تجدر الإشارة إلى أن البربر المتحالفين مع سليمان المستعين عندما طلبوا مؤنًا من « شانجة غرسية » (كونت قشتالة » عام ١٠٠٩ م (٣٩٩ هـ) ، فإنه أرسل إليهم - من بين أشياء أخرى - ألف عربة محملة بالدقيق (ابن عذاري ، « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ٨٦) . ويبدو أن استعمال العربة ذات العجلات كان خاضعًا في الغرب الإسلامي لنوع من التحريم خلال العصر الوسيط ، ونتمنى لوفسر لنا أحد هذا بشكل مقنع .

(٨٠) انظر : - J. Oliver Asín, en Al-Andalus, XV, 1950, p. 154

(٨١) علينا ألا ننسى الخطة العسكرية المحكمة التي استطاع بها المنصور تحقيق النصر في معركة « ثيربيرا » (Cervera) عام ١٠٠٠ م (٣٩٠هـ) .

(٨٢) طبقة القاهرة ، ص ، ١٥٥ .

الترجمة الإسبانية : - M. Alarcón : Lámpara de las príncipes, II, p. 332

(٨٣) انظر :

- Lévi - provençal : Esp. mus. Xo siècle, págs. 147-148

حيث توجد قصة مترجمة عن الطرطوشي (طبعة القاهرة ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢٢ فى ترجمة « ألاركون » الإسبانية) تصف مبارزة فردية بين بطل مسيحي وآخر مسلم أثناء إحدى حملات المنصور . وبما أن هذه القصة قد وردت أيضا في « تحفة الأنفس .. » (طبعة Mercier ، ص ٦٩) لابن هذيل ، وقام دوزى بترجمتها (Rech. 3, II, Págs. 235-237) فلا داعى إذن لإعادة ترجمتها هنا .

(٨٤) وفوق « مظلة » القائد العام كانت تخفق الراية أو البيرق .

(٨٥) انظر : - Dozy : Suppl. dict. ar., I, p. 536 a

(٨٦) تتسم إشارات المؤرخين عن تكتيك حرب الحصار فى إسبانيا خلال القرن العاشر بالإيجاز الشديد . أما البيانات الأكثر دقة ، بالرغم من إيجازها الشديد ، فتوجد في الجزء الثالث من « البيان المغرب » لابن عذارى ، وتتعلق بالحملة التي سيرها عبد الملك « المظفر » عام ١٠٠٣ م (٣٩٣ هـ) إلى « قطلونية » .

(٨٧) انظر المجلد الرابع (الفصل الخامس) .

(٨٨) انظر كتاب « الجزيرى » (fol. 59 V°) .

(٨٩) انظر المجلد الرابع (السادس) .

(٩٠) تشير هنا إلى المفاوضات التي جرت فى عهد الأمير محمد الأول لفدية القائد « هاشم بن عبد العزيز » الذى أسر عام ٨٧٨ م (٢٦٢ هـ) وظل سنتين محجوزا فى « أوبييدو » ، كما يخبرنا ابن حيان (المقتبس ، الجزء الأول fol, 128 r°) بإمداء الحكم الأول لسكان منطقة على الحدود بعض الذين أسرهم فى إحدى حملاته لكى يستفيدوا منهم فى المقايضة بمن وقع أسيراً من ذويهم فى أيدى جيرانهم المسيحيين .

(٩١) انظر كتاب « الجزيرى » fol. 60 r° .

(٩٢) انظر : ابن الفرضى « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٩٥٢ ، وطبقًا لنفس القائمة التي أعدها ابن الفرضي (رقم ٧٤) فقد قام رجل بر مسلم من « وشقة » (توفى عام ٩١٩ م = ٣٠٧ هـ) بافتداء ١٥٠ أسيرًا من ماله الخاص .

(٩٣) وردت أيضاً أخبار الحملة البحرية على هاتين الجزيرتين الرئيسيتين فى أرخبيل « البليار » (عامى : ٢٣٤ - ٢٣٥ هـ) فى الجزء المكتشف حديثًا من « المقتبس » لابن حيان (الجزء الأول fol. 189) . وطبقا للمعلومات التى ذكرها المؤرخ ، فإن أهالى الجزيرتين نقضوا اتفاق الولاء لنظام قرطبة ، ولم يكفوا عن مهاجمة السفن الإسلامية المارة بالقرب من سواحلهم ، وأفرغت الحملة الأموية - عند عودتها - عدداً كبيراً من الأسرى وكميات هائلة من الغنائم فى ميناء بلنسية ، وبعد ذلك بقليل طلبت « ميورقة » العفو من عبد الرحمن الثانى ، وتعهدت له بالولاء .

(٩٤) وردت فى الجزء المكتشف حديثًا من « المتبس » لابن حيان (الجزء الأول fol. 283 r°) مبادرة الأمير محمد الأول التى لم يكتب لها النجاح .

(٩٥) انظر ابن خلدون « كتاب العبر .. » الجزء الرابع ، ص ١٣٩ (سنة ٩١٤ م - ٣٠٢ هـ) .

(٩٦) لابد من مراجعة تاريخ الصراع بين الأمويين والفاطميين فى القرن العاشر - وخاصة الصدامات التى جرت بينهما فى الحوض الغربى للبحر الأبيض أيام الناصر والمعز - على ضوء الوثائق والمعلومات الواردة فى « كتاب المجالس والمسايرات » لأبى حنيفة النعمان ، وبالرغم من النبرة الحادة للكتاب إلا أنه يقدم التفاصيل التى تقطع بوجود مفاوضات بين قرطبة وبيزنطة خلال ذلك العصر ، كان الغرض منها تحييد نفوذ الفاطميين العربى قدر الإمكان .، وهكذا ، فقد تزامنت الحملة الفاطمية على « ألمرية » (٩٥٥ م - ٣٤٤ هـ) مع هزيمة أسطول آخر ، أرسله المعز لغزو « كورسيكا » ، على يد البحرية اليونانية . انظر الجزء الخاص بعهد المعز فى كتاب إبراهيم حسن وأحمد شرف (خاصة الصفحات ٣٣٧ - ٣٣٨) .

(٩٧) انظر الترجمة الكاملة فى :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X° siècle, pp. 85-86

(٩٨) ابن خلدون « المقدمة » ترجمة De Slane, II, pp. 40-41

(٩٩) ابن الخطيب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، القاهرة ، الجزء الأول ، ص ٣٠٦ .

(١٠٠) انظر : -

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X° siècle, pág. 154-péninsule Ibérique,p. XXX.

(١٠١) انظر

- Lévi - Provençal : Inscr.. ar. D' Esp. Núm. 86, págs. 86-84

(١٠٢) انظر

- L. Torres Balbás : Rábitas hispano-musulmanas, en Al-Andalus, 1948, pp. 475-491.

(١٠٣) انظر

- Lévi - Provençal : Péninsule Ibérique, p. 81.

- L. Torres Balbás : Rábitas hispano-musulmanas, P. 485.

(١٠٤) انظر ، على سبيل المثال ، القرن الرابع عشر

- Lévi - Provençal : Levoyage d'Ibn Battuta dans le royaume de Granade (1350), en Mélanges William Marçais, París, 1950, págs. 202-211.

الفصل الثالث

النظام القضائى [1]

عناوين الفصل الثالث :

١ - القضاء :

المؤلفات التى تتناول القضاء والقضاة – قاضى قرطبة وقضاة الأقاليم (الكُور) – ممارسة القضاء – دوائر الاختصاص غير القضائية – المكانة الاجتماعية البارزة لقاضى قرطبة .

٢ - هيئات القضاء الفرعية :

خطتا « الرّد والمظالم » – « صاحب السوق » – « صاحب المواريث » .

٣ - عقوبات الزجر والرّدع :

الشرطة واختصاصاتها – صاحب المدينة – العقوبات . .

- حواشى الفصل الثالث .

١ - القضاء

المؤلفات التى تتناول القضاء والقضاة :

لايختلف اثنان على توافر كَمّ هائل من المعلومات عن نظام القضاء فى قرطبة الأموية مصدره أدب التراجم والدراسات الشرعية المتعلقة بالغرب الإسلامى فى العصر الوسيط[١]، ولا غرابة فى هذا إن علمنا أن القضاء « كخطة دينية » قد حظى فى جميع بقاع العالم الإسلامى - وعلى مر العصور - بأهمية كبرى ؛ كما أنه - خاصة فى الأندلس والمغرب المالكيين اللذين استأثر فيهما بالقسط الأعظم من النشاط الثقافى - لم يكن مجرد هدف للعديد من الدراسات التحليلية ، بل لأن أبطاله (القضاة) وجدوا دائمًا متسعًا لهم سواء فى كتب التراجم العامة أو فى المؤلفات المقصورة عليهم ، ولهذه المؤلفات أهمية وثائقية كبيرة بالنسبة لإسبانيا الإسلامية حتى القرن الحادى عشر ، ذلك لأن محتواها أكثر غنى وحيوية وأقل « رسمية » من محتوى المدونات التاريخية التى كانت تدور حول العاهل وحاشيته من الطبقة الأرستقراطية ، وفى مقابل هذا نجد أن الأعمال الموجهة إلى القضاء والقضاة لم تأنف من الشغل بأشد الطبقات بساطة فى المجتمع أو من الكشف عن الخصائص النفسية وطبائع الشرائح المختلفة من الناس ، وبالرغم من أن هذه الأعمال تفتقر فى كثير من الأحيان إلى الجاذبية - خاصة عند خوضها فى منهاج القضاء ومسائله الفنية - إلا أنها تعتبر معينًا لا ينضب لدراسة التاريخ الاجتماعى ودقائق الحياة اليومية .

بالرغم من عدم مناسبة المكان لتعداد المؤلفات الشرعية القديمة التى أفردت معظم صفحاتها لدراسة مظاهرالقضاء المختلفة ، إلا أننا لا نستطيع غضّ الطّرف عن اسمين من أسماء من قاموا بالترجمة لقضاة الأندلس ووصلت إلينا - لحسن الحظ - أعمالهما « محمد بن الحارث الخشنى » الذى عاش فى القرن العاشر ؛ ومؤلف غرناطى أحدث منه بكثير لكنه اعتمد مباشرة على المصادر القديمة ، ونعنى به « أبا الحسن النبَاهى » ، كان الأول قاضيًا على القيروان ، واستقر به المقام فى إسبانيا أيام الحكم الثانى الذى كلفه بكتابة تاريخ قضاة قرطبة (وقد قام المستشرق الإسبانى

« خوليان ريبيرا » بنشره عام ١٩١٤ (٢))، أما كتاب النباهى فيضم جميع قضاة الأندلس حتى عصر « بنى نصر » ، ملوك غرناطة التى ولى النباهى قضاءها فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر .

ويكتسب كتاب النباهى الذى يحمل عنوان « المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » - المنشور عام ١٩٤٨ (٣) - أهمية كبرى لأنه يعتبر تكملة لأخبار الخشنى التى توقفت عند منتصف القرن العاشر ، ولأنه - من جهة أخرى - اعتمد على مصادر أساسية فى نفس الموضوع لكنها فُقدت ولم تصل إلينا ، وأبرزها كتاب القرطبى « أحمد بن عبد البر » الذى أُعدم سنة ٩٥٠ م (٣٣٨ هـ) لاشتراكه فى المؤامرة التى دبرها عبد الله ضد أبيه الناصر .

ويجانب كتّاب التراجم هؤلاء سندرك فى الصفحات التالية مدى الفوائد التى يمكن استخلاصها من الدراسات المتخصصة ذاتها ، مثل مجموعات الفتاوى الشرعية ومنها ما قام بإعداده ابن سهل (٤) وما أعده ابن عبدون فى « الحِسْبة » (٥) ، وأخيراً صيغ المُحرَّرات أو العقود المؤلفة لخدمة العاملين فى هذا المَجال (٦) ، وكل هذه الأعمال التى كتبها مؤلفون أندلسيون والموجهة لقراء أندلسيين كانت مخصصة لتحديد ماهية القضاء ودوائر الاختصاص العادية والاستثنائية المنوطة بالقاضى فى إسبانيا الإسلامية خلال العصر الوسيط .

قاضى قرطبة ، وقضاة الأقاليم (الكُور) :

كالعهد فى بقية العالم الإسلامى ، فإن عاهل قرطبة - مثلما كان يُسند إلى « الحاجب » ممارسة بعض سلطاته فى رئاسة الحكومة - فقد كان يفوض كذلك قاضى عاصمته فى ممارسة ما يخصه من القضاء بين جماعة المسلمين ، وهذا التفويض (الإنابة) يعتبر بمثابة الركيزة الأساسية للنظام القضائى (٧) ، ذلك لأن القاضى المُفَوَّض من قبِل العاهل كان يتولى بدوره - على الأقل فى البداية - تفويض القضاة المحليين ، سواء فى عواصم الكُور أو فى المدن الكبيرة بالثغور ، فى تحمل أعباء العدالة بتلك الأماكن ، لكن سلطة القاضى هذه سرعان ما أصبحت مجرد حبر على ورق ، وذلك لأن الحكومة المركزية كانت هى التى تقوم بالفعل (بموافقة القاضى المسبقة أو بدونها) بتعيين قضاة الدوائر الإقليمية .

ومثل بقية دول العالم الإسلامي ، فإن مبدأ السلطة المطلقة يخول للعاهل - بصفته « إمام » جماعة المسلمين - الفصل في القضايا المختلفة بالرغم من وجود قاضٍ مُعيَّن من قِبله لهذا الغرض ، لقد ظل العاهل - بالفعل - الحكم الأعلى للنزاعات والقضايا التي تتضمن الشريعة حلولا لها ، وفي هذا الصدد ، فقد قام بعض أمراء بني أمية - من بينهم الأمير عبد الله - بإحياء سنة أسلافهم في تخصيص لقاء أسبوعي برعاياهم ، مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ، يستمعون فيه لشكاويهم ويبادرون بحلها ، ويبدو أن هذه العادة قد توقفت أثناء حكم عبد الرحمن الثالث لأن عظمة وجلال الخلافة لا يتناسبان بأي حال مع المشهد البسيط والعائلي لهذه المحكمة الملكية التي نحسب أنه لم يكن بمقدورها إلا الفصل في النذر اليسير من دعاوى شعب تزيد أعداده يوماً بعد آخر .

أُطلقت في العصر الأموي ثلاثة مسميات على قاضي قرطبة : قاضي الجُنْد ، قاضي الجماعة وقاضي القضاة . وفيما يلي سنتناول كُلا منها على حدة .

كانت التسمية الأولى (قاضي الجند) - وعلينا ألا نخلط بينها وبين وظيفة « قاضي العسكر » التي يقوم صاحبها بالقضاء بين القوات أثناء الحملات العسكرية [8] - تُطلق على القضاة القرطبيين حتى زمن الأمير محمد الأول ، هذا ما نستخلصه من عبارة ابن القوطية التي يقول فيها إن أول من تلقب في قرطبة « بقاضي الجماعة » هو « عمرو بن عبد الله بن ليث » ، وقد اختار له الأمير محمد الأول هذا اللقب عندما عينه لأنه كان « مولى » ينتسب للجند السوريين المقيمين بشبه الجزيرة [9] ، وقد كان القضاة حتى ذلك التاريخ يُختارون من بين طبقة الجند ولذلك كان يطلق على من يتولى قضاء قرطبة « قاضي الجند » .

لكن « الخشني » له رأي آخر [10] ، يقول في تاريخه لقضاة العاصمة الأندلسية إن عبد الرحمن الداخل عندما أسس ملك المروانيين في الأندلس وجلس على عرشه في قرطبة لم يعزل قاضي الجند « يحيى بن يزيد التوجيبي » بل أبقاه في منصبه وخلع عليه اللقب الجديد : « قاضي الجماعة » ، والحقيقة أن اللقبين ظلا يستخدمان معًا لفترة من الزمن ، ذلك لأن « محمد بن بشير » - القاضي الشهير للحكم الأول ، المتوفى عام ٨١٤ م (١٩٨ هـ) - كان يُفَضل في جلساته اللقب القديم على الجديد [11] .

على أى حال ، فقد تأصل فى إسبانيا استخدام مصطلح « قاضى الجماعة » فى نفس الوقت الذى شاع فيه استخدام « قاضى القضاة » فى الامبراطورية العباسية ، ويحتمل أن يكون الأخير منقولا من المصطلحات القضائية والكهنوتية الساسانية [١٢] ، لكن على خلاف التعبير الشرقى الذى يقصد به قمة السلك القضائى ، فإن التعبير الأندلسى لا يعنى الشيء ذاته مهما حاول النباهى فى سذاجة [١٣] تفسير كلمة « الجماعة » بمجلس القضاة ، لكى يُضفى على قاضى قرطبة سلطة تعيين زملائه فى الأقاليم ، وهذا لم يحدث أبدًا طيلة عمر الخلافة القرطبية ، وأقصى ما وصل إليه « قاضى الجماعة » هو التحقيق – وبأمر صريح من الأمير – فى تصرفات بعض القضاة الذين كثرت شكاوى الناس ضدهم ، وبدون تعقيد يمكن أن نفسر إطلاق هذا اللقب (قاضى الجماعة) على قاضى قرطبة خلال القرنين التاسع والعاشر على أنه مظهر من مظاهر رغبة الأمويين الإسبان فى تفادى نسخ الألقاب المستخدمة عند خصومهم الشرقيين ؛ علينا ألا نحمل كلمة « الجماعة » ما لا تحتمل من المدلولات لأن مصطلح « قاضى الجماعة » يعنى ببساطة – دون إشارة إلى أية مرتبة كانت – أن صاحبه مُفوَّض من قِبل الرئيس العام لجماعة المسلمين الأندلسيين فى تحمل أعباء العدالة بدلا منه .

لم يظهر مصطلح «قاضى القضاة» فى إسبانيا إلا بعد سقوط الخلافة القرطبية ، وكان القاضى « أحمد بن ذكوان » هو أول من تلقب به عام ١٠١٠ م ، ثم تبناه من بعده خلفه « يحيى بن وفيض » ، لكن هذا التغيير فى لقب قاضى العاصمة – والذى جاء تقليدًا للشرق ، طبقًا للنباهى [١٤] وآخرين – لا يعنى أن قاضى القضاة القرطبى قد أصبحت له ولاية على زملائه فى الأقاليم بل ظل الوضع على ما كان عليه قبل التغيير .

بالرغم من عدم وجود قائمة كاملة فى أى مرجع للدوائر القضائية أثناء عصر الخلافة الأموية ، إلا أن فهارس الترجمة – وبخاصة كتاب ابن الفرضى – قد أتاحت لنا إعداد قائمة شبه كاملة لها ، كما سمحت لنا فى الوقت ذاته ، حسب المتوقع ، من التحقيق من وجود قاض فى كل عاصمة من عواصم الكور ومناطق الثغور ، وسنقدم فيما يلى قائمة مفصلة بأسماء المدن التى كانت توجد بها مقارّ للمحاكم الإقليمية :

فـي الـجنـوب : « إستِجَّة » [١٥] ، و« قـبرة » [١٦] ، و« أُشـونـة » [١٧] ، و« قـرمـونة » [١٨] ، « إشـبـيلية » [١٩] ، و« شـذونة » [٢٠] ، و« الجـزيـرة الخـضـراء » [٢١] ، و« (مـالـقة » [٢٢] ، و« إلبيرة » [٢٣] ، و« جـيـان » [٢٤] و« بجـانـة » [٢٥] . وفـي الشـرق : « مـرسـية » [٢٦] ، و« بـلـنسيـة » [٢٧] ، و« طـرطـوشـة » [٢٨] ، وفـي الـغـرب : « بـاجـة » [٢٩] ، و« يـابُـرة » – « شـنـتريـن » – « لـشـبونـة » [٣٠] ، و« بَطَلْيـوس » [٣١] ، « أكـشـونبـة » [٣٢] (شنتمرية الغرب) ، وفي الشـمال والثـغـر الأوسـط : « فحـص الـبلـوط » [٣٣] ، و« طليطـلـة » [٣٤] ، و« وادى الحـجـارة » [٣٥] ، و« مـديـنـة سـالـم » [٣٦] ، و« طلبيرة » [٣٧] ، وفي الثغر الأعلى : « سرقـسطـة » [٣٨] ، و «قلعة أيوب » [٣٩] ، « وشقة » [٤٠] ، و« تطيلة » [٤١] .

ومازلنا نحتفظ بأسماء عدد من القضاة الذين عينهم العاهل الأموى فى مدن شمال إفريقيا مثل « سبته » و«مليلة » اللتين انتقلتا خلال القرن العاشر ولبعض الوقت لسيادة قرطبة [٤٢] ، عندما تحولت غالبية هذه العواصم الإقليمية – فى القرن الحادى عشر – إلى مقار حكومات ممالك الطوائف الصغيرة ، قام حكام هذه الممالك بتعيين قضاة لم يترددوا فى اتخاذ لقب « قاضى الجماعة » أو« قاضى القضاة » .

ممارسة القضاء :

لم يكن قاضى قرطبة – بغض النظر عن اللقب الذى يحمله – يختلف عن زملائه بالأقاليم إلا بنوعية القضايا التى تعرض عليه وباتساع دائرته القضائية ، لقد كان مثلهم مكلفًا بنفس المهام داخل الحدود الإدارية للعاصمة ؛ فقط اقترابه من العاهل والبلاط كان يتيح له بعض المميزات علاوة على قيامه بدور المستشار ، وبوجه عام ، فقط كان رجل شرع متمرس وخبير بأحكام الشريعة وفقًا لتفسير المدرسة المالكية ، لكن هذه الصفات لم تكن كافية فى حد ذاتها لأن العاهل والرأى العام لا يهتمان بها قدر اهتمامهما بحسن شمائله ، نادرًا ما كان يتحول إلى أرستقراطى ، بل يظل فى الغالب رجلا بسيطًا سواء على مستوى حياته الشخصية أو سلوكياته أو تعامله مع المتخاصمين ، من أهم صفاته : الكرامة ، والاستقامة والنزاهة ، لقد كان القاضى الأندلسى دائمًا مسلمًا نموذجيًا يقترب من حد التصوف ، لا يقبل أن يوجهه أحد

أو يُؤثر عليه ، ويتمتع من بين الجميع بميزة الدخول على العاهل في أى وقت يشاء ، والتحدث إليه بحرية ودون مواربة ، وتعيينه كان يُفرض على الأمير أو العاهل لا عن طريق دسائس ومؤامرات البلاط بل نتيجة للضغط الجماهيرى الذى قد يتسبب أيضاً فى عزله ، نادراً ما كان يرتشي ؛ ولم يكن يقبل المنصب إلا بعد رفضه مرات ومرات وبعد أن يستخدم العاهل معه كافة أساليب الإقناع لتبديد هواجسه وشكوكه ، وبعد تنازله وقبوله المنصب يستمر فيه – رغماً عنه – وقتًا طويلاً ؛ وبعد ممارسته – كَرْهًا – للقضاء لفترة طالت أم قصرت يطلب تعيين بديل له حتى لا يخاطر بنجاته فى الدار الآخرة ، لقد كان القاضي موقنًا بأنه يسلك دربًا مليئًا بالأشواك ، ويعتقد بأنه لو ارتكب أدنى هفوة – ولو دون قصد – فإنه سَيُسْأل عنها أمام الخالق .

لم تكن وظيفة القضاء مصدراً للدخل ، وبالرغم من تحديد راتب لها – مثل بقية دول العالم الإسلامى [٤٣] – و إلا أن القاضى عادة ما كان يتنازل عنه ويفضل العيش من موارده الذاتية .

لاشك أن السِّمات التى ذكرناها آنفًا كانت قاسمًا مشتركًا بين قضاة الإسلام خلال العصر الوسيط ، ومن السهل العثور فى إفريقيا وبلاد الشرق [٤٤] على أخبار ونوادر مماثلة للشائع منها فى إسبانيا عن بعض القضاة ذوى المهابة المشهورين بصرامتهم وعدم تساهلهم في الحق ، وبالرغم من هذا ، يبدو أن القاضى الأندلسى قد حافظ – لفترة أطول من زملائه المشارقة – على المفهوم القديم لمهمة القضاء ، وظلت صورته حتى منتصف القرن العاشر أقرب إلى صورة القاضى فى صدر الإسلام : حساس ، لاتفوته شاردة ولا واردة ، حاد ، ويوبخ أحيانًا ؛ لكنه فى جميع الأحوال مثال للبر والتقوى والعفة والطهارة . مُضىّ الزمن وحده هو الذى جعله يهتم بأمور الدنيا قليلاً : فلم يعد يشح بوجهه عن مواطن الفخر ولا يعترض على تعيينه وزيراً واستلام العطاء المفروض له [٤٥] ، بل إنه اشترك مع وجهاء البلاط فى تشكيل مجلس الحكومة وقبل القيام بالمهام ذات الطابع السياسى [٤٦] .

وعندما حلّت نكبة القرن الحادى عشر وعينته الجماهير لتولى إدارة المدينة بكاملها واتخاذ التدابير التى تقتضيها الظروف ، تحول حينئذإلى رئيس حقيقى مثلما حدث فى إشبيلية وبلنسية وقرطبة .

بعد بيان المقومات الأخلاقية اللازمة – فى البداية – لتعيين القاضى الأندلسى ، يبدو من قبيل الإطالة التى معنى لها الخوض فى مجمل دوائر اختصاص القاضى المترتبة على تفويضه من قِبل « إمام جماعة المسلمين » ، وفى هذا المقام يلزم التنبيه إلى ضرورة الفصل أو التمييز – مثل بقية العالم الإسلامى فى العصر الوسيط – بين الاختصاصات القضائية التقليدية (القديمة) للقاضى وبين أخريات غير قضائية لكنها ألحقت شيئاً فشيئًا بالأولى ، سنتحدث أولا بإيجاز عن الاختصاصات التقليدية القديمة ، ونحيل من يبغى تفاصيل أكثر عنها إلى الدراسات الفنية المتخصصة فى هذا المجال .

قام الكتاب الذى نَظَّروا للحقوق الإسلامية العامة – مثل الموردى وابن خلدون (٤٧) – بتحديد دوائر اختصاص القاضى ، أما فى إسبانيا – دون ذكر النباهى الذى درسها بعناية واحدة واحدة – فقد تكفل الفقهاء دائمًا بالمهمة .

وابن سهل (٤٨) – على سبيل المثال – يحدد اختصاصات القاضى الأندلسى قائلاً :إنه كان ينظر فى جميع القضايا المتعلقة بالمواريث والطلاق والتحجير والأحباس ، والقاضى الأندلسى لا يختلف فى هذا عن زملائه المشارقة إذ كان يحكم مثلهم فى كافة أنواع القضايا المتعلقة بالأفراد وفى النزاعات على العقارات والمنقولات التى تكون الدولة طرفًا فيها ولا يوجد قانون إدارى يحكمها ، وعلى خلاف ما تقدم فلم يكن القاضى يتدخل فى الدعاوى بين الذميين ، لأن هؤلاء – كما سنرى فى فصل آخر – كان لهم قضاتهم ، ولأن القاضى المسلم غير مُلِمّ بقوانينهم الخاصة ؛ كان تدخله يقتصر فقط على القضايا التى يكون أحد الرعايا المسلمين طرفًا فيها .

لكى يفى القاضى بتلك المهام القضائية المتعددة – فضلا عن القضايا ذات الطابع الخاص أو المتعلقة بإدارة بعض المؤسسات الدينية – فإنه اضطر للاستعانة بمستشارين (أو مساعدين) كان يكلفهم بالفصل فى الدعاوى الأقل أهمية ، ووجود « أصحاب الأحكام » هؤلاء فى المدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ثابت ومؤكد (٤٩) وسيتحدث عنه ابن عبدون فى بداية القرن الثانى عشر بالتفصيل ؛ ويحتمل وجود واحد منهم بكل حىّ من الأحياء .

وقد أشار ابن سعيد (٥٠) إلى وجود قضاة صغار في زمنه (أى أصحاب اختصاصات محدودة يطلق على الواحد منهم لفظ « مُسَدَّد ») مكلفين بحل النزاعات البسيطة في القرى ، ومما لا شك فيه أن القرن العاشر قد شهد شيئًا مماثلا .

في ظل المدرسة المالكية أصبح القاضي يستعين في هيئته القضائية بلجنة استشارية (شورى) (٥١) مكونة من عدد من رجال الشريعة يطلق على الواحد منهم « فقيه مُشَوَّر » ، كان عدد أفراد اللجنة (المعينين بمرسوم ملكى) يتراوح - تبعًا للزمن وحجم المدن - بين اثنين (أو فرد واحد في القليل النادر) وأربعة ؛ ولم يكن نشاطهم الرسمى يمنعهم من التصدى للفتوى (أو الفتيا) ، وعلى هذا فقد كانوا يقومون بمهمة الشورى والفتيا ، علاوة على إمكانية قيامهم بتحرير المحاضر القضائية أو الكتابة لقضاتهم ، أما الاستشارات التي يطلبها منهم القاضي فقد كانوا يردون عليها كتابة ويحفظون الردود في أرشيف خاص (٥٢) .

أدى نظام فرض استشارة « الفقيه المُشَوَّر » وحرية هذا الأخير في الفتيا في المسائل المعروضة عليه إلى توافر كمّ هائل من الآراء المدونة المدعومة بالأسانيد عن القضاء الإسلامى / الإسباني ابتداء من القرن التاسع مما ساهم في تحديد ملامح هذا القضاء في أمور التقاضي المتشعبة ، ومن أبرز مجموعات الفتاوى (التي تعتبر بمثابة يوميات حقيقية للقضاة والفقهاء الأندلسيين ويرجع معظمها لعصر الخلافة الأموية والفترة التي تسبقه مباشرة) ما قام بجمعه « أبو الأصبغ بن سهل » المتوفى عام ١٠٩٣ م - ٤٨٦ هـ) .

والاطلاع على هذه الوثائق (التي لا تقتصر أهميتها على دراسة تطور الممارسة القضائية في الغرب الإسلامى خلال صدر العصر الوسيط بل في عرض الأسباب التي اقتضت تحريرها) يمدنا بفيض من المعلومات غير المعروفة عن الحياة الاجتماعية القرطبية وعن طبيعة العلاقات بين فئات الشعب المختلفة ، وسنجد أنفسنا لا حقًا مضطرين للاستعانة بهذه المعلومات (علاوة على ما تتضمنه صيغ العقود المدونة أيضًا

بالأندلس فى نهاية القرن العاشر) التى تقدم لنا التفاصيل الكثيرة عن المجتمع والحياة الاقتصادية فى الفترة الأخيرة من الخلافة ونبحث عنها دون جدوى فى مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الذى اهتموا بالغرب الإسلامى .

ومثل بقية دول العالم الإسلامى فى العصر الوسيط ، لم يكن يوجد - لا فى قرطبة ولا فى المدن الأخرى - أبنية مخصصة لجلسات القاضى ، بل كانت تُعقد بأحد ملاحق المسجد الجامع ، أو بالمسجد ذاته أو بمنزل القاضى (٥٣) ، كانت المحكمة غاية فى البساطة : القاضى يجلس القرفصاء أو يتكىء على وسائد محاطًا بمستشاريه وكاتبه ، وطرفا النزاع ماثلان أمامه بينما ينتظر الباقون دورهم الذى يعلن عنه الحاجب ، وبإمكان المتخاصمين الاستعانة بوكلاء عنهم ، كان لدى القاضى « أعوان » للحفاظ على النظام فى الجلسة وللنداء على الخصوم ، كما كان فى متناول يده حافظة (خريطة) تحوى ما هو جوهرى فى أرشيفه ليلجأ إليها عندما يرتد التحقيق من شىء معين (٥٤) ، لايوجد مشهد أشد بساطة وتواضعًا من هذه المحكمة (مجلس الحكم) المرتجلة التى تتدافع أمامها جموع المتخاصمين الذين تقدموا مسبقًا بدعاويهم وحرصوا على تعضيدها بالشهود العُدول ، كما هو الحال فى « فاس » حتى وقتنا الراهن ، فقد كان هؤلاء الشهود ينتظرون (داخل خيام منصوبة فى حارة قريبة من المسجد الجامع : سماط العُدول) استدعاء القاضى لهم قبل النطق بالحكم .

ووجود هؤلاء الشهود الذين يضطلعون بمهمة « الشهادة أو العدالة » (٥٥) يعتبر من الأمور البديهية فى محيط اجتماعى يرتكز أغلب منهاجه العدالى على البيّنة والقسم (٥٦) ، ومن صفاتهم الأساسية : التمتع بأخلاق فوق مستوى الشبهات والإلمام بالثقافة القضائية اللازمة للترقية - فى بعض الأحيان - إلى « مجلس الشورى » ، كانوا يكسبون قوتهم من الأجور التى يدفعها لهم المتنازعون مقابل تحرير قرائنهم أو بيّناتهم لأن القضاة كانوا يفضلونها عادة على الشهادة الشفهية ، كما كان نشاطهم يمتد أيضًا إلى تحرير الأنواع المختلفة من العقود (مثل الزواج ، والطلاق ، والتبرعات الخيرية ... إلخ) وإلى اعتماد شهادات العُسْر (عُدْم) وحسن السير والسلوك (٥٧) ، ولهذا السبب ما يحدث الخلط - سواء فى عصر الخلافة أو بعده - بين « الشاهد العدْل » و « الوثّاق » (٥٨) .

كان حُكم القاضي نافذًا وعدالته مجانية ، إذ لم يكن المدعي أو المدعى عليه يتحمل سوى رسوم زهيدة ، وإن كان هذا لايمنع من تعرضهما لا بتزاز أعوان القاضي أو الوكلاء الذين يتولون الدفاع عنهم . وبما أننا لا نملك رقما محدد الراتب القاضي ومساعده (حاكم) خلال القرن التاسع والعاشر نظن أنه ظل لفترة طويله متواضعا للغاية [٥٩] .

بالرغم من أن القضاء الإسلامي لم يعتد تشكيل محاكم للاستئناف إلا أن « القانون الإسلامي عندما سمح - في بعض الحالات - بتعديل الحكم (بواسطة نفس القاضي أو غيره) ، وقبل عَرْض القضية على قضاة اخرين ، يكون قد ترك الباب مفتوحًا أمام الدعاوى الجديدة ، وهذا لا يختلف كثيراً عما تقوم به محاكم الاستئناف » [٦٠] . وبالفعل ، فقد كشفت لنا مجموعة الأحكام القضائية الأندلسية عن مراجعة العديد من القضايا على النحو ، حيث عادت ثانية إلى ساحة قاضي قرطبة بعد الفصل فيها من قضاة الكُور ، وكان قاضي قرطبة يلجأ أحيانًا إلى إطالة إجراءات التقاضي إذا أحس بوجود مسألة مماثلة تناولها الفقه المالكي ، ومن ثمّ فإنه لم يكن يتردد في الاستعانة برأى زملائه في الأقاليم - خاصة طليطلة وإشبيلية - حتى أنه كان يلجأ لقضاة غير أندلسيين مثل قضاة فاس أو القيروان .

ومن جهة أخرى ، فقد كان بوسع القاضي - للاستنارة برأى فقهاء العاصمة - دعوة « مجلس الشورى » للانعقاد و وأحيانًا كانت تُفرض عليه الدعوى من قِبل العاهل ، وعلى سبيل المثال ، فقد قام القاضي « منذر بن سعيد » (أيام عبد الرحمن الثالث) بدعوة مجلس الفقهاء (مجلس الشورى) للانعقاد ليعرض عليه دعوى رفعها مُشْتَرٍ يطالب فيها بتطبيق حق « الشفعة » على بيع جزء من حمام مملوك على المشاع ، ولما أصدر المجلس قرارًا سلبيا لجأ المشترى إلى الخليفة فكتب الأخير بخط يده وتوقيعه آمرًا القاضي بعقد مجلس السورى من جديد والأخذ برأى الإمام مالك في هذه المسألة ، وبالفعل ، اجتمع المجلس ثانية وأفتى بأحقية المدعي في الشفعة ، فحكم له القاضي بذلك [٦١] . يبقى لنا ونحن نتحدث عن دوائر الاختصاص القضائية [٦٢] الإشارة إلى العقوبات المتضمنة إقامة الحدود : بالنسبة للخفيف منها (مثل الضرب أو الجلد أو الشُّهْرة) كان القاضي يأمر مرؤوسيه بتطبيقها ؛ أما المُغلَّظ منها فقد كان يُحال إلى السلطة المركزية المنوط بها تنفيذ الأحكام الصادرة .

دوائر الاختصاص غير القضائية :

بالإضافة إلى دوائر الاختصاص القضائية المذكورة آنفًا ، كان يُعهد للقاضي (مثل دول العالم الإسلامي الأخرى) بإدارة المؤسسات العامة التي يضبط الشارع ميكانيزم تأسيسها وأنشطتها .

وفي مقدمة هذه المؤسسات تأتي إدارة « بيت مال المسلمين » ؛ وقد نبهنا في حينه إلى فداحة الخلط - عند الحديث عن الخلافة القرطبية - بين « بيت المال » الذي يديره القاضي وبين الخزانة العامة للدولة (خِزانة المال) التي تشكل الجباية أهم روافدها ويقع عبء إدارتها على عاتق الإدارة المالية التابعة للحكومة المركزية ، لقد ظلت هاتان المؤسسات منفصلتين تمامًا ولم يحدث أن أزيلت بينهما الحواجز - إلا نادرًا - حتى في العصور الأشد اضطرابًا من تاريخ الأندلس . كان « بيت المال » ملكًا عامًا لجماعة المسلمين ولم يكن للدولة - ولو نظريًا - أية سلطة عليه ؛ وروافده تتمثل في العائد من إدارة ثروة الغائب (أي المسلم الذي يغادر وطنه دون تعيين وكيل لإدارة ممتلكاته) ، لكن معظمها كان يأتي عن طريق « الوقف » [٦٣] و « الحبوس » ؛ والمسمى الأخير هو الذي شاع استخدامه في الغرب الإسلامي منذ نهاية العصر الوسيط ولدينا توصيف هام للوقف ينسحب على إسبانيا الإسلامية خلال العصر الذي نحن بصدده : الوقف - طبقًا للمذهب المالكي - عبارة عن مؤسسة دائمة ، في الغالب ، ذات أهداف دينية ، يتنازل فيها المالك أثناء حياته (أو العاهل حين يتعلق الأمر بملكية عامة) عن عائد منقولات أو أملاك عقارية لصالح الفقراء وأعمال البر والإحسان ، ونظرًا لإمكانية جعل المُؤسِّس لأي شخص ثالث أو ورثته حائزًا وسيطًا على وقْفه ، يمكن القول أن الوقف كان إحدى الوسائل المضمونة والسهلة ، لا لتأمين الموارد للمنتفعين به فحسب ، بل أيضًا للتحايل على نظام المواريث ولحفظ الثروة من التعرض للمصادرات التي كانت شائعة في ذلك الوقت [٦٤] .

كانت أرصدة « بيت المال » تحفظ في أحد ملاحق المسجد الجامع [٦٥] وللقاضي حرية السحب منها للإنفاق على « مصالح العامة » المتمثلة في إعانة الفقراء أو الإنفاق على المساجد وتسديد أجور العاملين بها (من أئمة ومؤذنين وخدم ... إلخ) ، وأفضل

مـا لـدنيا من معلومات مفصلـة عـن خـزانـات مـؤسسـات البّر نـدين بـه للفـقيـه « ابن عبدون » [٦٦] بالرغم من أنها تتعلق بفترة متأخرة كثيراً عن عصر الخلافة ؛ وطبقًا لتلك المعلومات فقد كان من حق القاضى سحب أموال من خزانات مؤسسات البر لمساعدة الأمير فى الحملات الموجهة إلى أرض الكفار أو لترميم قلعة من قلاع الثغور ، وإدارة الأوقاف تتطلب - بالطبع - توافر عدد من العاملين والمشرفين (ناظر الأوقاف) [٦٧] لمساعدة القاضى ، كانوا يتلقون الأوامر من القاضى مباشرة ، وحظوا ببعض التسهيلات للاستثمار الأمثل للثروات الموقوفة مثل احتكار تأجير الخيام فى الأسواق التى كانت تقع - عادة - بالقرب من المسجد الجامع .

ومن الاختصاصات غير القضائية التى ينوب فيها القاضى عن العاهل إمامة الصلاة بالمسجد الجامع وخطبة الجمعة ، وإمامة المصلين فى صلاتى عيد الفطر والأضحى اللذين كانا يُقامان فى مصلى بالخلاء على مشارف العاصمة ، كما كان يؤم صلوات الجماعة الاستثنائية مثل صلاة الاستسقاء [٦٨] ، ولهذا أطلق عليه « صاحب الصلاة » [٦٩] بالإضافة إلى لقبه المعهود (قاضى الجماعة) ، أما لقب « الإمام » فقد ظل مقتصراً على العاهل وحده ، ومع هذا فقد كان من الممكن أن يتولى إمامة المصلين شخص آخر غير القاضى ، خاصة فى القرن التاسع الذى لم تخفت فيه حدة النزعة العرقية فى المجتمع القرطبى ، وبالتالى حساسيته الشديدة لقيام « مولى » بإمامة « صلاة الجماعة » [٧٠] .

وأخيراً ، فقد كان القاضى هو الشخص الوحيد المخول بالتثبت من ظهور الهلال (ارتقاب الأهلة) فى مطلع ونهاية شهر رمضان [٧١] .

المكانة الاجتماعية البارزة لقاضى قرطبة :

لا زالت دراسة القضاء فى إسبانيا الأموية تحتاج لتحليلات فنية مطولة ، لكن المجال لا يسمح بالخوض فيها ها هنا ، نكتفى بالإشارة إلى أن قاضى قرطبة (قاضى الجماعة) كان خلال القرن العاشر واحداً من الشخصيات الرئيسية فى الدولة [٧٢] . وكان يحتفظ - فى مواجهة العاهل الذى عينه - بحرية رأى وصراحة فى القول لا يتوافران لغيره ، كانت هذه الاستقلالية شرطًا جوهريًا لقبوله منصبه ، وإذا

أحس بتقلصها سارع بتقديم استقالته (استعفاء) ، لم يكن يتردد فى الانتصاف للضعفاء من الأقوياء والحكم لصاحب الحق حتى لو كان خصمه أحد رجالات البلاط أو الأمير ذاته ، لهذا أجلّته الجماهير وأكبرته وبالغت فى احترامه والحفاوة به ، كانت العامة تضع فيه أملها لتوصية الخليفة - كلما دعت الحاجة - بالتواضع ولإنعاش ذاكراته بسيرة المجتمع الإسلامى الأول القائم على الديمقراطية والمساواة . أورد المؤلفون الأندلسيون العديد من المواقف التى انتصب فيها القاضى القرطبى ناقداً للعاهل ومدافعًا عن حقوق الرعية .

نبهنا إلى أن قضاة قرطبة كانوا يُختارون فى عصر الإمارة من العرب الخُلّص ، بالرغم من وجود « مولى » على الأقل بينهم ، وفى القرن العاشر تخلى عبد الرحمن الثالث عن هذه العصبية وفكر فى تنصيب « مُولّد » - اعتنقت أسرته الإسلام حديثًا - قاضيًا ، لكن مشروعه باء بالفشل فى النهاية لاعتراض فقهاء العاصمة (علمًا بأنهم لم يضعوا أية عراقيل أمام تعيين قضاة من أصول بربرية) .

ومنذ عهد الحكم الثانى أخذ قضاة قرطبة يمارسون السياسة من أوسع أبوابها وأصابوا شرف الوزارة بما يشتمل عليه من امتيازات ، كان بعضهم أرستقراطيًا مثل « ابن فطيس » الذى يقدمه لنا كُتّاب التراجم على أنه رجل واسع الثراء ، مُتَيَّم بالكتب القيمة ، ويؤثر الاعتكاف فى مكتبته المطلية باللون الأخضر والمترعة بالمخطوطات النادرة [٧٣] . عاصره « ابن ذكوان » [٧٤] و« ابن وفيض » [٧٥] اللذان اجتهدا فى إخماد الصراعات الدموية القرطبية أيام الفتنة : أبان الأول منهما عن موهبة دبلوماسية حقيقية واكتسب شعبية بين بربر « سليمان المستعين » ؛ وعلى خلاف هذا كره الناس الثانى وأطلقوا عليه لقب « قاضى المسيحيين » وعندما دخل الأفارقة قرطبة ساموه سوء العذاب ولم يمنعه حظ النجاة من غضب فقهاء المدينة من قضاء نحبه سريعًا بين قضبان السجن .

تولى القضاء للمنصور خاله : « ابن برطل » [٧٦] ، وظل الحكم الثانى طوال سنِىّ حكمه راضيًا عن قاضيه « ابن السليم » الذى عينه بعد موت آخر قضاة والده (القاضى الأشهر : منذر بن سعيد البلوطى) [٧٧] ؛ لكن « ابن السليم » لم يسلم فى العهد التالى من الانتقادات الحادة [٧٨] .

من الشخصيات القضائية المثيرة للإعجاب والدهشة شخصية « منذر بن سعيد البلوطى » الذى ترجع أصوله لإحدى قبائل البربر الإفريقية ، كان من عائلة بسيطة تقيم منذ عدة أجيال فى منطقة « فحص البلوط » الواقعة شمال قرطبة ؛ درس أولا فى إسبانيا ثم فى الشرق بعد ذلك ؛ اختاره الخلفية الناصر فى أواخر عهده قاضياً (٧٩) لما عُرف عنه من نزاهة وفضل ، لم يكن قاضيًا وفقيهًا ضليعًا فحسب (٨٠) ، بل - أيضًا - أديبًا لا يُشق له غبار ، يمتلك ناصية الشعر والنثر فى براعة ويسر ، وخير برهان على هذا ما جرى فى حفل الاستقبال الذى أعده عبد الرحمن الثالث لسفراء « قسطنطين السابع » عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) ، فى تلك المناسبة ران الصمت على الأدباء الحاضرين المدعووين أساسًا لا رتجال ما يرونه فى مدح الإسلام وخليفة الأندلس ؛ حتى « أبى على القالى » ، الفيلسوف الشهير الذى أحضره ولى العهد آنذاك (الحكم) من المشرق خصيصًا لهذا الغرض ، لم ينبس هو الآخر ببنت شفة ، لكن « منذر بن سعيد » كان موجوداً بالقاعة ، فطلب الإذن بالكلام وألقى الخطبة التى ينتظرها الجميع فى نثر رصين مسجوع ، فى العام التالى - وبالرغم من تقدمه فى العمر - عُين قاضيًا للجماعة وبقى فى منصبه حتى توفى سنة ٩٩٦ م (٣٥٥ هـ) عن اثنين وثمانين عامًا ، كثيراً ما غضب الناصر من تصرفاته الفظة نوعًا ما ، ومن ضربه ببروتوكولات المُلك عرض الحائط ، كان العاهل فى أوج عظمته هدفا لمداهنة الجميع والثناء بحماس منقطع النظير على أتفه ما يصدر عنه من أشياء ، بينما لا يتورع القاضى عن زجره ، ويعنف أحيانًا ، كان الخليفة يثور عندئذ ويتوعد القاضى ويهدده ، لكنه لا يجد فى النهاية بدًّا من التسليم ، وفى هذا المقام تكفى الإشارة الموجزة لتلك الواقعة الشهيرة (٨١) : بنى الناصر قاعة استقبال جميلة فى مدينة الزهراء وألمّت به نزوة ترصيع قبّتها بالذهب والفضة ، ولما انتهى العمل وجّه الدعوة لأشراف العاصمة ووجهائها لحضور حفل الافتتاح ، وبينما كان الإبهار والنشوة يسيطران على المدعووين وصل « ابن سعيد » مكفهراً ، وعندما سأله الناصر عن رأيه فى المبنى انفجر القاضى قائلاً : « والله ، يا أمير المؤمنين ، ما ظننت الشيطان ، لعنه الله ، يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، حتى ينزلك منازل الكافرين » . لا شك أن هذه الانطلاقة التى جاءت مشفوعة بالآية القرآنية المناسبة (*) تحتاج إلى

(*) الآية القرآنية المقصودة فى قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون » صدق الله العظيم (المترجم) .

غير قليل من الشجاعة . هاج الخليفة وماج ، لكنه ثاب إلى رشده في النهاية وأمر بتغيير القُبة المتلألئة بأخرى عادية .

لكن هذا المُوبِّخ الصلد ، الذى كانت على طرف لسانه دائماً الآية القرآنية الحاسمة التى لا تقبل الرد ، كان أيضًا يعرف المزاح والدعابة فى الوقت المناسب ، كانت كلماته لذّاعة [٨٢] قريبة الشبه بسخريات « يحيى الغزال » (سفير وشاعر عبد الرحمن الثانى) ، لم يسلم الفقهاء أنفسهم من سخرياته التى كانت تصمهم بالتجاوز والروتين وضربهم بالعلم والضمير عرض الحائط عند إبدائهم للرأى .

كان القاضى ، دون التباهى الزائد بالانتماء لمذهب المعتزلة (مذهب مشكوك فيه تعرض للقمع الرسمى ، وسنحاول فى فصل آخر بيان كيفية تسلله إلى قرطبة [٨٣]) ، يمارس الاجتهاد ، وفى جميع المسائل التى تُعرض فى مجلسه يحاول تكوين رأى مستقل يعتمد عليه فى الحكم بدلا من الرجوع إلى الحالات المشابهة التى نظر فيها القضاة الأقدمون ؛ ومن هنا فهو يختلف عن زملائه السابقين الذين كانوا يأخذون بمبدأ « التقليد » . كانت صفة الاجتهاد هذه (الغريبة على مجتمع محافظ لأقصى درجة) كفيلة برفع شأن صاحبها الذى يتحدث بصوت عال دون حرج من الزملاء أو العاهل ؛ كما كانت فى الوقت ذاته إحدى السمات الأشد تعبيراً وروعة [٨٤] للقاضى الأندلسى فى عصر الخلافة [٨٥] .

٢ - هيئات القضاء الفرعية

خُطتا "الرّد" و "المظالم"

في مقابل فيض الوثائق التاريخية والفنية التي تتناول القضاء وقضاة قرطبة في القرنين التاسع والعاشر لا نجد سوى معلومات هزيلة تفتقر إلى الدقة عن الهيئات القضائية الأخرى الأقل أهمية ، ولذا يمكن القول إنه ما يزال ينقصنا الكثير للتعرف على طبيعتها أو تحديد أنشطتها .

ومن الدوائر الاستثنائية الملحقة بالقضاء نشير في المقام الأول إلى اثنتين : « خطة المظالم » (التي لها مثيل في الشرق واجتهد مُنَظِّرو الحقوق العامة في الإسلام في شرح قواعدها بالتفصيل ، لكن يبدو أن تلك القواعد لم تكتمل أبدًا في إسبانيا الأموية) ؛ و« خطة الرّد »(التي تقتصر على الغرب ولا يوجد نظير لها في الشرق) ، كانت الخطتان منفصلتين في البداية وعلى رأس كل منها صاحبها ، ثم اتحدتا بعد ذلك تحت رئاسة واحدة ، وهذا يكشف مقدمًا عن مدى ارتباطهما الوثيق ، في القرن التالي لسقوط الخلافة الأموية عَدَّد « ابن سهل » [٨٦] الخطط التي يحق لأصحابها إصدار الأحكام ، وكانت كما يلي :

القاضي ، وصاحب الشرطة ، وصاحب المظالم ، وصاحب الرّد ، صاحب المدينة وصاحب السوق ، ولنا وقفة فيما بعد مع الخطة الثانية والرابعة والخامسة .

يخبرنا « ابن سهل » أن « صاحب الرّد » سُمي هكذا لأنه كانت تُرد إليه بعض الأحكام ، ولأنه لم يكن يصدر أحكامه إلا في المسائل « المشكوك فيها » [٨٧] التي يتفاداها القضاة ، وبما أن « ابن سهل » يستخدم صيغة الماضي ويعتمد فيما يقول على حديث شفهي سمعه في شبابه يمكننا التكهن بأن « خطة الرّد » كانت قد ألغيت – على أيامه – في إسبانيا وأنها أدرجت في « المظالم » ؛ على أي حال ، يبدو أن التعريف الذي قدمه « ابن سهل » للرد أفضل من التعريف الذي سقناه من قبل [٨٨] ، ذلك لأن القاضي الذي يمارس مهامه في إطار الحدود الصارمة لاختصاصاته القانونية بإمكانه التملص من الحكم في مسألة يراها مشوشة وغير

واضحة ، وعلى سبيل المثال إذا لم يتقدم المدعى بمستند يعضد ادعائه . فى هذا المقام لا مفر من طرح السؤال التالى : ما هى اختصاصات « صاحب الرّد » الذى ستؤول إليه القضية ؟ هل كان من سلطته إصدار الأحكام أم أنه مجرد وسيط يحول القضية برمتها إلى دائرة اختصاص أخرى ؟ للأسف لا يوجد لدينا حالياً ما يعيننا على تقديم إجابة شافية عن هذا السؤال .

يقدم لنا مؤلفو التراجم بعض أسماء من تولوا « خطة الرّد » منذ عهد الحكم الثانى فى القرن العاشر ، ومن بينهم نذكر : « محمد بن تمليخ التميمى » [٨٩] الذى عهد إليه الحكم الثانى – بالإضافة إلى « خطة الرد » – بإدارة أعمال التوسعة بمسجد قرطبة الجامع ، تحت إشراف الفتى الصقلبى « جعفر » ؛ « عبد الملك » (أحد أبناء القاضى « منذر بن سعيد البلوطى ») وقد صُلب عام ٩٧٩ م (٣٦٨ هـ)[٩٠] وحل محله « عبد الله بن حرثمة بن ذكوان » [٩١] الذى مات فى إحدى الصوائف بعد سنتين من ولايته القضاء ؛ وبعد وفاة الأخير ولِىَ أحد أبنائه ويدعى « أحمد » [٩٢] وقد كان قاضياً على « فحص البلوط » حتى عام ١٠٠١ م (٣٩٢ هـ) ، وفى عام ١٠١١ م (٤٠١ هـ) ولّى هشام الثانى على « الرّد » رجلا يدعى « يحيى بن عمر بن نبيل » لكنه توفى يوم ولايته [٩٣] . وبالنسبة « لخطة المظالم » فمن المعروف [٩٤] أنها تختلف فى إسبانيا عن الشرق العباسى لأنها كانت فى الأخير تضم اختصاصات واسعة قد تتجاوز الجانب الشرعى ، ومن المعروف أن مفهوم المظالم فى الإسلام [٩٥] يطلق على كل ما ينتهك الحقوق للفرد وعلى الأضرار الناجمة عنه ، ولمنع أمثال تلك الانتهاكات ولتعويض المضارين منها فإن « خطة المظالم » تتطلب سلطات وصلاحيات أوسع مما لدى القاضى الذى يجد نفسه فى موقف يستحيل عليه فيه إجبار أحد الخصوم على المثول أمامه أو إجباره على تنفيذ الحكم الصادر ضده طبقًا للقواعد الشرعية ، وهذا ما يشير إليه بالفعل المؤرخ المشرقى « المقريزى » عند تحديده لخطة المظالم : تطبق على تلك القضايا التى لا يستطيع القاضى الفصل فيها ويتركها لمن هو أقوى منه [٩٦] .

بالرغم من أن بعض أمراء بنى أمية كانوا يسعدون بالقيام بدور « صاحب المظالم » إلا أنهم تخلوا عنه بعد تأسيس الخلافة ، ومع هذا لا يوجد مايمنع من الظن

بأن عبد الرحمن الثالث ومن جاءوا بعده ظلوا يهتمون شخصياً بالشكاوى التى تصلهم عن السَّلب والنهب والتعسف فى استخدام السلطة ، ولكى يكونوا على بينة بما يجرى من هذه الأشياء فقد عينوا قضاة مخصوصين ، اختاروهم من بين الفقهاء الأعضاء فى مجلس الشورى ، ويغلب الظن بأن هؤلاء القضاة المخصوصين هم الذى حملوا لقب « صاحب المظالم » (أو : « صاحب أحكام المظالم » ، بتعبير أدق) خلال الفترة التى نعرض لها بالدراسة ، وأنه كان من سلطتهم إصدار الأحكام طبقًا لإجراءات استثنائية تختلف عن إجراءات القضاء العادى . يروى لنا مترجمو المنصور بن أبى عامر إحدى الوقائع المعبرة فى الخصوص : قدم ذات يوم رجل من العامة إلى « حاجب القصر » ليشكوا إليه من ظلم ضابط صقلبى يعمل فى حرس المنصور الخاص ، قال الرجل إنه تعرض للسَّلب والنهب من الضابط ، ولما ذهب وشكاه إلى القاضى « ابن فطيس » رفض المثول أمامه ، عندما علم المنصور لم يرسل الخصمين إلى القاضى بل أرسلهما إلى « صاحب المظالم » وأوصاه بإنزال أقسى العقُوبة بالضابط فى حال ثبوت التهمة عليه [٩٧] .

لدينا أسماء بعض من تولوا « خطة المظالم » – فى القرن العاشر وبداية الحادى عشر – قبل دمجها فى « الرّد » ، أحمد بن محمد بن حضير » [٩٨] (شقيق موسى ، الحاجب الشهير للناصر) الذى حمل لقب وزير وتوفى عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) ؛ « عبد الرحمن بن فطيس » ، قبل ولايته القضاء عام ١٠٠٤ م (٣٩٤ هـ) ؛ « أبو حاتم محمد بن عبد الله » [٩٩] ، وهو من عائلة « بنى ذكوان » ، وكان قبل ذلك « مُشَوَّرا » وقاضيًا على « فريش » (Firrish) (الواقعة شمال قرطبة) ، وهو الذى كشف لعبد الملك المظفر أبعاد المؤامرة التى حاكها ضده الوزير « عيسى بن سعيد » عام ١٠٠٦ م (٣٩٧ هـ) ؛ وأخيراً ، « محمد بن على بن عبد الرؤوف » ، المتوفى عام ١٠٣٣ م (٤٢٤ هـ) [١٠٠] .

ونشير فى النهاية إلى الافتراض الذى ذهب إليه « خوليان ريبيرا » [١٠١] منذ ستين عامًا ، ومفاده : أن « خطة المظالم » باختصاصاتها المعروفة فى إسبانيا الإسلامية قد انتقلت برُمَّتها إلى التشريع البدائى لنبلاء « أرغن » (Argón) تحت مسمى « العدالة الكبرى » [١٠٢] ، ومن جانبنا نرى أن الإعارة محتملة لكنها غير

مؤكدة ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن المسميات العربية لرجال القضاء والهيئات القضائية قد انتقلت إلى اللغة الإسبانية وأصبحت جــزءاً منها ، ونضرب مثالا على هذا بتعبير « صاحب المدينة » التى انتـقـل إلى اللغــة الإسبـانية فى هذه الصورة (zalmedina) ، لكنه لا يعني بأى حال العدالة فى المدن الأرغونية .

« صاحب السوق »

الهيئة القضائية التى أطلق عليها فى إسبانيا الأموية « صاحب السوق » هى نفسها التى عرفها الغرب الإسلامى منذ القرن الحادى عشر باسم « أحكام الحسبة » التى يرأسها « المحتسب » ، ولا تزال كلمة « المحتسب » (التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية فى هذه الصورة (almotacén o almotazaF) تستخدم حتى الآن فى المغرب نتيجة لوجود هيئتها القضائية فيه ، وذلك على خلاف البلدان التى وقعت تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية مثل تونس والجزائر .

تعتبر « الحسبة » (ومثلها قاضى الجماعة) من الهيئات القضائية التى يتوافر عنها كمٌ هائل من المعلومات [١٠٣] خاصة بعد اكتشاف ونشر كتابين ألفهما فى إسبانيا - بعد سقوط الخلافة الأموية بحوالى قرن تقريبًا - محتسبان بغرض خدمة زملائهما فى العمل ، وبالرغم من هذا الفاصل الزمنى الكبير إلا أن كلا الكتابين - سواء ما ألفه « ابن عبدون الإشبيلى » [١٠٤] أو « السقطى المالقى » [١٠٥] - يعكس أوضاعًا لم تتغير كثيراً عما كانت عليه أثناء ازدهار الخلافة القرطبية ، ونظراً لما يحتوى عليه الكتابان من إشارات عملية وممارسات فعلية - بغض النظر عما يصحبها عادة من أفكار تنظيرية - فإنهما يعتبران أثرى وأوفى ما لدينا من مصادر عن الحياة فى المدن الأندلسية خلال تلك الحقبة التاريخية ، ومن ثمَّ فإنه من المستحيل دراسة الأنشطة الصناعية والتجارية لسكان تلك المدن دون الرجوع إلى هذين الكتابين باستمرار .

وكما هو معروف ، فإن « الحسبة » فى العالم الإسلامى تنبع من التزام المسلم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الوسط الاجتماعى الذى يتحرك فيه . إنها الصيغة القرآنية الشهيرة التى اتخذها الموحدون ركيزة لحركتهم الإصلاحية فى القرن

الثانى عشر ، ولما كان من الصعب الاعتماد على المبادرات الفردية لتطبيق هذه الصيغة في الدولة المنظمة ، دعت الحاجة إلى هيئة قضائية خاصة (الحسبة) التى تكمن مهمتها الأساسية فى مراقبة سلوكيات المسلمين فى التجمعات الحضرية طبقًا لما يمليه نظام الأخلاق الإسلامى ، بحيث تشمل التصرفات الشخصية والمتبادلة مع الآخرين ، ومن هذا المفهوم الحرفى للحسبة يتضح أن دوائر اختصاص صاحبها كانت واسعة جداً لدرجة الإفراط ، لكنها سرعان ما انحصرت فى إسبانيا - التى ثبت وجودها فيها منذ عهد هشام الأول - على مجال التعاقدات التجارية ، وأسندت إلى قاضى قرطبة وقضاة الأقاليم ، أو اضطلع بمسئوليتها « صاحب الشرطة » .

وبالفعل ، توجد ثلاث حالات [١٠٦] تثبت ولاية قضاة قرطبيين - سواء فى عصر الإمارة أو الخلافة - لأحكام الشرطة والسوق معًا ؛ والجمع بين الوظيفتين يعنى أن صاحبهما يمارس فى الوقت ذاته السلطات الإجرائية للقضاء المدنى والجنائى . ويبدو أن التقليد كان متبعًا فى إسبانيا الإسلامية حتى عهد عبد الرحمن الثانى الذى ينسب إليه المؤرخ ابن حيان تنظيم الخدمات البوليسية والأمنية والإدارة الحضرية لعاصمته ، وكانت جميعها موكلة - قبله - إلى (صاحب السوق) بصفته المسئول الأوحد أمام السلطة المركزية عن الحفاظ على النظام العام وعن الإبلاغ الفورى عن أية حركة تمرد تطل برأسها بين الطبقات الدنيا للشعب القرطبى .

وبالرغم من عدم العثور على أى نص نستطيع من خلاله التعرف على دقائق اختصاصات « صاحب السوق » فى القرن العاشر إلا أننا نعتقد بأنها مماثلة لاختصاصات « المحتسب » [١٠٧] فى القرون التالية ، وهى تكمن بالدرجة الأولى فى مراقبة النشاط الاقتصادى فى قرطبة والمدن الرئيسية الأخرى . وصاحب الوظيفة أشبه بـ « رئيس جماعة التجار » ويتمتع بثقافة دينية وقضائية واسعة تضمن له التطبيق الجيد لقواعد الإسلام الصارمة التى تحكم الأنشطة التجارية .

ومن المهام الرئيسية المنوطة بصاحب السوق نذكر : تلافى الغش ، والتأكد من نزاهة المصنعين والبائعين ، والتأكد من جودة المعروض للبيع أو الشراء ، التحقق من سلامة الموازين والمكاييل ، وربما تحديد الأسعار اليومية للسلع المختلفة . كما كان حقه فى التفتيش والمتابعة يمتد إلى أمور أخرى مثل الأشغال العامة وسلوكيات

الجماهير ، لقد كان بهذا الشكل خير معين للقاضي لأنه كان يرسل المجرمين إليه ، ولديه أعوان ينقلون إليه كافة المخالفات ذات الطابع المدنى أو الجنائي ، ومن جهة أخرى ، فقد كان بإمكانه الحكم بالسجن وبالعقوبات الجسدية ، علاوة على تسديد الديون الصغيرة بين المشترين والبائعين .

" صاحب المواريث " :

ومن الهيئات القضائية فى عصر الخلافة الأموية تجدر الإشارة إلى مكتب التركات الشاغرة (ليس لها وريث شرعى) [١٠٨] الذى يرأسه « صاحب المواريث » . ولفظ المواريث يطلق بالفعل (فى المذهب المالكى) على الأملاك التى يموت عنها صاحبها ولا يوجد من يخلفه فيها من الورثة الشرعيين (الأقارب من العصب ، أو السيد المعتِق بالنسبة للعتيق) ؛ ولهذه القضايا فى التشريع الإسلامى نظام خاص يتسم بالدقة والصرامة لا يتسع المجال للتطرق إليه هنا . فى حالات التركات الشاغرة (سواء كانت لمسلمين أو ذميين أو مستعربين أو يهود) يغلب حق الدولة على حقوق أقارب المتوفى من غير ذوى العصب (الأقارب من جهة الأم ، مثلاً) . نظراً لما تمثله التركات الشاغرة من أهمية بالنسبة لخزانة الدولة ، فقد أعدت لها فى إسبانيا الأموية هيئة قضائيةخاصة ، تابعة للقاضى ، تخول له سلطة الحكم بتحويلها إلى الخزانة العامة ، ومما لا شك فيه أن « صاحب المواريث » كان يدير – تحت رقابة القاضى – هذه التركات ويودع إيراداتها فى الخزانة المركزية ، أو يوجهها – مثل نُظَّار الأوقاف – إما إلى خزانة الأعمال الخيرية أو إلى « بيت المال » .

توجد فى قوائم التعيينات الرسمية التى أعدها المؤرخ « عارب » للقرن العاشر بعض أسماء الذين تولوا إدارة المواريث ، من بينهم نذكر الفتيين الصقلبيين : « دُرِّى » (Durri) و « قاند » (Qand) ، اللذين مارسا المهمة منذ ٩١٤ م (٣٠٤ هـ) فى بداية عهد عبد الرحمن الثالث [١٠٩] ، وبعد نصف قرن تقريبًا – فى ٩٦٨ م (٣٥٧ هـ) – تولى المهمة ابن أبى عامر فى بداية مشواره المكلل بالغار ، وفى بعض الحالات – مثلما حدث مع العامرى – كان من الممكن الجمع بين هذه المهمة ومهام إدارية وقضائية أخرى ، وفى هذا الشأن نضرب مثالاً بفقيه قرطبى جمع (حسبما جاء فى ترجمته) بين وظيفة « صاحب الشرطة » و « صاحب الصلاة » والخطبة فى المسجد الجامع والإشراف على التركات الشاغرة [١١٠] .

٣ - عقوبات الزجر والرّدع

" الشرطة " واختصاصاتها :

أثبتت الوثائق الوجود المبكر لهذه المؤسسة فى امبراطورية الشرق العربية ، كما كتب عن مهامها مُنَظِّرو الحقوق العامة فى الإسلام - خاصة الماوردى - كثيراً من التعليقات الفنية التى لايتسع المجال لسردها (١١١) ، تكفى الإشارة إلى أن القاضى ، عندما كان يعجز عن إصدار حكم فى قضية معينة لصعوبات تعترضه فى الإجراءات الشكلية للدعوى أو فى استخلاص القاعدة الشرعية المناسبة لها ، فإنه كان يحولها إلى دائرة « الشرطة » ، بمعنى أن القاضى عندما لا يجد ما يستند عليه للحكم بأى نوع من العقوبات الشرعية المسماة « بالحدود » فإنه يحيل المسألة إلى دائرة قضائية أخرى أكثر مرونة تعتمد على الاجتهاد لاختيار العقوبة التقويمية الملائمة (تعزيز) . و« صاحب الشرطة » هو المُفَوَّض من العاهل للاجتهاد فى تقدير تلك العقوبات التى تَخَفَّف القاضى من عبء البتّ فيها ، إنه نوع من القضاء العلمانى ، يشبه القائم عليه « حكمدار البوليس » غير المطالب بمراعاة الحدود الشرعية الصارمة ، ولديه حرية تتبع الجرائم المرتكبة ضد الأفراد أو الصالح العام ، وإنزال العقاب الملائم بمقترفيها ، من منطلق معيار اجتهادى ينسجم (نظراً لأخذه فى الاعتبار الطبقة الاجتماعية للمتهم) مع ما يمليه الوضع السياسى القائم .

ظهرت هذه الدوائر القضائية فى إسبانيا الأموية منذ القرن التاسع (١١٢) ، فقد ذكر ابن حيان - كما أشرنا من قبل - أن عبد الرحمن الثانى هو أول من بادر بإدخالها ضمن الخطط القضائية لمملكته ، واقتطع اختصاصاتها من مهام « صاحب السوق » ، المسئول الأوحد - حتى ذلك الوقت - عن الحفاظ على الأمن العام بالعاصمة الأندلسية ، ويضيف المؤرخ القرطبى قائلاً : إن مسمى « أحكام الشرطة » الذى أطلق عليها حين ظهورها بإسبانيا قد تغير فى عصره إلى «ولاية المدينة » (١١٣) . ستظل هذه البلبلة فى التفرقة بين صاحبى « الشرطة » و« المدينة » - بالرغم من الفصل الواضح بينهما فى قائمة ابن سهل الخاصة بالخطط القضائية - ماثلة فى التعريفين اللذين قدمهما مؤرخان متأخران للغرب الإسلامى : ابن سعيد وابن خلدون . يشير الأول (١١٤) إلى أن المكلف بخطة الشرطة كان الشعب يسميه « صاحب المدينة »

أو « صاحب الليل » وأن مهمته تكمن فى التحقيق فى الدعاوى والجرائم التى لا تدخل فى اختصاص القاضى ، ومن سلطته الحكم حتى بالإعدام على من وجب عليه ذلك دون استئذان العاهل . أما ابن خلدون فقد كان أكثر وضوحًا (١١٥) حين قال بأن « صاحب الشرطة » يفصل فى الجرائم التى تشملها دائرة القضاء المدنى ذى الصبغة السياسية ، وأن هيئة قضائها كانت موجودة فى زمنه ، ويطلق على من يمارسها فى تونس لفظ « حاكم » وفى غرناطة « صاحب المدينة » ، وطبقًا لرأيه ، فإن هذه الهيئة لم تكتسب شهرة وسمعة بقدر ما اكتسبت فى قرطبة الأموية ؛ يقول ابن خلدون موضحًا : « وقد تنوعت وظيفة صاحب الشرطة بحسب طبقات الناس فى الأندلس ، فصاحب الشرطة العليا (أو الكبرى) ينظر فى أمور الخاصّة ، وله الحكم على أهل المراتب السلطانية والموظفين والضرْب على أياديهم وأيادى أقاربهم ومن ينتمون إليهم من أهل الجاه ، أما صاحب الشرطة الصغرى فكان مخصوصًا بالعامة، وكان صاحب الشرطة الكبرى يجلس فى فسطاطه المضروب أمام بوابة قصر العاهل محاطًا بأعوانه الذين لا يغادرون مجلسهم إلا لتنفيذ أوامره » ويختم المؤرخ كلامه مشيرًا إلى رفعة مرتبة الشرطة العليا التى كثيرًا ما كانت تحمل صاحبها إلى الوزارة أو الحجابة .

سنسعد أيما سعادة بالمعلومات السابقة لو اتفقت مع بيانات علم التاريخ المعاصر للخلافة ، وخاصة قوائم التعيينات الرائعة التى أعدها « عارب بن سعيد » للفترة من ٩١٢ م (٣٠٠ هـ) - سنة جلوس عبد الرحمن الثالث على العرش - إلى ٩٣٢ م (٣٢٠ هـ) ، فتلك القوائم تقدم ، من جهة ، البرهان القاطع - فى النصف الأول من عهد الناصر ، على الأقل - على أن الذين تولوا منصب « الشرطة » مغايرين تمامًا لمن أسندت إليهم مهمة « صاحب المدينة » (١١٦) ؛ كما تفيد ، من جهة أخرى ، بأن الشرطتين (الكبرى والصغرى) قد أضيفت إليهما منذ عام ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) (١١٧) هيئة أخرى تسمى « الشرطة الوسطى » ظلت تمارس نشاطها لما لا يقل عن نصف قرن ، ذلك لأن ابن أبى عامر (منصور المستقبل) بدأ مشواره بهما عندما عينه عليها الحكم الثانى سنة ٩٧٢ م (٣٦١ هـ) (١١٨) .

إذا أردنا تفسيرًا لاجتماع هذه الهيئات الشرطية الثلاثة فى عاصمة الخلافة يتعين علينا فهم النظام الطبقى السائد فى العالم الإسلامى خلال ذلك العصر ، والتسليم ، مثل ابن خلدون ، بالرغم من صمت المؤرخين المُطْبق ، بأن كل واحدة من هذه الهيئات لم تكن تمارس نشاطها إلا على فئة معينة من الشعب القرطبى .

لن نتجاوز حقنا دون ريب لو اعتقدنا أن واقع الفصل بين الطبقات الاجتماعية (تمشيًا مع التمييز القديم بين سكان المدينة الإسلامية وتقسيمهم إلى « خاصة » و « عامة ») هو الذى استوجب فى إسبانيا - مثل الشرق - ازدواج هيئة الشرطة ودفع الأمويين لتقليد خصومهم العباسيين فى تفويض شخصين مختلفين الحكم فى قضايا الزجر والردع (تعزير) ، بحيث يختص أحدهما بالمخالفات التى ترتكبها الشخصيات الهامة فى الدولة ، ويتكفل الآخر بما يخص العامة من المولدين والذميين ، وإذا كان من الطبيعى ظهور طبقة وسطى (نوع من البرجوازية (أعيان) المؤلفة من التجار وصغار الموظفين ومساعدى القضاة) فى عصر الازدهار الكبير للعاصمة والنمو المطرد لسكانها ، فمن الطبيعى كذلك أن يفكر عبد الرحمن الثالث فى تشكيل شرطة خاصة بها ، لكننا لا نستطيع التشبث بما ذهبنا إليه فى هذه المسألة نظرًا لخلو الساحة حتى الآن من نص يعضده .

تكتسب القائمة التى أعدها « عارب » أهمية خاصة لأنها أوضحت لنا الصفة الاجتماعية لرؤساء هيئة الشرطة ، التى وليها فى البداية رجال ينتمون إلى عائلات شهيرة مثل « بنى أبى عَبْدة » . أسند عبد الرحمن الثالث بعد ذلك « الشرطة الكبرى لمولاه الصقلبى « درى » الذى ظل فيها لسبع سنوات متتالية : من ٩٢٠ إلى ٩٢٧ م (٣٠٨ - ٣١٥ هـ) ، ويعد هذا التاريخ يبدو أن الحد الفاصل بين منصب القاضى ومنصب « صاحب الشرطة » قد تلاشى ، ذلك لأن كلتا المهمتين كان يقوم بهما شخص واحد مثلما حدث مع « أحمد بن عبد الله بن موسى » الذى جمع فى سنة ٩٧٧ م (٣٦٧ هـ) [١١٩] بين القضاء على كورتى « إستجة » و « قرمونة » وبين منصب الشرطة » ؛ أو « عبد الرحمن بن مشّات » الذى عينه المنصور بن أبى عامر صاحبا للشرطة وقاضيًا على الكورتين السابقتين ومسجلاً عامًا ، ونشير فى النهاية - اعتمادًا على ما أوردته بعض المدونات التاريخية - إلى أن المنصور كان معجبًا بعمل صاحب الشرطة وكان يدعوه لحضور مجالسه [١٢٠] .

« صاحب المدينة »

يحق لنا التساؤل بداية : ما هى الاختصاصات الممكنة لصاحب المدينة فى ظل وجود ثلاث هيئات للشرطة ؟ قد لاتكون هناك مطلقًا إجابة على هذا التساؤل ، على الأقل بالنسبة لعصر الخلافة الذى وُجدت فيه هاتان الهيئتان ، وكانتا منصهرتين

في واحدة كما حدث على الأرجح في نهاية القرن العاشر . وبالنسبة للعشرين سنة الأولي من حكم عبد الرحمن الثالث يزودنا « عارب بن سعيد » بأسماء سبعة ينتمون جميعًا لعائلات قرطبية شهيرة تولوا منصب « صاحب المدينة » (١٢١) .

يحتمل أن « صاحب المدينة » كانت له ولاية على الإدارة والشرطة المدنية ؛ لكن لا بد أن تكون اختصاصاته محددة بدقة حتي لايحدث تداخل بينها وبين اختصاصات أجهزة الردع والزجر ؛ وعن هذا لـم تتفوه المدونات التاريخية لذلك العصر بكلمة واحدة ، إنها تقتصر على إخبارنا بوجود قاض يحمل هذه التسمية ، لا في قرطبة وحسب بل أيضًا في مدينة الزهراء ثم في الزاهرة بعد ذلك ، وأن العاهل عندما كانت الظروف تضطره للغياب عن العاصمة لمرافقة حملة عسكرية أو لأى سبب أخر فإنه كان ينيب عنه أحد أولاده للنهوض بأعبائه وكان « صاحب المدينة » ملْزَما بالبقاء إلى جواره وعدم مفارقته (١٢٢) .

وكما نرى ، فكل مـا سبق ذكره يكتنفه الغموض ، ومع هذا يمكن القول بأن دور « صاحب المدنية » كان غاية في الأهمية (١٢٣) ذلك لأن المنصب ظل مشغولاً على الدوام في إسبانيا الإسلامية حتى بعد سقوط الخلافة وانتقل أيضًا إلي مملكتي « رغون » و « نبرّة » تحت مسمى (Zalmedina) الذى يُراد به القاضى المُعيَّن من قِبل الملك المسيحى ويتمتع باختصاصات إدارية وقضائية (١٢٤) .

العقوبات :

يقع على عاتق « صاحب الشرطة » و « صاحب المدينة » ، أو كليهما معًا ، تنفيذ العقوبات الصادرة عن القضاء الشرعي والتي تبدأ من مجرد السجن المصحوب بالتعذيب البدنى (مثل الضرب بالسوط) وتنتهي بالإعدام (١٢٥) .

فى حرم قصر قرطبة نفسه كان يوجد سجن شهير تحت الأرض (مُطْبَق) تستقبل زنازينه المحكوم عليهم بالسجن المؤبد (١٢٦) . أما سجن العاصمة فكان يقع – طبقًا لابن حوقل (١٢٧) – بالقرب من المسجد الجامع . كان النظام الإصلاحى – الذى أفاض ابن عبدون فى وصفه خلال عصر المرابطين (١٢٨) – صارمًا ، ويتمادي السجّانون فى تطبيقه (مثل ربطهم المساجين فى الأعمدة وتطويقهم بالأغلال) لكى يُجبروا السجناء على دفع الإتاوات لهم ، وبالطبع كان السجناء يتلقون ما يقيم أودهم من خارج السجن حتى لا يقضون نحبهم جوعًا . كان يتم العفو أحيانًا عن بعض المسجونين بمناسبة عيد الفطر أو الأضحى أو الاحتفال بنصف شعبان .

كانت لدى « صاحب الشرطة » فرقة من الجلاّدين (المأمورين القضائيين) لتطبيق العقوبات البدنية التي كانت تنفذ غالبًا في حضرته وخارج مبنى « مجلس الشرطة » وأمام جمهور من محبي الاستطلاع ، أما العقوبات التي تستدعي الجدْع (مثل قطع يد السارق) فيبدو أنها كانت تتضاءل باستمرار في إسبانيا الإسلامية حتى اقتصر تطبيقها على الحالات الاستثنائية ، وعلى خلاف هذا ، فقد شاع تنفيذ عقوبات الإعدام المسبوقة عادة بتعذيب المجرم [١٢٩] وتجريسه (التشهير به) في شوارع المدينة حيث كان يُطاف به راكبًا (في وضع عكسي) على ظهر حمار أو جمل لينال نصيبه الوافر من سفالات واعتداءات الرعاع ، كانت وسيلة الإعدام الشائعة تتمثل في قطع رقبة المجرم بالسيف ، ليتم بعد ذلك تعليقه بمسامير على خشبة تشبه الصليب ، وأحيانًا يتم صلبه مقلوبًا [١٣٠] ، أما الخنق فقد كان أقل شيوعًا ، ولم يكن يتم التعليق على المشانق إلا بعد الإعدام ، كانت جثث المعدومين تظل مصلوبة – في بعض الأحيان – لعدة أشهر ، عُرْضة لإهانات السوقة المتعطشة لمثل هذه المشاهد ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمتمردين أو مسيحيين تطاولوا على الدين الإسلامي ، أما المرتدون عن الإسلام من المسلمين الجدد فقد كان جزاؤهم الحرق أحياء . وصف بعض المؤرخين عددًا من هذه المشاهد الدامية [١٣١] ، ولنا أن نتخيل طابور الصلبان الطويل الممتد على رصيف نهر الوادي الكبير بمحاذاة سور القصر ، تذكرة وعبرة للقرطبيين (سواء في عصر الإمارة أو الخلافة) بالمصير الذي ينتظر كل من تسول له نفسه التطاول على العاهل أو قضاته .

في المدن الإقليمية – حيث لا تقل أساليب الردع قسوة – كان الوالي هو الذي يباشر عادة – باسم الأمير – تنفيذ الأحكام التي لا يشملها القضاء الشرعي ، وبهذا الشكل كان يضيف إلى اختصاصاته الإدارية سلطة القضاء الجنائي والشرطة المدنية اللتين يتولاهما في العاصمة صاحبا « الشرطة » و« المدينة » .

هوامش الفصل الثالث

(١) توجد في الفصل الثالث من (Esp.mus. X° siécle, pp. 79-96) لمحة عامة عن مهام الدوائر القضائية والمؤسسات الشرطية في عصر الخلافة الأندلسية ، تعتمد على المصادر المتاحة وقتها (أي منذ عشرين سنة) ، ومنذ ذلك الحين اتسعت دائرة المصادر بفضل اكتشاف معظم الجزء الأول من « المقتبس » لابن حيان ، واكتشاف كتاب النباهي المعنون : « المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » .

وعلاوة على ما تقدم ، فقد قام E.Tyan في مؤلفه :

Histoire de l'organisation judiciaire en pays d;Islam, 2 vols., paris, 1938 .

بدراسة القضاء والبينات القضائية في العصور الإسلامية الأولى دراسة مفصلة ، أما بالنسبة للفصل الذي خصصه Mez (Ren. Isl., trad. Vila, pp 267-289) للحديث عن القاضي والقضاء المدني ، فلا يزال يحتفظ بجاذبية خاصة نظراً لملاحظاته الفنية المستقاة من الأدب العربي ، وبالنسبة للغرب الإسلامي ، فبالإضافة إلى المقدمة الرائعة التي استهل بها « خوليان ريبيرا » طبعته وترجمته لـ « كتاب قضاة قرطبة » للخشني ، يمكن الاطلاع على ما يلي :

- J. López Ortiz : Derecho musulmán, Colección Labor, Barcelona-Buenos Aires, 1932.pp.67-106.

(٢) انظر

Julián Ribera : Historia de los jueces de Córdoba de Aljoxant, Madrid, 1914

(٣) نشره ليفي بروفنسال تحت هذا العنوان :

- Histoire des juges d' Andalousie intitulée kitab al - Marqaba al - 'ulya, Cairo (ed. Del Seribe égyptien), 1948 .

هذه الطبعة التي لم يُقدر للناشر مراجعة بروفاتها بنفسه تحتوي على أخطاء جوهرية سيتم تصويبها في الطبعة التالية التي استفادت كثيراً من اقتراحات H.Z . في مجلة « الشرق » ، بيروت ، ١٩٤٨ (من ص ٤٦ إلى ٧٣) ، ومن مخطوطة عظيمة القيمة اكتشفت وقتها بالمغرب .

(٤) عن هذا المؤلف (المتوفى عام ١٠٩٣ م - ٤٨٦ هـ) وعن عمله المعنون « ديوان الأحكام الكبرى » ، انظر :

- Lévi-Provençal:Esp.Mus. X° siécle, p. 80 y notas I,2.

اعتمد « أحمد الونشريزي » (فقيه فاس في القرن الخامس عشر) على أحكام ابن سهل اعتماداً كبيراً عند تأليفه لـ « كتابة الولاية » الذي قام بنشره وترجمته H.Bruno y Gaudefroy-Demombynes تحت عنوان :

(Le livre des magistratures d' el Wancherisí, Rabat, 1937).

لنفس المؤلف مجموعة ضخمة من الفتاوى الشرعية تحمل هذا العنوان المطول :

« كتاب المعيار المعْرب والجامع المُغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب » ، وقد طبع هذا الكتاب فى اثنى عشر جزءًا فى نهاية القرن التاسع عشر بمدينة فاس .

(٥) انظر ، على وجه الخصوص :

- E. Lévi- Provençal y E. García Gómez : Sevilla a Comienzos del siglo X 11 El tratado de Ibn Abdun.

(٦) انظر

- J. López Ortiz : Formularios notariales de la Españã musulmana, en la revista La Ciudad de Dios, El Escorial, Vol, CXLV, pp. 260-273

(٧) انظر :

- Tyan : Org. Jud., I, p. 140 y sigs.

(٨) انظر المرجع السابق (من ص ٢٨٩ – ٣٠٦) . يشير المؤلف فى صفحة ٢٩٤ إلى قاضى عسكر عينه عبد الرحمن الأول قاضيًا للجماعة عام ٧٨٦ م (١٧٠ هـ) ، إنه يقصد « جدار بن عمرو المذحجى » حسبما أشارت معظم المدونات التاريخية ومنها نذكر « البيان المغرب » لابن عذارى (الجزء الثانى ، ص ٥٠ (٤٨) فى الأصل ، ص ٧٤ فى الترجمة) ؛ « نفح الطيب » للمقرى (الجزء الثانى (ص ٢١ ، ٣١) .

لن نعثر فى المدونات التاريخية بعد ذلك على ما يفيد بوجود هذه الوظيفة فى إسبانيا الأموية .

أما إشارة Tyan (المرجع المذكور ، ص ٢٩٤) التى تفيد بأن « قضاء العسكر يعتبر وظيفة عادية فى نهاية العصر الأموى » فلا أساس لها من الصحة لأنها اعتمدت على معلومة لا علاقة لها بعصر الخلافة الأموية وردت فى « صبح الأعشى » للقلقشندى .

(٩) ابن القوطية « تاريخ الأندلس » (ص ٧٣ فى النص ، ص ٥٨ – ٥٩ فى الترجمة) انظر أيضًا : Dozy : Suppl. dict. ar., I. p. 363 b

(١٠) الخشنى : « قضاة قرطبة » (ص ٢٧ – ٢٨ فى النص الأصلى ص ٣٥ فى الترجمة) ، انظر أيضًا النباهى « المرتبة العليا » ، ص ٢١ طبقًا لـ

- Tyan : Org. Jud., I, p. 155 Y 185 .

(١١) النباهى « المرتبة العليا » ، ص ٢١ ، مُسَمَّى « قاضى الجند » الذى أطلق على « مُصعب بن عمران » فى النصف الأول من القرن التاسع ، أثبته المؤرخ ابن حيان فى « المقتبس » (الجزء الأول ، fol. 120 r°) . كما قام بكتابة ترجمة مُطولة عن القاضى « محمد بن بشير » (fol.120r, 124v) الذى تولى قضاء قرطبة خلال عهد الحكم الأول .

(١٢) انظر :

- M. Guidi, en Enc. Isl., III, p. 617 .

- Tyan : Org. Jud., I, págs. 182-185 .

(١٣) النباهي « المرتبة العليا ... » ، ص ٢١ . وعن « قاضي الجماعة » ، انظر أيضًا :
Tyan : Org. jud., I, Págs. 185 - 191 .

(١٤) النباهي « المرتبة العليا » ، ص ٢١ .

(١٥) ابن الفرضي : « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٢٥٣ .

(١٦) المرجع السابق ، رقم ١٣٣٥ .

(١٧) المرجع السابق ، رقم ٩٨٦ .

(١٨) المرجع السابق ، رقم ٥٢٢ .

(١٩) المرجع السابق ، رقم ٢١٥ ، ٦٠٢ .

(٢٠) المرجع السابق ، رقم ٨٠٦ .

(٢١) المرجع السابق ، رقم ٤١٤ ، ١٢٠٨ .

(٢٢) المرجع السابق ، رقم ١٩٧ ، ١٠٢٣ ، ١٣٨٨ .

(٢٣) المرجع السابق ، رقم ٤١٢ ، ١٢٢٩ ، ١٢٥١ .

(٢٤) المرجع السابق ، رقم ١٦٥ ، ١٣٨٨ .

(٢٥) المرجع السابق ، رقم ٤٩٨ ، ١٢٥١ ، ١٤٧٥ .

(٢٦) المرجع السابق ، رقم ١٠٧٧ .

(٢٧) المرجع السابق ، رقم ٣١٧ ، ٣٢٠ .

(٢٨) المرجع السابق ، رقم ١٠٧٥ .

(٢٩) المرجع السابق ، رقم ٤٤٩ .

(٣٠) المجتمعة في إقليم واحد مع بداية القرن الحادي عشر . ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، رقم ٣٤٧

(٣١) ابن الفرضي : « تاريخ علماء الأندلس » رقم ٢١٨ ، ٤٤٩ ، ١٠٨١ .

(٣٢) المرجع السابق ، رقم ١٢٢٤ .

(٣٣) المرجع السابق ، رقم ١٠٤٥ .

(٣٤) المرجع السابق رقم ١١٠ ، ١٦٨ ، ٣٥٩ ، ١٠٨١

(٣٥) المرجع السابق ، رقم ٢٧٣ ، ١٠٣٣ ، ١٠٧٧ .

(٣٦) المرجع السابق ، رقم ١٦٧٨ .

(٣٧) المرجع السابق ، رقم ٧٢٥ .

(٣٨) المرجع السابق ، رقم ٢٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٧٥٧ ، ٨٠٥ .

(٣٩) المرجع السابق ، رقم ٧٥١ .

(٤٠) المرجع السابق ، رقم ١١٤٧ ، ١٤٥٩ .

(٤١) المرجع السابق ، رقم ١٨٦ ، ٢٩٩ ، ٤٤٢ ، ٩٥٢ ، ١٦٧٨ .

(٤٢) المرجع السابق ، رقم ٢٠٠ . ظل « أحمد بن الفتح » في منصبه قاضيًا على « مليلة » بموجب المرسوم الذى أصدره الخليفة عبد الرحمن الثالث عام ٩٣٧ م (٣٢٥ هـ) ، ومن جهة أخرى نذكر فى هذا المقام أن ابن أبي عامر عندما أرسل عام ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) للانضمام إلى القائد « غالب » في المغرب ، عُين قبل رحيله قاضيًا على جميع المواقع التابعة للخلافة القرطبية فى المغرب .

(٤٣) انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, Págs. 272-275 .

- Tyan : Org . Jud., I, Págs. 501-513.

(٤٤) انظر بالنسبة للقيروان « رياض النفوس » لأبى بكر المالكي (طبعة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١) ، وبالنسبة لمصر انظر « كتاب الولاة والقضاة » لأبى عمر الكندى ، طبعة :

Rhuvon Guest, Leiden - Londres, 1912 .

(٤٥) انظر :

- lévi-Provençal : Esp. mus. X° Siècle, P. 82 y nota 2.

أما لقب « الوزير القاضي » الذى يظهر باستمرار فى مؤلفات الفقيه ابن سهل فقد أطْلق صراحة على « محمد بن عمرو البكرى » (ابن الأبار « كتاب التكملة لكتاب الصلة » ، رقم ٣٧٢) .

(٤٦) هذا ما جرى – على سبيل المثال – مع « محمد بن عمرو البكرى » حينما كلفه المنصور بن أبي عامر بإدارة مفاوضات الهدنة مع ملوك إسبانيا المسيحية ؛ ومع القاضي « محمد بن أبي عيسى » في زمن الناصر ،عندما قام بعدة زيارات تفتيشية للمواقع الإسلامية على الحدود (النباهى « المرتبة العليا » ص ٦٠)

(٤٧) انظر :

- Tyan : Org. Jud., II, p. 14 y sigs .

(٤٨) من الوثائق الهامة فى هذا الموضوع نص المرسوم الذى أصدره الحكم الثاني بتاريخ ١٥ شعبان ٣٥٣ هـ (٢٧ أغسطس ٩٦٤ م) بخصوص تعيين « محمد بن إسحاق بن السليم » قاضيًا على قرطبة (النباهى : « المرتبة العليا » ، ص ٧٥ – ٧٦) . فى النص المذكور يوصى الخليفة القاضى الجديد بما يلى : التحقق من الأدلة والبراهين المقدمة إليه ؛ العناية باليتامى والمحافظة على ثرواتهم من خلال المتابعة المستمرة للأوصياء عليهم ورقابة إيرادات ممتلكاتهم ؛ تحمل مسئولية عفة وطهارة مساعديه ؛ استشارة العاقل فى الأمور الغامضة أو المشكوك فيها .

(٤٩) خاصة في أحكام « ابن سهل » ، انظر أيضًا :

- Tyan: Org. Jud., II, Págs. 345-350 .

أما بالنسبة للقرن الحادى عشر فلدينا تراجم كثيرة لمستشارين (مساعدين) أندلسيين مارسوا فى عواصم ممالك الطوائف وظيفة « صاحب الأحكام » ، وينطبق الشيء نفسه على عصر المرابطين .

(٥٠) عن المقرى في « نفح الطيب » (الجزء الأول ، ص ١٣٤) انظر :

- Lévi -Provençal:Esp. Mus. X° Siècle, p. 83 .

- Tyan : Org. jud., II, p. 348

(٥١) عن الشورى في إسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Tyan : Org. jud., I, pags.. 339-348 .

(٥٢) كان هذا هو النظام المتبع منذ ٩٠٣ م (٢٩١ هـ) على الأقل .انظر :الخشنى « قضاة قرطبة » ، ص ١٧٦ من النص الأصلى ، ص ٢١٧ من الترجمة الإسبانية .

يروى الخشنى أن القاضى « أحمد بن محمد بن زياد » ألزم ، في التاريخ المذكور آنفًا ، كل « مُشوِّر » بالرد على الاستشارات المطلوبة منه كتابة .

(٥٣) انظر على سبيل المثال ، الخشنى « قضاة قرطبة » (ص ٩٠ - ٩٤ من النص ، ص ١١٠ - ١١٤ من الترجمة الأسبانية) ، وفي فقرة أخرى للخشنى (أوردها ابن حيّان في « المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 121 V) يتحدث فيها عن « محمد بن بشير » (قاضى الحكم الأول قائلاً : « إنه كان يجلس للحكم بين الناس في قاعدة منخفضة تقع بالقرب من الطرف الجنوبي لمسجد يسمى « مسجد أبى عثمان » عند مدخل الحي الغربي المواجه للقصر ، وكان منزل القاضى يقع في نفس الحي داخل حارة تطل على جنوب ذلك المسجد » .

(٥٤) للتعرف على إجراءات جلسات القاضى ، انظر :

- Tyan : Org. jud., I, págs.. 412-422 .

(٥٥) عن الشهادة في النظام القضائي ، انظر المرجع السابق ، ص ٣٤٩ - ٣٧٢

(٥٦) انظر :

- Brunschvig: Berbérie orientale, II, p. 127

(٥٧) نجد نماذجًا لهذه الشهادات في كتاب صور المحررات والعقود للجزيرى (fol.24 r y 101 r)

(٥٨) كان لدى عبد الرحمن الثالث « وثّاق » خاص يحمل لقب « صاحب الوثائق السلطانية » ، انظر : ابن الفرضى « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١١٩٩ .

(٥٩) لم يشر ابن عبدون أبدًا - بالرغم من تأخره - إلى راتب القاضى ، بينما قام بتخصيص فقرة كاملة للحديث عن راتب القاضى المساعد (انظر : « إشبيليه في بداية القرن الثاني عشر » ، ص ٥٨ ، ٥٩)

(٦٠) انظر :

- Brunschvig: Berbérie orientale, II, págs. 129-130.

(٦١) وردت هذه الفتوى الهامة في مجموعة الصيغ القانونية لـ « العيسى » (fol. II v) .

(٦٢) نشير في عجالة إلى أن وظيفة « قاضى الأنكحة » التي ظهرت في أفريقيا خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر لم توجد في إسبانيا الإسلامية سواء في عصر الخلافة أو الطوائف ، أما ما ورد

فى أدب التراجم الأندلسى عـن تـخصيص أحد مساعدى القاضى لتحرير عقود النكاح فإنه يتعلق بالعهود المتأخرة .، والحقيقة أن كل النزاعات المترتبة على الزواج تقع فى دائرة اختصاص القاضى .

(٦٣) عن الوقف فى الإسلام ، انظر :

Heffening, en Enc. Isl., Isl., IV, págs. 1154-1162 .

(٦٤) انظر :

- Brunschvig: Berbérie orientale, II, p. 190

(٦٥) فى مقصورة مسجد قرطبة الجامع ، طبقًا لابن عذارى « البيان ... » الجزء الثالث ، ص ٩٨ .

(٦٦) انظر :

- E. Lévi- Provençal y E. Garcìa Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 56-58 y passim .

(٦٧) فى ترجمة ابن الفرضى لسيرة فقيهين (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١٣٦٠ ، ١٣٩٤) ذكر أنهما وليا فى القرن العاشر تحت إشراف قاضى قرطبة وظيفة « ناظر الأوقاف » فى العاصمة الأندلسية ، وطبقًا لما ذكره ابن الأبار فى « كتاب التكملة .. » (رقم ٣٨٤) فقد تولى شخص يدعى « محمد بن أحمد بن مشّات » (المتوفى فى بداية القرن العاشر) الإشراف على الأوقاف التى وقفها القائد الشهير « جعفر الصقلبى » (الحاجب الأول للخليفة الحكم الثانى) .

(٦٨) يروى كُتَّاب تراجم القضاة الأندلسيين أن قاضى الجماعة القرطبى كان يؤم صلوات الاستقاء ، ومن هؤلاء القضاة نذكر « منذر بن سعيد البلوطى » فى عهد عبد الرحمن الثالث ، انظر : النباهى « المرتبة العليا » (ص ٧٠ – ٧١) – المقرى « نفح الطيب » الجزء الأول ، ص ٣٧٦ .

وانظر أيضًا

- Lévi -Provençal: Péninsule Ibérique, p. 169.

(٦٩) عن إقامة الصلاة ، انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs. 74, 75.

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, p. 84 y nota 2.

(٧٠) نشير فى عجالة إلى هذه النادرة التى أوردها النباهى (« المرتبة العليا » ، ص ٥٨–٥٩) عند ترجمته لسيرة « سليمان بن الأسود الغافقى » قاضى قرطبة و « صاحب الصلاة » فى عهد الأمير محمد الأول .

كان هذا القاضى فى بيته وجاء لزيارته ذات يوم رجل لا يستسيغه القاضى لولهه الشديد بتولى منصب « صاحب الصلاة » بدلا منه .:لما علم القاضى بقدومه أمر غلامه بإخبار الزائر أن سيده يعانى من سكرات الموت ، عندما علم الرجل بهذا رجع متهللاً ونشر الخبر فى جميع أنحاء المدينة ، ثم اتجه من فوره إلى القصر وطلب من بعض معارفه تدبير ما يرونه مناسبًا لكى يخلف القاضى ؛ لكنه اغتمّ بعد ذلك عندما أدرك أن الأمر لم يكن سوى مزحة من النوع الثقيل .

(٧١) انظر على سبيل المثال : النباهي « المرتبة العليا » ، ص ٧٨ ، وبالنسبة لإفريقيا الحفصية ، انظر :

Brunschvig : Berbérie orientale, II, pp. 118-119

(٧٢) طبقًا للمؤلف المجهول لـ « كتاب الزهرة المنثورة » فإن كيان الخلافة في القرن العاشر كان يستند على ثلاثة عُمُد : قاضي الجماعة ، قائد الثغر الأعلى وقائد الجيش . انظر :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, págs. 85.86.

(٧٣) عن الحياة المرفهة لهذا « الوزير القاضي » وثروته ، انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة » (رقم ٦٧٩) – النباهي « المرتبة العليا » (ص ٨٧ – ٨٨) .

(٧٤) عن الدور السياسي الذي لعبه هذا القاضي في الفترة السابقة لسقوط الخلافة ، انظر ، ابن بشكوال « كتاب الصلة » (رقم ٦٣) .

(٧٥) انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة » (رقم ٦٣) – النباهي « المرتبة العليا » (ص ٨٨) .

(٧٦) لهذا القاضي ترجمة طويلة في « تاريخ علماء الأندلس » (رقم ١٣٨٨) لابن الفرضي .

(٧٧) للتعرف على سيرة هذا القاضي ، انظر ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » (رقم ١٤٥٢) – النباهي « المرتبة العليا » (ص ٦٦ – ٧٥) . وعن أصله البربري ، انظر : « جمهرة الأنساب » (ص ٤٦٥) لابن حزم .

(٧٨) انظر : ابن الفرضي « تاريخ ... » (رقم ١٢١٧) – النباهي « المرتبة العليا » (ص ٧٥ – ٧٧)

(٧٩) يخبرنا ابن الأبار في « كتاب التكملة » (رقم ١٤١) أن « منذر بن سعيد » قبل توليه قضاء قرطبة كان يجمع بين القضاء على الثغور الشرقية وبين الإشراف على « عمال » المالية بها وبين وظيفة الرقابة على المسافرين القادمين من بلاد الإفرنج ، وطبقًا لابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١٠٤٥) فقد كان للمنذر بن سعيد أخ يدعى « عبد الله » ولى قضاء « فحص البلوط » عام ٩٤٢ م (٣٣٠ هـ) ومات بعد هذا التاريخ بخمس سنوات ، وقد اشترك أحد أبناء منذر بن سعيد (ويسمى « عبد الملك ») في المؤامرة التي دبِّرت عام ٩٧٩ م (٣٦٨ هـ) للإطاحة بهشام الثاني ، وعندما اكتشفت المؤامرة أمر المنصور بن أبي عامر بصلبه ، وسنتحدث فيما بعد عن ثلاثة أبناء آخرين لمنذر بن سعيد ، من بينهم « الحكم » الذي كان الممثل الرئيسي في إسبانيا لمذهب « ابن مَسَرة » في نهاية القرن العاشر وبداية الحادي عشر .

(٨٠) لا ندري على ماذا اعتمد ابن خلدون (المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٤٥٢) ليدرج «منذر بن سعيد » في قائمة القضاة الذين كانوا « يتولون قيادة عسكرية في حملات الجهاد » ، هذا على الرغم من أنه يحدثنا عن بعض القضاة الذين شاركوا – خاصة في القرن التاسع – في الصوائف قائلاً : إنهم كانوا على ما يبدو « متطوعة » ولم يتولوا القيادة لأنهم في مثل هذه الحالات كانوا يستقيلون مؤقتًا من مناصبهم . نعرف – على سبيل المثال – أن قاضي « بلنسية » « الجحاف بن يُمْن » (سلف قاضي بلنسية الشهير «ابن الجحاف » الذي أحرقه السيد القمبيطور) شارك عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) في الحملة على « شنت منكش » واستشهد فيها .

(٨١) انظر : الفتح بن خاقان « مطمح .. » (ص ٤٥ – ٤٦) – المقري « نفح الطيب » (الجزء الأول ، ص ٣٧٨) .

(٨٢) انظر ، على سبيل المثال ، رده الحاد على الحكم الثاني عندما دعاه ذات يوم شديد الحرارة لخلع ملابسه والاستحمام في البركة مع الفتى المقلبي « جعفر » (النباهي « المرتبة العليا » ، ص ٧٢ - ٧٣) .

(٨٣)

- Asín Palacios : Abenhazm de Córdoba, I, Págs. 132-134.

(٨٤) عند حديثنا فيما بعد عن ملابس المسلمين الإسبان في العصر الأموى سنشير إلى زىّ القضاة ورجال القضاء . عندما قام Tyan بدراسة أزياء القضاة المشارقة حتى نهاية العصر الوسيط فإنه اقتصر على تقديم بيانات موجزة عن ملابس القضاة الأندلسيين انظر (Tyan : Org. jud., I, págs. 311-312) .

(٨٥) نقدم فيما يلى قائمة بأسماء من تولوا قضاء قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الثالث حتى سقوط الخلافة , وقد اعتمدنا في إعداد هذه القائمة على مؤلفات كل من : - الخشني ، اولنباهي ، وعارب وابن الفرضي وابن بشكوال :

- « أحمد بن محمد بن زياد اللخمي » (الملقب بالحبيب) ، وقد عينه الأمير عبد الله عام ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) وظل في منصبه حتى ٩١٣ م (٢٠ جمادى الثاني ، سنة ٣٠٠ هـ) .

- « أسلم بن عبد العزيز بن هاشم أبو الجعد » (من ٩١٣ م حتى ٩٢١ م - ٣٠٠ - ٣٠٩ هـ) . وفي خلال تلك الفترة ولي « محمد بن لُبابة » منصب « صاحب الصلاة » .

- « أحمد بن محمد بن زياد » ، ولـي للمرة الثانية من ٩٢١ م (٣٠٩ هـ) حتى وفاته عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ) .

- « أسلم بن عبد العزيز » ، ولي للمرة الثانية من عام ٩٢٤ م (٣١٢ هـ) حتى ٩٢٦ م (٣١٤ هـ) . توفي عام ٩٢٩ م (٣١٧ هـ) .

- « أحمد بن بقيّ بن مخلد » ، من ٩٢٦ م (٣١٤ هـ) حتى وفاته عام ٩٣٦ م (٣٢٤ هـ) .

- « أحمد بن عبد الله الأصبغي ، من ٩٣٦ م حتى وفاته عام ٩٣٨ م (٣٢٦ هـ) .

- « محمد بن عبد الله بن أبي عيسى كثير بن وَسْلاس المصمودي » ، من ٩٣٨ م حتى وفاته عام ٩٥٠ م (٣٣٩ هـ) .

- « منذر بن سعيد البلوطي » (أبو الحكم) ، من ٩٥٠ م حتى وفاته عام ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) .

- « أبو بكر محمد بن إسحاق بن السليم » ، من ٩٦٦ م حتى وفاته عام ٩٧٧ م (٣٦٧ هـ) .

- « أبو بكر محمد بن يَبْقى بن زرب » ، من ٩٧٨ م (٣٦٧ هـ) حتى وفاته عام ٩٩١ م (٣٨١ هـ) .

- « محمد بن يحيى بن زكريا بن برطل التميمي » ، من ٩٩١ م حتى ١٠٠١ م (٣٩٢ هـ) ، توفي عام ١٠٠٣ (٣٩٤ هـ) .

- « أحمد بن عبد الله بن ذكوان » ، من ١٠٠١ م حتى ١٠٠٤ م (٣٩٤ هـ) .

- «أبو المُطرِّف عبد الرحمن بن محمد بن فطيس » ، من ١٠٠٤ م حتى ١٠٠٥ م (٣٩٥ هـ) ، توفي عام ١٠١٢ م (٤٠٢ هـ) .

– « أحمد بن نكوان » ولي للمرة الثانية من ١٠٠٥ م إلى ١٠١٠ م ، توفى عام ١٠٢٣ م (٤١٣ هـ) .

– أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن وفيض » عُين في ١٠١٠ م (٤٠١ هـ) ومات في السجن عام ١٠١٤ م (٤٠٤ هـ) . وظلت قرطبة دون قاض حتى تعيين هؤلاء : –

– «أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر» ، من ١٠١٦ م (٤٠٧ هـ) إلى ١٠٢٨ م (٤١٩ هـ) . توفى عام ١٠٣١ م (٤٢٢ هـ) .

– « أبو الوليد يونس بن عبد الله بن الصفّار » من ١٠٢٨ م حتى وفاته عام ١٠٣٨ م (٤٢٩ هـ) .

(٨٦) ابن سهل « الأحكام الكبرى (fol. 2 v ; ms. de Argel.for 4r) ، مذكور في :

Bruno y Gaudefroy- Demombynes : le livre des magistratures d' el Wancherisf, págs. 8-9, nota I.

(٨٧) المرجع السابق : « إنما كان يحكم صاحب الرد فيما استغربه القضاة وردوه عن أنفسهم » .

(٨٨) انظر :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, págs. 91-92.

- Tyan : Org. jud., II, p. 350 y nota I.

(٨٩) انظر : ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » ، ١٢٩٩ .

(٩٠) المرجع السابق ، رقم ٨٢١ .

(٩١) المرجع السابق ، رقم ٧٢٢ .

(٩٢) انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، رقم ٦٣ .

(٩٣) المرجع السابق ، رقم ١٣٩٩ .

(٩٤) انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 281-288.

وعن هيئة المظالم في إفريقيا الحفصية ، انظر :

- Brunschvig : Berbérie orientale, II, págs. 143-146 .

(٩٥) العرض الكامل لمفهوم « المظالم » في الإسلام نجده في المرجع التالي :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 141-288.

(٩٦) المقريزي « خطط ... » الجزء الثالث ، ص ٣٣٦ : ذكره Tyan في المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٩٧) انظر : ابن عذاري « البيان المغرب » (الجزء الثاني ، ص ٣١٠ – ٣١١ في النص الأصلي ، ص ٣٨١ – ٣٨٢ في الترجمة) – المقري « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٦٧ .

(٩٨) انظر : ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١١٧ .

(٩٩) المرجع السابق ، رقم ١٦٧٣ .

(١٠٠) المرجع السابق ، رقم ١٧٠٠ .

(١٠١) انظر :

Julian Ribera : Orígenes del Justicia de Aragón, Zaragoza, 1897 .

(١٠٢) عن هذه الهيئة القضائية ، انظر :

- R. Fawtier, en Hist. Du Moyen Age de Glotz VI, 1ª Parte, págs. 168-169.

- Aguado Bleyé : Man. Hist. Esp., I, págs. 905-906.

(١٠٣) انظر

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, pp. 181-185

وبالنسبة للعالم الإسلامي ككل ، انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 436-484 .

(١٠٤) النص العربي نشره ليفي بروفنسال مصحوباً بمقدمة في :

Journal Asiatique, t. CCXXIV, 1934, págs. 177-299.

تحت عنوان :

- Un document sur la vie urbaine et les corps de métiers à Seville au début del XII siècle : Le traité d'Ibn Abdun .

وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية ليفي بروفنسال عام ١٩٤٧ (باريس) .

أما ترجمته إلى الإسبانية فقد قام بها إميليوجارثيا جومث وظهرت في مدريد عام ١٩٤٨ تحت عنوان :

Sevilla a comienzos del siglo XII

(١٠٥) نشره مع مقدمة له كل من G. S. Colin وليفي بروفنسال تحت عنوان :

– Un manual hispanique de hisba : traité d' Abu ' Abd Allah Muhammad b. Ali Muhammad as- Sakati sur la surveillance des corporations et la repression des fraudes en Espagne musulmane, Paris, 1931 .

(١٠٦) انظر ابن الفرضي « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٣ ، ١١٠٥ ، ١٦٥ .

(١٠٧) يبدو أن مصطلحي « صاحب السوق » و « المحتسب » ظلا يطلقان دون تفرقة خلال فترة طويلة في إسبانيا على القائم بالتفتيش على الأسواق . يخبرنا ابن بشكوال (كتاب الصلة ، رقم ٦٧٥) في الترجمة التي أعدها لعبد الرحمن بن مشّات (المعاصر للمنصور) أن الحسبة في زمنه كانت لاتزال تعرف باسمها القديم : (أحكام الحسبة المدعوة عندنا بولاية السوق) .

(١٠٨) عن هذه الهيئة في العالم الإسلامي ، انظر :

- Tyan : Org. jud., II, págs.. 319-328 .

(١٠٩) ابن عذارى « البيـان المغرب » ، الجزء الثـاني ، صـ ١٧٣ (١٦٧) فـي النـص ، ص ٢٧٧ في الترجمة .

(١١٠) ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، رقـم ١٩١ . يتضح مـن فـقـرة موجـزة وردت في « التكملة » (رقم ١٣٦) لابن الأبار ، أن أفراد العائلة المـالكة كانت لهم أثناء عصر الخلافة إدارة خاصة للمواريث .

(١١١) انظر :

- G. Wiet : Materiaux pour un corpus Inscriptionum Arabicarum, 1° partie, Egypte, II, fasc. I, Cairo (M. I. F. A. O. t. III), págs. 51-62.

- Tyan : Org. jud., II, pags.. 352-435.

(١١٢) انظر :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, págs. 88-93 .

(١١٣) ابن حيان « المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 142 vo) : « أحكام الشرطة المسماة عندنا بولاية المدينة » .

(١١٤) في فقرة أوردها المقرى « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٣٥ – ٣٦ .

(١١٥) ابن خلدون « المقدمة » ، ترجمة Slane, II, págs. 35-36 .

(١١٦) انظر إشارة « البيان » لابن عذارى في :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, p. 90 .

(١١٧) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ملاحظة ١ .

(١١٨) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ملاحظة ٢ ، ٣ .

(١١٩) انظر :

- Lévi -Provençal: Inscriptions arabes d'Espagne, num. 30, pp. 37-38.

(١٢٠) انظر : ابن عذارى « البيـان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ٣١١ (٢٨٩) في النص الأصلي ، ص ٤٨٢ في الترجمة . المقرى « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ .

(١٢١) انظر :

- Lévi -Provençal: Esp. Mus. X° siècle, p. 90 y notas 7 a 12 .

(١٢٢) المرجع السابق ، ص ٩٤ ، الملاحظات من ١ إلى ٤ .

(١٢٣) طبقًا لابن حيان (« المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 142 V°) فإن « والي المدينة » كان يتلقى في عصر عبد الرحمن الثاني راتبًا شهريًا قدره ١٠٠ دينار .

(١٢٤) بالإضـافـة إلى مـصـطلح (Zalmedina) فـقـد كان يعـرف أيضًـا بـ (Alcalde) ، والكلمـة الأخيرة مشتقة من كلمة al-qadi العربية ، انظر :

- L. G. De Valdeavellano : Hist. de Esp., I, pág. 952 .

(١٢٥) عن العقوبات الجنائية فى الشرق خلال العصر نفسه ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, pags. 439-448 .

(١٢٦) لابد وأن تكون عقوبة السجن المؤبد هى نفسها التى يطلق عليها مؤرخو الحكم الأول « الدويرة »
(al-Duwaira).

(١٢٧) طبعة :

- Ed. Kramers, I, p. 113, lineas .

(١٢٨) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 74-78 .

(١٢٩) انظر : ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثالث ، ص ١٢٢ (بالنسبة لقتلة على بن حمُّود)
وصفحتى ٧٣ - ٧٤ (بالنسبة للتمثيل بجثة عبد الرحمن شنجول) .

(١٣٠) كثيراً ما كانت تُثبت رأس الذى نُفذ فيه الإعدام فى طرف رمح ويتم الطواف بها فى أنحاء المدينة . انظر - على سبيل المثال - « نفح الطيب » المقرى ، الجزء الأول ، ص ٢٧٤ .

(١٣١) انظر - على سبيل المثال - وصف المؤرخين لصلب ابن حفصون وولديه فى :

Crónica de al - Nasir, p. 58 .

والنص الأكثر تعبيراً فى هذا الشأن نجده فى « طوق الحمامة » لابن حزم ، طبعة :

Pétrof, p. 126; traducción García Gómez., p. 268 .

[lévi-provençal, en relisant le " collier de la colombe " en Al-Andalus, XV, 1950, p. 358, n. I in fine] .

وفيه يقول عن المولى (*) الذى ظفر به محمد المهدى وأمر بصلبه : « فلمهدى به مصلوبًا فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل » .

(*) المولى المقصود هنا هو « خلف » ، مولى يوسف بن قمقام (القائد الشهير) ، وقد أورد ابن حزم قصته على هذا النحو :
« فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور ، كان مع هشام بن سليمان بن الناصر ، فلما أسر هشام وقُتل ، وهرب الذين وازروه ، فرّ خلف فى جملتهم ونجا ، فلما أتى القسطلات لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة ، فَكَرَّ راجعًا ، فظفر به أمير المؤمنين المهدى ، فأمر بصلبه فلمهدى به مصلوبًا فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل » .

ابن حزم « طوق الحمامة » ، تحقيق د. الطاهر أحمد مكى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ط ٥) - المترجم .

الفصل الرابع

المجتمع الأندلسى

عناوين الفصل الرابع :

١ - خصائص سكان إسبانيا الأموية :

العدد التقريبى للسكان - توزيع السكان . .

٢ - تركيبة السكان المسلمين :

العناصر الوافدة (البربر) - العناصر الوافده (العرب) - العناصر الوافدة (السود والصقالبة) - المسلمون الجدد من الإسبان - امتزاج السلالات وتخلق النموذج الأندلسى .

٣ - هيكل المجتمع الأندلسى :

الطبقات الاجتماعية (الخاصّة) - العائلات الكبيرة لأصحاب المقام الرفيع - الطبقة الوسطى وعامة الحضر - الطبقة العاملة فى الريف ونظام توزيع الأراضى - الرقيق ، العتقاء والموالى .

٤ - الذميون فى دولة الخلافة الأموية :

المستعربون - اليهود .

١ – خصائص سكان إسبانيا الأموية

العدد التقريبي للسكان :

عندما تتم فى المستقبل دراسة الوثائق المتعددة التى تحتوى عليها السجلات الموجودة بشبه جزيرة إيبيريا والمتعلقة بالفترة الأخيرة من « حرب الاسترداد » أو ما يليها مباشرة ، ربما نتعرف وقتها بشكل دقيق نسبيا على تعداد سكان ممالك إسبانيا المسيحية وخاصة مملكتى « نبرة » و« رغون » فى القرن الرابع عشر والخامس عشر (١) .

أما بالنسبة لإسبانيا الإسلامية فى العصر الأموى وعصر الطوائف أو فى عصور تبعية الأندلس لامبراطوريتى شمال أفريقيا البربريتين ، فإن بحثًا من هذا النوع يبدو عديم الفائدة لأن تقاعس الجغرافيين العرب فيما يخص المادة الديموجرافية قد حرمنا من أقل القليل من البيانات الإحصائية ، لقد تم تقديم رقم جزافى دون شك (٢) لسكان إسبانيا الرومانية خلال القرن الميلادى الأول ، وهو ٦ ملايين ، ولابد أنه وصل إلى تسعة فى عهد « ماركو أوريليو » ليعاود الارتفاع بعد ذلك فى العصر القوطى نتيجة لقدوم جماعات المحتلين البرابرة ، لكن ، إلى أى رقم وصل – بعد عدة قرون – مجموع سكان الأندلس ، بما فيها الثغور ، أثناء عصر الخلافة الأموية ؟ لا نجرؤ على تقديم رقم محدد ونقتصر على الظن بأن ذلك الرقم يمكن أن يكون مساويا – بفارق بضع مئات من الألوف – للرقم الخاص بإسبانيا القوطية فى بداية القرن الثامن ، ذلك لأن الزيادة المتمثلة فى إقامة الغزاة المسلمين بشبه الجزيرة توازى تقريبًا النقص الناجم عن نزوح أفواج من المستعربين إلى الأراضى المسيحية فى الشمال تلبية لنداء ملوك أشتوريش وليون لإعادة تعمير « الأراضى الخالية » الواقعة على تخومهم الجنوبية مع الدولة الإسلامية .

قد نقع فى محظور آخر لو أردنا تقديم نسبة تقريبية بين عدد سكان الأندلس المسلمين وبين مجموع السكان الذميين (المسيحيين واليهود) ، وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد هو أن عدد الذميين المستعربين قد تناقص بمرور الوقت وبفعل الدخول فى الإسلام بنفس القدر الذى ارتفع به عدد المسلمين الجدد أو المولدين .

وبما أن معلوماتنا عن الطبقة الريفية العاملة هى فى غاية التشوش كذلك ، فإننا لا نستطيع التكهن حيالها بما إذا كان عدد الفلاحين المستعربين يفوق تعداد المولدين أو العكس .

وفى المدن ، وبالرغم من المساندة العارضة لبعض إشارات علم الآثار ، إلا أن مشلكة الرقم الإجمالى لسكانها واختلاف تعدادهم من قرن لآخر تظل هى الأخرى معلقة فى الهواء دون التوصل فيها إلى حل مقنع ، الشىء الوحيد المؤكد هو أن كل كتلة حضرية كانت تضم بداخلها - سواء فى القرن العاشر أو فيما بعده - مجتمعًا مسيحيًا وآخر يهوديًا يقل عدده بالتأكيد - باستثناء حالات متفرقة-عن بقية السكان ، ومع هذا لا يوجد بيان إحصائى يفيدنا فى تقدير نسبة كل مجموعة بالقياس بباقى المجموعات .

توزيع السكان :

إذا تصدينا الآن لمسألة توزيع سكان الأندلس وكثافتهم فى الأقاليم المختلفة فلن تواجهنا صعوبات تذكر ، ذلك لأن الوضع القائم حاليا يلقى الضوء على صورة الماضى ، فمهما كان حجم التغيرات التى شهدتها شبة جزيرة إيبيريا ، جيلا بعد جيل ، من قدوم أفواج الغزاة والانتقال الجماعى للسكان من مكان لآخر فإن الطبيعة الجغرافية للبلد كانت سيدة الموقف ، وهى التى تحكمت دائمًا فى عملية التوزيع السكانى وكثافتها تبعا لارتفاع السطح وخصوبة الأرض ووفرة مياه الرى ، ومن المؤكد أن المحافظات الإسبانية الحالية ذات الكثافة المنخفضة بالنسبة لمساحتها مازالت تحتفظ بوضعها القديم عندما كانت كورا فى مملكة قرطبة الأموية .

وكما هو الحال اليوم ، فإن المناطق الساحلية وأحواض الأنهار - خاصة نهرى « إبرُه » و« الوادى الكبير » - كانت هى الأعلى كثافة فى القرن العاشر . كانت بساتين « مرسية » والشرق المورقة تتناقض حينذاك وقحولة الهضبة الوسطى الشاسعة ، وكما يحدث الآن أيضًا ، فقد تحكم توزيع السكان - طبقًا للإمكانيات الزراعية للأرض - ليس فقط فى تنظم الملكيات الخاصة ، بل فى انتشار الفلاحين

وتمركزهم فى تجمعات حضرية تضرب بأطنابها فى أعماق الماضى ومازال الكثير منها يحتفظ إلى الآن بآثار الاحتلال الإسلامى .

ومن مجرد النظر إلى التجمعات الحضارية الموجودة اليوم بكثافة فى جنوب وشرق شبه الجزيرة نخرج بانطباع مفاده أن عدد سكانها فى القرن العاشر لم يكن يقل إلا بنسبة ضئيلة جداً عن العصور المتأخرة ، وأن بعض عواصمها الإقليمية (مثل « جيان » ، « الجزيرة الخضراء » و« ألمرية » ، حتى لا نذكر حالة « قرطبة » الواضحة للعيان) كانت تعيش بها أثناء الخلافة الأموية أعداد تفوق بكثير أعداد سكانها حاليًا .

٢ - تركيبة السكان المسلمين

العناصر الوافدة (البربر) :

عرضنا في حينه ، وفى خطوط عامة [٣] عملية احتلال العرب والبربر للأندلس فى القرن الثامن وأسلمتها ، وأشرنا إلى أنه من بداية ذلك القرن (نتيجة لاقتحام جيوش طارق بن زياد وموسى بن نصير للأراضى الإيبيريه وانتصاراتها المدوية فيها) طرأت زيادة ملموسة على سكان شبه الجزيرة (الذين كانوا خاضعين وقتها للنظام القوطى المتعسف) نتيجة لانضمام العناصر الوافدة إليهم : الموجات العربية الغازية علاوة على بربر شمال أفريقيا .

وقد استقر هؤلاء فى المناطق التى استولوا عليها دون نية فى العودة إلى بلادهم الأصلية ، وأعانهم الزواج بإسبانيات على ترسيخ أقدامهم فى الوطن الجديد ، استطاعت الموجة العسكرية الأولى ، بالرغم من محدودية أعدادها ، تغيير القسمات الاجتماعية للأندلس تغييرا جذريًا ، ذلك لأن المنتصرين هذه المرة كانوا دعاة ومبشرين بدين جديد وقدموا للمهزومين فرصة المساواة بهم بمجرد اعتناقهم لهذا الدين ، وتبعت الموجة الأولى موجات هجرة أخرى ظلت تترى خلال ما تبقى من القرن الثامن . وبرغم عدم استطاعتنا حصر أعداد تلك الهجرات بدقة إلا أنها كانت كفيلة نظرًا لأهميتها واستمراريتها بإحداث تغيير سريع وعميق فى التركيبة السكانية لإسبانيا ولمناطقها الأكثر ازدحاما ، ومن جهة أخرى ، فقد سعى المهاجرون الجدد لأسلمة جزء كبير من الكتل السكانية الأصلية ومن طبقة الملاك ذوى الأصول الإسبانية أو القوطية الذين انضووا طواعية تحت لواء النظام الجديد أو أبدوا رغبتهم العارمة فى التصالح معه .

ومن أهم تلك الموجات بالنسبة للهجرة العربية نذكر مجموعة جند « بلج القشيرى » ، ثم المنفيين الأمويين وأتباعهم الذين قدموا لإسبانيا فى السنوات التى تلت تأسيس عبد الرحمن الداخل لإمارة قرطبة الأموية .

أما بالنسبة للبربر ، فقد ساعد قرب شبه الجزيرة على تدفق الهجرات الاختيارية من شمال المغرب ، الطامحة - وبحق - فى العيش فى ظروف حياتية أفضل من

ظروف قراهم المكتظة بالسكان ، خاصة وأن الطبيعة الجغرافية على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق لا تختلف كثيراً عن طبيعة الأرض التي تركوها ، ونظراً لإجبار العرب لهم على الإقامة بالمناطق المرتفعة ، والعيش نتيجة لذلك في ظروف غير مواتية عرضة للجفاف والجوع في السنوات العجاف ، فقد اضطرت مجموعات من هؤلاء البربر للعودة إلى أفريقيا ، ومع هذا يغلب الظن بأن هؤلاء المغاربة كانوا يمثلون في نهاية القرن الثامن ، بالإضافة إلى المولدين ، الأغلبية الساحقة لسكان الأندلس المسلمين ، وتكفي مجرد إطلالة على الخارطة الإجمالية التي أعدها مؤلفون أندلسيون لتوزيع السكان خلال السنوات التي سبقت تأسيس الخلافة القرطبية لكي نعي هذه الحقيقة ، في تلك الخارطة ، إذا نحينا جانبا الأراضي الساحلية (من الطرف الجنوبي الغربي للبرتغال الحالية حتى أقاصي نهر « إبره » الخصيب) ، نجد أن التجمعات السكانية المتمركزة على جانبي مجرى نهر « وادي يانه » (Guadiana) ونهر « التاجه » يتألف معظمها من البربر والمولدين ولا يوجد فيها للعرب سوى مواقع صغيرة متفرقة لأنهم (أي العرب) كانوا يتجمعون فقط في عدد من المدن الهامة ، مثل : « باجه » (Beja) و « ماردة » (Mérida) و « طليطلة » . وتوجد شواهد كثيرة تقطع بأن هذا الوضع كان قائماً قبل قرن من تأسيس الخلافة القرطبية وظل بعدها لقرن آخر على الأقل .

لقد تأسبن بربر الجبل والريف المغربي (الذين لا تفصلهم عن الشاطيء الأندلسي سوى عدة سويعات من الإبحار بالشراع أو المجداف) بسرعة تفوق الوصف ، ونسوا بعد أجيال قليلة استخدام لغتهم الوطنية (« لغة الغرب » أو « اللسان الغربي ») واستبدلوها – دون صعوبة – باللغة العربية وبالرومانثية أيضا .

ومن المحتمل أن اللغة البربرية لم يعد أحد يتحدث بها منذ القرن التاسع ، ولاتوجد أية إشارة تقوض هذا الافتراض المدعم ، بالإضافة إلى ذلك ، بالغياب التام أو شبه التام لأعلام جغرافية تحمل مسميات بربرية (٤) ، كان لابد من الانتظار حتى عصر الديكتاتور العامري لكي نشهد لبعض الوقت في العاصمة الأندلسية ظاهرة غريبة تتمثل في استخدام البربرية إلى جانب العربية والرومانثية (الأعجمية) نتيجة لوجود الكتائب العسكرية المجندة من قبائل زناتة والزيريين الصنهاجيين وطوائف إفريقية أخرى ، وظلت البربرية حية خلال القرن الحادي عشر في عدد من القصور

الإقليمية الصغيرة (خاصة غرناطة) ، واستمرت لبضع عشرات من السنين بعد ذلك حول الحكام اللمتونيين الذين كانوا يمثلون عاهل مراكش المرابطي في إشبيلية وقرطبة وبلنسية .

ومن جهة أخرى ، تجدر الإشارة إلى أن الإقليم الشمالي للمغرب (الذى مون إسبانيا حتى عصر الخلافة بأهم عناصره البربرية) قد خلع رداء بربريته في العصر الوسيط واتخذت مدنه وقراه لهجة عربية قريبة الشبه من العربية الإسبانية المستخدمة في شبه جزيرة إيبيريا (٥) ، وهذا على خلاف التجمع « الريفى » الواقع أقصى الشرق (بالقرب من سهول وهران الشاسعة الملائمة لحياة الترحال) الذى ظل - تقريباً بكامله - وفياً للهجته البربرية .

ونلاحظ أيضاً أن معظم هجرات البربر إلى إسبانيا قد أتت من التجمعات الحضرية وليس من تجمعات الرعاة الرُحَّل أو نصف الرحل الذين يهيمون على وجوهم في المساحات الشاسعة طلباً للعشب والكلأ ، ولذا يغلب الظن بأن مساهمة وسط المغرب في الهجرات البربرية خلال القرنين التاسع والعاشر كانت شبه معدومة ، وأن الفلاحين المغاربة (٦) كانوا هم الذين عبروا إلى الضفة الأخرى من المضيق ليواصلوا ممارسة أنشطتهم الزراعية التي ورثوها عن الأجداد : فلاحة البساتين ، وزراعة أشجار الزيتون والتين والفاكهة ، وتربية الأبقار والماعز ، وصناعة الفحم . وسرعان ما شكل هؤلاء نوعاً من البروليتاريا القروية التي لا تختلف كثيراً عن مزارعي شبه الجزيرة الأصليين من المسلمين الجدد أو المستعربين ، وبمجرد إخماد مراكز التمرد وإحلال السلام الشامل نسوا أصولهم المغربية وانصهروا في كتلة الأندلسيين المسلمين التي زادت تجانساً .

ولسنا بحاجة إلى القول بأنه كان يوجد سكان من أصل بربرى في معظم مدن المملكة الأموية ، وخاصة في قرطبة ، وبالرغم من أن معظمهم كان يمارس مهناً متواضعة إلا أن بعضهم تميز فى العلوم الشرعية وأصبح من الفقهاء المشهورين ، ونذكر على سبيل المثال اثنين فقط : يحيى بن يحيى الليثى ، الذى أدخل المذهب المالكى فى إسبانيا أثناء ولاية الحكم الأول ، والقاضى « منذر بن سعيد البلوطى » الذى عاصر الخليفة الناصر ، كما عمل عدد منهم في الإدارة المركزية للخلافة ، ووصل آخرون إلى أعلى الرتب العسكرية وتقلدوا منصب الوزارة . وإلى جوار تلك

الشخصيات الشهيرة التي لا تخفي – في الغالب – أصولها البربرية ، يوجد رجال قانون آخرون وبرجوازيون أثرياء تتخفى أصولهم الأفريقية – البعيدة أو القريبة – تحت أسماء عربية نتيجة لرابطة الموالاة ، وبعد اندماجهم في الشعب الأندلسي لم يكونوا أقل من غيرهم في التمرد والعصيان ، بصحبة مواطنيهم من ذوي الدم العربي أو الإيبيري ، ضد القادة المغاربة والأفارقة (بالرغم من وحدة الجنس والسلالة [٧]) الذين جلبهم العامريون خلال النصف الثاني من القرن العاشر (فترة القلاقل التي سبقت انهيار الخلافة القرطبية) .

العناصر الوافدة (العرب) :

تمدنا صفحة غير منشورة لمؤلف أندلسي مجهول – نقلتها إحدى التراجم القديمة للعائلات الفاسية الشهيرة [٨] – بمعلومات غاية في الأهمية عن الأصول العريقة للمجتمع الأندلسي وعن التخصصات المهنية أو الزراعية لكل فرقة من الفرق التي يتألف منها المجتمع الإسلامي في نهاية عصر الخلافة . وطبقا لذلك المؤلف ، فإن الشعب المسلم كان يتألف من أربعة أجناس : البربر – الوافدين من المغرب وإفريقيا – المسيحيين الإسبان المعتنقين للإسلام ، اليهود المعتنقين للإسلام وفوق هؤلاء جميعا العرب ويمثلهم الهاشميون (نسبة إلى بني هاشم ، قبيلة الرسول) ثم بقية القبائل العربية بفروعها المختلفة (شراذم) ، وإلى كل طبقة من هذه الطبقات تنتسب مجموعات – تقل أو تكثر – من « الموالي » أي العتقاء والأشياع .

وكما تذكر نفس الوثيقة ، فإن العرب المقيمين بإسبانيا ينتمون لبلاد متعددة : الحجاز ، واليمن ، والعراق ، وسورية ، ومصر ، وليبيا ، وإفريقيا ، والمغرب ، حتى بلاد السوس (Sus) البعيدة ، وكان هؤلاء العرب يتجمعون في المدن الهامة ، ويتفادون بقدر الإمكان الأعمال المتواضعة قليلة الشأن ، ويحتلون الوظائف بمكاتب الدولة وهيئة القضاء ، كما اتجه آخرون منهم إلى قطاع الأعمال الحرة أو إلى الاستثمار في الأراضي الزراعية .

لاشيء مما سبق يخفى علينا ، وتكفي مجرد نظرة على الخريطة السكانية لإسبانيا المسلمة في نهاية القرن التاسع لندرك أن العرب الوافدين قد اغتنموا الفرصة بالإقامة في المناطق الغنية الخصبة التي حبتها الطبيعة بجميع المزايا بالأقاليم الساحلية أو التالية لها بجنوب وشرق شبه الجزيرة ، حيث تملكوا أجود الأراضي التي وفرت لهم عائداتها العيش في بحبوحة داخل ضياعهم الريفية أو بالعواصم الإقليمية

أو فى المدن الكبيرة مثل إشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، أو فى العاصمة ذاتها خلال القرن العاشر مفتونين بمباهج الحياة الفخمة التى يحياها الأثرياء فى مقر البلاط الخلافى .

فى ذلك العصر تلاشت بالكامل ظاهرة التناحر بين العشائر العربية (التى غطت كما رأينا – شطراً كبيراً من حياة الأندلس السياسية ، سواء فى عصر الولاة أو فى عصر الإمارة الأموية) ، وأخمدت حمية عبد الرحمن الثالث ، شيئًا فشيئًا ، نزوات التمرد وعنف ردود أفعال الزعماء العرب المشكوك فى ولائهم حتى ذلك الوقت ؛ ومثلما جرى مع البربر ، فسرعان ما تأسبن العرب بمضى الوقت ، برغم عدم نسيانهم التفاخر بالانحدار من « البلديين » أو « الشاميين » لأن هذه النبالة تخول لهم – من وجهة نظرهم – معاملة خاصة من جانب الذين يمسكون بمقاليد الحكم . لكن بالرغم من تشبث هؤلاء العرب بمسمياتهم العرقية وحديثهم المستمر عن قبائلهم وعشائرهم وعما إذا كانوا ينتمون إلى الجماعة القيسية أو اليمنية ، فمن الواضح – كما يذكر صراحة المؤرخ ابن غالب (٩) – أنهم لم يستطيعوا الحفاظ على نقاوة دمهم العربى لاقترانهم منذ بداية الفتح بالنساء والمحظيات الأجانب ، وعلى هذا يمكن القول بأن العروق التى كان يتباهى العرب بنسبتها فى القرن العاشر إلى القيسية أو اليمنية كانت تجرى بها دماء أوروبية وإفريقية (وحتى سوداء) أكثر من الدم الأسيوى .

وقد قرر المنصور بن أبى عامر (وعربيته لا تقل عن الآخرين) القضاء قضاء مبرما على نبالة الدم لما تمثله من خطر على النظام الحاكم حينما ساوى بين العرب ومواليهم وبين بقية الأندلسيين فى الحقوق والواجبات العامة ، وألغى نظام « الجند » القديم (المتهالك حينذاك)بما يتضمنه من مزايا ، لقد كان العصر مناسباً –دون شك – لإحداث إصلاح جذرى كنا بحاجة إلى معلومات مستفيضة عنه ، إذا كانت عصبية العرب الأندلسيين لم تفقد – منذ تأسيس الخلافة . على الأقل – ما تبقى لها من روح عدوانية ، فلنا أن نتخيل مدى ما أحدثته قرارات المنصور الثورية من ردود أفعال عنيفة ، وعما قريب ستتحول العصبية العربية – نظراً لبعض الأحداث – إلى مفهوم جديد للاتحاد وستنتصب مكانها العصبية الأندلسية فى مواجهة العناصر الجديدة الوافدة إلى شبه الجزيرة ، ونعنى بهم الصقالبة والمرتزقة البربر على وجه الخصوص ، وعندما تخور قوى الخلافة وتصبح إسبانيا المسلمة ، لما يقرب من قرن ، مسرحاً

للانقسامات المريعة لن نجد من بين « الأحزاب » المتصارعة حزباً واحداً يقوم على العصبية العربية ، سنجد طائفة أندلسية وطائفة بربرية وطائفة صقلبية ، ولن نعثر على طائفة عربية واحدة (١٠) .

لا نعتقد في صحة ما أورده ابن خلدون في مقدمته (١١) من أن الضعف والتلاشي بعد ذلك لروح العصبية العربية الأندلسية كان السبب الرئيسي لتدهور الخلافة الأموية وسقوطها في السنوات الأولى من القرن الحادى عشر ، ومرة أخرى تكذب بيانات التاريخ الفعلية التعميمات النظرية للمؤلف المغربي الكبير الذى اعتمد على معلومات مضللة عن الحوليات الإسبانية / الأموية ، حتى عن تاريخ أجداده الذين ثاروا في إشبيلية ، في نهاية عصر الإمارة ، بالتعاون مع عائلة « بنى الحشاش » إلى أن أعادهم عبد الرحمن الثالث إلى جادة الصواب .

كان مُوَلَّد من أصل إسباني صرف (ابن حزم) هو الذى قام في القرن الحادى عشر بالحديث (في جمهرته) ليس فقط عن الأصول العرقية التى تنتمى إليها الجماعات العربية الرئيسية ، بل عن أماكن إقامتهم في كور الأندلس المختلفة وثغورها أيضاً . كما فعل الشيء نفسه بالنسبة لتحديد مواقع البربر وبعض مجموعات المولدين الهامة ، وخاصة « بنى قاسي » . ويدفعنا ما سبق ذكره لطرح السؤال التالى : ألم يكن يدور بخلد ابن حزم إبطال مزاعم بعض العائلات الأندلسية الشهيرة بالانتساب إلى أصول عربية خالصة عندما أغفل ذكر أسمائهم في العمل المشار إليه ؟ يمكننا ، من جهة أخرى ، تفسير مشروع ابن حزم (الذى لم يخن أبدا قضية الأمويين ، أولياء نعمته) على أنه أثر أريد به تمجيد شأن المروانيين في إسبانيا وتحسين صورتهم - المنهارة حينذاك - والإعلاء ، بالتالى ، من قدر العرب الباقين بشبه الجزيرة (١٢) ، على أى حال ، فإن البيانات التى قدمها لنا - شأنها في ذلك شأن بيانات ابن غالب المتأخر عنه - ليست وافية ، وقيمتها كانت ستتضاعف ، بالفعل ، لو جاءت مصحوبة بتقديرات عددية حتى ولو كانت تقريبية ، ومع هذا سنظل ندين بالشكر لمساهمة ابن حزم القيمة في دراسة سكان شبه الجزيرة أثناء عصر الخلافة ، فالمعلومات التى ذكرها عن المجموعات شديدة التحفظ - مثل « البلويين » الذين قاوموا التحدث بالرومانثية وظلوا أوفياء للغتهم وحرصوا على التزاوج فيما بينهم (١٣)- تلقى الضوء على التاريخ الاجتماعي للأندلس والذى أغفلته تلك المدونات القاحلة الخالية من نبض الحياة والتى لاتُجيد سوى الحديث عن الأمير الحاكم وأفراد حاشيته المقربين .

العناصر الوافدة (السود والصقالبة) :

مازال في بوتقة السلالات الغريبة لقرطبة القرن العاشر متسع لعنصرين أجنبيين على طرفي نقيض في الجنس واللون : الزنوج السودانيون والصقالبة ، كان بعضهم خصيان لخدمة الحريم والبعض الآخر مرتزقة في الحرس الخاص بالخليفة ، وبالرغم من جلبهم كعبيد إلا أن الصقالبة كان بوسعهم - من خلال العتق - التمتع بحقوق الأحرار والزواج والإنجاب إن سلموا من الخصي .

تطلق الوثائق العربية على السود المجلوبين من « بلاد السودان » المسمى الشائع « عبيد » (مفردها : عبد) . وعلى ما يبدو ، فقد استعان الحكام الأمويون في كل العصور - خاصة في عهد الحكم الثاني - بالسود في حرسهم الخاص ، الذي كان يختار بعناية ويسلح بأفضل المعدات كما تشهد بذلك عروضهم في حفلات الاستقبال الرسمية أو عند أخذ البيعة ، كان الحرس يتألف من المشاة والفرسان ، وعندما جاء المنصور ابن أبي عامر ضاعف أعداد السود في الحرس ، وجند السودانيين المشهورين بقوة التحمل والركض السريع ليؤلف منهم طائفة من سعاة البريد (رقّاص) كانوا يتبعونه في جميع حملاته .

أما الإماء الزنجيات فكانت أعدادهن في المدن الأندلسية تفوق بكثير أعداد الرجال من بني جنسهن ، وسنرى فيما بعد أنهن كن يتمتعن بشهرة كبيرة في الأعمال المنزلية وأن سادتهم كانوا يفضلونهن كمحظيات ، وفي هذا يكمن سر كثرة الملونين بين أفراد الطبقتين المسلمتين - الأرستقراطية والبرجوازية - خلال القرن العاشر (كما هو الحال في المغرب الآن) ، ولم يكن هؤلاء يشعرون أبداً بالدونية بسبب لونهم لا في العصر الوسيط ولا في أيامنا هذه .

أما بالنسبة للصقالبة ، فقد تحدثنا عنهم كثيراً في المجلد الرابع وتتبعنا وصولهم إلى المراكز المتقدمة في الدولة وتدخلهم المستمر في الشئون السياسية ، ومع هذا تجدر الإشارة إلى الفضائل السياسية والحربية الجمة التي تحلى بها بعضهم وخاصة أولئك « الضباط الكبار » الذين أخلصوا للنظام الأموي وقدموا لساداتهم خدمات لاتقل أهمية عما كان يفعله نظراؤهم للنظام الفاطمي في ذلك الوقت .

ومن بين بضعة الآلاف الصقلبية التى كانت تدور فى فلك الخلافة الأموية كان هناك الكثيرون الذين لم يصيبوا مجداً ولاثروة ويبدوا أنهم لم يندمجوا بما فيه الكفاية فى بقية الأجناس بل احتفظوا – داخل الموزايك السلالى للأندلس – بنوع من التجانس و« الحس الأوربى » بالرغم من إسلامهم الظاهرى وتأقلمهم مع الوسط الاجتماعى الذى استطاعوا احتلال مكانة متميزة فيه . ولهذا السبب ، سارع هؤلاء عند سقوط الخلافة بتكوين طائفة صقلبية بعد تجمعهم من جديد فى الجزء الشرقى من شبه الجزيرية إلى أن آل بهم الأمر إلى الانصهار فى بقية الشعب الأندلسى ؛ ومثل الجماعات النورماندية المتناثرة هنا وهناك ، فقد ساهم الصقالبة – بفضل الدور الاجتماعى الهام الذى اضطلعوا به فى القرن العاشر والحادى عشر – فى إضفاء صبغة خاصة على المجتمع الأندلسى ميزته عن بقية مجتمعات العالم الإسلامى ، بالرغم من روابط الأندلسيين الوثيقة بالشرق وحرصهم على احترامها .

لا يقتصر إطلاق المسمى الشائع « صقالبة » على القادمين من أطراف أوربا البعيدة (الجرمانيين ، والإسكندنافيين أو السلافيين) ، بل يشمل كذلك الأسرى المجلوبين من بلدان قريبة (إفرنجة غسقونيا ولنجدوك والثغور الإسبانية) ، كانت الحملات الحربية تجلب أيضاً الإفرنجيات اللاتى يشتد عليهن الطلب فى قرطبة لبياض بشرتهن وشقرة جدائلهن .

ومن بين الإفرنجيات والأسيرات البشكنسيات كان الأمراء الأمويون يختارون المحظيات المدللات ، اللاتى يتحولن بعد ولادتهن إلى أميرات حقيقات (أمهات ولد) ذوات نفوذ وتأثير ، وعلى استعداد دائماً لتدبير المؤامرات السرية الشائكة بمعاونة الخصيان الصقالبة ، ولم يكن سيل الإفرنجيات يصب فقط فى حريم القصر ، بل كان يصيب منه وجهاء « الخاصة » وأثرياء البرجوازية فى المدن الكبرى حيث يبعن بمثل وزنهن ذهباً ، وكما بَيَّضَت الشركسيات فى العصر الحديث – وبشكل يثير الدهشة – وجوه الطبقات العليا فى المجتمع الإسلامى الشرقى ، فقد ساهمت الفرنجيات القرطبيات – بثقافتهن ورقتهن وعذوبتهن – فى إضفاء طابع خاص ومتميز على المجتمع الأندلسى ، وفى تحسين وضع ومكانة المرأة فيه .

المسلمون الجدد من الإسبان :

عندما تحدث المؤلف الأندلسى (فى النص المذكور عن الأجناس المختلفة لشعب شبه الجزيرة المسلم) عن مجموعة الإسبان التى اعتنقت الإسلام قام بتقسيمها إلى ثلاثة عناصر : المنحدرين عن إسبان خضعوا سلمًا للمنتصرين ودخلوا دينهم واستمروا فى مواقعهم القديمة ، المنحدرين عن إسبان خضعوا عنوة وتحولوا إلى عبيد وقت الفتح ثم اعتنقوا الإسلام وظلوا كذلك فى نفس أماكنهم السابقة ، وعنصر المنحدرين عن مستعربين دخلوا الإسلام بعد الفتح والأسرى المجلوبين بواسطة الحملات العسكرية واعتنقوا الإسلام واستقروا نهائيًا فى الأندلس ، يبدو أن هذا التصنيف مطابق للواقع ، ذلك لأن التحول إلى الإسلام لا يعنى المساواة الكاملة فى الحقوق بين من أسلموا صلحًا وبين من أسلموا نتيجة لحرب هزموا فيها (عنوة) .

يقدم النص المذكور المسلمين الجدد - « المولدين » ، و« المسالمة » أو « الأسالمة » [١٤] - وكان أنشطتهم تقتصر على الزراعة وتربية القطعان ، فى الريف ؛ وفى المدن على المهن والحرف والأعمال المتواضعة .

بالرغم من عدم المصداقية الكاملة لهذه الملاحظات إلا أنها تبرز الدور الهام الذى كان يضطلع به « المولدون » (الكتلة السكانية الأكثر عددا فى المجتمع الأندلسى) فى اقتصاديات الدولة ، كما تشير ، من جهة أخرى ، إلى أنهم كانوا - بجانب المستعربين والبربر - أكثر العناصر الفاعلة وأفضلها تكيفا مع مواصفات الحياة على أرض شبه الجزيرة ، وقد أحسن الأمويون صنعًا عندما أتاحوا الفرصة لتطور هذه الطبقة ، وسمحوا للكثيرين منها بالثراء والاندماج المتنامى فى المجتمع الإسلامى الذى كانت تشكل الأرستقراطية العربية أقلية واضحة فيه . لقد سلك حكام إسبانيا العرب نفس المسلك فى القرن الثامن ، وبهذا الشكل استطاعوا - بمعاونة سكان البلد القدامى - السيطرة على أراضٍ مترامية الأطراف لم يكن بوسعهم توفير القوات اللازمة للاحتفاظ بها ، والتصدى كذلك لانتفاضات شعب كان ينتهز أول فرصة تلوح له ليحاول إزاحة نير الاحتلال عن كاهله .

وهناك ظرف آخر موات للإسلام تمثل فى قسوة النظام القوطى وشدة عسفه بعامة الشعب الإسبانى فى بداية القرن الثامن ، لقد رضى الشعب الإسبانى - كرهًا أو عن طيب خاطر - بالسادة الجدد على أمل خلاصهم من الوضع المزرى والتدابير القمعية التى عانوا منها جيلا بعد جيل .

لقد مَثّل الغزاة بكبرياء وغطرسة المنتصر الذى لايقهر ، لكنهم قدموا لهذا الشعب فرصة حقيقية لتحسين أوضاعه بمجرد قبوله - دون إكراه - اعتناق الدين الجديد ، وقد أعطت سياسة التحول إلى الإسلام - المنفذة بمهارة عن طريق الترغيب لا الترهيب - ثمارها سريعًا وأمدت النظام الأموى ، بمجرد استقراره ، بكتلة هامة من الرعايا المستقيمين ساهمت ، بفضل ولائها وإخلاصها ، فى تحييد بنور الشقاق السياسية بين العناصر الوافدة (العرب والبربر) مرات عديدة ، وفى التصرف كمسلمين غيورين على عقيدتهم أقوياء الشكيمة ، حتى عند احتكاكهم بجماعات المستعربين أو بممالك الشمال المسيحية عند الثغور ، لا يوجد ما يمنع من التأكيد بأن نجم الأندلس إذا كان قد سطع بشدة منذ بداية القرن العاشر فى سماء الإنتاج الفكرى فالفضل فى ذلك يرجع إلى العمق المولدى الكامن فى شعبها وشخصية بارزة مثل شخصية ابن حزم - وغيرها كثير - هى خير دليل على المكانة التى كان يحتلها المسلمون الجدد فى ساحة النشاط الثقافى الأندلسى مع نهاية عصر الخلافة .

وبالطبع فإن المولدين عندما تعربوا شعروا أحيانًا بالرغبة فى إخفاء أصولهم الإسبانية والدخول - من بوابة مصيدة « الولاء » - فى العائلة العربية الكبيرة التى تربطهم بها زيجات لا تعد ولا تحصى ، ودون الذهاب بعيداً ، فقد ادعى ابن حزم نسبته إلى أصول فارسية ، وهذا ما جعل مؤرخًا صارمًا مثل ابن حيان يسخر منه ويتندر [١٥] ، وفى الاتجاه المقابل ، شهدت الساحة الثقافية تَخَلُّق عصبية إسلامية جديدة [١٦] نتيجة لاتهام بعض المولدين بدونية العنصر (ولهذا السبب قام « أبو عامر ابن غرسيه » بتدوين رسالته الشهيرة فى القرن الحادى عشر [١٧]) ، مثلما ساهم عامل الأخوة العنصرية فى تشكيل برجوازية جديدة - زمن الأمير عبد الله - لمواجهة التعسف العربى فى إقليمى إلبيرة وإشبيلية .

ومثلما فعل المستعربون ، فقد ساهم المولدون أيضًا فى تثبيت اللغة الرومانثية (الأعجمية) - المشتقة من اللاتينية المستخدمة من قبل فى شبه الجزيرة - وعملوا على انتشار استخدامها فى كل الأقاليم والعصور إلى جوار اللغة العربية الأندلسية [١٨] . لقد انتهى المطاف بتلك اللغة (الرومانثية) [١٩] - التى كانت تكتب فى المناطق التى استردها المسيحيون بحروف عربية، طبقًا لنظام الخط الأعجمى (Aljamiado) - إلى تبنى عدد كبير من المفردات العربية ، مثلما تبنت العربية فى ذات الوقت كلمات رومانثية لا تقل عدداً ، ويعتبر هذا دليل آخر على الاستخدام المزدوج لكلتا اللغتين فى الأندلس ، وخاصة فى القرن العاشر .

احتفظ كثير من المولدين ذوى الأصول القوطية أو الإيبيرية بألقابهم أو أسماء آبائهم الرومانثية واستخدموها أسماءً لعائلاتهم ، ويمكن - بمساعدة فهارس التراجم الأندلسية - إعداد قائمة طويلة بتلك الأسماء الرومانثية فى العصر الأموى ، وهاهى بعضها على سبيل المثال : « بنو أنخيلينو » و« بنو سابارِيكو » بإشبيلية (٢٠) ، و« بنو قومس » و« بنو كارلومان » ، و« بنو غرسيه » ، و« بنو بارون » ، ... إلخ (٢١) .

وهناك مولدون آخرون مسجلون فى المؤلفات الأندلسية بألقابهم الرومانثية ، وعلى سبيل المثال نذكر الأديب القرطبى المتوفى عام ١٠٠٠ م (٣٩٠ هـ) الذى كان يسمى « إسكوبا » " Escoba " (٢٢) ، ومن جهة أخرى ، ففى الثغر الأعلى - وخاصة فى زمن بنى قاسى - كان كثير من المولدين يعرفون بأسماء لاتينية محرفة إلى العربية (مثل فيليكس المتحول إلى سعيد ، وبيكتور المتحول إلى ظاهر) أو بأسماء من الإنجيل (مثل موسى ، وهارون ، وعيسى) أو حتى بأعلام بشكنسية (مثل فورتون ، لُبّ) .

تجدر الإشارة هنا أيضًا إلى أن أعدادًا كبيرة من العائلات الإسلامية الجديدة اتخذت - أثناء عهد الإمارة القرطبية ، وبهدف تقليد العائلات العربية والبربرية - أسماء أو ألقابًا تحمل فى نهايتها علامة التكبير الإسبانية Un (Ón) : وبهذا الشكل تحول حفص إلى حفصون ، غالب إلى غلبون ، عبد الله إلى عبدون ، الأزرق إلى زرقون ... إلخ .

ونشير فى النهاية إلى أن بعض المولدين كانوا يتباهون بما تحمله أسماؤهم من أصول قوطية : فالكاتب ابن القوطية يدعى نسبته إلى الأميرة سارة ، ويتحدث عدد من فقهاء قرطبة فى القرن العاشر عن انتمائهم للكونت الشهير يوليان ، وبنو قاسى - بدورهم - يدعون أنهم ينحدرون من كونت قوطى .

امتزاج السلالات وتخلق النموذج الأندلسى :

لن نضيف جديدًا لو قررنا أن العامل الحاسم فى الانصهار التدريجى بين العناصر والسلالات المتعددة التى ذكرناها آنفًا يكمن فى الانضمام إلى دين مشترك ، وفاعلية هذا الدين لا تقتصر -مثل بقية الأديان -على توحيد أداء الشعائر والفروض ، بل لأنه (أى الإسلام) يضع لمعتنقيه - بالإضافة إلى التزاماتهم الأخلاقية - مجموعة

مفصلة من الأحكام تضبط إيقاع تصرفاتهم العامة والخاصة فى شتى الاتجاهات . حتى فيما يبدو أنه من توافه الأمور ، ولأنه يحكم حركة الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية ؛ ولأنه يخول للسلطة القائمة مباشرة الإدارة الروحية والحياتية للرعية دون تفرقة على أساس طبقة أو عنصر . وبالرغم من وقوع بعض الحوادث التى لا يمكن تفاديها ، فإنه بمجرد رسوخ العقيدة الجديدة بين غالبية المسلمين الجدد ، أخذت عملية الانصهار لشعب متنافر الأجناس مثل الشعب الأندلسى تتم - بفضل روابط الزواج والمصالح المشتركة - بإيقاع سريع ويكتمل عنفوانها جيلا بعد جيل ، وبشكل أكثر وضوحًا فى المدن عنه فى الريف .

لا مناص من الاعتراف بأن منتصف القرن العاشر قد شهد (فى ظل انتشار السلام السياسى على يد عبد الرحمن الثالث والإخماد التام لبؤر التمرد فى قلب الأندلس) انصهار جميع عناصر الشعب المسلم الوافدة وغير الوافدة بنجاح نجم عنه توازن اجتماعى غير مصطنع كان مؤهلا - دون شك - للاستمرار ردحًا طويلا من الزمن لو لم تنبثق على غير المتوقع - بعد عدة عقود - معاول هدم عجلت بقطيعة لا رجعة فيها بين الأجناس .

على أى حال ، فإن الثقل الواضح للإضافة الإسبانية على كتلة رعايا الدولة القرطبية قد طبع المجتمع الأندلسى ، منذ القرن التاسع ، بطابع شديد الخصوصية أقر به كل الرحالة القيروانيين والبغداديين الذين زاروا شبه الجزيرة ، وبالرغم من عدم إحساس هؤلاء الرحالة بالغربة فى بيئة يتمتع فيها كل ما هو عربى بأفضلية مطلقة ، بيئة تجعل من الثقافة الشرقية أنموذجًا لا يقبل النقاش وتنزل لغة القرآن منزلة عالية لا يطاولها فيها ما عداها من اللغات المحلية ، إلا أن دهشتهم بالتأكيد كانت كبيرة عندما شاهدوا أناسًا مختلفى الألوان والأجناس متآلفين فى الشوارع والأسواق ، يتحدثون لغة واحدة ويعيشون فى تكافل وانسجام مع الذميين المسيحيين واليهود ، المخلصين أيضًا للنظام ، وأيا كانت ردود أفعال هؤلاء الرحالة عند اكتشافهم لوسط غريب بعض الشىء عنهم ، لابد أنهم عابوا على المسلمين الإسبان فتورهم الدينى ووهن تضامنهم مع الروحانيات المثالية فى بقية العالم الإسلامى المتشدد .

لم يكن حبل الصلة الذى يربط قمة صارى الإسلام الإسبانى بزمرة المجتمع الإسلامى المترامى الأطراف متينًا بما يكفى لمنع بزوغ الحس القومى بين زهرة

المجتمع الأندلسى أو - توخيًا للصواب - ولادة حس بالتلاحم والارتباط ببيئة جغرافية معينة ، وربما أيضًا بانكفاء على الذات لا يبتعد كثيراً عن الأثرة . كانت هذه الاتجاهات أو الأحاسيس غير واضحة المعالم فى بدايتها ، لكنها أخذت تتبلور شيئًا فشيئًا عندما سلطت العزلة السياسية للدولة الأموية (فى مواجهة التهديدات العباسية والفاطمية) الضوء على طبيعتها الإقليمية وحبستها فى زنزانة حدودها الطبيعية . يبدو أن المسلم الإسبانى قد بدأ يعى - منذ منتصف القرن العاشر ، على الأقل - طبيعة شخصيته . إنه بالرغم من جذوره الشرقية أو المغربية - أنموذج متفرد ، « أندلسى » تأصل نهائيًا فى أرض شبه الجزيرة ، فى وطن سيذوب فيه عشقًا إلى الأبد حتى عندما لا يعرف الدفاع عنه ويضطر ، أولا ، لتركه يتجرع كؤوس عبودية السادة الأفارقة ، ثم لمغادرته بعد ذلك إلى غير رجعة قبل أن تتمكن من عنقه ربقة «الاسترداد» المسيحى (٢٣) .

لم يكن الأندلسيون يتمتعون بالكثير من مواصفات الرجولة ، كانوا متحدثين عظماء وخبراء فى المماحكة والجدال ، لكن كانت تنقصهم أحيانًا الجسارة الوطنية أو الجراءة مجردة ، استحق جبن بعضهم ووهن تدينه لعنات واحد مثل ابن حيان أو الحكم السلبى لآخر كابن حوقل ، لكنهم ، وبالرغم من ضعف جبلتهم الشعرية وقلة حيلتهم فى استخدام ما لديهم من قلم ، كانوا لا يضاهون فى تنظيم الاحتفالات القرطبية ومسابقات المتعة على ضفتى الوادى الكبير .

استطاعوا التعبير عن إحساسهم بالطبيعة أفضل كثيراً من معاصريهم المشارقة ، لكنهم لم يترددوا مثلهم فى غمر رعاة الفن والأدب بفيض من الإطراء والمديح المبالغ فيهما ، طمعًا فى الحماية أو لكسب لقمة العيش .

لابد أنهم شكلوا ، فى القرن العاشر والحادى عشر ، أنموذجًا متفرداً للمسلم كى يستطيع واحد منهم أن يكتب ضاربًا بتاريخ العرب الأقدمين ومفاخرهم الملحمية عرض الحائط : « دعنى من أخبار العرب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار » ، وأن يتجاسر على الاعتراف - فى صيحة معبرة - بأنه قد غنى عن كافة الأحجار الكريمة « بياقوتة الأندلس » (٢٤) .

٣ - هيكل المجتمع الأندلسى

الطبقات الاجتماعية (الخاصّة) :

فى القرن العاشر كان المجتمع الأندلسى يتألف - قبل انصهاره المؤقت - من عدد من الطبقات الاجتماعية التى تشبه نظائرها فى العالم الإسلامى خلال ذلك العصر : الرجال الأحرار ، الموالى والعبيد - وعلى شكل هرم متدرج يتوزع الأحرار حيث تمثل الأرستقراطية (الخاصة) ذروته والعامة قاعدته .

تضم طبقة « الخاصّة » القرطبية ذوى الأصول العربية ، وبخاصة أولئك الذين يمتون بصلة قرابة - مباشرة أو غير مباشرة - للأمير الحاكم ، لكنهم ينتمون مثله لفرع المروانيين من بنى أمية [٢٥] ، كان يطلق عليهم أحيانًا - للإشارة إلى تمتعهم بنبالة الدم ، طبقا لنظرية « علم الأنساب » العربى - « بنو هاشم » لكن المسمى الذى عرفوا به فى الغالب كان « أهل قريش » ، لو أنعمنا النظر فى إنجاب غالبية الأمراء القرطبيين لعدد وافر من الأولاد الذكور ، سندرك إلى مدى وصل تكاثر « أهل قريش » فى العاصمة خلال فترة الخلافة ، وإلى أى مدى وصل نموهم المضطرد ، كان يفرض لكل واحد من هؤلاء القريشيين (علاوة على تمتعه بالإعفاء الضريبى) معاش (رزق) من خزانة العاهل الخاصة ، ويبدو أن القريشيين - الذين كانوا يمثلون نسبة كبيرة من سكان العاصمة - كانوا بعيدين تمامًا عن الوظائف العامة ، وكان عبء إدارة شئونهم يقع على عاتق « النقيب » ، كان « النقيب » - علاوة على هذا - يعتبر ممثلهم المسئول وحلقة الوصل بينهم وبين الأمير الحاكم [٢٦] .

وعلى فترات كانت تنضم إلى هذه الأرستقراطية مجموعات أخرى من المروانيين القادمين من الشرق للعيش فى كنف قريبهم البعيد ، وقد شهد القرن العاشر قدوم مجموعتين رئيسيتين منهم [٢٧] : مجموعة « العبيدليين » التى أتت فى عهد الحكم الأول ومنحها « قطائع » فى حى « الرقاقين » وحى « سان أثيسكلو » بقرطبة ؛ أما مجموعة « القدريين » فإنها لم تستقر بقرطبة إلى أن جاء عبد الرحمن الثالث وسمح لها بسكنى العاصمة ، متغاضيًا بذلك عن انحدارها من صلب أحد أحفاد الخليفة العباسى « المهتدى » [٢٨] .

في الآثار الوصفية التي تركها لنا المؤرخون الأندلسيون (٢٩) عن الاحتفالات الرسمية التي كانت تعد أثناء عصر الخلافة بقصر قرطبة أو في مدينة الزهراء بمناسبة تولية العاهل أو تنصيب ولي العهد أو استقبال السفارات أو بمناسبة الأعياد الدينية ، كان « أهل قريش » يأتون دائمًا – طبقًا لقواعد البروتوكول – على رأس قائمة المدعويين ، وبعدهم يأتي الوزراء وكبار موظفي الدولة ثم رجال القضاء الجنائي والمدني بزعامة قاضي العاصمة .

وينتمي لطبقة « الخاصة » كذلك شاغلو الوظائف الهامة في الإدارة المركزية « طبقات أهل الخدمة » سواء كانوا من سلالات عربية أو من وجهاء الصقالبة ، وبالتأكيد كان ينتمي إليها أيضًا ، منذ القرن التاسع ، أصحاب المناصب التشريفية الذين تمكنوا بثرواتهم – الموروثة أو المستحدثة – وبما أنفقوا من ذهب من شراء مكان لهم في هذه الطبقة الاجتماعية الأكثر تميزًا في المملكة ، لو أخذنا في الاعتبار أنه جرت العادة في ذلك الزمان على منح الامتيازات فجأة ودون سابق إنذار ، وعلى سلبها بنفس الطريقة من أصحاب المقام الرفيع الذين أمضوا ردحًا طويلا من الزمن في خدمة النظام الملكي ، لأدركنا أن « الخاصة » كانت تمثل أقلية داخل المجتمع الأندلسي ؛ أقلية لاتختار بعناية فحسب ، بل غير مستقرة في الوقت ذاته لاعتمادها – في المقام الأول – على مزاج وهوى الحاكم ، وبمثابة التعويض عن هذا الوضع المتقلب ، فإنها كانت تستأثر – بالمقارنة ببقية طوائف الشعب – بمعظم المنافع المادية والمعنوية ، لقد كان لها الحق في معاملة متميزة من جانب ممثلي السلطة ، وتتمتع فوق هذا – كما رأينا – بقضاء خاص على المستويين المدني والجنائي .

العائلات الكبيرة لأصحاب المقام الرفيع :

لم يكن الدور الذي لعبته العائلات الكبيرة « بيوتات » (التي يتوارث فيها الأبناء عن الآباء المناصب العليا في الدولة) داخل المملكة القرطبية في القرن العاشر يقل عن مثيله في امبراطورية الشرق العربية (٣٠) ، لو تصفحنا المدونات التاريخية وألقينا نظرة على التعيينات بالوظائف الرسمية الهامة ، لوجدنا أن أسماء العائلات المحظوظة لم تتغير منذ القرن التاسع حتى نهاية عهد الناصر ، ومن ثم نستطيع القول إن هناك عددًا محدودًا من العائلات كان يحتكر بالوراثة المناصب المرموقة في الإدارية المركزية.

من بين هذه العائلات التى ذاع صيتها فى عصر الإمارة والخلافة توجد خمس - على الأقل - من أصول شرقية :بنو أبى عبدة ، وبنو حضير (Hudair)، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرؤوف وبنو فطيس ، وقد ربطت هذه العائلات - التى تنحدر جميعها من العرب السوريين أو من الموالى المروانيين - مصائرها بمصير السلالة الحاكمة فى قرطبة منذ زمن طويل (٣١) ، نستطيع فى يسر تتبع المشوار المكلل بالغار لمعظم تلك العائلات من خلال مدونة « عارب بن سعيد » التى تغطى عهد عبد الرحمن الثالث ، وعلى سبيل المثال نرى فى القرن العاشر أصحابا للشرطة وحكامًا للكور من عائلة بنى عبدة ، كما أمدت عائلة « بنى جهور » (وهى فرع من العائلة السابقة) الأمويين بموظفين أوفياء ، لدرجة قيام أحدهم عند سقوط الخلافة - بدافع فرض النظام فى العاصمة التى تناثرت أشلاء وفرقًا ، وإعادة تجميع ما تبقى من شعبها المشوش المضطرب - بتأسيس حكومة صغيرة للجهوريين ظلت قائمة لفترة طويلة من القرن الحادى عشر ، ولم يكن بنو حضير ، وخاصة موسى بن محمد بن حضير وأخاه أحمد ، أقل حظًا من غيرهم بالنسبة للوظائف الكثيرة التى شغلوها ، أما بنو شهيد فكان ممثلهم الأشهر « أحمد بن عبد الملك » أول من تلقب عام ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) « بصاحب الوزارتين » ، وقد خلع عليه الخليفة الناصر هذا اللقب الجديد مكافأة - أو على الأصح ، فى مقابل - مجموعة الهدايا الثمينة التى تلقاها منه ، أما بنو عبد الرؤوف وبنو فطيس فيظهرون دائمًا فى المدونات التاريخية مزينين بالألقاب الرسمية التى تنتمى لأرقى المناصب الإدارية والعسكرية (٣٢) .فى عهد الناصر ، وأثناء احتفاظ الأرستقراطية العربية بالمواقع المتقدمة فى الدولة ، نلمح صعود نجم وجهاء من الموالى مثل الشهير « بدر بن أحمد » الذى انتصر على « أوردنيو الثانى » (Ordoñoll) فى موقعة « ميتونيا » (Mitonia) (٣٣) ، وعينه عبد الرحمن الثالث فى منصب الحاجب وظل فيه حتى وافاه الأجل بعد تسع سنوات (٩٢١ - ٣٠٩ هـ) ، وبعد موته باشر ابناه عبد الله وعبد الرحمن العديد من اختصاصه ، ولكن الفتيان الصقالبة هم الذين أظهرت الأيام قيمتهم وأبرزت مواهبهم فى الإدارة والتخطيط الاستراتيجى ، وهكذا نرى فتيانا مثل « درّى » ، أفلح ، طرفة أو جعفر ، يقدمهم لنا المؤرخون على أنهم أبناء الخليفة بالتبنى . بالفعل ، لقد أعطاهم

الخليفة حريتهم قبل أن يرفعهم إلى أعلى الدرجات الاجتماعية ويساويهم بممثلى البيوتات العربية القديمة ، الذين أحسوا - بالتأكيد - بتقلص العديد من امتيازاتهم المتوارثة نتيجة لهذا الاقتحام الفجائى ، بعد ذلك (فى عهد الحكم الثانى ، وبداية عهد ابنه العاجز هشام الثانى) بزغ نجم المصحفى (الحاجب) ثم منصور المستقبل : محمد بن أبى عامر [٣٤] .

نعتقد أن أصحاب المقام الرفيع هؤلاء - وجميعهم يتحلى بلقب « وزير » ويصرف راتبه - كانت لديهم ثروات طائلة فى شكل مخزون من المعادن النفيسة أو ضياع شاسعة ، كان العاهل يلزم من تظهر عليه منهم أمارات الغنى الفاحش فى مدة وجيزة بكشف حساب تمهيداً لمصادرة ثروته ، لكنهم كانوا يتفادون ذلك بالمسارعة بتقديم جزء كبير من ممتلكاتهم للعاهل قبل التفتيش عليهم ، كانت هذه الطريقة العملية لدرء المصادرة المتوقعة للثروات المجموعة فى وقت قصير بمثابة تقليد متبع - كما هو الحال فى الشرق - بين أصحاب المقام الرفيع القرطبيين .

عندما استأثر المنصور بمقاليد السلطة فى القرن العاشر رجع عبد الملك بن شهيد (أحد أعضاء عائلة بنى شهيد التى تحدثنا عنها) إلى قرطبة ، بعد قضائه تسع سنوات فى منصب الوالى على كورتى مرسية وبلنسية ، وهو يحمل ٤٠٠,٠٠٠ دينار نقداً وأوانٍ ذهبية قيمتها ١٠٠,٠٠٠ دينار ، ومائتين من العبيد الصقالبة ، هذا بخلاف أملاكه من البساتين والضياع التى تحتاج إلى خمسمائة عامل يومياً ، ويضيف المؤرخ الذى أعطانا هذه الأرقام [٣٥] قائلا : إن بيته وخيله فقط كانوا يحتاجون شهرياً سبعين قدحاً من القمح وثمانين حملاً من الشعير ، حسناً : عندما قدم ابن شهيد حمولته الدسمة للمنصور ، لم يكتف الأخير برفض الهبة - بلباقة وأناقة - بل أمر باعطاء ابن شهيد كمية ضخمة من الغلال الموجودة فى أقرب صوامع الدولة [٣٦] .

الطبقة الوسطى وعامة الحضر :

ماذا يبقى لجماهير الشعب من نصيب فى بلد يُجرى فيه بعض المحظوظين الذهب أنهاراً كما رأينا .. لتلك العامة التى لا يتحدث عنها المؤرخون إلا بمزيج من الاشمئزاز والنفور على اعتبار أنها حثالة المجتمع ؟ [٣٧] ، ألا يزال هناك متسع بين

العامة الفظة المضطربة وبين أرستقراطية الخاصة ، لطبقة وسطى يشكل رجال القضاء والتجار والأغنياء قوامها فى المدن ، ويمثلها أصحاب الملكيات الكبيرة فى الريف ؟ .

على السؤال الأخير - وبالنسبة للتجمعات الحضرية ، على الأقل - تجيب النصوص التاريخية بالإثبات ، وعلى هذا ، ففى بعض المناسبات نجد « أعيان » أحياء وأسواق قرطبة (أى التجار الذين استطاعوا - بفضل عائدات أعمالهم - ارتقاء السلم الاجتماعى شيئًا فشيئًا ، ومن المحتمل أنهم كانوا جميعًا من المولدين والمنحدرين عن اليهود المعتنقين للإسلام) يحتلون ذيل قائمة المدعوين ، طبقًا لقواعد البروتوكول .

الشىء الذى لا يمكننا التعرف عليه بوضوح من المدونات التاريخية هو طبيعة دور الطبقة الوسطى فى المدن ، فعلى الرغم من تمتعها فى بعض الأوقات - وبشكل مشابه للطبقة الأرستقراطية - بهيئة شرطية خاصة ، إلا أنها على ما يبدو لم تكن منظمة ، ولم تستفد من أهميتها فى اقتصاديات مجتمع المدينة لكى تطالب السلطة المركزية بمجموعة من اللوائح الخاصة أو بإعفاءات ضريبية معينة ، وفى كلمات أخرى نقول إنها (أى الطبقة البروجوازية أو الوسطى) كانت موجودة بالفعل ، ولكن غير معترف بها رسميًا ، وهذا الوضع لم يشكل أبدًا حجر عثرة فى طريق ازدهارها المستمر أو اضطلاعها بدور حاسم فى التطور الاقتصادى والثقافى للأندلس خلال القرن العاشر .

أما طبقة العامة فكانت تضم الحرفيين وأصحاب المهن المتواضعة وعمال اليومية من البربر والمولدين والعتقاء ، وتمثل - علاوة على المستعربين واليهود من نفس النوعية - قاع المجتمع فى المدن الكبيرة ، ونحن على يقين بأنهم كانوا يعيشون حياة صعبة للغاية نظرا لثقل التكاليف الضرائبية ولكونهم هدفًا للنكايات اليومية من جانب السلطات الحضرية التى لا تثق - ويحق - فيهم ؛ هذه العامة الفظة المتهتكة ، المتحفزة دائما للتمرد والعنف (٣٨) كانت تستحق بالفعل الرقابة الصارمة والضغط المستمر ، كان أول شىء يعنى به الأمراء القرطبيون عند توليهم السلطة هو التأكد من إذعان هذه البروليتاريا الحضرية المتشوقة للعصيان ، ولأن هؤلاء الأمراء كانوا يودون فى نفس الوقت رفع أسهمهم بين أوساط تلك الطبقة فإنهم كانوا يسارعون بإصدار عدد من

القرارات الرحيمة مثل تخفيض حصة الضرائب أو إسقاط المتأخر منها (٣٩) ، يلزم التنويه هنا إلى المفهوم القديم للتوازن فى المجتمع الإسلامى خلال العصر الوسيط والذى لا يمل المؤرخون من تذكرتنا به - وخاصة ابن حيان - إنما ينصرف بكامله تقريبًا إلى الأقلية التى تمارس السلطة أو تتمتع بالثروات العريضة ، وأنه لا يكاد يشمل الأوساط المتواضعة سواء كانت من سكان المدن أو الريف .

الطبقة العاملة فى الريف ونظام (توزيع) الأراضى :

ما زالت وثائقنا عن الطبقة العاملة في القرى وعن سكان الريف الأندلسى بوجه عام (ويغلب الظن الذى لا يعززه حتى الآن سند تاريخى أن معظمهم كان من المستعربين : أى من الإسبان المسيحيين الذين لم يسلموا) فى غاية الشح والعوز . وإذا تصدينا لدراسة هذه الطبقة الاجتماعية والحال هكذا ، فلا مفر من الاقتصار فى معظم الأحيان على مجرد افتراضات ، والتوغل بحذر فى مسالك لم تطرق من قبل إلا لمامًا ، وبما أن دراسة طبيعة حياة طبقة الفلاحين فى عصر الخلافة الإسبانية (٤٠) لا يمكن فصلها عن دراسة قانون العقارات ونظام الملكية الزراعية ، يتعين علينا البدء بالمسألة الأخيرة ومعالجتها فى ضوء ما تسمح به الظروف .

يمكننا القول بأن مسألة توزيع أراضى شبه جزيرة إيبيريا بعد الفتح الإسلامى مباشرة لم تتقدم منذ دوزى (٤١) ، وهو أول من تعرض لها مسترشداً بعدد من المصادر العربية المتفاوتة القيمة ، لكنه لم يعمد - بفطنته وحذره المعهودين - إلى استخلاص أحكام نهائية من تلك المصادر الشحيحة ، ومن جانبنا ، فإن محاولة تكوين رأى بهذا الخصوص تقتضى التعرف أولا على المبدأ الإسلامى الخاص بمشكلة توزيع الأراضى وكيفية تغلبه عليها فى البلدان التى دخلها العرب قبل إسبانيا .

يفرق الفقهاء المسلمون عند حديثهم عن الغنائم المستولى عليها من الأعداء فى الجهاد بين الأملاك المنقولة (المنقولات) وبين الأراضى المحتلة . فالأملاك المنقولة (التى يدخل فيها ، بالإضافة إلى أسلحة ومطايا المهزومين ، الأسرى أنفسهم) « غنيمة » توزع أربعة أخماسها - وبنسب متفاوتة بين الفارس والراجل - على القوات

التي اشتركت في المعركة ، أما الخمس الباقي فلله ، أي للسلطة القائمة ، أو بمعنى آخر للدولة .

وبالنسبة للأراضي المحتلة « فيء » فتؤول بكاملها إلى المجتمع الإسلامي ، وفيها يجب التمييز بين حالتين : الأراضي المحتلة « عنوة » والتي يمكن لشاغليها القدامى الاستمرار فيها بصفة مؤقتة لزراعتها وتسديد حصة سنوية من غلتها للسلطات المسلمة (خراج) ، والأراضي التي استسلم أصحابها للمنتصرين دون قتال من خلال معاهدة « صلح » يقومون بموجبه بتسديد « الجباية » الدورية بالإضافة إلى الرسوم المقررة على الأشخاص (جزية) [٤٢] .

وبالطبع ، فإن قيمة هذه التفاصيل تنصرف إلى الجانب النظري ؛ لأن مبدأ الفصل بين « الغنيمة » و « الفيئ » - من جهة - وبين أراضي « العنوة » وأراضي « الصلح » من جهة أخرى إذا كان قد تم احترامه بالفعل في عصر الفتوحات الكبرى (أي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب) إلا أن المحتلين أنفسهم قد أعرضوا عنه بعد ذلك - على الأقل جزئيًا - لما وجدوا فيه من تشعيب وضآلة فائدة ، وساد لديهم الاعتقاد بأن لهم في الممتلكات العقارية نفس حقوق المنقولات ، ويبدو أن الاتجاه الأخير هو الذي كان سائدًا بعد مضي قرن على فتوحات الإسلام الأولى ، أي عندما جاء الدور على الأندلس .

النص الذي يرجع الفضل في اكتشافه لدوزي ولايزال يعتبر الوثيقة الأساسية المتاحة للتعرف على نظام توزيع الأراضي على المنتصرين إبان دخولهم إسبانيا ، كان محفوظًا لدى كاتب مغربي في نهاية القرن التاسع عشر يدعى « محمد الوزير الغساني » [٤٣] ، وقد احتفظ به قبله مؤلف أندلسي من عصر الطوائف يسمى « محمد بن مزين » [٤٤] ، والأخير أخذه بدوره عن مؤرخ أكثر قدمًا . وطبقًا لتلك الوثيقة الهامة ، فقد قام موسى بن نصير بعد إتمام فتح إسبانيا بتوزيع الأسرى والمنقولات وأراضي السهول على قواته بعد خصم حصة الدولة منها (الخمس) ، وعلى هذا « الخمس » من الأراضي الخاصة بالدولة أبقى الفلاحين الخُلَّص القدماء - كعمال زراعيين - لاستثماره لصالح « بيت المال » . وقد أطلق مسمى « الأخماس »

على هؤلاء المزارعين ، بينما عرف أولادهم وأحفادهم « ببني الأخماس »[٤٥] ، وبالنسبة لبقية المسيحيين الذين كانوا يقيمون بالمواقع الحصينة أو في الأراضي الجبلية العالية فقد سمح لهم موسى بن نصير - طبقًا لابن مزين - بالاستمرار في مواقعهم مع الاحتفاظ بدينهم وبجزء من ممتلكاتهم المنقولة (المنقولات) مقابل دفع « الجزية »، ويضيف المؤرخ نفسه قائلا إنه باستثناء ثلاث مناطق (أراضي «شنترين» (Santarén) ، و « قلمرية » (Coimbra) في الغرب ، وأراضي « مرسيه » في الشرق (وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن المنطقتين الأولى والثانية تمتعتا بنظام خاص شأنهما في ذلك شأن إمارة « تيودمير » في الشرق) فإن بقية مناطق شبه الجزيرة المحتلة بالقوة (ولنا أن نتصور ما تعنيه كلمة « بقية » في بلد يتميز باستواء أرضه) قد وزعها موسى بن نصير بعد خصم الخمس منها ، في حضرة من كان معه من التابعين (أي الجيل التالي لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، على الفاتحين لتصبح أملاكًا خاصة لهم يتوارثونها جيلا بعد جيل .

تعني الإشارة السابقة أن جميع الأراضي « النافعة » في إسبانيا - أي السهول الخصبة الصالحة للزراعة - قد انتقلت منذ بداية القرن الثامن لأيدي الفاتحين ، بينما ظلت أراضي المناطق العالية - أو على الأقل جزء منها - في حوزة الملاك القدامى ، أما الخمس الذي احتفظت به السلطة المركزية فقد استخدم كإقطاعيات للتعزيزات العربية التي قدمت إلى إسبانيا تحت قيادة الحاكم « السمح بن مالك الخولاني » ، أي بعد أعوام قليلة من عودة موسى بن نصير إلى الشرق .

تخبرنا فقرة أخرى من مدونة تاريخية قديمة ، أوردها ابن الخطيب[٤٦] ، أن الجند السوريين الذين جاءوا إلى إسبانيا بعد خمسة وعشرين عامًا من الفتح تحت قيادة « بلج بن بشر القشيري » قد استقروا في أراضي تابعة للخمس .

وإزاء ما تقدم يحق لنا طرح السؤال التالي : هل بقيت بعد ذلك مساحات كبيرة من الأراضي التابعة للدولة (أراضي الخمس) عندما قامت الخلافة الأموية في قرطبة ؟ .. إجابة ابن مزين على هذا السؤال قاطعة ، إذ أكد - اعتمادًا على مؤلف آخر لم يذكر اسمه - قائلا إن أراضي الخمس ظلت دائمًا تزرع لصالح الدولة ، سواء في عصر الحكام أو في العهود الأموية ، وإن كان الأمويون قد استثمروها لصالحهم .

لا يوجد لدينا ما يشكك فى أصالة البيانات السابقة ، ربما تعتمد فى أساسها على الحقيقة التى نسج حولها المؤرخون - كالعادة - الكثير من نتاج خيالهم ، ومع هذا ، فقد رفضها برمتها ابن حزم (٤٧) فى منتصف القرن الحادى عشر ، وإن كان رفضه هذا قد دفع أحد الفقهاء المعاصرين له لنعته بالكذب (٤٨) ، لقد قام ابن حزم بالفعل فى رده المكتوب على طلب لفتوى قضائية (لم ينشر هذا الرد إلا منذ سنوات) بهدم الاعتقاد السائد فى عصره من أن موسى بن نصير هو الذى بادر بتوزيع أراضى الأندلس طبقًا للشريعة الإسلامية واحتفظ للدولة بخمسها ، فى ذلك الرد يعلن ابن حزم أن نظام التملك كان خاضعًا فى وطنه ومنذ بداية الفتح الإسلامى لمنطق القوة دائمًا ، فالمحتلون القادمون من المغرب وإفريقيا ومصر فرضوا سيطرتهم بالقوة على معظم المناطق الزراعية دون الالتزام باللوائح الإسلامية الخاصة بتوزيع الأراضى ، ومن بعد هؤلاء جاء « الجند » السوريون وطردوا - دون سند قانونى - معظم البلديين (العرب والبربر) من الأراضى التى آلت إليهم من عشرات السنين عن طريق الوراثة .

يتضح مما سبق عرضه مدى التخبط فى التعرف على قانون الأملاك العقارية التى قُسمت بمقتضاه أراضى إسبانيا الإسلامية ، ومدى الصعوبة - بالتالى - فى إصدار أحكام عامة عنه ، بالطبع كانت توجد فى القرن العاشر أملاك خاصة بالدولة ، لكن هل هى مُتَمَخِّضَة عن « الخمس » المفروض لها فى بداية الفتح ، أم أنها تتعلق « بمستخلص » الخلافة (أى ملكية العاهل الخاصة) ؟ .. لايوجد لدينا من الوثائق ما يجعلنا نقرر هذا أو ذاك ، كل ما يمكن التكهن به هو : اختلاف نظام تملك الأرض تبعًا لطبيعة الإقليم : فإذا كانت الأرض فى الأقاليم الوسطى مقسمة بطبيعتها إلى قطع صغيرة ، وبالتالى فى أيدى ملاك صغار (معظمهم من البربر أو من أصل إسبانى) ، فإن الوضع كان مختلفًا تمامًا فى الأقاليم الأشد خصوبة وأكثر إنتاجية حيث يملك الفرد الواحد مزارع شاسعة ، إقطاعيات حقيقية كانت تشكل - منذ القرن التاسع ، على الأقل - مصدر ثروات عدد كبير من الأرستقراطية الأندلسية ذات الأصل العربى (الحقيقى أو المنتحل) (٤٩) ، وهذه الضياع الكبيرة ما زالت موجودة إلى أيامنا هذه فى أندلوثية الحالية ، وفى شرق إسبانيا ببساتينه الممتدة ، وفى أراضى طليطلة (المنتجة للغلال) وفى حوض نهر إبره .

كانت المزارع مقسمة إلى ضياع ، وفى كل ضيعة يقيم الفلاحون مع عائلاتهم على مقربة من الأراضى التى يزرعونها ، لم يكن حال هذا العامل الزراعى - الجاثم من غابر الأزمنة فوق أرض لا يمتلكها - يختلف كثيراً عما كان عليه فى العصر القوطى : مجرد فلاح مستعبد (٥٠) يربطه بصاحب المزرعة عقد مزارعة ضمنى لا يستطيع الفكاك منه ، ولم يكن هذا العقد يخول له سوى نسبة ضئيلة من المحصول (الربع أو الثلث أو النصف فى حالات استثنائية) لا تكاد تكفيه هو وأسرته ، مقابل خدمتهم . وبالرغم من أنه كان حراً - أو يعتبر هكذا - إلا أنه كان يكلف ، بالإضافة إلى عمله اليومى ، بالمهام الشاقة ، وخاضعاً للتفتيش والرقابة الصارمة ، ومطالباً فى الوقت نفسه بتقديم عشر ما تغله الأرض لجامعى الضرائب (٥١) ، نعتقد أنهم كانوا يعيشون عيشة متواضعة (حتى لا نقول بائسة) وأنهم فى مقابل هذا كانوا يتمتعون بالحماية الفعلية من جانب سيدهم .

يبدو أن المزارع الأكثر اتساعًا وأعلى إنتاجية فى القرن العاشر كانت من نصيب الخليفة ، كانت ممتلكات الخليفة العقارية (مستخلص) من الاتساع بحيث تحتاج لإدارة عرمرم ، مقرها المركزى بمدينة قرطبة وعلى رأسها « صاحب الضياع » ، وبهذه المناسبة نكرر السؤال السابق : ما هو الحد الفاصل بين هذا « المستخلص » وبين أملاك الدولة ؟ كانت أملاك الدولة تتضخم بلا هوادة نتيجة لإضافة أراضى جديدة باستمرار إليها ، ونقصد بها الأراضى المصادرة من أصحابها لحصولهم عليها بطرق مشبوهة أو لتراجع ولائهم للنظام الحاكم ، كما كانت هناك مزارع أخرى«وقف» تُستثمر لصالح « بيت مال المسلمين » (أى لمؤسسات البر) يديرها « نظار » تحت إشراف القضاة ، أما الأراضى « الموات » فكانت تتبع الدولة طبقًا للقانون ، وكان الخلفاءُ يقطعونها - بقصد إحيائها - لمن يبدى استعداده لاستصلاحها وتوفير العمالة الزراعية اللازمة لاستثمارها (٥٢) .

لاشك أن نظام ملكية الأرض قد أخذ ينحو شيئًا فشيئًا إلى الاعتدال ، وخضعت الملكيات الكبيرة لتوزيع منطقى بين شاغليها ، وهذا بفضل المذهب المالكى المعروف بحساسيته الشديدة لكل ما يتعلق بالتعاقدات وقضايا الملكية ، وخير دليل على تقلص الملكيات الكبيرة كثرة عدد الملاك الزراعيين الصغار الذين كانوا يقيمون فى قرطبة -

كطلاب علم أو رجال قانون – وكانوا يغادرونها على فترات منتظمة (كما يخبرنا كُتَّاب التراجم أحيانا) إلى ضياعهم لمحاسبة الفلاحين وجلب ما يحتاجون إليه من المؤن والزاد .

على أى حال ، يبدو أن المجتمع الريفى – الذى لانعرف عنه فى النهاية سوى القليل بالرغم من تمثيله للعنصر الأكثر عدداً وتماسكاً ومحافظة من بين سكان الأندلس – ظل منذ منتصف القرن العاشر بعيداً عن الهوس السياسى ، وبالرغم من أنه لم يكن مذعنًا بالكامل لقدره البائس إلا أنه كان أسلس قياداً من عامة المدن (٥٣) التى كانت تتضخم عاماً بعد آخر نتيجة لفرار المزارعين المضطرد من الخدمة وهجرتهم إلى المدينة ، لاشك أن الخلافة الإسبانية تدين بجزء كبير من ازدهارها المادى وسمعة منتجات أراضيها فى بقية أنحاء العالم الإسلامى وفى الغرب المسيحى لتلك الطبقة المُهَمَّشة من عمال القرى الزراعيين .

الرقيق ، العتقاء والموالى :

كانت دولة الخلافة القرطبية تضم – مثل بقية الدول الإسلامية المعاصرة لها – بين سكانها عدداً كبيراً من كافة أنواع الرقيق : ذكورا وإناثا ، بيضًا وسوداً ، من أصول أوروبية أو سودانية ، تم جلبهم عن طريق الحملات الصيفية على إسبانيا المسيحية أو القرصنة البحرية أو بالشراء من التجار المتخصصين فى هذا النوع من التجارة .

لدينا كم هائل من المعلومات عن تجارة الرقيق فى حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر ، ندين بالفضل فيه لعدد من الجغرافيين العرب ، خاصة "المقدسى" ، وطبقًا لهؤلاء ، فلم تكن إسبانيا مجرد سوق داخلى كبير لهذه التجارة (٥٤) بل أيضًا مركز تجميع ومعبراً لهذه البضاعة البشرية (من الإماء البيض والخصيان ، على وجه الخصوص) نحو بقية دول حوض البحر المتوسط الإسلامية .

تعرضنا فى المجلد الرابع عند حديثنا عن صقالبة بيت الخلافة لعمليات الخصى كما وصفها المقدسى ، كما أشرنا فى حينه إلى شغف الأرستقراطية القرطبية بالمحظيات الفرنجيات والبشكنسيات دون أن يحط هذا من قدر الإماء السوداوات عند هذه الطبقة ، وأسعار هؤلاء كانت فى الغالب مرتفعة وتصل إلى أرقام خيالية حينما

يتعلق الأمر بشابات تربين وتعلمن في أسبانيا أو الشرق وأصبحن مغنيات أو فنانات ، كانت الإماء تتكيفن بسرعة مع العلائلات اللاتى انضممن إليها مصادفة ، ويتلقين فيها معاملة حسنة خاصة إذا حالفهن الحظ بإنجاب ابن أو عدة أبناء لسيدهن ، وبالرغم من أن المالك كان يعطيهن الحرية فى حياته أو يتمتعن بها نظريًا بعد موته لأنهن أصبحن "أمهات ولد" إلا أنهن عادة ما يبقين مرتبطات بالمحيط العائلى ، دون أدنى رغبة منهن فى العودة إلى وطنهن السابق الذى انقطعت صلتهن به نهائيًا ولم يعدن يذكرن عنه شيئًا محددًا .

كانت أعداد العبيد فى المدن أقل من أعداد الإماء ، لكنهم – على خلاف هذا – يكثرون فى الريف حيث يعيشون حياة صعبة وإن كانت لا تزيد صعوبة – حسبما نعتقد – عن حياة الآخرين من المزارعين الأحرار ، ومعظم العبيد تم أسرهم فى إسبانيا ذاتها أثناء الحملات الموجهة إلى الممالك المسيحية (خاصة فى زمن المنصور) ولم تتمكن عائلاتهم من استرداد حرياتهم إما لعدم اهتدائها لمكانهم أو لافتقارها إلى المال اللازم لذلك ، وبعض هؤلاء الأسرى ينتمى إلى عدد من الأقاليم الأندلسية قبل عودتها إلى حظيرة الدولة وحلول السلام بها ، وهكذا نرى كيف تم بيع عدد كبير من المسيحيين الأحرار زمن تمرد ابن حفصون (٥٥) ، كان هؤلاء العبيد – باستثناء المملوكين منهم للمستعربين واليهود ، الذين كان لهم الحق أيضًا فى شرائهم (٥٦) – يسارعون باعتناق الإسلام على أمل قيام سادتهم بعتقهم ، ولَعلَّنا نذكر كيف أصبح بعض هؤلاء العبيد من الصقالبة والسود حرسًا خاصًا للخلفاء ، وعليه فقد كانوا يتمتعون بميزات يحسدهم عليها الكثيرون من أحرار العامة القرطبية .

وبعد العبيد تأتى مرتبة اجتماعية أخرى يمثلها الموالى ، أى الأفراد الخاضعين للولاء ، علمًا بأنهم لا ينبثقون جميعًا من وعاء العبودية . تتألف غالبية هذه الطبقة من العبيد الذين أعتقهم مالكوهم أثناء حياتهم أو بعد موتهم بموجب وصية ، ويظل العبد بعد تحريره مرتبطًا بمالكه القديم أو بورثته بما يشبه الرباط العائلى الذى يلزمه بواجبات معينة نظير استفادته بالحماية المعنوية ، وتنتقل رابطة الولاء – سواء بالنسبة لمن يمارسها أو الخاضع لها – من الآباء إلى الأبناء ، ويمثل الموالى (سواء المحررون من قيد العبودية أو المولدون الذين دخلوا فى حماية شخص عربى منذ أجيال قريبة

أو بعيدة) نسبة كبيرة من سكان إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر ، وبما أن الموالي كانوا ينتحلون أسماء سادتهم القدامى ، فبمرور الوقت أصبح من العسير التعرف على أصولهم ، ويتحمل كتاب التراجم الأندلسيون جانبًا من المسئولية في هذا الصدد لأنهم عند حديثهم عن بعض الموالي الذين بزوا أقرانهم لم يكونوا يكلفون أنفسهم في الغالب عناء تحديد تواريخ تبني العلائلات العربية لأسلاف هؤلاء المشاهير ولا حتى الإشارة إلى عمداء عائلاتهم الذين نعموا في البداية بمظلّة الولاء [٥٧] ، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد قام بعض العتقاء الصقالبة من حاشية العاهل القرطبي أو من "قهرمانات قصر" العامريين بالانتساب إلى سادتهم القدامى واعتبروهم آباءهم (ومن هنا أطلق عليهم المسمى الشائع "أبناء") أو اتخاذ اسم أمير أو أميرة – أو أي شخص آخر أعطاهم الحرية – كلقب عائلي لهم .

جرت العادة على ترجمة "مولى" (بمدلولها الذي يعني المستفيد من رابطة الولاء) إلى "عتيق" دون التفكير بأنه كان يوجد خلال القرنين التاسع والعاشر – في المجتمع الإسلامي الغربي ، على الأقل – نوع آخر من الرابطة يسمى "اصطناع" ، وبالرغم من أن ابن خلدون عاش في القرن الرابع عشر إلا أنه أشار في مقدمته [٥٨] إلى وجود فارق بين "المولى" و "المصطنع" ، ولكنه لم يوضح لنا أين يكمن هذا الفارق ، كما لم يكلف المؤرخون الأقدمون أنفسهم عناء التدقيق في هذه المسألة ، ربما يفيد في هذا الشأن لو قلنا إن كلمة "مصطنع" العربية [٥٩] مساوية تمامًا للفظة اللاتينية BENEFACTUS [٦٠] ، هل يمكننا ، بالتالي ، سوق افتراض – لا يستند بأي حال على قاعدة صلبة – مفاده أن "الاصطناع" الأندلسي (الذي برهن على وجوده في مطالع القرون الوسطى علم التاريخ العربي / الإسباني أكثر من مرة) كان امتداداً لأحد أشكال الحماية التي عرفتها إسبانيا القوطية بدورها من قانون الحماية الروماني (Patrocinium) ؟ .

وعلى أية حال ، تجدر الإشارة هنا إلى أن لوائح مملكة أشتوريش/ليون قد سجل فيها – أثناء عصر الخلافة القرطبية – نوع متطور من الرابطة التي تصل الطبقة القوية بالطبقة الفقيرة أو المتواضعة : وقد أطلق على هذه الرابطة Benefactoría أو Behetería [٦١] .

٤ - الذميون فى دولة الخلافة الأموية

المستعربون :

كان تاريخ المستعربين [٦٢] هدفًا - داخل أسبانيا ومنذ قرن من الزمان - لدراسة موسعة وعميقة [٦٣] اجتهدت فى تتبع مشوار الجالية المسيحية بالأندلس ، خطوة خطوة ، طوال فترة الهيمنة الإسلامية حتى نهاية "حرب الاسترداد" .

وهناك دراسة أخرى قام بإعدادها علامة أسبانى [٦٤] وإن كان حجم الوثائق بها لم يزد كثيراً عن سابقتها ، ومن جانبنا ، سنكتفى هنا بتزويد القارىء بعدد من الإشارات المجملة المدعومة ببعض البيانات المحددة المفيدة .

أشرنا من قبل إلى عدم قدرتنا فى ظل الوثائق الحالية على وضع رقم تقديرى لأعداد المستعربين فى إسبانيا الإسلامية ، لكن هذا لا يمنع من الظن بأنهم كانوا يشكلون فى المجتمع الريفى نسبة معتبرة أخذت بمرور الوقت تتناقص تدريجيًا نتيجة للدخول فى الدين الجديد أو للهجرة إلى الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة .

معظم البيانات المتوافرة لدينا عن المستعربين فى عصر الخلافة تتعلق بتجمعاتهم بالمدن الرئيسية لملكة الأندلس (مثل طليطلة وإشبيلية وقرطبة) وتوجه جل اهتمامها - كما هو متوقع - لرجال الكنيسة لا إلى المدنيين .

أما بالنسبة لعصر الإمارة ، فإن تاريخهم غالبًا ما يختلط بتاريخ إخوانهم فى اللغة والدم من المولدين الذين لم يكونوا قد تأسلموا بعمق وقتها وكانوا دائمى التمرد على السلطة المركزية ، ومما لا شك فيه أن مستعربى جبال "رندة" و "مالقة" قد شاركوا - مثل المسلمين الجدد (المولدين) بتلك المناطق الجبلية - فى حركة التمرد التى اندلعت هناك خلال الثلث الأخير من القرن التاسع بتحريض من عمر بن حفصون ، صادفت تلك الفترة (التى حكم فيها عبد الرحمن الثانى ومحمد الأول) موجة الهوس الدينى بين أفراد التجمع المسيحى فى قرطبة والتى أدت فى النهاية إلى الاستشهاد التطوعى للكثيرين منهم ، لكن تلت هذا القرن العاصف - عندما تمكن عبد الرحمن الثالث من إخماد نيران الفتنة فى طليطلة (حاضرة المستعربين) عام ٩٣٢م (٣٢٠ هـ) فترة هدوء طويلة لم تشهد فيها الجالية المسيحية ما يعكر صفوها الدينى أو المدنى ، وقد أدى هذا إلى حدوث تقارب بينها وبين النظام الحاكم ، استمر هذا الوضع طيلة عصر الطوائف إلى أن تسبب استيلاء "ألفونسو السادس" على طليطلة وما تبعه من

دخول المرابطين إسبانيا الإسلامية فى الهجرات الجماعية للمستعربين نحو الأراضى المسيحية (٦٥) .

لا يعنى ما تقدم أن الهجرات نحو شمال إسبانيا كانت معدومة قبل هذا التاريخ لأن "ألفونسوالثالث" - كما نعلم - كان قد أغرى جماعات من المستعربين بالهجرة إلى مملكته لكى يعيد بهم إعمار الأراضى التى استولى عليها من المسلمين (٦٦) ، كما أنه استعان عام ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) بالمسيحيين الفارين من طليطلة فى تأهيل ثغر سرقسطة المنيع ، ونفس العاهل هو الذى رحب بأسقف "إيركابيكا" (Ercávica) و "سبستيان" (Sebastian) المطرود من الأندلس وأنزله فى "أورينسى" (Orense) (٦٧) .

وبعد "ألفونسو الثالث" سجلت الوثائق المسيحية هجرة مجموعات من رجال الدين المسيحى إلى أراضى مملكة "ليون" : ففى عام ٩٣٥ م قدم من الأندلس شمّاس يدعى "ألفونسو" بصحبة بعض القساوسة ليؤسسوا سويًا دير "سان فاكوندو" (حاليًا "ساهاجون") ؛ وقبل هذا التاريخ بسنوات قام رهبان قرطبيون - فى ٩١٣ ، ٩١٦ ، ٩٢١ ، على التوالى - بإعادة إعمار ثلاثة أديرة شهيرة ، وهى : "سان ميجيل دى إسكالادا" (الذى يبعد عن مدينة ليون بحوالى ٣٠ كيلو متر جهة الشرق) ، و"سان ثيبريان دى هاثوتى" (الواقع على بعد ١٠ كيلو مترات من شمال غرب بلد الوليد) و "سان مارتين دى كاستانييدا" (وتفصله عن غرب "أسترقة" مسافة كبيرة) (٦٨) ، واستقر حول هذه الأديرة مستعمرون من أصول طليطلية وأندلسية هاجروا متخفين أو فارين من الخدمة فى الحملات العسكرية (ورد على سبيل المثال ذكر رجل قرطبى يدعى "الحكم" كان يعمل فى "ساهاجون" عام ٩٦٤م) (٦٩) ، ثم أخذ إيقاع الهجرة يتنامى مع بداية القرن الحادى عشر ، بدليل كثرة الأسماء المستعربة فى الوثائق الليونية (نسبة إلى مملكة ليون) والقشتالية التى وصلت إلينا ، فى تلك الوثائق نجد ما لا يقل عن ١٨ اسمًا عربيًا لرؤساء أديرة ورهبان وراهبات ، نذكر منها : هشام ، ومالك ، وهلال ، وعبدة ... إلخ (٧٠) ، لم ينعكس هذا "الاستعراب" المتنامى فى مملكتى ليون وقشتالة على الأسماء المحلية فقط بل تعداها إلى مصطلحات المؤسسات ومسميات الأثاث والملابس والحلى ، كما تشهد القوائم المستقاة من سجلات أديرة القرن العاشر (٧١) . إذا كان المستعربون المهاجرون قد أثروا بهذا الشكل فى مملكتى ليون وقشتالة ، فلنا أن نتخيل حجم التأثير العربى فى الجاليات المسيحية على أرض الأندلس نتيجة طول عهد مخالطتها لأصحاب البلاد والمولدين المعتنقين للإسلام ، والدلائل التى لدينا عن هذا التعريب لا تحصى ، ولعل أشهرها ما تركه لنا "ألبارو القرطبى" فى Indicu-lus luminosus .

كان المستعربون يستخدمون مثل المولدين اللهجة الرومانثية الذائعة الصيت ، لكن الكثيرين منهم - خاصة في المدن - كانوا يتكلمون العربية ويكتبون بها ، لو نَحَّينا جانبا الحالة الاستثنائية للقومس (ابن انتونيانو) زمن الأمير محمد الأول ، سنجد في عصر الخلافة جمعًا من الكتبة المستعربين واليهود يعملون في المكاتب المالية التابعة للإدارة المركزية ، لقد شغل بعضهم ولفترات مديدة مواقع هامة ، مما يثبت أنهم لم يتعرضوا طوال القرن العاشر لأيّة بادرة نفور أو كراهية من جانب العاهل ، ولا من جانب الدكتاتور العامري أو الخاصة القرطبية لشدة حرص الجميع على توفير كافة الأسباب المادية والمعنوية لتآلفهم مع النظام الحاكم . لقد سمح هذا التجانس للحكام الأمويين - أيام مجدهم - بتحييد النشاط السياسي لممالك الشمال المسيحية ، كما شجع المستعربين على الحفاظ على ولائهم للنظام ، وإن لم يكن صادقًا في بعض الأحيان .

كان المستعرب بصفته معاهداً ينتمي للطبقة المعروفة بأهل الذمة ، مطالبًا - مثل اليهودي - بدفع جزية سنوية ، كما كان ملزمًا - في القرن التاسع على الأقل (طبقًا لشهادتي "إولوخيو ، ليوبيخيلدو) - بتسديد ضريبة استثنائية مع مطلع كل شهر عربي ، ومن قوائم الإحصاء المُعَدّة أساسًا لتحصيل الضرائب ، يتضح أن الرعايا المسيحيين كانوا مقسمين - داخل كل إدارة إقليمية - إلى مجموعات ، كانت الحكومة المركزية تعين على كل مجموعة منها رئيسًا مختارًا من بين أفرادها يدعى "قومس" ، كما كانت تعين لها أحيانًا محاميًا يتولى الدفاع عنها ، وبالرغم من أن معلوماتنا عن الجالية المسيحية في قرطبة تفوق ما عداها بكثير ، إلا أننا لا نعرف سوى بضعة أسماء لمن تولوا وظيفة القومس فيها (٧٢) ، لعلنا نذكر في هذا المقام الدور الذي لعبه ، في عهد الحكم الأول ، القومس ربيع بن تيودولفو ، وابن القوطية ، من جهته ، يخبرنا باسم "قومس" آخر من القرن العاشر يدعى "أبو سعيد" ، وهو ينحدر مباشرة من الكونت القوطي "أردابستو " (Ardabasto) ، ابن غيطشة (٧٣) ، وفي النهاية يكشف لنا ابن حيان عن "قومس" قرطبة في عام ٩٧١م (٣٦١ هـ) : معاوية بن لبّ .

ولكي يقوم رؤساء الجاليات المستعربة بجميع الضرائب من أفرادها ، فقد كانت تعمل تحت إمرتهم طائفة من الموظفين يطلق على كبيرهم "مستخرج" (٧٤) ، أما بالنسبة للنزاعات التي تنشأ بين المتسعربين ، فقد كان يفصل فيها قاضي خاص بهم (قاضي النصارى" أو "قاضي العجم") ، احتفظ لنا ابن القوطية (٧٥) باسم أحدهم وهو "حفص بن آلبار" (وهو من أحفاد غيطشة أيضًا) . ومن جهتنا نضيف قاضيين آخرين من

عهد الحكم الثانى توافرت لنا بعض المعلومات عنهما : أولهما "وليد بن خيزران" ، الذى قام بمهمة الترجمة لأوردونيو الرابع عندما جاء (عام ٩٦٢م - ٣٥١هـ) لزيارة العاهل القرطبى فى عاصمته ، أما الثانى فهو "أصبغ بن عبد الله بن نبيل" الذى عينه بعد ذلك (عام ١٠٠٤م - ٣٩٤هـ) حاجب القصر العامرى "عبد الملك" حكما للصراع الدائر بين كونت قشتالة (شانجة غرسية) وبين "ميندو جونثالث" الوصى على ألفونسو السادس (ولى عهد "ليون" الشاب) ، هؤلاء القضاء ، الذين طبقوا حرفيًا فى أحكامهم القانون القوطى المعروف باسم (Fuero Juzgo) كانت صلاحياتهم تقتصر على النزاعات التى يكون طرفاها من المستعربين ، لأن النزاع بين المسلم والمسيحى كان يحول إما إلى القاضى أو لصاحب الشرطة ، تبعًا لنوعية القضية [٧٦] .

لا شك أن التجمعات الهامة للمستعربين كانت تتألف من طبقات مختلفة تأتى على رأسها طبقة النبلاء بينما تحتل سفحها طبقة الرقيق ، لأن المسيحيين واليهود فى إسبانيا كان لهم الحق - كما رأينا - فى امتلاك كافة أنواع العبيد .

وقد خلدت بعض شواهد القبور ذكرى أصحابها من المسيحيين الأثرياء الذين توفوا فى عصر الخلافة ، ومنها نذكر على سبيل المثال شاهد قبر مات صاحبه فى "أتارفى" (Atarfe) (بالقرب من غرناطة) عام ١٠٠٢م كتب عليه "النبيل ثيبريانو" [٧٧] ، لكن الأرستقراطية الحقيقية داخل مجتمع المستعربين كان يمثلها رجال الإكليروس .

ظل التقسيم الكنسى موجودا فى أسبانيا الإسلامية على ما كان عليه فى العصر القوطى ، وعلى هذا الأساس كانت الأندلس تضم ثلاثة أقاليم حضرية بكل منها مقر مطرانى (نسبة إلى مطرانية) والعديد من الأبرشيات ، والأقاليم الثلاثة هى : طليطلة ، "لوزيتانيا" (Lusitania) و "باطقة" (Bética) ، كانت تتبع حاضرة طليطلة عشرون أسقفية ، بعضها موجود فى شمال العاصمة القوطية القديمة (مثل : وخشمة ، بالنثيا Palencia) ، والبعض الأخر فى شرقها (مثل : بلنسية ودانية وشاطبة وألش Elche) أما الباقى فكان يقع على تخوم أندلوثية (مثل لورقة Lorca ، بسطة Baza) .

أما إقليم "لوزيتانيا فقد كان مقره فى "ماردة" ، ويضم - بالإضافة إلى "شلمنقة" و "قورية" (Coria) - كل الأراضى الجنوبية للبرتغال الحالية : من "قلمرية" (Coimbra) إلى "أكشونبة" (Ocsonoba) .

وبالنسبة لإقليم "باطقة" فقد كان مقره فى اشبيلية وتتبعها الأسقفيات الموجودة فى "إيتاليكا" (Itálica) ، "شذونة" (أو "مدينة ابن السليم" Medina Sidonia) ،

"لبلة" (Niebla) ، "إستجة" (Écija) ، وقرطبة ، و"قبرة" ، و"إلبيرة" ، و"مرتش" (Martos) و "مالقة" .

أما بقية الأقاليم الكنسية لأسبانيا - "طركونة" (فى الشمال الشرقى) ، "براجا" (Braga) «فى الشمال الغربى» - فقد كان معظمها فى نهاية القرن التاسع محرراً من السيطرة الإسلامية (٧٨) .

بالرغم من أن أعداد المسيحيين بالعاصمة الأندلسية لا تقارن بأى حال مع مثيلاتها فى المدن الأندلسية الكبرى مثل طليطلة وإشبيلية ، إلا أننا نتوقع كثرة الحديث عن أبرشيات قرطبة والقائمين عليها نظراً لأن أسقفها كان - بحكم إقامته - يمثل الكنسية المستعربة ويتحدث باسمها أمام السلطة الإسلامية المركزية ، لكن ما حدث هو العكس تماماً ، إذ احتفظت لنا الوثائق باسم مطران طليطلة (خوان) المتوفى عام ٩٥٦م (٧٩) ، وبالاسم العربى للمطران الذى خلفه (عبد الله بن قاسم) فى حين أننا لا نعرف عن قساوسة قرطبة سوى قس واحد من عهد الحكم الثانى يدعى : عيسى بن منصور .

الوحيد من بين وجهاء السلك الكنسى الذى نعرف عنه أخبار أثناء عصر الخلافة هو "ربيع بن زيد" (واسمه المسيحى : (ريثيثموندو) ، ولعلنا لم ننس (٨٠) أنه كان عالمًا مستعرباً قرطبياً يجيد العربية واللاتينية ، وأنه رأس السفارة التى أرسلها عبد الرحمن الثالث إلى ملك ألمانيا "أورودنيو الأول" عام ٩٥٥م ، وتم تعيينه بهذه المناسبة - بناء على رغبة العاهل - فى منصب أسقف "إلبيرة" الشاغر وقتها ، وقد شجع إتمامه المهمة السابقة بنجاح الناصر لأن يرسله - بمجرد عودته إلى إسبانيا - إلى القسطنطينية ، وسوريا لجلب التحف والقطع الفنية التى سيزين بها العاهل مقر إقامته بمدينة الزهراء ، ظل "ربيع بن زيد" يضطلع بدور هام فى عهد الحكم الثانى الذى كان معجباً بمعارفه الفلسفية والفلكية وطلب منه تدوينها فى كتاب (المؤلف المقصود هو "كتاب الأنواع" وسنتحدث عنه بالفصيل فى الفصل التالى) .

يبدو أن منصب أسقف "إلبيرة" الذى أُسند إلى "ريثيثموندو" كان شرفياً ؛ هذا لأن رحلاته المتكررة لحساب الخليفة القرطبى لم تترك له وقتاً ليدير شئون أبرشيته ، على أى حال ، لقد ذكرنا أن تدخل الناصر كان سبب تعيينه أسقفا ، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن أمانة سر الدولة المسلمة كان يُؤخذ رأيها فى التعيينات بالمناصب الكنسية الهامة مثل منصب المطران أو الأسقف .

كان أصحاب المناصب الكنسية الرفيعة يُضيفون لأسمائهم اللاتينية – شأنهم فى هذا شأن القساوسة والرهبان – أسماء عربية كاملة تشتمل على اللقب والكنية .

ظلت الشعائر الدينية تُمارس بنفس طريقة "إيسيدورو" فى العصر القوطى والتى أقرها البابا "خوان العاشر" بعد تمحيصها عام ٩٢٤م [٨١] ، وما تزال تلك الطريقة موجودة حتى الآن تحت مسمى "الطريقة المستعربة" ، كانت مظاهر الفخامة والأبهة المصاحبة لأداء بعض الطقوس الدينية تثير فضول المسلمين الأندلسيين المعتادين على بساطة شعائرهم وخلوها من التعقيدات .

فى بداية القرن الحادى عشر أبدى "أبو عامر بن شهيد" – فى أحد أعماله النثرية [٨٢] – دهشته للحماس الدينى الذى كان يؤدى به المسيحيون إحدى صلواتهم المسائية داخل كنيسة قرطبية مزدانة بأغصان الريحان .

يبدو أن الرأى السائد فى قرطبة مع بداية القرن العاشر (نتيجة لفتوى مجموعة من الفقهاء المسلمين) كان يقضى بالسماح للمسيحيين باستخدام كنائسهم الموجودة داخل المدينة ، وبعدم التصريح لهم ببناء كنائس جديدة إلا خارج الأسوار حيث يعيش المستعربون فى أحياء متجاورة المساكن ومنعزلة عن تجمعات المسلمين السكنية [٨٣] ، ومن المحتمل أيضًا أن القرار الخاص بمنع قرع الأجراس قد أُلغى فى ذلك العصر الذى ساد فيه تسامح نسبى ، لا نجد شيئًا يفيد – بالرغم من بعض التلميحات الشعرية التى يصعب الاعتماد عليها [٨٤] – بأن المستعربين واليهود كانوا ملزمين فى عصر الخلافة بحمل شارة تحقيرية (مثل شريط أو حزام من لون معين «زُنّار») لتمييزهم عن المسلمين ، لقد طالب ابن عبدون فى عهد المرابطين بحمل مستعربى إشبيلية لهذه الشارة [٨٥] ، لكنها لم تُفرض عليهم إلا فى عصر الموحدين .

إذا كانت المدن الكبيرة ، التى ترتفع بها نسبة السكان المستعربين ، مثل طليطلة [٨٦] و "ماردة" وإشبيلية [٨٧] حافلة بالكنائس (البِيَع) ، فقرطبة وضواحيها كانت تضم أيضًا العديد منها [٨٨] : فها هى كنيسة "حى الطرَّازين" التى تضم رفات "سان زويلو" والشمَّاس "سبرنيديو" (Spernaideo) ، وعلى مقربة من "حى الرقاقين" – فى غرب المدينة – توجد كنيسة "سان أثيسكلو" (Acisclo) ، وتلك كنيسة أخرى تسمى "القديسون الثلاثة" ("فارستو" ، "خينارو" ، "مارثيال") تحتل المكان الحالى لكنيسة "سان پدرو" ، وفى سهل العاصمة وأراضيها كانت ترتفع كنائس كثيرة ، نذكر منها : كنيسة "سان مارتين دى تور" وكنيسة "سانتا إولاليا" ، كان ملحقًا بمعظم الكنائس

الموجودة بالأرياض أديرة ، وقد انتقلت بعد ذلك - بسبب التوسع العمراني - إلى سفح الجبل المطل على العاصمة الأندلسية ، وهذا ما جرى مع دير راهبات "كوتاكلارا" (Cutaclara) ، و "بينيا ميياريا" (Peñia mellaria) ، و"تابانوس" (Tábanos) ، و "أرميلات" (Armilat) ، وبالقرب من الدير الأخير - الواقع في وادى نهر " جوادا مياتو" ، بين قرطبة و "القليعة" ، على الطريق المؤدى إلى طليطلة - مات ولدا المنصور بن أبي عامر : عبد الملك المظفر (عام ١٠٠٨م) وعبد الرحمن شنجول في العام التالي .

لا نضيف جديداً لو أشرنا إلى أن المستعربين كانت لهم مدافنهم الخاصة والقريبة ، أيضاً ، من التجمعات العمرانية ، ويبدو أن أحدها كان مجاورا لمدافن المسلمين المسماة "مقبرة متعة" بقرطبة ، صحيح أنه صدر قرار في بداية القرن العاشر (نتيجة للشكوى التي قدمها "محتسب" العاصمة) يقضي بمنع المستعربين من اختراق "مقبرة متعة" بعرباتهم للوصول بموتاهم إلى مدافنهم المجاورة (٨٩) .

في عصر الخلافة وعصر الطوائف اتهم بعض المؤلفين المسلمين المتشددين (من بينهم شعراء) مسيحي قرطبة بالعادات المبتذلة (٩٠) وبتحويل العديد من دور عباداتهم إلى حانات أو مواخير ؛ لكن علينا ألا نأخذ هذا الاتهام على محمل الجد (٩١) لسببين : لأنه نابع من التعصب ، ولأن المجتمع الإسلامي حتى ذلك الوقت لم يكن قد برأ بعد من أنفة الاندماج العفوى مع غيره من الملل .

اليهود :

إذا كانت لدينا معلومات وفيرة عن أحوال اليهود الاجتماعية في إسبانيا القوطية وعن مساعدتهم للمسلمين في فتح شبه الجزيرة ، فإن تاريخهم بين القرن الثامن والحادى عشر لا يحظى منها إلا بالقليل النادر (٩٢) ، لو نحينا جانبًا سلسلة الأخبار الملفقة التي يتشدق بها ويكررها عدد كبير من المؤرخين المعاصرين عن يهود إسبانيا ، فلن يبق لنا سوى النذر اليسير من البيانات الصحيحة التي تتناول تنظيم الجالية اليهودية في أندلس عصرى الإمارة والخلافة والدور الذى لعبته في اقتصاديات المملكة القرطبية ، لا مفر من الوصول إلى الفترة التي تسبق انهيار ممالك الطوائف (نتيجة لاستيلاء ألفونسو السادس على طليطلة وتدخل المرابطين) لكي نستوعب في شيء من الوضوح - على ضوء بعض المصادر العبرية والقشتالية والعربية - الدور الذى لعبه اليهود سواء في إسبانيا الإسلامية أو المسيحية ، ومن بين المصادر العربية تجدر الإشارة إلى "مذكرات" الأمير المخلوع "عبد الله" المكتشفة حديثًا ، والتي تمدنا

بمعلومات جديدة تماماً وفى غاية الأهمية عن نشاط العنصر اليهودى فى مملكة غرناطة الزيرية خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر (وسيكون اعتمادنا على هذه المعلومات كليًا عندما يأتى الدور عليها) .

من الصعوبة بمكان تقديم رقم ولو تقريبى لأعداد اليهود فى الأندلس خلال القرن العاشر أو لمضاهاته بأعدادهم داخل إسبانيا المسيحية ، الشىء الوحيد الذى يمكن التأكيد عليه هو أن أعدادهم كانت تكثر بمعظم المدن الهامة (على هذا الجانب أو ذاك من الحدود الإسلامية) وأنهم كانوا يعيشون فى أحياء سكنية خاصة بهم ، فى طليطلة - على سبيل المثال - كانوا يقيمون بعيداً عن التجمعات المسلمة والمستعربة فى منطقة تسمى "مدينة اليهود" ، وطبقًا لأحد المؤرخين العرب ، فقد قام "مهاجر بن القتيل" (المنشق على السلطة الأموية) بحصار تلك المدينة عام ٨٢٠ م (٢٠٤هـ) [٩٣] .

قبل تدهور "إلبيرة" (عاصمة الكورة المسماة باسمها) كان اليهود يشكلون نسبة كبيرة من سكان مدينة غرناطة الصغيرة التى حولها الزيريون إلى عاصمة لملكهم فى القرن الحادى عشر ، وفى عصر الطوائف (وربما فى زمن الأمويين أيضًا) كانت مدينة "اللسانة" (Lucena) تعتبر - بعد قرطبة - حاضرة لليهود وواحدة من مراكزهم التجارية الهامة لقربها النسبى من ميناء "ألمرية" .

وبالنسبة للعاصمة (قرطبة) يغلب الظن أن اليهود ظلوا يعيشون ، حتى طَرْدهم نهائيًا من إسبانيا ، فى حيِّهم القديم الذى كان يقع بين شارع "القنطرة" الكبير (المجاور لقصر الخلافة) والسور الغربى للمدينة لأن هذه المنطقة لا تزال تحمل إلى اليوم اسم "الحى اليهودى" (Judería) وشريانها الرئيسى يفضى إلى معبد يهودى يرجع تاريخه - طبقًا لوثيقة عبرية - لبداية القرن الرابع عشر ، ومن المحتمل أنه بُنى مكان معبد أخر أقدم منه [٩٤] ، ومن إطلاق مسمى "باب اليهود" (والذى كان يطلق أيضًا على ربض مجاور) على أحد أبواب سور قرطبة ، نستنتج - بالرغم من صمت المؤرخين - وجود حىّ أخر لليهود فى تلك البقعة علاوة على حيِّهم المجاور لقصر الخلافة ، وبفضل إشارة عشوائية لأحد كتاب التراجم [٩٥] تبين أن مدافن اليهود كانت تقع شمال قرطبة ويفصلها عن أحد المدافن الإسلامية مجرد طريق أو شارع .

يفرد النص الذى يتحدث عن المراتب العرقية لسكان الأندلس المسلمين ، مساحة هامة لليهود المعتنقين للإسلام ولولاتهم ، كما يعدد بالتفصيل المهن المختلفة التى كانوا يمارسونها فى المدن الأندلسية ، وبعضها يحتاج لمهارة يدوية معينة ، كما يشير النص

السابق إلى أن هؤلاء المسلمين الجدد كانوا قد نزحوا من تجمعاتهم القديمة فى شبه الجزيرة قبل دخول الإسلام ، أو من إفريقيا وأسيا بعد الفتح الإسلامى ، لاشك أن أعداد اليهود المعتنقين للإسلام كانت أقل من أعداد المسيحيين ، وأن ظاهرة تحولهم إلى الدين الجديد قد استمرت طيلة العصور الوسطى .

المصنفات الفقهية مُقلّة فى الحديث عن علاقة الذميين اليهود بالسلطة المركزية التى سمحت لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة داخل معابدهم ، وبوقف أجزاء من ممتلكاتهم عليها ، كما تشهد بذلك فتوى مجلس الشورى القرطبى التى أوردها ابن سهل (٩٦) .

ونعتقد بأن كل تجمع يهودى كان يُعين من بين أفراده من يمثله أمام السلطة المسلمة ، على غرار "القومس" بالنسبة للمستعربين ، وهذا ما حدث فى القرن العاشر مع "ناصع أبو سيف حسداى بن إسحاق بن شبروت" ، الشخصية اليهودية الوحيدة التى لم يطبق عليها النسيان مثل بقية أفراد جماعته (٩٧) .

ذكرنا شيئا عن هذه الشخصية عند حديثنا عن المهام الدبلوماسية التى كلفه بها عبد الرحمن الثالث ، خاصة إلى "أردونيو الثالث" ملك ليون ، وإلى "تودا" ملكة "نبرة" .

ولد ابن شبروت عام ٩١٥م ، وتوفى سنة ٩٧٠م بعد استحواذه على إعجاب البلاط القرطبى بما يملكه من ثقافة واسعة ومهارة طبية ومواهب إدارية ودبلوماسية متميزة ، وكما نعرف فهو الذى ترجم إلى اللغة العربية مؤلف "دياسقوريدس" (Dioscórides) الطبى (٩٨) الذى أهداه الامبراطور البيزنطى "قسطنطينو السابع" لعبد الرحمن الناصر عام ٩٥١م كما كان يشغل - بالفعل - إحدى الوظائف الإدارية الهامة لمكاتب الخزانة القرطبية .

وبالرغم من المكانة الرفيعة التى وصل إليها فى البلاط القرطبى إلا أن لابن شبروت منزلة أرفع فى التراث العبرى ، إذ يعزى إليه إعادة الحيوية لليهودية الأندلسية وجعل قرطبة مركزًا نشطًا للدراسات التلمودية فى نفس الوقت التى بدأت تخبو فيه جذوتها فى الأكاديميات الحاخامية بكل من سوريا والعراق (٩٩) .

وطبقا لما ورد فى "كتاب التراث" لإبراهام بن دافيد (١٠٠) فقد غادر الشرق أربعة أحبار يهود بقصد الطواف على التجمعات اليهودية لجمع التبرعات للجالية اليهودية فى الشرق ، لكنهم أُسروا فى عرض البحر على يد الأدميرال الأموى "عبد الرحمن بن رماحس" وبعد ذلك تم بيع أحدهم (موشى بن هنوك) فى سوق العبيد بقرطبة ، لكن

الجالية اليهودية بالمدينة افتدته بأموالها ، لم يعد موشى للشرق ثانية بل ظل فى قرطبة وأسس فيها أكاديمية لدراسة التلمود ، وفى خلال فترة وجيزة تمكن - بمعاونة العلماء اليهود فى إسبانيا - من استنباط نظام تشريعي خاص ، وبهذا الشكل تخلصوا من تبعيتهم لنظام بغداد ، وكان لابن شبروت باع طويل فى تلك الدراسات ، ومن جهة أخرى ، فقد ساهم ابن شبروت - بفضل رعايته للثقافة والمثقفين اليهود - فى ظهور العديد من كتاب أبناء جنسه ومنهم شاعران كانا يكتبان باللغة العبرية : "مناحم بن سَرُوق" (من طرطوشة) و "دوناش بن لابرات" (١٠١) .

كان مناحم بن سَرُوق شاعراً وعالم لغة ، وهو الذى كتب الرسالة النثرية المسجوعة الشهيرة التى بعث بها ابن شبروت إلى ملك "الخزر" (Jázaros) يستفسر منه عن حقيقة اعتناق رعاياه للديانة اليهودية (١٠٢) .

أما "دوناش بن لابرات" فقد قام بتبنى العروض العربى واستخدامه فى الشعر العبرى ، ولم يقف عند هذا الحد بل أجبر معاصريه من بنى جلدته باتباع نهجه ، ومن يومها اقتفى الشعر العبرى أثر الشعر الأندلسى خطوة بخطوة .

وبالرغم من عدم تسليط المصادر التاريخية للضوء على دور التجمعات اليهودية فى إسبانيا الإسلامية إلا أن هذا الدور لابد وأن يكون على قدر كبير من الأهمية ، خاصة منذ عصر الخلافة . كان اليهود المقيمين فى الأندلس على صلة مستمرة بإخوانهم المقيمين فى الممالك المسيحية بشبه الجزيرة ، وكل فريق منهما كان يكلف بمهمة الاتصال بالشطر الآخر سواء على صعيد المجال السياسى أو بالنسبة لعمليات التبادل التجارى ، وبالتأكيد ، كانوا جميعاً يعرفون - بالإضافة إلى العبرية (لغة علومهم ولا هوتهم) - اللغة العربية (١٠٣) والرومانثية (الأعجمية) ، وأنشطتهم وأعمالهم التجارية كانت تقتضى منهم القيام بالرحلات الطويلة إلى الشرق الإسلامى أو إلى القارة الأوروبية على الجانب الآخر من البرانس لجلب الجلود والأسرى والخصيان لزبائنهم ، لقد كان يهود القرن العاشر رواداً لليهود "السيفاردية" (Sefardí) فى القرون التالية ، والتى تركت أثراً عميقاً فى الاقتصاد الاجتماعى لإسبانيا والبرتغال فى العصر الوسيط والعصور اللاحقة .

هوامش الفصل الرابع

(١) انظر ملاحظات كل من :-

- J.M. Lacarra en Actas du IX° Congrès internacional des Sciences historiques, Paris, 1951 , págs. 42-43.

Torres Balbas, en Al-Andalus XVI, 1951,págs 167-168 .

- R. Carande : La huella económica de las capitales hispano muslmanas, en Moneda yCrédito, Revista de Economía, núm. 29 Madrid, 1949 , págs. 3-19

2 - M. Torres, en Hist De España, dirigida por R. Menéndez Pidal, III, pág. 155.

(٣) انظر : - Lévi- Provençal : Esp. mus. X° siècle, piágs. 18-39.

(٤) انظر المرجع السابق ، ص ١٩١ وهامش ٢ ، ٣

(٥) إنها اللهجة "الجبلية" التي تناولها بالدراسة W.Marçais بالنسبة لطنجة ، وبالنسبة لشمال فاس "ليفي بروفنسال" ، وبالنسبة لـ "تازة" G.S. Colin

(٦) طبقًا للمعلومات الجديدة التي أمدنا بها الجزء المكتشف حديثًا من "المقتبس" لابن حيان ، فإن معظم سكان الوادى الأوسط لنهر "وادى يانه" وشرق البرتغال الحالية كانوا من البربر "البرانس" والبتر و"المصمودة"

(٧) يطلق ابن جزم فى نصه الهام الذى نقله ميجل أسين بلاثيوس فى دراسته :

Un códice inexpoirado del cordobés Ibn Hazm, en Al- Andalus, II, 1934, pág. 30, liñea, 21 (trad. Española, pág. 41)

مصطلح "البلدين" على العرب والبربر الذين استقروا فى إسبانيا في بداية الفتح .

(٨) هذه الترجمة التى ترجع للقرن الخامس عشر تحمل عنوان : "ذكر مشاهير أهل فاس فى القديم" . انظر :

Lévi Provençal : Islam d'Occident, I, pág. 39 , núm. 45

يوجد مخطوط من هذه الترجمة بمكتبة الرباط المغربية (رقم ١٣٩٤) ، والنص المقصود هنا موجود بصفحة ٢١

(٩) في فقرة من كتابه "فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس" ، أوردها المقرى فى "نفح الطيب" ، الجزء الأول ، ص ١٨٦ . انظر :

- Lévi - Provençal : Esp. mus. X° siècle, pág. 20 y nota 2.

(١٠) انظر المرجع السابق ، ص١٩-٢٠ . وأيضاً "بيريث" : الشعر الأندلسى ، ص ١٥

(١١) مقدمة ابن خلدون ترجمة : De Slane, I, págs. 320-322

(١٢) انظر :

- Lévi- Provençal : En relisant le "Collier de la Colombe", en Al - Andalus, XV, 1950, págs. 345-353 .
- Garcia Gomez : El Collar de la paloma (trad. Española del Tawq al - hamama), Madrid, 1952, introd., p. 3 y sigs .

(١٣) أشار إلى حديث ابن حزم فى "الجمهرة" عن البلويين كل من :-

- Julian Ribera: Disertaciones y opúsculos, I, pág. 34.
- R. Menéndez Pidal: Orígenes del español, 3ªed., pág. 423 y nota2.

(١٤) يعتبر ابن حيان ("المقتبس" ، الجزء الأول ، Fol. 129r°) لفظ "أسالمة" الذى يطلقه على أهل الذمة الداخلين فى الإسلام مساويًا لمصطلح "مولدين" .

عن هذه المصطلحات وطريقة نسخها فى اللاتينية ، انظر :

- Simonet: Hist . de los Mozárabes, págs. XIV-XVI.

(١٥) انظر "الذخيرة.." لابن بسام (١-١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣) ؛ وها هى كلمات ابن حيان : "وقد كان من غرائبه انتماؤه فى فارس ، واتباع أهل بيته له فى ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها أبوه الوزير المُعَقّل فى زمانه ، الراجح فى ميزانه ، أحمد بن سعيد بن حزم لبنى أميه أولياء نعمته ، لا عن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهده الناس خامل الأبوة ، مولد الأرومة من عجم لبلة ، وجَدُّه الأدنى حديث عهد بالإسلام .." .

(١٦) وصف ابن الفرضى ("تاريخ علماء الأندلس" ، رقم ١١٤٧) أحد قضاة "وشقة" (Huesca) ويدعى "محمد بن سليمان بن طالب المعافيرى" (المتوفى عام ٩٠٨م - ٢٩٥هـ) بالتعصب للمولدين ، بالرغم من أنه ينتسب لعائلة من المسلمين الجدد (إذ كان حفيدًا لمولى رجل عربى من قبيلة معافير) .

(١٧) انظر

- Pérès: Poésie andalouse, págs. 286-287.

(١٨) كانت خصائص هذه اللهجة العربية الإسبانية (التى زادت معرفتنا بها فى السنوات الأخيرة بفضل الدراسات التى أجريت على الشعر الشعبى الأندلسى) هدفًا فى القرن التاسع لتأملات ابن حزم القيمة التى وردت فى "الإحكام فى أصول الأحكام" . (القاهرة ، ١٣٤٥-١٣٤٧هـ ، الجزء الأول ، ص٣١ ، ٣٢) ، وقد قام "بيريث" بترجمتها تحت عنوان :

- Pérès: L'arabe dialectal en Espagne musulmane, en Melanges William Marçais, págs. 291-293.

يمكن الاطلاع فى هذا العمل (ص ٢٩٤ وهامش ٤) على إشارة إلى فقرة موجزة للجغرافى "المقدسى" ، يتحدث فيها عن لغة أهل الأندلس .

(١٩) عن الازدواج اللغوى لإسبانيا الإسلامية ولهجات المستعربين الرومانثية ، انظر :

- R. M. Pidal: Orígenes del español, 3ªed., pp. 418-419 y 422-423
- Valdeavellano: Hist. De Esp., I, Pág. 695.

(٢٠) ترجم ابن الفرضي ("تاريخ علماء الأندلس" ، رقم ٩١٦) لأحد أفراد هذه العائلة الإشبيلية ويدعى "علي بن حسن بن ساباريكو" ، يقول عنه : إنه استقر في "بطليوس" (Badajoz) وبنى فيها مسجداً يحمل اسمه ، وكانت وفاته في بداية عهد عبد الرحمن الثالث .

(٢١) للتعرف على عدد آخر مـن الأسمـاء الرومانثية التي كان يحملها المولدون الإسبان،انظر :-

- Simonet : Hist . de los Mozarabes, introducción P.XLVI, múm.6.

- F. Codera : Apodos y sobrenombres de moros españoles, en Mélanges Hartwig Derenbourg, paris, 1909, págs. 326-334

(٢٢) طبقًا لابن الفرضي ("تاريخ" ، رقم ١٩٢) فقد كانت العامة في قرطبة تطلق على محمد الثاني اللقب الرومانثي "مانجاس" (Mangas) بقصد السخرية منه .

(٢٣) عن تأثير الإسلام في طبيعة الشعب الإسباني على مر العصور ، انظر المقال التالي :

- A. González Palencia: Huellas islámicas en el carácter español, Apud, Hispanic Review, VII, 1939, pp. 185-204.

(٢٤) الجملة الأخيرة مستقاة من بيت شعري لابن حزم يقول فيه :

ويا جوهر الصين سحقًا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

انظر : ترجمة جارثيا جومث لطوق الحمامة (مدريد ، ١٩٥٢) ص ٧٠ ، ١٦١

(٢٥) بالنسبة للشرق العباسي ، انظر :

- Mrez: Ren Isl., trad. Vila, pp. 190-199.

(٢٦) انظر المرجع السابق ، ص ١٩١

عن "نقيب" أعضاء العائلة الحاكمة (وهي وظيفة كانت موجودة أيضًا بالمغرب) ، انظر أيضًا :

Tyan: Org. jud., II, págs. 329-341.

يطلق الموردي ("الأحكام السلطانية" ، ص ٩٢) على هذه الوظيفة المسمى التالي : "النقابة على ذوي الأنساب" .

(٢٧) أخذنا هذه البيانات من " المقتبس " (الجزء الأول ، fol. 138 v°) لابن حيان .

وقد أورد نفس المؤرخ (في الجزء المكتشف حديثًا من كتابه المذكور ، fol. 214 r°) أسماء عدد من المروانيين القادمين من الشرق واحتفى بهم الأمير عبد الرحمن الثاني : أبو القاسم بن بكار وابن أخيه (وكان يصرف لكل واحد منهما معاشًا شهريًا قدره ٣٠ دينارًا) ، سلمه ابن عبد الملك (الذي وصل عام ٨٥٠م – ٢٣٦هـ) ، وأخيرًا ، أصبغ بن محمد بن هشام ، الذي استقر في مدينة إشبيلية .

(٢٨) وطبقًا لابن حزم ("جمهرة .." ، ص ٢٣) فهذا المفيد يدعى : إسحاق محمد بن عبد الوهاب بن محمد المهتدي ، وقد استقبله الناصر بحفاوة بالغة وأجرى له راتبًا سنويًا حتى وفاته عام ٩٤٤م (٣٣٣هـ) ، ويذكر ابن حزم أيضًا أن لأبي إسحاق هذا أخ مات في صقلية ، وأن كلا الأخوين ولدا في إفريقيا بعد زواج والدهما (المنفي في القيروان) من إحدى أميرات الأغالبة .

(٢٩) خاصة في الجزء الثالث من "المقتبس" لابن حيان ، والذي يغطي عهد الحكم الثاني ، أما بالنسبة للعصور المتأخرة فقد تناولها ابن عذاري في الجزء الثالث من "البيان المغرب" (ص٩ ، ص٦٠) .

توجد في الجزء المكتشف حديثًا من "المقتبس" (الجزء الأول ، fol. 236) بيانات هامة تتناول ما فعله الأمير محمد الأول مع إخوته الكثيرين عند توليه السلطة ، فمن المعروف أن عبد الرحمن الثاني كان له أولاد من كثير من النسوة (حرائر أو إماء ضمن حريم القصر) ، اشترى العاهل الجديد (محمد الأول) بيوتا داخل قرطبة وضياعًا في المناطق المجاورة للعاصمة وأنزل فيها إخوته الأمراء وخصص لهم رواتب شهرية (أرزاق هلالية) وهبات سنوية ، لكنه لم يقبل بقاء واحد منهم للعيش في حرم القصر ، كما فعل نفس الشيء مع أولاده.

ويواصل ابن حيان سرد بعض التفاصيل عن مراسم دفن الأمراء الذين ماتوا خلال عهد محمد الأول وعن البروتوكولات المتبعة في مثل هذه الظروف : كان الأمراء الموتى ينقلون إلى المقابر في نعوش جديدة مُضمخة بالمسك والعنبر ، وكان يتقدم النعوش حشد من المشيعين ، يسير في مقدمته أعمام وأخوة أو أبناء المتوفى ، يليهم الوزراء وكبار موظفي الدولة والفقهاء ، وفي المؤخرة وفد من العامة يضم التجار والحرفيين ، وخلال بضعة أشهر لا تنقطع قراءة القرآن فوق قبر المتوفى .

(٣٠) لمزيد من التفاصيل عن ممثلي كل عائلة من هذه العائلات الكبيرة ، انظر :

- Lévi- Provençal: Esp. mus. X° siècle, págs. 99-111.

(٣١) انظر "المقتبس" لابن حيان (الجزء الأول ، fol. 223 r°) .

(٣٢) ومن العائلات الكبيرة يمكن أن نذكر عائلة "بني الطبني" ، وكان عميدها "محمد بن الحسين" قد ترك طبنة بإقليم الزاب ، واستقر في قرطبة عام ٩٤٢م (٣٣١هـ) ، انظر :

- Lévi- Provençal: En relisant le " Collier de la colombe", en Al-Audalus, XV, 1950, págs. 335-356 .

(٣٣) أمكن تحديد مكان هذه الموقعة بفضل العثور على خبر في وثيقة بدير ساهاجون :

- V. Vignau: Indice de los documentos del monasterio de Sahagún, Madrid, 1874, múm. 467.

وقد أمدني بهذا الخبر شاكرًا الأستاذ Beltrán Villagrosa وطبقًا له فالبقعة المقصود هي :

Villafranca del Bierzo التي يرويها نهر "ميدونيا" الصغير .

(٣٤) أشرنا في المجلد السابق إلى بعض من تسلقوا درج الوظائف العليا في الدولة من المواطنين القرطبيين ذوي الأصول البربرية ، وإلى من تولوا منصب القضاء في العاصمة أو المدن الإقليمية الكبرى ، قبل جعفر المصحفي ، أمدت عائلة زناتية عبد الرحمن الثالث بثلاثة موظفين كبار : محمد بن عبد الله الخروبي ، وابنيه عبدالله وأحمد .

(٣٥) انظر : ابن بسام « الذخيرة .. » (الجزء الأول - ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧) .

(٣٦) قدم الفتى الشهير الخصي « جعفر الصقلبي » (الذي جمع ثروة طائلة وتبرع بها لمؤسسات البر في قرطبة) لسيده الحكم الثاني ، بمناسبة توليه السلطة ، مجموعة من الهدايا القيمة : كتيبة تضم مائة مملوك إفرنجي ، مسلحين من أخمص القدم إلى أعلى الرأس ، ومعهم جيادهم ، هذا دون حساب الدروع والخوذات والرماح والتروس وقرون الجاموس المذهبة ، انظر : المقري « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨

(٣٧) شاع بين المؤرخين – وخاصة ابن حيان – إطلاق تعبير « الغوغاء » على جماهير الشعب ومدلول الكلمة فى اللغة العربية يعنى « الكثرة الصاخبة الحقيرة » .

(٣٨) ذكر النباهى فى « المرتبة العليا » (ص ٧٨ – ٧٩) قصة تظاهرة غاضبة لدهماء قرطبة ضد القاضى « ابن زرب » ، فى نهاية القرن العاشر ، لأن صلاة الاستسقاء التى أمّها لم تؤت ثمارها المرجوة : أى لم تسفر عن المطر المنتظر تجمعت الغوغاء للتشكيك فى صدق إيمان القاضى ولاتهامه بشرب الخمر ، ولما أخذت المظاهرة طابع العدوانية ، اضطر القاضى للاحتماء بمقصورة أحد الأضرحة فى مقابر حى الربض . عندما تعين على القاضى إمامة صلاة استسقاء جديدة ، أمر المنصور فرقة من الخيالة بحراسة المصلى .

(٣٩) انظر المجلد السابق (الفصل الأول) .

(٤٠) بالنسبة لإسبانيا الإسلامية حتى حرب الاسترداد ، انظر :

- Ch. Verlinden : La condition des populations rurales dans l'Espagne medievale, en el volumen de comunicaciones presentadas a la Société Jean Bodin bajo el título " Le Servage " , Bruselas, 1937-, pp. 172-176 y 196 .

إلى هذا العمل الذى لا يقدم جديدا عن الفترة التى تهمنا نضيف الصفحات المكثفة لأحد فصول العمل الضخم لـ « سانتشث ألبورنوث » ، بالرغم من أنها غير مقنعة تماماً :

- C. Sánchez- Albomoz : En torno a los orígenes del feudalismo, parte segunda, Los árabes y el régimen prefeudal carolingio, III,Mendoza, 1942, págs. 165-215 .

(٤١) انظر :

- Dozy : Rech.[3], I, apéndices I y II, págs. I-IX.
- Simonet : Hist. de los Mozárabes, págs. 60-68.
- Lévi-provençal : Esp. mus. X° siècle, págs 160-162 .

(٤٢) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة ، نحيل القارىء إلى الأعمال التالية : –

« كتاب الخراج » لأبى يوسف – « الأحكام السلطانية » للموردى .

- Th. W. Juynboll : Enc. Isl., II, págs. 41-42 (fai'), y II, págs. 148-149 (ghanima).

وبالنسبة للشرق فى العصر الوسيط ، انظر :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, págs. 141-143 .
- Gaudefroy-Demombynes : Le monde musulman jusqu' aux Croisades, págs. 195-204 .

(٤٣) انظر على وجه الخصوص :

- Lévi-provençal : Les historiens des Chorta, parís, 1922, pp. 284-286 .

نشر هذا النص فى إسبانيا عام ١٨٦٨ م فى نهاية « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية ؛ كما قام « خوليان ريبيرا » بترجمته إلى الإسبانية (مدريد ، ١٩٢٦ ، ص ١٦٥ – ١٨٤) .

(٤٤) استمد هذا المؤرخ البيانات التي يعرضها من كتيب لمحمد الرازي عنوانه « كتاب الرايات » وقد اكتشفه عام ١٠٧٨ م (٤٧١ هـ) بإحدى مكتبات إشبيلية . وابن مزين هذا كان أبوه أميراً على « شلب » وعزله المعتمد بن عباد في عصر الطوائف , انظر :

- pons Boigues, Ensayo núm. 134, p. 171 .

(٤٥) نشير في عجالة إلى نظرية « أميريكو كاسترو » (ونحن لا نتفق معها) الواردة بكتابه :

España en su historia : cristianos moros y judíos, Buenos Aires, 1948, págs. 71-78 y 686-689 .

والتي يقول فيها إن كلمة (hidalgo) الإسبانية (وأصلها fijodalgo) مأخوذة مباشرة عن المصطلح العربي « بنو الأخماس » ، لكن نظريته هذه لم تلق استحساناً من المشتغلين بالدراسات العربية (المؤرخين منهم واللغويين) مما اضطره للدفاع عنها بمقالين آخرين ، وقد قام « سانتشث ألبورنوث » مؤخراً بدحضها ورفضها كلية في مقاله المعنون :

De los " banu al-ajmas " alas "fijodalgas" ?, en Cuad. Hist. Esp., XVI, 1951, págs. 130-145.

(٤٦) طبعة القاهرة المختصرة لـ « مركز الإحاطة » الجزء الأول ، ص ١٨ – ١٩ .

(٤٧) انظر :

- M. Asín Polacios : Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm, en Al- Andalus, II, 1934, p. 36 .

(٤٨) إنه الفقيه « أبو جعفر أحمد بن نصر الداوودي » الذي ورد اسمه في « فهرسة » ابن حزم ، وصاحب الكتاب المحفوظ بمكتبة الإسكوريال عن القضاء الإسلامي (رقم ١١٦٠) ، استخرج « سيمونيت » الفقرة المشار إليها هنا من كتاب : (Hist. De los Mozárabes, p. 68, n.I) ، وفيما يلي ترجمتها : « أما بالنسبة لأراضي الأندلس فقد خصها أحد الأشخاص بحديث لا صدق فيه ، إذ زعم أن البلد أو شطراً كبيراً منه قد فتح عنوة ، وأن أراضيه لم تخضع للتوزيع ولا لنظام الأخماس ، بل استولت كل مجموعة من الفاتحين على جزء من الأرض بالقوة ، ولم تنتظر تلقي نصيبها (إقطاع) المخصص لها من السلطة المركزية » .

(٤٩) من بين هذه المزارع الكبيرة نذكر مزارع « الشرف » (Aljarafe) الواقعة غرب إشبيلية ، وكانت تعتبر أكثرها إنتاجية .

وقد ورد ذكر مزرعة « مريانات الفافقين » (نسبة إلى أحفاد الحاكم « عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ») مرتين في « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية (ص ١٣ ، ٧٦ من النص الأصلي ، ص ١٠ ، ٦١ من الترجمة) . انظر :

- Fagnan : Extraits inédits, p. 220 .

(٥٠) بالنسبة لإسبانيا المسيحية في بداية العصر الوسيط ، انظر :

- L. G. Valdeavellano : Historia de España, I, págs. 475-478 .

(٥١) نستشف من فقرة وردت في « الحلة السيراء » لابن الأبار (ص ١٦٢) أن شاغلي الضياع في نهاية القرن العاشر كانوا ملزمين بأداء « العشر » بالإضافة إلى ضريبة « الحشد » .

(٥٢) من أمثلة هذه الاقطاعات ما ورد في مجموعة الصيغ القانونية للجزيري (fol. 38 ro) عن منح العامل لمساحة من الأرض « الموات » لأحد الأشخاص تقديراً لحرصه على المشاركة في الجهاد وتفانيه في خدمة الإسلام ، وقد كان المنح متضمنا – طبقًا لما ورد بتعليق الكاتب – شرط إحياء هذه الأرض الموات وزراعتها والتوطن فيها .

(٥٣) يخبرنا ابن حوقل (« صورة الأرض » طبعة Kramers ، ص ١١١ ، ص ٧٦ من طبعة De Goeje) أن إسبانيا الإسلامية في عصره « كانت تعتمد في استثمار أراضيها على مجموعات من المزارعين لا تعرف شيئًا عن حياة الحضر وتدين بالمسيحية » ، وفي موضع آخر يضيف قائلا إن « تلك العمالة الزراعية كانت تتمرد أحيانًا وتعتصم بإحدى القلاع القريبة ، وتظل تقاوم حتى تفنى عن بكرة أبيها » .

لا شك أن هذه الصورة القاتمة مبالغ فيها ومتعمدة ، لكنها تعكس الوضع البائس للمزارع الأندلسي خلال القرون الأولى من العصر الوسيط .

(٥٤) سنتحدث في الفصل التالي عن أهمية تجارة الرقيق في النشاط الاقتصادي للخلافة القرطبية .

(٥٥) أخذنا هذه المعلومة من ابن سهل « الأحكام الكبرى (« Fol. 46 r مخطوط الرباط) وفي نفس العمل (fol. 134r°) يوجد نص فتوى يتعلق بزوجة مسيحية أسر ابن حفصون زوجها واحتجزه في « ببشتر » (Bobastro) .

(٥٦) عن الرق في إسبانيا المسيحية خلال القرون الأولى من العصر الوسيط ، انظر :

- Ch. Verlinden : L'esclavage dans le monde ibérique médiéval, en An. Hist. Der. Esp.,XI, 1934, págs. 365-447.

(٥٧) يعتبر ابن الفرضي (« تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ٢١٤) « ولاء النعمة » مرادفًا لـ « ولاء العتاقة » ، والتعبير الأول له صلة بالآية القرآنية رقم ٣٧ من سورة « الأحزاب » (التي تشير إلى عتق الرسول لمولاه زيد) ، هذا ما أخبرني به زميلي وصديقي R.Brunshvig ، وطبقًا لما أمدني به فإن « المذهب المالكي يعتبر الولاية الناجمة عن تحرير العبيد الولاية الوحيدة من بين الأخريات التي يترتب عليها أثر شرعي (مثل الإرث والتضامن الجنائي) . أما بالنسبة للأحرار من غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام فيعتبرهم ولاة للمجتمع الإسلامي ككل وليس للشخص أو المجموعة التي تعاهدت معها على الولاء ؛ وهذا يعني أن هؤلاء المسلمين الجدد وأحفادهم لا يتمتعون في المذهب المالكي بلوائح شرعية خاصة » .

(٥٨) انظر مقدمة ابن خلدون (الجزء الأول ، ص ٣٣٠ – ٣٣٢) ، ص ٣٧٢ – ٣٧٤ من ترجمة De-Slane .

(٥٩) وعلى خلاف كلمة « مصطنع » يبدو أن كلمة « صنيعة » لم يكن لها أبدا قيمة فنية خاصة .

(٦٠) El Vocabulista على سبيل المثال يقدم كلمة benefacere اللاتينية كترجمة للفعل العربي « اصطنع » .

(٦١) كتب « سانتشث ألبورنوث » مقالين هامين في هذه المسألة في :

Anuario de Historia del Derecho español, I, 1924, págs. 158-336 .

انظر أيضا :

- Valdeavellano : Historia de Esp., I, págs. 551-553 .

Aguado Bleye : Man. Hist. Esp., I, págs. 514-515.

(٦٢) بالإضافة إلى العملين اللذين سنشير إليهما فى الهامشين التاليين ، توجد دراستان هامتان عن المستعربين ودورهم فى إسبانيا المسيحية :

" Las iglesias mozárabes ", de M. Gómez Moreno, Madrid, 1919 y

" Los orígenes del español ", de R. Menéndez pidal, 3ª edición, Madrid, 1950, págs. 415-424.

(٦٣) انظر :

- " La Historia de los Mozárabes de España ", de F. G. Simonet, Madrid, 1897-1903 .

(٦٤) انظر :

I.De las Cagigas : Los Mozárabes, 2 Vols., Madrid, 1927-1949.

(٦٥) انظر على وجه الخصوص :

- Menéndez pidal : Orígenes 3, págs. 425-431

(٦٦) عن النتائج الاقتصادية لإعادة إعمار تخوم إسبانيا المسيحية ، انظر :

- L. G. Valdeavellano : Hist. de Esp., I, p. 529 y sigs .

(٦٧) انظر :

- Gómez Moreno : Iglesias mozárabes, p. 107 .

(٦٨) المرجع السابق ، ص ٢٧ ، ص ١٢٧ .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ١١٧ وملاحظة رقم ٢ .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠ ، من الأسماء الواردة بهذا العمل يتضح أن المستعربين بالرغم من احتفاظهم فى الأراضى المسيحية بأسمائهم العربية إلا أنهم كانوا يتبعونها باسم أخر أعجمى ، أو العكس.

(٧١) المرجع السابق ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

(٧٢) لا يعتبر من قبيل اللغو إذا أشرنا إلى أن أحد ميادين قرطبة فى القرن العاشر كان يسمى « سويقات القومس » . انظر : ابن بشكوال « كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس » ، ص ١٩٦ .

(٧٣) ابن القوطية « تاريخ افتتاح الأندلس » (ص ٥ من النص الأصلى ، ص ٣ من الترجمة) .

(٧٤) انظر :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, p. 122 y nota 4 .

(٧٥) ابن القوطية « تاريخ ... » (ص ٥ من النص الأصلى ، ص ٣ من الترجمة الإسبانية) .

(٧٦) الشىء نفسه كان يحدث بالنسبة للقضايا العقارية . فقد ورد بإحدى الأحكام المتعلقة بالقرن التاسع والتى ذكرها ابن سهل (« الأحكام الكبرى » ، fol. 168ro ، من مخطوطة الرباط) أن القاضى فصل فى النزاع بين امرأة مسلمة وبين « قومس قرطبة » بصفته ممثلا لرهبان دير « بلطيش » ، حول ملكية قطعة من الأرض .

(٧٧) شاهد القبر هذا المدون عليه ثمانية أبيات شعرية ، محفوظ بمتحف قرطبة للآثار الإقليمية . انظر :

- Gómez Moreno : Iglesias mozárabes, págs p. 367 .

- R. Menéndez pidal : Orígenes 3, p. 421 .

(٧٨) عن التقسيم الكنسي لشبه جزيرة إيبيريا في عصر الخلافة ، انظر :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, 122, 808-812.

وبالنسبة للعصر القوطي ، انظر :

- M. Torres, en Hist. de Esp. de Menéndez pidal, III, págs. 278-279 .

(٧٩) انظر :

- Simonet : Hist,. de los Mozárabes, p. 604.

(٨٠) للتعرف على هذه الشخصية ، انظر « كتاب السير » لـ Juan de Gorz (ص ٢٤٣ - ٢٥٠) ، (ص ٥٧ - ٦١ من طبعة Paz y Melía) .

(٨١) انظر :

- Simonet : Hist,. de los Mozárabes, págs. 693-696.

(٨٢) أخذ المقرى هذه الفقرة (« نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٣٤٥) عن « الفتح بن خاقان » (مطمح ... » ، ص ١٨-١٩) ، وقد ترجمها pérès في كتابه المعنون « الشعر الأندلسي » (ص ٢٧٧ - ٢٧٨) ، نقل « الفتح بن خاقان » هذا النص من « رسالة التوابع والزوابع » لابن شهيد : كما نقل ابن بسام جزءا منها في « الذخيرة » (الجزء الأول - ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢) . انظر طبعة « رسالة التوابع والزوابع » التي أعدها بطرس البستاني (بيروت ، ١٩٥١ م ، ص ١٤٢ - ١٤٣) .

(٨٣) ابن سهل « الأحكام الكبرى » (V^0 fol. 213 ، من مخطوطة الرباط) .

(٨٤) انظر :

- Pérès : poésie andalouse, págs. 278-283 .

(٨٥) انظر :

- E. Lévi-provençal y E. García Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 157.

(٨٦) في الجزء المكتشف حديثًا من « المقتبس » لابن حيان (V^0 fol. 269) يخبرنا المؤلف أنه عند سقوط مئذنة مسجد طليطلة الجامع ، طلب أهالي طليطلة من الأمير محمد الأول التصريح لهم بإعادة بنائها من أموال « الخراج » كما طالبوه « بضم الكنيسة المجاورة للمنارة إلى المسجد » .

(٨٧) يبدو أن مدينة « طريانة » (Triana) الواقعة على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير كانت تضم أعدادا كبيرة من المستعربين في بداية القرن الثاني عشر . انظر :

- E. Lévi-provençal y E. García Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 172.

(٨٨) عن كنائس قرطبة والأديرة المجاورة لها ، انظر :

- Simonet : Hist,. de los Mozárabes, págs. 615-617.

- R. Castejón : Córdoba califal, págs. 77-85.

(٨٩) طبقًا لابن سهل (« الأحكام الكبرى » fol. 214 r°) فالفقهاء القرطبيون الذى أصدروا هذه الفتوى هم : ابن لبابة ، أيوب بن سليمان ، وابن الوليد .

(٩٠) انظر :

- E. Lévi-provençal y E. García Gómez : Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 150-151.

(٩١) عندما يأتى الوقت المناسب سنشير إلى أن التهتك والخلاعة لم يكونا أقل فى الأندلس عنهما فى إسبانيا المسيحية خلال القرن العاشر .

(٩٢) تعتبر أعمال Y.F.Baer فى طليعة الأعمال التى يعتد بها لمعرفة تاريخ يهود إسبانيا فى القرون الأولى من العصر الوسيط ، لكن الوثائق التى نشرها Baer تحت عنوان : (Die Juden in christlichen Spanien, vols. I y II, Berlin, 1929-36) لا تشير - لا من قريب ولا من بعيد - إلى عصر الخلافة .

توجد لوحة موجزة لكنها معبرة عن تاريخ يهود إسبانيا حتى القرن الحادى عشر فى المصدر التالى :

- J. Mª MilláVallicrosa : La poesía sagrada hebraicoespañola, 2ª ed., Madrid-Barcelona, 1948, p. 19 y sigs.

انظر أيضا :

- Ballesteros : Hist. de Esp., II, págs. 106, 169, 170 .

- Valdeavellano : Hist. de Esp., I, págs.995 y sigs., y p. 1014.

أما بالنسبة لمجلة " Sefard " التى تطبع فى مدريد وقامت بنشر العديد من المقالات عن الأنشطة المتعددة لليهود فى إسبانيا العصر الوسيط ، فلن يتمكن الكثيرون من الاستفادة منها لأنها تصدر باللغة العبرية .

(٩٣) ابن حيان « المقتبس » ، الجزء الأول (fol. 114 r°) .

(٩٤) انظر :

- R. Castejón : Guía de Córdoba, Madrid, 1930, pág. 28-32.

(٩٥) ابن بشكوال « كتاب الصلة » ، ص ٣٠٠ (رقم ٦٧٢) .

(٩٦) ابن سهل « الأحكام الكبرى » (fol. 152 ، من مخطوطة الرباط) والفتوى المذكورة تتعلق بوقف بيت على معبد يهودى .

(٩٧) بالإضافة إلى دراسة Jacob Mann عن « حسداى » يمكن الإشارة إلى البحث الذى كتبه بالعبرية S.M. Stern ونشر فى القدس بمجلة Ziom (العدد ١١ ، ص ١٤١ - ١٤٦) .

(٩٨) انظر

- M. Meyerhof : Esquisse d'histoire de la pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne, apud, Al-Andalus, III, 1935, págs. 8-10.

(٩٩) طبقًا لشهادة ابن حزم (« الفصل » ، طبعة القاهرة ، ١٣٢١ هـ = ١٩٠٣ م ، الجزء الأول ، ص ٩٨-٩٩) والتى أوردها « أسين بلاثيوس » فى : (Los caracteres y la conducta) (مدريد ، ١٩١٨ ، ص ٨٠) ؛ فإن مذهب « القرائين » اليهودى كان له عدد من الأنصار فى إسبانيا خلال القرن الحادى عشر .

(١٠٠) طبعة .

- Neubauer : Medieval Jewish Chronieles, Oxford, 1887, I, p. 67 .

(١٠١) عن هذين الشاعرين اليهوديين ، انظر :

- Millás Vallicrosa : Poesía sagrada hebraicoespañola, págs. 28-34.

(١٠٢) انظر :

- Millás Vallicrosa : Op. Cit., p. 28 y nota 2

كما يوجد مقال آخر لـ (M. Landau) فى مجلة (Ziom) (العدد ٨ ، ١٩٤٣ ، ص ٩٤ - ١٠٣) يناقش فيه حقيقة هذه الرسالة .

(١٠٣) عن الثقافة العربية ليهود الأندلس ، انظر الطرفة التى أوردها ابن بسام (« الذخيرة » ، الجزء الأول - ١ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠) وتتعلق بالأديب اليهودى القرطبى « يوسف بن إسحاق الإسرائيلى ... » وعصر ملوك الطوائف ، انظر :

- Pérès : Poésie andalouse, págs. 266-273.

الفصل الخامس

النشاط الاقتصادى [1]

عناوين الفصل الخامس :

١ - مصادر التاريخ الاقتصادى للأندلس :

الأدب الجغرافى - الأدب الفنى (أو الاصطلاحى) .

٢ - أدوات الحياة الاقتصادية :

الموازين والمكاييل والمقاييس - المسكوكات النقدية .

٣ - الزراعة :

الملامح الزراعية للأندلس - الأسلوب المتبع فى استثمار الأراضى ونظام المزارعة - زراعة الغلال والطواحين - محاصيل أراضى السَّقْى وزراعة الأشجار - قطعان الماشية والنباتات الطبيعية - أعمال الفلاحة فى "تقوم قرطبة"

٤ - استغلال الموارد الطبيعية :

المعادن والتعدين - استخراج الملح والصيد .

٥ - الإنتاج الصناعى والتبادل التجارى :

النظام الاقتصادى - المهن فى الحَضَر - الصناعات الرّاقية وتسويقها تجاريًا - تجارة الرقيق - طرق الملاحة والتجارة .

١ - مصادر التاريخ الاقتصادى للأندلس

الأدب الجغرافى :

بلغت إسبانيا الإسلامية - فى ظل السلام الذى عمّ أراضيها أثناء عصر الخلافة القرطبية - قمة عنفوانها الاقتصادى ، بهذه الحقيقة تشهد كافة النصوص القديمة ، سواء كانت من المدونات التاريخية أو الأعمال الجغرافية ، وبما أن التفاصيل الواردة بالأخيرة تمثل القسط الأكبر والجوهرى من معلوماتنا عن دولة الأندلس وعن استثمارها لمواردها الطبيعية خلال أهم فترات تاريخها السياسى ، فمن الضرورى التوقف - ولو قليلاً - عند هذا الأدب الجغرافى [٢] ومحاولة إبراز قيمته الوثائقية .

وطبقًا للتسلسل الزمنى فقد كانت كتب "المسالك" [٣] هى الأولى التى أفسحت لإسبانيا مكانًا فيها ، وأقدم هذه الكتب يحمل عنوان "كتاب المسالك والممالك" ، وينسب لبغدادى من أصل فارسى يدعى "ابن خرداذبة" ، وكان معاصراً للأمير القرطبى عبد الرحمن الثانى ، وبعد ذلك - فى النصف الثانى من القرن التاسع - تبنى هذا النوع من التأليف كاتبان عاصرا "ابن خرداذبة" وهما : اليعقوبى بن الفقيه الهمذانى [٤] وعمر ابن روسته (RUSTEH) .

وأهمية معلومات المؤلفين الثلاثة عن شبه جزيرة إيبيريا تعزى فقط إلى أقدميتها ، إذ لم تتعرض إلا لتوزيع الأجناس على أرضها وللأنهار الكبرى بينما جاء ذكر المسالك فيها مختلطًا بالأسطورة مما يجعلنا نعتقد بأن الجزء الأقصى من غرب العالم الإسلامى ظل يعانى حتى القرن العاشر من نقص معرفى واضح فى الأوساط الثقافية للامبراطورية العباسية .

بعد تأسيس الخلافة الأموية فى قرطبة اتسمت الوثائق الجغرافية الشرقية بشىء من الدقة وإن كانت لم تتخلص من طابعها الهزيل والرتيب ، وفى هذا الصدد نورد ثلاثة أسماء : الإسطخرى ، ابن حوقل والمقدسى . توفى الأول عام ٩٣٤م (٣٢٢هـ) ، وفى حديثه عن الأندلس ساق العديد من الملاحظات الهامة ، خاصة ما يتعلق بعناصرها السكانية وبإنتاج بعض مناطقها ("إلبيرة" ، على سبيل المثال) وبتجارة العبيد ، وقدم - فى النهاية - أربعة عشر دليلاً للمسافر اتخذت قرطبة نقطة انطلاق لمعظمها [٥] .

يَفْضُل ابن حوقل [٦] الاسطخرى فى أمرين جوهريين : قيامه بزيارة إسبانيا بنفسه خلال عهد عبد الرحمن الثالث ، واهتمامه - عند تحرير مسالكه - باستكمال معلوماته من الأندلسيين المارِّين بالشرق ، ولعلنا أدركنا فى الفصول السابقة قيمة وأهمية بعض التفاصيل التى زودنا بها هذا الجغرافى ، خاصة ما يتعلق بموضوع الضرائب ، بالرغم من ميله - الذى لا يداريه - إلى الفاطميين مما جعله يصبغ بعض فقراته بصبغة التحيز (وإن لم تصل إلى حد التشويه) مثل تعريضه بجهل الأندلسيين بفن ركوب الخيل أو عدم خبرتهم فى القتال ، ومع هذا يعتبر عمل ابن حوقل أول تجربة رشيدة ، غنية ومتماسكة لوصف المملكة الأموية بمواردها الرئيسية وتجارتها وصناعتها ومسالكها وطرقها الأساسية ، وهو فى هذا يقف على طرفى نقيض من البيانات العجولة المبهمة لزملائه المشارقة المتقدمين عليه .

وبنفس المواصفات السابقة تقريبًا تتسم الصفحات القليلة التى خصصها الرحالة السورى "المقدسى" [٧] فى نهاية القرن العاشر لشبه جزيرة إيبيريا فى كتابه عن الأربعة عشر "مناخًا" التى يتألف منها - طبقًا لرأيه - مجمل العالم الإسلامى ، وإن كان لا يتمتع مثل ابن حوقل بميزة الطواف بإسبانيا وإمكانية وصفها - بالتالى - دون حاجة إلى الاستعانة بمعلومات آخرين قد لا تكتمل مصداقيتهم ، على أى حال ، يعزى إلى هذا الجغرافى ، ذى الروح الوثابة المنهجية ، القدرة على المفاضلة بين الوثائق المتوافرة لديه وانتقائه لأحسنها مما لم يسبق نشره ، علمًا بأن عمله الأصلى قد تعرض - لسوء الحظ - للتحوير والتبديل ، وعلى خلاف ابن حوقل ، لم يقم "المقدسى" بوصف الأندلس من منظور سلبى ، ولا شك أن موضوعية وجدية معلوماته تضفى على لوحته عن الغرب الإسلامى قيمة من الظلم الانتقاص منها ، بالرغم من عدم قدرته على التمييز أحيانًا بين المؤسسات الأموية ومثيلاتها الفاطمية ، ومن جهة أخرى ، تكتسب ملاحظاته عن المدارس الشرعية واللغة والمناخ وتجارة العبيد (السود والصقالبة) أهمية خاصة نظرًا للزمن الذى دُونت فيه .

علينا أن ننعى بمزيد من الأسى (ورجاؤنا ألا يطول) فقدان النص العربى لوصف إسبانيا الإسلامية على يد أحد أبنائها فى عهد عبد الرحمن الثالث ، ونعنى به المؤرخ الشهير أحمد الرازى (المتوفى عام ٩٥٥م - ٣٤٤هـ) [٨] ، وهو الوصف الذى قدم به

لمؤلفه التاريخى عن الأندلس والذى أكمله بعد ذلك ابنه عيسى ، ولحسن الحظ ، فقد استخدم هذه المقدمة الجغرافيون المتأخرون ، خاصة "ياقوت الحموى" (٩) فى فهرسته الضخمة للأعلام الجغرافية ، كما احتفظت لنا بجزء منها الترجمة التى أعدها "جيانجوس" عام ١٨٥٢م تحت عنوان "مُدونة الرازى التاريخية" (١٠) ، وترجمة "جيانجوس" هذه اعتمدت على ترجمة برتغالية - مفقودة حاليًا - كان قد كلف بها ملك البرتغال ("ديونيس") قسيسًا يدعى "خيل بيريث" (١١) ، من هنا تتضح مدى صعوبة الاستفادة من وصف الرازى عن طريق ترجمات متتالية ، يُضاف إلى عدم وفائها الحتمى للنص الأصلى تحوريها - الذى لا يمكن تفاديه - لمعظم مسميات الأعلام الجغرافية ، ومما يُرثى له أيضًا - بالنسبة لمعارفنا عن إسبانيا خلال القرن العاشر والحادى عشر - عدم العثور حتى يومنا هذا على الجزء الخاص بالأندلس فى عمل الجغرافى "أبى عبيد البكرى" الذى لا يوجد لدينا منه سوى بدايته وبعض الإشارات المتأخرة (١٢) عن صاحبه المتوفى بقرطبة عام ١٠٩٤م (٤٨٧هـ) : أى وقت دخول المرابطين شبه الجزيرة ، عندما نتأمل عن قرب ما وصل إلينا من وصفه الرائع للمغرب وإفريقيا (١٣) بما يحتوى عليه من منهجية فى التفكير ودقة فى التفاصيل وجدية فى المعلومات نشعر أننا أمام منجم ثَرّ من المعلومات المحددة المستقاة من الحياة الواقعية كان بالإمكان أن يتوافر لنا مثلها عن الأندلس لو سلم هذا الجزء من الضياع ، وهو فقد لا يعوضه بأى حال الوصف الرائع لإسبانيا الذى ألحقه "الإدريسى" (١٤) فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر بمؤلفه الجغرافى الضخم الذى كتبه فى "باليرمو" لملك صقلية النورماندى "روجير الثانى" (Roger II) .

أما " أبو عبد الله بن عبد المنعم الحميرى" الذى كان يعيش بمدينة "سبتة" فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، فقد قام بتجميع أخبار ومعلومات من مؤلفين قدامى لم يشر إلى أىٍّ منهم ، وأعد منها مؤلفًا تاريخيًا جغرافيًا عن العالم الإسلامى ، لكنه اعتمد فى أخباره عن الأندلس على مقتطفات من البكرى والإدريسى ، وبالرغم من أن اقتباساته من الإدريسى ليست إلا مجرد قراءة جديدة وجيدة للنص الأصلى ، إلا أن المقتطفات التى أخذها عن البكرى تعتبر عظيمة القيمة لأنها ساعدتنا على رسم صورة - ولو جزئية - لعمله المفقود ، ولقد قمنا عام ١٩٣٨ م بنشر وترجمة الأخبار

الأندلسية الواردة بكتاب "ابن عبد المنعم الحميرى" ولذا نشير إلى أننا سنعتمد عليها فيما نورده من معلومات عن جغرافية إسبانيا فى عصر الخلافة ، خاصة ما يتعلق بمدنها ومواردها الطبيعية ونشاطها الصناعى ، هذا بالإضافة إلى إشارات المؤلفين القدامى التى جمعها مغربى أخر من القرن السابع عشر (المقرى) (١٥) فى مؤلفه الضخم عن إسبانيا الإسلامية .

الأدب الفنى (أو الاصطلاحى) :

إلى جانب الأدب الجغرافى الذى رسمنا ملامحه فى خطوط عريضة ، لا يمكن الاستغناء فى موضوعنا الحالى عن استخدام مجموعة من الأعمال ذات الطابع الفنى والتى سنحاول فيما يلى الإلمام سريعًا بأهمها .

أقدم هذه الأعمال وأجملها فى نفس الوقت ما يعرف بـ "التقويم القرطبى لعام ٩٦١م" (١٦) ، والذى قام دوزى بنشر نصه العربى معتمداً على مخطوطة عبرية وترجمة لاتينية ، يبدو أنها متأخرة جداً ، يضم هذا الكتيب المخصص للحكم الثانى تقويمين (يشتمل كل منهما على الفلك والمناخ والأعمال الزراعية) تم تأليفهما فى عصر واحد : أحدهما عربى قام بإعداده "عارب بن سعيد (الذى أكمل مدونة الطبرى التى تحتوى على معلومات هامة عن حاشية عبد الرحمن الثالث) ؛ والآخر لاتينى أعده الوجيه الكنسى "ريثيموندو" (Recemundo) (إلياس ربيع بن زيد ، وهو الذى كلفه عبد الرحمن الثالث بمهام دبلوماسية فى كل من ألمانيا وبيزنطة وعُيّن أسقفا على "إلبيرة") ، والنسخة العربية من "التقويم القرطبى" لا تتطابق كلية مع النسخة اللاتينية ، لأن الثانية بها بعض الأخبار الزائدة ، التى يتعلق معظمها بمجتمع المستعربين فى العاصمة وبأديرتهم وبيعهم ، لكن الأهمية الرئيسية لهذه الوثيقة - التى سنعتمد عليها فى هذا الفصل عند حديثنا عن الأنشطة الزراعية فى إسبانيا الإسلامية - تكمن قبل كل شيء فيما تتضمنه من بيانات عن الحياة فى الريف وعن الأعمال الخاصة بكل فصل من فصول السنة ، وغالبًا ما تأتى هذه البيانات فى نهاية أخر يوم من الشهر حسب التقويم الشمسى .

ومنذ القرن الحادى عشر على الأقل ، يظهر ميل الأندلسيين للعمل من خلال التطور الذى شهدته شبه الجزيرة ، كما يشهد بذلك نوع خاص من الأدب الفنى : سواء

ما يتعلق منه بالمؤلفات الزراعية [١٧] (والأقدم منها – خاصة مُؤَلَّف "الطجنارى" الغرناطي – يعطي الانطباع بأنه استمرار لتقليد قديم متبع ، ولذا فهو يستحق الدراسة المتأنية) ، أو ما يتعلق بمؤلفات علم النبات [١٨] التي تقدم لنا قائمة عريضة بالزهور البرية أو المزروعة في أراضي الأندلس وبأسمائها العربية والرومانثية الدقيقة [١٩] .

وبالرغم من هذه الإطلالة السريعة إلا أننا لا يمكن أن نمر مرور الكرام على عدد من المؤلفات الفقهية أو الشرعية لما لها من فضل لا ينكر على التاريخ الاقتصادى لإسبانيا الإسلامية ، أشرنا من قبل إلى مجموعة "النوازل" وبعضها يعتبر – خاصة ما أعده "أبو الأصبغ عيسى بن سهل" في النصف الثاني من القرن الحادى عشر – بمثابة تعويض عن النقص الناجم عن التسجيل والحفظ (الأرشيف) لأنها تورد القضايا التي رفعتها السلطة المركزية إلى "مدرسة الفقهاء" ؛ هذا بالإضافة إلى عدد لا بأس به من الفتاوى التي تمدنا ببيانات هامة عن الحياة الاجتماعية ، والشيء نفسه ينسحب على عدد من صيغ المحررات والعقود ، خاصة ما يتعلق منها بالتكنولوجيا الاقتصادية ، وقد قام بإعداد مجموعتين منها – طبقًا للصيغ المتعارف عليها في القرن العاشر – كل من "أبو محمد القيسي" و "ابن القاسم الجزيرى" ، وكلا العملين يستحق وقفة متأنية [٢٠] ، وسندرك في الصفحات التالية مدى أهميتها من استمرارية اعتمادنا عليهما .

أما مؤلفات "الحسبة" المدونة في إسبانيا بواسطة القضاة الذين تولوا هذه الوظيفة (المحتسبون) لكي يرجع إليها من يأتي بعدهم أو زملاؤهم في المدن الأخرى ، فتشكل هي الأخرى مصدرًا أساسيًا لمعارفنا عن التاريخ الاقتصادى للأندلس ، وأقدم مُؤَلَّفين وصلا إلينا من هذا النوع يخصان الإشبيلي "ابن عبدون" و "السقطي" المالقي (نسبة إلى مالقة) وكلاهما متأخر عن عصر الخلافة بل عن عصر الطوائف كذلك . ومن الواضح أن هدف العملين يكمن في اقتراح بعض الإصلاحات في العلاقات الاجتماعية والتعاقدات ، ومحاولة منع الغش في التجارة وتلافي العديد من صور الاستغلال المتروك الحبل فيها على الغارب ، وبالرغم مما يتضمنه العملان من اتهامات وتحذيرات لأصحاب النوايا السيئة إلا أنهما يسلطان الضوء – من منظور عام ينسحب أيضًا على القرن الحادى عشر بل على القرن العاشر كذلك – على المشهد اليومي لحياة الشارع بأسواقه العامرة التي يتدافع فيها الزبائن بالمناكب .

٢ - أدوات الحياة الاقتصادية [٢١]

الموازين والمقاييس والمكاييل :

لن نتمكن - بالاعتماد على الوثائق المعاصرة وحدها - تقدم لوحة متكاملة لنظام الوزن والكيل والقياس فى عصر الخلافة القرطبية ، بل لا بد من الأخذ فى الحسبان المنظور العام للحياة الاقتصادية ، وبادىء ذى بدء نقول إن الأندلس لم تحدث تجديداً فى نظم الوزن والكيل ولا فى النظام النقدى ، بل احترمت فى القرن العاشر - وما سبقه وما لحقه أيضاً من قرون - النظم التقليدية المتبعة فى بقية العالم الإسلامى ، وتبنت على أرض الواقع - مثله أيضًا - وحدات القياس والوزن المتعارف عليها فى القرن الهجرى الأول ، ما حدث فيها لم يزد عن التنويع والتوسع نتيجة لتغير الزمان والمكان ولطبيعة الأشياء المستهدفة بالوزن والقياس ، ولهذا السبب ذاته قد تفتقر معلوماتنا لبعض الدقة . بالرغم من المصطلحات التى تغص بها النصوص ، إلا أنها لا يمكن أن تعوض النقص الواضح فى وحدات القياس والوزن الأصلية الخاصة بتلك الفترة لأنها الوحيدة التى نستطيع من خلالها عمل موازنات وتقديرات رقمية لإقليم بعينه فى فترة معينة ، ومن ثم علينا أن نقنع بإمكانية تعداد الوحدات الأساسية للوزن والاستيعاب والطول والمساحة (التى أثبتت الدلائل وجودها فى عصر الخلافة والقرن التالى له حتى الاحتلال المرابطى) ومحاولة مضاهاتها - ولو مؤقتًا - بنظم الوزن والكيل المستخدمة حاليًا فى أوربا .

كان "الرطل" هو وحدة الوزن الأكثر شيوعًا ، سواء داخل إسبانيا أو خارجها ، ويحتوى على ١٦ "أوقية" ، وبما أن القيمة التقديرية العادية للأوقية تساوى ٣١,٤٨ جرامًا ، فقد كان "الرطل" يساوى فى البداية ٥٠٤ جرام ، ونسبة ١٦ إلى ١ (الرطل = ١٦ أوقية) التى يتحدث عنها "السقطى" فى مالقة فى بداية القرن الثانى عشر [٢٢] لم تكن ثابتة بالضرورة ، وهكذا نجد - على سبيل المثال - أن جغرافيا مثل "البكرى" [٢٣] عندما تحدث عن أربعة موانىء مغربية خاضعة بشدة للتأثيرات الأندلسية (ناقور ، ومليلة ، و"أرشجول" ، و "تنس") أشار إلى أن الرطل المستخدم فيها على أيامه يساوى ٢٢ أوقية ، كما أن القيمة التقديرية للرطل ذاته كانت تختلف تبعًا لنوعية البضاعة الموزونة : فالرطل فى الجزارة (رطل جزارى) كان يساوى ٦٤ أوقية

أى أربعة أمثال الرطل العادى [٢٤] ، والمائة رطل يشكلون "قنطارًا" ، وعلى هذا فربع القنطار (ربْع) يساوى ٢٥ رطلاً ، وقد كانت البضائع العادية - خاصة المنتجات الغذائية الجامدة والصلبة - توزن بالرطل أو " الرُّبع" ، باستثناء الغلال الخاضعة للكيل دائمًا ، وعملية الوزن كانت تتم بالميزان القبانى (الوارد وصفه بالتفصيل فى مؤلفات الحسبة) وبواسطة "سنْجة" من الحجر أو الحديد أو الزجاج كانت تحمل فى البداية علامة (دمغة) القاضى المكلف بشرطة السوق ومنع الغش والتدليس ، أما وزن المعادن النفيسة والعملات الذهبية والفضية ، علاوة على بعض المواد النادرة مثل الأفاويه ، فكان يتم بوحدات متفرعة عن الأوقية مثل "المثقال" (الذى كان أكثر استخداما فى الذهب) و "الدرهم" بالنسبة للفضة ، ودرهم الوزن - وعلينا ألا نخلط بينه وبين درهم النقد - يساوى ٣,١٤٨ جرامات ، أى عُشر أوقية ، وهذه النسبة يمكن أن تتغير (كما هو الحال بالنسبة للأوقية ذاتها) ، والسقطى من جهته يخبرنا فى القرن الثانى عشر أن الأوقية تساوى ٢٠ درهمًا فضيًا [٢٥] ، أما "المثقال" فوزنه القانونى يعادل ٤,٧٢ جرامات ، أى أنه كان يحتاج فى البداية إلى $\frac{٢}{٣}$ ٦ مثقال ليصل إلى أوقية ، لكن مسمى وحدة الوزن هذه (مثقال) كان يستخدم أيضًا - كما سنرى بعد قليل - للإشارة إلى وحدة نقدية تقل قيمتها قليلاً عن الدينار ، أما الموزونات التى تتطلب كثيرًا من الدقة فنجد لها كذلك تفريعات أقل من "المثقال" و "الدرهم" مثل "القيراط" (وهو يساوى نصف درهم) و "الجرام" (حبَّة) .

أما بالنسبة لمكاييل السِّعة فكانت على نوعين تمشيًا مع طبيعة المادة الخاضعة للكيل : جامدة أو سائلة ، كانت وحدة كيل النوع الأول (مثل الغلال والدقيق والمنتجات الجافة الأخرى) قريبة الشبه من "المدّ" القديم أو "المدّ النبوى" المعروف الحجم منذ بداية الإسلام ، وكذلك أربعة أضعافه المسمى بـ " الصّاع" الذى يتم به تحديد كمية الحبوب التى يتصدق بها المسلم نتيجة إفطاره أثناء شهر الصيام ، و "المدّ النبوى" يوازى فى أيامنا ٠,٧٥ من الليتر ، بينما يسع الصاع ٣ ليترات [٢٦] ، لكن "المدّ" المستخدم فى الغرب الإسلامى - طبقًا للمؤلفات الشائعة - كان حجمه أكبر بكثير ، والبكرى - على سبيل المثال - يقدر مدّ "أرشيلا" بعشرين مدًا نبويًا ، ومدّ "مليلة" بخمسة وعشرين [٢٧] ، أما المد القرطبى فى نهاية القرن العاشر فكان يساوى - طبقًا للنويرى ٢,٥ "قفيز" من المستخدم فى القيروان [٢٨] .

والمكيال الأخير بجزئياته هو الذى كان سائداً فى عصر الخلافة القرطبية لو أخذنا بكلام المقدسى [٢٩] الذى يخبرنا أن "القفيز" المستخدم فى الأندلس يعادل ٦٠ رطلاً وزنًا ، وأن ربعه المسمى "فنيقة" (faniqa) يساوى ١٨ رطلاً ، لابد أن الأمر يتعلق بنسبة الحجم إلى الوزن فى مادة معينة (القمح ، دون شك) لأن ربع "القفيز" يساوى – طبقًا لكلام المقدسى السابق – ١٥ رطلاً وليس ١٨ رطلاً كما نُكر ، كما يحدث خلط بين "الفنيقة " وجزء "القفيز" المستخدم فى إسبانيا ، ونعنى به "القدح" الذى يعادل – طبقًا للسقطى [٣٠] – ثلاثين رطلاً بالنسبة للدقيق والذرة المكنسية ، ولا بد أن سعة القدح قد تقلصت بعد ذلك لأن البكرى عند حديثه عن "أرثيلا" يقول [٣١] إن مدّ هذه المدينة (الذى يساوى ٢٠ مداً نبوياً) يعادل ١٥ رطلاً وزنًا ، وهو نفس وزن "الفنيقة" القرطبية ، وبعد انتقال إشبيلية لأيدى المرابطين نجد أن " القدح" فيها كان يساوى – اعتماداً على ما أورده ابن عبدون [٣٢] – الربُع وزنًا ، وللتخفيف من آثار عدم انضباط نظام الكيل فقد كانت تُقبل أحيانًا ، بدلاً من " الكيل بالممسوح" [٣٣] ، زيادة فوق حافة المكيال على سبيل التعويض .

أما السوائل ، وفى مقدمتها الزيت ، فكانت لها مكاييل من الفخّار عليها (دمغة) "صاحب السوق" ، وفى تجارة التجزئة كان يستخدم "الثُمن" الذى يعادل وزنه زيتا ٢,٢٥ رطل [٣٤] ، أى أكثر قليلاً من ١١٢٥ جرامًا ، ولا يزيد حجمه عن ١٢٢,٢٨ سنتيليتر نظراً لكثافته ، ومضاعفات "الثُمن" تمثلها القُلّة" التى تسع ١٢ "ثمنًا" ، أى ٢٧ رطلاً ، وفى مدينة "أرثيلا" – طبقًا للبكرى [٣٥] – فإن "القليلة" كانت تعادل ١١٢ أوقية ، أى ٧ أرطال ، أما الكميات الكبيرة فى تجارة الجملة فكانت لها آنية كبيرة تسمى "خابية" ومحتواها يقترب من ٢٠ ربعًا ، كما كانت هناك "أثمان" خاصة للعسل والخل واللبن : و "ثمن" اللبن يزيد بمقدار النصف عن "أثمان" السوائل الأخرى [٣٦] .

كانت وحدة قياس الطول فى الأندلس – مثل بقية العالم الإسلامى – هى "الذراع" القديم ، وطول "الذراع" فى الأندلس – الأطول قليلاً من الذراع العراقية المعروفة بالمأمونية (نسبة إلى المأمون) – يعادل بالضبط طول الذراع الموجود على مقياس النيل بجزيرة الروضة بالقاهرة ، وقد أحضر نسخة من هذا المقياس إلى قرطبة ، فى عهد عبد الرحمن الثالث ، رجل يدعى "محمد بن فرج الرشاش" وقام برسمه على إحدى

أعمدة مسجدها الجامع ، ومنذ ذلك الحين ظل هذا "الذراع" (المسمى بالرشاشى) يستخدم فى إسبانيا حتى نهاية عصر الخلافة على أقل تقدير ، وقد اعتمد كل من البكرى والإدريسى على هذا الذراع فى تقدير أبعاد الآثار التى تعرضا لها بالوصف ، وعلى سبيل المثال "فنار" الإسكندرية وجامع قرطبة (٣٧) ، وجزئيات الذراع الأندلسى تتمثل فى "الشِّبر" (٢٣٧ ملليمتر) ، و "القبضة" (٧٩ ملليمتر) ، وبما أن الذراع الرشاشى يحتوى على ٣ أشبار فإن طوله يعادل ٠,٧١ من المتر ، وبالإضافة إلى الذراع الرشاشى أثبتت الوثائق وجود نوعين آخرين فى الأندلس : أحدهما عادى يساوى شبرين (أى ٠,٤٧ من المتر) ، والآخر كبير (ذراع كبير) يساوى ٣,٥ أشبار (أى ١,٠٧ متر) ، أما المقياس المضاعف للذراع – الذى يستخدم فى مصطلحات البناء – فيسمى "قالة" (Qala) وهو يساوى ٧ أذرع ، وفيما يخص "اللَّوح" (الذى يطلق على القالب العلوى من الجدار) فلا نعتقد أنه كان يزيد عن الذراع (٣٨) ، كما توجد وحدة قياس مضاعفة للذراع تسمى "القصبة" وهى تعادل أربعة أذرع .

أما بالنسبة لقياس المسافات إسبانيا الإسلامية فقد كان يستخدم (علاوة على "المرحلة" غير الدقيقة بالمرة) "الميل" ويمكن تحديده بـ ١٤٢٠ متراً ذلك لأنه يعادل (طبقًا لما ذكره أحد المؤرخين عن الخندق الذى حُفر حول قرطبة أيام الحرب الأهلية السابقة لانهيار الخلافة) ٣٠٠٠ ذراع عادى (والذراع العادى يساوى كما نعرف ٠,٤٧ من المتر) (٣٩) كما كانت المسافات البحرية تقاس أيضًا بالميل (٤٠) .

لم تكن توجد – على ما يبدو – مقاييس خاصة بالمساحة : وعلى سبيل المثال فقد كان يستخدم الذراع المربع فى البناء ، وبالنسبة للمقاييس الزراعية كان يعرف "المرجع" وهو يساوى ٢٥ ذراعًا مربعًا ، و "الزوج" (يساوى ألف ذراع مربع) وسمى هكذا لأن هذه المساحة هى ما يمكن حرثه فى فصل الخريف بمحراث يجره "زوج" من البهائم .

وقبل أن نختم حديثنا عن المكاييل والموازين والمقاييس (التى ظلت كما هى فى الأندلس حتى القرن الخامس عشر بالرغم من تعرض معاييرها لبعض التعديلات الطفيفة) تجدر الإشارة إلى أن معظم مصطلحاتها قد انتقل فى العصر الوسيط لإسبانيا المسيحية وأنه طغى على ما كان بها من مصطلحات ، وما زالت اللغة الإسبانية تحمل حتى يومنا هذا كثيراً من هذه المصطلحات التى نذكر منها أربعة فقط على سبيل

المثـال : رُبعْ أو "رُبْعـة" (arroba) ، "فنيقـة" (fanega) ، "قـفيـز" (Cahiz) ، "مَـرْجع" (marjal) .

المسكوكات النقدية :

على خلاف الإبهام المسيطر على معايير الوزن والكيل والقياس ، لدينا – بفضل علم المسكوكات – معلومات دقيقة عن النقد المستخدم فى الأندلس خلال القرن العاشر ، وبالفعل ، أجريت – منذ نهاية القرن التاسع عشر – كثير من الدراسات الإسبانية عن النقد المستخدم فى إسبانيا خلال العصر الإسلامى (٤١) ؛ وفى الولايات المتحدة الأمريكية صدرت مؤخراً دراسة مستفيضة عن "المسكوكات" فى عصر الإمارة والخلافة الأموية قتلت الموضوع بحثًا (٤٢) وإليها نحيل كل من يبغى التوسع فى المعلومات الموجزة التى نقدمها هنا .

عَرجنا فى الفصل الأول من هذا المجلد على التاريخ النقدى للأندلس حتى بداية الخلافة الأموية ، وأشرنا إلى أن احتكار الدولة لسك الذهب والفضة خلال عهد عبد الرحمن الثالث ومن جاءوا بعده كان يشكل أحد الروافد الهامة للخزانة العامة ، وفى الفترة من منتصف القرن الثامن حتى عصر الخلافة اقتصر السك فى الأندلس على الدراهم أو القطع الفضية ، وإذا نحينا جانبًا بضع عشرات من الدنانير التى يرجع تاريخها لعهد حكام الأندلس الأُوَل (٤٣) يمكن القول إن العملات الذهبية الأولى التى سُكّت فى قرطبة كانت بأمر من الناصر وتحمل اسمه ، ومن هذه الدنانير – التى يرجع تاريخ أقدمها لعام ٣١٧ هـ (٩٢٩م) وينتهى أحدثها بسنة ٤٠٣هـ(١٠١٣م) (زمن سليمان المستعين) – يوجد أكثر من خمسمائة نموذج متعرف عليها ومثبتة فى قوائم .

لكن الدراهم المسكوكة فى الأندلس – سواء فى عصر الإمارة أو الخلافة – وعُثر عليها يزيد عددها بكثير ، إذ يتجاوز مجموعها ١٦٠٠٠ درهمًا ، نجد منها (بالنسبة لعصر الإمارة) ما يرجع تاريخه لجميع السنوات المحصورة بين ١٤٦هـ (٧٦٣م) و ٢٧٩هـ (٨٩٢م) ؛ ثم تتباعد تواريخها فى السنوات التالية حتى تتلاشى نهائيًا بعد عام ٣١٥هـ (٩٢٧م) : أى فى عهد الأمير عبد الله وبداية عهد عبد الرحمن الثالث ، ولما تولى عبد الرحمن الثالث الحكم وبادر بتأسيس الخلافة الأموية –

فـى مواجهة الفاطمية - اهتم بوضـع لقبه المهيب على العملات المسكوكة فى مملكته ، فلم تعد هناك حواجز معنوية من أى نوع لكى يتخذ هذا القرار ، ولم يعد يناسبه بعد إعلان الخلافة الاكتفاء - مثل أسلافه - بإصدار عملات لا تحمل لهم أية إشارة .

ومنذ ذلك الحين و "دار السكة" تقوم بسك الدنانير والعملات الفضية ، ومن عام ٣١٦ هـ (٩٢٨م) ودراهم عصر الخلافة تشكل سلسلة تاريخية متصلة وتغطى ، عامًا بعد آخر ، بقية القرن الرابع الهجرى حتى ٤٠٦ هـ (١٠١٦م) على الأقل ، وعندما نقل الناصر مقر إقامته إلى مدينة الزهراء أنشأ فيها (علاوة على أجهزة الخدمات المركزية الأخرى) مصلحة للنقد عام ٣٣٦ هـ (٩٤٨م) - طبقًا لما ذكره أحد المؤرخين (٤٤) - ، وبالفعل فمنذ هذا التاريخ وحتى ٣٦٤ هـ (٩٧٥م) تحمل الدراهم والدنانير الأندلسية المحفوظة إلى الآن - باستثناء حالات نادرة - على أحد وجهيها ما يفيد بسكه فى مدينة الزهراء ، وخارج نطاق الفترة السابقة ، يبدو أن جميع الإصدارات كانت متمركزة فى العاصمة بالرغم من عدم ظهور اسم قرطبة - باستثناء حالة واحدة لم يتوصل فيها لرأى قاطع (٤٥) - على النقود المسكوكة فى عصر الإمارة والتى كانت تحمل فقط ما يفيد بسكها فى الأندلس ، وقد حملت بعض الدنانير التى يرجع تاريخها للفترة من ٣٧٨ إلى ٣٨٤هـ (٩٨٨-٩٩٥م) (أى فى عهد هشام الثانى) ما يفيد بسكها فى "سيشيلماسا" (٤٦) . أما بالنسبة للدراهم التى عثر عليها وتخص الفترة من ٣٦٧هـ إلى نهاية القرن الرابع الهجرى ، فبعضها تم سكه فى مدينة "فاس" (٤٧) ، بينما يحمل البعض الآخر - الذى يتراوح تاريخه بين ٣٧٢هـ و ٣٩٧هـ (٩٨٢ - ١٠٠٧م) - اسم مدينة "ناقور" الصغيرة الواقعة على الساحل الشمالى للمغرب (٤٨) .

إلى هذه البيانات الإحصائية يمكن إضافة ما يتعلق بوزن وحجم القطع النقدية ، وكذلك الطريقة المستخدمة فى الكتابة والنقش عليها ، وبصفة عامة فقد كانت القطع الذهبية أصغر حجمًا من الفضية وأسمك منها بقليل ، ولو نحينا جانبًا الكسور النحاسية (مثل "الفَلْس" الذى يعادل - طبقًا لابن الفقيه (٤٩) - واحدًا على ستين من الدرهم) لعدم العثور إلا على أعداد قليلة منها مؤرخة (٥٠) ، يتضح عدم وجود معيار ثابت بين الدنانير والدراهم بالنسبة للحجم والوزن ، فالقطر المتوسط للدرهم فى عصر الخلافة يتراوح - تبعًا لعهد صاحبه - بين ٢٤ و ٢٦ ملليمتر ؛ والوزن المتوسط

الذى كان ٢,٨٣ جرام فى عهد عبد الرحمن الثالث ، و ٢,٧٧ جرام فى عهد الحكم الثانى وصل إلى ٣,١١ جرام فى عهد هشام الثانى ومن جاءوا بعده ، وفيما يخص معيار السبك فإن معلوماتنا عن متوسط نسبة المعدن الخالص المستخدم هزيلة جداً ، ولا يمكننا - بالتالى - إثباتها كقاعدة ، لكننا نستطيع الجزم - وعلى خلاف ما ذهب إليه المؤرخون - بأن تلك النسبة لم تكن عالية لا فى الذهب ولا فى الفضة أيضاً (٥١) .

وفيما يخص القطع الذهبية فالمسألة أشد تعقيداً ذلك لأننا أمام قطع ذات أوزان وأحجام متفاوتة وجميعها يحمل نقشاً يفيد بأنه "دينار" دون أية إشارة أو علامة تبين أنه كسر أو تضعيف له ، وغياب هذه العلامة لم يكن عائقاً فى الاستخدام اليومى للاعتياد على التمييز من أول وهلة بين الدينارات الصحيحة وبين أنصاف أو أثلاث أو أرباع الدينار ؛ وربما كانت موجودة أيضاً تضعيفات للدينار يستخدمها العاهل - مثلاً - فى هداياه لرجال البلاط فى مناسبات معينة . على أى حال ، فنحن نعرف قطعاً ذهبية يبلغ متوسط قطرها ٢٤ ملليمترا وأخرى تبلغ ١٢ ملليمتراً (أى النصف) ، وفيما يخص الوزن - ونحن فى هذا نعتمد فقط على إصدارات مدينة الزهراء - فإنه كان يتراوح فى الدينار بين ٣,٤٣ و ٤,٤٠ جرام ، ولا يزيد فى النصف عن ١,٢٦ جرام ؛ ومع هذا توجد دينارات يزن الواحد منها ٤,٨٠ جرام (٥٢) ، سيؤول بنا الأمر إلى التخبط بين هذه الأرقام إذا لم ندرك أن الهدف الأساسى من السك الرسمى للعملة يكمن فى تجنيب المستخدم العملات المغشوشة ، وفى حث المتعامل على إجراء الوزن المسبق إذا كان الدفع سيتم بالمعدن النفيس .

كانت الدراهم والدنانير الأندلسية - تحمل مثل نظائرهما فى بقية العالم الإسلامى خلال العصر الوسيط - نقشين على كل وجه من وجهيهما ، يحتل أحد النقشين الوسط ويأتى النقش الثانى دائرياً على الحافة . يتألف النقش الأوسط على وجه العملة من ثلاثة أسطر تقول : "لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له" ؛ بينما يشير النقش الأوسط على ظهرها ، وفى ثلاثة أسطر أيضاً (وأحياناً أربعة فى حالات نادرة) إلى وصف العاهل الحاكم بالإمام ، ثم اسمه ، ثم صفته كأمير للمؤمنين ، وأخيراً لقبه التشريفى ، ونذكر على سبيل المثال ما ورد بالنسبة لخليفة قرطبة الثانى : "الإمام/الحكم/أمير المؤمنين/المستنصر بالله" ، وفوق أو تحت هذا النقش الأوسط

المزدوج يمكن أن يظهر اسم شخص ما دون ذكر صفته : إذا جاء على وجه العملة فمن المعتاد أن يكون لرئيس مصلحة النقد ؛ وإذا جاء على ظهر العملة يكون - من بداية عهد الحكم الثانى - لواحد من أصحاب المقام الرفيع : فى البداية كان جعفر الصقلبى ، ثم خلفه ونظيره "جعفر المصحفى" (٥٣) ؛ وبعد ذلك - بين العامريين - ظهر المنصور فى البداية على إصدارات هشام الثانى (من خلال الإشارة المقتضبة "عامر") (٥٤) ، ثم ابنه عبد الملك (٥٥) ؛ وفى نهاية عصر الخلافة ظهر اسم ولى العهد (٥٦) ، وفى الدنانير كانت علامة " الشرطة" (-) أو الدائرة تفصل بين النقش الأوسط (سواء على الوجه أو الظهر) وبين النقش الموجود على الحافة ؛ أما الدراهم فلم يظهر فيها الخط الفاصل إلا منذ النصف الثانى من القرن العاشر وكان على الظهر فقط ، وكان النقش على وجه العملة يشير بعد البسملة (بسم الله) إلى مكان وتاريخ السك : "هذا الدينار (الدرهم) سُكَّ فى الأندلس (فى مدينة الزهراء) عام ...." ، أما النقش الدائرى الموجود على حافة الظهر فكان يحمل - دون استثناء - الآية القرآنية رقم ٩ من السورة رقم ٦١ (*) .

هذه باختصار البيانات التى أمدنا بها علم المسكوكات عن النقد فى عصر الخلافة القرطبية ؛ لكن هذه البيانات لا تكفى وحدها لإلقاء الضوء على الجانب العملى من استخدام تلك النقود فى الصفقات العادية ، وفى هذه النقطة بالذات تواجهنا مشاكل عدة لا تقل عما واجهناه فى نظم الكيل والوزن والقياس والأندلسية .

والمشكلة الأولى تكمن فى استحالة تحديد قيمة الفضة المسكوكة قياسًا إلى الذهب المسكوك ، لأننا لا يمكن أن نُعول بأى حال على النسبة النظرية التى تحدد قيمة الدرهم ب $\frac{١}{٧}$ دينار ، والإشارة الوحيدة التى لدينا عن عصر الخلافة القرطبية لم يثبت سلامتها لأن مصدرها أقوال متضاربة لابن حوقل : فبينما يعلن - فى الفقرة المشار إليها من قبل - أن الدرهم الأندلسى يساوى $\frac{١}{١٧}$ من الدينار ، نجده يقر فى موضع آخر بأن "دينار الذهب فى الدول الإسلامية خلال العصر الوسيط يساوى ما بين ١٠ و ١٢ درهمًا" (٥٧) ، ليس أمامنا - بالتالى - خيار سوى البحث والتنقيب فى النصوص

(*) السورة القرآنية المقصودة هى «سورة الصف» ، والآية التاسعة منها هى قوله تعالى : "هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» ، صدق الله العظيم (المترجم) .

العربية التى تتناول وسيلة الدفع فى عصر الخلافة القرطبية سواء كانت بالذهب أو الفضة ، ومحاولة استخلاص بعض النتائج منها ، وبعد فحص تلك المصادر ومواجهتها ببعضها اتضح أن الدفع كان يتم بالذهب أو الفضة على حدة ، وليس بهما معًا ؛ وهذا يشير إلى الحرص الدائم على الوزن الفعلى للمعدن المسكوك أو تقويمه – على الأقل – طبقًا للنظام المتبع (٥٨) .

كما يلاحظ أيضًا أن الدفع بالذهب خلال القرن العاشر والحادى عشر لم يكن يحدث إلا فى حالات قليلة ؛ وهذا أمر طبيعى إذا أخذنا فى الاعتبار أن دوران العملات الذهبية فى الأسواق الأندلسية كان أقل بكثير من العملات الفضية .

أما بالنسبة للصفقات الأقل أهمية فكانت الوحدة المستخدمة فيها هى الدرهم المصطنع أو ما يسمى "بالدرهم القاسمى" ذى القيمة التقديرية الثابتة ؛ ولا بد أن تسميته جاءت نسبة إلى شخص يدعى "قاسم" لا نعرف عنه شيئًا (٥٩) ، على أى حال ، فقد كان استخدام هذا الدرهم شائعًا فى عصر الخلافة لأنه ظهر فى وثائق مملكة "ليون" (Kazimí, Cathmí) عند حديثها عن الدراهم القرطبية المستخدمة فى إسبانيا المسيحية خلال الفترة نفسها (٦٠) ، ومن جهة أخرى ، فقد أورد ابن عذارى فى مدونته قيمة النفقات التى صرفها الناصر على بناء منارة مسجد قرطبة الجامع وعلى إعمار "مدينة الزهراء" بالدراهم القاسمية (٦١) .

وبالإضافة إلى "الدرهم القاسمى" توجد وحدة أخرى كانت تستخدم فى دفع المبالغ الكبيرة وهى : "دينار دراهم" (وستظهر هذه الوحدة فى النظام النقدى للغرب الإسلامى ثانية خلال عصر متأخر وستطلق عليها النصوص الأوربية كلمة "بيزنطى" (٦٢)) ، وطبقًا لإشارة يعتمد عليها (٦٣) فإن "دينار الدراهم" هذا كان يساوى فى الأندلس ١٢ درهمًا ، أى ١٢ "درهمًا قاسميًا" على الأرجح ، لكن جرت العادة أن يأتى مصطلح "دينار الدراهم" هذا مصحوبًا فى كتب المحررات والعقود بنعوت ملغزة مثل "أربعينى" أو "دَخْل" أو – فى معظم الأحيان – بتعبير يجمع بينهما "بدخل أربعين" ، والتعبير الأخير (الذى حيرّ – وبحق – العديد من المستشرقين) ظهر عام ٩١٥ م (٣٠٣هـ) فى فقرة من مدونة "عارب بن سعيد" (٦٤) تتحدث عن الثمن الذى بلغه فى إحدى سنوات الجفاف "قفيز" القمح فى قرطبة ، ولحسن الحظ فقد ورد شرح التعبير فى كتاب

صور المحررات والعقود لمحمد القيسي وفي المؤلف النقدى الذى وضعه في فاس خلال القرن الرابع عشر رجل يدعى "المديونى" [٦٥] ، ومما يقوله المؤلفان يتضح أنه لكى يتم تقدير مبلغ من الدينارات التي يحتوى كل منها على اثنى عشر درهمًا ، يجب حذف قيمة الدرهم المسمى "دخل" عند التحويل إلى الدرهم القانونى الموزون (درهم كيل) ، وبهذا الشكل ينخفض "دينار الدراهم" إلى ٥/٧ ؛ وفي كلمات أخرى نقول أنه بإضافة ٤٠٪ من قيمة "درهم الدخل" إليه (إدخال أربعين) نحصل على "درهم كيل" .

وفيما يخص الدفع بالذهب ، فمن المحتمل أن الدنانير الأصلية (الملكية) ، من النوع المسمى "بالجعفرى" [٦٦] (قد تكون التسمية نسبة إلى أحد حاجبى الحكم الثانى) أو "السيشيلماسى" (Sichilmassi) (المسكوك فى "سيشيلماسا") [٦٧] ، كانت متحررة القيمة فى النصف الثانى من القرن العاشر ، وفى أغلب الأحيان كان الدفع يتم أيضاً بنقود عّدية كالمثقال الذى تبلغ قيمته ١٥/١٦ من الدينار ، وفى القرن العاشر والحادى عشر يرد ذكر المثقال الأندلسى مصحوبًا بالنعت (قرمونى) [٦٨] ؛ كما يوجد أيضاً – وإن كان نادرًا – تعبير "مثقال محمدى" ، لكننا لانستطيع حاليًا تقديم تفسير مقنع لأى من النعتين .

٣ - الزراعة (٦٩)

الملامح الزراعية للأندلس :

لا ننوى تحت هذا العنوان تقديم لمحة - ولو سريعة - عن الجغرافيا الطبيعية لإسبانيا ولا عن تضاريسها المعقدة ولا عن وعورة مرتفعاتها التى تجعل منها واحدة من أشد بلاد الدنيا ارتفاعًا وتعرضًا للمخاطر ، فى هذا المرتفع المربع الأبعاد الذى لا تربطه ببقية أوربا سوى بوابة البرانس ويكاد يلامس جنوبه القارة الإفريقية وتشرف منه واجهتان بحريتان طويلتان على الأطلنطى والمتوسط تتداخل آلاف التأثيرات فى تحديد مناخه ومواسم أمطاره ومجارى أنهاره ؛ وهذا ما يضفى على الكتلة الإيبيرية طابعها المتنوع الخاص ، من درجات حرارة شديدة التفاوت ، ومناظر طبيعية عنيفة الاختلاف ، وأقاليم طبيعية جلية التناقض : من العُرى الصارم للهضبة إلى وفرة أراضى السَّقْى وكثافة الجنان فى الوديان والمناطق الساحلية ، هكذا فجأة دون تدرج فى الرؤى ، فإلى جوار إسبانيا الرطبة ، الخاضعة مباشرة لمظاهر حلم الأطلنطى وجوده (والتى لا تغطى سوى ثلث المساحة الإجمالية لشبه الجزيرة) ، تمتد إسبانيا جافة لا تقوى فيها ، الأمطار القليلة العاجزة - لتبخرها - على نقع غلة الأرض العطشى التى يأكلها التشقق (٧٠) .

باستثناء غرب البرتغال الحالى ومنطقة الثغر الأدنى ، يمكننا القول إن معظم الجزء الخاضع من شبه الجزيرة للسيطرة الإسلامية أثناء حكم الأمويين كان يقع فى إسبانيا الجافة بملامحها الطبيعية شديدة التنوع منذ القدم وبالتناقض الماثل فيها من إقليم لآخر ، والمجهود البشرى وحده هو الذى استطاع على نحو ما - كما يحدث الآن - التخفيف من غلظتها الطبيعية وترويض قحولة أراضيها ، ومع هذا ، فإلى جوار الأراضى الجحود للهضبة ، توجد فى جنوب "أندلوثيا" وفى الشرق ، على طول وديان بعض الأنهار - مثل الوادى الكبير و "الشنيل" خاصة - الغوطات والبساتين وأراضى السَّقْى الملائمة للزراعات الكثيفة .

لكن التنوع الشديد للأرض الأندلسية وافتقارها إلى التجانس (الذى يجعلها غريبة عن جغرافية أوربا وقريبة الشبه من بلاد بربر شمال إفريقيا) لم يصدم الغزاة المسلمين أو يقلل فى أعينهم قيمة ما أقدموا عليه من فتح ، فلم تكن سنوات الجفاف جديدة عليهم

وربما أملت عليهم قناعتهم أن الهضاب والمناطق القاحلة للأراضى المرتفعة والكتل الجبلية الحادة تعتبر المقابل الطبيعى أو الحتمى للمناطق المباركة التى فتحها أسلافهم من قبل وتمكنوا من استغلالها وتحويلها إلى جنان فيحاء ، ومع هذا لا نجد بين شعراء إسبانيا الإسلامية الموهوبين واحداً تغنى بالقمم الخربة ولا بالمساحات الشاسعة التى تعصف بها الرياح ، بل إنهم اتجهوا - ومعهم الجغرافيون - صوب إسبانيا "النافعة" وتفننوا فى وصفها والحفاوة بها .

لا نجد - بالفعل - مؤرخًا أو جغرافيا ، من المشرق أو المغرب ، وصف الأندلس ولو فى بضعة أسطر وسلِم من الثناء على غنى أراضيها ومكنون ثرواتها ، وها هو مؤلف أندلسى لا يتردد - فى إحدى فقراته ذائعة الصيت - فى مقارنة وطنه بأوطان حبتها الطبيعة بخيرها العميم مثل سوريا واليمن وبلاد فارس والهند والصين [٧١] ، وقد سبق العرب فى الإشادة بإسبانيا وتمجيدها الكثيرون مثل "بوليبيو" و "إسترابون" و "بلينيو" ، وأخيراً إيسيدورو "الإشبيلى" ، وإذا كان العرب قد رددوا رجع هذا الثناء فى القرون التالية فقد كان ذلك لإحساسهم بأنهم لم يعودوا غرباء عنها ، ولأنها - فى نهاية المطاف - تعتبر من أفضل البلدان التى شهدت فيها حضارتهم تطوراً ملموسًا بالرغم من طبيعتها غير المتجانسة ، ومن باب الإنصاف نقول إنه بدون الخبرة الزراعية للفلاحين المولدين والمستعربين والبربر لتحولت الأندلس إلى أرض جرداء تقريبًا ، ولما أصبحت مثل غوطة دمشق ، أو وداى النيل ، أو وديان دجلة والفرات .

والمؤلفات الزراعية العربية هى وحدها التى أبرزت النوعيات المختلفة للأرض الأندلسية ، وألقت الضوء على الجهود المبذولة فيها والعناية المستمرة بها : من تسميد ورى إلى العمل اليومى ، أو من استئصال الحشائش الضارة إلى الكفاح ضد الآفات والطيور والجراد . تعتبر هذه المؤلفات الأدب الوحيد الذى يحمل عبق الأرض ومذاقها ، ومع هذا فقد عانى حتى اليوم من الإهمال والنسيان الظالمين ، وبالرغم من أن هذه المؤلفات تنتسب إلى عصر متأخر نسبيًا ، إلا أنها تجعلنا نعتقد بأن التقنية الزراعية - الموروثة عن إسبانيا الرومانية والقوطية - قد نضجت واكتملت بسرعة تحت السيطرة الإسلامية ، ولا يقتصر الأمر على هذا فحسب بل أدخل العرب فيها - منذ القرن التاسع ، مصطلحاتهم الخاصة التى انتقل جزء كبير منها إما إلى اللغة الإسبانية

أو إلى اللجهات المحلية فى "أندلوثيا" والمنطقة الشرقية أو "رغون" (Aragón) ، على أى حال ، فقد كانت الحواف الجنوبية والشرقية من الهضبة فى زمن الخلافة القرطبية – كما هو الحال الآن – عبارة عن مناطق شاسعة خالية من السكان ، وأراضى حرث ، وتلال وغابات سنديان وصنوبر ، أما الجزء الأندلسى الخاضع لتأثيرات البحر المتوسط (أندولوثيا والمنطقة الشرقية) فكان عبارة عن مناطق جافة (أراضى بَعْل) تصلح فقط لزراعة الكروم ، والزيتون ، والبقول ، والغلال .

وفى مناطق "السُّقْى" (الغوطات الأندلسية ، بساتين مرسية وبلنسية) تزدهر المزروعات التى تعتمد على الرى ، حتى المدارى منها ، وتدر محاصيل وفيرة ، وبالطبع ، فقد كانت طبيعة العمل الزراعى تؤثر فى شكل الحياة الريفية ، كما كان منهاج الزراعة الخاص بكل إقليم يتدخل فى تحديد التجمعات البشرية ونظام ملكية الأرض ، وعلى هذا ، فالأراضى "البعل" القريبة من المتوسط التى يملك معظمها إقطاعيون من الأرستقراطية الأندلسية ، والضياع المتوسطة التى يملكها المواطنون الأغنياء ، كانتا مناسبتين لنمو المراكز الحضرية ذات الطابع الريفى المحمية دائمًا بقلعة من القلاع ، وعلى خلاف ما تقدم ، ففى المناطق التى يسمح فيها نظام الرى باستمرار الزراعة وعدم توقفها وتقتضى بالتالى التواجد الدائم للمزارع (المُعَمِّر) كانت الضياع (وتسمى فى الأندلس Cortijos [٧٢] ، وفى بلنسية alquerías ، وفى "رغون" torres [٧٣]) تتناثر فى الحقول ، وأينما توجه البصر يلمح ألوانها البيضاء أو السمراء المائلة للسواد بين الخضرة اليانعة ، لكن كانت تكفى بضع سويعات من الصعود فى طريق متعرج لكى ننسى المنظر السابق ونلتقى من جديد بالفراغات الموحشة للهضاب العالية بأنهارها الجافة ورياحها العاصفة وقممها المدببة ؛ وهذا الخواء الخرب هو الذى يضفى كثيرًا من الهيبة والصرامة على المشاهد الطبيعية الإسبانية فى قشتالة وإكستريمادورا وشمال أندلوثيا .

الأسلوب المُتَّبع فى استثمار الأرض ونظام المزارعة :

يُطلق على من يستثمر الأرض فى إسبانيا الإسلامية – سواء كان مالكها أو مستأجرها – لفظ "عامر" ، والقاموس العربى / اللاتينى لذلك العصر [٧٤] يسوق ثلاثة مرادفات لهذه الكلمة : مزارع ومُناصِف ومشارك ، ومن الكلمة الأخيرة اشتقت

(exaricus) اللاتينية التى تظهر فى العديد من وثائق مملكة "رغون" من بداية القرن الثانى عشر [٧٥] ، والمسميات الثلاثة السابقة وإن كانت تعتبر كافية فى حد ذاتها للدلالة على أن نظام المزارعة فى الضياع كبيرة الحجم والمتوسطة كان شائعًا فى كافة الأراضى الأندلسية إلا أن المؤلفات الفقهية تعضد هذا أيضًا من خلال التزامها الدائم بإفراد جانب من صفحاتها للحديث باستفاضة عن هذا الضرب من المشاركة الزراعية وتحديد نواعها .

وإضافة إلى التقعيد النظرى من جانب الفقهاء القرطبيين ، هناك نماذج صيغ العقود التى لا تخلو منها أيضًا . ومن البنود والشروط المدرجة بتلك النماذج نعتقد أن نظام المزارعة قد تطبع على أرض إسبانيا الإسلامية منذ القرن العاشر - على الأقل - وأنه كفل للطبقة الريفية العاملة العديد من الحقوق والضمانات التى كانت محرومة منها حتى ذلك الوقت .

تدور نماذج تلك العقود حول كيفية الشركة (المسماة فى الفقه الإسلامى "مزارعة" [٧٦]) وتحديد مدتها بالسنوات ، ومن خلال البنود المدرجة بالعقود يتضح التزام كل من المالك والمزارع بتقديم كمية متساوية من البذور - سواء كانت قمحًا أو شعيرًا أو سُلتا أو فولاً أو بقوليات أخرى - ، والكيل المستخدم فيها هو "قفيز" قرطبة ، يقوم الاثنان بخلط ما قدماه من بذور ، ويتعهد المزارع بحرث وزراعة الأرض (موضوع التعاقد) وحصاد المحصول ودرسه ثم توزيعه بالتساوى بينه وبين صاحب الأرض ؛ كما يتكفل المزارع بجميع مستلزمات العمليات السابقة مثل توفير الحيوانات اللازمة للعمل أو الاستعانة بالعمال الزراعيين ، وتوجد شروط خاصة أخرى تلزم المزارع بتقديم الكباش والخراف المسمنة لمالك الأرض فى عيدى الفطر والأضحى ومطلع العام الجديد ، كما تلزمه بأن يحمل لبيت المالك - بالمدينة التى يقيم فيها - القمح اللازم لاستهلاكه العائلى على أن يتولى طحنه بالمطحن الذى يروق له ، وفى بعض الأحيان تكون شروط العقد مجحفة بالنسبة للمزارع لأنها لا تجعل له الحق إلا فى ربع المحصول فقط ، وأحيانًا تكون كريمة معه وتمده بثلاثة أرباع البذور بالإضافة إلى ثور للعمل ، على أن يقوم بإكمال الباقى من بذور وحيوانات [٧٧] .

وإلى جانب نظام المزارعة الخاص بأراضى "البَعْل" توجد المشاركة فى أراضى "السقى" (المعروفة بالمساقاة) التى لا يتلقى فيها المزارع أكثر من ثلث المحصول [٧٨] ، وهناك نوع آخر من العقود يخص زراعة الأشجار : عقد مغارسة ، ويحتوى على سلسلة طويلة من الاشتراطات الإضافية وجميعها لصالح مالك البستان [٧٩] .

وفى الضياع الكبرى للمستخلصات الملكية (التى يشرف عليها - كما نعرف - إدارة من الموظفين تحت رئاسة "صاحب الضياع" ومقره قرطبة) يبدو أن استثمار أراضيها لم يكن يتم عن طريق المزارعة أو كان يتم من خلالها لكن بشكل مختلف ، أما بالنسبة للأراضى الموقوفة على المساجد - خاصة مسجد قرطبة الجامع - فتوجد إشارة أوردها ابن سهل [٨٠] تفيد بأنها كانت تُؤَجر للمُتَقَبِّلين (مفردها : مُتقبل) الذى كانوا يتعاقدون بدورهم مع طرف ثالث لاستثمارها .

وإشارة ابن سهل السابقة تخوض - علاوة على ما تقدم - فى مسألة هامة تتعلق بالأحكام القرطبية الخاصة بالآفات الزراعية (جائحة) التى تتسبب فى فسخ عقد الإيجار أو إبطال بعض بنوده على الأقل ، ويسوق المؤلف التقرير الذى كتبه الخبراء فى يوليو ١٠١٦م (٤٠٧هـ) (أى فى بداية حكم "على بن حمّود") بتكليف من قاضى قرطبة "أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن بشر" ، لقد تلقى القاضى ، المعين حديثًا ، التماسًا من متقبلى البساتين وأراضى "الحبوس" الخاصة بمسجد قرطبة الجامع يشكون فيه من تعرض أراضيهم لغزو الطفيليات نتيجة للأمطار الغزيرة التى هطلت فى شهر مارس من العام المذكور ، ومن عدم استطاعتهم رى زراعاتهم فى منطقة "الرملة" (شمال العاصمة) خلال شهر أغسطس من العام السابق لعسكرة الجيش الإسلامى والمرتزقة المسيحيين بها [٨١] ؛ كما يشكون فيه أيضًا من تخريب الأرانب لبساتينهم الواقعة شمال وغرب قرطبة ، أجرى الخبراء تحرياتهم وبعد تأكدهم من صدق دعاوى المتقبلين أوصوا بوجوب إعفائهم من ثلث أو ربع الإيجار (قبالة) .

تعدد المحررات وصيغ العقود الحالات التى يعتبرها الفقه المالكى أسبابًا مقبولة لإعادة النظر فى شروط عقد الإيجار وهى : الجفاف ، والسيول ، والصقيع ، والثلوج ، والجراد والطفيليات ، والأضرار الناجمة عن الطيور والعصافير ، ومما لا شك فيه أن عقود الرعى كانت تتضمن هى الأخرى ما يخص الأوبئة الحيوانية التى تُنزل الخسائر الفادحة بقطعان الأغنام والأبقار .

زراعة الغلال والطواحين [٨٢] :

مثلما يفعل المزارعون الإسبان حاليًا ، فقد كان الأندلسيون يميزون بين نوعين من الأراضي : أراضي "البَعْل" وأراضي "السقي" ؛ وفي الأولى تكثر زراعة الغلال بينما تندر في الثانية .

وفي أراضي "البَعْل" جرت العادة على تبوير الأرض سنة كل سنتين على الأقل ، وفي خلال تلك السنة تجوبها القطعان بحثًا عما يتناثر فيها من عشب قصير ، وكالحال في شمال إفريقيا ، كان نظام الحرث بدائيًا للغاية ، يبدأ الفلاح عمله بعد أمطار الخريف ، وإذا رأى أن الزراعة لا تبشر بالمحصول المرجو أطلق بهائمه لرعيها خضراء (قصيل) ، وإذا توسم فيها خيرًا انتظر موسم الحصاد الذى لا يبدأ إلا بعد زيارة "الخُرّاص" [٨٣] لتقدير الزكاة المستحقة ، وفي بعض الأقاليم يمكن زراعة الغلال المتأخرة في الربيع مثل الذرة الشامية أو المكنسية ، أما السُّلْت فكان يزرع في عدد من المناطق الباردة ، وعلاوة على القمح والشعير كانت تزرع - أيضًا - في أراضي الحرث ، البقوليات ، خاصة الفول والحمص والفاصوليا التي كانت تستهلك بكثرة خلال العصر الإسلامي ، ولم تكن المملكة الأندلسية تنتج ما يكفي لسد حاجاتها من القمح الذى يعتبر سلعتها الضرورية ، بل والاستراتيجية أيضًا ، ولهذا كانت سنوات الجفاف تقض مضاجع النظام الحاكم لأن قلة القمح تعني جيشان ثائرة شعب جائع .

سجل "عارب" - علاوة على مُدَوَّنة الناصر التاريخية - أربع سنوات عجاف [٨٤] بين ٩١٥ و ٩٢٩م (٣٠٢-٣١٧هـ) ، وبعد ذلك في (٩٩١ م «٣٨١هـ») واجه المنصور نتائج جائحة الجراد التي أهلكت المحاصيل [٨٥] ، لكن قائد الدولة المحنك هذا - المشهود له بالحيطة وبارتفاع أسهم شعبيته بين الرعية - هدته فطنته إلى الإكثار من صوامع التخزين الاحتياطية ، ويُذكر أنه أودع فيها عام ٩٨٥م (٢٧٤هـ) مالا يقل عن مائتي ألف "قفيز" من القمح تحسبًا للأزمات الطارئة [٨٦] ، على أي حال ، من المعروف أن الأندلس اتجهت لاستيراد القمح الإفريقي منذ القرن التاسع ، وفي المجلد السابق رأينا كيف عمل عبد الرحمن الثاني على تحسين علاقاته بأئمة "تاهرت" الرستميين بالرغم من انتمائهم لفرقة الإبضية (وهذا بالتأكيد من أجل ضمان إمداد رعيته بالغلال) ، وكيف داومت السفن الأندلسية على زيارة موانيء إمارتهم

("تنس" و "أوران" Orán) لجلب شحنات القمح والغلال الأخرى [٨٧] ، ولم يتغير الحال فى القرن العاشر ، إذ يروى ابن حوقل أن بحارة إسبانيا الإسلامية اعتادوا الإبحار لنفس الغرض إلى ميناء "أريج" (على الساحل الأطلسى للمغرب) [٨٨] وإلى ميناء "طبرقة" ، هناك بعيدًا على الساحل التونسى [٨٩] ، استمر هذا النشاط التجارى حتى أثناء عصر الطوائف ، كما يشهد بذلك البكرى عند وصفه لشمال إفريقيا .

اشتهرت بعض أراضى الأندلس بجودة قمحها وشعيرها ، ومنها نذكر على سبيل المثال : قمح "سنجونيرة" (Sangonera) الممتاز (بإقليم "لورقة") ، وقمح طليطلة الذى كان يقال عنه إن بإمكانه مقاومة العطب قرنًا كاملاً بعد تخزينه [٩٠] . كان القمح والشعير يزرعان فى مساحات شاسعة بأراضى "بياسة" (Baeza) و "استِجّة" و "شريش" ، "أبَّدة" (Ubeda) و "تُطيلة" (والأخيرة بإقليم " رغون" [٩١]) ، وبالرغم من تواضع المحصول بصفة عامة (لا يزيد متوسط عائده حاليًا عن عشرة قناطير للهكتار) إلا أن بعض الأراضى المخصصة لزراعته - مثل حقول "فحص الفوندون" (Fundun) (بإقليم "لورقة") ، وحقول "بلاطة" (بين "شنترين" و "لشبونه") - كانت تكافىء مزارعيها عن سعَة . توجد أنواع مختلفة من القمح ، ويميز السقطى ، فى مؤلفه عن الحسبة ، بين نوعين منها : النوع الأول يسمى "درمك" (Darmak) ويمتاز بجودته الفائقة ودقيقه الناصع البياض ، والثانى "مَذون" (Madhun) [٩٢] ، وهناك أنواع أخرى من القمح عُرفت فى العصر الوسيط بأسماء رومانثية (أعجمية) مثل : "رُيون" (ruyun) ولونه أحمر مذهب ، "تريجال" الذى يزرع عادة فى الربيع و "أركة" (Araka) وحبته طويلة صفراء ضاربة للحمرة [٩٣] .

ولأن الخبز كان عنصرًا أساسيًا فى غذاء الشعب الأندلسى فقد شهدت صناعة المطاحن نشاطًا ملحوظًا فى إسبانيا الإسلامية حيث اشتهر الطحانون بفسادهم الذى لا يُرجى إصلاحه ، وقد أفرد السقطى صفحات طويلة من مؤلفه للحديث عن الحيل الإجرامية التى كان يلجأ إليها أصحاب المطاحن لسرقة جزء من قمح زبائنهم ، ومن تلك الحيل خلط القمح بالأتربة المعدنية أو بمسحوق عظام الحبّار [٩٤] .

لم يذكر الجغرافيون ، عند وصفهم لإسبانيا ، شيئًا عن طواحين الهواء - باستثناء طواحين "طركونة" [٩٥] - ومع هذا يغلب الظن بأنها كانت موجودة (كالعهد

بها حاليًا) فى المناطق الأكثر عرضة للهواء مثل السهول الشاسعة للهضبة ، كانت الطواحين التى تحركها حيوانات الجر معروفة أيضًا ، لكن طواحين الماء (رحى) المقامة على حواف التيارات المائية خلف السدود كانت هى الأكثر شيوعًا ، ونظام عمل هذه الطواحين قديم ويتمثل فى دفع تيار الماء لعجلة أو عجلتين بقادوس "صينية" (والكلمة الإسبانية aceña مشتقة منها) لكى تنتقل الحركة بعد ذلك إلى رحى الطاحون ، كانت بعض الطواحين تتوقف خلال فصل الصيف نتيجة لقلة الماء ، بينما كان الموجود منها على الأنهار الكبيرة (مثل الوادى الكبير أو التاجه) يعمل على مدار العام ، كما كانت موجودة على نهر "إبْرُه" (بسرقسطة) ونهر "شُقُورة" (بمرسية) [٩٦] طواحين متنقلة مقامة على طُوْف ، وبالقرب من المدن الكبرى كانت هناك الطواحين المتخصصة التى لا تعمل إلا فى أصناف معينة ؛ ففى نهر قرطبة مثلاً - طبقًا لابن سهل [٩٧] - كانت توجد طواحين للحنّاء التى تعمل فى الصيف لحساب العطّارين الذين يبيعون بضاعتهم أوراقًا أو طحينًا (كما يحدث حاليًا فى فاس وتونس) .

زراعة الكروم والزيتون :

إذا كانت إسبانيا الإسلامية لم تنتج من القمح - كالحال فى أيامنا هذه - ما يسد حاجتها فإنها حظيت - فى المقابل - بمحصول جوهرى فى غذاء شعبها ، ونعنى به زيت الزيتون الذى كانت تصدر منه سنويًا الفائض عن استهلاكها إلى جميع دول حوض البحر المتوسط ، القريبة منها والبعيدة أيضًا [٩٨] ، وعلاوة على شجرة التين كانت شجرة الزيتون (el olivo) هى أفضل شجرة أندلسية ، وإذا كانت شبه الجزيرة قد احتفظت باسمها اللاتينى فإن ثمرتها (الزيتون) وخلاصتها (الزيت) ما يزالان يحملان فى اللغة الإسبانية (aceituna yaceite) واللغة البرتغالية (azeitona, azeite) مسمياتهما العربية القديمة . يأتى معظم إنتاج زيت الزيتون الإسبانى حاليًا من مقاطعة "أندلوثيا" (من محافظات إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة ، أى من أطول المناطق خضوعًا للتأثير الإسلامى) . وبالرغم من أن عمليات تكريره واستخلاصه قد تقدمت وتحدثت فى المراكز الحضرية الكبيرة إلا أن العديد من الأماكن ما يزال يحتفظ بالكثير من تقنيات العصر الوسيط .

كان الإقليم الأكثر شهرة في الأندلس بأشجار زيتونه هو إقليم "الشَّرف" الذي يطلق على سلسلة من التلال الممتدة غرب إشبيلية والتي كانت مغطاة – على أيام البكري والإدريسي – بأشجار "كثيفة لا تكاد تخترقها أشعة الشمس لتشابك أغصانها" [٩٩] ، لكن أشجار الزيتون كانت تشغل أيضًا مساحات شاسعة في كافة المناطق القريبة من ساحل المتوسط (نفس الأراضي الحالية ، بكل تأكيد) ، وهي تزيد عن مليون ونصف هكتار تدر حوالي ثلاثة ملايين قنطار من الزيت ، كان يتم الاحتفاظ بجزء ضئيل من المحصول لتخليله في الماء المالح ولا ستخدامه في وصفات الطعام بينما يوجه الباقي للعصر .

ونظرًا لمتانة ورسوخ شجرة الزيتون الأندلسية فقد كانت تتطلب عناية خاصة مثل التقليم الدوري للجذيرات المنبثقة من سيقانها والعزق المستمر حول جذعها لكي تحتفظ الأرض بأكبر قدر من الرطوبة الممكنة ، أما بالنسبة لتقنية صناعة الزيت فكانت لا تختلف كثيرًا عن المتبع حاليًا في جبال شمال المغرب وفي المناطق القريبة من مدينة فاس [١٠٠] ، كانت الأساليب المستخدمة في استخلاص الزيت بدائية ، وتختلف جودته تبعًا لنوعية الزيتون المعصور ، وأفضله على الإطلاق يسمى – كما هو الحال الآن – "ليتشين" (Lechin) ويمتاز بطول حبته .

عُرف مكان عصر الزيتون بالمسمى الشائع "معصرة" (ومنها الكلمة الإسبانية almazara) ، كما كان يطلق عليه في بعض الأحيان "بَدّ" ، والكلمة الأخيرة من أصل آرامي ، ولذا يقال إن جند بلج القشيري هم الذين أدخلوها إسبانيا في القرن الثامن [١٠١] ، كان الزيت على ثلاثة أنواع : "زيت الماء" وهو أفضلها جميعهًا ؛ و"زيت البدّ" (المتوسط الجودة) ؛ وأخيرًا ، "الزيت المطبوخ" (الذي يحتل الدرجة الأخيرة في الجودة) ، و "زيت الماء" عبارة عن القطفة الأولى للزيتون المعصور الذي غسل قبل عصره بالماء الساخن ، أما النوع الثاني فيستخرج من عصر الزيتون المهروس في الأحواض بعد بقائه فيها المدة اللازمة لعطنه ، ليتم نقله بعد ذلك إلى أوعية لتصفيته ، ثم يعبأ في دنان ، أما النوع الأخير فيستخرج من فضلات وبقايا العصرة الأولى التي تُؤخذ وتوضع في الماء المغلي ثم تعصر ثانية ، ولهذا السبب سمي بالزيت المطبوخ .

كانت مزارع الزيتون الهامة مزودة بالمنشآت اللازمة لاستخراج الزيت من محاصيلها ؛ وعلى مقربة من المدن الكبرى تنتشر الطواحين التى يحمل إليها المنتجون الزيتون على ظهور الدواب ليبيعونه (وزنًا) من خلال وسطاء . وتحت السفوح المغطاة بأشجار الزيتون عادة ماتمتد أحزمة واسعة من الأراضى المزروعة بالكروم ، وكانت مزارع الكروم منتشرة فى أراضى "البَعْل" الأندلسية ، بالرغم من تحريم تعاطى المسلمين للنبيذ . صحيح أن معظم العنب كان يستهلك طازجًا وتظل بعض أنواعه حتى دخول فصل الشتاء ، وأن كثيرًا منه كان يتم تجفيفه (زبيب) [١٠٢] لاستخدامه فى العديد من الأطباق الأندلسية [١٠٣] ، ومع هذا فكل فئات المجتمع كانت - بلا استثناء - تشرب النبيذ ، وبالرغم من استعداد ابن حزم الدائم [١٠٤] لإثارة غيرة الأمراء الدينية إلا أنهم لم يحركوا ساكنًا لمحاربة هذه الظاهرة فيما عدا الحكم الثانى الذى فكر عندما تقدمت به السن فى استئصال كافة مزارع الكروم من مملكته لكن المحيطين به لم يجدوا صعوبة فى إثنائه عن عزمه . ولا يمكن أن ننسى فى هذا المقام سوق النبيذ التابعة للدولة التى كانت موجودة فى عهد الحكم الأول على أبواب قرطبة ذاتها (فى "شقندة") ، وأغلب الظن أن صاحب امتياز السوق كان أحد أفراد الجالية المسيحية بالعاصمة ، ولا شك أنه كان يخرج - من وقت لآخر - بعض الفقهاء المتشددين ليثيروا زوبعة حول تساهل النظام الحاكم فى هذه المسألة [١٠٥] ، ومع هذا كان النبيذ موجوداً فى جميع الحانات ولم تخل منه مدينة من المدن الكبرى (بما فيها قرطبة) ، ونادرًا ما كانت تنتهى حفلات السمر والمتعة بين الأوساط الراقية - سواء فى عصر الخلافة أو ملوك الطوائف أو المرابطين بعد ذلك - دون سكر وعربدة .

كان النبيذ يصنع سرًا - أو جهرًا على يد المستعربين - فى كل مكان ، وبالرغم من هذا لم يصلنا خبر واحد عن كيفية تصنيعه ، لقد أحجم الجغرافيون العرب عن الحديث عن عصر العنب الأندلسى واكتفوا بالاستخفاف طربًا أمام الشهرة العالمية للزبيب الأندلسى ، خاصة زبيب "مالقة" وما تنتجه جزيرة "يابسة" (Ibiza) .

محاصيل أراضى السَّقْى وزراعة الأشجار :

بالإضافة إلى الغلال والزيتون والكروم ، هناك مزروعات أخرى ، تعتمد على الرّى ، بلغت فى إسبانيا مكانة مرموقة . فى تلك الأراضى التى تتوافر فيها المياه

على مدار السنة أو في مواسم معينة ، وصلت الزراعة - بفضل ترشيد استخدام نظم الرى - إلى درجة لا تنكر من التطور لا تختلف في مجملها عما وصلت إليه حاليًا ، يجب التنويه إلى أن انتقال كثير من المصطلحات العربية الخاصة بنظم الرى إلى اللغة الإسبانية يعتبر دليلاً دامغًا على أهمية التأثير الإسلامى في هذا المجال وإن كان هذا لا يعنى بالضرورة أن نظم الرى كما عرفها وطبقها الأندلسيون خلال قرون عديدة في غوطات وبساتين شمال وجنوب شبه الجزيرة كانت جميعها من اختراع العرب (١٠٦) ، ذلك لأن إسبانيا الرومانية والقوطية لم تخلوا قبل الغزو الإسلامى من المزروعات التى تعتمد على الرى ، ومع هذا لا يوجد ما يمنع من الظن بأن المسلمين قد طوروا النظم الهيدروليكية (المائية) التى وجدوها بالبلد عند احتلاله ووصلوا بها إلى حد الاتقان مستعينين في ذلك بالتقنيات الأسيوية ، ومما يرشح هذا الظن التشابه الكبير بين عجلات الرفع في إسبانيا والمغرب وبين اللاتى تعملن حتى وقتنا الرهن في سوريا والعراق على ضفاف نهرى العاصى والفرات ، ويبدو أن تلك العجلات قد اخترعها الشرق منذ أمد بعيد (١٠٧) .

توجد في العالم العربى نظم متعددة للرى ، ويبدو أنها استخدمت جميعًا في إسبانيا الإسلامية ، وهذه النظم - التى وصفها بإيجاز الجغرافيون (١٠٨) وأصحاب المؤلفات الزراعية - تتشابه إلى حد كبير مع المتبع حاليًا في نفس المناطق وفي بعض أقاليم المغرب (١٠٩) .

وأقل النظم تعقيداً - وأشدها فاعلية في الوقت نفسه - النظام المستخدم حاليًا في أراضى "السَّقْى" بالحزام الساحلى الشرقى لإسبانيا ، في هذا السهل الساحلى ، من دلتا نهر "إيُره" حتى نهاية نهر "ناو" (Nao) ، ينتشر عدد لا يحصى من السواقى التى تديرها - بفعل التفاوت في المنسوب فقط - المياه المباركة (الجارية أو المخزونة) لأنهار "ميخارس" (Mijares) والوادى الكبير و "شُقَر" (Jucar) أو نهر "طورية" (Turia) . وهناك تشريع قديم ينظم حقوق المنتفعين الذى يشكلون نقابة تنبثق منها "محكمة الماء" (جمعية تحكيمية) ، مهمتها الفصل في النزاعات الناجمة عن توزيع حصص الماء أو انتهاك الاستخدامات المقررة ، وأحكامها شبه مقدسة لالتزام الجميع بها ، وقد كشفت لنا فقرة للمؤرخ ابن حيان (١١٠) عن وجود تشريع مماثل في إسبانيا خلال عصر

الخلافة وعصر ملوك الطوائف ، إذ ذكرت أن اثنين من الموالى العامريين ، يتبعان مباشرة إدارة قرطبة المركزية ومسئولين أمامها ، كان يقع على عاتقيهما مهمة الإشراف على نظم الرى (وكالة الساقية) ؛ والموليان المقصودان هما : الصقلبيان مبارك والمظفر ، اللذان سيؤسسان بعد فترة وجيزة ولحسابهما الخاص ، إمارة قصيرة الأمد فى بلنسية وشاطبة .

إذا استبعدنا حالات الجفاف الطارئة يمكن القول بأن الرى فى المنطقة الساحلية الشرقية كان دائمًا ، أما بالنسبة لإقليم "مرسية" فقد كان مختلفًا بعض الشيء لأنه يخص – باستثناء بساتين "لقنت" – تجمعات مائية داخلية بعيدة تمامًا عن البحر تلتف حولها سلسلة من الواحات المتاخمة لمناطق جرداء وجافة ، وفى إقليم "لورقة" (أقصى الغرب) يتسم نظام الرى بالبدائية الشديدة لعدم وجود الماء الكافى ، إذ لا يسمح المتوفر منه إلا بثلاث أو أربع "رَيَّات" فى السنة لحقول الغلال ، وهى المحاصيل الوحيدة التى يتوافر لزراعتها بالمنطقة بعض عوامل النجاح ، وهكذا كان الوضع فى العصور الوسطى المتقدمة لأن الجغرافيين العرب لا يملُّون من الإشادة بقمح "سنجونيرة" (Sangonera) ، والمسمى يخص – كما هو معروف – النهر المار بأراضى "لورقة" .

فى أقصى شمال إقليم "أندلوثيا" (الذى نتحدث عنه) ، وفى وديان أنهار : "وادى يانه" و "التاجه" و "الإبره" لا يمكن الرى إلا بواسطة ماكينات رفع تقوم بسحب المياه (من الأنهار أو فروعها أو الآبار) وصبه فى أحواض كبيرة (بِرَك) ، كانت هذه الماكينات – على اختلاف أنواعها – بدائية ومعقدة إلى حد ما ، والأساسى منها عبارة عن رافعة بعوارض متقاطعة (قوائم خشبية دوارة ، مثبت على طرفها الطويل سطل وعلى الطرف القصير ثقل مضاد [١١١]) ، أما جهاز الرفع الذى تطلق عليه اللهجات الرومانثية (Cigueñal) (ذراع التدوير أو الكرنك) فهو أكثر تطورًا من جهاز (Cabria) (الونش) ومن الجهاز الذى يعمل بالبكرة (garrucha) ، وإسبانيا الإسلامية تطلق على الجهاز السابق "خَطَّارة" ، لكن المسمى الأخير كان يطلق أيضًا على عجلة هيدروليكية خفيفة شاع استخدامها على ضفاف الجداول الصغيرة ، خاصة فى إقليم إشبيلية [١١٢] .

وهناك آلات رفع أكثر تعقيداً مثل "الناعورة" (ومنها الكلمة الإسبانية noria) التى يحركها تيار الماء مباشرة ، وعجلات الرفع التى يدفعها حيوان وتتحرك دائرياً ("دولاب" أو "صينية" ومن الكلمة الأخيرة اشتقت اللفظة الإسبانية aceña) ، وقد قامت بعض الأعمال بوصف كافة أنواع هذه الروافع الهيدروليكية وصفًا دقيقًا وإليها نحيل القارئ [١١٣] .

اشتهر إقليم "بلنسية" بزراعة الأرز ، وبالرغم من ورود هذا المحصول ضمن المحاصيل التى ذكرها "تقويم قرطبة" إلا أنه - على ما يبدو - لم يُزرع بكثرة إلا فى عصر متأخر نسبيًا . لا شك أن خصوبة الأرض ووفرة المياه بهذا الإقليم قد ساعدتا على زراعة محصولين أو ثلاثة فى السنة ، لكن وفرة المياه استخدمت كذلك فى العصر الإسلامى لرى أعداد لا تحصى من أشجار الفاكهة التى تنافس الجغرافيون والشعراء فى التغنى بثمارها (الطازجة أو المجففة) وعلى وجه الخصوص كريز "قُلُمْرية" ، تفاح وكمثرى "شنترة" (Cintra) و "شِلْب" ووادى نهر "إبرُه" ، رمّان [١١٤] ولوز "مالقة" و "إلبيرة" ، ومع هذا فقد كانت شجرة التين ، بثمارها الفائقة الجودة ، هى الأكثر شيوعًا ، خاصة فى إقليم إشبيلية الذى اشتهر بإنتاج هذين النوعين : "القوطى" و "الشعرى" [١١٥] ، نادرًا ما كان يطلق فى إسبانيا الإسلامية على أشجار التين مسماها الكامل ، بل يكتفى - عادة - بلفظ "أشجار" [١١٦] ، وقد أفاض أصحاب المؤلفات الزراعية فى الحديث عن العناية الخاصة التى تتطلبها شجرة التين كما أسهبوا فى الحديث عن تقنية تأبيرها .

عرفت إسبانيا الإسلامية عددًا من المزروعات المدارية فى بعض الأحزمة الساحلية المحمية خلف المرتفعات ، خاصة جنوب "جبال الثَّلج" وأسفل وادى النهر الكبير بين إشبيلية والبحر ، حيث كانت تتجاور أشجار الموز مع حقول قصب السكر سواء فى منطقة "مُتريل" (Motril) أو "بَلِّش" (Veléz) - مالقة [١١٧] ، كما أشار الجغرافيون المشارقة إلى مناطق زراعة النخيل ، خاصة فى "ألْش" (Elche) المشهورة حتى اليوم بنخيلها من بين كافة أنحاء شبه الجزيرة [١١٨] .

تجدر الإشارة أيضًا إلى الحمضيات التى تشكل - علاوة على الأرز - أغلب الإنتاج الحالى لبساتين المنطقة الشرقية ، فى القرون الوسطى المتقدمة كان يُزرع على

ساحل المتوسط الليمون الحلو والليمون الحامض ، وأزهارهما كانت تُقطّر بينما تستخدم ثمارهما فى عمل الحلوى (بعد خلطها بالسكر) أو فى تخليل الزيتون ، أما البرتقال الحلو – الذى ترجع أصوله إلى الشرق الأقصى – فإنه لم يُزرع فى العالم العربى إلا متأخراً ، ويبدو أن زراعة أشجار البرتقال والنّارنج دخلت إسبانيا خلال عصر الخلافة القرطبية (١١٩) .

تحتل زراعات النباتات العطرية ونباتات الصبغة والنسيج مكانا هامًا فى الاقتصاد الزراعى لإسبانيا الإسلامية (١٢٠) ، ومن بين النوعين الأولين نذكر : "الزعفران" (وهو من التوابل الإجبارية فى معظم الأطباق الأندلسية) ، "العُصْفر" (الذى يستخدم فى الصبغة أو التحضير للزينة) ، "الكمون" ، و"الكزبرة" و "الحنّاء" ، ومع أن "الزعفران" و "وَسْمة الصباغين" (ورد النيل) كانا يزرعان فى كافة أنحاء "أندلوثيا" إلا أن أراضى طليطلة اشتهرت بإنتاج أجود الأنواع منهما .

أما بالنسبة لزراعة نباتات المنسوجات فقد كانت هدفًا للتوسع فى كثير من الأحيان ، وأهمها : "الكتان" (الذى كانت تنتج منه محافظة "إلبيرة" كميات ضخمة تسمح بالتصدير إلى دول عديدة فى الشرق والغرب) و "القطن" (الذى كان يزرع فى محافظتى إشبيلية و "وادى آش" ويُصدر الفائض منه إلى المغرب) .

أما تربية دودة القزّ (الحرير) فكانت مزدهرة فى أى مكان تكثر به أشجار التوت ، خاصة فى أراضى "بياسة" و "جيّان" وفى سلسلة "جبال البشرات" بين غرناطة والبحر المتوسط ، لقد شهدت تربية دودة الحرير – التى تخصصت فيها النساء – نجاحًا كبيراً فى أماكن عديدة (١٢١) .

قطعان الماشية والنباتات الطبيعية :

لم يُكثر الجغرافيون الأندلسيون من الحديث عن تربية الحيوانات ، سواء المستخدمة فى الركوب أو لإدرار الألبان واللحوم ، لا توجد المراعى الجيدة إلا فى أماكن متفرقة من إسبانيا الجافة ، لكنها تكثر فى المقابل بإسبانيا الرطبة ، وعلى هذا فلم يكن أمام أصحاب القطعان سوى إمداد مواشيهم بما تجود به المراتع من عشب قصير متناثر بين الأحجار ، كانت أنسب منطقة لتربية الخيول هى الواقعة أسفل الوادى الكبير حيث

ينمو الكلأ بسرعة مذهلة في منعطفات النهر ، ولعلنا نذكر أن المنصور قد أقام بهذه المنطقة مزارع للأفراس وحظائر لاحتياطييه من الخيول ، كان البغل - كما هو الحال الآن - هو الحيوان الأكثر تأقلماً مع المناخ ، وفي الجرّ والتحميل كان الأكثر شيوعًا وشهرة في الأندلس (١٢٢) بالإضافة إلى الحمار والأتان ، قبل مجيء المرابطين كانت الجمال قليلة في أسبانيا ، ونحن نعرف أن المنصور أمر بجلب بعضها من إفريقيا لاستخدامها في قوافله الحربية ، وأنه كان يتركها - بين كل صائفة وأخرى - في سهوب مرسية (١٢٣) .

كانت الأبقار موجودة في كل مكان ، وتستخدم فقط في أعمال الفلاحة لأن المسلمين - في الغرب ، على الأقل - يعافون لحومها ، والخنزير - المحرم في الإسلام - كان موجوداً في الأراضي العالية لاستهلاك المستعربين الشغوفين بلحمه ، أما الأغنام التي تتحمل الظروف المناخية الصعبة ويمكنها البحث عن الكلأ المتناثر في طريقها ، فلا بد أنها كانت موجودة بكثرة كما هو الحال الآن . اشتهرت منطقة جبال "وادي الرملة" (الواقعة أقصى شمال طليطلة) بطيب أغنامها وثيرانها (١٢٤) ، كما اشتهرت نعاج أراضي الشرق العليا بنعومة صوفها الذي يستخدم في نسيج الأقمشة والبُسُط ، لم يكن غريبًا في أسواق المدن بيع لحوم الماعز إلى جوار لحوم الأغنام ، كما كانت المدن تستهلك كميات كبيرة من الطيور الدّاجنة ومن الأرانب البرية التي يتم صيدها في كمائن وذبحها بعد ذلك .

في بلد يستهلك العسل الأبيض ومشتقاته بكثرة مثل إسبانيا الإسلامية لا بد وأن تكون عنايته بتربية النحل فائقة ، لقد قدم واضعو المؤلفات الزراعية تفاصيل هامة عن تربية النحل وعما تتطلبه خلاياه من رعاية ، وفي زمن الإدريسي ذاع صيت إقليمي "جيان" و "قصر أبي دانس" (أو "قصر الفتح" «البرتغال») في إنتاج عسل النحل (١٢٥) وأحمد الرازي ، بدوره ، أشاد في القرن العاشر بجودة عسل أراضي "لشبونه" ، كانت خلايا النحل تُصنع عادة من قطع مستطيلة من الفلِّين الذي يكثر في البرتغال وجنوب إسبانيا .

نادراً ما كانت تخلو ضيعة من برج أو أكثر للحمام الذي يستفاد بلحمه ويستخدم زَرْقُه في تسميد الأرض أو تغرية الجلود ، كانت أبراج الحمام وبقع الأشجار بمثابة الشارات البهية وسط الخضرة الممتدة للأراضي الزراعية .

وعلى ضفاف الجداول والترع والقنوات اهتم الفلاحون بزراعة الأشجار المختلفة (الحَوَر ، الصفصاف ، والسَّرْو ، والدردار .. إلخ) التي تتكاتف لرسم لوحة طبيعية أندلسية متناغمة الألوان فوّاحة الخضرة ، مخالفة تمامًا - كما هو الحال الآن - للمناطق العارية الجرداء أو السفوح المغطاة بأشجار الزيتون بألوانها القاتمة المكفهرة .

إذا لم تكن الأشجار المذكورة تغطي سوى مساحة محدودة من أرض إسبانيا ، فإن الأشجار القصيرة أو الأحراج (الشُّعْراء) كانت تغطي - حسبما يُقال - عُشر مساحة البلاد .

بالرغم من إحجام الجغرافيين العرب عن تقديم المعلومات المفصلة حول استغلال الغابات فى الأندلس إلا أنه يغلب الظن أن المناطق الجنوبية (مثل "رُنْدة" و "مالقة") كانت تغص بالغابات التى استثمرت فى صناعة الأخشاب ، ومن الأنواع الرئيسية نذكر أشجار القسطل والبلوط ، والأخيرة كانت تغطى شمال قرطبة بالكامل (ولذا عُرف باسم "فحص البلّوط") وأراضى "وادى آش" ، كما كانت أشجار الصنوبر تغطى مساحات شاسعة فى المناطق الجبلية التى تشرف على الشمال حيث كانت تُلقى جذوعها المقطوعة فى التيارات المائية لحملها حتى ساحل البحر لكى تتحول هناك إلى كمرات وصوارى للسفن (١٢٦) ، ومن جهة أخرى ، فقد ساهمت أشجار الصنوبر المتوافرة فى المنطقة القريبة من "قصر أبى دانس" (على الساحل البرتغالى) وفى "شلطيش" (فى الغرب) وفى "طرطوشة" (بجوار مصب الإبرُه) فى إمداد ترسانات هذه الموانىء الثلاثة بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن (١٢٧) ، وفى مناطق الغرب والشمال الساحلية - وكذلك جزر البليار - كانت تكثر أشجار الخَرُّوب التى تستخدم ثمارها كغذاء تكميلى لقطعان الماشية ، وبالنسبة للأحراج "الشُعْراء" التى يجوبها الحطّابون والصيادون فكانت مكانًا مناسبًا لإعداد الفحم المستخدم فى الأغراض المنزلية أو الصناعية ، أما سهوب مرسية الواسعة فكانت مغطاة بالحلفاء (التى أعطت لإقليم "قرطاجنة" اسمه المعروف : "قرطاجنة الحلفاء" (١٢٨)) التى يستخرج منها الجمّار وتستخدم كذلك فى تصنيع النِّعال والأكياس والأجولة والعبوات الأخرى ، كما كان يستخدم البوص والأسَل - اللذان يكثران فى المستنقعات الراكدة للأنهار الأندلسية - فى صناعة السِّلال والأكواخ الخفيفة .

أعمال الفلاحة في " تقويم قرطبة " :

أشرنا أنفًا إلى أهمية " تقوم قرطبة" (لعام ٩٦١م) بالنسبة لدراسة النشاط الزراعي أثناء الخلافة القرطبية ، فأخبار هذه الوثيقة القيمة عن الحياة في الريف الأندلسي تأتي مصحوبة عادة بتواريخها الشهرية المحددة ، كما تورد في نهاية كل شهر ملخصًا للأعمال الشائعة فيه ، إنها تتسم بالدقة المتناهية وتتفق مع الإشارات المبثوثة في كتابات الجغرافيين والمؤلفين الزراعين المتأخرين ، لذلك تستحق تلك اللوحات التلخيصية لأعمال الفلاحة في مواسم العام الزراعي الترجمة الكاملة ، لكننا سنكتفي بترجمة موجز شهر واحد وإلقاء الضوء على ملخصات باقي الأشهر :

"في مارس – يذكر" تقويم قرطبة" (١٢٩) – يتم ترقيع أشجار التين ، ترتفع سيقان الغلال المبكرة ، تورق معظم أشجار الفاكهة ، وفي الشهر نفسه تضع إناث الصقور البلنسية بيضها في جزر النهر ثم تحتضنها ثلاثين يومًا ، يُزرع قصب السكر وتظهر بواكير الورود والزنابق ، تتشكل قرون الفول في البساتين ، يطل السمّان من أوكاره ، يخرج دود القزّ من شرنقته ، وتتسابق طيور الخَفْش والشّابل فوق الأنهار ، يُزرع الخيار والقطن والزعفران والباذنجان ، تَرِدُ الرسائل الدورية إلى ممثلي المالية بالأقاليم لشراء الخيول للحكومة ، يأتي الجراد وتصدر الأوامر لمقاومته والقضاء عليه ، يُزرع التُرُنْجان وريحان داوود ، يتزاوج اليمام واللقلاق والرّومي وكثير من الطيور" .

في يناير وفبراير ينهمك الفلاحون – طبقًا لتقويم قرطبة – في وضع مساند لأشجار الزيتون والرّمان وتقليم الكَرْم وتكويم قصب السكر وترقيع أشجار الكمثرى والتفاح ؛ بينما تعكف النساء على حضانة بيض دود القز ، يشهد أبريل غرس فسائل الياسمين ، زراعة الحناء والحَبق والأرز والفاصوليا ، وفي مايو يتم جمع بعض الحبوب الزيتية ، ثم يأتي الصيف الذي يكفي بالكاد للحصاد والدراس وقطف الفاكهة ، وفي سبتمبر وأكتوبر يتم جني العنب والزيتون وحرث الأرض ، أما نوفمبر فهو شهر محصول الزعفران وجَمْع القرنفل والقسطل من الغابات ، بينما يشهد ديسمبر بذر الحبوب في البساتين (١٣٠) .

تأتي هذه الإشارات مصحوبة بمعلومات قيمة عن تربية الدواجن والصقور ، وعن طرق العناية بزراعة الزهور ، كما يُظهر بعضها مدى المعرفة بأحوال الأندلس الإدارية ، وعلى سبيل المثال فقد كانت تحذر المزارعين من مواعيد المصادرات ، وهي المواعيد التي يتلقى فيها ممثلو الضرائب بالأقاليم الأوامر من قرطبة لجمع الخيول أو قرون الوعول (لتصنيع الأقواس) أو الحرير ومنتجات الصباغة (لمصانع النسيج الحكومية) ، ويخبرنا التقويم أيضًا أن شهر فبراير كان يشهد تجمع الجنود الذين سيشاركون في صائفة ذلك العام ، ويقدم لنا التقويم - قبل المؤلفات الزراعية بوقت طويل - البرهان على أن بعض تواريخ السنة الشمسية التي تعتبرها بلاد المغرب حاليًا كتواريخ مواتية أو مشئومة للعمل في الحقل ، كانت معروفة لدى الفلاحين الأندلسيين في القرن العاشر ؛ وأن العديد من الاحتفالات والأعياد الزراعية المرتبطة بالتقويم الشمسي كانت تتم أثناء الخلافة القرطبية بطريقة مشابهة لما يجري حاليًا منها في بلدان شمال إفريقيا .

٤ - استغلال الموارد الطبيعية

المعادن والتعدين [١٣١] :

المعلومات المتوافرة عن استغلال المعادن في الأندلس تقل بكثير عن مثيلاتها في العصر الروماني ، ومن المعروف أن استغلال المعادن المختلفة الموجودة في باطن الأرض الإيبيرية يرجع لعصور سحيقة ، وأن الحلي والأسلحة الإيبيرية كانت لهما شهرة قديمة . عملت روما على تحقيق أقصى استفادة من ثروات شبه جزيرة إيبيريا الطبيعية من خلال استثمارها على المستويين : الحكومي والخاص [١٣٢] ، واستخرجت الذهب والفضة والنحاس والزئبق ، علاوة على الحديد ، لكن إيقاع استغلال تلك المعادن هبط خلال العصر القوطي [١٣٣] ، وعندما جاء المسلمون لم يكن عليهم سوى استخدام المنشآت الموجودة واليد العاملة المتخصصة ، ولا بد أن يكون هذا ما حدث بالفعل لأن الجغرافيين العرب أشاروا باقتضاب إلى استغلال المعادن وتصنيعها ، بينما أفاضوا في الحديث عن الكنوز التي تحتوي عليها باطن الأرض الإسبانية وقدموا - بوجه عام - تفصيلات دقيقة عن مواقع طبقات المعادن المختلفة [١٣٤] .

كان الذهب يأتي ، تحديداً ، من عروق الرمال الذهبية الموجودة في عدد من التيارات المائية ، خاصة نهر "سيجرى" (Segre) الذى يمر بمدينة "لاردة" [١٣٥] ونهر "حَدَرُّه" (Darro) الذى يصب في "الشنيل" (Genil) علي مقربة من غرناطة . وعلى الأطلسي ، في مواجهة لشبونة ، عند مصب "التاجه" ، كان شاطىء "ألمادا" (Almada) يحتوى على شذور الذهب التي يجرى البحث عنها خلال مواسم الأمطار .

كانت الفضة تستخرج من أقاليم "مرسية" و "ألحامة" و "أورناتشويلوس" (Hornachuelos) و "توتاليكا" (Totálica) « بمقاطعة باجة" » ، ومناجم الحديد الرئيسية كانت موجودة بالمنطقة الجبلية التي يحدها من الشمال وادى النهر الكبير ، بين غرناطة وإشبيلية : في "كونسطنطينة" (Constantina) و "قلعة الحديد" ("فِريش" القديمة) ، أما الزئبق المشهور المستخرج من منطقة "المعادن" (Almaden) ، الواقعة على بعد ١٢٥ كم من شمال قرطبة (بمحافظة "المدينة الملكية" (Ciudad Real) حاليًا) فلا يزال يحتفظ بالمسمى العربي لمنطقته ، وبالإضافة إلى منجم الزئبق السابق (الذى

استغله الرومان من قبل) يوجد منجم آخر في "Mestanza" وثالث في "Ovejo" القريبة من العاصمة ، وقد زار الإدريسي المنجم الأخير خلال القرن الثاني عشر (١٣٦) ، وطبقًا للجغرافي المذكور ، فقد كان يعمل بهذا المنجم ألف عامل موزعين على أربع مجموعات : المجموعة الأولى مختصة باستخراج المعدن ، والثانية بنقل الوقود اللازم ، وتقوم الثالثة بتصنيع أوعية تقطير وتنقية الزئبق بينما تعمل الرابعة في بناء الأفران وإشعالها ، كان المنجم يقع على مسافة تزيد عن مائة ذراع تحت الأرض .

أما "التوتياء" و "الزنجفر" فكانا يستخرجان من إقليم "شلُوبانْية" (Salobreña) على ساحل المتوسط .

وبالنسبة للنحاس فكان يُستخرج من منطقتي طليطلة وإلبيرة ، كما كان يُستخرج بالتأكيد – بالرغم من إغفال الجغرافيين العرب لذلك (١٣٧) – من المناجم الشهيرة بمنطقتي "النهر الأحمر" و "طرسيس" (Tarsis) (شمال غرب "ولْبَة") ، أما "حجر الشبًة" و "سلفات الحديد" فكانا يُستخرجان من "ولْبه" ؛ والقصدير من "أكشونبة" ، ومن المناجم الواقعة في أراضي "طرطوشة" و "بَسْطة" كان يستخرج الكُحْل (أو الغالينا) المستخدم في قطرة العين .

ولإزالة البقع والعناية بالشعر كانت إسبانيا تستهلك كميات كبيرة من "الطَّفْل" المستخرج من محاجر "مجان" (Magán حاليًا) القريبة من طليطلة ، بالإضافة إلى نوع من الصلصال يشبه "العلك" (١٣٨) ، كما كانت توجد بعض المحاجر التي تقتطع منها أحجار البناء في جبال قرطبة ، ومن تلك المحاجر جُلبت معظم الأحجار المستخدمة في بناء مدينة الزهراء ، ومن "جبال الشّارات" كان يستخرج الرخام الأبيض ، ومن أراضي غرناطة العقيق الأحمر والأصفر ، وأجود أنواع الرخام الأبيض هو المستخرج من "مكائل" (Macael) (شمال "المرية") وكان يستخدم في صناعة البلاط ونحت شواهد القبور ، ولا زالت بعض نماذجه الجميلة التي يرجع تاريخها إلى القرن العاشر والحادي عشر موجودة حتى الآن .

ومن مشاهدة العديد من الآثار يتضح أن الرخام الأبيض كان يتم استيراده أيضًا – عن طريق البحر – من إفريقيا ومن بلدان أبعد منها ، ولا شك أن أحجار الكلس ، المستخدمة في صناعة أربطة الجص (الرخام المصطنع) كانت تستخرج بكميات ضئيلة من أماكن متفرقة .

أشاد الجغرافيون العرب كذلك بالأحجار الكريمة لإسبانيا الإسلامية ، وعلى سبيل المثال نذكر : البللور الصخرى واللازَوَرْد (من "لورقة") ، ياقوت "مالقة" الزعفرانى ، وياقوت "ألمرية" الأحمر ، وأحجار "مرسية" المغناطيسية ، وأحجار الدم (من جبال قرطبة) ، اولأحجار اليهودية (من "ألبونت") ، وأحجار "ماركثيتا" (Marcasitas) المستخرجة من "أبَّدة" (١٣٩) .

لو نحينا جانبًا المعلومات الجافة التى أوردها الإدريسى عن مناجم الزئبق فى (Ovejo) وعن ورشة التعدين بجزيرة "شلطيش" (أمام "ولبة") حيث كان يتم معالجة الحديد الخام ، فلن نجد شيئًا يوضح لنا المنهاج أو الطريقة المتبعة لاستغلال الثروات العديدة الكامنة فى باطن الأرض الأندلسية ، لا شيء يفصح لنا عما إذا كانت الدولة هى التى كانت تقوم باستغلال هذه الثروات أو تؤجر حقوق استثمارها للغير ، فالفقهاء عند حديثهم عن المعادن المستخرجة من باطن الأرض يقتصرون على الإشارة إلى مقدار الزكاة الشرعية الواجبة فيها (الخمس) . لا يوجد ما يمنع من الظن – إذن – بأن المنهاج أو الأساليب المتبعة قديمًا ظلت سائدة فى العصر الإسلامى مع قليل من التحوير ، استحوذت الينابيع المعدنية (الحارة) ، بما لها من خواص علاجية ، على اهتمام الجغرافيين المسلمين ، خاصة البكرى والإدريسى ، وأوضح دليل على شيوع استخدام الأندلسيين لتلك الينابيع أن مسماها العربى (الحمَّة) قد أطلق على كثير من المناطق الموجودة بها ، وهكذا نجد "حمَّات" محافظات "ألمرية" ، وغرناطة ، ومرسية ، وسرقسطة المشهورة بمياهها التى تحتوى على الحديد وبيكربونات الكالسيوم ، والتى كان يستخدمها الرومان قبل المسلمين (١٤٠) .

استخراج الملح . والصيد :

كان الملح الصخرى يُستخرج من كل مكان يتواجد به داخل شبه الجزيرة ، خاصة فى إقليم سرقسطة ، وعلى سواحل الأطلسى والمتوسط كانت تستخرج كميات ضخمة من الملح البحرى الذى يستخدم فى الأغراض المنزلية وحفظ الأغذية ، كما كانت هناك ملاحات كبيرة فى جزيرة "يابسة" (Ibiza) ، لكن مستنقعات المياه المالحة فى أقاليم "قادس" و "ألمرية" و "لَقَنْت" كانت هى التى تزود إسبانيا الإسلامية – كما يجرى حاليًا – بمعظم الملح اللازم لا ستهلاكها (١٤١) .

كان الصيد البحرى فى القرن العاشر بمثابة صناعة رائجة تخصص فيها سكان المناطق الساحلية ، خاصة على شواطىء "أندلوثيا" وفى مضيق جبل طارق المشهور بوفرة أسماكه ، كان الصيادون يستخدمون الشِّباك التى تُطرح من على الشاطىء أو "المضارب" (ومنها الكلمة الإسبانية almadrabas [١٤٢]) المزودة بسياج من خيوط الحلفاء المتشابكة وبعوامات من الفلِّين والحجارة ، وكانت مخصصة لصيد سمك التونة ، لكن السردين (الذى تحتفظ اللغة الإسبانية بمسماه العربى) كان يمثل أعلى نسبة بين الأنواع السمكية الأخرى ، وكان يتم نقل كميات كبيرة منه إلى المدن الداخلية ، خاصة قرطبة ، وطبقًا لأحد المؤرخين ، فقد أراد الحكم الثانى - ذات مرة - معرفة كميات السردين التى تُباع فى عاصمته ، وبعد إجراء الحصر اللازم لها اتضح أن قيمة المبيعات اليومية تصل إلى حوالى ٢٠ ألف دينار [١٤٣] ، وبالرغم مما يمكن أن يحيط بهذا الرقم من شكوك إلا أنه يعتبر مؤشرًا للحجم الذى كانت تمثله الأسماك البحرية فى غذاء حاضرة الأندلس التى كانت تستهلك كذلك كميات كبيرة من "الشابلات" (أو "الصابوغات") نظرًا لسهولة صيدها من الأنهار وروافدها خلال موسم عودتها إليها من البحر لكى تضع بيضها .

لم يذكر الجغرافيون العرب شيئًا ذا بال عن تقنية الصيد فى الأندلس ، لكنهم أشاروا إلى وفرة الصيد فى "مالقة" و "المنكَّب" وجزيرة "شلطيش" التى كانت تمد إشبيلية باحتياجاتها من الأسماك ، تحدث البكرى عن صيد سمك التُّونة من ساحل إقليم "شذونة" عند مروره من الأطلسى إلى المتوسط خلال شهر مايو [١٤٤] ، لم يتوقف نشاط صيد التونة فى هذا الإقليم منذ ذلك العصر ، خاصة فى مضارب " الزهراء" (ميناء صيد صغير على بعد ١٥ كم من شمال غرب جزيرة طريف) والدليل على ذلك انتقال صداه إلى الأدب القصصى للعصر الذهبى [١٤٥] .

وقبل أن ننهى حديثنا عن الصيد نذكر أن ساحل الأطلسى قد شهد عمليات البحث عن العنبر ، سواء فى (Setubal) أو فى "الغرب" أو فى "شذونة" [١٤٦] ، كما كان يستخرج المرجان من المتوسط ، خاصة فى "بيرة" (Vera) القريبة من "المرية" .

٥ - الإنتاج الصناعى والتبادل التجارى

النظام الاقتصادى :

لم تنظم الخلافة الإسبانية حياتها الاقتصادية بشكل مختلف عن بقية دول العالم الإسلامى المعاصرة لها ، صحيح أن صفتها الزراعية ، وعمرانها النسبى بالسكان ، وبعدها عن الشرق الإسلامى ، وطبيعتها الجغرافية الخاصة ، وتحرش جيرانها المسيحيين والمسلمين بها قد جعلها لا تعول كثيراً على الخارج سواء بالنسبة لاكتفائها الغذائى أو الصناعى ، ومن هنا فقد عملت جاهدة لكى تعتمد على نفسها بقدر الإمكان فى تلبية احتياجاتها ، وعكفت على أرضها لتستخرج منها المنتجات اللازمة لحياة سكانها والمواد الأولية التى تتطلبها صناعتها ، وبالرغم من هذا الطابع المغلق لاقتصادها إلا أنها وجدت خارج حدودها متسعًا لبعض منتجاتها الطبيعية والصناعية وأقامت بالتالى علاقات تجارية مع الدول الأخرى لحوض المتوسط أخذت فى التطور - رويداً رويداً - على مدار العصر الوسيط .

وفى كل الأحوال ، لم تنهج الأندلس - للوفاء باستهلاكها أو التصدير أحيانًا - نهجًا مغايراً للمتبع وقتها فى بقية العالم الإسلامى ، وعلاوة على هذا ، فإن عمليات التبادل الناجمة عن الصناعة كانت محكومة دائمًا بالأخلاقيات التجارية الموروثة وبالقواعد الشرعية الصارمة التى تهدف إلى سلامة التعاقدات مما يؤدى إلى إلغائها أو يضفى عليها صفة المخاطرة .

وبالطبع ، فإن هذه الأخلاق التجارية المثالية لم تكن تُطبق بالحرف داخل المجتمع الإسلامى ، ولذا وجد السوق (مكان التعاقدات وإبرام الصفقات ، بكل ما تتسع له الكلمة من معان) نفسه خاضعًا لرقابة نوّاب السلطة المكلفين بالتحقق من جودة المنتجات الصناعية أو التى تُباع وتُشترى ، والتصدى للغش والتدليس وتتبع المخالفات وإنزال العقوبة بمرتكبيها (١٤٧) ، لكن "صاحب السوق" و "المحتسب" - من بعده - سرعان ما تقلصت اختصاصاتهما نتيجة لصدور مؤلفات "الحسبة" القيمة التى تمثل - كما ذكرنا - مصادرنا الأساسية (المفصلة والجديرة بالتصديق) لدراسة الصناعة والتجارة ونظمهما فى إسلام العصر الوسيط .

ومما يُرثى له حقًا أن المؤلفات الأندلسية – سواء كانت لابن عبدون أو السقطي – تعرض علينا أوضاعًا متأخرة عن عصر الخلافة بما لا يقل عن قرن ، لكنها ظلت تقريبًا على حالها بعد ذلك فى الغرب الإسلامي حتى العصر الحديث (ومعرفة أحوال المدن المغربية ذات التقليد الإسباني ما تزال حتى الآن دليلنا الحي لفهم طبيعة عمل المحتسبين الأندلسيين) ، ولهذا السبب لا نجد حرجًا في اعتبار الصورة التى تقدمها لنا هذه الأعمال بمثابة سند للعصر السابق لتأليفها ولعصر الطوائف بل للقرن العاشر أيضًا .

جرى العرف فى العهد الأموى على اعتبار العمل ، الذى لا يكون بطبيعته زراعيًا أو الذى لا يستهدف استغلال ما فى باطن الأرض أو النباتات الطبيعية ، عملاً حضريًا (مدنيًا) ، نفس هذا المفهوم كان سائدًا فى المغرب وإفريقيا ، لكنه كان أشد وضوحًا فى إسبانيا لكثرة تعداد سكان مدنها وقراها ، لم يكن على المجتمع الحضرى تزويد سكانه بقوتهم اليومى أو مستلزماتهم من المواد المصنعة فحسب ، بل كان مقرًا أيضًا لتعاقدات سكان القرى المحيطة به ، وهذا يفسر توجُّه جلّ وصف الجغرافيين إلى الدور الذى تضطلع به كل مدينة أندلسية كسوق لقطاعها الإقليمى .

يبدو أن الأندلس لم تعرف – بالفعل – السوق الريفى الأسبوعى كالذى يُقام حتى الآن ، فى أيام معينة ، بعيدًا عن التجمعات العمرانية (عند مَفْرق طرق ، فى العادة) على طول امتداد الشمال الإفريقى ، أما "الأسواق الجامعة" فى الأندلس فكانت تقام دائمًا على أبواب المدن مثل أسواق : "جيان" و "شَوْذَر" (Jódar) و "قرمونة" ، وموعد سوق الأخيرتين – طبقًا للبكرى – كان الثلاثاء والخميس (على التوالى) (١٤٨) ، بعض المدن كانت تضم أيضًا "سوقًا للدواب" وما زال نفس المسمى يطلق على سوق طليطلة الشهير (Zocodover) .

وهناك عادة أخرى ، يبدو أنها أندلسية خالصة ، تتمثل فى تأجير السوق من خلال مزاد عام لعدد من "المُتقَبِّلين" ، كان أسلوب " القبالة" هذا ، (بالرغم مما قد يجره من حيف) ، هو المفضل فى إسبانيا الإسلامية لأنه يسهل مهمة موظفى الضرائب المكلفين بتحصيل "المكوس" التى لا تطبق على البضائع فى الأسواق فقط بل على الداخل منها أو الخارج من بوابات المدينة ، وكما ذكرنا ، فجميع إيرادات السوق (زكاة السوق)

كانت تصب مباشرة فى خزانة العاهل الخاصة ، كما كانت تؤجر "سقائف" السوق ؛ أما الورش والحوانيت فكانت إما تابعة للدولة أو أملاك وقف .

تقدم لنا النصوص التاريخية ما يفيد بوجود طوائف حرفية (نقابات) (المصنعون والتجار والمهنيون الذين يبيعون منتجاتهم للزبائن مباشرة) فى قرطبة وبقية المدن الأندلسية منذ القرن التاسع على الأقل ، لكن النقابات الأندلسية كانت عارية - على ما يبدو - عن المواصفات والسمات الملازمة لمثيلاتها فى العالم الإسلامى الشرقى (حيث يخضع الانضمام إليها لمراسم حقيقية) أو العالم الغربى المسيحى (الذى حصلت فيه الطوائف الحرفية على إعفاءات من البلدية ، وساهم نشاطها النقابى فى إبراز الشقاق بين أصحاب الأعمال والجمعيات العمالية) ، لا نجد شيئًا من هذا بين الطوائف الحرفية للغرب الإسلامى خلال العصر الوسيط ، إذ اقتصر هدفها - فيما يبدو - على الحصول على اعتراف السلطة بأمانة رجل منها ("أمين" ، ومنها الكلمة الإسبانية : alamín) يتولى تمثيل النقابة التى ينتمى إليها أمام السلطة المدنية ، وبالتحديد أمام "المحتسب" ، ويصبح هذا "الأمين" (النقابى) المسئول الأول أمام "المحتسب" (الذى قام باختياره وتعيينه) عن أى خطأ يرتكب داخل نقابته ضد قواعد وأسس النزاهة التجارية .

كان يتم بكل مدينة - داخل بعض أحيائها الوسطى أو فى الأطراف - تحديد أماكن التصنيع والبيع لكل نقابة ؛ لكن غالبية النقابات كانت تتجمع فى السوق الممتد على مقربة من المسجد الجامع ، والحى التجارى فى قرطبة كان يشغل - على امتداد النهر والحائط الشرقى للمدينة - كل المساحة الواقعة بين المسجد الجامع وحى "الشرقية" (Ajarquía) ، كان السوق - الذى يتألف من دكاكين أو حوانيت وطيئة عبارة عن متاهة من الحارات الضيقة ، وكل نقابة لها حارة تحمل اسمها ، وفى بعض المفارق هنا وهناك ، توجد ميادين صغيرة مربعة ("رَحْبَة" أو "تربيعة") ينتشر فوقها ظل شجرة عتيقة .

أما المتاجر الراقية فكانت تتجمع فى "قيسريات" (ومنها الكلمة الإسبانية alcaic-erías) ، وهى عبارة عن أفنية واسعة محاطة بأروقة تضم محلات متواضعة أمام كل منها ممر مسقوف [149] ، وعلى نفس هذا النظام كان "سوق الملابس" الذى عُرف بالاسم الرومانثى Marqatal (ولا يزال المسمى يطلق حتى الآن على سوق الملابس بمدينة فاس [150]) .

لم يكن يجرى فى حوانيت السوق وملحقاته بالأحياء سوى البيع بالتجزئة (القطاعى) ؛ أما تجارة الجملة فكان يحتكرها التجار المختصون بهذا النوع من التجارة والوكلاء التجاريون أو السماسرة (الجُلاَّس) الذين يشترون البضائع الجاهزة من المصنعين أو المستوردين ثم يبيعونها لحسابهم عن طريق الدلالين ، وكما يحدث فى المدن المغربية حاليًا ، فالبيع عن طريق "المناداة" (ومنها الكلمة الإسبانية Almoneda) لم يكن خاصًا بالبضائع القديمة بل يشمل الجديدة كذلك ، ولنا أن نتصور مدى الحركة التي يبثها رواح ومجيىء الدلالين فى الشريان التجارى ، وكما يجرى أيضًا فى المغرب حاليًا ، فقد كان تجار الجملة يشونون بضائعهم فى مخازن (فنادق) (١٥١) .

بالرغم من شيوع استخدام كلمة "فندق" (funduq) فى الأندلس خلال العصر الوسيط ، إلا أنه كان يُفَضَّل أثناء الخلافة القرطبية إطلاق كلمة "خان" (ذات الأصل الفارسى) على هذه المخازن ، يتألف "الخان" - كما هو الحال فى الشرق - من أربعة أجنحة من المبانى المتعددة الطوابق ذات الأروقة ، وتطل أروقة الأجنحة على فناء مستطيل يتوسطها ، يتم الدخول إليه عن طريق دهليز ، كانت غرف الدور الأرضى مخصصة لتخزين البضائع ، بينما تُؤَجر غرف الأدوار العليا للمسافرين العابرين (١٥٢) ، أما الفندق فكان مخصصًا - فى الغالب - لتخزين الحبوب التى اشتراها دلالو الغلال (ميَّار) من الريف ولبيع القمح - حبًا أو طحينًا - فى مزاد عام .

فى الطائفة المهنية يجب التمييز بين "المُعَلِّمين" و "الصنَّاع" و "المتعلمين" ، كان صاحب العمل يستثمر ماله الخاص ، لكن غالبًا ما كان يتعاقد اثنان أو أكثر على المساهمة فى رأس المال والاشتراك فى حانوت واحد ، كان الأمر يجرى على هذا المنوال فى الورش الصناعية التى تحتاج لآلات باهظة التكاليف مثل ورش الحدادة والمصابغ والمدابغ وأنوال النسيج ، أما بالنسبة لرقابة "المحتسب" الدائمة فإنها لم تكن تفرق بين "أرباب الصنائع" أو التجار (أهل السوق) (١٥٣) .

المهن فى الحضر :

لا ننوى تحت هذا العنوان استعراض كافة المهن التى كانت موجودة خلال القرن العاشر فى التجمعات الحضرية الهامة مثل قرطبة وإشبيلية (١٥٤) ، ذلك لأننا سنعرض عدداً منها عند حديثنا عن المظاهر المختلفة لحياة المواطن الخاصة فى عصر الخلافة ،

ومن ثم سنقتصر هنا على تقديم لمحة سريعة عن الطوائف الحرفية الرئيسية مكتفين بالإشارة إلى ما يتعلق منها بالأغذية وصناعة الملابس .

شاهدنا من قبل كيف كان تجار التجزئة يشترون الغلال والبقول الجافة والدقيق من تجار الجملة ، كانت العائلات البروجوازية تعجن خبزها فى البيت ثم ترسله إلى الأفران العامة لإنضاجه (١٥٥) ، كانت الأفران منتشرة في الأحياء الرئيسية وتستخدم حزَم أفرع الشجر أو أعشاب الأحراج كوقود ، ولما كان أجر الفران عبارة عن قطعة من العجين الذى سينضجه فإنه كان يُعدّ من العجين المتجمع لديه خبزه الخاص ويبيعه فى السوق أو أمام مخبزه ، كان يوجد بكل حى من الأحياء شارع تجارى به محلات الجزارة (التى تبيع لحوم الضأن والماعز ، وأحيانًا لحوم الأبقار) والخضروات والفاكهة والبقالة (التى تبيع ، بالإضافة إلى التوابل مثل الملح والفلفل والزعفران وغيرها من الأفاويه ، الزيت والزبدة المملحة والبيض والسكر والعسل) ، أما الأطعمة الجاهزة فكانت من الأنشطة الرائجة في ذلك الزمان (كما يحدث حاليًا فى فاس وتونس) ، وكان الحلوانية والطّهاة يعدونها أمام أعين الزبائن المصطفين لطلب رؤوس الأغنام المشوية فى الأفران والسمك المقلى والسجق والعجائن المقلية والحلويات ، بالإضافة إلى أنواع أخرى من الأطعمة سنعرض لها عند حديثنا عن غذاء الأسرة الأندلسية ، وبالطبع ، فإن هذا النوع من النشاط – الذى يسهل فيه خداع المشترى – كان يتطلب عناية خاصة من المحتسب وأعوانه .

أما صناعة وتجارة الملبوسات (الثياب وأغطية الرأس والأحذية والنعال) – الخاضعتان ، مثل غيرهما ، للرقابة والقوانين الصارمة – فكانتا تحتكران الشطر الأكبر من الأنشطة المهنية بكل مدينة ، كان نسج أقمشة الكتان والقطن والأغطية والسجاد يتم في ورش خاصة تعرف (مثل مصانع الحرير والاستبرق الملكية) بدور "الطراز" (١٥٦) ، قدمت صناعة النسيج وصناعاتها التكميلية (مثل تمشيط الصوف والغزل وإعداد القماش والصباغة) آلافًا من فرص العمل للعمال المحترفين وللمتعلمين الذين كانوا يمارسون أعمالهم فى شوارع عديدة يحمل كل منها اسم النقابة (الطائفة الحرفية) الموجودة فيه ، احتلت صناعة النسيج فى العاصمة حيًا كاملاً يضطرب بحركة العمال المولدين والمستعربين : حى "الطرّازين" ، كان المصنعون يبيعون القماش بالقطعة للمشترين ، ويقوم هؤلاء بتسليمها للخياطين لقصها وحياكتها ، كما كان

بالإمكان أيضًا شراء الملابس الجاهزة من الـ Marqatal أو الملابس المستعملة من شارع "السقاطين" (وما زال هذا الاسم يطلق على أحد شوارع غرناطة الحالية : Zacatín) .

ومن جهة أخرى ، فقد أتاحت صناعة الجلود والفراءات العمل لكثير من الطوائف الحرفية : الدباغين ، مصنعي الفراءات المبطنة والرقّ ونجاد السيوف . أما مصنعو الأحذية (وقد ثبت أن الكلمة الفرنسية : cordonniers مشتقة من اسم العاصمة الأندلسية نتيجة لشهرة جلود قرطبة فى أوربا الغربية خلال العصر الوسيط) فكانوا يصنعون الأحذية طبقًا لمواصفات معينة بَيَّنَتْها مؤلفات الحسبة ؛ لكنهم كانوا يلقون منافسة شديدة من مصنعي "الصنادل" ذات النعال الفلينية (المتخذة من الفلِّين) التى يقبل عليها الفقراء ، ومن جهة أخرى ، وجد الإسكافيون ومصنعو نعال الخيش والحلفاء متسعًا لأنشطتهم .

لصناعة الحلفاء حَيِّز لا بأس به فى الاقتصاديات الصناعية والزراعية للمدن ، لأن الحلفاء وجُمّار النخيل – بالإضافة إلى الأسْل – كانت تستخدم فى صناعة الحُصر والسِّلال وباقى الأوعية الخاصة بالمنتجات الجافة ، أما السوائل والشحوم فكانت ورش الفخّار والخزف تصنع لها أوعيتها : إذ يقوم الفخّارون والزجّاجون فى أفرانهم القريبة من سور المدينة – من الداخل أو من الخارج – بتسوية الجرار المزججة الكبيرة (للزيت) ، والدوارق والقوارير ، والجفان (لعجين الخبز وغسيل الملابس) ، والصِّحاف والأطباق والفناجين ومواسير الصرف الصحى ، والبلاط الصغير (التبليط) (١٥٧) ، وصناعة التزجيج التى تضفى البريق المعدنى على بعض هذه القطع كانت معروفة أيضًا ، وكذلك صناعة الزجاج العادى والكريستال .

بعض الطوائف الحرفية كانت متخصصة فى البناء والتشييد ، ومن بينهم الحَجَّارون (العاملون بالمحاجر) الذين يقومون بقطع الحجارة ونقلها ، والطوَّابون (صنّاع الآجر) وصنّاع الأسقف (السقافون) بورشهم المجاورة لورش الخزافين وأفران الجبَّاسين والجصَّاصين ، وفنّ البناء يحتاج إلى بنائين متمرسين (١٥٨) ، لأن المهندسين حتى ذلك الوقت لم يكن يُستعان بهم لإعداد رسم هندسى مسبق للمبانى .

كانت الكمرات والحوامل اللازمة – من خشب البلوط أو الصنوبر – تُنْشر في مكان العمل بواسطة النجارين الذين يقع على عاتقهم أيضًا صناعة الأبواب والمشربيات ، أما الأبواب الحديدية والصناديق فكانت من عمل الحدادين الذين يصنعون كذلك العدد والمسامير والسلاسل والقضبان الحديدية . وهكذا ، كان صخب الحدادين والنحاسين يدوى في الشوارع المجاورة ولا يتوقف إلا مع دخول الليل .

وفي تلك الساعة يفرغ السوق شيئًا فشيئًا ، وتُنزل جماعة بعد أخرى أبواب محلاتها ، كان التجار يبادرون بالعودة إلى بيوتهم قبل أن يغلق أعوان "المحتسب" أو "صاحب المدينة" أبواب القيسريات والشوارع القريبة ، وخلال الليل يطوف العسس بالحي التجاري ويقبضون على المشتبه فيهم ، ومع هذا كانت السرقات والاعتداءات الليلية هي حديث كل يوم في قرطبة خلال القرن العاشر ، لدرجة أن المنصور اتخذ سلسلة من الإجراءات القمعية بهدف نشر الأمن والأمان (١٥٩) .

الصناعات الراقية وتسويقها تجاريًا :

في أواخر عهد عبد الرحمن الثالث أخذت عاصمة دولته (المشهورة في الغرب المسيحي وبيزنطة والامبراطورية العربية الشرقية) تنافس بغداد في الصناعات الراقية وفي تجارتها ، لم يكن يزاحم قرطبة في هذا المجال على المستوى المحلي سوى ميناء "ألمرية" (الذي سيحل محلها بعد سقوط الخلافة مباشرة) وجارته إشبيلية ، ففي القرن العاشر كانت "ألمرية" المكان الذي تخرج منه معظم الصادرات الأندلسية المتجهة إلى إفريقيا وشرقي المتوسط وأسيا ، وتحط فيه الواردات المجلوبة من العراق أو بيزنطة قبل نقلها إلى قرطبة ، ومن جهتها ، كانت الممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة تمثل أسواقًا هامة للصناعات الأندلسية الراقية وللبضائع التي تمر أولاً بالعاصمة الأموية ليعاد بيعها على الجانب الآخر من الثغور بواسطة السماسرة اليهود أو المستعربين ، تقدم لنا وثائق لا تحصى البراهين القاطعة على التأثير الذي تركته قرطبة في ذلك العصر على ملابس وأثاث بيوت أرستقراطية إسبانيا المسيحية ، ولم يفصح هذا التأثير عن نفسه فقط في تبني وجهاء بلاط مملكة "ليون" لحياة الخاصة الأندلسية الفارهة ، بل في كثير من المفردات والمصطلحات المستعارة من اللغة العربية ؛ وهذا أبلغ دليل على المكانة المرموقة التي كانت تحتلها المنتوجات الراقية للصناع القرطبيين أو البغداديين

المهرة . من الشواهد المُعَبِّرة – على سبيل المثال – ظهور السلع الراقية (مثل الأقمشة القصبية الفاخرة ، المنسوجات المطرزة ، الديباج والمصنوعات الأخرى لدور "الطراز" الأندلسية) في وثائق "ليون" متبوعة دائمًا بوصف "بغدادى" أو "بصرى" إلى غيرهما من النعوت العربية (١٦٠) .

ومما سبق ذكره يتضح أن صناعة نسج الأقمشة (المخصصة لتلبية احتياجات الجهاز الحاكم وطبقة الخاصة من ملابس ، والقصور من أثاث) كانت – كالحال فى بغداد وبيزنطة خلال ذلك العصر – تمثل القسط الأعظم من أنشطة التجارة الفاخرة فى الخلافة القرطبية ، وقد ساهمت طبيعة البلاد الجغرافية في تطوير هذه الصناعة ، فالأندلس – كما نعلم – كانت تنتج بوفرة معظم خامات النسيج والأصباغ الضرورية ، وعلى سبيل المثال لم يكن إنتاجها من الصوف [فى الأقاليم المخصصة لتربية الأغنام مثل "شنتجيلة" (Chinchilla) و "قونقة" (Cuenca)] يسد حاجتها فحسب بل يفى أيضًا بالطلبات الخارجية ،.اشتهرت سرقسطة بالأقمشة الكتانية ، لكن المصنوعات الحريرية هى التى أفسحت للأندلس مكان الصدارة (١٦١) .

ومنسوجات الديباج والقصب القرطبية اكتسبت شهرة مستحقة ، وكانت تصنع فى دور الصناعة الملكية ، وتُظهر العينات القليلة الباقية حتى الآن من دار "طراز" العاصمة (١٦٢) مدى ما وصل إليه نساجو المصانع الرسمية من فخامة وإتقان ورفاهية فى التصوير عندما صنعوا هذه السجاجيد السمكية التى رسموا فوقها بخيوط من ذهب اسم العاهل الحاكم ، كما كانت توجد ورش معتبرة للصناعات الحريرية فى "بسطة" و "فنيانة" (شمال غرب وجنوب "وادى آش" حيث تكثر أشجار التوت وتنتشر تربية دودة القز) ، وقد تخصصت الأولى فى صناعة المصليات ، بينما اتجهت الثانية لصناعة أغطية رؤوس النساء ، وكانت هذه الأغطية مطلوبة بشدة فى مملكة "ليون" وعرفت فيها باسم (alfiniane) (١٦٣) .

كما شهدت صناعة الجلود والفراءات تطورًا ملموسًا في الأندلس لقسوة الشتاء فيها ، خاصة فى المناطق العالية ، عن بقية الغرب الإسلامى ، وقد تحدث الرحالة الذين وصفوا إسبانيا فى القرن العاشر عن تصدير جلود "الحارود" و "السُّمُور" التى اشتهرت بها سرقسطة (١٦٤) ، أما جلود "بنات عرس" و "السنجاب" فكانت تلقى رواجًا

شديدًا في كل من قرطبة و "ليون" (١٦٥) ، كما كانت معاطف الفرو المبطنة - سواء المتخذة من جلود الأغنام أو الأرانب - مجالاً خصبًا لقيام صناعة وتجارة نشطتين تحدثت عنهما مؤلفات الحسبة (١٦٦) ، ومن الصناعات الراقية الثابتة في عصر الخلافة صناعة الخزف والبللور ، وقد كشفت التنقيبات في مدينة الزهراء عن نماذج رائعة منها ، تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن قرطبيًا من النصف الثاني للقرن التاسع (عباس بن فرناس) هو الذي اكتشف سر صناعة البللور ، وأنه أجرى تجاربه العملية عليه في أفران العاصمة الأندلسية ، لا شك أن "قلعة أيوب" و "مالقة" قد اشتهرتا بأطباقهما المذهبة المنقوشة ، لكن إقليم "بلنسية" (خاصة ورش "بطرنة" و "منيسس" (Manises) التي يعمل بهما كبار الخزافين المهرة) هو الذي أعطى للخزف العربي/الإسباني (ومنه نماذج رائعة محفوظة في عدد من المتاحف الأمريكية والأوربية) الشهرة الأبدية .

في القرن العاشر كانت الأندلس تنافس - وبحق - بيزنطة في المشغولات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة ، لم تكن قرطبة متخصصة فقط في تشكيل ونقش الحلى والعقود والأساور والأقراط ، إلى غيرها من المشغولات الذهبية (١٦٧) ، بل أيضًا في شغل الكهرمان الأسود (سبج) والجلود المزخرفة بنقوش بارزة (وتسمى "غدامس" نسبة إلى الواحة الليبية المسماة بهذا الاسم) والعاج (عظم النيل) (١٦٨) ، وتكشف تعشيقات الخشب المطعم بالصدف والعاج ، وعلب المجوهرات المستديرة أو الأسطوانية المرصعة بالعاج والمزينة بالأشكال البارزة (خاصة مشاهد الصيد) والمنقوش على أفاريزها كتابات بالخط الكوفي ، عن تقنية متقدمة للغاية تضارع فن النحت على الأحواض والفناجين التي نملك منها أيضًا نماذج جميلة ترجع لعصر الخلافة .

ويمكن إدراج الورق والرقاع (الرَّق) في الصناعات الراقية ، كان "الرَّق" (١٦٩) يصنع عادة من جلود الأغنام المكشوطة المغَرَّاة ، لكن "رقّ" الغزال المجلوب من الصحراء كان أكثر متانة ورقة ، ويشير المقدسي (١٧٠) إلى براعة الأندلسيين في صناعة الورق خلال القرن العاشر (خاصة إقليم "بلنسية") ، وأجود أنواع الورق ما يعرف بالشاطبي (نسبة إلى "شاطبة") وكانت أوراقه السميكة المصقولة تصنع - على الطريقة الشرقية - من عجينة غزول الكتان والقُنب المعطونة في ماء الكلس المضغوط ، وبعد عصر الخلافة اختفى استعمال "الرَّق" من كافة أنحاء الأندلس تقريبًا وحل محله الورق (١٧١) .

تجارة الرقيق :

عندما تحدثنا عن هيكل المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة أشرنا إلى أهمية تجارة الرقيق (البيض والسود ، خاصة الخصيان) فى الاقتصاد العام للدولة ، واذا كنا نعود الآن لنتناول نفس الموضوع فلكى نضيف إلى هذه التجارة بعض التفاصيل الفنية المستخلصة من صيغ العقود والمحررات (١٧٢) ومن مؤلف "السقطى" فى الحسبة (١٧٣) الذى أفرد لها فصلاً كاملاً . كان للنخاسين بكل مدينة هامة – من بينها قرطبة ، بالطبع – معارض خاصة لبيع وشراء"الرقيق" من الجنسين ، وكانوا يتبعون فى ذلك نفس الطريقة التي صورها المؤلفون المشارقة للعصر ذاته عند حديثهم عن مدن الامبراطورية العباسية (١٧٤) .

بالنسبة للإناث يجب التمييز بين "المُرتَضَعات" وبين "وحش الرقيق" ، ويتم تصنيف البيضاوات تبعًا لأصولهن : فرنجيات ، جليقيات أو بربريات ، بينما تعتبر كل سوداء سودانية ، ولم تكن السودانيات أقل حظًا من غيرهن لرغبة الكثيرين فى اتخاذهن محظيات أو للخدمة فى البيوت ، ومن بين البيضاوات كانت الأسعار العالية من نصيب "الجوارى" الفرنجيات والصقلبيات اللاتى مازلن يجهلن تمامًا لغة المشترين وعاداتهم ، وبعد رسو المزاد على السعر الأعلى يقوم صاحبه – قبل إتمام الصفقة – بفحص بضاعته بدقة متناهية تحسبًا لأى غش محتمل ، لكن مهمة فحص الجارية المباعة وتدوين ما يمكن من بياناتها الشخصية كانت تقع عادة على كاهل القابلات (والأطباء ، أحيانًا) ، وكل قابلة (أمينة) كانت تتلقى تكليفًا خاصًا من "المحتسب" لإمداده بكافة المعلومات عن الصفقات التى يتوقع أن ينجم عنها خلاف ، كما أن محضر البيع ذاته يتضمن كافة التفاصيل – حتى التافه منها – عن الأسيرة البائسة وعيوبها الخلقية وكأن الأمر يتعلق بدابة من الدواب ، ولهذا الغرض كان موثقو العقود يستخدمون نماذج تحتوى على بنود مخصصة للعيوب الجسمانية وملامح الجمال (نعوت) فى الرقيق ، وما زلنا نحتفظ بأنموذج من هذه العقود وعليه توقيع فقيه قرطبى مشهور (١٧٥) معاصر لعبد الرحمن الثالث ، وبالرغم من تلك الاحتياطات ، كان المشترى يقع أحيانًا فى شرك الخداع كما تشهد بذلك النادرة اللطيفة التى رواها السقطى في مؤلفه (١٧٦) عن الأندلسية التى بيعت لساذج من "إلبيرة" على أنها أسيرة مسيحية من أصول عريقة

لا تعرف سوى اللغة "الرومانثية" (الأعجمية) ، لكن أمرها افتضح بعد ذلك عندما أخطأت ولم تمسك لسانها وتحدثت فى الطريق بالعربية إلى تاجر عجوز تَعَرَّف عليها وكشف الحيلة التى اشتركت فى تدبيرها مع بائعها الغشاش ، ومع هذا ربحت صفقة المشترى المخدوع لأنه اتبع نصيحة الفتاة وحملها إلى "ألمرية" حيث باعها بمبلغ يزيد عما أنفقه فى شرائها .

سنشير فى كلمات قليلة إلى كَلَف الأمراء والأرستقراطية القرطبية بالقينات المجلوبات - بمبالغ طائلة - من الشرق حيث تدربن وأتقن فنون الرقص والغناء ، لو نسينا فلن ننسى الثلاث مدنيات (نسبة إلى المدينة المنورة) ، محظيات عبد الرحمن الثانى (وله من كل منهن ولد) اللاتى كن يدرن "أوركسترا" (جوقة) من الجوارى الموسيقيات ، ولن ننسى كذلك الحسناء "قمر" ، المغنية البغدادية ، التى اشتراها "إبراهيم بن الحشاش" (أحد سادة إشبيلية فى نهاية القرن التاسع) من الشرق ودفع فيها مثل وزنها ذهبًا . فى عصر الخلافة شهدت قرطبة مَقْدِم عدد من المغنيات الشهيرات فى الشرق [١٧٧] ، وهذا - على ما يبو - أمر غريب لأن العادة جرت على تدريب المغنيات داخل البلد ذاته حيث ترك زرياب وتلامذته - منذ القرن السابق - عدداً من المدارس الفنية المنتشرة فى قرطبة وفى بعض عواصم الأقاليم .

فى عصر الطوائف استمر تهافت الأمراء المسلمين على الجميلات العارفات بفنون الغناء الأندلسى ، وكذلك على الجوارى المثقفات (فى علوم اللغة والأدب والعلوم) ، وكان المعلمون المحترفون يتولون تعليمهن ثم يبيعونهن من جديد بأسعار طائلة .

لدينا فى هذا المقام شهادة أوردها ابن بسام [١٧٨] تفيد بتباهى الطبيب الأندلسى "ابن القطّانى" فى بداية القرن الحادى عشر ، بتعليمه أربع فتيات مسيحيات كافة العلوم والفنون : من الفلسفة والفلك حتى العروض وعلم الخطوط ، وقد باع إحداهن بمبلغ خيالى (ثلاثة آلاف دينار) لأول حاكم استقل بإمارته عن دولة الخلافة ، ونعنى به البربرى "هذيل بن رزين" ملك "سهلة" ("شنتمرية الشرق" أو "شنتمرية ابن رزين") ، وكما يروى المؤرخون ، فقد كانت هذه الجارية بمثابة ريحانة حريم هذا الملك الذى أنفق ثروات طائلة على شراء أفضل مغنيات الأندلس ، وتلميذة "ابن القطّانى" هذه كانت - بالإضافة إلى مواهبها الطبيعية وثقافتها الأدبية - بارعة فى فن الشعوذة وممارسة الألعاب البهلوانية بالأسلحة الحادة .

طرق الملاحة والتجارة :

لا شك أن النشاط التجارى المتواصل فى كافة أنواع البضائع - سواء كانت للاستهلاك المحلى أو للتصدير والاستيراد - يتطلب الحركة الدائبة على الطرق بين الأقاليم المختلفة للأندلس ، لا تهدأ تلك الحركة إلا فى الظروف المناخية السيئة ، وفيما عداها تجوب حيوانات النقل طرق الاتصال الرئيسية سواء كانت متجهة من قرطبة إلى المدن الكبرى الأخرى أو إلى موانىء التصدير العديدة مثل "الجزيرة الخضراء" و "مالقة" و "ألمرية" ، ناهيك عن شغف الأندلسيين بالسفر ، بالرغم من عدم اشتغالهم بنقل البضائع أو البريد ، وكما هو معروف ، فرحلات الذهاب والإياب بين إشبيلية والعاصمة كانت بمثابة إذكاء مستمر للحركة على الطرق التى تربط بين هاتين المدينتين العامرتين بالسكان ، سواء على امتداد نهر الوادى الكبير أو على الطريق المار بمدينة "إستجة" .

للقيام برحلة أو لنقل شىء ما كان يتعين الاتصال بوكالات السفر التى تؤجر المطايا ودواب الحمل ، وتبين العقود المحررة بهذا الشأن [١٧٩] طبيعة حمولة كل دابة بما فيها الفُرُش والزاد وأدوات المطبخ اللازمة للرحلة ، ويلتزم الحوذى الذى سيرافق الحملة باتباع خط سير محدد ، والبيات فى خانات معينة ، والتزود بالماء الكافى ، والتوقف عندما تحين الصلاة والسهر على سلامة الأفراد أو الأغراض المكلف بنقلها .

كانت المسافة التى تقطعها الدواب فى اليوم لا تتجاوز - فى الغالب - الثلاثين كم ، ولذا كانت الرحلات شاقة وطويلة ، كانت المسافة من "الجزيرة الخضراء" إلى قرطبة تتطلب [اعتماداً على الوقت الذى قضاه القائد "غالب" فى قطع نفس المسافة عند عودته من المغرب عام ٩٧٤م (٣٦٤هـ)] حوالى أسبوع ، وفى الطرق الرئيسية العامرة بالحركة يتوقف الركب فى نهاية اليوم عند استراحة (منزل) [١٨٠] المبيت بغرفه الوطيئة ولتناول الطعام فى حالة وجوده ، كما كانت الأديرة الموجودة على الطرق تأوى ليلاً المسافرين العابرين بما فيهم المسلمين .

كانت خطوط السير (المراحل والمنازل على الطرق) بين المدن الأندلسية الرئيسية مشابهة إلى حد كبير للطرق الرومانية [181] ، وهذه الخطوط التى وصفها فى البداية الجغرافيون المشارقة العرب هى نفسها الموجودة فى الدليل المفصل الذى دونه الإدريسى فى القرن الثانى عشر مع بعض التعديلات الطفيفة فى المراحل اليومية أو الطرق الجانبية ، لكن تجدر الإشارة إلى أن الطرق المستخدمة فى العصر الأموى كانت تميل فى الغالب إلى اختصار المسافة بالسير فى منخفضات الوديان ، بينما كانت الطرق القديمة تفضل الدوران حول المرتفعات ولذا كثرت بها التعرجات ، كانت الطرق الرئيسية فى النصف الأول من القرن العاشر - طبقًا للإسطخرى [182] - أربعة عشر طريقًا ، وجميعها ينطلق من العاصمة الأموية : من قرطبة إلى "إشبيلية" و "إستِجّة" ، من قرطبة إلى "سرقسطة" و "تطيلة" و "لاردة" ، من قرطبة إلى "طليطلة" و "وادى الحجارة" ، من قرطبة إلى المنطقة الجبلية على جانبى الوادى الأوسط لنهر "تاجُه" (التى يسكنها بربر "مكناسة" و "هوارة" و "نفرة") ويمتد حتى "سمورة" ، ومن قرطبة إلى "قورية" حيث يلتقى مع طرق أخرى فى "شنترين" و "ماردة" و "باجة" ، من قرطبة إلى "غافق" (فى "فحص البلوط") ثم إلى "لبلة" ، ومن قرطبة إلى "إشبيلية" يوجد طريق ثان يمر بمدينة "قرمونة" ، وباتجاه الشمال تخرج من قرطبة ثلاث طرق : إلى "بجّانة" و "ألمرية" ، إلى "مرسية" ، وإلى "بلنسية" ، ومن "بلنسية" يمتد الطريق بمحاذاة الساحل الشرقى حتى "طرطوشة" ، وفى مقاطعة "أندولوثيا" ذاتها يوجد طريقان عرضيان يربط أحدهما "إستجة" بمدينة "مَوْرور" و "شذونة" (أو "مدينة ابن السليم") ، بينما يصل الآخر بينها وبين "أرشدونة" و "مالقة" ، كما كان يوجد طريق ساحلى يؤمن الاتصال بين "شذونة" و "الجزيرة الخضراء" و "مالقة" و "ألمرية" و "مرسية" ، ويمتد من المدينة الأخيرة حتى "لقنت" و "بلنسية" [183] .

رأينا من قبل كيف أدى التهديد النورماندى أولاً ثم الحظر الفاطمى ثانيًا إلى اهتمام حكام الأندلس منذ القرن التاسع - وفى العاشر بصورة أشد - ببناء السفن الحربية (التى كانت تشق عباب مضيق جبل طارق جيئة وذهابًا) وبتزويدها بالأطقم المناسبة من البحّارة ومعظمهم كان من المولدين والمستعربين المجندين من بين سكان المناطق الساحلية فى كورتى "بجانة" و "الشرق" (Levante) . وإلى جانب "دور

الصناعة" المنهمكة فى بناء السفن الحربية ، قامت إسبانيا الإسلامية – لمواجهة النشاط التجارى المتزايد – بإنشاء ترسانات لبناء السفن التجارية سواء للملاحة على شواطىء المملكة أو للاتصال "بجزائر البليار" أو للرحلات البعيدة صوب الموانىء الإفريقية والمصرية .

وبالإضافة إلى البضائع التى يمكن أن تحملها السفن التجارية إلى "طبرقة" أو "سوسة" أو "الإسكندرية" فإنها كانت تُقل الركاب الذين تتضاعف أعدادهم قبيل موسم الحج إلى الأماكن المقدسة الإسلامية ، وقد شهد هذا النشاط الملاحى تزايداً ملحوظاً بانضمام أعمال القرصنة إليه (تحدثنا عنها بالتفصيل فى المجلد السابق) ، وستتسع هذه الأعمال بعد سقوط الخلافة لدرجة السماح لصقلبى مثل "مجاهد" (المولى العامرى) بتكوين إمارة بحرية حقيقية تشمل المنطقة الواقعة بين "دانية" و "جزائر البليار" . قد لا نضيف جديداً لو أشرنا إلى أن السفن المبنية والمجهزة فى الأندلس لم تكن تستوعب كافة تجارتها البحرية ، وأن سفناً إفريقية ومصرية كانت تأتى بصفة دورية إلى الموانىء الأندلسية على سواحل البحر الأبيض المتوسط لنقل البضائع والمسافرين إلى البلاد القادمة منها ، ولا شك أن الشىء نفسه كان يحدث فى ذلك العصر مع الوحدات البحرية المسيحية لموانىء الثغور الإسبانية – مثل "برشلونة" و "وأمبورياس" (Ampurias) – والتى ستزاحم ، فى القرون التالية ، أساطيل "بيزا" (Pisa) و "جنوة" التجارية ، وينتهى بها المطاف إلى ابتلاع تجارة الأندلس البحرية .

تناولت صيغ ومحررات العقود الملاحة البحرية وأفردت الصفحات اللازمة للحديث عن بناء السفن أو تأجيرها للغير للقيام برحلات معينة ، وأهمية تلك الوثائق تكمن فى التفاصيل الفنية التى تسوقها عن معدات وتجهيزات تلك المراكب وقواعدها وصواريها وأشرعتها ، ومن أسماء القطع البحرية المتداولة آنذاك (مثل "زورق" ، و"شانى" ، و"حَرّاق" ، و"مركب" ، و"سفينة" .. إلخ) يتبين لنا أنه لم يكن يوجد حتى ذلك الوقت تمييز واضح بين المراكب التجارية والحربية ، وذلك لإطلاق المسميات المذكورة عليهما دون تفرقة ، ومع هذا ، ففى حالة عرض أى مركب للبيع أو الإبحار يتعين وضعه جافًا على الشاطىء لكى يقوم المهتم بفحص بدنه (غاطسه) والتعرف على حالة جلفطته [١٨٤] .

لا نعرف إلا القليل عن الملاحة النهرية التى لم تكن تُمارس إلا فى حدود ضيقة باستثناء النشاط على نهر "الوادى الكبير" بين قرطبة وإشبيلية (١٨٥) .

وفيما عدا هذا ، تتحدث الوثائق الفنية أو القانونية – أحياناً – عن اجتياز نهر "الوادى الكبير" على مشارف هاتين المدينتين بواسطة "المعديات" (القوارب) ، كانت هناك "مراسى" مخصصة لهذا الغرض ، ويتولى قيادة "الطوّافات" بحارة متمرسون ("نوتية" ، مفردها "نوتى") ، وفى هذه العملية كان أعوان "المحتسب" مكلفين بمنع "المعديات" من تجاوز الحمولة المسموح بها ، وبالتحقق – إذا استدعى الأمر – من هوية الركاب (١٨٦) .

عرفنا من قبل أن المسافات البحرية كانت تُحسب بالميل ، أما بالنسبة لأخطار ونوازل الإبحار في المتوسط فليس أمامنا من سبيل التعرف عليها سوى انتظار الحكاية التى رواها الأندلسى "ابن جبير" عن رحلته إلى الشرق ، وإن كان الشاعر السفير "يحيى الغزال" قد سبقه فى القرن التاسع ووصف – بواقعية شديدة – العاصفة الهوجاء التى اجتاحت السفينة التى تُقله إلى العاصمة البيزنطية (١٨٧) ، ونشير فى النهاية إلى أن اجتياز مضيق جبل طارق (بين "الجزيرة الخضراء" و "سبته") ، وبرغم قصر المسافة ، كان – فى ظل الظروف المناخية السيئة – مصدراً للرهبة والفزع ؛ أما فى حالة اعتدال الجو فإن رحلة العبور لم تكن تستغرق – مع الرياح المواتية – إلا ثلاث سويعات فقط (١٨٨) .

هوامش الفصل الخامس

(١) قدم «ليفي بروفنسال» لوحة مفصلة عن الحياة الاقتصادية في عصر الخلافة القرطبية ، في كتابه :

Esp. mus. X° siècle, págs. 157-194 .

انظر أيضًا :

- Aguado Bleye : Man. Hist. Esp., I, págs. 452-455.

- L. G. De Valdeavellano : Hist. de Esp., I, págs. 639-643 .

ومن جهة أخرى يمكن استشارة نتائج بحث César E. Dubler عن المظاهر المختلفة للحياة الاقتصادية في شبه جزيرة إيبيريا من القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر ، المنشور في المجلد الثاني والعشرين من :

RománicaHelvética, Ginebra-Zurich, 1943 .

(٢) عن الأدب الجغرافي الخاص بإسبانيا الإسلامية لا يزال العمل التالي يعتبر الأفضل في هذا المجال بالرغم مما يحتوي عليه من قصور :

- J. Alemany Bolufer : La geografía de la península Ibérica en los escritores árabes (extractos de la Rev. Centro Est. Hist. de Granada, Granada, 1921).

سبق هذا العمل كتاب آخر للمؤلف بعنوان :

- La geografía de la península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos (extrcto de la R. A. B. M., Madrid, 1911).

كما جاء بعده عمل آخر لنفس المؤلف تحت عنوان :

- La geografía de la Península Ibérica en los escritores cristianos desde San Isidoro hasta el siglo XIX (extracto de le Rev. centro Est. Hist de Granada,Granada, 1923).

انظر أيضًا المقالات المخصصة لمدن الأندلس وأقاليمها في(la Enc. Isl) ، ومقدمة ليفي بروفنسال في :

La Péninsule Ibérique au Mayen Age .

(٣) نشر المستشرق الهولندي M.J.De Goeje جميع هذه الكتب في :

Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Leiden.

(٤) انظر ترجمة G. Wiet : Les pays, Cairo, 1937, pags. 217-221 وأيضا

Alemany, op. cit. Págs. 7-11

(٥) انظر :

B. G. A., V, págs. 37-46. Cf. Alemany, op. cit., págs. 14-19

(٦) B. G. A., II, págs. 74-79. cf. Alemany, op. cit., págs. 19-28 استخدمنا الطبعة الجديدة لابن حوقل التي نشرها :

J. H. kramers, t. I, leiden, 1938.

طبقاً لمخطوطة « إسطامبول » التي تحمل عنوان « كتاب صورة الأرض » .

(٧) انظر :

B. G. A., III, págs. 215-248. Cf. Alemany, op. cit, págs. 35-44

(٨) انظر :

- Alemany, op. cit., págs. 28-35

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X° siècle. pág. 117 .

(٩) انظر :

- Alemany, op. cit., págs. 78-122

(١٠) في « مذكرات الأكاديمية الملكية للتاريخ » (الجزء الثامن ، مدريد ، ١٨٥٢) كملحق للعمل الذي يحمل العنوان التالي :

Memorias sobre la autenticidad de la Crónica denominada del

Moro Rasis, págs. 33-63 .

(١١) الحقت صورة من ترجمة Gil Peres بـ « مدونة التاريخ العام » لسنة ١٣٤٤ ، وقد تم نشر الاثنتين مؤخراً بواسطة L. F. Lindley Cintra تحت عنوان : Crónica general de Espanha de 1344, II , Lisboa, 1952 (public. de la Academia Portuguesa de Historia).

(١٢) انظر :

- Lévi-Provençal : La Péninsule Ibérique, pp. XXI-XXI V y 245-252 .

(١٣) ترجمة ونشر :

- M. G. De Slane : Description de l'Afrique septentrionale (nueva ed., Argel, 1911, trad. Argel, 1913).

(١٤) انظر :

- Description de l'Afrique et de l'Espagne, ed. y trad. Francesa por

R.Dozy y M. J. De Goeje, Leiden, 1866

- E. Saavedra : La geografía de España de Idrisi, Madrid, 1889.

أما الجزء الخاص بإسبانيا في « نزهة المشتاق » للجغرافي الشهير ، فيستحق طبعة نقدية جديدة تبرز أفضل القراءات له وتسمح لنا – بالتالي – بترجمة أدق وأوفى من ترجمة دوزي و « دي جوج » (De Goeie) .

(١٥) خاصة في المجلد الأول من الطبعة الجزئية التي نشرها كل من :

R. Dozy, Dugat, krehly Wright ، تحت عنوان :

Analectes sur l'histoire et la litterature des Arabes d'Espagne, Leiden, 1855-1861. Cf. Alemany, op. cit., págs. 182-187 .

(١٦) عن هذه الوثيقة انظر :

- Simonet : Hist. de los Mozárabes, págs. 612 sigs .

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X° siècle. pág. 171 .

- Dubler : Wirtschaftsleben, pág. 48 y nota 7.

أما النص اللاتيني فقد نشره لأول مرة :

- Lirri : Histoire des sciences mathématiques en Italie, Paris, 1838, I, págs. 393 y sigs .

وطبعة « ليدن » للتقويم القرطبي هذا قد نفدت منذ فترة وتستحق الطبع من جديد .

(١٧) عن الأدب الزراعي الأندلسي نحيل إلى العرض الرائع لإميليوجارثيا جومث ، بعنوان :

- Sobre agricultura arábigoandaluza : Cuestiones bibliográficas, en Al- Andalus, X, 1945, págs. 127-146.

وفي نفس المجلة نذكر المقالات التالية :

- C. E. Dubler : Posibles fuentes árabes de la " Agricultura general " de Gabriel Alonso de Herrera (VI, 1941, págs. 145 y sigs.) y los de J. Mª Millás Vallígrosa, La traducción castellana del " Tratado de agricultura " de Ibn Wafid (VIII, 1943, pags. 281-332), y la traducción castellana del (Tratado de agricultura " de Ibn Bassál (VIII, 1948, págs. 347-430).

(١٨) انظر على وجه الخصوص :

- M. Meyerhof : Esquisse a'histoire de la pharmacologie et botanique chez les Musulmans d'Espagne, en al-Andalus, III, 1935, págs. 1-41 .

(١٩) انظر :

- F. J. Simonet : Glosario de voces ibéricas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1888.

- M. Asín Palacios : Glosario de voces romances registradas por botánico anónimo hispano-musulmán (siglos XI-XII), Madrid-Granada, 1943 .

يعتمد العمل الثاني على مخطوطة مدريدية عبارة عن فهرسة أبجدية للمصطلحات النباتية ، ولدى G. S. Colin نسخة منها .

(٢٠) لا نعرف حتى الآن سوى مخطوطة واحدة لكل عمل من هذين العملين ، والمخطوطتان موجودتان في مدريد بمدرسة الدراسات العربية التابعة لمعهد أسين بلاثيوس » ، وقد تم اكتشاف المخطوطتين في

« الموناسيد دي لا سييرا » (رغون Aragón) عام ١٨٨٤ م ، وقام « خوليان ريبيرا » و« أسين بلاثيوس » بوصفهما وصفًا مفصلاً والتعليق عليهما في العمل التالي :

Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta, Madrid, 1912, múm. V, págs. 17-33 y num. XI, págs. 57-69 .

ومؤلف صيغ العقود الأول (ومخطوطة مدريد لاتحتوى إلا على جزئه الثاني وبدون عنوان) من إعداد : « أبو محمد عبد الله بن فتوح بن عبدالواحد الفهري القيسي » فقيه « البونت » (Alpuente) المتوفى عام ١٠٧٠ م (٤٦٢ هـ) الذي تحدث عنه ابن بشكوال في « كتاب الصلة » (رقم ٦١١) ، وقد جمّع المؤلف مادة كتابه من مجموعات للصيغ تنسب لأربعة فقهاء مشهورين أقدم منه، ثلاثة منهم توفوا عام ١٠٠٩ م (٣٩٩ هـ) وهم : « محمد بن أبي ثمانين » (ابن الفرضي، « تاريخ علماء الأندلس » ، رقم ١٦٦٦) ، « محمد بن العطار » (المرجع السابق ، رقم ١٦٦٧) و« أحمد بن الهندى » (ابن بشكوال ، « كتاب الصلة » ، رقم ١٩) ؛ والفقيه الرابع هو « موسى بن أحمد الواثد » (المتوفى عام ٩٨٧ م - ٣٧٧ هـ) (ابن الفرضي ، « تاريخ » ، رقم ١٤٦٣) ، أما مجموعة الصيغ الثانية فهي بعنوان : « المقصد المحمود في تلخيص العقود » وصاحبها هو : « أبو الحسن على بن يحيى بن القاسم الصنهاجي الجزيري»، قاضي « الجزيرة الخضراء » المتوفى عام ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) ، وقد تحدث عنه ابن الأبار في « كتاب التكملة لكتاب الصلة » (رقم ٢٢٧٨ ، طبعة Mis-celánea) والمجموعة الثانية تورد أيضًا صيغًا يعود معظمها إلى الفترة الأخيرة من الخلافة القرطبية.

(٢١) عن المقاييس والموازين في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط نحيل إلى ما يلي : -

- H. Sauvaire : Matériaux pour servir a l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmane, en Journal Asiatique, 1879, I; 1881, 2; 1882, 1; 1884, 1-2; 1885, 1.

- J. A. Decourdemanche : Traité pratique des poids et mesures des peuples anciens et des Arabes, paris, 1889 .

وبالنسبة لإفريقيا الحفصية ، انظر :

- R. Brunschvig : Berberie orientale, II, págs. 249-253.

(٢٢) انظر :

- Manuel hisp. de hisba, pág. 13 .

(٢٣) انظر :

- Descr. de l'Afr. sept., texto, págs. 62-87; trad., págs. 129, 158,179-183

(٢٤) انظر :

- Manuel hisp. de hisba, p. 37 y glosario, p. 19 .

وطبقًا لـ Bakri, Descr. De l'Afr. sept., texto, p. 62; p. 129 فإن رطل اللحم في « تنس » (Tenes) كان يساوي ٦٧ أوقية .

(٢٥) Manuel hisp. de hisba, p. 13 - الأمر يتعلق « بدراهم الفضة الإمامية » .

(٢٦) انظر :

- A. Bel , en Enc. Isl., IV, pág. I (Sa').

- Wiliam Marçais : Textes arabes de Tanger, paris, 1911, pp. 464-465 .

ربما تكون « مُدًّا نبويًا » طاسة البرونز المحفوظة بمتحف الآثار بقرطبة ، والتي عُثر عليها في «موروكيل» (مكان مدينة « الزاهرة » القديمة) ؛ وهذا ما يجعلنا نعتقد أن تاريخها يرجع لنهاية القرن العاشر ، وقطر الطاسة يبلغ ١٣ سنتيمترًا ، وقد نُقشت عليها عبارة « الملك لله » ، انظر :

M. Gómez-Moreno : El arte árabe español hasta los Almohades, págs. 336.

(٢٧) انظر :

- Descr. de l'Afr. sept., texto, pp. 89, 112, trad. pp. 179, 211

(٢٨) انظر :

- B. G. A., III, pág. 240 (trad. Pellat, pág. 51)

(٢٩) انظر :

- Dojzy : Suppl. dict. ar., II, págs. 575-576.

(٣٠) Manuel hisp. de hisba, pág. 11 – وطبقًا له فإن « قدح » القمح يزن ما بين ٣٠ و ٣٤ رطلاً بينما يبلغ قدح الشمير أو السُلت ربع قنطار .

(٣١) انظر :

- Descr. de l'Afr. sept., texto, pág. 112; trad., pág-221.

(٣٢) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, pp. 91, 92y 221.

(٣٣) انظر :

- Manuel hisp. de hisba, pág. 19 y glosario, p. 64.

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٣٥) انظر :

- Descr. De l'Afr. sept., texto, p. 112, trad. p. 221

(٣٦) يقدم لنا السقطى في (Manuel hisp. de hisba, pág. 13) مقدار مكيال « الثُّمن » بالنسبة لبعض السوائل : ثُمن الخل = ٢,٥ أو ٠,٧٥ رطل ؛ ثُمن الحليب = ٣,٢٥ رطل .

(٣٧) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, glosario, págs. 265-266.

ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن الأبعاد المذكورة لمسجد قرطبة الجامع لا تتناسب مع تصميمه العالى إلا إذا اعتبرنا أن الذراع المستخدم للقياس طوله ٠,٤٧ من المتر .

(٣٨) انظر

- Lévi-Provençal : Inscr. ar. d'Espagne, pág. 102 y nota I.

(٣٩) يشير « ابن الخطيب » (« أعمال الأعلام » ، ص ١٢١) أن طول ذلك الخندق المحفور فى الجانب الشرقى والشمالى الغربى من العاصمة قرطبة كان يبلغ ٤٧٥٠٠ ذراع (أى ١٥ ميل) . كما كان يستخدم لقياس المسافات الأقصر « الشُّطر » الذى يساوى نصف ميل ، ولا يبدو أنه قد استخدمت أثناء الخلافة القرطبية مقاييس المسافات الشرقية مثل « الفرسخ » (٣ أميال) أو « البريد » (٤ فراسخ) .

(٤٠) وعلى سبيل المثال فقد ذكر فى العصر الوسيط أن المسافة المباشرة بين « دانية » وجزيرة «يابسة» ١٠٠ ميل ؛ وبين « يابسة » و« ميورقة » ٧٠ ميلاً ؛ وبين « ميورقة » و « منورقة » ٤٠ ميلاً ، انظر :

glosario, pág. 260

(٤١) وها هى بعض المصادر الأساسية بالنسبة لهذا الموضوع :

- F. Codera : Tratado de numismática arábigo-española, Madrid, 1879 .

- J. de la Rada y Delgado : Catálogo de monedas arábigas españolas que se conservan en el Museo Arqueológico Nacional, Madrid, 1892.

- A. Vives y Escudero : Monedas de las dinastias arábigo-españolas, Madrid, 1893 .

(٤٢) انظر

- George C. Miles: The Coinage of the Umayyads of Spain, Hispanic Numismatic Series, Monograph number I, Nueva York, 1950 (2 vols. Y 15 lams).

(٤٣) انظر المرجع السابق ، ص ١١٣–١١٧ .

(٤٤) ابن عذارى « البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ٣٢١ (٢١٥) من النص الأصلى ، ص ٣٥٦ من الترجمة .

(٤٥) انظر :

- Miles : Coinage, págs. 50-51 .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٤٩ – ٥٠ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٥٠ – ٥٣

(٤٩) انظر :

- B. G. A., VI, pág. 88 (trad. Hadj-Sadoc, pág. 51)

(٥٠) انظر :

- Miles : Coinage, pág. 564 .

(٥١) المرجع السابق ، ص ٩١ – ٩٢ .

(٥٢) أخذنا جميع هذه الأرقام من قائمة الأوزان التي أعدها Miles في : Coinage, págs. 551 y sigs.

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٩ ، رقم ١٥ .

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٩ ، رقم ٤٥ .

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٧٤ ، رقم ٥٧ .

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٨٥ ، رقم ١٠٣ .

(٥٧) - R. Brunschvig : Esquisse d'histoire monétaire almohado hafside, en

- Mélanges William Marçais, Paris, 1950, p. 70 n. 2.

(٥٨) وهذا ما يفسر الكلمة التي تلي ذِكْر العدد « بالوزن » ، انظر : Miles : Coinage, pág. 90 y nota 2.

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٧٥ ، رقم ٦٦ ؛ ص ٧٦ ملاحظة ٢ .

(٦٠) انظر

- A. Vives : La moneda castellana, Madrid, 1901, págs. 8-9.

- C. Sánchez-Albornóz : La primitiva organización monetaria de León y Castilla, Madrid, 1929, págs. 10-12.

ونظام الوزن المسبق للعملة كان معروفًا أيضًا في مملكة ليون خلال القرن العاشر .

(٦١) ابن عـذارى « البيـان المغـرب » ، الجـزء الثـانى ، ص ٢٤٦ (٢٣١) من النص ؛ ص ٣٨١ في الترجمة - المقرى « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٣٧٤ .

(٦٢) انظر ، على وجه الخصوص :

- R. Brunschvig : Esquisse d'histoire monétaire, pág. 70.

(٦٣) كتاب محمد القيسي لصور المحررات والعقود (fol. 46 v°) .

(٦٤) انظـر : ابن عذارى « البيـان المغـرب » ، الجـزء الثـانى ، ص ١٧٤ (١٨٦) من النص الأصلي ، ص ٢٧٩ من الترجمة .

(٦٥) كتاب محمد القيسي لصور المحررات والعقود (fol.46v°) .

(٦٦) ظهر هذا النعت في كتاب محمد القيسي (fol. 135 r°) ، وفي مذكرات الملك الزيرى « عبد الله » (مجلة الأندلس ، الجزء الرابع ، ١٩٣٦ ، ص ١١٣) .

(٦٧) قام ابن عذارى (« البيان المغرب » ، الجزء الثانى ، ص ٢٤٦ (١٣١) من الأصل ، ص ٣٨٢ من الترجمـة) بتقـدير قيـمـة أحـجـار وأعـمـدة الرخـام المسـتوردة من إفريقيـا لبناء مدينة الزهراء بالدنانيـر السيشيلماسية (Sichilmassies) .

(٦٨) ورد هذا النعت بكثرة فى « الأحكام الكبرى » لابن السهل (مخطوطة الرباط ، fols. 106 r°, 108 v.°, 110 V°, 111V.o, etc. بالنسبة للنصف الثاني من القرن الحادى عشر ، ولو عرفنا القيمة الفعلية للمثقال القرموني لأمكننا تقدير تكاليف الحياة في نهاية عصر الخلافة وعصر الطوائف ، وننكر فيما يلى – من منطلق وثائقى – بعض الأرقام التى ترجع إلى ٤٥٧ هـ ، ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ – ١٠٦٧ م) :

أمة سوداء	=	١٦٠ مثقالاً	–	بيت في قرطبة	=	١٦٠ مثقالاً
جارية	=	٢٨ مثقالاً	–	بيت في قرطبة	=	٢٨٠ مثقالاً
بستان في قرطبة	=	٢٤٠ مثقالاً	–	جواد	=	٢٤ مثقالاً
بغل	=	٦٠ ديناراً				

(٦٩) عن الاقتصاد الزراعي لإسبانيا المسيحية في العصر الوسيط انظر :

- L. G. De Valdeavellano : Hist. de Esp., I, pág. 532.

يبدو أن صورة هذا الاقتصاد تختلف اختلافًا جذريًا عن صورته فى إسبانيا الإسلامية : فبينما قامت الأندلس بتحسين طرق الزراعة واستيراد وأقْلمة النباتات الغريبة وتطوير نظم الرى والاستفادة بالمياه الجوفية ، ظل المصدر الرئيسي لثروة إسبانيا المسيحية يتمثل – كما كان في العصر الروماني ثم القوطي – في تربية القطعان وزراعة الغلال والعنب .

(٧٠) استطاع أحمد الرازى وابن النظّام التمييز بين الإسبانيتين ، خاصة فيما يتعلق بهطول الأمطار واتجاه الرياح ومجارى الأنهار . انظر : المقرى « نفح الطيب » الجزء الأول ، ص ٨٤ – ٨٥ .

- Alemany : Geografía de la península ibérica en los escritores árabes, pág. 188 .

كما توجد ملاحظات قيمة وهامة عن الملامح الزراعية لإسبانيا فى العمل التالي :

- L. Torres Balbás : La vivienda popular en España, inserto en el t. III (págs. 139-502) de Folklore y costumbres de España, publicado bajo la dirección de F. Correras y Candi, Barcelona, 1933. Véanse, Sobre todo, las págs. 169-171.

(٧١) المؤلف المذكور هو « أبو عبيد البكرى » ، وقد أورد كلامه « المقرى » فى « نفح الطيب » (الجزء الأول ، ص ٨٢) ، كما ذكر نفس الفقرة ابن عبد المنعم الحميرى (ليفى بروفنسال ، شبه جزيرة إيبيرا ، ص ٥) ، وأبو حامد الغرناطى فى « تحفة الألباب » (طبعة Ferrand ، باريس ، ١٩٢٥ ، ص ٢٠٠) ولابد أن البكرى نفسه قد أخذ هذه المقارنة عن مُعَلِّمه « أحمد بن عمر العذرى » (انظر : ليفى بروفنسال ، شبه جزيرة إيبيريا ، ص ٢٤ وملاحظة رقم ٢) .

(٧٢) يبدو أن كلمة Cortijo التى تطلق فى أندلوثيا حاليًا على العِزَب المتناثرة فى الحقول ، تساوى الكلمة العربية الإسبانية القديمة « مجشار » أو « مدشار » انظر :

J. Oliver Asín : Orígenes y nomenclatura árabe del cortijo sevillano, en Al-Andalus, X, 1945, págs. 109-126.

(٧٣) لابد أن هناك ارتباط وثيق بين هذه التسمية لبيوت الريف في « رغون » و « نبرة » (torres) وبين عبارة البكري التي يقول فيها إن جميع بيوت الريف (ضياع أو عزب) في « لاردة » كانت مزودة ببرج دفاعي متصل بسرداب يفر إليه المزارعون عندما يتعرضون لهجوم من الأعداء . انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 203 .

(٧٤) ظل الاعتقاد بنسبة تأليف هذا القاموس (ومخطوطته الجميلة بمكتبة « ريكارديانا » بمدينة فلورنسا) إلى المنطقة الشرقية من إسبانيا خلال القرن الثالث عشر ، بعد عودة بلنسية النهائية إلى المسيحية ، سائداً حتى عام ١٩٣٩ ، وهو العام الذي خرج علينا فيه G. S. Colin بنظرية أخرى (أيده فيها « مينندث بيدال » في كتابة « أصول اللغة الإسبانية » ، الطبعة الثالثة ، ص ٢٩٦) تفيد بنسبة تأليفه إلى منطقة «رغون» على أي حال ، وأياً كانت المنطقة التي ينسب إليها هذا القاموس اللاتيني / العربي الضخم ، فإنه يعتبر منجماً ثرّاً للتعرف على اللهجة الأندلسية المستخدمة في تلك الحقبة من العصر الوسيط والتي تزخر بكثير من مفرداتها مؤلفات ابن عبدون (الإشبيلي) والسقطي (المالقي) في الحسبة ، وأيضاً أزجال القرطبي ابن قزمان .

(٧٥) انظر :

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 752 .

(٧٦) عن هذا النوع من المشاركة والمُساقاة ، انظر على وجه الخصوص « الموردي » ترجمة .

Les statuts gouvernamentaux, Argel, 1915, pág, 416 : Fagnan

(٧٧) المعلومات المذكورة مأخوذة عن صيغ القيسي 117V.o - 110V° - fols .

(٧٨) المرجع السابق fol.118 r° 121r.° .

(٧٩) المرجع السابق ، fol. 126 ro .

(٨٠) « الأحكام الكبرى » FOL. 203 V.° (من مخطوطة الرباط) .

(٨١) أي خلال فترة الحُكْم الثانية لسليمان المستعين .

(٨٢) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X° siécle, págs. 162-163 .

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 51-55.

(٨٣) انظر :

E. Lévi-Provençal y E. García Gómez : Sevilla a Comienzos del siglo XII, pág. 43 .

(٨٤) انظر : ابن عذاري « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ١٧٣ (١٦٦) ، ١٧٤ (١٦٧) ، ٢٠٤ (١٩٢) ، ٢١٣ (١٩٩) من النص الأصلي ؛ ص ٢٧٥ – ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٣١٧ ، ٣٣١ من الترجمة .

(٨٥) انظر : ابن أبي زرع « روض القرطاس » ، ص ٧٣ من ترجمة Tornberg .

(٨٦) طبقًا للمقري (« نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٣٤٨) فقد وصل ثمن « رُبْع » القمح إلى دينار في سنوات الجفاف التي شهدتها إسبانيا في عهد المنصور .

(٨٧) ابن حوقل : « صورة الأرض » ، طبعة Kramers ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٨٨) المرجع السابق ص ٨١

(٨٩) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(٩٠) انظر :

Esp. mus. X°siécle, pág. 162 y notas 2 y 3 .

(٩١) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. XXIX.

(٩٢) انظر :

Manuel hisp. de hisba, págs. 21, 29 del texto .

(٩٣) مصنفا القيسى (fol. 60 V.°) والجزيرى (fol. 60 V.°) ، والنوعان الأولان وردا فى « كتاب الفلاحة » لأبى الخير الإشبيلى (طبعة فاس ، ص ٩٦ ، ١٣٢ - ١٣٣) انظر :

García Gomez, en Al-Andalus, X, 1945, págs. 127 y sigs .

(٩٤) انظر :

Manuel hisp. de hisba, pág. 22 del texto .

(٩٥) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 153.

(٩٦) انظر :

Descr. de l'Afrique et de l'Espange, texto, pág. 19- trad., pág. 237 .

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 220.

(٩٧) « الأحكام الكبرى » fol. 114 r.° من مخطوطة الرباط .

(٩٨) انظر :

Péninsula Ibérique, págs. 27, 125.

(٩٩) المرجع السابق .

(١٠٠) انظر :

- A. Bel : La fabrication de l'huile d' olive à Fés et dans la región, en Bulletin de la Soc, de Geographie d'Alger, XXII, 1917, págs. 121-137.

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 56-57.

(١٠١) انظر : Dozy : Suppl. dict. ar., pág 56 a . تشتمل مجموعة صيغ العقود والمحررات للقيسى (fols. 16ro, 17ro) على عقد إيجار طاحونة زيت بمعصرتها وبنائها ومخزنها .

(١٠٢) تحديث القيسى فى مُصنَّفه (fol. 18r°) عن خمسة أنوا ع من الزبيب .

(١٠٣) كان يصنع فى إسبانيا أيضًا شراب عالى الكثافة من عصير العنب المطبوخ يسمى « رُب » (ومنها تأتى الكلة الإسبانية arrope والفرنسية tob) ، وعند إذابة هذا النوع فى الماء يتحول إلى شراب غير مسكر قريب الشبه من « العسل المطبوخ » .

(١٠٤) « نقط العروس » ، ص ١٤ من طبعة Seyrold . وطبقًا لشهادة ابن حزم فلم يشرب أحد من أمراء بني أمية « نبيذ العنب » ، بل « العسل المطبوخ » .

(١٠٥) انظر النادرة الواردة بـ : Esp. mus. X° siécle, pág. 168 والمذكورة أيضًا في : Pérès : poésie andalouse, págs. 365-377 .

(١٠٦) انظر ، على وجه الخصوص :

J. Ribera : El sistema de riegos en la huerta valenciana no es obra de los árabes, en Disertaciones y opúsculos, II, págs. 309-313.

(١٠٧) عن هذه المسألة نحيل القارئ إلى هذه الدراسة الممتازة :

L. Torres Balbás : Las norias fluviales en España. en Al-Andalus. V. 1940, págs. 195-208.

(١٠٨) خاصة الإدريسي . انظر:

Esp. mus. X° siécle, pág. 166 y nota 4.

(١٠٩) انظر ، على وجه الخصوص :

G. S. Colin : La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe, en Hespéris, XIV, 1932, págs. 22-60

(١١٠) أورد ابن عذارى هذه الفقرة في « البيان المغرب » (الجزء الثالث ، ص ١٥٨) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X° siécle, pág. 167 y nota I.

(١١١) انظر :

G.S. Colin : La noria marocaine, pág. 35

(١١٢) المقري : « نفح الطيب » ، الجزء الثاني ، ص ٣٠٧ .

(١١٣) انظر المرجعين المذكورين في الهامش رقم ١٠٧ ، والهامش رقم ١٠٩ .

(١١٤) أشهر أنواع الرمان هو المسمى « صفاري » أو « رصافي » ، وقد أطلقت عليه هذه التسمية لأن الذي جلبه من سوريا لإسبانيا – بتكليف من عبد الرحمن الأول – يدعى « صفر بن عبيد القلعي » ، وقد تمت زراعته أولا في حدائق الرصافة بقرطبة . انظر :

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 559.

- Pérès : poésie andalouse, pág. 191 .

وكلمة « رمان » العربية احتفظت بها اللغة البرتغالية على هذا النحو romao ، لكن اللغة الإسبانية لم تتبناها .

(١١٥) عن هذه الأنواع من التين ، انظر :

- Dozy : Suppl. dict. ar., I, pág. 156 b.

ويكتاب دوزى السابق فقرة لـ Aviñon يبرهن فيها على بقاء مسميات هذه الأنواع فى إسبانيا لفترة طويلة بعد «حرب الاسترداد» . ولايزال التين « الشعرى » و« القوطى » معروفين حتى الآن فى شمال المغرب .

كما يوجد نوع آخر مشهور يسمى « دونيجال » وقد دخل إسبانيا – طبقًا للمؤلف الزراعي : أبى الخير الإشبيلى (ص ١١١ ، من طبعة فاس) – على يد « الغزال » عندما كان سفيرًا لعبد الرحمن الثانى فى بلاط الامبراطور البيزنطى ، انظر :

García Gómez : Sobre agricultura arábigoandaluza, en Al-Andalus, X, 1945, pág. 134 .

كما كانت « مالقة » مشهورة أيضًا بإنتاجها من التين ، وأفضل الأنواع فيها يطلق عليه « ريّ » (نسبة إلى كورة « ريَّه ») انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 215 y nota 5.

(١١٦) انظر ، على سبيل المثال : « تقويم قرطبة » – ص ٤١ ، وكتاب القيسى (fol. 125r^{o}) . ونفس الشيء يحدث حاليًا فى بعض مناطق شمال المغرب .

(١١٧) انظر :

Péninsule Ibérique, pág. XXIX.

(١١٨) انظر الدراسة التالية :

H. Pérès : Le palmie en Espagne musulmane. Notes d'apres les textes arabes, en Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Cairo, 1935-1945, págs 225-239.

(١١٩) عن هذه المسألة ، انظر :

Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 60 y nota 2

تسببت إحدى الخرافات التى تدور حول « النارنج » فى تحريم إمارات الطوائف لزراعته خلال القرن الحادى عشر . انظر :

- Pérès : poésie andalouse, pág. 192-193 .

(١٢٠) انظر :

- Lévi-Provençal : Esp. mus. X^{o} siècle, págs. 169-170 .

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. XXIX.

- Dubler, op. cit., pág. 64 .

(١٢١) انظر « تقويم قرطبة » ص ، ٣٢ من النص العربى .

(١٢٢) عن تربية البغال فى إسبانيا الإسلامية ، انظر : ابن حوقل « صورة الأرض » ، طبعة Kram-ers ، الجزء الأول ، ص ١١٤ - ١١٥ .

ـ وطبقًا لهذا الجغرافي فقد كانت تربى البغال في جزيرة « ميورقة » بقصد التصدير ، وأن بعض البغال الأندلسية كان يتراوح سعر الواحد منها ما بين مائة ومائتى دينار .

(١٢٣) اتفق المؤرخون على أن المرابطين هم الذين أدخلوا الجمال فى إسبانيا عام ١٠٨٦ م ، لكن الشواهد تثبت وجود الجمال بها قبل هذا التاريخ بكثير (بأعداد قليلة بالطبع) .

(١٢٤) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 160.

(١٢٥) المرجع السابق ، ص ٨٨ ، ١٩٣ .

(١٢٦) انظر :

Esp. mus. X° siécle, pág. 165 .

(١٢٧) كان مسجد قرطبة الجامع مسقوفًا - طبقًا للإدريسي - بألواح شجر الصنوبر المجلوب من إقليم « طرطوشة » ، انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, pág. 184.

(١٢٨) الصحيح « قرطاجنة الحلفاء » وليس « قرطاجنة الخُلفاء » كما حسبها كثير من المؤلفين العرب . انظر المرجع السابق ، ص ١٨١ ، ملاحظة ١ .

(١٢٩) ص ٤١ من « تقويم قرطبة » الذى تنسب اللاتينية إلى « ريثيموندو » (واسمه العربى : ربيع بن زيد) .

(١٣٠) انظر :

Esp. mus. X° siécle, pág. 172 .

(١٣١) انظر الدراسة التالية عن المعادن والتعدين فى إسبانيا الإسلامية .

Antonio Carbonell : La minería y la metalurgia entre los musulmanes de España, en Boletín de la Academia ... de Córdoba, múm. 25, 1929, Págs. 179-217.

(١٣٢) انظر :

- M. Torres, en Historia de España dirigida por Menéndez pidal, II, págs. 332-341

(١٣٣) المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ١٦٥-١٦٧ .

(١٣٤) المعلومات الرئيسية جمعها المقرى فى « نفح الطيب » ، الجزء الأول ، ص ٩٠ ، ١٢٣ .

(١٣٥) أشار ابن حزم فى أحد كتيباته إلى تنقية استخراج الذهب من رمال نهر لاردة . انظر :

- Asín Palacios : Un códice inexplorado del cordobés Ibn Hazm, en Al-Andalus, II, págs. 35, 40 y nota I.

(١٣٦) انظر :

- Description de l'Afrique et de Espagne, texto, págs. 213-214; trad., págs. 265-266.

- Péninsule Ibérique, pág. 15.

(١٣٧) كان النحاس الإسباني مشهوراً في العصر الوسيط انظر : الدمشقي « الإشارة إلى محاسن التجارة » ، القاهرة ١٣١٨ هـ ، ص ٢٨ .

(١٣٨) قارن هذا الاستهلاك بما يقوله Mez عن الشرق :

- Mez : Ren. Isl., trad. Vila, p. 519.

(١٣٩) انظر : « نفح الطيب » للمقرى (الجزء الأول ، ص ٩٠ – ٩١) .

(١٤٠) انظر :

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 35-39

(١٤١) المرجع السابق ، ص ٢٥ – ٢٦ .

(١٤٢) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(١٤٣) ابن الخطيب « أعمال الأعلام » ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

(١٤٤) انظر :

Péninsule Ibérique, pág. 124.

(١٤٥) وعلى سبيل المثال نذكر قصة La ilustre fregona للكاتب الإسباني الشهير « ثربانتس » .

(١٤٦) لدينا في الخصوص شهادة « المسعودى » (الواردة في « نفح الطيب » للمقرى ، الجزء الأول ، ص ٩١-٩٢) والتي يقول فيها إن أوقية العنبر التي يصل ثمنها في القاهرة إلى عشرة دنانير تُباع في قرطبة بثلاث مثقالات فقط .

(١٤٧) في تقليد منها لهذا النظام الإسلامي ، قامت إسبانيا المسيحية بفرض الرقابة الرسمية على الأسواق ، وأوكلت المهمة لنواب حملوا نفس المصطلح العربي (صاحب السوق) مع قليل من التحريف ، انظر :

- L. G. De Valdeavellano : El mercado : apuntes para su estudio en León y Castilla durante la Edad Media, en An. Hist. der. esp., VIII, 1931, págs. 201 y sigs.

(١٤٨) انظر :

- Lévi-Provençal : Péninsule Ibérique, págs. 89, 143, 191.

(١٤٩) عن « القيسريات » الأندلسية / المغربية ، انظر الدراسة التالية :

- L. Torres Balbás : Alcaicerías, en Al-Andalus, XIV, 1949, págs. 431-455.

(١٥٠) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, pág. 223 .

(١٥١) استقينا المعلومات السابقة من كتاب الحسبة للسقطي (ص ٥٨ من النص) .

(١٥٢) يوجد في مجموعة الجزيري (fol.50r°) نموذج عقد إيجار لفندق به غرف مخصصة للمخازن في الدورين : الأرضي والأول .

(١٥٣) انظر مُؤَلَّف السقطي في الحسبة ، ص ٤٣ .

(١٥٤) لاستحضار بعض مظاهر الأنشطة التجارية في حواضر إسبانيا الإسلامية نوجه عناية القارئ إلى هذا المثال المفيد :

- L. Torres Balbás : plazas, Zocos y tiendas de las ciudades hispanomusulmanas, en Al-Andalus, XII, 1947, pp. 437-476.

(١٥٥) توجد نماذج من عقود إيجارات هذه الأفران في صيغ « القيسي (fols. 76 V° 77 v.°) و « الجزيري » (fol. 50 r.°) . وعن تعاطي الأجر من جنس المخبوز ، انظر:

Sevilla a comienzos del siglo XII, pág. 115.

(١٥٦) انظر :

- W. Marçais : Textes arabes de Tanger, Paris, 1911, págs. 296-297.

(١٥٧) توجد بكتاب القيسي (fols. 24 r.°, 25 r.°) قائمة عامة بالأواني والأوعية التي يصنعها الفخّارون الأندلسيون .

(١٥٨) احتفظ لنا كتاب « الإعلام بأحكام البنيان » (الذي طبع في فاس عام ١٣٣٢ هـ) للتونسي ، الأندلسي الأصل « ابن الرّامي » بمسميات ومهام كبار معلمي الحرف المختلفة . ونشير في هذا المقام إلى انتقال كثير من مصطلحات البناء العربية إلى اللغة الإسبانية .

(١٥٩) انظر : ابن عذاري « البيان المغرب » ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٤ (٢٦٦) من النص ، ص ٤٤٢ في الترجمة .

- Esp. mus. X° siécle, págs. 232-233

(١٦٠) انظر :

- Gómez - Moreno : Iglesias mozárabes, p. 126 y sigs., p. 321 y sigs .

- Sánchez - Albornoz : Estampas, págs. 186-189.

(١٦١) أثبت ابن حوقل في « صورة الأرض » (طبعة Kramers ، الجزء الأول ، ص ١١٠) تصدير دور « الطراز » الأندلسية للأقمشة الحريرية لكل من مصر وخراسان ، وفي فقرة أخرى (ص ١١٤) يقدم لنا الجغرافي معلومات قيمة عن منسوجات الصوف والحرير والكتان الأندلسية ، لكن مصطلحاتها الفنية تستعصي على الفهم أحيانًا ، ويذكر – على سبيل المثال – سجاد اللباد الذي يتراوح سعر الواحدة منها ما بين ٥٠ ، ٦٠ دينارًا ؛ منسوجات الحرير الخام (خزّ) بأنواعه المختلفة من بينها نوع يسمى « مُجَمَّع » يستخدم في المعاطف الواقية من المطر ؛ منسوجات الكتان ، خاصة المصنوعة في « بجّانة » والتي تصدر لمصر ومكة المكرمة واليمن .

ونذكر أخيراً ما قاله « القاضى النعمان » فى « المجالس والمسايرات » (طبقًا لإبراهيم حسن وأحمد شرف فى كتابيهما « المعز لدين الله » ، ص ٣٢٩) بشأن عبد الرحمن الثالث عندما فاخر المعز بجودة وفخامة منسوجات الحرير التى تصنعها دور « الطراز » الأندلسية ، فما كان من الخليفة الفاطمى إلا أن رد عليه رداً عنيفًا ساخراً .

(١٦٢) خاصة سجادة الحرير التى عليها اسم الخليفة هشام الثانى ، والمحفوظة فى الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد . انظر :

- Lévi-Provençal : Inscr. ar. d'Espagne, múm. 211, pág. 192 y nota 8.

(١٦٣) انظر :

Sánchez - Albornoz : Estampas, pág. 142 y nota 11.

(١٦٤) انظر :

Esp. mus X° siècle, pág. 184 y notas 2, 3 y 4.

(١٦٥) انظر :

Sánchez - Albornoz : Estampas, pág. 186.

وقد ورد مصطلح Alphneke o Alfanego بمعنى « جلد بنات عرس » لكنه من الكلمة العربية « فنك » التى يُراد بها فى شمال إفريقيا نوع من الثعالب الصغيرة الضارية للصفرة التى تحدث عنها الجغرافيون العرب خاصة البكرى :

[Descr. de l'Afr. sept., trad., pág. 49, nota 3]

(١٦٦) انظر :

E. Lévi-Provençal y E. García Gómez : Sevilla a Comienzos del siglo XII, pág. 212

(١٦٧) انتقلت بعض مسميات هذه المشغولات (الذهبية) إلى اللغة الإسبانية ومازال تستعمل حتى اليوم ، ونذكر منها على سبيل المثال : Alhaja (حلىّ) ، Ajorca (خلخال) ، Arracada (قُرْط) .

(١٦٨) انظر هذه الدراسة المستفيضة :

- J. Ferrandis : Marfiles y azabaches esoañoles, Barcelona - Buenos Aires, 1928.

(١٦٩) عن « الرّقّ » الجديد والمستعمل انظر :

Sevilla a comienzos del siglo XII, págs. 21-220.

وقد ورد فى « تقويم قرطبة » (ص ٥٨) أن « رقّ » جلود الوعول والغزلان كان يتم إعداده فى شهر مايو ويونيه .

(١٧٠) طبعة De Goeje (ص ٢٣٩) – ترجمة pellat (ص ٤٩) ، والفقرة غير واضحة تماماً لأن كلمة « وراق » العربية التى يستخدمها الجغرافى يمكن أن تطلق على صناعة الورق أو على مهنة ناسخ المخطوطات ، سواء بسواء .

(١٧١) عن صناعة الورق فى إسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Esp. mus. X° siècle, pág. 185 .

- Sevilla a comienzos del siglo XII, pág. 150 .

- Dubler : Wirtschaftsleben, págs. 81-84.

(١٧٢) انظر كتاب « القيسى » (fols. 20, 33. 36) والجزيرى (fols. 43-44) .

(١٧٣) انظر :

- Esp. mus. Xo siécle, págs. 191-193.

(١٧٤) انظر الفصل الحادى عشر من

Mez : Ren. Isl., trad. Vila, págs. 200-212.

(١٧٥) القاضى المذكور هو « أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفى » ، المتوفى عام ٩٦١ م (٣٥٠ هـ) ، وقد ترجم له « ابن الفرضى » فى « تاريخ علماء الأندلس » (رقم ١٤٠) . يمكن مقارنة رسالة هذا القاضى عن المزايا والعيوب الخلقية فى الرقيق (التى ضمنها القيسى مؤلفه fols. 28 v.° 31 r.°) بدليل الطبيب المسيحى « ابن بُطلان » (القرن الحادى عشر) المذكور فى :

Mez: Ren. Isl., trad. Vila, pág. 205.

(١٧٦) ص ٥٤ – ٥٥ من النص الأصلى ؛ وترجمتها الفرنسية موجودة فى :

Esp. mus. X° siècle. pág. 193 y nota 2 .

أما ترجمتها الإسبانية فيمكن الإطلاع عليها فى المصدر التالى :

Sánchez - Albornoz : Esp. mus. según los autores isl. Y crist. medievales, I, págs. 297-299.

(١٧٧) روى « أحمد الشروانى» فى «حديقة الأفراح » أن المنصور بن أبى عامر اشترى مغنية بغدادية ، لكنها انتقلت من حريمه إلى حريم وزير من « مالقة » فى بداية القرن الحادى عشر .

(١٧٨) انظر :

Pérès : poésie andalouse, págs. 383-385 .

(١٧٩) انظر صيغ « القيسى » للمحررات والعقود (fols. 87 v.°, 88r,.°) .

(١٨٠) انظر :

- Saqatí : Manuel hisp. de hisba, glosario, págs. 66-67.

- Idrisí (Descr. de l'Afrique et de l'Espagne, texto, págs. 201-202; trad. págs. 245, 246,247).

وقد ذكر منزلين من هذه المنازل : أحدهما فى « مُنْدوخار » (Mondujar) يمكن شراء الخبز والفاكهة وأسماك النهر منه ، والآخر فى « دِجْمة » (Diezma) .

(١٨١) عن شبكة الطرق الرومانية فى إسبانيا ، انظر :

- M. Torres : Hist. de Esp. dirigida por Menéndez Pidal, II, págs. 569-571.

(١٨٢) انظر :

- B. G. A., I, pág. 46; cf. Alemany : Geog. de la pen. Iber., en los escr. arabes, págs. 17-19.

(١٨٣) وهناك طريقان أخران أشار إليهما ابن حوقل فى القرن العاشر (طبعة Kramers ، الجزء الأول ، ص ١١٦ – ١١٧) وهما : الطريق من قرطبة إلى إشبيلية والغرب ، والذى يتجه بعد ذلك إلى « وادى أنه » فى « شنترين » ، ثم إلى وادى نهر « تاجُه » لكى ينتهى فى طليطلة .أما الثانى فيبدأ من قرطبة وينتهى فى « مدينة سالم » ويمر على « قلعة رباح » وطليطلة و « وادى الحجارة » .

وتوجد خريطة للطرق بين قرطبة وطليطلة خلال العصر الإسلامى فى المصدر التالى :

- F. Fernández Jiménez, en Al-Andalus, IX, 1944 .

(١٨٤) انظر محررات وصيغ « القيسى (fols. 88r.°,89v.°) والجزيرى (fol.47 v.o) .

(١٨٥) لدينا فى « المقتبس » لابن حيان (فى الجزء الخاص بالحكم الأول وعبد الرحمن الثانى ومحمد الأول – fols. 158 r.° y 194 r°) دليلان على الملاحة النهرية بين قرطبة وإشبلية فى القرن التاسع : تتحدث الفقرة الأولى عن شخص يتجول على شاطئ الوادى الكبير بقرطبة ويشاهد المراكب المتجهة إلى إشبيلية ؛ بينما تشير الثانية إلى ما فعله عبد الرحمن الثانى وهو على فراش الموت عندما أمر بحمله إلى شرفة القصر ليلقى نظرته الأخيرة على السفن الرائحة والغادية فى الوادى الكبير . أما المحطات على الخط الملاحى بين إشبيلية وقرطبة – والتى أشار إليها الإدريسى فيما بعد (.Descr. de l'Afr. et de l'Esp ، ص ٢٠٧–٢٠٨ من الأصل ، ص ٢٥٦ فى الترجمة) – فكانت كالتالى : « قنطلانة » (Cantillana) ، « القليعة » ، « لوره » (Lora) ، « حصين المدور » (Almodóvar del Río) .

(١٨٦) انظر « الأحكام الكبرى » لابن سهل (مخطوطة الرباط fol. 213 r. °) . كان الفلاحون المتجهون بثيرانهم إلى ضياعهم الموجودة بمنطقة Campiña يجتازون النهر من « مرسى بَلَّشْ » القريب من العاصمة .

(١٨٧) انظر :

- Lévi-Provençal : Islam d'Occident, I, pág. 91.

(١٨٨) هذا هو الزمن الذى استغرقه بالفعل « عبد الملك » (ابن المنصور) فى اجتيازه للمضيق بعد عودته من المغرب عام ٩٩٩ م (٣٨٩ هـ) ، طبقًا لابن حيان . انظر :

- Lévi-Provençal : Fragments historiques sur les Berbéres au Moyen Age, pág. 43.

الفصل السادس

النهضة العمرانية فى قرطبة خلال القرن العاشر الميلادى

عناوين الفصل السادس :

١ - السمّات العامة للمدن فى أسبانيا الإسلامية :

المسمّيات العمرانية والأنماط المختلفة للمدن - ملامح المدينة ونموّها العمرانى .

٢ - المدن الكبرى فى المحافظات والثغور :

مدن الأندلس الغربية وإقليم الغرب Algarve - مدن شرق الأندلس والساحل الشرقى - المدن فى مناطق الثغور .

٣ - قرطبة خلال القرن العاشر الميلادى :

وصف قرطبة الإسلامية - محيط قرطبة وتعداد سكانها خلال عصر الخلافة - سور المدينة وبّواباتها - المدينة القديمة ونموها ناحية الشرق - الأحياء الشمالية والغربية - الجسر وما حوله - المسجد الكبير .

١ - السمات العامة للمدن فى أسبانيا الإسلامية : (١)

المسميات المعمارية والأنماط المختلفة للمدن :

يعتبر تنوع المراكز العمرانية - المدن ذات الكثافة السكانية العالية وكبريات القرى - أحد الملامح البارزة فى الأندلس الإسلامية على مختلف مراحلها ، هذه السمة ، التى جعلت أسبانيا - منذ أواخر العصور الوسطى - مختلفة من أغلب البلاد التى وقعت تحت السيطرة الإسلامية ، وخاصة إقليم البربر المجاور لها ، لم تغب عن انتباه علماء الجغرافيا العرب الذين وصل الأمر ببعضهم إلى إحداث نوع من التصنيف حيث أطلقوا لفظة "أم" على العواصم الهامة فى شبه جزيرة أيبيريا ، ولفظه "بنت" على المدن الأقل أهمية (٢) ، وعندما تحدث الجغرافيون عن المدن الأندلسية فقد عنوا بالحديث عن جذورها القديمة ، كما ندين للبكرى - فى المقام الأول - باتجاهه للبحث عن أصول لغوية - ولو أنها خيالية فى أغلب الأحوال - لأسماء الأعلام الجغرافية المستخدمة فى العصر السابق على الإسلام (٣) .

من المعروف أن أغلب المراكز العمرانية فى الأندلس كانت موجودة قبل القرن السابع ثم احتفظت بأسمائها الأصلية (الأيبيرية أو اللاتينية) بعد الفتح الإسلامى ، وبعد ذلك دخل عليها القليل من التحريف فى اللغة العربية ، ولنذكر بعضًا منها مثل : Istiggi استجة Ecija ، Malaca مالقة Iliberris البيرة ، Ilici (ألش Elche) Taletum (طليطلة) Ilerida لاردة Osca (وشقة Huesca) ، كما نذكر بعض الأعلام ذات الأصل اللاتينى Emerita ثم تحول اللفظ إلى María ثم Mérida (ماردة) ، وهناك Pax Iulia ثم إلى Bacha باجة Brja) و Italica إلى طليقة Taliqa و Valentia إلى بلنسية ، و -Caesa raugusta إلى سرقسطة Zaragoza ، أما المدن ذات الأسم العربى الذى يتسم بأنه وصفى ، مثل الجزيرة الخضراء Algeciras "La torre de vigia" برج المراقبة إلى المرية Almeria ، والمينا (المدينة ← Almaden - فقد كانت نوعًا من الاستثناء ، كما توجد أسماء أخرى تذكرنا بالمؤسس الحقيقى أو المفترض للمدينة مثل مدينة سالم (Medinaceli) (٤) ، وقلعة أيوب Calatayud ، وبلد الوليد Valladolid ، أو مسميات تحمل اسم شخصية لها ارتباط بحدث تاريخى يعود إلى عصر الفتح الإسلامى : جزيرة طريف Tarifa وجبل طارق Gibraltar ، كما أن أسماء بعض القبائل أو البربر

أو العرب يمكن أن تطلق على بعض المراكز العمرانية مثل مكناس (Mequinenza) في الثغر الأعلى ، وغافق Gafiq شمال قرطبة ، وبالى Poley .. الخ [٥] أما في الساحل الشرقي فنجد أن الكثير من القرى لازالت تحمل حتى الآن أسماء العائلات العربية أو المولدة التي كانت تعيش فيها خلال العصور الوسطى ، فهنا - على سبيل المثال - بنوقاسم Benicasim ، وبنو غانم Beniganim وبنو حيون Benifay ، وبنو كارلو Beni-carlo ، وبنو غانم Beniganim ، وقد كانت أسماء الأعلام أيضًا عبارة عن منازل ترافق اسم أحد العرب مثل منزل نصر Masanasa ومنزل علا Misalta ، كمال رأينا أن بعض أسماء الأعلام [٦] ، تذكرنا بوجود موقع استراتيجي ، سواء كان طبيعيًا أم مصطنعًا وقد التفت حوله المباني ثم أصبح منطقة آهلة بالسكان ، وهذا ما نجده في قلعة الجزولة Alcala de los Gaziles وقلعة يحصب ، والثانية عن Alcalá la Real ، وهاتان المحلتان كانتا عبارة عن قلعتين لمجموعتين انفصلتا ، الأولى منهما عن القبيلة العربية يحصب والقبيلة البربرية الجذولة - ، هناك أيضًا قلعة رباح Caltrava ، وحصن اللوز Iznalloz ويمكننا أن نذكر الكثير من الأمثلة وأن يسترعى انتباهنا أن اللغة البربرية لم تكد تخلف أثر لها في أسماء الأعلام في شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورغم كل ما سبق فإن أسماء الأعلام ذات الأصل اللغوى السابق على دخول الإسلام أكثر بكثير من تلك الأسماء ذات الأصل العربي المحض .

كانت أغلب هذه التجمعات السكانية تتسم في عصر الخلافة بأنها ذات طبيعة "ريفية" ، وظلت محتفظة بذلك الطابع من اليوم [٧] ، وقد أسرنا في السطور السابقة إلى أن إقامة من يفلح الأرض ، سواء لحسابه الخاص أو لحساب طرف ثالث ، فيها لم تكن عادة شائعة الانتشار اللهم إلا إذا كانت الأراضي ذات الري الدائم ، الأمر الذي يستلزم وجود صاحب المزرعة لرقابة عملية الري ، أما الفلاح الذي يزرع الأرض التي تروى بماء المطر ، وكذلك العمال الذين يعملون معه ، فكانوا يلجأون إلى السكنى في أقرب تجمع سكني سواء كان قرية أو ضَيْعة ومعنى هذا عدم الأمن كان يجبر المزارعين على أن يتجمعوا وأن يضعوا محاصيلهم تحت قلعة أو إحدى التحصينات ، وانتهى الأمر بالكثير من هذه الأرباض إلى تحويلها إلى مراكز حضرية صغيرة سواء كانت ضئيلة الأهمية أم غير ذلك ، وهذا يرتبط بدرجة خصوبة الأرض أو الناحية التي

يعيشون فيها ، وقد لعب هذا المفهوم "الناحية" distrito ، الذى لم يكن قاصراً على أسبانيا الإسلامية ، دوره فى تكوين المراكز الحضرية أو شبه الحضرية فى الحقول الأندلسية ، ويقدم لنا رواة السير والمؤرخون البرهان على ما نقول حيث يطلقون على مثل هذه المناطق لفظة "الإقليم" وهى لفظة كانت تعنى "الطقس" فى المناطق المأهولة (٨)

ولا زالت المغرب حتى الآن تميز بين أهالى "الكورة" وأهالى "المدن" ، ومما لا شك فيه أنه نوع من السلوكيات الموروثة عن التقاليد الأندلسية ، ومن المحتمل أن تكون عواصم الدوائر المدنية والعسكرية - فى أسبانيا - الشديدة الكثافة السكانية والقائمة فى معظمها على أطلال مناطق حضرية قديمة ، هى التى تحولت إلى المدن بالمعنى المفهوم والذى يتضمن كافة المواصفات الحضرية الإسلامية مثل : السور وبواباته والمسجد الكبير والسوق ومقر إقامة الأمير أو الحاكم الذى يمثله والأحياء الداخلية ووجود الأرباض فى بعض الحالات ، الكائنة خارج الأسوار مع الملحقات الصناعية .

غير أنه توجد اختلافات بين العواصم الأندلسية ذات الصبغة الحضرية ، ويمكن أن ترجع فى ذلك الموقع الجغرافى والطقس السائد وكذا الارتفاع أو الموقع ، فهناك المدن التى تقع فى السهول وتلك التى تقع فى المناطق الجبلية وهذه الثالثة التى تقع فى أحد الأطراف الساحلية أو هى عبارة عن ميناء بحرى ، وهذه المدن كلها يمكن أن تكون عواصم الكُور ، غير أنه رغم الاختلاف العمرانى فيما بينها تلتقى فى أنها تقدم للزائر صورة فيها شىء من الأسرية ، وهى سمة يمكن أن يلاحظها الرحالة - غير الخبير - حتى اليوم بين فاس - المدينة الجبلية - وتونس - الميناء البحرى - أو القيروان المدينة السهلية .

ومن الأمور المكررة المعادة الإشارة إلى الصعوبات القائمة اليوم أمام إعادة تصور ما كانت عليه تلك المدن الأندلسية فى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى والأمر هو أن المعلومات التى يسوقها ناقلو الأخبار العرب ، والتى علينا أن نرجع إليها ، لعدم وجود ما هو أفضل ، تتسم عادة بالتكرر والرقابة وأحياناً ما تتناقض مع بعضها البعض ، وفى الوقت الذى خطت فيه الأبحاث خطوات عملاقة بشأن المدن الإسلامية فى المشرق خلال العصور الوسطى سواء من الناحية التاريخية أو الآثارية -

وهذا يرجع إلى دراسة الكثير من الآثار التى لا زالت كما هى وكذلك إلى الكتابات المستفيضة والإحصاءات وأسماء الأعلام الجغرافية التى ورد ذكرها لدى الرحالة - فانت تجد أن المدن الواقعة فى الغرب والتى تنسب إلى نفس الفترة التاريخية ، لا تحظى بنفس الشيء حيث توصلت الدراسات إلى نتائج مخيبة للآمال ، وليس أمامنا إلا اللجوء إلى المصادر غير المباشرة أو جُزازات الأخبار التى لا تسهم فى الإيضاح بقدر ما تسهم فى إلقاء الظلال وإذا ما استثنينا قرطبة فإن الأندلس والمغرب لم تحظيا - مثل مصر - بوصف المؤرخين لمدنهما أو أن يهتم بهما مؤرخ على نفس القدر الذى عليه المقريزى ، ويصل الأمر فى المغرب إلى إنه حتى وقت قصير لم يؤثر مرور الزمن والتطور على مدنها التى ظلت طوال ألف عام محتفظة بطابعها الإسلامى فى بلد يتسم بأنه بلد محافظ وظل لفترة طويلة مسدود الأبواب أمام التيارات الخارجية ، أما الوضع فى إسبانيا فإن العواصم القديمة مثل إشبيلية وقرطبة وماردة وبلنسية وطركونة أو سرقسطة عاشت إما مرحلة تطور عمرانى جديدة عندما تم إعادة بنائها خلال العصر المسيحى ابتداء من القرن السادس عشر ، وإما عصر انحطاط ، لكنها جميعها تعرضت - مع مرور الزمن - لتغيير فى ملامحها ، وكان التغيير عميقًا لدرجة يصعب معها أن نعثر فى مخططاتها الحالية على البيانات الهامة واللازمة لإعادة تصورها - مهما كانت درجة الافتراضية فيها - خلال العصر الإسلامى ، وليس أمامنا إلا الرجوع - فى حدود المتاح - إلى الصور الإيقونية القديمة واللجوء إلى المخططات العمرانية السابقة على الأعمال المعمارية خلال القرن التاسع عشر فى حال وجودها ، وقد تم اللجوء إلى تلك الوسائل فى الآونة الأخيرة - لكن دون نجاح - فى بعض المدن فى كل من نبرّة وأرغن وكذلك الأمر فى قرطبة خلال عصر الخلافة (٩) .

ملامح المدن ونموها العمرانى :

عندما نقوم بمضاهاة البيانات الضئيلة ، التى نعثر عليها من وصف الجغرافيين والمؤرخين وكتاب السير ، بالمخططات الحالية للمدن الأندلسية يمكن أن نخرج بعدة استنتاجات حول الشكل العمرانى لتلك المدن خلال العصر الإسلامى ، وأحيانًا ما تؤدى المقارنة ببعض المدن المغربية ذات الطابع العمرانى الأسبانى إلى الحصول على بعض النتائج ، فمن المؤكد أن مدينة مثل فاس لا زالت حتى اليوم الانعكاس الحى لما

كانت عليه أغلب عواصم الأندلس منذ عشر قرون مضت ، حيث تقع تلك المدن - مثل فاس - على ضفتى أحد الأنهار وتحيط بها الأراضى الخصبة من كل ناحية ، كما كانت الحياة اليومية والاقتصادية تسيران بنفس الإيقاع وتعيش نفس الاحتياجات التى تولدت عن مؤثرات متشابهة ، وأبرز أوجه الشبه تكمن فى توزيع الأحياء السكنية والأحياء التجارية ومخططات الشوارع والأسوار ، وهذا ما نجده فى قرطبة الخلافة وأشبيلية الموحدين أو غرناطة الناصريين ، حيث احتفظت تلك المدن ، لحسن الحظ ، بمدن أخرى تضاهيها وتعتبر نسخة منها على الجانب الآخر من جبل طارق ، وجاء ذلك التشابه فى المكونات الأساسية المتمثلة فى نسيجيها المعمارى وأنشطة السكان داخل الأسوار .

وليس علينا أن نُلح هنا كثيراً على تلك المكونات التى تُسهم فى إعطاء "المدينة" الكلاسيكية العربية - سواء فى المشرق أو المغرب - الملامح المشتركة التى لم تتأثر بمرور الزمن فهذا موضوع لا يدخل فى نطاق دراستنا ، كانت المدن الإسلامية الكبرى تضم حيًا رئيسيًا فى المركز وهو الحى التجارى والأكثر نشاطًا ويبدأ فى المنطقة المجاورة للمسجد الكبير ، وإلى جانب تلك البقعة العمرانية التى تمتد إليها الشوارع الرئيسية المتصلة بالبوابات هناك أحياء أخرى ثانوية يعيش فيها أغلب السكان الذين يمارسون أنشطة عادة ما تكون الأنشطة الحرفية أو غيرها ، أما المنازل الواقعة فى المناطق المجاورة للأسوار فعادة ما تكون متناثرة نظراً لكبر رقعة الأراضى وهنا تعيش الارستقراطية ، يحدث أحيانًا أن تعيش المدن حالة نمو سكانى سريع وبالتالى تتجاوز حدود السور ، وهنا تجد الأرباض التى سرعان ما تشكل جزءًا من المساحة العمرانية للمدينة بالمعنى الاصطلاحى ويتطلب الأمر بناء سور جديد ، وإذا لم يكن هناك عائق طبيعى - مثل نهر أو هضبة - فإن النمو العمرانى عادة ما يدور حول المركز ، أى حول المدينة ، وتطلق لفظة "الربض" على الأحياء الجديدة أو التوسعات العمرانية الجانبية ، غير أن كل واحد من تلك الأحياء يحتفظ بطابعه الخاص ويصبح مدينة مُصغرة .

وقد سادت تلك الخطوات فى النمو العمرانى فى أسبانيا الإسلامية ، ولم تكن هناك رغبة فى قطع الصلات سواء فى هذا الجانب أو غيره ، مع ما يحدث فى المشرق ، وعلى ذلك فإن المدينة الأندلسية قد خططت بحيث تكون مخارج الطرق

المترابطة فيما بينها مؤدية إلى المخارج الرئيسية للمدينة ، أما في حالة المدن الأقل أهمية فقد تفرعت عن "السكة الكبرى" [١٠] بعض الأزقة التى تتفرع عنها بعض الحارات الضيقة (الدروب) القصيرة والمتعرجة والتى تنتهى بتجمع سكانى مسدود ، وكان الهدف هو ربط مختلف أجزاء المدينة ببعضها [١١] ، ويمكن أن تشكل تلك الشوارع والحارات أحياء (حومات) أو أحياء صيغرة (حارات) وعادة ما تحمل تلك الحارات والشوارع أسماء المساجد الصغيرة الكائنة بها والتى يؤدى فيها السكان شعائر الصلاة ، ففي قرطبة يمكن أن يقال عن شخص إنه يعيش في ذلك الحي الذى به هذا المسجد [١٢] ، كما أننا لليوم بحاجة إلى التعمق في معرفة التفاصيل العمرانية وتشابكاتها وتقاطعاتها التي نادراً ما تأخذ مساحة متسعة وتتحول إلى ميادين حتى لا نتوه في الدروب ، وهذا ما يحدث في المدن السهلية .

من الطبيعي غيبة تخطيط عمراني يحكم نمو المدن خلال العصور الوسطى ، فلم يكن إلا محصلة المبادرات الذاتية ، فقد كان لكل شارع مجراه الرئيسى الذى يلقى فيه السكان بالمياه المستعملة والذى تجرى فيه مياه المطر ، وكثيراً ما يتحول هذا الشارع إلى مساحة من الأوحال خلال الشتاء أما في الصيف فهو عبارة عن تلال من التراب والنفايات ، وعادة ما يتم الاتفاق بين سكان كل حى من الأحياء على كيفية التخلص من النفايات الذهاب بها إلى خارج المدينة في مكان ليس ببعيد عن الأسوار ، وهذا ما يفسر وجود بعض المدن الواقعة في الجوار والقائمة على هضاب صناعية تصل في ارتفاعها – أحياناً – إلى سيطرتها على المركز العمرانى [١٣] ، أما فيما يتعلق بنزح المراحيض فقد كان يقوم به أناس يستخدمون أجراساً – وهم يعملون حتى يبتعد عنهم المارة [١٤] .

كان من الضرورى عبور تلك الشوارع ذات الرئحة الكريهة والخروج من إحدى بوابات السور [١٥] حتى يستطيع المرء أن يشم الهواء النظيف ، وكان لكل مدينة أندلسية شارعًا عريضًا [١٦] له عدة استخدامات : فقد تم تخصيص جزء منه للسوق الأسبوعى ، وجزء آخر به محراب لأداء الصلوات في الهواء الطلق (مصلى) وخاصة في الأعياد الإسلامية وصلوات الابتهال إلى الله طلبًا لحاجة معينة مثل صلاة

الاستسقاء [١٧] ، وكانت أشجار الحور تمتد إلى جوار تلك الشوارع [٢١] ، حيث يجلس من يرغبون فى الراحة ومن يقومون بالتنزه ، وكانت المقابر تقع خارج أسوار المدينة ، وكان يقصدها الكثير من السكان لزيارة قبور أقربائهم وأحياناً ما يلتقون هناك للحديث والحوار أو يتخذونها ملتقى للعشاق [١٩] ، أما المنية القاصرة على الخاصة والمروانيين من العائلة المالكة فقد كانت لهم حدائقهم (الحائر) المفتوحة للزوار [٢٠] ، كما كان يوجد بالقرب من المدينة ربض المرضى ، الذى كانت تنفق عليه مؤسسة إنسانية [٢١] .

إننا نعتقد أن الأنسب لهذه الدراسة الاقتصار على الاعتبارات السابقة التى تعتبر العناصر المشتركة للمدن الأندلسية ، ومن البديهى أنه بالرغم من وجوه الشبه بين تلك المدن – فيما يتعلق بالمخطط العام لكل واحدة سواء فى الشوارع أو المنطقة المحاطة بالسور والمناطق الواقعة خارجه – فإن كل مدينة كانت لها ملامحها وسماتها الخاصة بها ، وسوف نقوم فيما يلى بدراسة هذه المدن الكبرى دراسة موجزة قبل أن نعرج على دراسة أكثرها أهمية وهى مدينة قرطبة خلال عصر الخلافة .

٢ - المدن الكبرى فى المحافظات والثغور

مدن الأندلس الغربية وإقليم الغرب :

كانت أشبيلية ، خلال عصر الأمويين ، هى المدينة الأندلسية الأكثر ازدهاراً بعد قرطبة (٢٢) ، تقع المدينة على صفاف نهر الوادى الكبير (ذلك الاسم العربى الذى لم يتغير حتى الآن) وتعتبر حاضرة إقليم اشتهر بخصوبة أرضه وتنوع موارده الزراعية، وقد عرفت المدينة - خلال الفترة التى تلت عصر الخلافة - المزيد من الأزدهار عندما تحولت خلال القرن الحادى عشر إلى عاصمة لملكة بنى عباد ، وازداد تلك الازدهار عندما دخلها الموحدون ، وهجروا قرطبة ، المدينة التى كان يفضلها المرابطون ، وحولوها إلى مقر إقامتهم المفضل وأنشأوا فيها مسجداً جامعاً آخر ضخم المساحة وبه مئذنة على نفس الدرجة من الأبهة ألا وهى الخيرالدا الحالية ، ويحدثنا البكرى (٢٣) - القرن الحادى عشر - عن التاريخ المعمارى لمدينة أشبيلية بمزيد من التفاصيل ، وفى نفس هذه الفترة أو بعدها بقليل يطلع علينا ابن عبدون بملحق رائع بعنوان "الحسبة" ، ويشير ذلك الجغرفى إلى أن تلك المدينة المسماة قديماً Hispalis الأيبيرية أصبحت العاصمة الثانية حيث قرر ذلك يوليوس قيصر ووضع لها اسمًا هو رومية يوليش (Colonia Iulia Romula) وأحاطها بسور بناه من الحجارة ، كما تولى قيصر إقامة مدينيتين حصينتين داخل السور وأطلق عليهما الأخوان ، وبعد الفتح الإسلامى أصبحت أشبيلية من الكُور التى تتبع جند Emesa ، وفى عام ٨٤٤م (٢٣٠هـ) تعرضت الهجوم النورماندى الشهير ، وعندئذ أمر عبد الرحمن الثانى بأن يبنى حولها سور قوى البنيان لحمايتها من هجمات محتملة قد يقوم بها هؤلاء القراصنة (٢٤) وهذا ما يجعلنا نفكر بأن الأسوار الرومانية لم تكن قائمة ، وينسب البكرى للأمير نفسه قيامه ببناء المسجد الكبير فى المدينة عام ٨٣٠م (٢١٤هـ) وأشرف على الأمر القاضى عمر بن عباس ، غير أن البناء لم يكن إلا عبادة عن بلاطة واحدة ومئذنة ، ويتوفر لدينا النص الذى يذكرنا بهذه الأعمال ، كما تتوفر لدينا - منذ فترة - البراهين الدالة على أن ذلك المسجد الكبير مقامًا فى المكان الذى توجد عليه فى الوقت الحاضر كنيسة سلبادور Salvador (٢٥) ، كما أن ذلك الجغرافى هو الذى يبلغنا السور الذى بناه عبد الرحمن الثانى ثم هدمه عام ٩١٣ م (٣٠١هـ) وقام بذلك واليها ابن السالم عندما عادت أشبيلية إلى كنف الأمراء بعد التمرّد الذى أشرنا إليه فى معرض الحديث

عن فترة حكم عبد الرحمن الثالث [٢٦] ، وكان الهدف من وراء ذلك هو الحيولة دون قيام أهل المدينة بتمرد جديد ، وقد قام ذلك الحاكم (الوالى) ببناء مقر (دار الإمارة) يحيط به سور به أعمدة ، ويضيف البكرى أن هذه المدينة قد ضرب حولها سور بعد سقوط الخلافة رغم أنه كان مبنيًا بقوالب الطوب .

كما أن الاطلاع على المخطوطات السابقة على عصر الموحدين يساعدنا على أن نضيف إلى هذه المعلومات الضئيلة معلومات أخرى أكثر ضآلة وتتعلق فقط بالأسماء العمرانية ، التى هى عبارة عن أسماء البوابات والمقابر والمساجد والأحياء ، وإذا ما كانت هناك بوابات أشبيلية - مثل : بوابة قرطبة ، وقرمونة ، و Jerez "شريش" ، واسم آخر له أصول رومانثية هو باب ماكرينا ويطلق عليه اليوم Puerta Macarena - التى حملت نفس المسميات منذ القرن العاشر يجب أن نؤكد على افتراضية تحديد الأحياء التى يذكرها الجغرافيون وكذلك المساجد الصغيرة ، ويجب أن نشير أيضًا إلى أن تلك الملاحظة قابلة للتطبيق على كافة مدن أسبانيا الإسلامية ، ويمكننا فى هذا المقام - على سبيل الاستثناء - أن نحاول تحديد بعض الأماكن ضمن المخططات الحالية ، وعيوننا فى هذا هذا المقام على المصادر العربية ، ولهذا فرغم أننا نرى أن من المفيد أن نضع أمام عينى القارىء رسمًا كروكيًا لأهم المراكز العمرانية فى الأندلس خلال العصر الوسيط المتأخر ، إلا أننا لم نكتب فيها إلا الأسماء الخاصة بالمبانى أو الأماكن التى من المحتمل أن تكون تلك هى مواقعها بالفعل .

وبالنسبة للمسافر الذى ينتقل من قرطبة إلى إشبيلية متخذًا الطريق الجنوبى ، الذى عادة ما يتم السير فيه ، فإنه يمر واستجة Ecija [٢٧] وهذه الأخيرة تقع الضفة اليمنى لنهر شنيل Genil وكانت تحتفظ ببقايا من موقعها ، المزدوج السابق على العصر الإسلامى ، وكذلك بعض البوابات حيث ندين بالفضل للبكرى فى معرفة أسماء أربعة منها وهى : باب السويقة (الواقعة فى الشمال) ، وباب الجسر (الواقع فى الشرق) ، وباب أشونة Osuna (الجنوب)، وباب الرزق (الواقع فى الغرب) ، كما كان لها مسجد جامع به خمس بلاطات وبالقرب منه نجد كنيسة ، الأمر الذى يؤكد أهمية طائفة المستعربين خلال تلك الفترة ، وغرب ذلك الموقع وعلى بعد خمسة فرسخًا نجد قرمونة Carmona التى تقع على سفح هضبة استرتيجية تسطير على وديان خصبة ،

ويشتهر حصنها بأنه منيع ، وكذلك أسوارها الرومانية وبواباتها التى كانت تسمى : بوابة قرطبة ، أشبيلية ، قلشانة ، وكان مسجدها الجامع يتكون من سبع بلاطات تفصل بينها أعمدة ودعامات قديمة (٢٨) .

وإلى جنوب اشبيلية ، في الوجهة المؤدية إلى جبل طارق ، نجد أن الطريق كان محفوفًا بأشجار الزيتون ويأخذ اتجاهه صوب الأقاليم الجبلية وقرى صيدون Sidona حيث كان قد استقر فيها جند فلسطين خلال القرن الثامن ، وبعد تجاوز شريش Jerez de la Fronera بحيث تكون محافظة قادش فى الجهة الغربية (٢٩) نصل إلى العاصمة قلشانة Calsena الأهلة بالسكان اليوم ، وبعد ذلك نمر بمدينة سالم وهى الوقت الحالى تسمى M Sidonia (٣٠) ثم نمضى عبر ميدان المعركة الشهيرة "معركة الخندق" ونصل إلى طريف التى بنى فيها عبد الرحمن الثالث قلعة حصينة (٣١) وأخيراً نصل إلى الجزيرة الخضراء .

عاشت الجزيرة الخضرات حياة مزدهرة خلال القرون الوسطى نظراً لموقعها فهى فى طرف أحد ألسنة اليابسة الداخلة فى البحر ويحيط بها جبل طارق من الناحية الشرقية ، ويرجع ذلك الأزدهار – فى المقام الأول – إلى نشاط حركة الملاحة بين مينائها وميناء سبته ، وطنجة و Alcazarseguer فى المغرب ، وعندما أوشك عهد الخلافة على الإنتهاء قام الحموديون بتحويلها هى ومالقة إلى مقرهم فى الأندلس وجعلوا الترسانات الأموية المنيعة الأسوار قصوراً لهم ، وكانت المدينة تقع ، مثلما هو عليه الحال اليوم – على مرتفع من الأرض يسيطر على نهير هو وادى العسل ، وكان فى الجزيرة الخضراء – إلى جوار الترسانات – مسجد جامع به خمس بلاطات يقع فى أعلى مكان ويحيط به السوق الذى يمتد حتى البحر ، كما كان هناك مصلى أخر يطلق عليه مسجد الأعلام M.de las Banderas وذلك لتخليد ذكرى الأنزال النورماندى الذى وقع عام ٨٥٩م (٢٤٤هـ) ، وقد كان للمدينة عدة بوابات وكذلك باب آخر يطلق عليه باب الخوخة (٣٢) .

وعند تجاوز المشارف المحيطة بالجرف Aljarafe الواقعة غرب اشبيلية ، سرعان ما نرى فى أفق السماء الأبراج العالية لحصن لبلة Niebla (٣٣) ، وهى مدينة تخلفت كثيراً اليوم على احتلال مكانتها القديمة ، هناك أيضًا مدينة الحمراء التى سميت بذلك

نظراً للون الأراضى التى أقيمت عليها وكانت تسمى لبلا وقديماً إيليبلا Ilipla وكانت إحدى المدن التى خصصت لجند إيميسا Emesa ، وكانت هذه المدينة لا زالت تحتفظ بالكثير من الآثار الرومانية حتى القرن العاشر الميلادى ، وبعد ذلك يمكن للمسافر أن يعبر منطقة التعدين التابعة ولبة Huelva ، فيأخذ مركباً ويعبر مصب نهر وادى يانه ثم يرى أمامه الطريق المؤدى إلى منطقة الغرب Algarve ، وهذا الطريق يمر بقرية أكشونبة Ocsonoba ، وأول المدن التى يراها فى مسيرته بعد المرور بكل من قرية قسطلة دراج Cacella وقرية طبيرة Tavira ، يجد نفسه فى سانتا ماريا Santa Maria (٣٤) التي أصبحت تسمى اليوم فارو Faro والواقعة على حافة منطقة مليئة بغابات الصنوبر (٣٥) ، وكانت تلك المدينة مليئة بالحيوية ويشغلها الكثير من العرب من ذوى الأصول اليمنية – طبقاً لأقوالهم – كما كانت تشتهر بمينائها النهرى وترساناتها ويتسم أهلها بالدقة اللغوية وكذلك المناطق المحيطة ، وباتجاهنا صوب الشمال نجد مدينة باجة Beja– المسماة قديماً Pax Iulia – التي كانت ترتبط بمدينة أشبيلية بطريق عبر سلسلة جبال أراثينا Aracena ، كما كانت مقراً لأحد الحكام (٣٦) ثم تتفرع الطرق ابتداء من هذه المدينة لنصل إلى يابرة Évora ولشبونة وبعد ذلك إلى شنترين Santar-en ثم قلمرية Coimbra .

وقد صور لنا البكرى لشبونه (أشبونة) (٣٧) على أنها مدينة يحيط بها سور مجاور لنهر التاج ، ويفتح فى هذا السور عدد من الأبواب أو المداخل الضيقة ويقدم لنا أسماء تلك الأبواب (٣٨) ؛ ولا نعرف إلا القليل عن عاصمة البرتغال – فى المستقبل – خلال العهد الإسلامى ، وإذا ما كانت قد جذبت انتباه الجغرافيين فهذا يرجع إلى إنه قد أبحر من مينائها هؤلاء الذين أطلق عليهم "المغامرين" (٣٩) الذين حاولوا خلال منتصف القرن التاسع القيام باكتشاف المحيط الأطلنطى إلا أنه يبدو أنهم لم يتجاوزوا حدود جزر الكنارى .

مدن شرق الأندلس والساحل الشمالى :

عندما ننطلق من الجزيرة ونسير بمحاذاة شاطىء البحر المتوسط نصل إلى عبر المرور بإشْتبونة Estepona مربلة Marbella وسهيل Fuengirola إلى كورة ريّه Reyyo – التى حرف اسمها – ذو الأصل اللاتينى Regio (٤٠)، وكانت عاصمتها مالقة Malaga

الواقعة على شاطىء البحر فى موقع حصين ويحيط بها من الخلف جبل فارو Gibrafaro الذى يبلغ ارتفاعه ١٧٠ متراً ، الجنوبى الغربى لهذه الصخرة ، وفوق منطقة مرتفعة ، كانت هناك قصبة منيعة فى عصر الخلافة ، وهى قصبة أعيد بنائها بشكل جزئى ، وها هى اليوم قد تم ترميمها بالكامل ، كانت القصبة مقراً للوالى ، كما كان بها مسجد أسس فى عهد عبد الرحمن الداخل وينسب بناؤه إلى القاضى معاوية بن صالح الحضرمى ، كان هذا القاضى أحد المهاجرين السوريين فقد كان الثقاه لدى أول أمير قرطبى (توفى عام ١٧٧٥-١٥٨هـ) (٤١) ، كانت المدينة تمتد كما هى عليه اليوم بين القصبة ومجرى نهر متقطع الثروة المائية ، أما المسجد الجامع الذى تقع الكاتدرائية الحالية مكانه ، فقد كان قريباً من البحر ويعود بناؤه إلى عصر الأمير محمد الأول كما كانت له خمس بلاطات طبقاً لرواية البكرى الجغرافى الذى أشار أيضاً عن الربض دون أن يذكر اسمه ، غير أننا نعرف أنه خلال القرن الحادى عشر ، بل وقبل ذلك بكل تأكيد كان يطلق عليه اسم ذو أصل رومانثى هو فونتانيا Fontanella ، كما كان يمتد خارج إحدى البوابات التى كانت تحمل نفس الاسم (باب فونتالا) (٤٢) .

ومروراً بالطريق الساحلى الضيق الذى نجد فيه آخر سلسلة الجبال المجاورة لجبل شلير - Mons Solarius - وهى اليوم Sierra Nevada ننتقل من مالقة لنجد بيثمليان Bezmiliana والمنكب Almuñecar وداليـاس Dallas ثم نصل إلى الميناء الأندلسى الكبير المرية Almeria الذى حل خلال القرن العاشر محل عاصمة القورة القديمة المسماة بتشينا Pechina الواقعة إلى الداخل على بعد عدة كيلومترات ، وظلت المرية ، مثل مالقة ، مدينة إسلامية حتى عام ١٤٨٧م ، إذا ما استثنينا استعادتها طوال أربعين عاماً خلال القرن الثانى عشر ، وقد ظلت المدينة محتفظة بطابعها الإسلامى حتى بعد العصور الوسطى ، ورغم أهمية مينائيها ومناخها الرائع فليست اليوم إلا مدينة من الدرجة الثانية والسبب فى هذا هو قلة الطرق المواصلة بينها وبين باقى الأندلس ، كما أن نواحيها لم تكن كثيرة الخصوبة وبالتالى نرى الأرض قاحلة بمبعد عنها ، وهذا ما يتناقض مع المساحات المجاورة لها مباشرة .

يقدم لنا الإدريسى أكمل وصف لمدينة المرية (٤٣) ، لكن البكرى كان قد أشار إليها قبل ذلك عند الحديث عن طبوغرافيا العصر الإسلامى ، وبعد أن تحدث الجغرافى

الأندلسى عن الوظيفة الاستراتيجية لبرج المراقبة (مرية) فى بجّانة Pechina وكذا الرباط المجاور له قدم لنا التاريخ الدقيق لبدء تلك المنطقة العمرانية على يد الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩٥٥م - ٣٤٤هـ) (٤٤) ، كانت البداية - كما هو معهود - متمثلة فى بناء السور وتحديد مكان المسجد على نفس المحور الذى يربط بين بيتشينا والبحر ، وكان ذلك الطريق يتصل بالمرية عبر باب يطلق عليه "باب بجانة" ، وهو باب ذكره الكثير من كتاب السير العرب ويقع مكانه اليوم فى وسط المدينة ، لكنه يحمل اليوم اسمًا جديداً هو "باب بورشينا" Purchena - عبارة عن قرية مزدهرة تقع على بعد سنتين كلبو مترًا شمال المرية - وهنا نجد وجه شبه بين المسميين ونعرف أيضًا السر فى التدهور السريع الذى لحق بعاصمة الكورة القديمة ، وعلينا أن نضع جغرافيًا ، ربض المصلى Oratorio فى Puerta de Pechina ، وقد قام العبد خيران الذى حكم المدينة خلال الفترة من ١٠١٢م إلى ١٠٢٨م (٤٠٣-٤١٩هـ) بإحاطته بسور من الطين وأنشأ فى الوقت ذاته قناة لتوصيل المياه من بئر قريب ، أما الربض الثانى الواقع فى الجهة الغربية ، أى بين البحر وهضبة جبل لحام فهو "ربض الحوض" Estanque ، وأخيراً نجد القصبة التى تسيطر على المكان بمبانيها الصلدة ، وكان لهذه القلعة بوابتان وممرًا للحراسة يحيط بالمنطقة الوعرة ، كما كانت مقرًا للوالى الأموى قبل أن تضم داخل أسوارها - خلال القرن الحادى عشر - قصور الأمراء .

التجيبين عندما تحولت ألمرية إلى عاصمة لملكتهم الصغيرة (٤٥) .

وعلى الجانب الآخر من سلسلة جبال الثلج Nevada وعلى نفس المسافة من كل من مالقة والمرية تقع مدينة البيرة Elvira فى واد نهر يطلق عليه شنيل Genil وفى سفح منطقة جبلية (٤٦) ، كما قامت المدينة على الأطلال القديمة التى ترجع إلى العصرين الأيبيرى والرومانى ، وكان اسمها أنذاك Iliberris ، وعندما نتجاوز المكان نتجه بضعة كيلو مترات نحو الشرق نصل إلى تلاقى شنيل حدرُّه Darro وهناك نجد غرناطة وقلعة الحمراء التابعة لها ، لم تكن أنذاك إلا منطقة عمرانية قليلة الأهمية وكان أغلب سكانها - كما قلنا ، سلفًا - من اليهود ، لكن هذه المدينة التى ستصبح فيما بعد عاصمة الناصريين لم تعش حالة التحول والأزدهار إلا مع بداية النصف الأول من القرن الحادى عشر وذلك عندما قام الصنهاجى / الزاوى بن زيرى بجعلها عاصمة إمارته

وفضلها على ألبيرة التى يرى أن دفاعاتها سيئة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت عاصمة القورة القديمة غير آهلة بالسكان وتهدمت مبانيها ، وهكذا كان شأن الكثير من المحلات الأسبانية التى اختفت من الوجود ، وإذا ما لنا أن نحكم عليها انطلاقًا من الآثار المتاثرة فى دوائرها العمرانية لقلنا إنها كانت مدينة مزدهرة ، وقد أسهم الأمير عبد الرحمن الأول فى تطويرها وجعل بعض مواليه يقيمون فيها ، كما أن المسجد الجامع فيها الذى ينسب بناؤه إلى التابع الشهير حنش الصنعانى ثم ترميمه وتوسيعه بناء على أوامر محمد الأول فى نهاية عام ٨٦٤م (٢٥٠هـ) .

كانت ألبيرة تجاور ، من الناحية الغربية ، بلدة أرشذونة Archidona [٤٧] ، وهى عبارة عن مدينة بها حصن وقد ضربت مولها الأسوار – التى هدمت خلال القرن الحادى عشر – أما من الناحية الشرقية فهناك جيان Jaen ، وعندما نرحل من ألبيرة فقد كان هناك طريق يقودنا إلى مركزين عمرانيين هامين : وادى آش Guadix ، وبسطة Baza ، كان هذان المراكزان يشتهران بصناعة الحرير ، كانت جيان عاصمة مزدهرة وتشتهر بينابيعها وطواينها وحدائقها ، وكانت مشيدة – كما هو حالها اليوم – على سفح هضبة وعدة تتوجها القصبة ، أما المسجد الجامع فيها فقد كان يتكون من خمس بلاطات وقد شيد فى عهد عبد الرحمن الثانى [٤٨] .

ومن المرية نتجه نحو الداخل لنصل إلى لوركا Lorca وبعد ذلك نصل إلى مرسية Murcia التى كانت تقع فى Teodomiro خلال العصر القوطى ، وأصبحت بعد ذلك خلال العصر الإسلامى دائرة Tudmir ، فكما نعلم أنشئت مرسية [٤٩] ، عام ٨٣١م – ٢١٦هـ [٥٠] ، تلبية لأوامر صدرت عن الأمير عبد الرحمن الثانى لتكون بمثابة عاصمة الحكومة فى تلك الدائرة وتحل بذلك محل العاصمة القديمة Ello التى هدمت بعد ذلك بوقت قصير ، وقد كان الوالى جابر بن مالك بن لبيد هو الذى قام بتنفيذ الأوامر الصادرة من قرطبة ووضع مخطط الرقعة العمرانية الجديدة ، ورغم هذا فلا نعرف إلا القليل عن تاريخها العمرانى ، غير أننا من خلال روايات السير نعرف أن مرسية كان بها عدة مساجد وأن البوابة الرئيسية فى الناحية الغربية ، هى بوابة ابن أحمد وتقودنا البوابة إلى مسجد يسمى جامع الجرف وكذلك إلى المقابر .

وإذا ما غادرنا مرسية وسرنا بمحاذاة شاطىء البحر حتى نصل إلى مصب نهر إبرة فسوف نلاحظ أن ذلك الشاطىء الشرقى Levante كان به عدد من الموانىء النشطة مثل لقنْت Alicante دانية Denia وكذلك بعض المدن الهامة وخاصة شاطبة Ja-tiva فى الجنوب ، وطرطوشة Tortosa فى الشمال كما نجد أهم وأبرز مدينة فى شرق الأندلس وأكثرها كثافة ألا وهى بلنسية Valencia التى عاشت المزيد من الازدهار حتى بعد سقوط الخلافة ، وكان ذلك فى البداية فى عصر السيد Cid وبعد ذلك خلال الفترة التى سبقت عودتها النهائية إلى حظيرة المسيحية ، وكان يوجد بها خلال القرن العاشر الكثير من المساجد والأسواق ، أما بواباتها الرئيسية الأربعة فهى : باب القنطرة فى الشمال الغربى (الآن باب Puente) حيث يؤدى إلى الجانب الآخر من مجرى نهر وادى البيار Guadalaviar وهناك نجد دبض (ألكودية Alcudia ، وهناك باب الحنش فى الناحية الغربية Las Serpientes حيث توجد خارجه المقابر ، أما الباب الجنوبى فهو باب بيت الله Boatrlla (٥١) ، وفى الشرق نجد باب الشريعة المؤدى إلى الشارع الخارجى للمدينة والذى كان يقودنا من الناحية الجنوبية الشرقية إلى ربض الرصافة حيث يذكرنا الاسم – كما هو الحال فى قرطبة – بالحنين إلى سوريا الذى كان يشعر به الأمراء المروانيون فى هذه الناحية (٥٢) .

المدن فى مناطق الثغور

على ضفاف نهر وادى يانه – فى الثغر الأدنى – تقع مدينة ماردة Mérida (٥٣) ، وقد ظل العمران فيها نشطًا حتى منتصف القرن التاسع ، وقد كان جسرها الرومانى المكون من أربع وستين عقداً ، والذى أنشىء من كتل الجرانيت ، محط إعجاب المسلمين ، وكذلك الأمر بالنسبة لباقى الآثار التى ظلت باقية فى العاصمة القديمة لدائرة لوسيتانيا Lusitania ، وفى عام ٨٣٥ م – ٢٢٠ هـ بنى قصر منيع البنيان على أطلال مبنى رومانى قديم يطل على نهر وادى يانه ، تلبية لأوامر عبد الرحمن الثانى ، وقد قام بهذا العمل الوالى عبد الله بن كليب بن ثعلبه أثناء الظروف التى أشرنا إليها عند الحديث عن فترة حكم ذلك الأمير (٥٤) ، ولازالت هناك لوحتان تذكاريتان لهذه القلعة التى يطلق عليها اليوم كونبتول Conventual ، ثم أصبح القصر بعد ذلك مقراً لإقامة القائد الشهير هاشم بن عبد العزيز (٥٥) ، عندما تولى أمر ماردة فترة من الزمن باسم الأمير محمد الأول ، وقد نقل لنا البكرى عن ذلك القائد أنه استولى على

أجمل قطع الرخام فى المدينة وأمر بنقلها إلى قرطبة حيث تم استخدامها فى القصور والحمامات .

فقدت ماردة أهميتها خلال عصر الخلافة وحلت محلها جارتها بطليوس Badajoz التى تقع هى أيضًا على ضفاف نهر وادى يانه ، أى على بعد ستين كيلو مترًا باتجاه مصب النهر ، وقد أشرنا قبل ذلك (٥٦) ، إلى الكيفية التى أصبحت فيها هذه المدينة أكثر أهمية ونمت عمرانيًا خلال نهاية القرن التاسع ، وقد كان ذلك لاختيارها مقر إقامة للمتمرد الشهير عبد الرحمن بن مروان بن الجليقى ، وعندما وجد ابن حفيده – الذى يحمل نفس الاسم – نفسه مجبرًا على الإذعان لعبد الرحمن الثالث فى عام ٩٢٩ م – ٣١٧ هـ ، أصبحت بطليوس مقر إقامة القائد العام الذى كانت تعينه قرطبة وأخذت المدينة تنمو سواء فى تعداد السكان أم النشاط التجارى ، وإذا ما كان لنا الوثوق فى عبارة ساقها البكرى (٥٧) ، فإن الأمير عبد الله مديد العون لابن جليقى لمدة قصيرة من الزمن حيث أجبره هذا الأخير على بناء المدينة الجديدة وزوده بالمال والبنائين الذين قامو بتسوير المدينة بالطوب وأنشئوا فيها حصنًا يقع شمال الرقعة العمرانية – على لسان يسيطر على نهر وادى يانه ، كذلك تم إنشاء مسجد باستخدام الحجارة وكذا منارة وحمامات بعد أن انتقلت القيادة العامة للثغر الأوسط إلى مدينة سامل ، الواقعة بالقرب من الخط الاستراتيجى الذى نهر دويرة ، لم تفقد مدينة طليطلة أهميتها خلال عصر الخلافة فقد كانت واحدة من أكثر المدن غنى وإزدهارًا وكان بها عدد غير قليل من المستعربين واليهود ، وقد أحدث موقعها تأثيرًا على الكتاب العرب فى مدينة تقع على هضبة كائنة فى منحنى لنهر التاج الذى يلتف حولها من ثلاثة جوانب ويسير تحت قديمها عبر مسار عميق ؛ ولهذا كانوا يتحدثون عن تفرد موقعها كما قصوا العديد من الأساطير التى سترت فى أنحاء أسبانيا والتى كانت تتحدث عن الثروات والكنوز التى كانت فى المدينة عند استيلاء المسلمين عليها (٥٨) ، إلا أنهم لم يتحدثوا بدقة عن عمران المدينة وآثارها خلال عصر الإمارة والخلافة اللهم إلا الحديث عن الجسر الرومانى الشهير الذى لا يزال يحمل الاسم العربى "القنطرة" حتى اليوم ، وهناك رواية تتحدث عن ترميمه فى خلال نهاية القرن العاشر ، وقد قام المنصور بن ابى عامر بهذا العمل (٥٩) ، كما لا زالت بوابة الجسر Puerta del Puente التى ترجع إلى العصر الإسلامى قائمة فى طرف ذلك الأثر ، ومن المحتمل أيضًا أن البوابة الحالية ، المسماة بويرتا بيخادى بيساجرا Puerta Vieja de Bisagra ، الواقعة شمال

المدينة ، كانت قائمة فى عصر الخلافة وكان يطلق عليها باب شقراً أو بوابة ساجرا Sagra وهو اسم لدائرة خصبة تؤدى إليها تلك البوابة ، وعلينا أن ننتظر حلول القرنين الثانى عشر والثالث عشر حتى تطلعنا الوثائق الخاصة بالمستعربين (٦٠) ، على تفاصيل الطبوغرافيا الطليطلية فى الفترة الثالثة مباشرة لاسترداد المدينة .

وختامًا لجولتنا علينا التوجه إلى الثغر الأعلى وإلى عاصمته سرقسطة Zaragoza (٦١) ، فقد كان اسمها قديماً Caesaraugusta وأطلق عليها العرب أيضًا المدينة البيضاء ، وقد أصبحت المدينة – مثلما هو الحال فى أغلب المدن التى عرضنا لها – عاصمة مملكة مستقلة خلال القرن الحادى عشر وبذلك ازداد إزدهارها ، ومنذ زمن طويل أصبحت الرقعة العمرانية للمدينة محدودة الملامح فهى تقع فى الجانب الأيمن لنهر إبره وبالتحديد على ضفته حيث يفصلها عنه سور قديم لا زال يتحدى حتى الآن عوامل التعرية ومرور الزمن ، وكان هذا السور يضم مساحة مستطيلة ٩٠٠م×٦٠٠م تنقسم إلى أربعة أجزاء متساوية ، كما أن الشارعين اللذين يكادان يكونا مستقيمين والمتقاطعين يؤديان إلى أربعة بوابات ، وهى شوارع بلغت من الاتساع درجة تثير الاستغراب بالنسبة لمخططات المدن الإسلامية فى الجزء الشمالى الشرقى من المدينة أقام الغزاة مسجداً كبيراً حدد مكانه التابع حنش الصنعانى بحيث يكون محل كنيسة قديمة (٦٢) ، وقد تم نباء هذا المسجد خلال القرن الثامن وبعد ذلك تم توسعته نحو الشرق ولما ظهرت الحاجة إلى الإبقاء على محرابة التاريخى الذى وضعه الخليفة الشهير للرسول ، فقد أدخلت التعديلات اللازمة لنقله ووضعه فى الحائط الجديد للقبلة ، أما البوابة الجنوبية فكانت تؤدى إلى المقابر والتى كان قد دفن فيها حنش ورفيقه على بن رباح اللخمى ، وفى الجزء الغربى للسور كان هناك باب أطلق عليه باب اليهود طبقًا لرواية ابن الفرضى (٦٣) ، غير أن أحد الأبحاث الحديثة التى تم إجراؤها فى المكان (٦٤) أكدت أن الحى اليهودى فى سرقسطة كان يقع فى الجزء الجنوبى الشرقى للمدينة ، أما حى المستعربين فكان فى الشمال الغربى ، وكان الباب يفتح على مدخل الجسر الذى يرجع إلى العصر القديم وكان يمتد فوق النهر ، حيث نجد اليوم جسر بيدرا Puente de Piedra ، وقد تم ترميم ذلك الجسر عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) تنفيذاً لتعليمات الأمير عبد الرحمن الثانى (٦٥) ، أما بالنسبة للقصر الإسلامى "قصر السدة" Zuda (٦٦) فقد كان على صفاف نهر إبره ملاصقًا للحى المسيحى أى فى الركن الشمالى الغربى للسور .

٣ - قرطبة خلال القرن العاشر الميلادى

وصف قرطبة الإسلامى [٦٧] :

مما شك فيه أن قرطبة عاصمة الأمراء والخلفاء الأمويين تحتل مكانه الصدارة بين مدن الأندلس فى روايات المؤرخين والجغرافيين ابتداء من القرن العاشر الميلادى ، وقد كان ابن حوقل أول من خصص لها بضعة سطور تتسم بالإيجاز ، ورغم ذلك فهى تقدم لنا بعض الفاصيل عن موقعها ورقعتها وعدد بواباتها ومساحتها خلال عصر الخلافة [٦٨] ، وخلال نفس الفترة ، - طبقًا لتاكيد ابن حزم [٦٩] - خصص أحمد الرازى المؤرخ الشهير للأسرة المروانية كتابًا كاملاً تضمن الوصف الطبوغراقى للعاصمة الأندلسية وأوضح مكان إقامة العائلات الأرستقراطية فيها ، وقد اعتمد فى ذلك على المناهج التى سار عليها أحمد بن ابى طاهر ، خلال القرن السابق عليه ، عند وصفه لمدينة بغداد ، لكن "خطط قرطبة" هذه لم تصل - لسوء الحظ - إلى أيدينا ، وإذا ما أمكننا ذات يوم العثور على تلك المخطوطة لأصبح من السهل التوصل إلى حل الكثير من المشاكل التى تواجهنا عند دراسة طبوغوافيا قرطبة قبل سقوط الخلافة ، وهى مشاكل مستعصية على الحل كما رأينا حتى الآن ، وإذا ما كنا شديدى الأسف لضياع ذلك الكتاب فليس أمامنا إلا وسيلة وحيدة لرسم لوحة ممكنة للمدينة الأندلسية وحدودها ، وتتمثل فى عملية المضاهاة والاعتماد على البيانات المتناثرة فى الأدب الأسبانى العربى وخاصة فى السِّير وخاصة تلك التى كتبها ابن الفرضى ابن بشكوال والضبى وابن الأبار ، ونحن فى ذلك لم نذكر إلا الأسماء الهامة .

أما المقرى - المغربى - الذى كان يعيش خلال القرن السابع عشر ، فقد خصص لقرطبة وتاريخها حتى سقوطها فى يد الممالك المسيحية كتابًا كاملاً هو الجزء الرابع لمؤلفه الشهير نفح الطيب [٧٠] ويعتبر هذا الجزء أحد المصادر الأساسية فى معلوماتنا عن عدد كبير من الاستشهادات ، سواء كانت كاملة أو ناقصة ، التى أخذها من مؤلفين سابقين ينسبون إلى عصور مختلفة بدءًا من ابن حوقل وانتهاء بابن سعيد ، لكنه لم يورد لنا رواية أحمد الرازى ، وعلى أية حال فإن الانطباع الذى يخرج به المرء بعد قراءة هذا المؤلف البلاغى هو الشعور بخيبة الأمل ، فالمؤلف الغربى الذى هاجر إلى المشرق يتحدث عن بلد أصبح فيه الوجود الإسلامى ماضيًا انتهى منذ زمن طويل وإذا

قمنا بحذف التكرار وكافة الفقرات التى لا تتضمن معلومات حدودة من تلك الصفحات وكذلك بعض القصائد الشعرية والشطحات الأدبية فلن يتبق أمامنا إلا القليل من المادة النافعة والتى يمكن أن ننظر إليها على أساس أنها صندوق يتضمن معلومات متناثرة مثل تلك التى نستقيها من كتابات السير .

غير أن قلة المصادر ليست هى العنصر الوحيد الذى يجعل من الصعب تحديد أسماء الأماكن القرطبية بالنسبة للمخطط المدينة فى الوقت الحالى ، ذلك أن المسميات فى تلك الأخيرة لا تمثل إلا صورة موجزة ومشوهة لعاصمة الخلافة ، نعم هناك ملامح أساسية تجتمع كلها فى المناطق المجاورة لنهر الوادى الكبير (مثل المسجد الجامع وموقع القصر) غير أنها تقل فى الجهات والنواحى المجاورة (مثل موقع الرصافة وأطلال العصر الأموى فى السهل أو النواحى المجاورة للجبال شمال مدينة الزهراء) ، ومع هذا يمكننا أيضًا أن نحدد بوضوح ودقة ، وأسوار المدينة خلال القرن العاشر وكذلك جُلّ الأبواب فيه ، لكن قرطبة تجاوزت كل ذلك الماضى وتغيرت معالمها القديمة بالكامل وخاصة إبتداء من القرن التاسع عشر ، وقد أدت الأعمال العمرانية إلى تغيير ملامحها بالكامل إذا ما استثنينا من ذلك المنطقة المحيطة بالجامع والأحياء للنهر ، ولحسن حظنا يتوفر لدينا مخطط قديم للمدينة (٧١) ، تم رفعه عام ١٨١١م مما يجعلنا نستند إليه أكثر من أية مخططات أخرى حديثة عند محاولة إعادة تصور المدينة الإسلامية خلال عصر الخلافة الأموية فى الغرب .

تعداد سكان قرطبة ومحيطها خلال عصر الخلافة :

من المؤكد أن المحيط الحالى لقرطبة ليس إلا جزءًا من ذلك كان يوصف خلال القرن العاشر ، فرغم بناء بعض الأحياء الجديدة فى الشمال الشرقى والشمال الغربى فإن إجمالى امتداد المحيط الحالى للمدينة يمكن أن يصل إلى عشرة كيلو مترات ، كما أن الرقعة العمرانية يمكن أن نراها مربعة الشكل بحيث يبلغ طول كل ضلع حوالى ٢,٥ كم ، ورغم هذا فإن تلك الأبعاد لا تتفق – ولو من بعيد – مع ما نقرأه فى المؤلفات العربية ، وحتى لو قللنا من حجم الأرقام الذى يذكرونها على أساس أنها مبالغ فيها ، فإنها – أى الأرقام – تجعلنا نرى أن رقعة المدينة فى نهاية عهد الخلافة قد وصلت إلى ما هو أكبر مما هى عليه اليوم ، وما يبرهن على هذا هو توافق الروايات التاريخية

والآثارية التى تؤكد أنه بعد استرداد المدينة اختفت أجزاء كاملة من تلك الرقعة التى كان يسكنها المسلمون وهى تلك التى كانت تقع شمال وشرق المدينة الحالية ، وإذا ما أضفنا إلى ذلك عنصراً آخر هو عبارة عن قرار شهير يمنع إقامة المبانى ، فإن المدينة لم تتسع رقعتها نحو الجنوب (أى على الجانب الآخر من نهر الوادى الكبير) إبتداء من القرن التاسع ، ومعنى كل هذا أنه يمكننا القبول بتقديرات الجغرافين والمؤرخين حول محيط المدينة خلال القرن العاشر على الشاطىء الأيمن لنهر الوادى الكبير وعلى الطرف الغربى ، أى باتجاه مدينة الزهراء ، وفى الجانب الشرقى باتجاه المدينة العامرية الزاهرة [٧٢] ، ونحو الشمال باتجاه الإقامة الشهير الرصافة .

وأول شاهد على مدى اتساع محيط المدينة هو ما رواه ابن حوقل ، ورغم وجهة نظر ذلك المؤرخ بالنسبة للأمويين ومملكتهم فى الأندلس فإنه يشير إلى أن العاصمة كانت تحتل مساحة تساوى أحد جوانب بغداد ، وأنه لا توجد هناك أية مدينة فى المغرب أو سوريا أو مصر تضاهيها فى الاتساع ، ويلاحظ أيضًا أنه بعد تأسيس مدينة الزهراء أخذ ينمو فى الوقت ذاته حى سكنى يقع بين العاصمة والمقر الجديد لإقامة الخلفاء ، وكذلك ملحقاتها المعمارية - وهى معلومة هامة لتقدير مدى اتساع رقعة المدينة - التى هى عبارة عن أحياء ألحقت بها من الجهات الشرقية والشمالية والغربية وأصبح لك ذلك جزءًا من المدينة ، إذن يمكننا الخروج بنتيجة تقول أنه كان يوجد بين رقعة المدينة وبين أحيائها المجاورة لها مساحات خالية متمثلة فى الحدائق والباحات والمقابر أو الأراضى غير المخصصة لغرض معين .

ويشير المقرى إلى كاتب هو ابن غالب [٧٣] الذى قدر إجمالى طول سور المدينة بحوالى ١٤ ميلاً أى ٢٠ كم ، غير أننا سوف نرى أن هذا التقدير غير سليم وأن ذلك المؤلف قد عُمِّىَ عليه الأمر بأن خلط بين محيط المدينة بمفهومه الأساسى وإجمالى الرقعة العمرانية ، والرقم الأكثر ثقة هو الذى أورده مؤرخ أندلسى آخر [٧٤] ، وهو رقم لا يتعلق بمحيط المدينة بل بامتداد الخندق المحفور حول قرطبة عندما تم إعداد الدفاعات عن المدينة ضد البربر الذين حاولوا حصارها فى بداية القرن الحادى عشر ويشير هذا المؤلف إلى أن ذلك الخندق كان يمتد حول ثلاثة جوانب للرقعة العمرانية باستثناء الجانب الرابع القائم فى الجهة الجنوبية - نهر الوادى الكبير - ويصل طوله

إلى ١٤٢٠ متراً وبالتالي يصل إجمالي طول الخندق ٢٢,٥ كم وهذا يبدو محتملاً ، عندما ننقل ذلك إلى مقياس مخطط المدينة فإن ذلك العقد الضخم الذي هو عبارة عن ذلك الخندق يضم داخله ما يقرب من خمسة آلاف هكتار أي أنه ثمانية أضعاف المدينة الحالية (٧٥) .

وقد جمع المقرى عدة بيانات إحصائية عن قرطبة في أحدى صفحات الجزء المخصص لها في مؤلفه (٧٦)، وهي بيانات تبدو فيها المبالغة لأول وهلة رغم ضخامة رقعة المدينة في نهاية القرن العاشر ، ومع هذا فتلك البيانات منسوبة لاثنين من المؤلفين الذين لم نألف عنهما هذا الغلو وهما ابن حيان والبكري ، فأولهما يشير إلى أن المدينة كان بها ١٦٠٠ مسجداً ، أما الثاني فيختصر ذلك العدد إلى ٤٧١ مسجداً (٧٧) ، ثم يضيف البكري أن المنصور أمر بإجراء مسح عقاري للرقعة العمرانية لقرطبة وكانت المحصلة هي على النحو التالي : ٢١٣٧٧ منزلاً يشغلها العامة والطبقة المتوسطة ، ٦٠٣٠٠ منزلاً يشغلها كبار الموظفين والارستقراطية ، وأكثر من ٨٠٤٥٥ محلاً ، وهذا دون أن نأخذ في الاعتبار الغرف المؤجرة والحمامات والفنادق ، ونحن اليوم نتساءل هل يمكننا قبول تلك الأرقام حتى لو خفضنا العدد إلى مائة ألف كما فعل ابن عذاري (٧٨) ، بشأن البند الخاص بالمنازل المخصصة للعامة ؟ وإذا ما كان الأمر هو بهذا الشكل فإن تعداد السكان يتجاوز المليون نسمة وهذا ما يبدو مبالغًا فيه حتى ولو ضم هذا الرقم طائفتي المستعربين واليهود (٧٩) ، وقد قام ابن الخطيب (٨٠) ، بوصف قرطبة بعد ذلك لكنه لم يتفوه بكلمة واحدة عن عدد سكانها خلال عصر الخلافة واقتصر على الإشارة إلى أن الحكم الثاني قد أبلغ بأنه تباع في المدينة كميات من السردين المملح تصل قيمتها إلى عشرين ألف دينار (وهذا رقم مبالغ فيه) وأن المنصور أمر بإجراء إحصائية لمعرفة الحاجات اليومية للمدينة من الوقود فكانت النتيجة هي ٦٦٠٠ عبوة وهو رقم مقبول .

سور المدينة وبواباتها :

تتفق المصادر العربية على أن الجزء الرئيسي من الرقعة السكانية للمدينة ، والذي كان يسمى أيضاً بالقصبة كان هو المحاط بالسور طوال كافة عصورها الإسلامية ، وكان السور من الحجر الرملي المقتطع من المحاجر الكائنة في السلسلة المجاورة ، ومن

نوعًا من الحجارة يتسم بضعف مقاومته لعوامل التعرية ومرور الزمن ، وقد تم وضع الكتل الحجرية فوق الكتل الرومانية القديمة (٨١) ، ومن المؤكد أنه كانت تجرى عليه ترميمات دورية أو إعادة بناء جزئى مثلما حدث خلال الأعوام الأولى للقرن الثامن أثناء حكم الوالى السمح بن مالك الخولانى ، وبعد ذلك بخمسين سنة أى عام ٧٧٦م (١٤٩هـ) أثناء حكم الأمير عبد الرحمن الداخل (٨٢) ، وقد اختفى اليوم بالكامل هذا السور الذى تم إنشاؤه على أطلال سور رومانى ، ورغم هذا يمكن العثور على بقايا وأطلال له فى أغلب أجزاء المخطط الخاص به ، وإذا ما كان لنا أن نثق ببعض الروايات اللاحقة على تاريخ استرداد المدينة فقد كان للسور خندق ، إلا أنه لا يجب الخلط فى هذه الحالة بين ذلك الخندق وهذا الأمر الدفاعى الذى أحاط كافة الرقعة العمرانية للمدينة والذى تحدثنا عنه فى مرحلة سابقة (٨٣) .

كان سور المدينة على شكل متوازى الأضلاع وقد كان أحد أضلاعه الصغرى هو الذى يجاور الشاطىء الأيمن للنهر بحيث يمتد مسافة ٨٠٠ متراً ، وهو ضلع يحيط بالبوابة المؤدية إلى الجسر الرومانى الممتد فوق نهر الوادى الكبير ، أما من الزاوية الجنوبية الغربية فإن السور يصعد فى انحناء باتجاه الشمال الشرقى ويبلغ طول ذلك الضلع ١٢٠٠ متراً ، ثم يعرج بعد ذلك باتجاه الغرب - الشرق ليعود للهبوط ، فى خط يكاد يكون مستقيمًا نحو الزاوية الجنوبية الشرقية على نهر الوادى الكبير ، إذن لم يكن إجمالى طول السور يتجاوز الأربعة كيلو مترات وهذا ما يتوافق مع تقديرات ابن حوقل الذى أشار إلى أنه قد قام بالطواف حول سور المدينة عدة مرات فى أقل من ساعة (٨٤) .

ويحدثنا ذلك الرحالة المشرقى عن وجود شارع ضخم يربط بين الرصافة وجسر نهر الوادى الكبير ، وكان ذلك الشارع بمثابة العصب الرئيسى لحركة المرور فى المدينة التى كان لها سبعة أبواب طبقًا لإجماع المصادر العربية (٨٥) .

كانت البوابة الرئيسية قريبة من قصر الخلافة ومن المسجد الجامع ويطلق عليها باب القنطرة Puerta dal Puente وكانت تفتح على الرصيف المجاور للنهر (وهو رصيف سوف نتحدث عنه فيما بعد) وتسهل الاتصال بالشاطئ الأيسر للنهر أى الاتصال بربض شقندة Secunda الذى أمر الحكم الأول بهدمه) وكذلك بالأرياف

Campina ، وعند عبور النهر نجد مفترق طرق أحدهما يؤدى إلى أشبيلية عبر استجة Ecija وآخر يؤدى إلى البيرة ، وثالث يؤدى إلى باقى منطقة جنوب الأندلس ، وكان لهذا الباب أيضًا أسماء أخرى هى باب الوادى وباب الجزيرة ، وقد كان فوقه تمثال قديم ، من المؤكد أنه لإحد الإلهات ، غير المسلمين كانوا يقولون عنه إنه تمثال العذراء مريم ، هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار رواية البكرى والتى قال فيها إن العذراء كانت صاحبة قرطبة (٨٦) .

وعندما نسير فى النهر - عكس التيار - نصل إلى الزاوية الجنوبية الشرقية للسور وهناك نجد بابًا آخر مفتوحًا أو تم إعادة بنائه خلال عصر الحكم الأول ، وقد كان اسم الباب آنذاك الباب الجديد P. Nueva وهذه تسمية سوف تظل تقاوم مرور الزمن مثل غيرها من المسميات مثلما أوضح ذلك لنا ابن حيان خلال القرن الحادى عشر عندما تحدث عن "ثورة الربض" وذلك بأن جند الأمير استطاعوا عبر هذه البوابة أن يسيطروا على الرملة Rambla إذ هاجموا المتمردين م الخلف ، إذ كانوا يقفون على الجانب الآخر من الجسر وفى مواجهة القصر (٨٧) .

وعندما نتجه صوب الشمال الشرقى وعلى بعد ٦٠٠ متر من البوابة السابقة تجد ثالثة تفتح على الطريق الرومانى القديم المسمى أوجوست Augusta ، وهو طريق يبدأ من مدينة قادش طبقًا لرواية ابن بشكوال وعندما يصل إلى قرطبة يتفرع نحو كل من سرقسطة طرمونة وأربونة ، وقد أطلق على هذه البوابة ، ردحًا من الزمن ، بوابة طليطلة أو بوابة رومية ، إلا أن الاسم الأكثر شيوعًا لها هو بوابة عبد الجبار نسبة إلى عبد الجبار بن خطاب (٨٨). وهو أحد موالى الخليفة الأموى المشرقى مروان بن الحكم ، وبعد الاسترداد أطلق عليها بوابة الحديد Puerta de Hierro ، غير أنها ليست نفس البوابة التى كان له هذا الاسم "باب الحديد" والتى تمت الإشارة إليها فى بعض السير حيث من المفترض أنها فى الحائط الشرقى Ajarqui أما الباب الرابع لمدينة قرطبة فيقع فى أقصى الناحية الشمالية الشرقية للمحور الرئيسى لحركة المرور ، وقد ظل ذلك الباب حتى عام ١٩٠٣م وهو يحمل اسم بوابة أو ساريو Osario أما المؤرخون العرب فيطلقون عليه باب ليون وباب طليره وعادة ما نرى مسمى آخر هو باب اليهود ، وأحيانًا ما أطلق عليه أيضًا باب الهدى (٨٩) فهل كان هذا الباب يؤدى إلى الحى

اليهودى ؟ هذا أمر ضئيل الاحتمال ، وعلى أية فهو باب كان يؤدى إلى مقابر رومانية قديمة استخدمها المسلمون وكذلك اليهود أيضاً ، وكان يؤدى إلى طريق الرصافة .

أما البوابات الثلاثة الأخرى فقد كانت فى الحائط الشرقى وهى - من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى - بوابة عامر وبوابة الجوز وبوابة إشبيلية أو بوابة العطارين .

وباب عامر هو الباب الذى تم هدمه عام ١٧١١م وكان يطلق عليه آنذاك Puerta de Gallegos ، ويرجع اسمه العربى إلى عامر بن عامر القرشى وهو شخص كانت له بعض الشهرة خلال القرن الثامن إذ أسس خارج أسوار المدينة مقبرة حملت اسمه [٩٠] ، ولما كان هذا الباب يؤدى إلى المقابر بسهولة فقد قام عبد الرحمن الثالث باتخاذ قرار بفتحه حلال الشهر فبراير عام ٩١٦م (شعبان ٣٠٢هـ) وبالتالى أخذ اسم المقابر المجاورة [٩١] .

وباب الجوز القديم هو اليوم باب المدور Alomodovar ويورد ابن بشكوال أن الباب كان يطلق عليه باب بطليوس Badajoz أما الباب الحالى ، الذى لازال يحتفظ بالجزء الأسفل منه فيرجع إلى عصر الخلافة ، وقد أجريت عليه ترميمات كثيرة نذكر منها ذلك الذى تم فى عام ١٨٠٢م .

أما الباب الأخير فهو الباب الذى يصعب علينا تحديد مكانه فى مخطط المدينة اليوم وذلك بسبب التعديلات التى أجريت وتجرى منذ عشرات السنين على منطقة القصر الخلافى القديم وكذلك اتساع حى شعبى فى هذه الناحية ، فهل كانت تلك بوابة أشبيلية خلال عصر الخلافة ، والتى لازالت تحمل الاسم حتى اليوم ، أى أنها ترجع فى بنائها إلى العصر الإسلامى كما يبدو ؟ أم هل تم فتح ذلك الباب بعيداً عن النهر أى فى الجهة الشمالية للسور المحيطة بالقصر الأموى ؟ وعلى أىّ حال فإن الاسم الآخر لتلك البوابة - باب العطارين - [٩٢] يؤكد على أنه كان هناك سوق للعطارين يقع داخل سور المدينة كما سنرى ذلك فيما بعد وربما كان يقع خارج السور أيضاً .

وطبقًا لتاريخ الناصر Grónica de al-Naser فقد قام هذا العاهل بتقوية بوابات المدينة [٩٣] وذلك بإنشاء بوابات داخلية تسهل عملية الدفاع عنها وتهيىء للحراس

المراقبة الدقيقة للمداخل والمخارج ، إلا أن هذا التجريد وتلك التقوية لمداخل لم يشر إليهما أحد من المؤرخين العرب .

المدينة القديمة ونموها ناحية الشرق :

بدأ سكان قرطبة - ربما اعتباراً من العصر المسمى بعصر الحكام ومن المؤكد حدوث ذلك أعتباراً من بداية عصر المروانيين في أسبانيا - في الخروج من الإطار الضيق الذى عاشوا فيه منذ العصر الرومانى ، وأخذ النمو العمرانى يمتد ليس فقط على الجانب الآخر للجسر الذى يمتد على نهر الوادى الكبير بل تعداه إلى إنشاء أحياء جديدة تقع بين الشاطىء الأيمن للنهر والطريق القديم الذى كان ينطلق من بوابة عبد الجبار ويؤدى إلى مدينة القليعة Alcolea ، أطلق على هذا الامتداد الجانبى للرقعة العمرانية ، الذى كان يسير حتى شرق المدينة القديمة اسم الجانب الشرقى وهى تسمية ظلت حتى اليوم رغم التحويل Ajarquía o Ajerquía (٩٤) .

تحتل المنطقة الشرقية نصف قرطبة الحالية ويحدها من الناحية الغربية شارع يكاد يكون مستقيماً أطلق عليه فى بداية القرن التاسع عشر شارع السوق Feria ويتوافق مخطط هذا الشارع تماماً ، ابتداء من الميناء وحتى نصل إلى بوابة عبد الجبار وانتهاء بالسور الرومانى ، وفى الزاوية الجنوبية الشرقية لهذا الحائط نجد البوابة الجديدة التى فتحها أو جددها الحكم الأول وكانت تقوم بعملية تسهيل الاتصال بين المدينة وهذا الامتداد العمرانى الكائن على الشاطىء النهر ، كما كانت تساعد على توسعة الأسواق فى هذا الاتجاه الذى يعتبر امتداداً مباشراً للمركز التجارى .

وسرعان ما أصبحت تلك الأسواق التى تمتد من الحائط الشرقى للمسجد الجامع ، والتى تختلف فى درجة امتدادها ، ضيقة ، ويبدو أنها احتلت ، خلال القرن العاشر ، كل الجزء الأدنى من الجانب الشرقى Ajarquía وخاصة فى الحى الصغير المسمى شابولار Shabular (٩٥) الذى كان يحيط بالطريق الموصل إلى المقر العامرى وهى المدينة الزاهرة وإلى الرملة التابعة لنهر الوادى الكبير .

ولما لم نحصل من المصادر العربية على أية وسيلة لإعادة تصور طبوغرافيا مدينة قرطبة خلال عصر الخلافة فلا مناص من اللجواء إلى عون قاصر متمثل فى أسماء

الشوارع والميادين من خلال الوثائق التالية لعصر الاسترداد ، فالمخطط الخاص بالمدينة الذى يرجع إلى عام ١٨١١م يزودونا ببعض المعلومات ضئيلة الأهمية [٩٦] حيث يشير إلى موقع القيسرية أو سوق المنسوجات بالتحديد وحوله بعض الشوارع التى لا زالت تحمل طابع العصور الوسطى ، وذلك ما نعرفه من خلال الأسماء (شارع اللحامين والخبازين ، والخياطين ، والنحاسين ..) ، كما نعرف أنه كان يوجد فى الجهة الشرقية Ajarqiuía أسماء يمكن أن تكون ترجمة عن العربية ولها صلة بنوع من الأنشطة التجارية أو الصناعية المشابهة لتلك التى توجد فى الدول الإسلامية فى المغرب مثل شارع الكتبية Libreros ، والمخللاتية Vinagreros ، والعقادين Cordoneros ، وأسواق المقاطف Esparteria ، والجبس والقش ، وأكثر هذه الأسماء قلة هى التى احتفظت بطابعها العربى مثل تلك اللفظة التى تطلق على تشابك مجموعة من الحارات Azonaicas (الزنيقة) ، وشارع المونأس (مصنع الصابون) ، وميدان المغرة Almagra ، وعلينا أن نلاحظ أن هناك شارعًا فى مدينة فاس يحمل الاسم العجيب Siete Revuel-tas (السبع لويات) وهناك اسم مماثل له فى شارع قرطبى هو los siete Rincones "السبعة أركان" ، الأمر الذى يدفعنا إلى التفكير إلى أن اسم الشارع القرطبى هو نسخة طبق الأصل للمسمى العربى القديم [٩٧] .

ويذكر أن ابن بشكوال أسماء ستة شوارع فى الجانب الشرقى هى : شالابور الذى يعتبر امتدادًا للبوابة الجديدة ، وفرن بيريل ، وشارع البرج ، ومنية عبد الله ، ومنية المغيرة ، والزاهرة ، وندين لهذا المؤلف بالفضل فى ذكر أسماء تلك الشوارع فى فقرة موجزة نقلها عنه المقرى[٩٨] ، وهى شوارع كانت فى الأرباض التى تمتد على شكل عقد مستدير يحيط بالمدينة ، وتجدر الإشارة إلى أن الشوارع الثلاثة الأخيرة تحمل أسماء دور لعلية القوم والأمراء بنيت وسط الحدائق ، ثم أحاطت بها منازل أخرى رويدًا رويدًا ، ويمكن تحديد موقع المدينة الزاهرة مكان كنيسة فوينسانتا Fuen-santa وكذلك الحديقة التى تحمل نفس الاسم [٩٩] ، ويمكن تحديد منيتى عبد الله والمغيرة – من الناحية الافتراضية – فى حديقتين كبيرتين بعض الشيء هما سان بابلو S. Pablo وسان أجوستين S. Agustin اللتين يشير إليهما المخطط المذكور للمدينة الذى يرجع إلى عام ١٨١١م ، أما حى البرج فقد كان يمتد – طبقًا لما أكده ابن سهل [١٠٠] –

على طول الطريق الروماني "السكة الرومية" التي كانت تبدأ ببوابة عبد الجبار وتؤدى إلى مقبرة تسمى "مقبرة البرج" ، وفى القرن العاشر بدا أنه كان هناك سور مواز فى لسور المدينة يحيط بالجانب الشرقى من الناحية الشرقية وبالتالى فإنه يجب أن نحدد فى حائط ذلك السور وجود ثلاث بوابات بشير إليها المؤخون (١٠١) العرب عند مغادرة قرطبة وهى : باب عباس ، وباب الفرج ، وباب الحديد .

ونحن واثقون تمام الثقة أن ابن بشكوال أخطأ عندما ذكر الحى السابع للمدينة العتيقة وهو "الجانب الشرقى" ، وقد قام ابن الخطيب (١٠٢) ، بتصحيح ذلك الخطأ عندما أكد أن عدد الأرباض القرطبية التى تبلغ ٢١ ربضًا فإنه أشار إلى أن المدينة القديمة أو القصبة هى اثنين من الأحياء : حيث كان الأول يضم المسجد الجامع والمنطقة المحيطة به ، أما الآخر فهو باقى المدينة الواقع داخل السور ، وأضاف أن كل واحد من هذين الحيين كان له عريف (قائد) وكذا مواقع للحراسة (المحارس) .

الأحياء الشمالية والغربية :

يشير كل من ابن بشكوال وابن الخطيب إلى ثلاثة أحياء تقع خارج بوابة ليون أو بوابة اليهود شمال المدينة وهى : الحى الذى كان يحمل اسم البوابة "حى اليهود" ، وحى قوته راشو أو مسجد أم سلامة (ربض مسجد أم سلامة) وحى الرصافة ، وهذا الحى الأخير ، الذى يعتبر أبعد الأحياء عن مركز المدينة ، قد تكوّن حول المقر الأميرى الذى كان يُفضِّله عبد الرحمن الداخل (١٠٣) ، وبعيداً عن هذه الأحياء كان هناك "فحص السرادق" ، المكان الذى تتمركز فيه القوات القيام عند بإحدى الصوائف (١٠٤) ، وللوصول إلى قوته راشو (١٠٥) ، كان لابد من عبور منطقة المقابر الخاصة بمدينة قرطبة وهو طريق كان يؤدى – على ما يبدو – إلى المقابر اليهودية ، ولم يكن حى قوته راشو أكثر من ملحق عمرانى ذى أهمية متوسطة إذ كان يعيش فيه صناع الفخار والقرميد ، ومع هذا كان يسكن فيه جعفر بن حمدون بن الأندلس عندما كان فى قرطبة وهو عبارة عن قصر قدمه المنصور بعد ذلك للزيرى بن عطية .

أما "الجانب الغربى" فهو يعتبر الامتداد الجانبى الأكثر اتساعًا وكثافة سكانية ، إذ كان فى الطريق الموصل إلى مدينة الزهراء (١٠٦) ، ويتفق كل من ابن بشكوال

وابن الخطيب على أنه كان توجد به سبعة أرباض هي : الرقاقين Pergamineros وهو حي كان يمتد – كما نعرف – من بوابة أشبيلية حتى كنيسة سان أثيسكلو S. Acisclo وحي مسجد الشفاء ، ومسجد المسرور ، وبلاط مغيث ، والحمام الألبيرى ، والسجن القديم ، وأخيراً حي الروضة الذى من المفترض أن يكون مجاوراً للمقابر المروانية الواقعة في داخل القصر ، كما يدل على ذلك اسم الحي .

ومن غير المجدى – فى نظرنا – القيام بتحديد أماكن تلك الأحياء المرتبطة ببعضها البعض فقد اختفت بالكامل وأقيمت مكانها عدة حدائق ، غير أن أسماءها تبرهن لنا على أن امتداد الرقعة العمرانية لقرطبة نحو الغرب قد بدأ خلال القرن التاسع تحت إمارة الحكم الأول وعبد الرحمن الثانى(١٠٧) ، أى على الجانب الآخر من القصور الأميرية بين باب اللوز وبوابة أشبيلية ، أى بالقرب من كنيسة سان أثيسكلو (الكنسية التى تحصن فيها بعض المدافعين عن المدينة عندما استولى عليها العتيق مغيث) ومن القصر (البلاط) الذى وهبه موسى بن نصير إلى ذلك العتيق كمقابل لخدماته (١٠٨) ، ومن غير المجدى أيضًا القول بأن اثنين من هذه الأحياء الواقعة فى الجانب الغربى كانا يحملان أسماء المسجدين اللذين أسسا خلال القرن التاسع ، وكان المؤسسان شخصان معروفان هما أم ولد – أى الشفا – إحدى محظيات عبد الرحمن الثانى ، والفتى السلافى مسرور وهو أحد كبار القادة للأمير المذكور ، كما أن قائمة المصليات فى أرباض الجانب الغربى التى يذكرها كُتاب السير تؤكد نفس الملاحظات السابقة ، فخلال عصر الحكم الأول قامت اثنتان من نساء الحكم الأول ببناء مسجدين فى هذا الجانب الغربى يحملان اسميهما : مسجد عجب ومسجد متعة ، ويقع هذا المسجد الأخير بجوار مقبرة تأسست من مال تلك المرأة ، كما تأسست مساجد أخرى خلال عصر الإمارة التالية ، فبالإضافة إلى مسجد الشفاء هناك مساجد المحظيات طروب ومُعمرة ، وخلف القصر هناك مسجد : أبو عثمان الذى استخدام لأداء صلاة الجمعة عند القيام بتوسعة مسجد قرطبة أثناء تولى عبد الرحمن الثانى (٨٨٣م – ٢١٨هـ) (١٠٩) .

الجسر وما حوله :

عندما نهبط من الجزء العلوى فى المدينة ونسير فى الشارع الكبير "المحجة العظمى" الذى يبدأ من بوابة عبد الجبار ويمر بين قصر الخليفة والمسجد الجامع نصل

إلى البوابة الوحيدة التى تفتح فى جنوب السور ونجد الجسر الذى يمتد فوق نهر الوادى الكبير [١١٠] .

وينسب بناء هذا الجسر الشهير إلى الإمبراطور الرومانى أو جوستو ، يبلغ طول الجسر ٢٢٣ مترًا وهو جسر ضيق ويقوم على ستة عشر عقدًا ، وقد تهدم جزء منه - على الأقل - خلال العصر القوطى ثم أصبح بعد ذلك هدفًا للعديد من أعمال الترميم سواء خلال العصر الإسلامى أو بعد الاسترداد ، ونذكر من بين تلك الأعمال ما تم خلال أعوام ١٦٠٢م ، ١٧٠٣م ، ١٧٨٠م وفى نهاية القرن التاسع عشر وأخيرًا فى عام ١٩١٢م ، وقد ترك لنا الجغرافى ، الإدريسى [١١١] وصفًا تفصيليًا لذلك الجسر ، فخلال القرن الثامن قام الوالى السمح الخولانى بتنفيذ أوامر الخليفة عمر بن عبد العزيز بترميم الجسر وذلك باستغلال كتل حجرية ترجع إلى العصر الرومانى ، حيث سقط ذلك الجسر من الجانب الغربى وأعيد بناؤه باستخدام الأجر ، ولم يكن هذا الترميم الذى بدأ عام ٧٢٠م (١٠١هـ) إلا بشكل مؤقت : ففى عام ٧٧٩ (١٦٢هـ) تهدم جزء من الجسر بسبب فيضان تعرض له وبعد ذلك بعشرة أعوام تولى الأمير هشام الأول أمر إصلاحه ، وفى بداية القرن العاشر ٩٠١م (٢٨هـ) تعرض الجسر لفيضان آخر أسفر عن تهدم إحدى دعاماته وقد أشار المؤرخون إلى أعطاب أخرى حلت بالجسر خلال عام ٩٤٢م (٣٣١هـ) - ٩٤٥ (٣٣٤هـ) ، وعلى أية حال فقد تم إصلاح أوضاع الجسر فى عهد الناصر ، كما قام الحكم الثانى بعملية إصلاح خلال فترة حكمه [١١٢] .

ويوجد عند مدخل الجسر من كل جانب - فى المدخل المجاور للمدينة - رصيف تأسس على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ومن المحتمل أنه يرجع إلى أصول قوية أو رومانية وعلى أية حال نجده قائمًا فى عهد الحكم الأول وخاصة أمام قصر الخلافة ، وقد تولى عبد الرحمن الثانى عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) [١١٣] إعادة بنائه باكامل مستخدمًا الكتل الحجرية ، وقد كان الرصيف يغصّ بالحركة الدائبة فى الجزء الآخر القائم فى اتجاه مسار المياه ، حيث ندخل منه إلى المسرة وإلى المصلى الرئيسى - فى الهواء الطلق - فى العاصمة وقد أمر عبد الرحمن الثالث عام ٩١٩م (٣٠٦هـ) أو العام التالى له ، أن يبنى فى هذا المصلى قبلة [١١٤] ، وفى المسافة الفاصلة بين المسرة

والمصلى – أى على الرصيف نفسه – كانت تعرض على الملأ أجساد الذين حكم عليهم بالإعدام ، وقد ربطت فى كتل خشبية ، كما يمكن الوصول عبر الرصيف إلى الطواحين القائمة على سدة النهر (١١٥) ، وقد كان على سدة شاطىء النهر أيضًا ناعورة ضخمة ، حمل أحد القصور المجاورة خارج القصر اسمها ، وهو هيئة الناعورة ، أما المنية التى تولى الأمير عبد الله بناءها وسط جنة فيحاء – قبل سنوات من توليه الحكم – فقد استخدمت بعد ذلك لتكون مقر الإقامة المفضل لدى عبد الرحمن الثالث قبل أن يؤسس مدينة الزهراء (١١٦) .

ومما لا شك فيه أن منطقة امتداد الرصيف والمسار كانا خلال عام ٩٨٨-٩٨٩م (٣٧٨-٣٧٩هـ) المكان الذى أمر المنصور بن أبى عامر أن يقام فيه جسر ثان يمتد على نهر الوادى الكبير (١١٧) ، ولا تتوافر لدينا أية شواهد غير رواية مؤرخ واحد يحدثنا فيها عن تكلفة الجسر التى تصل إلى مائة وأربعين ألف دينار غير أنه لم يزودنا بأية معلومات تمكننا من تحديد موقعه ، وربما كان موقعه خلف الجسر الرومانى أى فى اتجاه مسار التيار ، وفى منطقة تظهر فيها اليوم أطلال دعامات وذلك عندما يهبط منسوب النهر ، وعلى أية حال فهذا الجسر لم يكن قائمًا فى منتصف القرن الحادية عشر (١١٨) .

وعند عبور النهر خروجًا من بوابة الجسر وكذلك مرورًا بالجسر نفسه نصل إلى الشاطىء الأيسر للنهر وعلى أحد أطراف المنحنى الضخم الذى يعتبر نهرًا أمام الجانب الشرقى Ajarquia نجد الربض الذى لا زال يحمل اسمه القديم وهو ربض شقندة Secunda (١١٩) ، كما كان اسمه أيضًا الربض ، وقد قام الحكم الأول بهدم ذلك الربض وتسويته بالأرض بعد التمرد الذى قام به السكان فى عام ٨١٨م (٢٠٢م) ، وأصدر أوامره بمنع إقامة أية مبانى ، ولم يفكر أى ممن خلفوا الأمير المروانى حتى نهاية القرن العاشر مخالفة تلك الأوامر الصادرة رغم النمو العمرانى الكبير الذى عاشته قرطبة ، وقد فرض هشام الثانى أوامره على قائد القصر الملكى عبد الملك المظفر بأن يتخلى عن فكرة إقامة حى سكنى فى تلك الناحية رغم أن المدينة كانت تغصّ بعدد كبير من السكان (١٢٠) ، وفوق أطلال الربض القديم تم إقامة قرافة أطلق عليها "مقابر الربض" ، وأخذت تمتد حتى التحمت بتلك الكائنة عند منعطف النهر (١٢١) ، وفى هذه

المنطقة كان هناك مصلى أخر وكذلك منية تعود إلى عصر الإمارة وهى منية نصر التى أقامها الفتى نصر أحد أقرباء عبد الرحمن الثانى وأحد ثقاته ، وبعد الوفاة المأساوية لذلك الفتى تحولت هذه المنية لتكون مقرًا لإقامة المغنى البغدادى الشهير زرياب (١٢٢) ثم ضمها الأمير عبد الله بعد ذلك إلى أملاكه وأمر بترميمها (١٢٣) ، وقد قلنا قبل ذلك إن الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (١٢٤) بروفيرجينتا Profirogenta قد أرسل إلى قرطبة عام ٩٤٩م (٣٣٨هـ) سفارة أقامت فى هذه المنية بعض الوقت .

كان هناك بعيداً عن الربض قصر شهير آخر هو منية عجب ، ويقع ذلك القصر فى اتجاه مسار المياه على الشاطىء الأيسر للنهر ، وقد خلّد اسم عجب ، محظية الحكم الأول ، والتى يطلق اسمها أيضًا على المسجد الذى أمرت ببنائه على حسابها فى "الجانب الغربي" ، وكان هذا القصر محاطًا (١٢٥) بحديقة ضخمة هى عبارة عن وقف يتم استخدام وديعة فى تمويل مصحة لمعالجة مرضى البرص ، الذين تجمعوا فى حى منعزل وقريب ، وهذه هى المؤسسة الخيرية الوحيدة التى نعرفها فى قرطبة خلال عصر الخلافة (١٢٦) ، كما أننا لا نكاد نعثر فى كتب التاريخ أو السير على أى ذكر لمستشفيات أو مصحات للأمراض العقلية أو أية مؤسسة أخرى ذات خدمة جماهيرية اللهم إلا سبيلاً أمر عبد الرحمن الثالث بأن يكون أمام البوابة الشرقية للقصر وأمام المسجد الجامع وكان يأتيه الماء من مجرى العيون الذى يزود القصر حيث تصب فى حوض من الرخام (١٢٧) .

علينا الانتهاء - إذن - من سرد هذه القائمة الطويلة من أسماء الأماكن (١٢٨) الخاصة برقعة العمران القرطبية وهى أسماء ليس لها اليوم - فى أغلب الحالات - ما يدل عليها ، كان من الممكن أن نضيف الكثير إلى ما سبق وخاصة فيما يتعلق بالمساجد غير الشهيرة (١٢٩) ، والتى يرد ذكرها فى السير أو فى الأحكام القضائية ، وكذلك بعض الأسماء الأخرى التى تحدد أسماء الشوارع أو الميادين (١٣٠) وهنا نجد أنه يكاد يكون مستحيلاً تحديد أماكنها اليوم على أرض الواقع (١٣١) ، ولقد مرت عاصمة الخلافة الأندلسية القديمة بقرون كثيرة وعاشت الكثير من الأحداث ويدخل فى باب المعجزات أن نتمكن بعد مرور ألف عام من العثور على جوهرة آثارية ثمينة ، لم تكد تتأثر بمرور الزمن ، لتكون أمامنا بمثابة شاهد على الإزدهار التى عاشته تلك

المدينة ، والتى وصفتها الشاعرة السكسونية Hroswitha - من ديرها البعيد الكائن فى ألمانيا - قائلة بأن قرطبة هى زينة الدنيا (١٣٢) : هذه الجوهرة هى المسجد الجامع الذى يعتبر أبهى وأعظم مسجد يدين به العالم للفن الإسلامى .

المسجد الجامع فى قرطبة :

عندما تحدثنا عن تاريخ الأندلس من البداية وحتى بداية القرن الحادى عشر ، تعرضنا بالإشارة إلى المسجد الجامع فى قرطبة الذى كان يعتبر على نفس الدرجة - وربما أكثر - التى عليها قصر الأمراء والخلفاء الأندلسيين ، والذى كان المحور الأساسى لسلطان الأندلس السياسى والروحى ، وحرصًا على راحة القارىء يبدو لنا من المناسب إعادة جمع كافة تلك المعلومات عن المسجد وسردها حسب التدرج الزمنى فى عجالة تساعدنا على متابعة مراحل بناء ذلك الأثر والتوسعات التى تمت ، وإذا ما أراد القارىء المزيد من التفاصيل فما عليه إلا الرجوع إلى الكثير من الأعمال والدراسات التى خصصت كل صفحاتها - خلال السنوات الأخيرة - لهذا المسجد وقد قام على ذلك متخصصون فى كل من أسبانيا وفرنسا على وجه الخصوص (١٣٣) .

هل من الضرورى أن نشير إلى أن المسجد القرطبى الجامع يضم داخله اليوم كاتدرائية المدينة المستردة ؟ فبعد أيام من دخول فرناندو الثالث إلى قرطبة دخول المظفرين فى ١٢٣٦/٦/٢٩ م وبعد مرور خمسة قرون تحول المكان لأداء الشعائر الدينية الكاثوليكية وتم تقديسه تحت اسم "انتقال العذراء" Asunción de la Virgen وأطلق عليه سانتاماريا لامايور S.M.la Mayor ، وعلينا أن ننتظر مرور ثلاثمائة عام تقريبًا حتى نشهد إدخال تعديلات هامة على عمارة المسجد ، وخلال هذه الفترة تم إنشاء مصليات صغيرة بأسلوب مُدَجّن وخاصة فى عام ١٢٥٨ ، وقد أمر بذلك الأسقف فرناندو دى ميسا F. de Mesa ، وفى عام ١٣٧١م قام إنريكى الثانى دى تراستمارا بنفس الخطوات كما أمر بتزيين البوابة الخارجية للواجهة الشمالية - باب الفرج Puerta del Perdon بنفس الأسلوب ، وبعد ذلك - أى فى عام ١٤٨٩م - تم إعادة بناء المصلى الكبير باستخدام العقود المدبية الأمر الذى تسبب فى إثارة احتجاج الملكة إيزابيل الكاثوليكية ، وقد أدت هذه الإنشاءات إلى إحداث تغييرات طفيفة فى داخل المسجد ، وبناء على مبادرة من الأسقف/ ألونسو مانريكى A. Manrique (فى عام

١٥٢٣م) قرر مجمع الكاتدرائى أن يقيم داخل المسجد كنيسة كاملة تتجاوز فى بهائها وجمالها العمل المعمارى العظيم الذى خلفه المسلمون ، وقد وافق على ذلك الإمبراطور كارلوس الخامس ، ورغم أنه عندما قام بزيارة المسجد بعد ذلك بثلاث سنوات عبر لرجال الدين القرطبيين عن استيائه فى جملة طبقت شهرتها الآفاق "لم أكن أعرف ماهية ذلك الأثر ولو كنت أعلم لما سمحت لكم بالاقتراب منه فقد فعلتم مالا يمكن فعله وحطمتم شيئًا كان الفريد من نوعه فى هذا العالم [١٣٤] .

تبلغ مساحة المسجد القرطبى اليوم ١٨٠م طولاً × ١٢٠ عرضاً ، وتحتل الصالة المسقوفة ثلثى هذه المساحة أما الصحن فيحتل الثلث الأخير ويطلق عليه صحن أشجار البرتقال P.Naranjios وقد كان خلال القرن التاسع مشجراً ، وقد كان ذلك مثار خلاف فقهى حول شرعية ذلك [١٣٥] ، ويحيط بتلك المساحة سور به شرفات ودعامات موضوعة على مسافات متساوية وكذلك بوابات ضخمة تم وضع أسوار حول معظمها ابتداء من القرن الثالث عشر لتكون بمثابة مصليات صغيرة جانبية ، وقد بنى المسجد على حافة الطريق الرومانى الذى كان يبدأ عند الجسر ، كما أنه فى مواجهة القصر وبالتالى كان من المستحيل إدخال توسعة عليه من الناحية الغربية .

وينقل لنا الرازى شيئًا عن تاريخ بناء المسجد القديم (فى البداية) ، وقد نقل هذه المعلومات المؤرخون اللاحقون عليه [١٣٦] ، وإذا ما كان لنا أن نأخذ برواية ذلك المؤرخ فإن الفاتحين قد ساروا فى أسبانيا على نفس النهج الذى رسمه الخليفة عمر ابن الخطاب فيما يتعلق بالمنشآت الدينية : أى تقسيم الكنيسة بين المسلمين والمسيحيين هذا إذا ما استسلمت المدن دون مقاومة ، وقد تم فى قرطبة السير على نفس المنوال الذى حدث فى سوريا بشأن كنيسة سان خوان فى دمشق S.Juan ، فقد تمت مطالبة القرطبيين بنصف كنيسة سان بيثنى S. Vicente الواقعة بالقرب من الجسر الرومانى ليكون مسجداً ، أما النصف الآخر فقد ترك لهم لإقامة الشعائر الدينية المسيحية ، وقد أصبحت صالة أداء الشعائر كافية – ولو لبعض الوقت – بالنسبة للغزاة ، غير أنه عندما تحولت قرطبة لتكون عاصمة الأندلس زاد تعداد سكانها المسلمين وبالتالى كان حجم المسجد صغيراً ولم يكن هناك مناص إلا إقامة مظلات خشبية على أحد الجوانب تبلغ نصف ارتفاع الجدران .

وعندما قرر عبد الرحمن الأول الإقامة في هذه المدينة وجعلها عاصمة إمارته الجديدة لم يتأخر قراره في الاستيلاء على النصف الآخر من كنيسة سان بيثنتي وإقامة مسجد جامع في هذا المكان ، وحتى لا يكون هناك خلل باتفاقية الاستسلام عقد اتفاقًا - اكتنفته بعض الصعاب - مع المستعربين وقدم لهم سعرًا جيدًا للنصف الآخر من الكنيسة ، ولم يتخل المسيحيون عن موقفهم حتى حصلوا على إذن بأن يبنوا خارج قرطبة دورًا للعبادة محل تلك التي هدمت .

بدأت أعمال الهدم في ٧٨٥م (١٦٩هـ) وانتهت خلال عام واحد ، ولم يكن المسجد الذي بناه ذلك الوافد إلا عبارة عن تسع بلاطات كما كان متواضع المساحة ، وقد أنفق الأمير ثمانين ألفًا أو مائة ألف مثقال على البناء ، وقد تم الحصول على هذا المبلغ من خمس الغنائم المتحصلة بعد حملة ضد إقليم أربونة ، وبعد عبد الرحمن الأول قام ابنه هشام الأول بإجراء بعض الإصلاحات الداخلية على المسجد الجديد : وهي عبارة عن إنشاء أقسام خاصة بالنساء وكذلك بناء حوض للوضوء ، كما قام بإنشاء مئذنة ، وخلال عهد الحكم الأول لم تكد تجرى أية تعديلات جوهرية على المسجد ، غير أنه ابتداء من عصر عبد الرحمن الثاني أصبح المسجد محطًا للكثير من أعمال التوسعة ، وقد تم ذلك في فترتين أولاهما : جرت خلال عام ٨٣٣م (٢١٨هـ) ، أما الثانية ، فقد تمت بعد ذلك بخمسة عشر عامًا أي في عام ٨٤٨ (٢٣٤هـ) .

وعندما تحدثنا عن حكم ذلك الأمير [١٣٧] ، أشرنا إلى الكيفية التي تمكننا اليوم من تحديد هاتين التوسعتين (٨٣٣ ، ٨٤٨) وذلك من خلال الأخبار التي جمعها ابن حيان ، فقد تمت التوسعة الأولى بالعرض أما الثانية فبالطول ، وقد تم العمل في التوسعة الأولى والتي تتمثل في إضافة بلاطتين ، واحدة في الشرق وأخرى في الغرب ، الأمر الذي تطلب هدم الحوائط الجانبية التي تم بناؤها قبل ذلك بخمسين عامًا ثم إعادة بنائها على بعد أمتار سواء في الصحن أم في مكان إقامة الشعائر ، وتشير كافة الروايات التي جمعها ابن حيان إلى أن هذه التوسعة كانت بالعرض ورغم ذلك فإن المهندسين والمؤرخين الأسبان المتخصصين في تاريخ الفن يصرون على رفض هذه الرواية [١٣٨] ، وعلى أية حال فإن هذه التوسعة لم تكن إلا حلاً مؤقتًا أمام الزيادة المتعاظمة للمصلين ، وقد أدرك ذلك جيدًا عبد الرحمن الثاني ، والدليل على هذا هو أنه

أمر خلال عام ٨٤٤م بإحداث توسعة جديدة للمسجد - بالطول - أي باتجاه الجنوب وتم بناء محراب جديد وتوسعة المسجد بإضافة مساحة تبلغ خمسين ذراعًا إلى الإحدى عشر بلاطة، (ثمانية أخرى) ، وقد بدأت الأعمال تحت إشراف "المعلمين الكبيرين" نصر ومسرور ، أما القاضي محمد بن زياد فقد تولى أمر رقابة الأعمال ، وقد تم افتتاح المحراب الجديد في ٢٢/١٠/٨٤٨م (٢٠ من ربيع الأول ٢٣٤هـ) وبعد أن تم الإنتهاء من الأعمال الجوهرية للتوسعة عاد الناس يؤدون الشعائر بعد ذلك بشهرين ، ومع هذا فقد ظلت الأعمال التكميلية قائمة حتى وفاة الأمير وبعد تولي ابنه محمد الأول ، إذ سارت الأعمال في إنشاء ملحقين مخصصين للنساء وبناء منصة محمولة على ثلاثة وعشرين عامودًا [١٣٩] .

وابتداء من عصر محمد الأول أبدى الأمراء الأمويون استعدادهم للحفاظ على ازدهار المسجد الجامع والعاصمة القرطبية وذلك من خلال بعض الأعمال التي ينفقون عليها من أموالهم ، وقد قام خليفة عبد الرحمن الثاني بإصدار الأوامر بتزيين الحوائط الجانبية لصالة إقامة الشعائر وبنى فيها مقصورة من الخشب المشغول حيث كان يدخل إليها لأداء الصلاة [١٤٠] ، وبعد ذلك قام المنذر - الذي دام حكمه وقتًا قصيرًا - ببناء مبنى حصين في أحد ملحقات المسجد لتكون بمثابة مقر لبيت المال أو مخزن المؤسسات الخيرية ، كما قام بترميم حوض الوضوء وكذا الممرات الداخلية ، وأخيرًا نجد الأمير عبد الله يقوم باستئناف الأنشطة التي مارسها أجداده السوريون بأن ربط بين القصر والمسجد بباب يمر من فوق شارع الجسر حتى لا يختلط بجموع المصلين [١٤١] .

لقد استمرت خلافة كل من عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني فترة طويلة من الزمن وأثناء ذلك عاش المسجد القرطبي صفحة جديدة من تاريخه حيث تم تزيينه بما نجده عليه اليوم من نقوش تعتبر مثار إعجاب كافة الزائرين ، وقد كان من المعتقد حتى اليوم أن الخليفة الأندلسي الأول كان مشغولاً فقط بتأسيس المدينة الجديدة -الزهراء- التي بنى فيها مسجدًا رائعًا ، وبالتالي لم يدخل إلا القليل من الأعمال على المسجد الجامع في قرطبة طوال خمسين عامًا وهي فترة خلافته ، ورغم أن المؤرخين يشيرون إلى أنه انفق على هذا المسجد مبلغًا ضخمًا من المال - حوالي ربع تكلفة المقر الخلافي الجديد - فلا يمكن أن ننسب إلى عصر الناصر إلا بناء مئذنة جديدة لتحل محل المئذنة

القديمة التى أنشأها هشام الأول - وقد كان ارتفاع هذه المئذنة ، التى كانت بمثابة النموذج لمآذن أخرى هى مئذنة أشبيلية ومراكش والرباط ، حوالى ٧٥ ذراعًا وكانت مربعة الشكل إذ يبلغ طول كل ضلع فيها ثمانية عشر ذراعًا كما كان لها سلمان داخليان حيث يمكن الصعود من خلالهما حتى الشرفة التى توضع فوقها الرقبة (١٤٢) كما توجد كتابان على أحد جوانب الباب المؤدى إلى صحن المسجد الجامع وهى كتابة تشير إلى أن عبد الرحمن الثالث أمر ، فى عام ٩٥٨م (٣٤٦هـ) ، وزيره عبد الله ابن بدر بترميم وتقوية الواجهة الشمالية لصالة إقامة الشعائر ، وأخيراً نجد أن ابن خلدون هو الوحيد الذى ينسب لذلك العاهل إنشاء مظلة يتم نشرها خلال الصيف لحماية المصلين من أشعة الشمس .

ونعثر فى رواية ابن عذارى (١٤٣) على معلومة جديدة ودقيقة للغاية ، هذه المعلومة تجعلنا نعتقد أن الخليفة قرر فى نهاية حياته - أسوة بسابقه عبد الرحمن الثانى - إحداث توسعة جديدة على المسجد مجاورة لتلك التى سوف يأمر بالقيام بها ابنه الحكم الثانى ، فهل يمكن لنا أن نصدق ذلك الخبر ؟ وفصل القول فى هذا المقام يتعلق بالمتخصصين فى تاريخ الفن الإسلامى فهم المنوطون - بناء على الدراسات الأثارية للمسجد - بقبوله واستخلاص النتائج المترتبة فى ذلك أو رفضه دون الانسياق وراء مبدأ عدم الثقة الذى ساروا عليه بشأن المعلومات التاريخية المتعلقة بالتوسعة التى أمر بها عبد الرحمن الثانى ، وعلى أىّ حال فمن الممكن الظن بأن التوسعة الكبرى التى جرت فى عهد الحكم الثانى كانت على وشك البدء أى فى نفس العام الذى تولى فيه الخلافة ، وبالتالى لم يكن ذلك إلا تنفيذاً لخطة توسعة للمسجد تصورها هو ووافق عليها والده حيث أن عدد المصلين كان فى زيادة مستمرة ، ولم تكن التوسعة لتجرى إلا فى اتجاه القبلة حتى يكون هناك مزيد من الفراغ للمصلين .

وقد بدأت الأعمال فى عام ٩٦١م (٣٥٠هـ) وذلك بعد اجتماع عقده العاهل الأموى فى نفس المكان مع الفقهاء المهندسين ، واتخذوا القرار بتعميق المسجد بحوالى ٩٥ ذراعا (حوالى ٥٠ متراً) وتم جلب كتل الحجارة اللازمة ووضعها فى مكان إجراء الأعمال ، وعهد الخليفة إلى قائدة الكبير السلافى الحاجب جعفر بن عبد الرحمن إدارة أعمال التوسعة ، وتحت حراسة ثلاثة من كبار رجال الشرطة وهم : محمد بن تمليخ ،

وأحمد بن نصر بن خالد ، وخالد بن هاشم ، وكذلك أمين الشرطة مطر بن عبد الرحمن ولا زالت أسماء هؤلاء الأربعة مدونة بحروف مذهبة على تكسية الفسيفساء القائمة فوق المحراب الجديد .

وقد كانت التكسية باستخدام الفسيفساء واللوحات الرخامية المنحوتة والمزخرفة بالحفر من التجديدات الرئيسية التى تم إدخالها على العناصر الزخرفية المتعلقة بالتوسعة التي جرت في عهد الحكم الثاني ، كما كان ضمن تلك التوسعة وجود مجموعة من القباب على البلاطة الرئيسية والبلاطتين المجاورتين في التربيعة المجاورة للمحراب الجديد ، كما أن المحراب قد تم تزيينه بأعمدة من الرخام المجزع المجلوب من المحراب الذى بنى خلال عهد عبد الرحمن الثانى ، أما الحوائط فقد تم تكسيتها بالرخام الملون والسقف عبارة عن طاقية منقوشة بالحفر عبارة عن قطعة واحدة ، أما بالنسبة لتقنية الفسيفساء الملون فقد تعلمها الفنيون الأندلسيون على يد فنى بيزانطى جاء من القسطنطينية وعاش أثناء خلافة الناصر ، كما أن السفارة التى ذهبت لهذا الغرض قد جلبت معها حوالى ٣٢٠ قنطاراً من المكعبات الزجاجية الملونة وقد تم استخدامها لأول مرة فى أسبانيا الإسلامية .

وبالإضافة إلى التوسعة التى أشرنا إليها فقد أمر الحكم الثانى بإجراء بعض الترميمات الأخرى فى المسجد وهى ترميمات أشار إليها المؤرخون ، أو النصوص المكتوبة فى المسجد وقد تم إحداث فتحتين بين ملحقات مكان إقامة الشعائر والمقصورة الواقعة بالقرب من المحراب ، وتم وضع مبنى جديد صنع من الخشب المشغول والمطعم بالعاج ، وبلغت تكلفته ما لا يقل عن ٣٥٠٠٠ دينار ، كما تم مد مجرى العيون القادم من الجبل ، لتزويد القصر بالمياه ، إلى المسجد حيث بنيت فى صحنه أربعة صالات للوضوء وذلك لتحل محل الحوض الوحيد الذى كان يتم تزويده بالمياه من بئر أنشىء هناك منذ مائة وخمسين عاماً .

وقد جرت كافة تلك الأعمال طوال عهد الحكم الثانى ، غير أن الأعمال الكبرى تم الانتهاء منها فى عام ٩٦٦م (٣٥٥هـ) ، وفى هذا التاريخ تم فتح المسجد مرة أخرى للصلاة بعد توسعته صوب الجنوب وتفادياً للانتقادات التى قد يوجهها له رجال كان عليه أن يقدم الدليل على أن الأموال التى أنفقها كانت شرعية المصدر وأنها جزء من الخمس القانونى ، وبلغت التكلفة طبقاً للمؤرخين ٢٦١٠٠٠ دينار (١٤٤) .

ويعد ذلك بعشرين عامًا أى من عام ٩٨٨م (٣٧٧هـ) جاء الدور على المنصور بن أبى عامر للقيام بتوسعة أخرى فى الجامع الذى أصبح لا يسع جموع المصلين والسبب فى هذا تجنيد العديد من البربر الذين اتسموا بغيرتهم على الإسلام ، غير أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد الذى حدا "برئيس البلاط" القيام بتلك التوسعة ، بل نظر إليه على أنه عمل تطوعى جديد يهدف إلى تقوية شهرته كسياسى وقائد مظفر وكذلك لإسكات ألسنة السوء التى كانت تتحدث عن ضعف تدينه ، ويشير مؤرخو سيرته أنه بدأ الأعمال بنفسه واستخدم العبيد المسيحيين الذين أسرهم فى حملاته كيد عمالة ، لقد كانت التوسعة بمثابة دعاية عظيمة للنظام المتشدد الذى استطاع أن يفرض نفسه على المواطنين ، ومن الأمور ذات الدلالة أيضًا هو أنه منع أية نصوص تذكارية ، تشير إلى اسمه والمناصب التى تولاها ، فى التوسعة الجديدة وسرى هذا المنع أيضًا على الخليفة الأسمى هشام الثانى .

كانت التوسعة التى أمر بها الدكتاتور العامرى نحو الشرق ، فلم يكن ممكنًا إحداث توسعة أخرى باتجاه النهر ، وإذا ما كان قد حدث ذلك فإن تعديلات كثيرة لابد أن تجرى على الإصلاحات التى أضافها الحكم الثانى ، ثم مصادرة الأراضى اللازمة والواقعة فى الجهة الشرقية للمسجد ، وبذلك زادت المساحة – سواء فى مكان إقامة الشعائر أو فى الصحن حوالى الثلث ، تم إضافة ثمانية بلاطات جديدة على وجه السرعة أما الزخرفة فكانت تتسم بالإقلال والبساطة ، ولقد وصف الكثير من المؤلفين العرب فى الغرب ، وخاصة البكرى والإدريسى ، هذه الأعمال بصفات فيها الكثير من الحماس الذى يبدو غير مبالغ فيه هذه المرة .

وقد ترك لنا الجغرافى الأخير وصفًا قيمًا للمسجد يتسم بالدقة فى جميع تفاصيلة ومن المؤكد أنه نقله من وثيقة عربية تعود إلى القرن العاشر أو بداية القرن الحادى عشر ، وهنا نحيل القارىء إلى ذلك الوصف الأمين للأثر من خلال الترجمة التى أعدها كاتب هذه السطور فى عام ١٩٣٨م وأخذ فى الاعتبار الإضافات الجديدة والهامة من خلال المخطوطات التى جمعها ابن عبد المنعم الحميرى (١٤٥) .

وقد هيأت البيانات الجديدة التي سوقها ابن حيان بشأن التوسعة المزدوجة التي تمت في عهد عبد الرحمن الثاني ، وكذلك البيانات الإحصائية للبكري والوصف الفني للأثر وزخارفه على يد الإدريسي إمكانية إعادة تصور مخطط المسجد بشكل يكون قريبًا من الواقع ، وهذه البيانات هي جد نافعة حتى لو كان المسجد قد تعرض لأعمال التخريب وعوامل التعرية ومرور الزمن ، وما يحزننا هو أنه لا تتوافر لدينا بيانات تفصيلية ودقيقة عن التنظيم الداخلي للقصور الخلافية وطبوغرافيا الأرباض القرطبية ، ووضع المسجد في هذه الحالة يتناقض تمامًا مع الإقلال في الإنتاج الأدبي العربي في الغرب .

هوامش الفصل السادس

(١) المراجع : فيما يتعلق بهذه المسألة لا تتوفر لدينا حتى الآن إلا دراسات موجزة ، يجب أن نضيف إليها الكثير من تحليل التفاصيل التي نُشرت في معظمها على يد تورس بالباس في مؤلفه الرائع "التاريخ الآثارى لأسبانيا الإسلامية" Cronica arqueologica de la Espana Musulmana حيث نشر فى الأعداد نصف السنوية لمجلة الأندلس ، وسوف نشير إليه باستمرار ، أضف إلى ما سبق Notes de oponomastique hispano maghribine لمؤلف هذه السطور (نشر فى .Islam d'Occident I pags 43-78) ، وما تحدث به مارسي فى La conception des villes dans Islam, en la Revue d'Alger (t.II, 1945, pags. 517-532), y E. Pauty, Villes spontanees et villes crees en Islam, en Ann. Inst. Et, Or, d' Alger IX. 1951, pags. 52-75. Vense tambien ibid., VI, 1942-1947, pags. 5-30 El estudio de L.Torres Ralbas. Les rilles musulmanes d'Espagne et leur urbonisation, apareido antes en espanol con el titulo Las ciudades hispano-musulmans y su urbanizacion, en Revista de Estudios de la Vida Local, Madrid, I, 1942, pags, 50-80: ef.Al-Andalus, IX, 1944, pags, 235-236 .

(٢) انظر/ليفى بروفنسال فى "شبه جزيرة أيبيريا "المعجم" صـ٢٥٨ – ٢٥٩ ، "مذكرات عبد الله" فى مجلة الأندلس العدد السادس ١٩٤١ صـ٢٦٩ وحاشية رقم ٢٦ فى صـ٢٨٧

(٣) شبه جزيرة أيبيريا صـ ٣١ (الرابع a) الحواشى المذكورة .

(٤) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ٢٩٥ – حاشية رقم ٨٦ (من النص الأصلى) .

(٥) يمكننا فيما يتعلق بإقليم تونس أن نعثر حتى الآن على الكثير من أسماء الأعلام التى تكونت بهذه الطريقة وخاصة فى المنطقة الساحلية (مثل منزل تميم ومنزل جميل .. ألخ) غير أنه لا يجب أن نستخلص من هذا أن تلك كانت قرى يسكنها مهاجرون أندلسيون .

(٦) انظر – سابقًا – صـ٣٤-٣٥ (من النص الأصلى) .

(٧) فيما يتعلق بأنماط التجمعات السكانية الريفية فى أسبانيا المسيحية خلال العصر الوسيط المتأخر يتم الرجوع إلى L.G. de vadeavellano "تاريخ أسبانيا الجزء الأول صـ٤٧٧-٤٨٨

(٨) نشير بصفة خاصة إلى ابن الخطيب – ذلك الغرناطى – من خلال كتابه "الإحاطة" عند الحديث عن أصول الشخصية التى يكتب سيرتها إنه كان أحد سكان تلك القرية فى ذلك الإقليم من هذه الدائرة ، وفيما يتعلق بالمفهوم الخاص بلفظة إقليم فى إسبانيا الإسلامية والتى عالجها جيداً الجغرافى المشرقى ياقوت ، انظر سابقًا صـ٢٩ وحاشية رقم ٩٩ (النص الأصلى) .

(٩) انظر J. Ma Lacabra "التطور العمرانى لمدينتى نابارة وأرغن خلال العصور الوسطى "نشر فى مجلة Pirineos عدداً ١٥-١٦ سرقسطة ١٩٥٠م (ملخص تم تقديمه للمؤتمر الدولى التاسع للعلوم التاريخية)

(١٠) يلاحظ فى النص الأسبانى وجود لفظى "Calle mayor" (الشارع الكبير) فقد احتفظنا بنفس التركيبة الكائنة فى اللغة العربية .

(١١) انظر تورس بالبـاس Adarres de las ciudades hispano-musul manas فى مـجلة الأندلس العدد XII لعام ١٩٤٧ صـ١٦٣-١٩٣

(١٢) وبهذه الطريقة الخاصة تتم الإشارة إليها فى الأحكام القضائية التى نجدها فى "الأحكام الكبرى" لابن سهل ، سواء محل إقامة المدعى أو المدعى عليه .

(١٣) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ ٢٧٩-٢٨٠ فيما يتعلق بحصار أوردونو الثانى لمدينة إيبورا Euora فى عام ٩١٣م (٣٠١) (النص الأصلى) .

(١٤) cf ابن عبدون : أشبيلية فى بداية القرن الثانى عشر صـ ٨٥-٨٨ ، و Saqati السقطى "Mannuel hisp. De hisba" معجم صـ ١٨

(١٥) انظر تورس بالباس : "محيط المدن الأسبانية الإسلامية" الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠م صـ٤٣٧-٤٨٦

(١٦) فيما يتعلق بالشرعية فى الغرب الإسلامى أنظر ليفى بروفنسال : الإسلام فى الغرب الجزء الأول صـ٥٥-٦٦ ، تورس بالباس "المصلى والشريعة فى المدن الأسبانية الإسلامية" مجلة الأندلس العدد الثالث عشر ، ١٩٤٨ ، صـ١٨٠-١٦٧

(١٧) انظر سابقًا – ص ٧٨ – حاشية رقم ٧٤ (النص الأصلى) .

(١٨) هناك شارع شهير فى غرناطة أطلق عليه "حور المؤمل" (وهو اسم أحد العتقاء الزيريين الذى انتقل ليكون تحت إمره المرابطين . اعتباراً من القرن الثانى عشر) ، وما تغنى به الشعراء والأدباء (أنظر : مذكرات عبد الله – مجلة الأندلس – العدد الثالث لعام ١٩٣٥ صـ ٢٥٧-٢٥٨ وحاشية رقم ٥٥ – انظر تورس بالباس : الأندلس العدد الخامس عشر ١٩٥٠ – صـ٤٧٦

(١٩) الأمر الذى كان مثار انتقادات من جانب ابن عبدون "أشبيلية فى بداية القرن الثانى عشر" صـ٥٢-٥٥

(٢٠) انظر – لاحقًا – صـ ٢٤٧ حاشية رقم ١٢٨ ، بالنسبة للحائر الجزالى فى قرطبة .

(٢١) كان ذلك حال مدينة مثل قرطبة الواقعة بالقرب من منية عجب ، انظر سابقًا – الجزء الرابع صـ١٢١ ولاحقًا صـ٢٤٧ – حاشية رقم ١٢٦ ، ٢٨١ (النص الأصلى) .

(٢٢) انظر تورس بالباس "ملاحظات عن أشبيلية خلال العصر الإسلامى – مجلة الأندلس ، العدد العاشر لعام ١٩٤٥م صـ١٧٧ – ١٩٦ – انظر J. de M Carriazo "أسوار أشبيلية فى Archivo Hispa-lense عدد ٤٨-٤٩-أشبيلية ١٩٥١م .

(٢٣) فيما يتعلق بالحاشية عن "الروض المعطار" (ليفى بروفنسال : شبه جزيرة إيبيريا صـ٢٥-٢٧) .

(٢٤) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ١٥٠ (النص الأصلي) .

(٢٥) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ١٦٧ (النص الأصلي) .

(٢٦) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ٢٦٨ (النص الأصلي) .

(٢٧) شبه جزيرة إيبيريا ، صـ٢٠-٢١

(٢٨) نفس المصدر صـ١٩٠-١٩١

(٢٩) نفس المصدر صـ١٩٥

(٣٠) نفس المصدر ١٧٣ – ١٧٨ : المقتبس لابن حيان الجزء الأول ورقة رقم 256v حيث يقص علينا ، طبقًا لأحمد الرازي ، أنه قبل عصر المرابطين بزمن طويل حاول الأمير محمد هدم معبد قادش للاستيلاء على الكنوز المفترض أنها كانت مخبأة هناك ، فعندما كان في رحلة صيد وقنص وصل إلى جوار المعبد فأمر بأن تجمع كمية كبيرة من الأعشاب حول الحائط وأشعل النار فيها ، غير أنه أضاع وقته كما قضت النيران على مخيمة .

(٣١) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ٢٤٤ وحاشية رقم ١٥٢ (النصف الأصلي) .

(٣٢) شبه جزيرة أيبيريا صـ٩١-٩٤

(٣٣) نفس المصدر ٢٠٣

(٣٤) نفس المصدر ١٤٠-١٤١

(٣٥) نفس المصدر ١٢٩-١٣٠

(٣٦) نفس المصدر ٤٥

(٣٧) نفس المصدر ٢٢

(٣٨) ما عدا ما يتعلق بالبوابة الرئيسية التي كانت تفتح على الغرب وكان بها عقود متراكبة وأعمدة وقواعد من الرخام ، أما باقي البوابات فكانت : باب البحر ، والتي كان يدخل إليها نهر التاج في الثغور العليا ، وباب الخمّة الواقع في حي يطلق عليه اليوم حي الفاما Alfama ، وباب المقبرة ، وأخيرًا باب الخوخة ، ومن السهل حتى يومنا هذا متابعة ورصد مسار السور الإسلامي لمدينة لشبونة وهو سور يستحق دارسة مسهبة .

Lef E. LAMBERT . Les anciens quarters musulmans dans le plan de la ville de Lisbonne, en comptes rendus du Congres mtern, de Geographe, Lisbonne, 1949 , tomo III, Lisboa, 1951, paginas 397-399 El recinto musulman de Coimbra, cuya principal abertua se llama todavia hoy puerta de Almedina, ha sido objeto de una monografia de A. FERNANDES MARTINS, A porta do Sol. Contribucao pauo o estudto dacerca medival de Coimbra, en Biblos, vol. XXVII, Combra, 1952.

(٣٩) فيما يتعلق بهذه المحاولة التى قام بها البحارة الأندلسيون لا تتوافر لدينا حتى اليوم إلا رواية قصصية فى المقام الأول نقلها لنا الإدريسى (وصف أفريقيا وأسبانيا – النص صـ١٨٤-١٨٥ ، والترجمة صـ٢٢٣-٢٢٥) ونقلها كذلك مؤلفون أخرون فى فترات لاحقة (cf شبه جزيرة أيبيريا صـ٢٣ وحاشية رقم ٢) غير أن هذه الرواية يجب أن تكون مرتبة بمعلومة أشار إليها البكرى (نفس المصدر صـ٣٦ وحاشية رقم ٣١ ، وطبقًا لهذه الرواية فإن البحارة كان برأسهم خشخش ، وقد أشرنا إلى تلك الشخصية سابقًا فى الجزء الرابع صـ٢٢٧ حاشية رقم ١١١ (النص الأصلى) ومن المعروف أنه ابن سعد بن أسود دى بيتشينا Pechina ، كما يظهر أيضًا فى الجزء المكتشف أخيرًا لابن حيان "المقتبس" والذى يتناول إمارة محمد الول (الجزء الأول ورقة ٢٦٣ r°) وكان اسمه مقرونًا بشخصية أخرى اسمها مركسيش ابن شاكوح (؟) – وهم اسم حرفة من قام بالتدوين ، كانت معه على رأس المجموعة الأموية التى أخذت على عاتقها فى عام ٨٥٧م (٢٤٥هـ) الإبحار بمحازاة الشاطىء الأندلسى المطل على المحيط الأطلنطى لمجابهة هجمة جديدة يقوم بها القراصنة النورمانديون (cf – سابقًا – الجزء الرابع صـ٢٠٢-٢٠٣ (النص الأصلى) .

(٤٠) انظر سابقًا صـ٢٧ حاشية ١١١ (النص الأصلى) ؟

(٤١) انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٢٦٤ حاشية رقم ١١

(٤٢) ليفى بروفنسال – شبه جزيرة أيبيريا صـ٢١٣-٢١٥

(٤٣) نفس المصدر صـ٢٢١-٢٢٣- وخلال القرن الرابع عشر سوف نعرف المزيد من التفاصيل عن طبوغرافيا مدينة المرية من خلال كاتب من أبنائها وهو ابن خاتمة ، وكذا من خلال ابن فضل الله العمرى (المؤلف الشرقى) .

(٤٤) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ٢٢٨ (النص الأصلى) .

(٤٥) تم عمل الكروكى الخاص بالمرية الإسلامية والذى ننشره فى هذه الصفحات بالاستعانة بمخطط تم إبلاغه لمؤلف هذا الكتاب وتفضل به السيد تورس بالباس .

(٤٦) ليفى بروفنسال – شبه جزيرة أيبيريا صـ٣٧-٣٨ وهو أخر ملوك غرناطة من الزيريين ويسمى عبد الله بن بلوغين الذى تحدث فى منكراته عن الظروف التى أحاطت بانحطاط إلبيرة وانتقال أهلها إلى غرناطة ، وحول التعايش بين المدينتين خلال القرن العاشر انظر – سابقًا – صـ٢٩ حاشية ١٢٠

(٤٧) ضمت دائرة (كورة) أرشدونة Archidona فى البداية ريه Reyyo (مالقة) وفى بداية القرن العاشر نجد أنه بالإضافة إلى العاصمة (أنظر شبه جزيرة أيبيريا صـ١٧) كان بها بلدًا Belda والتى بدت لنا اليوم بلدة انتقيرة Antequera (أنظر سابقًا الجزء الرابع صـ٢٧١ – (النص الأصلى) حاشية ٢٢ ، لكن يتضح من خلال بحث أخر حديث أن هذا الربط مستبعد فالمكان القديم لبلدا هو اليوم Cuevas de san Marcos وقد تحدث بذلك Simmonet فى تاريخ المستعربين صـ٥١٨-٥١٩- انظر تورس بالباس "أنتقيرة" الإسلامية "مجلة الأندلس العدد السابع عشر ١٩٥١ صـ٤٣٢ – ٤٣٣ حاشية رقم ١

(٤٨) ليفى بروفنسال – شبه جزيرة أيبيريا صـ ٨٨-٨٩

(٤٩) نفس المصدر صـ٢١٨-٢٢٠ ، انظر أيضًا M. Gaspar Remiro تاريخ مرسية الإسلامية سرقسطة ١٩١٥

(٥٠) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ١٣٢ – حاشية رقم ٧ (النص الأصلى) .

(٥١) فيما يتعلق بتلك البوابة البلنسية cf. Chr. Seybold, Abbariana II فى مجلة مركز الدراسة التاريخية غرناطة العدد الرابع ١٩١٤م صـ٣٥ حاشية رقم V كما قد لنا رامون منذيث بيدال فى كتابه "أسبانيا السيد صـ٤٢٩ مخطط مدينة بلنسية فى نهاية القرن الحادى عشر وقد استخدمنا فى إعداد الكروكى .

(٥٢) ليفى بروفنسال : شبه جزيرة أيبيريا ، صـ٩٧

(٥٣) نفس المصدر صـ٢١٣-٢١٠

(٥٤) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ١٤٠ (النص الأصلى) .

(٥٥) يقدم لنا الجزء الحديث الاكتشاف من المجلد من المقتبس لابن حيان العديد من التفاصيل الهامة حول حياة هذا القائد . كما تولت Maria Asuncion B كتابة مقال هام بعنوان هاشم بن عبد العزيز – مجلة Cuad. Hist. Esp العدد السادس عشر ، ١٩٥١م صـ١١٠-١٢٩

(٥٦) انظر سابقًا الجزء الرابع صـ١٩٤-١٩٥ (النص الأصلى) .

(٥٧) ليفى بروفنسال – شبه جزيرة أيبيريا صـ٨٥

(٥٨) نفس المصدر صـ١٥٧-١٦٢

(٥٩) انظر – على سبيل المثال : مانويل جومث مورينو – الفن العربى الأسبانى حتى الموحدين ، صـ١٩٧-١٩٨ ، وطبقًا لذلك المؤلف توجد كتابة تذكارية لعملية الترميم الخاصة بالجسر ترجع لعام ١٢٥٩ وتذكرنا بأنه "قد انتهى العمل فى هذا الترميم عام ٩٩٧م على يد خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة بناء على أوامر الوزير المنصور وزير هشام أمير المؤمنين "أما فيما يتعلق بتوسعة المسجد الجامع القرطبى فى زمن محمد الأول ، انظر سابقًا صـ١٢٥ حاشية رقم ١١٥ (النص الأصلى) ، كما أن المسجدين القائمين فى أحد الأحياء قد بناهما أحد أتقياء المسلمين الطليطلين خلال القرن العاشر (انظر سابقًا صـ٣٨ رقم ٢١ ، النص الأصى") فكان أحدهما فى ذلك الجزء من المدينة المسمى "جبل البَرْد وكذلك فى حى الدباغين ، غير أنه لا يوجد دليل يؤكد تحديد المكان (انظر مانويل جومث مورينو المصدر السابق صـ١٩٧) .

(٦٠) نشر هذه الوثائق A. Gonzalez Palencia "المستعربون الطليطليون ويمكن أن نطلع على عمل آخر لنفس المؤلف بعنوان "طليطلة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فى كتاب بعنوان " المسلمون والمسيحيون فى أسبانيا خلال العصور الوسطى" صـ١٨٩-٢٠٨

(٦١) ليفى بروفنسال – شبه جزيرة أيبيريا صـ١١٨-١٢٠

(٦٢) انظر سابقًا – الجزء الرابع صـ١٨ رقم ٢٦ (النص الأصلى) .

(٦٣) "تاريخ" صـ١١١ (ويرى الكاتب أن مقبرة حنش توجد خارج هذه البوابة وليست عند باب القبلة) .

(٦٤) خوسية ماريا لاكرا ، تطور ، صـ١٥

(٦٥) المقتبس لابن حيان الجزء الأول – ورقة ١٧٧ V° ، أسفر فيضان قوى فى نهر إبرة عن حدوث أضرار كبيرة فى ذلك العام بالمدن المحيطة وخاصة فى سرقسطة حيث هدم جزء من السور ودعامات الجسر ، وقد أصدر الأمير تعليمات لواليه يحيى بن عبد الله أن يهيىء العبور بين شاطىء النهر من خلال أربعة مراكب فى الوقت الذى يجرى فيه إعادة تشغيل الجسر من جديد .

(٦٦) بالنسبة لباب السدة فى عقد قرطبة والـ Zudas فى مدن الثغر الأعلى أنظر بحثًا صدر حديثًا لتورس بالباس "باب السدة" والـ Zudes فى شرق أسبانيا مجلة الأندلس – العدد السابع عشر ١٩٥٢م صـ١٦٥-١٧٥

(٦٧) المراجع : الفصل الأخير – المخصص لقرطبة حاضرة الخلافة – فى "أسبانيا الإسلامية القرن العاشر صـ١٩٥-٢٣٦ ويفيد ذلك الفصل من الوثائق المتوفرة خلال عام ١٩٣٢ م ومنذ ذلك أدى اكتشاف أو نشر نصوص تاريخية أو بعض السير (وخاصة الجزء الذى يتضمنه المقتبس لابن حيان عن الإمارة ، وكذا الجزء الخاص بالأندلس الوارد فى "أعمال العالم لابن خلدون" إلى تزويدنا ببعض المعلومات الجديدة سوف نلجأ إليها فى الصفحات التالية وكذا فى إعداد الكروكى المرفق – وبالنسبة للسير التى نعرفها منذ عشرين عامًا فهذه لم تأت بالمزيد اللهم إلا تفاصيل قليلة حول بعض النقاط ، أما أسهامات كل من د. كاستيفون ومارتينيت دى أريثايا "قرطبة الخلافة – قرطبة العام ١٩٣٠" (أصدار خاص للجريدة Boletin احتفالا بالألفية الأولى لعصر الخلافة وقد نشرتها أكاديمية تلك المدينة) كذا دليل قرطبة – مدريد ١٩٣٠ ولا زالت هذه الأعمال مفيدة وخاصة فى إشارتها إلى التقاليد المحلية والمعرفة الجيدة التى عليها المؤلف بطبوغرافيا قرطبة وإقليمها – ولمزيد من المراجع من قرطبة حتى عام ١٩١٢ انظر مقال : قرطبة الكائن فى موسوعة دار نشر Espasa الجزء الخامس عشر صـ٥٩٥-٥٩٦- هناك كثير من أعمال الوصف لمدينة قرطبة الإسلامية وقد ظهرت حديثا ١٩٥٢ وهى لمؤلفين هم مانويل جومث مورينو "الفن العربى الأسبانى . ول . تورس بالباس فى دراسته عن المسجد الجامع والتى سننشر إليها فيها بعد .

(٦٨) سورة الأرض طبعة كرامرز الجزء الأول صـ١١٢-١١٣

(٦٩) أورده المقرى : "نفح الطيب" الجزء الثانى صـ١١٨ ، cf العنبى ، Bugya العدد ٣٣٠ – Pons Boigues, Emsayo bio-bibliografico pag63

(٧٠) نفح الطيب للمقرى الجزء الأول صـ٢٩٧-٤٦٢ وقد تم تلخيص ذلك فى المقدمة التى أوردها G.Dugat صـ٣٤-٤٤

(٧١) cf : أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٩٤ حاشية رقم ١ ، كما ورد ذلك المخطط أيضًا بمعبد عن النص أى فى الجزء الخاص بعامى ١٩٢٧-١٩٢٨ فى حوليات اللجنة الإقليمية للآثار التاريخية والفنية فى قرطبة – قرطبة ١٩٢٩

(٧٢) علينا أن نعود في الصفحات التالية لتناول هاتين المؤسستين - انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٣٢٥-٣٤٣ ، ٤٠٨-٤٠٩ (النص الأصلى) - وعلينا أن نشير إلى أن جومث موريثو يصر في عمله الرائع والشهير المتعلق بالفن الإسلامي والإسباني حتى عصر الموحدين (صـ١٦٥-١٦٦) على أن المدينة الزاهرة توجد في غرب قرطبة وليس في شرقها ، ويؤيد هذا الرأى R.Castejon .

(٧٣) انظر "نفح الطيب" الجزء الأول صـ٣٠٤

(٧٤) ابن الخطيب أعمال صـ١٢١ - انظر أيضًا - سابقًا - صـ١٢٩ حاشية رقم ٤٥ (النص الأصلى)

(٧٥) أما البكرى (cf شبه جزيرة أيبيريا صـ١٨٧) فيشير إلى أن "دور" قرطبة في كمالها يبلغ ٣٠٠٠٠ ذراع أى عشرة أميال ، وكل ميل ١٤٢٠ مترًا (١٤ كيلو مترًا - ٢٠٠) وخلال القرن التالى يحدد لنا الإدريسى من قرطبة (وصف أفريقيا والأندلس - النص صـ٢٠٨ والترجمة صـ٢٥٥ ، شبه جزيرة أيبيريا ص١٨٣) على أنها رقعة سكانية مكونة من خمس مدن متجاورة وتمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة ثلاثة أميال أما اتساعها من الشمال إلى الجنوب (من بوابة الجسر إلى بوابة اليهود) فيبلغ ميلاً أى أن محيطها يبلغ ثمانية أميال تقريبًا .

(٧٦) نفح الطيب الجزء الأول صـ٣٥٥-٣٥٦ cf إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٠٧ حاشية رقم ١

(٧٧) أو ٤١٩ : cf شبه جزيرة أيبيريا صـ١٨٩ وحاشية رقم ٢

(٧٨) البيان - الجزء الثانى ، النص صـ٢٤٧ (٢٣٢) : الترجمة صـ٣٨٣

(٧٩) فيما يتعلق بصعوبات تحديد عدد سكان مدينة إسلامية خلال العصور الوسطى .cf. MEZ, Ren Isl, Vila صـ٤٩١-٤٩٢- هناك دراسة صدرت مؤخرا لـ R. Carande والذى سبقت الإشارة إليه في صـ٩٣- حاشية رقم ١ (من النص الأصلى) "انظر cf L.G.de Valdea Vellano تاريخ أسبانيا الجزء الأول صـ٦٣٤ حاشية رقم ١) حيث يرى أن تعداد سكان قرطبة خلال القرن العاشر بلغ حوالى نصف مليون نسمة ، ومن جانبه نجد تورس بالباس في مؤلفه "مسجد قرطبة" صـ٨ يرى أن تعداد السكان يصل إلى مائة ألف نسمة وهو رقم يقل بكثير عما يمكن أن يكون عليه سكان العاصمة الأندلسية خلال عصر الخلافة ، كما لا يمكننا تحديد ذلك العدد بالدقة المطلوبة .

(٨٠) الأعمال صـ ١٢١ - ١٢٢ سابقا صـ ١٧٥ - ١٧٦ .

(٨١) ينبغى أن نشير بالاتفاق مع تورس بالباس في مؤلفه " مسجد قرطبه " صـ٦ أن مستوى الأرض في قرطبه قديما كان بالنسبة لوضعها الحالى ما لا يقل عن أربعة أو خمسة مترات وهذا ما يؤكده اكتشاف الكثير من بقايا الفسيفساء والمنحوتات عندما تقوم البلدية بإجراء بعض أعمال الحفر .

(٨٢) انظر - سابقا الجزء الرابع صـ ٨٨ (النص الأصلى) .

(٨٣) يؤكد المؤرخ الرقيق (ابن عذارى – البيان – الجزء الثالث صـ ١٠٥) على وجود خندق يسير موازيًا لشاطئ نهر الوادى الكبير ، ويحدد المؤرخ عام ١٠١٠ (٤٠١هـ) الذى يعتبر العام الذى وقع فيه فيضان كبير أسفر عن تحطيم ألفى منزل فى الحى القرطبى (هل هو الحى الشرقى؟) ومقتل ٥٠٠ نسمة وتهدم جزء كبير من السور الذى ملأ الخندق .

(٨٤) سورة الأرض – طبعة كرامرز .

(٨٥) وقد أدى تحديدها ، بعد محاولة أولى وردت فى "أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" (المخطط الوارد فى صـ٢٠٦) إلى ورود حاشية بغرض التصحيح (هناك تبرير بالنسبة لإحدى البوابات وغير دقيقة بالنسبة لبوابة أخرى) على يد مانويل أوكانيا جومث فى "بوابات مدينة قرطبة" – مجلة الأندلس العدد الثالث ١٩٣٥ – صـ١٤١–١٥١ ، وفيما يتعلق بأسما بوابات قرطبة وكذا ببوابات المدن الغربية أنظر ليفى بروفنسال "ملاحظات حول أسماء الأعلام الجغرافية الأسبانية المغربية "وردت" الإسلام فى الغرب" الجزء الأول صـ٤٣–٧٨

(٨٦) انظر – لاحقًا – الجزء الرابع صـ٢٢٥ (النص الأصلى) "الإسلام فى الغرب" صـ٦٩ حاشية رقم ٢١

(٨٧) انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ١٠٨ وحاشية رقم ٨٦ (النص الأصلى) ، الإسلام فى الغرب – الجزء الأول صـ٦٩ حاشية رقم ١٧

(٨٨) أنظر ابن الأبار ، التكملة ، العدد ٨٧٠ ، صـ٢٧٩ (أسفل) طبعة كوديرا ، انظر م. أوكانيا فيمنتيث . المصدر السابق صـ١٤٧

(٨٩) انظر المقرى فى "نفح الطيب" الجزء الأول صـ٩٨

(٩٠) انظر سابقًا – الجزء الرابع صـ٣٢ (صحح التاريخ) (النص الأصلى) .

(٩١) انظر سابقًا – الجزء الرابع صـ٢٤٤ (النص الأصلى) .

(٩٢) تم ذكر باب العطارين أحد أبواب قرطبة من خلال ابن حزم فى طوق الحمامة طبعة Petrof صـ٢١ – ترجمة Bercher صـ٥٧–٥٩– وترجمة جارثيا جومث صـ١٠٠ ، حيث كانت هذه البوابة ملتقى النساء ، وقد وقع مؤلف هذا الكتاب فى خطأ عندما اعتبر البوابة إحدى الفتحات فى الواجهة الشرقية للمسجد الجامع فى قرطبة (apud "طوق الحمامة" En relisant) مجلة الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠م صـ٣٥٨ – حاشية رقم ١

(٩٣) فى عام ٩١٣–٩١٤م (٣٠١هـ) : cf ١٣ صـ١١٤ وحاشية رقم ٥٠ وسابقًا الجزء الرابع صـ٢٤٤ (النص الأصلى) .

(٩٤) كانت مكذا طبقًا للكتابة القديمة Axerquia .

(٩٥) أى أنه يمكن أن نطلق عليه اليوم مسمى arenal : cf سيمونيت : "معجم الأصوات الأيبيرية واللاتينية" صـ٥٧٣– ليفى بروفنسال : الإسلام فى الغرب ، الجزء الأول صـ٧٣–حاشية رقم ٨٤– وبالنسبة لما

تحدث به ابن القوطية ، بشأن ذلك الاسم ، انظر افتتاح صـ٢٩ هو شويولار بينما ينقل المقر عن ابن بشكوال (نفح الطيب الجزء الأول صـ٤٠٤) أن الاسم هو شابلار ، وربما كان النقل الصحيح هو شابولار نظرًا لقربها من اللاتينية ، في عصرها المتأخر ، Sabularia ، وهناك أدلة أخرى على اسم ذلك الحي نعثر عليها أثناء عهد الحكم الأول حيث توجد في الجزء الأول للمقتبس لابن حيان passim انظر أيضا : "أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" صـ٢٠٧ حاشية رقم ٣ (١٥) .

(٩٦) وقد نقلنا ذلك في الشكل المرفق ١٠٢ : ١- شارع Cuerno - ٢ شارع los leones - ٣ شارع الأركان السبع Siete Rincones - ٤ شارع الجص Yeso - ٥ شارع الزنيقة Azonaicas - ٦ شارع الجزارات Carnicerias - ٧ شارع الأحذية Zapateria - ٨ شارع الملك المنصور - ٩ شارع المكتبات - ١٠ شارع المقاطف - ١١ بوابة اليهود - ١٢ شارع الحمام السفلي Bano Bajo - ١٣ شارع اللحامين Carniceros - ١٤ - شارع فريا La Feria - ١٥ ميدان Canas - ١٦ ميدان المغرة Almagra ١٧ شارع المونة Almonas - ١٨ ميدان القش Paja - ١٩ شارع الحجارين Silleria - ٢٠ شارع المخللاتية Vinagreros - ٢١ شارع لاس بادانـاس Badanas - ٢٢ Rastro (سوق المستعمل) - ٢٣ النحاسين - ٢٤ سوق الأسماك - ٢٥ شارع الخياطين Alfayatas - ٢٦ ميدان Alhandigas - ٢٧ شارع العقارين Cordoneros ٢٨ - القيصرية - تتوافق البوابة الجديدة مع الفتحة المشار إليها في شرق رقم ٢٢ ، وبالنسبة لبوابة الجسر فرقم ٢٩ ، انظر أيضًا Castrjon في "قرطبة الخلافة" صـ٣٤

(٩٧) هناك أيضًا شارع يسمي شارع السبع لويات Revueltas في أشبيلية (بالقرب من كنيسة سلبادور ، التي كانت المسجد الجامع أثناء عصر الخلافة) وفي كارمونة (بالقرب من بوابة أشبيلية) انظر أيضًا تورس بالباس "المدن الإسلامية في أسبانيا وعمرنها" صـ١٦ (فيما يتعلق بمالقة) .

(٩٨) نفح الطيب - الجزء الأول صـ٣٠٤ ، أسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٠٧ حاشية رقم ٣

(٩٩) انظر مقال "قرطبة" في موسوعة دار النشر Espasa صـ٥٦٦ "وفي غرب وعلى بعد كيلو متر من السور يوجد مصلى La Virgen de Fuensanta الذى بنى في عام ١٤٤٢م على أنقاض مقر إقامة الحاجب المنصور "انظر أيضًا - سابقًا - الجزء الرابع صـ٤٠٨-٤٠٩ (النص الأصلي) - ليفي بروفنسال "حول كتاب طوق الحمامة" مجلة الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠ صـ٣٤٥-٣٤٦ وحاشية رقم ١ ، وصـ٣٥٨ حاشية رقم ١

(١٠٠) الأحكام الكبرى ورقة ٢١٢ V° الرباط .

(١٠١) فعلى سبيل المثال نذكر : ابن الأبار - التكملة طبعة Miscelanea - العدد ٢٠٢٩ صـ٥٦١ . البيان لابن عذارى الجزء الثالث صـ٧٣ و ٨١ . وإذا ما قبلنا براوية هذا الأخير - الجزء الثالث صـ ٥٦ ، فقد كان هناك باب يسمى باب الشكل في الحائط الشرقي للجانب الشرقي Ajarquia وذلك لحراسة الطريق المؤدى إلى المدينة الزاهرة ، وربما أطلق نفس الاسم أيضًا (بوابة الشخصيات P. de las Figuras) على إحدى بوابات قصر الخليفة (نفس المصدر الجزء الثالث صـ٨٩) .

(١٠٢) الأعمال صـ١٢٠

(١٠٣) انظر سابقًا – الجزء الرابع صـ٨٩ وحاشية رقم ٥١ – فالجزء المكتشف حديثًا من المقتبس لابن حيان الجزء الأول أوراق أرقام ٢٤٤ V° – r° ٢٤٥ يزودنا بأخبار غير مسبوقة عن الترميمات التي أجريت لمنية الرصافة وقد قام بذلك الأمير محمد الأول ، ونعثر في هذا السياق على إشارة أحمد الرازي ، والتي تقول بأن الرصافة الأولى تم بناؤها في فترة سابقة على وصول عبد الرحمن الأول وقام بهذا العمل أحد القادة البربر في زمن الفتوحات واسمه رزين البرنصي ، وقد ظل اسمه يطلق على بعض أسماء الأعلام القرطبية : فهناك مسجد في الحي الغربي كان يطلق عليه نفس الاسم مسجد رزين – وتعرضت فيه الرصافة لحريق ودمرها البربر في شهر نوفمبر لعام ١٠١٠ (ربيع الأول ٤٠١هـ) عند مصادر قرطبة (ابن عذارى البيان الجزء الثالث صـ١٠٢)

(١٠٤) انظر سابقًا – صـ٥٠ فطبقا لابن حيان – المقتبس – الجزء الأول – ورقة ١٦٩ فإن فحص الرادق كان يسيطر على قرطبة ويمر من خلال الطريق المؤدي إلى وادي الحجارة .

(١٠٥) فيما يتعلق بهذا الحي (الذي يرجع اسمه إلى الأصول الرومانثية ، وهو اسم غير محدد المفهوم ، وربما يتعلق بـ Culeclara الواقعة خارج أسوار قرطبة ، انظر C.F. Seybold في Hispano-Arabica الجزء الأول ، نشر في مجلة مركز الدراسات التاريخية لغرناطة العدد الثالث صـ٢٧ ، انظر أيضًا سابقا – الجزء الرابع صـ٤٣٢ (النص الأصلي) . وهناك اسم رومانثي آخر يطلق على حي لم يتم تحديد مكانه في قرطبة وهو Barba lata (؟) ، ويورد هذا الاسم ابن بشكوال ، الصلة ، صـ٤٧٨ n° 1054 .

(١٠٦) من المرغوب فيه القيام بإجراء حفائر منهجية في الحدائق التي تحتل اليوم مكان تلك الأحياء المسماة "بالجانب الغربي" فكل الدلائل تشير إلى أننا سنخرج بنتائج مفيدة للغاية .

(١٠٧) انظر Castejon – قرطبة الخلافة – صـ٤٠

(١٠٨) نفس المصدر صـ٤٥-٤٦ ، ٧٧-٧٩ وأسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٩١ والحاشيتين رقمي ٢ ، ٣

(١٠٩) المقتبس لابن حيان الجزء الأول ورقة V° ١٧٨ – فيما يتعلق بمؤسسي المساجد الكائنة في الجانب الغربي انظر سابقًا الجزء الرابع صـ١٦٧ – ١٦٨ (النص) .

(١١٠) بالنسبة لجسر قرطبة انظر "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٠٢ حاشية رقم ٣ ، كما أشار عيسى (ابن حيان) الرازي إلى الترميم الذي تم في عهد الحكم الثاني – المقتبس – الجزء الثالث 30 من الترجمة لجارثيا جومث ، انظر – سابقًا – الجزء الرابع صـ٣٦٩ وحاشية رقم ٢ (النص الأصلي) .

(١١١) وصف إفريقيا الأندلس – النص – صـ٢١٢ الترجمة صـ٢٦٢-٢٦٣ . انظر أيضًا المقري "ونفح الطيب" صـ٢١٤-٢٦٧

(١١٢) إذا ما قبلنا بما ورد عن ابن حيان من خلال ابن شكوال في "الصلة" ، رقم ٧٠٣ صـ٣٢٥ فإن أحد الفقهاء القرطبيين ويدعى أبو المطرف ابن جورج توفي في قرطبة في ذلك العام المذكور وتم دفنه في

الربض في الشاطئ الأيسر لنهر الوادي الكبير ، وبعد أداء الصلاة على الميت عند باب المسجد الجامع تم وضع جثمانه في مركب لعبور النهر لأن الجسر لم يكن صالحا للمرور آنذاك .

(١١٣) المقتبس لابن حيان – الجزء الأول ، ورقة ١٤٠° ٧. ، حيث ورد ذكر الموظف الذي تولى الإشراف على العمل وهو أحمد العتبي ، وبعد هذه السطور بقليل (ورقة ٧٥ ١٤٠) يشير نفس المؤرخ أن الرصيف كان يمتد من الزاوية الشرقية للمدينة حتى غرب القصر ثم يمتد حتى "السوق العظمى" ، ويعتبر هذا السوق – بغض النظر عن ذلك الآخر الكائن شرق المسجد الكبير – بمثابة تفسير للاسم وهو باب العطارين (انظر – سابقا – صـ٢٢٨ (النص) حاشية رقم ٩٢ في هذا الفصل) ، وقد ذكر نفس الاسم عيسى الرازي حتى في عهد الحكم الثاني .

(١١٤) Cronica de al- Nasir ، ss26 صـ١٢٦ ،إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٢٣ ، حاشية رقم ٣

(١١٥) كانت تشكل مجموعتين يطلق على الأولى منهما أرجاء (وأحيا أرجا) ناصح (الصواني ، في الإدريسي) أو أرجاء كليب ، انظر Castejon قرطبة الخلافة صـ٥٠ ، ٥٢ إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٢٥ حاشية رقم ٣ ، و Peres "الشعر الأندلسي" صـ١٣٣ حاشية رقم ٢ – ابن عذارى – البيان ، الجزء الثالث ، صـ٤٢ وهنا يشير إلى أنه كان يوجد في قرطبة أو ما جاورها قصر ناصح وربما كان نفس المسمى أرجاء ناجح .

(١١٦) انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٢٣٤ (النص الأصلي) .

(١١٧) انظر إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٠٢ حاشية رقم ٣ in fine .

(١١٨) انظر سابقًا – صـ٢٤٤ (النص) حاشية رقم ١١٢ (من هذا الفصل) .

(١١٩) ربما وجب أن نربط بين هذا الاسم " والثاني" "Segundo" ، علامة حجرية للطريق الروماني الذي كان يمتد من قرطبة ويعبر كامبينيا Campina ، وفي هذه المنطقة كانت هناك أسماء أخرى يبدو وأنها كانت شائعة خلال العصر الإسلامي ، مثل Cuarto ، Tercios Quintos ، (الثلث ، الربع ، الخمس) انظر Castejón قرطبة الخلافة صـ٣٧ ، وحاشية رقم ٢

(١٢٠) فيما يتعلق بهذه النقطة لدينا شاهد هام من ابن حيان في ذلك الجزء من المقتبس الذي يقص فيه ما حدث خلال عهد الحكم الأول (الجزء الأول ورقة r° 112) ففي بداية القرن الحادي عشر ، وأثناء "سبوع" عبد الملك بن أبي عامر قام عدد من الناس بالحصول على عدة حدائق واقعة مكان "الربض" القديم والقريبة من بلدة Secunda وأخذوا يبنون فيها منازل لهم ، ولكن عندما صعد هشام الثاني إلى إحدى الشرفات العالية في القصر ليمتع ناظريه بالمنظر الجميل لاحظ وجود تغيير في هذه الناحية فاختلطت مشاعره بين القبول والالتزام بتلك الأوامر الموروثة عن الحكم الأول ، وتم حسم الأمر بإرسال رسالة تأنيب "لرئيسي بلاط القصر" وأمره أن يقوم فوراً بهدم تلك المباني ، ولم يكن أمام عبد الملك إلا الانصياع لأوامر العاهل .

(١٢١) فيما يتعلق بالمقابر القرطبية المختلفة أنظر "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" صـ٢٠٩ حاشية ، ومن بين أبرز تلك القرافات قبور فى قرافة الربض" مقبرة أم سلامة ، ويشير ابن الآبار فى التكملة ، رقم ١٦٢٠ أنها كانت توجد خارج باب الهدى (أى باب اليهود) ، ثم مقبرة متعة (انظر سابقًا الجزء الرابع صـ١٢١ – النص الأصلى) ومقبرة معمرة (نفس المصدر صـ١٧١ – النص) كما أن المروانيين أو أهل قريش كانت لهم مقابر قاصرة عليهم تجاور مقابر الربض ، وهناك مقبرة يطلق عليها مقبرة عامر- خارج باب عامر (انظر سابقًا صـ٢٣٧ حاشية رقم ٩١ من هذا الفصل) وقد ذكرها ابن الآبار فى الحلة صـ٥٢ ، وكذلك المؤلف نفسه (التكملة طبعة Miscelanea – رقم ٢٠٢٩ صـ٥٦١ حيث يشير إلى مقبرة أخرى يطلق عليها مقبرة السقاية تقع بالقرب من منازل بنى حابل ، خارج بوابة عباس وخارج السور الشرقى للجانب الشرقى Ajarqui .

(١٢٢) خبر غير مسبوق ورد فى الجزء المكتشف حديثًا من المقتبس لابن حيان الجزء الأول ورقة "192 .

(١٢٣) انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٣٣٥ (النص) ، شبه جزيرة أيبيريا ، صـ٢٢٦

(١٢٤) انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٣٥١ (النص) .

(١٢٥) هناك منية أخرى منية كنتيش ، فقد تم تشجيرها بأشجار الفاكهة وتزيينها بسرايا خصصت للأمير محمد الأول ، وهذا ما أورده ابن حيان فى الجزء الذى تم اكتشافه حديثًا من المقتبس الجزء الأول ورقة رقم "٢٤٦ ، كما أن موقع هذه المنية الكائنة غرب قرطبة وعلى ضفاف نهر الوادى الكبير ليس له علاقة باسم كنتيش – رغم التشابه فى الأسماء – وهى معركة وقعت عام ١٠٠٩م (٤٠٠هـ) بين القرطبيين والبربر التابعين لسليمان المستعين (انظر سابقًا – الجزء الرابع صـ٤٦٦ حاشية رقم ١٥ – النص) وكان مكان المعركة فى شمال شرق المدينة ، بالقرب من Alcolea ومن المفترض أن منية الأمير كانت فى Campina فى الطريق الموصل بين أشبيلية وقادش عند العلامة الحجرية "الخامسة" ابتداء من قرطبة إذن فكثيش فى هذه الحالة وكذلك فى دائرة Alcolea ليست إلا نقلاً للاسم الرومانى Quintos – وتشير المخطوطة المستخدمة فى الطبعة الجديدة ، تحت إشراف G.S. Colin وليفى بروفنسال ، لكتاب البيان لابن عذارى (الجزء الثانى صـ٢٩٩) إلى أسماء ثلاثة مقار إقامة أنشأها المنصور بن أبى عامر لنفسه : رحبة الواديين (وربما كانت بذلك فى المكان الذى يصب فيه جدول Fuensanto فى نهر الوادى الكبير) وأروطانيا (ومما لا شك فيه أن المسمى الرومانثى Huertanilla) وأخيراً نجد منية سرور ، وعلينا أن نضيف إلى أنه ورد فى البيان – الجزء الثالث صـ٩١ هناك منية العقاب فقد كانت بمثابة مقر إقامة الرجال المسلحين الذين تركهم سانشو جرثيا فى قرطبة (انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٤٦٧–النص) ، وفى الجزء الثالث صـ٤٢ هناك منية جعفر (أى جعفر السلافى) مقر إقامة هشام الثانى .

(١٢٦) كان يوجد فى أغلب المدن الإسلامية حى قاصر على مرضى البرص (ربض المرض) يقع خارج الأسوار . ولا تتوافر لدينا معلومات عن هذا الحى فى قرطبة وخاصة بعد القرن العاشر ، لكنه مذكور ومحدد فى الرواية اللاتينية لـ Calendario de Cordoba صـ٧١ عند الحديث عن عيد سان كريستوبل (العاشر من يوليو) :

Et festum eius (Christofori) est in orto mirabili, qui in alia parte cordube, ultra flunium ubi sunt infirmi. Notesede paso la inhabilidad del adaptador del Calendario al traducir Mun-yat Achab y la palabra marda- Vease tambien CASTÈJON, Córdoba califal, pág. 39.

(١٢٧) انظر سابقًا الجزء الرابع صـ٣٢٣ (النص) وفيما يتعلق بجلب المياه ومجارى العيون والنظر إلى الأمر كما هو الحال في عهد عبد الرحمن الثاني انظر Costejon في قرطبة الخلاصة صـ٦٢-٦٦

(١٢٨) نشير هنا إلى أنه بالإضافة إلى الأسماء الرومانثية المذكورة شابولار ، قونة راسوا وباريالاتا Barba lata و Rabarales أسماء ثلاثة منخفضات أخرى داخل التجمع السكاني كانت جافة في معظم أوقات العام لكنها كانت تتحول إلى برك أثناء فصل الشتاء (غدير) : هناك غدير ثعلبة ، وغدير ابن الشماس ، وغدير أبي القايد وقد ذكرت جميعها في التكملة لابن الأبار الجزء الأول ، كما أن الثاني يتضمن ذلك من خلال ما نقله ابن حزم في طوق الحمامة صـ١١١ (انظر ليفي بروفنسال "حول طوق الحمامة" ، مجلة الأندلس ، العدد الخامس عشر ١٩٥٠م - صـ٢٥٦ حاشية رقم ٣) وبين بوابة عامر وبوابة اليهود كان يوجد حي الزجاجية (انظر سابقًا صـ١٠٩ حاشية رقم ٤٧) خارج السور ، وهناك أيضًا الحديقة العامة المسماة حائر الزجالي (انظر سابقًا صـ٢٠٠ - النص) .

(١٢٩) يمكن أن نضيف إلى القائمة الواردة في "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر صـ٢٠٩ حاشية رقم ٢ (حوالي ٤٥ مسجدًا مذكورة) خمسة عشر اسمًا آخر من المساجد الصغيرة ، وهي مساجد الأحياء وقد ذكر ذلك ابن حيان وابن سهل وكتاب السير مثل ابن الأبار وابن الزبير ، ومع هذا فالقائمة غير مكتملة بالمرة .

(١٣٠) نذكر من بينها رحبة أبان ، ورحبة خولان ، ورحبة ابن درهمين ، وسويقات تسمى سويقة الكميس ، (انظر سابقا صـ١٢١ - حاشية رقم ٩٦ وسويقة ابن نصير وسويقة ابن أبي سفيان) .

(١٣١) وعندما ندع النقوش الكتابية في المسجد الجامع فإننا لا نكاد نجد في قرطبة أية نصوص تذكارية لمؤسسات ذات نفع عام : هناك شبكة من القنوات بناها عبد الرحمن الثالث في عام ٩٤٠م (٣٢٩هـ) ، وهناك ما قام به أحد الأفراد من بناء مئذنة أحد مساجد الأحياء عام ٩٦٩م (٣٥٨هـ) ، وما قامت به والدة الأمير المغيرة من بناء مئذنة وساباط في أحد مساجد الأحياء خلال عصر الحكم الثاني ، انظر ليفي بروفنسال النقوش الكتابية العربية في إسبانيا . أرقام ٥ ، ١٥ ، ١٨ .

(١٣٢) انظر - سابقًا - الجزء الرابع صـ٢٦٢ حاشية رقم ٣ (النص) ودوزي تاريخ مسلمي إسبانيا - الجزء الثاني صـ١٧٤ ، وفيما يتعلق Hroswitha (أو على الأصح Hrotswit) انظر Halphen "البربر" صـ٣٦٧

(١٣٣) ويمكن أن نذكر بعض الأبحاث التي نشرت بعد كل من المختصر Manuel في الفن الإسلامي ، لمارسي صـ٢١٢ - ٢٣٨ ، والفن الإسباني - المغرب الـH تيراسي - الكتاب الثاني (قائمة المراجع صـ٤٧٨) هناك أبحاث لـ K.A.C كريزويل Early Musbin Architecture, Tomo II, Oxford, 1940 pag 138-161 (فيما يتعلق بالمسجد الأول الذي أنشأه عبد الرحمن الأول) ، ويذكر مانويل جومت مورينو في "الفن العربي الأسباني حتى عصر الموحدين وفن المستعربين "سلسلة "Arshispanise" ضمن "التاريخ العالمي للفن الإسباني - الجزء الثالث - مدريد ١٩٥١ م ، وكذلك الدراسة الرائعة التي قام بها تورس بالباس بعنوان "مسجد قرطبة وأطلاق مدينة الزهراء" سلسلة "los monumentos cardinales de Espana" (الآثار الكبرى في إسبانيا) الجزء الثالث عشر مدريد ١٩٥٢م ، وفيما يتعلق بالكتابة انظر ليفي بروفنسال النقوش الكتابية العربية في إسبانيا ، أرقام ١ ، ٩ - ١٤ انظر أيضًا المال الهام الذي أعده لاميرت ورؤية تورس بالباس Bibliography of Spanish Muslim Art 1939-1946 en ars Islamica vol xv. Xvi 1951 pags 1659 sigs ومن نفس المصدر "بيانات جديدة عن مسجد قرطبة المسح ، مجلة الأندلس العدد الرابع عشر ١٩٤٩ صـ٤٥٥-٤٥٧ - ويجدر بنا في نهاية الأمر أن نحيل القارئ إلى بعض التفاصيل وردت

عن ليفي بروفنسال "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" صـ٢١٠-٢٢١ ، وفيما يتعلق بتاريخ المسجد منذ الاسترداد انظر Castejón "دليل قرطبة" صـ٣٨-٤٢ ، ٦٢-٧٣ وهناك ترجمة لوصف الإدريسي يرافقها تعليق أثاري وقد تولى نشرها A. Dessus- Lamare وصف مسجد قرطبة - الجزائر ١٩٤٩م .

(١٣٤) انظر في المقام الأول توريس بالباس "مسجد قرطبة صـ١٠٠-١٠٦

(١٣٥) ابن حيان - المقتبس "الجزء الأول ، ورقة رقم "127" ، وابن الفرضي في تاريخ ، رقم ٦٠٨ ، وابن سهل "الأحكام الكبرى ، ورقة رقم "203" مخطوطة الرباط .

(١٣٦) خاصة المقري في نفح الطيب الجزء الأول صـ٣٦٨ - انظر أيضًا م. أوكانيا خيمنث "بانليكا سان بيثنتي والمسجد الجامع في قرطبة "مجلة الأندلس ، العدد السابع ١٩٤٢ صـ٣٤٧ - ٣٦٦

(١٣٧) انظر - سابقًا - الجزء الرابع صـ١٦٨ - ١٦٩

(١٣٨) انظر ما صدر مؤخرًا لتورس بالباس "مسجد قرطبة" صـ٣٦

(١٣٩) والجزء المكتشف حديثًا من المقتبس لابن حيان - الجزء الأول ورقة رقم "242" - "243" يضيف إلى الأعمال التي جرت بشأن مسجد قرطبة ، مسجد قرطبة ، خلال عهد محمد الأول ، بعض الأخبار غير المسبوقة ، وأول هذه الأخبار هو أن الأمير أمر بالانتهاء من أعمال التوسعة التي أمر بها والده وبعد ذلك قام بتدعيم وإصلاح الجزء الذي بناه عبد الرحمن الأول ابتداء من الحائط الكائن في عمق الصحن وحتى الإكتاف الضخمة (الأرجل) المبنية من كتل الحجارة والتي كانت تحدد مكان الحائط القديم للقبلة .

(١٤٠) انظر - سابقًا - الجزء الرابع صـ ١٨٥-١٨٦ - وبالإضافة إلى أعمال الترميم التي تمت بناء على أوامر الأمير محمد الأول في المسجدين الجامعيين في كل من البيرة ومالقة نجد أن ابن حيان يشير إلى التجديدات التي أدخلت ، خلال عهد ذلك الأمير ، على كل من مسجد استجة Ecija ومدينة صيدونيا .

(١٤١) انظر - سابقًا - الجزء الرابع (النص) صـ٢١٢-٢١٣

(١٤٢) في عام ١٥٩٣م كانت المئذنة الأموية للمسجد مهددة بالسقوط وعندئذ قرر مجلس الكاتدرائية أن يتم ضمها إلى برج الأجراس وانتهى العمل من البرج الحالي عام ١٦٦٤م ، وقد ساعد على هذه الأعمال التي جرت مؤخرًا بالفصل بين المبنيين والتي أشرف عليها المهندس فيلكس إيرناتريث ، وقد تم العثور على ترس عليه نقش بالحفر في البوابة المسماة بوابة سانت كاتالينا (١٥٥٧-١٥٧٢) وكذلك نقاش لمئذنة الناصر - انظر على الأخص ما نويل جومث مورينو - العمل المشار إليه سابقًا صـ٧٧ ، ٨٠ كذلك توريس بالباس ، المصدر المشار إليه صـ٩٦ - ١٠٠

(١٤٣) البيان - الطبعة الجديدة صـ٢٢٨ وقد قام إميليوجارثيا جومث بترجمة تلك الفقرة "وصف غير معروف لمئذنة مسجد قرطبة "مجلة الأندلس العدد السابع عشر ، ١٩٥٢م - صـ٣٩٩-٤٠٠

(١٤٤) فيما يتعلق بالوثائق المكتوبة - والتاريخية حول التوسعة التي جرت في عهد الحكم الثاني انظر "إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر" صـ٢١٤ - ٢١٨ والحواشي .

(١٤٥) انظر "شبه جزيرة إيبيريا" صـ١٨٣-١٨٧ . E. لامبرت ، نفس المصدر الملحق الثاني صـ٢٥٣-٢٥٤- كما كان الجمع الدقيق الذي قام به عاملاً حاسمًا في البرهنة على أن البوابتين اللتين تحيطا بالمحراب لم تكونا إلا محرابين ثانويين في الأصل ؛ وهذا يفسر وجود قباب في البلاطات السابقة عليها .

الفصل السابع

المحيط الاجتماعي (١)

عناوين الفصل السابع :

١ - الأسرة والحياة الأسرية :

المحيط الأسرى - الزواج ، الميلاد ، الوفاة - التعليم الابتدائى .

٢ - إطار الحياة الأسرية :

البيت - الأثاث - الغذاء .

٣ - الملبس ، العناية بالجسد ، الزينة :

ملابس الطبقات الشعبية - ملابس الترف - صحة الجسد - الحمّام - النواق والحُلىّ - الصحة العامة .

٤ - حياة المتعة والأخلاق العامة :

الاحتفال بالأعياد الدينية والفلكية - احتفاليات الشارع - الصيد والألعاب - حرية العادات - الموسيقى والرقص .

١ - الأسـرة والحياة الأسـرية

المحيط الأسـرى : El ambito familiar

هل من الضرورى أن ننبه القارئ ، ونحن نستفتح هذا الفصل ، إلى أنه سيكون مخطئًا إذا ما افترض أنه فى القرن العشرين - كما كانت فترة الإمارة أو تلك التى تلت سقوط الخلافة حتى نهاية حركة الاسترداد المسيحية - عاش المواطنون حياة خاصة فى إسبانيا الإسلامية تختلف ، باستثناء تفاصيل بسيطة ، عن تلك التى كان يحياها معاصروهم من أبناء الشمال الأفريقى وشرق المتوسط ؟ إن طابع البلد باعتباره شبه جزيرة ، وهيئته الأوروبية ، والتباين النمطى لسكانه ، كل ذلك تمكن بالكاد ، على مر العصور ، فقط من أن يصبغه فى مظاهر معينة من الحياة الخاصة ، طابع "إقليمى" أو ، بخصوصية أكبر ، بطابع "أندلسى" ، ولكن بمقدورنا أن نؤكد على أنه ، عامة ورغم هذه "الإقليمية" التى من الصعب إدراكها ، لم تكن هناك محاولات من قبل سكان مدن شبه الجزيرة للتملص من احترامهم فى غيرة للقواعد التى عرف الإسلام منذ بداياته كيف يفرضها على أتباعه ، حتى ينظم سلوكهم اليومى فى محيط الأسرة أو المجتمع ، ويقنن بطريقة منسقة معظم ردود أفعال الفرد أمام الظروف ، الدائمة منها والعرضية ، التى تلف تطور حياته الخاصة وحياة أقاربه .

وعليه ، فلا نعتزم أن نرسم فى الصفحات التالية صورة كاملة للحياة اليومية للمسلمين الأسبان ، سواء أكان هؤلاء من الأرستقراطية المنتمين إلى طبقة الخاصة ، أو من أفراد البروليتاريا المنتمين إلى طبقة العامة داخل المدن ، وهذا راجع إلى أسباب كثيرة حيث إن الأدباء العرب الغربيين لم يسمحوا لنا - إلا مرات نادرة - بالدخول ، وهو الأمر الذى كان يتم بطريقة متحفظة للغاية ، إلى عالم الخصوصية المنزلية لبعض الشخصيات التى كانت محطًا للحديث عن حياتها الخاصة من جانب هؤلاء ، نكرر - بالإضافة إلى ذلك - أن هذه التدخلات النادرة فى حقل جرت العادة على أن يكون محظورًا أكثر من غيره ، تمثل دعمًا لما نذهب إليه من أن الأندلسيين - من علية القوم ، والبرجوازيين أو من أصحاب الدرجات المتواضعة - بمجرد أن كانوا يختلفون إلى عتبة بيوتهم ما كانوا يعيشون حياة منزلية تختلف فى نوعها عن تلك التى كانت يحياها مواطنو أفريقيا ، وسوريا أو مواطنو العراق ، وكذلك فإن هذا النوع من الحياة ، الذى

كانت تحكمه الشريعة الإسلامية في صرامة معهودة ، والذى ظل بمنأى عن أى تعديل من قبل الجوار المسيحى الذى استوطن إسبانيا ، لم يتأخر كثيراً في ترك بصماته بطريقة محسوسة على إسبانيا المسيحية ، ونظراً لأخذهم عن الحضارة الإسبانية الأموية مفهوم الحقوق السلطوية لرب الأسرة ، ومفهوم سر البيوت المحكمة السدّ ، فإن مجتمع مواطنة ليون Leon وقشتالة Castilla في العصر الوسيط قد واجه أعظم قدر من التأثير من قبل جارته الإسلامية ، والتى في نفس الوقت ، نقلت إليه القاعدة السلوك القديم ، وعلّمته كيف يرتقى بزينته ، وملبسه وأثاثه (٢) .

مثلما كان الوضع في الشرق وفي أفريقيا الإسلامية ، كان البيت الذى يضم بين جنباته أسرة ما يشكل في العصور الوسطى عالمًا منغلقًا إلى الداخل ، أى يوصد أبوابه ومنافذه المطلة على خارجه ، ولكن داخل هذا البيت ، منذ الصباح وحتى الليل ، هناك من يكد ويتعب من نساء وأطفال وأناس ذوى وضع متحرر أو وضيع ، وكان رب هذا البيت يمارس على كل من بداخله سلطة لا حدود لها ، كان رب الأسرة - أيًا كان وضعه الاجتماعى - بمثابة السيد المطلق في بيته ، وزوجته ، التى كانت بمثابة خادمته المتواضعة ، لم تكن تخاطبه إلا بما فيه احترام له ، وخاصة أمام الأبناء ، وهؤلاء - من جانبهم - كانوا يقرّون لأبيهم بالتبجيل الأعظم ، فما كانوا يمكثون إلى جواره إلا بإذنه ، وكانوا يلتزمون الصمت في حضرته ، وإذا ما كان صاحب البيت يأوى معه أمه العجوز ، فقد كانت هذه تنحى الزوجة جانبًا ودائمًا ما كانت تقوم بنفسها بأعمال المنزل والمطبخ ، نادراً ما كان أهالى الأندلس يلجأون - سواء أكانوا من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة - إلى الزواج بأكثر من امرأة ، فغالبًا ما كان من الضرورى أن يكون المرء غنيًا حتى يسمح لنفسه بترف الزواج من امرأتين أو أكثر ، بالإضافة إلى المصروفات الإضافية التى تجب عليه من أجل إعاشتهن وكسوتهن ، ولكن كان يحدث في بعض الأحيان أن يقوم رب البيت ، حين يرى المال بين لديه ، ولم تعد زوجته تمثل أية جاذبية بالنسبة له ، بشراء أمة ، بيضاء أو سوداء ، والتى - بالإضافة إلى قيامها ببعض الأعمال المنزلية واندماجها كلية في المناخ العائلى - كانت تقتسم الفراش معه في بعض الأحيان ، وبهذا يمكن لها أن تنجب له الأولاد ، الأمر الذى يسمح لها بأن تصبح أم ولد وتنال حريتها ذات يوم ، كانت النساء والشباب والشابات يعيشون حياة

الاختلاط ، ومنذ سنوات عمرهم الأولى ، كان الأبناء يعلمون تماماً حقيقة أمر العلاقات الزوجية ، وإذا ما بلغوا الحُلم لم يكونوا في حاجة إلى أدنى إرشاد فيما يتعلق بقضايا الجنس (٣) .

كان كل من في البيت يتنفسون الصعداء حين يخرج رب الأسرة في الصباح للوفاء بالتزاماته اليومية ، بعد أن يشترى حاجيات البيت ، إما بنفسه يحضرها إلى المنزل أو يرسلها مع أحد الحمّالين ، وفي بعض البيوت المترفة كان يتم التعاقد مع خادمة تقوم بكل شيء ، وقد وصل إلى أيدينا نموذج أندلسى لهذا النوع من التعاقد (الاستئجار) (٤) ، ونرى فيه تحديداً وتوضيحاً لكل نوع من الأعمال المختلفة التى كانت تقوم بها خادمة البيت : فهى مكلفة بعجن الخبز ، وطهى الطعام ، والكنس ، وترتيب الأسِرَّة ، وإحضار الماء من خارج البيت ، وغسل الملابس ، وغزل ونسج الصوف ، كانت تتقاضى مرتبها سنوياً إلى طعامها وسكنتها وملبسها .

كان البيت الذى تقطنه الأرستقراطية الإسبانية - المسلمة (مثلما كان يحدث فى مختلف البقاع المسلمة الأخرى ، وعتاده يقعان على كاهل رب هذا البيت ، حيث ينفق عليه من ماله الخاص) يضم العديد من النساء ، وسحابة من الإماء البيضاوات والسوداوات ، هذا إلى جانب الخدم من الطواشى الذين يعملون تحت إمرة كبيرهم (القهرمان) (٥) يقتسمون الحجرات الرئيسية والمحلات الأخرى من البيت الفسيح ، الذى كانت ترتفع فيه - أثناء غياب صاحبه - الأصوات بالضجيج والجلبة الناجمة عن المنازعات أو عن الألعاب التى يلهو بها الأطفال ، ولكن ما يكاد يطل رب الأسرة على المنزل ، حتى يحل عليه الهدوء والسكينة ، اللهم إلا من تلك الخطوات الصامتة الناجمة عن سير الخادمات ، وأصوات نافورات المياه ، وهديل التراغل ، فى هذا الوقت تحين ساعة الراحة ، والخلود إلى النوم والمتعة .

إنه عبارة عن ستر متواضع - منزل برجوازى ، أو استراحة أرستقراطية - وكان ذلك الجمع الأسرى الذى يقطن بداخله وأصبح رهين محبسه ، باستثناء المرات النادرة التى خرج فيها إلى الشارع ، يكون ما تعارف عليه المجتمع باسم الحريم ، كانت كل الزيارات - باستثناء زيارات النساء - ممنوعة على الإطلاق ، وحينما كان صاحب البيت يستقبل أصدقاءه ، كان يستقبلهم فى صالة تؤدى مباشرة إلى دهليز المدخل ،

أو حتى إلى الشارع ، متجنبًا بذلك أية نظرة طائشة [٦] ، وهو الذى أدى - كما فى الشرق الإسلامى - إلى القيام بعمل توزيع خاص لأجزاء البيت المختلفة .

داخل تلك الغرف المحكمة السد ، كانت الحياة تسير فى إيقاع رتيب ، وأما الأخبار الخارجية فما كانت تصل إلى داخل البيت قط إلا وقد أكل عليها الدهر وشرب وأصابها كثير من التشويه ، رغم أن الأولاد الصغار كانوا يتحسسونها بالمدينة ويذيعونها ، إلى جانب الأخبار الفاضحة وأشكال الحياة اليومية ، ومن خلال سطح المنزل ، كانت هناك محاولات لترقب ما يجرى فى بيت الجيران ، وفى أحيان أخرى كانت تحاك بعض الدسائس المعقدة والصبيانة على حد سواء ، ولكن مرّت الأيام ، واحداً تلو الآخر ، مفعمة بالأعمال اليومية الكامنة فى تنظيف المنزل ، والرغبة فى إرضاء رب البيت ، والممارسات الدينية ، والانشغال بممارسة بعض أعمال السحر حتى تتجنب الأسرة حسد الحاسدين ، وعمل القاسطين من الشياطين [٧] ، وما كان يطرأ على تفكير أحد ، ولا حتى الخدم ، أن يضج بالشكوى من نصيبه الذى قدر له ، وكان على الجميع أن ينتظر إطلالة ظروف معينة ، ينتظرها الجميع بفارغ الصبر ، مثل قدوم الأعياد الدينية ، أو أعياد الميلاد ، حتى تقدم المبررات لخروج الأسرة فى الهواء الطلق ، أما بقية الوقت فما كان هناك غير الزيارات الأسبوعية للمقابر ، للصلاة على مقابر الأهل والأقارب ، أو الخروج مرة أو مرتين فى المساء من كل شهر إلى الحمّام ، والتى تمثل فرصة تتاح أمام المرأة "المنتظرة الصابرة" تستغلها للهروب لساعات من إطار حياتها اليومية .

هل كانت المرأة المسلمة الأندلسية ، فى عصر الخلافة وفى العصور التى تلته ، تحظى بوضع أكثر تميزاً من وضع أخواتها فى المشرق ؟ لقد طرحت هذه القضية [٨] ، وساد اعتقاد ينتهى بتأكيد الطرح السابق ، وذلك عن طريق تحميل بعض النصوص الشعرية التى - بطبيعتها - لا يمكن أن تعكس سوى صورة جد بعيدة عن الواقع ، معانى لا تحتملها ، وإذا ما صدقنا بعض المؤشرات العابرة ، فلربما أن المرأة الأندلسية كانت تتمتع بحرية الحركة بصورة نسبية ، على الأقل فى الطبقة المتوسطة ، ولكن ، هل كان زوجها يعاملها بصورة أفضل وكانت حقًا هى ملكة بيتها ؟ لا أحد يتجرأ على أن يدفع بهذا [٩] ، وليس هناك من شك فى أنها كانت محميّة من قبل

القانون ضد سوء المعاملة من جانب الزوج ، وأنها ، فى حالة الطلاق ، كانت تضمن الحصول على النفقة ، ولكن مثل هذه الضمانات كانت قاسمًا مشتركًا فى كل العالم الإسلامى ، وإذا ما تحسن ، فيما بعد ، وضع المرأة الأندلسية فى المدن بعض الشىء ، فقد كان ذلك راجعًا ، فى المقام الأول ، إلى الاختفاء التدريجى لظاهرة تعدد الزوجات ، وربما أيضًا إلى تأثير البلاطات البربرية فى القرن الحادى عشر وبعد ذلك إلى بلاط المرابطين ، والذين بينهم ، ربما بسبب الوجود المظلم لنظام يعنى بالأمومة ، احتلت المرأة دائمًا مكانة رفيعة ، فى المناخ الأسرى والتنظيم الاجتماعى على حد سواء .

الزواج والمواليد والوفيات : El matrimonio, nacimiento ymuerte

إن أبرز الأحداث الخاصة بالحياة الأسرية – الزواج والمواليد والوفيات – كانت تأتى مصحوبة فى الأراضى الأندلسية بنفس الممارسات ، الشعرية أو الخرافية ، التى كانت سائدة فى بقية العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، ولكن بما أنه لا يوجد بين أيدينا أى مصدر إخبارى ذى طابع وصفى أو يتميز بالواقعية بعض الشىء عن هذه الممارسات ، تاركين جانبًا بعض أحكام المذهب المالكى ، فلن يكون إسهامنا فى هذا المجال كبيرًا .

كانت الاحتفالات السابقة والمصاحبة والتالية للزواج بنفس الطريقة التى يحتفل بها الآن فى المغرب ، حيث تمت دراستها بشىء من التفصيل [١٠] ، تقام فى إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ، كان الإعداد والقيام بهذه الاحتفالات يصيب بيت المتزوجة بحالة من القلق والجلبة ويتسبب فى زيادة الإنفاق بدرجة كبيرة ، وهى أمور هب الفقهاء يواجهونها فى كل عصر ، وقد كان طلب الزيجة يخضع دائمًا لبروتوكول موحد ، أيًا كانت الطبقة الاجتماعية لزوجى المستقبل : الحديث فى أمر المهر الذى يجب أن يدفعه الخاطب ، إعداد جهاز العروس ، تحديد تاريخ حفل الزواج فى يوم من الأيام السعيدة ، والذى يقدم بتحديده منجم محترف عن طريق قراءة الطالع ، وحين يأتى الموعد المتفق عليه ، كانت الاحتفالات تقوم على مدى أسبوع كامل ، بداية فى بيت العروس ، التى كانت – بعد أن تزينت كأيقونة – تتلقى غير متأثرة تهانى النسوة من العلاقات المقرّبة أو الصديقة واللاتى أتين للحديث عن سيرة الغير يحملن معهن أصناف الحلوى ، بعد ذلك ، كانت العروس تزف إلى بيت زوجها وسط موكب مهيب

وأنغام الموسيقى ، تتبعها مجموعة من البغال تحمل فوق ظهورها صناديق مترعة بجهاز العروس ، "أذكر – يقول مؤرخ أديب من القرن الحادى عشر [١١] – أننى رأيت موكب عُرس يمر فى شوارع قرطبة – يظهر بينها ، جالسًا فى كرسيه الناقورى ، صانع المزمار ، يضع فوق رأسه قلنسوة ، يرتدى جلبابًا من الحرير (Ubaidi) ، ويمتطى جوادًا عليه أطقم ظهرت فى أبهى حلة ، بينما كان يمسك بلجامه خادمة" ، وكما يمكن توقع الأمر ، فقد كان الاحتفال عرضًا عظيمًا بالنسبة للمارة الذين يبغون شغل أوقات فراغهم والذين لم تكن تخلو قرطبة منهم .

كانت المواليد أمرًا متواترًا ، وخاصة فى بيوت الأثرياء ، حيث كان العديد من الزوجات والحظيات (الجوارى) يقتسمن وصال رب الأسرة ، ولكن مثل هذا الحديث كان يمر ، بعيدًا عن الأقارب والأصدقاء المقربين ، وكأن شيئًا لم يكن فى العادة ، كانت عمليات الوضع تتم على يد القابلة ، وفى الحالات الحرجة كان لابد من الاستعانة بالنسوة الطبيبات ، المتخصصات فى علم النساء والتوليد واللاتى كن يتقاضين أجورًا باهظة نظير ذلك [١٢] – وأما المولود ، بصرف النظر عن جنسه – فكان دائمًا محط ترحيب ، ولكن ميلاد الطفل الذكر كان يعد دافعًا لاحتفالات أكبر فى محيط العائلة ، وقد جرت العادة على أن تحضر مرضعة إلى بيت والد المولود لترضعه ، ولكن فى بعض الأحيان كانت الأسرة تعهد به حتى فصاله إلى قروية ، كانت تحمله معها إلى مجتمع الريف ، وتبين الصيغ العديدة الأندلسية للعقود من هذا النوع أو ذاك ، التى وصلت إلينا [١٣] ، بأن والد الرضيع كان يبدى استعداده لدفع راتب شهرى وكسوة المرضعة ، والتى لم تكن تتكفل فقط برضاعة الصغيرة ، وإنما كانت تقوم إلى جانب ذلك ، بغسل أقمطته وتحميمه من آن لآخر بصفة دورية .

وفى اليوم السابع من ميلاد الطفل تتم تسميته وقص شعر رأسه لأول مرة (العقيقة) ، وقد جرت العادة على أن يطلق الأهل اسم الجد لأب على الطفل الذكر ، بالإضافة إلى الكنية الملائمة : على سبيل المثال ، فالاسم أحمد ، كان يطلق مصحوبًا بكنية "أبو العباس" ، أو على ، مع كنية خاصة وهى "أبو الحسن" ، وقد كانت هذه الكنية تطغى فى الاستعمال الأسرى على اسم الطفل نفسه ، والذى – بدوره – كان يستخدم فى صورة التصغير ، كدليل على الحنان والعاطفة [١٤] ، وبالنسبة للإناث ،

فبنفس الطريقة ، إذا ما أطلق عليهن اسم يرجع إلى مجموعة الأعلام النسائية في عهود الإسلام الأولى ، فقد كن يُسمين دائمًا بكنية مناسبة (على سبيل المثال ، أم كلثوم ، أم الحكم) [١٥] ، ولكن يبدو أنه في أوائل القرن العاشر - بلا شك - على غرار ما كان يصنع في بغداد ، كانت الأسماء الوصفية ، والتي كانت حتى ذلك الوقت مقصورة على الإماء ، قد أصبحت تستعار لتطلق على الفتيات اللاتي يولدن أحراراً : على سبيل المثال ، شمس أو شمسي ، وكل أسماء الزهور (هناك ثلاث من بنات المنصور أطلق عليهن بهار ، نرجس ، بنفسج) ، مصابيح ، نجيمة [١٦] ، وكذلك الاسم الإسباني دونا Duena = Duna ، الذي يعني المالكة [١٧] .

كانت عمليات الختان للأطفال ، والتي كانت عادة ما تجرى عند بلوغهم سن السابعة ، محلاً وهدفًا لاجتماع أسرى ، وكان الأب يدعو أصدقاءه إلى وليمة للاحتفال بمثل هذا الحدث السعيد ، ووفقًا لعادة مكتسبة من الشرق ، فقد كان من حسن الذوق ، الذي يُعد في نفس الوقت من أعمال البر، داخل إطار الارستقراطية الأندلسية ، أن يجمع عدد من الفتية من نفس السن ونفس المستوى الاجتماعي أو أدنى لكي تجرى لهم عمليات الختان بدورهم جنبًا إلى جنب مع ابن صاحب النسب والجاه ، والذي كان يقع على عاتقه دفع كل المصروفات وتقديم وليمة مهيبة بهذه المناسبة [١٨] ، في القرن الحادي عشر ، قام الملك المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة بتنظيم عدة حفلات بهذه المناسبة ، وفي قصره ، ظلت ذكراها الجميلة مستمرة لزمن طويل في إسبانيا [١٩] .

كانت البساطة وعدم الأبهة - على العكس - تمثل القاعدة التي سار عليها أهل الأندلس ، مثلما كانت أيضًا بالنسبة لمسلمي الدول الأخرى ، وذلك في الوقت الذي كانوا يحملون فيه موتاهم إلى مثواهم الأخير ، لم تكن الشعائر الجنائزية ، والصلاة على الميت ، وغسل الجثمان ، الذي كانوا يلبسونه ملابس جنائزية ويلفونه في كفن ، والدفن ، تختلف في شيء عما كان يفعله الآخرون من أتباع المذهب المالكي في المغرب أو افريقيا [٢٠] ، كان الدفن يتم في المقبرة الأقرب إلى بيت المتوفى ، وطبقًا لما تذكره قواميس السير الذاتية ، فقد كان بعض الأشخاص يقومون في حياتهم بنحت مخطوط على حجر تغطى به قبورهم ، والذي لم يكن يظهر سوى تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، مسبوقين بآيات قرآنية تتحدث عن الموت ، وأحيانًا تذكر معها دعوة لمن يقرأ شاهد

القبر المكتوب ليدعو الله أن يرحم المتوفى [٢١] ، كانت شواهد القبور في إسبانيا عبارة عن بلاطات مستطيلة الشكل ، أو نجمية موشورية (مقابرية) ، أو صُوى أسطوانية (كانت هذه الأشكال الأخيرة هي المستخدمة - خاصة - في طليطلة) [٢٢] ، وفوق القبر كان بالإمكان رفع شاهد تتوجّه قبة (تُربة) ، داخل حديقة مسورة [٢٣] .

التعليم الإبتدائي : La instruccion elemental

باستثناء الحالة التي تنتمي فيها الأسرة إلى طبقة اجتماعية وضيعة ، وتحيا حياة بائسة ، فقد كان رب الأسرة التي تقطن المدينة يُصر على أن يتلقى أبناؤه ، ذكوراً أم إناثًا ، منذ طفولتهم الغضة نوعًا من التعليم الابتدائي [٢٤] ، وإذا كان رب الأسرة يتمتع بثروة هائلة ، كان يدعو معلمًا ومؤدبًا يأتي إلى منزله ، وإذا لم تتوفر له هذه الثروة ، كان يرسل ابنه إلى المدرسة (المكتب) القريبة من بيته ، كانت تلك المدارس ، البدائية جدًا ، تخضع فقط للرقابة النظرية من قبل محتسب المدينة ، أما المدرس (المؤدب أو المعلم) فقد كان يجمع في حانوت صغير أو المصرية ، التي كانت تتصل بالشارع مباشرة ، عدداً قليلاً من التلاميذ ، الذي كان يعلمهم - مقابل راتب - القرآن ، هذا بالإضافة إلى بدايات القواعد العربية ، وأما برنامج التعليم والتقدم في الدراسة فقد أتت كلها محدودة من قبل الأعراف المعمول بها ، وكان المعلم يلزم نفسه باحترامها .

وقد جرت العادة على أن يقوم رب الأسرة بدفع راتب المؤدب الذي يفد إلى البيت سنويًا ، ولكن مثل هذا الأمر كان يدعو أحيانًا إلى تحرير عقد في صورة جيدة [٢٥] ، والذي كان يتضمن شرطًا ، بالإضافة لدفع أجر شهري مادي ، يلزم بدفع كمية من الدقيق وزيت الزيتون ، كانت العادة السائدة تلزم رب الأسرة بتقديم مكافأة للمعلم في الدراسة في كل من العيدين الرئيسيين للمسلمين ، ومكافأة أخرى أكثر أهمية ، حين يتمكن الطفل من ختم القران الكريم وحفظه عن ظهر قلب ، وأما بعض الأسر الثرية فقد كان تتفق مع إحدى المعلمات [٢٦] في مثل هذه الأحوال .

بالنسبة لما يتعلق بالأدوات المدرسية فقد كانت هي نفسها التي تستخدم حتى الآن في مدارس تحفيظ القرآن بالمغرب : الألواح الخشبية ، وأقلام الغاب وحبر الصوف المحروق ، كان التلاميذ يمضون وقتًا طويلاً في مرات عديدة دون أن يكون المعلم بجوارهم ، والذين كانت تشغله عنهم اهتمامات كثيرة أخرى ، في بدايات القرن

الثاني عشر ، قام ابن عبدون بإبداء بعض الملاحظات حول هذا الموضوع مفعمة بالاستياء [٢٧] ، ومن خلال الشارع مثلما يحدث - على سبيل المثال - حتى الآن في مدينة فاس ، يمكن الاستماع إلى الترنيمة الغنّاء الرتيبة ، والتي تتكرر آلاف المرات ، للنص القرآني الذي على الطفل أن يحفظه في ذاكرته ، وذلك إذا لم يكن راغبًا في أن يكون هدفًا لعقاب جسدي يقع عليه أمام رفقائه ، وشيئا فشيئًا ، يبدأ الطفل في تعلم قواعد النحو والصرف ، مستخدمًا متونا أولية ، وحين يصل الطفل إلى فترة المراهقة ، فإما أن يلتحق كصبي لتعلم حرفة ما في إحدى الورش ، وإما أن ينتقل إلى مرحلة أعلى في حياته التعليمية ويظل يتابع حضوره لدروس كبار المعلمين المشهورين في الجامع الكبير ، حيث يتعلم الفقه المالكي والأدب [٢٨] .

وفيما يتصل بالتعليم في إسبانيا الإسلامية ، فقد ذُكرت أحيانًا بعض الملاحظات التي يُدرجها ابن خلدون في مقدمته عن الطرق التربوية التي كانت - في عهد سابق لعهده - تستخدم في الغرب الإسلامي ، وطبقًا لما يذكره أكبر مؤرخي القرن الرابع عشر ، معتمداً على فقرة مناسبة وهامة لأبي بكر بن العربي ، فقد كان في الأندلس ، على الأقل منذ فترة ملوك الطوائف ، نظامًا تعليميًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي اتُّبع في المغرب والشرق الإسلامي [٢٩] ، والذي يقوم على تقديم دراسة اللغة والشعر على دراسة القرآن ، وذلك حتى يتكون لدى التلميذ زاد من العلم اللغوي يمكنه من التصدي بسهولة أكبر وثمرة موجوة لقراءة الكتاب المنزل .

من الممكن أن تكون هذه الإشارة لابن خلدون حقيقية ، رغم أنه لا يوجد بين أيدينا أية وثيقة معاصرة حول الموضوع ، وعلى كل ، فيبدو أن هذه الإشارة تأتي على النقيض بعض الشيء مع ما ذكره مؤلف شهير آخر ، ابن حزم الكبير - والذي يتناول أيضًا مسألة الطرق التربوية في عمل آخر - لم يطبع إلى الآن ، تحت عنوان : مراتب العلوم [٣٠] ، في هذا التناول يذكر ابن حزم أن دراسة القرآن كانت تأتي في المقدمة ، بعد أن يكون الطفل قد تعلم ، وهو في سن الخامسة ، القراءة والكتابة ، وأن دراسة اللغة والشعر كان يتم إرجاؤها إلى فترة لاحقة ، وهو نوع من الدراسة كان يعد مدخلاً لمرحلة من التعليم العالي الحقيقي ومقدمة لتخصص الطالب في أحد الفرعين الكبيرين بحيث يتمكن من أن يصبح إذا ما كان يتمتع بموهبة وعلم غزير ، فقهيًا أو أدبيًا لأن تذكره الأجيال بعد وفاته [٣١] .

٢ - محيط الحياة الأسرية

البيت : La casa

كان البيت الأندلسي ، في المدن المكتظة بالسكان في جنوب شبه الجزيرة ، يظهر في نفس الهيئة التي تظهر عليها بيوت بعض التجمعات المغربية اليوم ، وخاصة مدينة فاس [٣٢] ، أما خارج البيت - سوء أكان يطل على حارة صغيرة أو أخرى مقفلة - فما كان يتميز بشيء عن البيوتات المجاورة ، كان عبارة عن سور يبلغ ارتفاعه بضعة أمتار ، خال من النوافذ ، مطلي بمادة الجصّ اللامعة ، وعلى سطح الأرض ، وأحيانًا يكون في مستوى أقل ، يوجد الباب ، الذي كان مزوداً برتاج قوى (بلش) ، وقد جرت العادة على أن يصنع الباب من الخشب ، وتعلق عليه ضبّة أو مقبض كبير ، من خلال ذلك الباب يعبر الداخل إلى دهليز مظلم ، ومن خلاله يتم الوصول إلى ممر ملتو يؤدى إلى صحن البيت ، في شكل مربع أو مستطيل ، ومساحة بسيطة ، في هذا الفناء البسيط ، الذى كانت تفترش أرضه بالحجارة الصغيرة أو البلاط الحجرى ، وفي مرات نادرة بالرخام ، كان يوجد أحيانًا بئر وما كنا نعدم الظل الناجم عن عريش نصب بداخله ، وخاصة في الأوقات الحارة من أيام الصيف ، وفي هذا الصحن كانت هناك مجموعة من الصالات الطويلة تتصل به ، في مواجهة بعضها البعض ، والتى كان الهواء يدخل إليها عبر الباب الرئيسى ، المكون من مصراعين عاليين ، والواقع بين مشربيتين ، في أحد الأركان ، بين حجرات صغيرة كانت تستخدم للطهى ، وتخزين الأدوات المنزلية أو كدورة مياه ، يبدأ السُلّم الذى - عبر درجاته القائمة الانحدار - كان يؤدى إلى الدور العلوى ، وقد كان هذا الدور العلوى يحتوى على بهو يقع فوق الفناء تمامًا ، وعلى هذا النمط ، مع أهمية البيت ، كانت توجد حجرة أو حجرات متعددة ، كان هناك سُلم آخر يصعد إلى سطح المنزل ، أو إلى مجموعة من العليات معلقة أسفل السقف ، إذا ما كان البيت - كما هو الوضع في أغلب الأحوال - مغطى بوحدات من القرميد .

هذه الصورة ، التى تعد بمثابة الهيئة التى كان عليها المنزل القديم وأصبح قاسمًا مشتركًا في حوض المتوسط عامة ، لم يكد يدخل عليها شئ من التعديل في أندلسيا بعد حركة الاسترداد ، وكان لابد من الانتظار زمنًا طويلاً حتى يمكن التفكير في

الواجهات المعدة بشيء من العناية المعمارية والمزينة بالنوافذ والشرفات التي تطل مباشرة على الشارع ، وأصبحت المفردات الإسبانية التى تطلق على الأجزاء المكونة للمنزل ثابتة ومعمولاً بها ، من ناحية أخرى - دونما تغيير فى المدن الغربية - كما أنها تركت بصماتها فى اللغة الإسبانية ، فالحجرة العليا التى كانت موصولة بسلم خاص يؤدى إلى الشارع ، كان يطلق عليها فى قرطبة - كما هو اليوم فى فاس - المصرية (Masriyya) ، وأحيانًا ، كان دهليز البيت يؤدى أيضًا إلى مبنى منعزل ، كان صاحب البيت يستقبل فيه زياراته ، وفى حالة ما إذا كان ذلك الدهليز - كما هى العادة - يطل بجزء منه على الشارع ، فقد كان يطلق عليه البرانية ، كما كان البيت يحتوى فى دوره العلوى ، أعلى دور فيه للتمتع بالمناظر الجميلة ، على غرفة عالية مستقلة يطلق عليها الغرفة (gurfa) ، والتى كانت تحتوى - بدورها - فى جزء أعلاها شرفة يطلق عليها العلّية .

أما بالنسبة للمهمة التى كانت تقوم بها صالات الاستقبال والحجرات العادية الأخرى بالمنزل ، فقد كانت هى افتراشها ليلاً للنوم من قبل أفراد العائلة والخدم ، ومن أجل هذا الغرض كانت كل غرفة منها مزودة ، فى كل طرف من أطرافها ، بمساحة مرتفعة بعض الشيء ، تحدد فى سقف الحجرة بواسطة تسنيمة تدلّت منها ستارة ، تلك الأجزاء المعلّمة من الحجرات كانت تسمى القُبة أو المخدع (alcoba) والتى أتت منها الكلمة الفرنسية (alcove) .

وقد جرت العادة على أن البيت الواحد لا تسكنه أكثر من أسرة واحدة ، ولكن الوضع بالنسبة للأسرة الفقيرة كان مختلفًا ، فقد كان من الممكن أن يقتسم كل فرد وزوجته حجرة واحدة فقط داخل البيت ، وهو الأمر الذى كان يعنى على الدوام الاختلاط بين المستأجرين ، وكان يمثل مصدر نزاع دائم ومشاجرات بين الجيران .

ولكن إلى جانب هذه البيوتات البائسة والعفنة ، التى كانت مرتعًا خصبًا للاوعى الصحى والأمراض حتى تفسدها وتهلكها ، فما كانت المدن الأندلسية تعدم وجود بيوتات فسيحة ، جيدة التهوية ، بها حدائق غنّاء ، وكانت تقام فى الأحياء المكونة لضواحى المدن ، كان النظام العام لبناء وشكل الغرف مشابهًا للبيوت الأخرى ، إلا أن صحن هذه البيوتات الحديثة كان يشغل مساحة أكبر ، وكذلك فقد كان يزين برياض

من الزهور أو بمجموعة من المروج المفعمة بالحشائش الخضراء (٣٣) ، ولو أن ذلك غير كاف ، فقد كان المكان مزوداً بنافورة مياه وسط حوض أنيق ، كما كانت هناك قنوات صغيرة تعمل على توزيع المياه المستخرجة من البئر بواسطة عجلة مركب عليها مجموعة من القواديس ، بينما هناك قنوات أخرى تعمل على نقل المياه العكرة صوب الجدول الذى كان يجرى بوسط الشارع الذى يطل عليه البيت ، كانت بعض البيوت الأرستقراطية تتمتع فى بعض الأحيان بمجموعة من المبانى المنفصلة والموزعة داخل حديقة ، رشقت بمختلف أشجار الفاكهة ، كانت هذه هى الهيئة التى ظهرت عليها المزارع القائمة فى أجوار قرطبة ، على أحد شاطىء نهر الوادى الكبير .

وفى حالة أكثر تواضعاً من تلك التى كانت عليها الاستراحات الفخمة للأثرياء من سكان العاصمة ، كانت البيوت الريفية تنتشر فى أعداد هائلة على سفوح السهلة (Shla) وبين جنبات الكامبينيا ، وكان أفراد البرجوازية يرغبون قضاء وقت طويل نسبياً بين جنباتها – كان الفراغ القائم بين هذه البيوتات أقل من الذى يفصل بين بيوتات المدينة ، وكانت البنايات – المكونة من طابق واحد – تحاط بأحواض الزهور والبساتين ، وذلك باعتبارها نموذجاً للضياع الأصيلة للريف الأندلسى الحالى .

فى هذه المزارع الكائنة بأجوار المدينة كان كل شىء معداً لإمتاع النظر ، وهذا هو ما شهد به وصف ذكره ابن ليون الغرناطى (٣٤) ، الذى رغم أنه قد كتب فى القرن الرابع عشر ، يرسم فى بلاغة الذوق ، الذى أتى من الزمن العابر ، واستخدمه الإنسان الأندلسى من قاطنى المدينة فى العناية ببيته الريفى ، هذا بالإضافة إلى أبراج الحمام والحدائق التابعة له ، باعتبارها أماكن يمكنه الاستمتاع فيها بأوقات الفراغ والهروب لفترة ما من الإطار المزعج الذى تتطور فيه حياته اليومية .

"لإنشاء بيت بين الحدائق – يقول ، فعلا ، ابن ليون فى قصيدته الزراعية – كان الأندلسى يختار منطقة مرتفعة تجعل من السهل الحفاظ عليه وحراسته ، كانت وجهة البيت صوب الجنوب ، بالقرب من باب المزرعة ، وفى أعلى منطقة من الأرض كان يوجد البئر والحمام ، وأحياناً ، كان من الأفضل إقامة ما يسمى بالساقية التى تتدفق مياهها بين جنبات الأرض الظليلة ، وإلى جوار الحمام كانت تقام الأحواض المزدانة بالخضرة الدائمة ، تسر الناظرين ، وعلى مسافة بعيدة ، مساحات من الأزهار من كل نوع

وأشجار لا تسقط لها ورقة ، ويحاط العقار بمزارع العنب ، والتي تنتشر وسطها العرائش التي تغطي الممرات المختلفة وتطوف الحديقة كما لو كانت سورا ضرب عليها ، وفي الوسط توجد مقصورة يجلس عليها أهل المكان ، لها إطلالة على كل جانب ، ولكنها صنعت بطريقة ، لا تسمح للداخل بسماع الحوار الذي يتداوله الجالسون بين جنباتها ، وألا يصل إليها أحد دون أن يعلم به من بداخلها . كانت تلك المقصورة تحاط بأشجار الورد المتسلقة ، وكذلك أشجار الريحان ، وكل الزروع التي تزين البستان ، وعادة ما كان البستان مستطيل الشكل ، حتى تتاح الفرصة لامتداد البصر حين يتأمل ما يرى ، في جانبه السفلي شيدت غرفة خاصة للضيوف والأصدقاء ، بباب مستقل وحمّام يتوارى عن الأنظار النازلة إليه ممن يجلسون في العلية بواسطة مجموعة من الأشجار ، وإذا ما أضيف إليه برج للسكنى ، وآخر لتربية الحمام ، لم يكن لصاحبه أن يطلب أكثر من كل هذا" .

الأثاث : El mobiliario

كانت صالات الاستقبال والمعيشة داخل بيوتات المدينة مزودة بنوع من الأثاث الخفيف والذي من السهل نقله من حجرة لأخرى ، وفي هذه النقطة بالذات ظلت المغرب هي الأخرى وفيّة لهذا التراث الأندلسي ، إذ حتى وقت قريب كانت البيوتات البرجوازية الأكثر ثراء تُفرش بأسلوب غاية في البساطة ، فقد كانت الأرض تفرش بالحصير المصنوع من الحلفاء أو القش ، والذي كان يغطي في بعض الأحيان بالسجاد المصنوع من الصوف ، الكثيف منه والأملس (البساط) ، أما الصالات – وعلى طول الحوائط بما يقرب من ارتفاع قامة الرجل – فقد كانت تزدان ببساط الصوف المعلق ، الملون منه والحريري ، وأسفل هذه البُسط مباشرة كانت هناك مساحة مخصصة لمجلس ، يعلو عن الأرض قليلاً ، صنع من الوسائد المرصوصة بعضها فوق بعض ، ومغطاة بالقطيفة أو الإستبرق ، وفوقه تتكدس الوسائد أو المخدات ، المحشوة بالصوف وعليها كسوة رقيقة التطريز ، والتي كانت تستبدل في الصيف بوسائد كبيرة مستديرة صنعت من القماش [٣٥] ، أو من الجلد (أريكة أو نمروقة) ، كان هناك نوع من المقاعد الغضة التي تستخدم ككرسي ، والتي كانت عبارة عن وسائد كبيرة صنعت من الجلد ، وفيما

يتعلق بالأسرّة والفرش التى تتبعها نجد بين أيدينا معلومات كافية عن طريق ما ورد فى مستندات القضايا الشرعية ، والتى دوّنت فيها الحاجيات التى كان على الزوج أن يقدمها إلى زوجته حين يريد أن يطلقها أو تلك التى يجب ردها إلى السفهاء ، أو الصغار الذين يعيشون تحت كفالته [٣٦] ، كان استعمال الأسرّة أمراً عادياً وتم وضعها ، كما قلنا آنفًا ، فى حجرات النوم الواقعة على جوانب الصالات : فوق حصير مفروش على خشب السرير ، كانت توضع مرتبة ، مغطاة بأزرار ، مصحوب بمخدة (مرفقة) ، ومنها أتت الكلمة الإسبانية (marfega) ، ولحاف من الكتان المغطى بالصوف ، وبطانية من الصوف أو من اللباد ، كانت الأسرّة مرتفعة جداً عن سطح الأرض ، وذلك ، حسب ما يقوله الفقهاء ، حتى يكون من ينام عليها بعيداً عن ضرر العقارب ، والفئران والبراغيث ، [٣٧] ، فى الوقت الذى يتم فيه إنزال الستارة عليها ، أما الأطفال فكانوا ينامون فى مهاد مزودة بمرتبة صغيرة [٣٨] ومنشاف من الجلد .

ولحفظ الملابس لم يكن هناك سوى الصناديق الخشبية التى كانت تعرف بالتابوت ، تقفل بأغلال محكمة ومتينة ، كان صاحب البيت هو الشخص الوحيد المخول بحمل مفتاح حجرة الأطعمة المخزونة ، والتى كانت تحتوى على مخزون الأطعمة اللازمة لمدة عام : الدقيق ، وزيت الزيتون ، والعسل ، والفواكه الجافة ، واللحم المملح أو الموضوع فى الدهن ، كل هذا يحفظ فى الأوانى الفخارية المزججة ، المحكمة الغلق .

أما الإضاءة ، التى كانت بدائية للغاية ، فقد كانت عبارة عن الشموع المصنوعة من الشحوم أو مادة الشمع ، أو قناديل الزيت ، المصنوعة من الطين المحروق أو من البرنز ، أما فى البيوتات التى كان يقطنها الأثرياء فقد كانت تضاء بالثريا ليلاً ، والتى كانت تصنع من البرنز مزودة بأوعية ممتلئة بالزيت أو عدد من الشموع .

لم تكن قضايا التدفئة قد وصلت إلى حد الكمال ، وذلك باستثناء بيوت الأثرياء المزودة بحمامات البخار الخاصة ، حيث يصبح من الممكن فى هذه الحال تركيب مسار للماء الساخن عبر مواسير فخارية ، فى الشتاء جرت العادة على استعمال نوع من المجامر المعدنية من أجل التدفئة ، كما كانت هناك أنواع أخرى صنعت من الطين أو

الآجُر ، حيث كان الأهالي يحرقون فيها الفحم الخشبي ، أما في الوادي الأوسط لنهر التاجه Tajo وفي أراجون Aragón ، حيث يكون البرد شديداً ، كان الأهالي يستخدمون في بعض الأحيان نوعًا من المدافيء المتطورة بعض الشيء ، وقد أورد ابن باشكوال Ibn Bashkwal (٣٩) ، خبراً غريبًا عن مدرس طليطلي في نهايات القرن العاشر كان يعطي دروساً في بيته لأربعين تلميذا خلال شهور نوفمبر وديسمبر ويناير في فترة من فترات الشتاء ، وما كان يأخذ على عاقته فقط إطعام هؤلاء التلاميذ ، وإنما بالإضافة إلى هذا ، وحتى لا يشعروا بالبرد ، فقد أعد لهم حجرة من حجرات المنزل ، فُرشت أرضيتها بوسائد من الصوف ، وغطيت حوائطها بقماش من اللباد ، وفي وسطها أشعلت مدفأة عليها فحم كربوني (كانون) ، تصل في علوها قامة الرجل "والتي منها أصبح كل حاضر – يوضح لنا بالتحديد – يغترف منها نصيبه من التدفئة" .

ولكن ، بما أن الشتاء لم يكن يدوم مدة طويلة ، فقد كان الحر الشديد في فترات الصيف ، وخاصة في أندلسيا Andalucia هو الشيء الذي لابد من تجنبه ، ولهذا ، مثلما يحدث الآن ، فقد كانت الحالة تقتضي أن يقوم الأفراد منذ ساعات الصباح الأولى ، بالري المتوافر للفناء المنزلي ، وكانت الحجرات تظل مغلقة تمامًا وبإحكام ، وذلك بغرض أن تحتجز قليلاً من الرطوبة .

الغذاء : La alimentacion

بفضل ما ورد في مدونات الحسبة الأندلسية ، نملك بين أيدينا سلسلة من المعلومات عن الغذاء ، والمطبخ في حياة المسلمين الأسبان في الفترة ما بين القرنين التاسع والحادي عشر ، وإذا ما أضفنا إلى الأخبار التي تزودنا بها هذه المصادر عن الطعام الشائع وأعمال الغش التي كان من الممكن أن ترتكب تجاهه أخباراً أخرى يمكن أن نستخرجها من بين ثنايا الشعر الهزلي (٤٠) ، أو في فترة متأخرة بعض الشيء ، ومن أزجال ابن قزمان ، تصبح الظروف مواتية بالنسبة لنا حتى نقوم بعمل حصر للعناصر التي كان يتكون منها المطبخ الأندلسي (٤١) ، الذي مثل تراثًا ظل حيًا في المدن الغربية التي كان يقطنها بعض السكان الذين ينحدرون من أصل إسباني ،

وخاصة فى تطوان Tetuan وفاس Fez [٤٢] ، وكذلك فى تونس [٤٣] ، حيث مازال هذا التقليد يكسب قبولاً ومميزات سامية لم تتمكن الروشتة التركية من إلغائه تماماً ، لقد وصلت إلى أيدينا ، بالإضافة إلى ذلك ، مجموعة من الكتب المتنوعة الأندلسية عن المطبخ ، غير مطبوعة ، ولكنها سابقة على فترة الموحدين ، وتقدم ثلاث روشتات مختلفة عن تحضير الأطباق : الطريقة الأندلسية ، الطريقة المسيحية والطريقة اليهودية ، وكذلك ، فإن المدونات الفنية الزراعية بدورها ، حين تتحدث عن البقوليات والفواكه ، الجافة منها والطازجة ، تقدم بيانات هامة عن طريق إعدادها أو طريقة عمل ، على سبيل المثال ، الزيتون بالماء الملح ، ومربى الباذنجان أو الشمام ، أو عصير التفاح أو اللوز ، ومن خلال تمعن كل هذه النصوص الأدبية [٤٤] يمكن التوصل إلى نتيجة مؤداها أن المطبخ الأندلسى كان متنوعًا ومعقداً فى نفس الوقت ، وأنه كان فى إسبانيا الإسلامية نظام حق للمائدة الطيبة ، فقد كانت الأطعمة جيدة الإعداد تشتمل على قائمة من الأطباق لم يكن يخضع اختيارها للصدفة المحضة "ليس من حسن الذوق تقديم نوعين من الطعام ليس بينهما توافق" ، كانت هذه هى كلمات جرت العادة على أن ترد على لسان القاضى القرطبى ابن بياقة [٤٥] ، وفى تأسيس هذا القانون الخاص بالطهى ، فقد رأينا أن البغدادى زرياب فى القرن التاسع قد أدلى بدلوه [٤٦] .

وفى بيوت العائلات البسيطة والمتوسطة كانت ربة البيت هى التى تقوم بطهى الأطعمة ، ولكن مثل هذه المهمة فى كنف الأسر الأرستقراطية كانت توكل إلى طباخات محترفات ، كن فى الغالب من الإماء السوداوات ، وفى مناسبات استثنائية كان يتم التعاقد مع واحد أو مجموعة من الطباخين المحترفين فى إعداد الولائم ، كان العمال يجدون فى السوق ، من أجل غذاء يتناولونه ، حانات تطهى منها الأغذية على مرأى من الزبائن ، وهكذا ، فإن من أخذوا على عاتقهم إعداد المشويات والملقيات غالبًا ما كانوا يبيعون يوميًا عدداً كبيراً من رؤوس الخراف ، وكفتة اللحم ، ومعًى محشو باللحم له طعم لاذع [٤٧] ، وسمك مقلى ومشواة عليها قطع من اللحم ، الكبد وقلب الخراف بالزبدة ، بعض هذه الأشياء كانت تشوى فى فرن الأجر (التنور) ، وبعضها الآخر على نار هادئة ، وبعض آخر يقلى فى طاس كبير موضوع داخل أحد الأفران ،

كما كانت السوق تعج بأناس يصنعون عجائن الكعك المقلية فى الزيت (إسفنج Isfanch) ثم تغط في عسل يغلى ، وعجائن الجبن الأبيض (المجبنات) [٤٨] ، وأقراص السمن (مسمنات) ، والكعك ، وآلاف الأنواع الأخرى من الحلوى ، وعلى الأخص تلك العجينة المحشوة باللوز والبندق والصنوبر وحبات السمسم ، تضاف إليها أنواع عديدة من التوابل ، والتى كانت تشبه كثيراً حلوى "الترون" الحالية فى إسبانيا .

وفى الغالب الأعم ، فإن المطبخ كان يشغل فى البيوت مساحة بسيطة جداً ، تطل مباشرة على دهاليزها ، دون أن يكون له أى مصدر آخر للتهوية ، وما كان المطبخ يستعمل أكثر من الأفران الطينية ، المشابهة جداً لتلك التى تصنع إلى الآن فى الشمال الأفريقى ، والتى كانت تعمل بفحم خشبى ، وفى بعض الأحيان ، ولكن بصفة استثنائية – كان الفرن الخشبى يسمح بطهى بعض الأطباق المعقدة ، هذا إلى جانب عمل الخبز .

كان الشاغل الصباحى الأول للطاهية – سواء أكانت ربة البيت أو الخادمة – يكمن فى إعداد العجين لصناعة الخبز اللازم لاستهلاك الأسرة ، وكما يحدث الآن فى شمال أفريقيا ، فقد كان الخبز يصنع فى فرن عام ، حيث كان عامل الطاحونة ، الصبى الصغيره ، يدور على البيت فى ساعة محدودة لكى يجمع منها الألواح التى وضعت عليها قطع العجين ، والتى كانت معلمة بمطبوعات بواسطة أداة خشبية ، علامة مميزة ، ثم يعود إلى تلك البيوتات يحمل الخبز المصنوع ، فيما عدا عدد بسيط من الخبز يحتجزه الخباز نظير ما قام به من عمل [٤٩] ، كما كان من الممكن شراء الخبز الجاهز من على أبواب المخابز أو من الأسواق .

وإلى جانب الخبز كان هناك صنف آخر يكون القاعدة الأساسية للطعام ، صنف شائع يسمى الشوربة الكثّة ، من الدقيق والسميز أو النشويات الأخرى ، مخلوطة أم لا باللحم المفروم ، هكذا كانت الهريسة [٥٠] الطبق الشعبى الأكثر شهرة فى أندلسيا ، والذى كان يطهى بطرق متعددة ، عجينة من دقيق القمح (سخينة أو عصيدة) تطبخ مع خليط من خضراوات الفترة التى تطهى فيها (السبانخ أو الخس)

كانت هى الأخرى عماد أحد الأطباق الشائعة وكانت تعد طبقًا إجباريًا يقدم فى بعض الأحداث السرية أو الأعياد الفلكلورية ، هذا بالإضافة إلى طبق من نفس العجينة مضافًا إليه حبات الفول أو الحمص ، وفقط فى المناسبات الرنانة - مثل الأعياد ، الأطعمة التى تقدم للمدعوين ، فى الأفراح العائلية - كانت قائمة الأطعمة تبدو أشد تعقيدًا ، فى مثل هذه المناسبات ، كانت هناك أطباق تعد سلفًا ، هذا إلى جانب الأطقم الصحوبة بالمناشف الرقيقة (المناديل) ، والتى كانت تحتوى على الزبيب [٥١] وفواكه جافة نزعت عنها قشورها (أنقال) [٥٢] ، والتى كانت تقدم أيضًا فى لقاءات من يجتمعون لتناول الأشربة الروحية ، كانت الولائم تبدأ أول ما تبدأ بالمقبلات الباردة (بوارد) [٥٣] ، لحوم مملحة وأسماك محفوظة فى المورى ، وبعد ذلك يأتى دور أطباق الدجاج أو الخراف المطبوخة على النار الهادئة ثم لحم الطير أو الصيد وحلوائه (البيلاجة) ، الأطعمة البيضاء (إسفيدياج) ، التى كان يطلق عليها فى إسبانيا بصفة عامة اسم (طافايا) [٥٤] ، أصناف من الطعام الشرقى الذى يحتوى على اللحم ، أو الأسماك المخللة (أسكياج) ، أو عجينة مخلوطة بلحم الدجاج المفروم ، أو عجائن محشوة (حشو) بالمعىّ المفروم أو لحم فرخ الحمام مخلوط بعجينة اللوز أو السميز المحمرة والموضوعة فى العسل ، وحين تكون هناك رغبة فى تقديم مزيد من هذه الأصناف كهدية للضيوف كانت تقدم الكمأة (طرفة) [٥٥] المشوية تحت الرماد أو ربع خروف صنع على هيئة اليخنة والمتبل بأنواع التوابل والكمون .

كانت الوجبة الرئيسية تعد فى المساء ، بعد غروب الشمس بقليل ، حين يعود رب البيت إليه ، وإذا ما قام رب البيت بدعوة شخص أو أكثر لتناول الطعام معه ، تقدم الوجبة فى الحجرة المعروفة بالمصرية المطلة على الشارع ، وكانت مهمة إحضار الأطباق وإعدادها على المائدة تقع على عاتق الخادمة ، وما زال الدخان ينبعث منها ، تلك المائدة الوطيئة المغطاة بفرش من النسيج أو الجلد ، ما كان الحاضرون يستعملون شيئًا من السكاكين أو الشوك ، ولكن كان هناك نوع من الملاعق الخشبية لتناول الشوربة والمعجنات المخلوطة باللحم المفروم ، تقدم فى طاس من الفخار ، وفى حالة غير هذه ، فى الظروف العادية ، لم يكن أفراد العائلة يأكلون مجتمعين ، وإنما كان رب البيت يتناول طعامه أولاً وقبل أى فرد ، من الطبق الذى يقدمونه إليه ، ثم بعد ذلك

يأتى دور الأبناء ثم الأم وبناتها ، لم يكن هناك مشروب سوى الماء ، الذى أضيف إليه عطر الأزهار والورود فى بعض الأحيان ، والشىء الذى كان يستهلك بقدر كبير هو الفاكهة الطازجة : التين ، والرمان ، والعنب ، والتفاح ، والشمام أو البطيخ .

فى أوقات معينة استثنائية يمكن أن تقدم ولائم [٥٦] حقيقية لطبقة مجملة من السكان ، كانت قائمة تلك الأطعمة واحدة فى الغالب ، أرباع الخراف أو البقر المشوية وثريد الغلال ، أما الكسكسى ، الذى يرجع إلى أصول سودانية ، والذى أصبح بداية من القرن الرابع عشر أساس الغذاء الذى يتناوله المغاربة وظل طعامًا على موائد من عاصر المملكة النصرية في غرناطة [٥٧] ، فيبدو أنه لم يكن معروفًا بالنسبة للذين شهدوا عصر الخلافة أو الطوائف فى إسبانيا .

٣ - الملبس والعناية بالجسد والزينة

ملابس الطبقات الشعبية :

إلى الآن لم تظهر فى الأفق أية محاولة لإنجاز أى نوع من الدراسة المتعمقة ، حول الملابس التى كان يرتديها المسلمون فى الأندلس ، والتى تشمل هذا الجانب منذ الأيام الخوالى للإمارة القرطبية وحتى زمن المملكة النصرية فى غرناطة ، وللحقيقة فإن الشروع فى مثل هذا النوع من الدراسة ينقصه الوثائق الخاصة بعلم الأيقونات والصور الدينية التى تأتى متدرجة على مدى عصور عديدة ، فى الوقت الذى لا نملك فيه بين أيدينا سوى عدد زهيد من الصور ، مثل تلك الصور المحفورة على بعض الصناديق العاجية فى فترة الخلافة ، أو فيما يتعلق بتاريخ متأخر كثيراً ، تلك الصور التى رسمت على جدران وأسقف قصور الحمراء ، على العكس ، فإن المصطلحات الخاصة بالملابس التى كان يرتديها العربى الإسبانى التى وصلت إلينا تأتى منسوخة نسبيا ، وتوجد ، إما متناثرة بين النصوص الأدبية أو الشعرية والمدونات القضائية ، وإما فى صورة أكثر راحة ، مجموعة فى معاجم مثل المعجم الغرناطى لبدرو دى ألكالا Pedro de Alcala ، إن المقارنة بين الألفاظ التى يمكن أن نستخرجها من تلك المعاجم ومثيلاتها اللاتينية أو القشتالية (الإسبانية) تسمح لنا بأن نفرط إلى حد ما فى تقدير كيفية تطور الملبس عن الأندلسيين فيما بين القرن التاسع والرابع عشر ، هناك كم هائل من هذه الألفاظ ، التى تشير إلى وحدات الملابس أو ما يتعلق بزينة الرأس أو الأحذية ، قد تم فحصه من قبل دوزى منذ أكثر من قرن (٥٨) فى واحد من أعماله الأولى ، الذى تقادم اليوم ، حيث لم يتمكن المؤلف من جمع الكلمات العديدة المنشورة فى المخطوطات التى لم تكن معروفة آنذاك أو مشاراً إليها فى حديث العرب ، الغربيين أو الشرقيين ، تلك اللغة التى حرص على دراستها علماء اللهجات (٥٩) .

من المهم جداً ، بالإضافة إلى هذا ، انتقاء هذه الألفاظ ، حيث يأتى الكثير منها ، فى صورة يصعب تحديدها ، وذلك لعدم وجود مضمون يمكن أن يفسرها ، على الرغم من أنه من البديهى أن عدداً هائلاً منها يشير إلى الزينة الترفيهية أو الاستثنائية ، والتى لم تكن مستخدمة يومًا ، وكذلك الزينة التى يستخدمها العامة من سكان المدن والريف ، وحتى نخفف من هذا التفاوت يمكن لنا أن نلجأ فى سعادة إلى بعض

المدونات القضائية المؤرخة والمحررة فى أواخر القرن التاسع أو بدايات القرن العاشر ، من قبل مدرسة الإفتاء فى قرطبة ، وعلى وجه الخصوص تلك الفتوى التى صدرت عن الفقيه ابن لُبابة (٦٠) ، والتى نتبين منها الأثاث الذى كان يعد للعروس ومفروشات الأسرَّة بشىء من التدقيق ، والتى كانت تقدم إلى الرجال والنساء أو الأطفال الذين كانوا يتمتعون بكفالة غيرهم ، تلك الفتاوى ، والمجموعة كلها فى القرن الحادى عشر من قبل ابن سهل (٦١) ، تعد بالنسبة لهذا الخصوص على درجة من الأهمية ، حيث إنها لم تقدم فقط بأسماء منعزلة ، وإنما أيضاً مجموع القطع التى كانت تكوِّن الملبس الشائع ، فى الصيف والشتاء على حد سواء .

فى الإسلام الذى عاش فى العصور الوسطى ، وبالأشهر فى الغرب ، كان الكثير من قطع الملابس – من نفس النسيج والشكل والاسم – تستخدم بصفة مشتركة بالنسبة للرجال والنساء ، فى إسبانيا ، كان الأشخاص من الجنسين يرتدون فوق جلودهم قميصاً من الكتان أو القطن ، بالإضافة إلى السراويل الطويلة والضيقة ، التى لم تتجاوز الركبة ويتم ربطها إلى الخصر بواسطة حبل أو حزام ، أما القميص ، الذى كان يطوّق الجسد تماماً ، كان من الممكن استبداله بنوع من اللباس الواسع ، من القماش الأبيض ، الزهارة ، وفوق قطعة أو أخرى يرتدى الشخص صديرياً أو بلوزة من القماش الرقيق (خلالة أو ملحمة) ، وإلى جانب هذه الملابس الخفيفة كان الأشخاص يضيفون ، رجالاً ونساءً ، فى فترة الشتاء لباساً محشواً أو مبطناً (محشو أو محشة) ، لها شكل الجلباب ، أو سترة كبيرة من جلد النعاج أو الأرانب (الفرو) ، وبالنسبة للأطفال من الجنسين فقد كانت ملابسهم واحدة ، كانت الأقدام والسيقان تغطى بواسطة جوارب أنبوبية من الصوف تصل إلى حد الركبة ، وفوقها يتم ارتداء أحذية صنعت ، إما من الجلد الطبيعى (موق) أو أحذية خفيفة ذات بطانة من اللباد (الخف) ، وكانت هـذه الأحذية تستبدل فى الصيف بأخرى ذات نعل خشبى (شنقة) أو أخرى تسمى (البرجّة) ، والتى إذا كانت مزودة بنعل من الفلين بدلاً من الآخر المصنوع من الحلفاء ، يطلق عليها اسم " القرق " .

ومنذ الوهلة الأولى ، يصبح التميز واضحاً بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بالأشياء التى توضع فوق الرأس ، فالأمر الشائع أن الرجال كانوا يسيرون برءوسهم مكشوفة

وفى بعض الأحيان كانوا يدارونها بقبعة بسيطة من الكتان يطلق عليها « الكوفية » أو طاقية من اللباد (الشاشية) ، أما النساء ، فعلى العكس ، فقد كن يحملن فوق رؤوسهن شيئًا أكثر تعقيداً : أولاً : قطعة من القماش ، اللفافة ، تلف بها الرأس ، وعليها يأتى حجاب أوسع ، المكناة ، تتدلى أطرافه فوق الصدر ، أو الخمار ، نوع من المنديل المصنوع من النسيج الرقيق يربط في خلفية الرقبة ويغطى الوجه من أسفل العينين ، وفى أحيان أخرى ، وبطريقة أقل تعقيداً ، فقد كانت المرأة تضع على جسدها قطعة فضفاضة من القماش (إزار أو ملحفة) تستخدم المرأة طرفيه ، حين يصبح جسدها ملفوفًا به ، فى تغطية الرأس أيضًا (٦٢) .

أما فى المناطق الريفية فقد كان الملبس أكثر بساطة ، ففوق القميص المصنوع من القطن (الدُرّاعة) كان الناس يرتدون جُبة من الصوف المغزول الغليظ ، أو جلباباً من الصوف مفتوحاً من الأمام ، إما جزئيًا (الجلابية) أو كُليًا (السلحامة) ، أما فى الشتاء فكان الأشخاص يضيفون إلى هذه الملابس نوعًا من الصُديريات بلا أكمام ، يطلق عليها تشمير ، وبالنسبة للأحذية ، فقد كانت تصنع من الخشب ويطلق عليها « القبقاب » ، أو أحذية غليظة من جلد الغنم أو الأرنب (قرقاصة) ، أو الصنادل (نعال) ، وفى فترة الصيف ، حتى يتم تفادى مواجهة حر الشمس ، كان الأفراد يضعون على رؤوسهم قبعات من القش المفتول ، ذات أجنحة كبيرة .

ملابس الترف : Los vestidos de lujo

منذ بداية القرن التاسع ، قامت الحضارة البغدادية بطبع ملابس الطبقات الثرية من سكان الأندلس بطابع معين ، بنفس الطريقة التى طبعت بها الجوانب المتعددة من الحياة اليومية والمرفهة ، كان المحرك الرئيسى لهذه المظاهر الجديدة هو – كما رأينا – المغنى زرياب ، وذلك خلال فترة حكم الأمير عبد الرحمن الثانى ، وإنه لمن المفيد هنا أن نذكر إشارة ابن حيان التى يسوقها فى معرض الحديث عن التغيير فى الملبس الذى اقترحه زرياب ، والذى تلقاه أهالى قرطبة من الخاصة بترحاب وحماس (٦٣) :
« فيما يتعلق بالملابس ، فقد كان تأثير زريات ملحوظًا سواء فى طريقة التفصيل أو تحديد المهمة التى يرتدى فيها كل ملبس فى الوقت الذى يتناسب معه ، والتحديد المعين لهذا الوقت من العام ، وبهذا فقد تم تحديد بداية اللبس الأبيض فى البداية

وإلغاء كل ملبس ملون عند بداية « المهرجان » ، الذى كان يحتفل به سكان البلدة باسم « الأنصارة » (عيد انقلاب الشمس الصيفى) ، والذى يأتى موعده قبل نهاية شهر يونيو بستة أيام ، طبقًا للتاريخ الرومانى المستخدم فى إسبانيا ، كان الأهالى يواصلون ارتداءهم لهذه الملابس البيضاء حتى بداية شهر أكتوبر ، أى ، ثلاثة أشهر متواصلة ، أما بقية العام فقد كان الناس يرتدون ملابس ملونة ، وكذلك ففى الأيام التى كانت تتوسط الصيف والشتاء ، والتى يطلقون عليهـــا فى إسبانيا الربيع ، كانت الملابس تتراوح بين الملونة (موساج) جلاليب من الحرير الخام (الخز) ، ملابس من سدى الحرير (ملحم) أو من الصوف المخلوط بالحرير (مُحرر) ، هذا بالإضافة إلى ما يسمى (بالدُرّاعة) دونما بطانة ، والتى كانت تشبه فى نحافتها الجلاليب البيضاء « الظهارة » التى تلبس فى الصيف ، والتى كانت تستبدل بها حين يشتد الحر ، وإذا ما كانت التوصيات قد وردت بارتداء هذه الملابس الملونة فقد كان هذا ، أولاً ، بسبب أنها خفيفة ، وبالإضافة إلى ذلك ، لأنها بما لها من ألوان متعددة كانت تذكرنا بالمحشّات ، الملبس الذى ترتديه العامة وكانت مبطنة ومزينة بالجلد ، هكذا ، فى نفس الوقت الذى تم فيه تحاشى التباين الصارخ فى الملبس بين الطبقات المختلفة من السكان ، روعيت فى الاعتبار التغيرات الحساسة فى الحرارة والبرد والدفء ، والمطر أو الطقس الجيد ، وذلك حتى اللحظة التى تصبح فيها السماء صافية بلا خلاف وترتفع درجة الحرارة ، فتلزم الناس جميعًا ارتداء الملابس البيضاء » .

كان اللون الأبيض – بالإضافة إلى كونه لون الأمويين ، وكما هو معروف [٦٤] – لون الحداد فى إسبانيا الإسلامية ، وربما بسبب تعميمه فى فترة الصيف ، فقد أصبح اللون الأسود هو اللون المميز الذى يرتديه من هم فى حالة حداد ، وذلك وفقًا لما ورد فى بعض الإشارات [٦٥] .

وخلال فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، وعلى الأخص ، فى فترة حكم ابنه محمد الأول ، بدأت تظهر فى قرطبة ، على أيدى الرحالة أو التجار الإسبان أو العراقيين [٦٦] منتجات الطراز البغدادى ، التى استلهمها بسرعة فائقة المتخصصون الأندلسيون ، بما أن البلاد كانت مفعمة بالحرير الممتاز ، فقد بدأ الديباج والأنسجة الغليظة من الخز تدخل فى وقت قريب مجال المنافسة مع مثيلاتها القادمة من الشرق ، ومنها كان

الحائكون يخيطون الملابس الفاخرة ، التى - إلى جانب الجلاليب الرقيقة المصنوعة من النسيج الشفاف - كانت تملأ صناديق الأسر الأرستقراطية ، حيث كانت الغلبة لها دائمًا على الأخرى القادمة من الشرق .

وكذلك فقد أدت الموضة البغدادية إلى فرض أنواع جديدة من أغطية الرأس على أهالي قرطبة من الرجال والنساء من الخاصة ، قبعة عالية عراقية من الحرير الخالص الخام تسمى « قلنسوة » ، قبعات مخروطية من القطيفة المطرزة أو المطعمة بالأحجار الكريمة أو طاقية من الدمقس أو الترتر ، وقد كانت هذه الأغطية التى توضع على الرأس محل نظر من قبل بلاط ليون ، فاتخذتها ، إلى جانب الملابس الترفيهية الأخرى : Adorras (الدُّرات) algupas (الجُبّات) almexias (المكسيات) (٦٧) .

ومنذ بداية القرن التاسع ، أصبحت العمامة هى السمة المميزة لرجال القانون فى إسبانيا (٦٨) ، وكان القضاة الذين يرفضون لبس هذه العمامة يقومون بعمل تشهيرى ضد قرطبة (٦٩) ، وبعد ذلك تم تعميم استخدام تلك العمامة حين وصول بربر إفريقيا ، الذين كانوا يرتدونها ، إلى جانب البرنس الواسع المصنوع من الصوف ، والذى كان يقصر استخدامه حتى تلك اللحظة فى إسبانيا على النساء من علية المجتمع فقط ، فى الوقت الذى يخرجن فيه ممتطيات ظهور البغال ، وكثيراً ما يُتذكر التمرد الذى حرّك فى العاصمة الأندلسية الأمر الذى أصدره عبد الرحمن سانشويلو بأن يقوم العظماء من رجال البلاط بالاستبدال الجبرى لما يرتدونه من قلنسوة شرقية بالعمائم ، وذلك إرضاءً للضباط من أهل البربر (٧٠) ، ولكن حين أتى عصر الطوائف أصبح استعمال العمائم أمرًا شائعًا فى جميع أرجاء إسبانيا ، وكذلك فقد قام المرابطون والموحدون بالعمل على إرجاع فرض موضة هذه العمامة ، والتى أصبحت فيما بعد - خلال حكم دولة بنى نصر - غطاء الرأس الوحيد المقبول فى أرجاء بلاط الحمراء ، ومع هذا ، فإن ابن سعيد ، حين يصف فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الملابس الأندلسية ، ينبه إلى أن العمامة لم تكن مستعملة حتى الآن فى « ليبنتى » Levante ، فى الوقت الذى كانت تستخدم فيه بين بقية أرجاء إسبانيا الإسلامية من نفس الحقبة (٧٠)، وخاصة من قبل القضاة والفقهاء ، هذا وقد كان جانب كبير من السكان ، الخاصة والعامة ، يستخدم على حد سواء اللفافة الفضفاضة المصنوعة من النسيج المعروف

باسم الطيلسان ، والتي كانت توضع فوق الكتفين أو فوق الرأس ، أو الطاقية المصنوعة من الصوف (الخفارة) ، ذات اللون الأحمر أو الأخضر ، حيث كان استخدام الخفارة الصفراء يقتصر على اليهود فقط (٧٢) ، والذين منعوا من استخدام العمائم ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الملابس الأندلسية تأخذ طريقها للتقرب من الأشكال المستخدمة من قبل المسيحيين الذين يقطنون الشمال الإسباني ، وخاصة فيما يتعلق بالملابس الرسمية للضباط ، والذين كانوا يعرفون بمعاطفهم القرمزية ، كان المظهر الذى يبدو عليه الرجل الشرقى القادم إلى إسبانيا واضعًا العمامة على رأسه ، يضيف ابن سعيد ، يثير فضول الأندلسيين ، المتمسكين بموضة ملابسهم الخاصة ، وكانوا يفضّلون ملابسهم بطريقة خاصة بهم (٧٣) .

النظافة الجسدية " الحمّام " : La higiene corporal. El " hamman"

إن نظافة الجسد تعد فى العالم الإسلامى واجبًا دينيًا ، والوضوء الذى يقوم به كل مسلم قبل كل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة يوميًا ، هذا بالإضافة إلى عادة غسل الأيدى ، أو حتى مضمضة الفم قبل وبعد كل طعام ، كانت تعد فى الغرب ممارسات ترجع إلى أزمان غابرة ، والملابس وكسوة قطع الأثاث كانت تغسل باستمرار أو يذهب بها إلى المنظف ، وفى البيوتات العادية كان الناس يتنظفون مستخدمين الإبريق والإناء ؛ ولكن البيوت التى يقطنها الأثرياء كانت لا تقدم وجود أحواض للاستحمام ، والتى كانت تحمل اسمًا فارسيًا هو بأيزان (٧٤) ، أو كان الأفراد يستخدمون فى نظافتهم الشخصية ناؤوسًا قديمًا من الرخام كان يطلق عليه ، كما هو الآن ، الحوض ، وهناك حالة وحيدة استثنائية وجدت فى أحد البيوت البرجوازية ، ألا وهى أنه كان مزودًا بحمّام من حمامات البخار ، وهو ترف كان حكرًا على قصور وجهاء الطبقة الأرستقراطية ، أما المتوسطة وعامة الناس من الطبقات الدنيا فقد كانوا يرتادون الحمامات العامة (٧٥) .

كان الحمام ، أو « البانيو المغربى » الموروث عن الحمامات الرومانية القديمة ، منتشرًا فى إسبانيا الإسلامية ، وما كانت هناك مدينة ، أيًا كانت أهميتها ، تخلو من كم هائل منها ، ففى قرطبة – وفقًا لما يذكره المؤرخون – كان هناك ما يقرب من ثلاثمائة ، أو حتى ستمائة حمّام ، فى أواخر القرن العاشر ، وكانت المهمة الموكلة إلى

تلك الحمامات هي نفسها التي تؤديها بقية الحمامات في الغرب الإسلامي ، وكانت تلك الحمامات ملكًا خاصًا لخزانة الأوقاف ، تؤجرها لأحد المستثمرين ، يعمل معه فريق من المدلكين (الحكاك) وصبية الحمام (الطيّاب) يرتدون لباسًا خفيفًا يسمى (المئزر) هـذا بالإضافة إلى أحـد الأفـراد الـذيـن يكلفون بالعنـاية بثياب مرتادى الحمامات (المسلخ) ويبيع لهم الحجر الصابوني (الطفل) ، الذى ينظفون به شعورهم ، ويؤجر لهم المناشف ، ويرانس الحمّام ، وفي المساء ، حين يصبح الحمام وقد مُنع ارتياده من قبل زبائنه من الرجال ، تأتي مجموعة من العائلات لتحل محل الرجال العاملين في الفترة الصباحية والمسائية ، وذلك حتي يقدم نفس الخدمات إلى السيدات من رواد الحمّامات .

كانت الهيئة المعمارية التي يقوم عليها الحمّام واحدة في كل الأماكن ، فعبر دهليز الحمام يصبح بالإمكان الوصول إلى الصالة الأولى والتي يخلع فيها المستحمون ملابسهم ، يزينها عدد كبير من التماثيل القديمة (٧٦) ، ومزودة بسلسلة من الشماعات وعبر هذه الصالة يصل الأفراد إلى الصالة الفاترة ، ومن هذه إلى المدفأة ، والتي نجد في وسطها غلاية الحمّام ، يغلي ماؤها بواسطة فرن موضوع في الدور السفلي ، ويوقد بحزم من فروع الأشجار وقلوب النخيل (٧٧) ، كانت تلك المدفأة مبلطة بالرخام أو بالحجارة ، وبها قنوات شقت خصيصًا لإفراغ المياه ، وحول جدرانها كان هناك نوع من المصاطب ينبطح عليها الزبائن حتى يقوم الحكاكون بتدليكهم وتصبينهم أيضًا من قبل صبية الحمّام ، الذين كانوا يزودون الحوض بالأكواب اللازمة من الماء المغلي ، كان مصدر الإضاءة والتهوية ينحصر في سلسلة من الكواء في أعلى الحمام ، حول القبة التي عادة ما كانت تغطي المكان ، وأما الماء فقد كان إخراجه من البئر يتم عبر ساقية دوارة مزودة بمجموعة من القواديس ، وذلك لإخراج ما يلزم من المياه للحفاظ على المستوى المرغوب داخل الغلاية .

كانت المدة التي يقضيها الزبائن في الحمّام المغربي ، والتي كانت تطول لساعات عديدة ، سببًا من أسباب التسلية ، وخاصة بالنسبة للسيدات اللاتي ، كما يحدث في الصالونات ، كن يجتمعن مع صديقاتهن ، ويتناولن الطعام في وجبة «الميرندا» كذلك ،

ويحاولن إبهار الأخريات بجمال ورقة ملابسهن البيضاء ، كما كانت الماشطات - نفس السيدات اللاتى كن يُزيِّن العرائس ليلة زفافهن - تقدم خدماتهن للنسوة اللاتى يقبلن على الحمّام ؛ ينتفن شعورهن ، يضعن لهن الحنّاء ، ويرطبن أجسادهن بالدهانات ، ويدهن شعورهن بالزيوت المعطرة (وخاصة زيت الزباد - أكثر الزيوت تقديراً) ، وكن يبعن لهن كل نوع من الدهن اللازم للعناية بالجلد وغيرها من العبوات الصغيرة المملوءة بالمساحيق المعطرة للثياب .

الزواق والحُلى : Afeites y adornos

كانت السيدة القرطبية الراقية تخصص - داخل بيتها - فى كل يوم ساعات عدة لنظافتها الشخصية وزينتها ، حيث إن الزوجة المدللة - أو الجارية المفضلة فى زمانها - كان لزامًا عليها أن تنتظر عودة رب البيت وهى فى أبهى حلة وزينة ، كانت تعد فى بيتها مجموعة من الفُرش والأمشاط العاجية أو المصنوعة من العظم لتسهل به شعر رأسها ، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الصناديق والعلب الرقيقة تحفظ فيها زينتها : الكُحل من أجل الحواجب والرموش ، معجون نتف الشعر (النورة) ، كريات من الزجاج أو الكريستال للزيوت العاطرة وخلاصة عطر الزهور ، فى مدريد ما زالت هناك مكواة جميلة من المرمر ، يرجع تاريخها إلى فترة الخلافة ، بها تجاويف مستديرة أو مستطيلة ، والتى مما لا شك فيه أنها كانت تشكل جزءًا من متطلبات زينة سيدة أرستقراطية ، وكذلك فقد كانت الأيدى والأقدام هدفًا لمزيد من العناية ، فها هو بن حزم يذكر لنا أنه فى القرن العاشر كانت السيدات القرطبيات يمضغن نوعًا من « المستكة » من أجل تطييب رائحة الفم ، ولإنعاش لون الشفاه واللثة ، كن يفركنها بقطع بسيطة من جذوع شجر الجوز (السواك) [٧٨] .

كان امتلاك الحُلى الكثيرة والفخمة ميزة كبيرة عند نساء البيوتات الثرية ، وكان الخبراء من الجواهرتية (الصائغ) ، الذين كان معظمهم من اليهود ، يكلفون بعمل وتزيين الأطقم الذهبية الثقيلة ، وكذلك الفضة لزبائنهن من سيدات الطبقة الأرستقراطية ، فى البداية ، كانت الحُلى تبدو كما لو كانت مرسومة فى إسبانيا

الإسلامية ، وذلك طبقًا للتقاليد القوطية ، من قبل فنانين مستعربين ؛ ولكن رويدًا رويدًا فرضت الموضة العراقية نفسها فيما بعد [٧٩] ، العقود من اللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، والخواتم والأقراط ، والأسورة (سوار ، دُملُج) ، والخلاخيل المعقودة على الكعاب ، والتيجان ، مشابك ، وصدريات و « بروشات » من المصوغات الذهبية المشبكة بالياقوت الأحمر والأزرق ، كل هذا كان يملأ الصناديق العاجية للسيدات الجميلات والأنيقات من أفراد الخاصة ، أما الجواهر التى كانت ترد من بغداد – لنتذكر العقد الشهير المعروف باسم الشفاء [٨٠] – فقد كانت تتمتع بالمكانة الرفيعة التى وهبتها لها البلاد التى تمثل مصدرها ومكنونها ، وفى مناسبات معينة ، مثل احتفالات الأسرة ، أو الزيارات بمناسبة الأفراح أو الختان ، كان بإمكان السيدات من طبقة البرجوازية أن يستأجرن الحُلى من سيدات متخصصات فى مثل هذا النوع من العارية ، وكان استئجار الحلى لمدة سبعة أيام – طبقًا لما ورد فى بعض العقود [٨١] – والذى كان يحتوى على وصف تام لكل شىء مستعار ، هذا بالإضافة إلى تحديد وزن كل قطعة .

وحتى يقوم أهل الأندلس من الرجال بحلاقة الشعر واللحية ، فقد كان هؤلاء الذين حافظوا لفترة طويلة على الموضة القديمة المتمثلة فى السوالف المتدلية على الأصداغ ، من فوق الأذن – يذهبون إلى الحلاقين (الحجامين) ، الذين كانوا يقومون أيضًا بمهمة الفصد (فصّاد) وكانوا يمرون بالبيوت ، أو كانوا يجلسون فى الهواء الطلق تحت مظلة أو فى دهاليز الحمامات ، وكذلك فقد كان تأثير المغنى زرياب واضحًا فى طريقة قص شعر الرأس وإعفاء اللحية ، إلا أن التعميم التدريجى لاستعمال العمامة قد جعل رجال الأندلس فيما بعد يصدرون إلى حلق الرأس عن آخرها ، كما هى العادة حتى اليوم فى المغرب .

الصحة العامة : La Salud Publica

فى المدن التى كانت تعانى ازدحامًا فى السكان مثل قرطبة وأشبيلية ، حيث كان معظم الأسر يعيش مكدسًا ، وأحيانًا فى حجرات قذرة شديدة الرطوبة ، دون هواء أو إضاءة ، كانت الأوبئة منتشرة ، وفى أسابيع قليلة كان بإمكانها أن تسحق العديد من

السكان الذين تناقصت مناعتهم الدفاعية بسبب نقص الوعي الصحي والغذاء ، وما كان المؤرخون يصمتون عن الإشارة إلى مثل هذه الضربات الموجعة في حولياتهم ، والتي كانت تتميز بالتسمية الشائعة « الوباء » وهو ما ليس بالضرورة إطلاقه على الوباء الناجم عن البثور ، كان الدرن متفشياً في المدن الأندلسية ، كما كان حتى وقت قريب في مدينة فاس ، ولكن المرض الذي كان يبعث الخوف أكثر ؛ لأنه لم يكن من الممكن علاجه ، هو مرض الجذام ، وكانت كلمة « المريض » في الشرق المسيحي تطلق على الشخص المصاب بالجذام (٨٢) ، والذي كان يودع مع أقرانه في مكان لعلاج هذا المرض (رباض المرضى) يقع في خارج المدينة ويشرف على الإنفاق عليها في الغالب المؤسسات الخيرية ، مثلما كان يحدث في القرنين التاسع والعاشر مع مصحة الجذام بقرطبة ، القريبة من « مُنية أجاب » على الشاطيء الأيسر لنهر الوادي الكبير (٨٣) ، ومثلما كان يحدث في بقية العالم الإسلامي ، كان الأفراد المصابون بالجنون . طالما أن جنونهم لا يمثل خطراً ، يتركون أحراراً لا يقدر على إزعاجهم أحد .

كان الأطباء يكونون هيئة ثرية ، تتألف في معظمها من اليهود ، وسوف نرى أن اليهود في القرنين العاشر والحادي عشر – وعلى رأسهم حسداي بن شبروت ، هم أول من حمل ، داخل إسبانيا الإسلامية – مشعل العلوم الطبية عالياً ، وفي تلك الآونة ، كان الناس يفرقون بين الطبيب بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، أي الشخص المشهود له بالعلم ، وبين نوع آخر من الموظف الصحي (المتطبب) (٨٤) ، والذي كان يعالج بوسائل تجريبية بحتة الآلام الشائعة ، كان يقوم بممارسة العلاج لأمراض الدم (الحجامة) ووسم الجروح ، أما الجراحة – التي كانت ما تزال بدائية – فقد كانت تمارس من قبل بعض المتخصصين ، دون الحديث عن مهنة الجابر والذي كان الناس يفدون إليه لجبر كسورهم وما يصيبهم من خلع .

كان الأطباء يصفون الدواء ويكتبونه للمرضى في روشتات ، وكان بإمكانهم شراء تلك الأدوية ، المعدنية أو النباتية – المكتوبة فيها من محلات الصيدلاني ، التي كانت توجد بالميادين العامة ، وكان أصحاب الصيدليات يقومون ، بتكليف من الآخرين ، بإعداد المعجون الصيدلي ، واللعوق (المربى) ، والأشربة (شراب) ، والمراهم

والدهانات العديدة ، هناك قصيدة ساخرة لابن مسعود ، يذكرها لنا ابن بسام [٨٥] ، يبدو لنا من خلالها ما كان يضعه الصيدلاني من إعلان عن الأدوية الموجودة بصيدليته وعن مهارته الفائقة في إجراء بعض العمليات الجراحية الشائعة .

لا نملك بين أيدينا أية إشارات لوجود مستشفيات عامة في إسبانيا أثناء فترة الخلافة على أرضها ، والتي كانت تجرى فيها ، مثلما حدث في نفس الفترة في الشرق عمليات قبول للمرضى ومعالجتهم ، ولو أن مثل هذا النوع من المستشفيات قد وجد في أشبيلية خلال فترتي الأمـويين ، بني عباد والمرابطين ، فمن المؤكد أن أمراً كهذا لن يفوت ابن عبدون الإشارة إليه والشهادة بوجوده ، ويحلول القرن الرابع عشر وفترة حكم بني نصر (النصريين) بإمكاننا أن نعثر على إشـارة تشيد - لأول مـرة - بإنشاء مستشفى (ماريستان) في غرناطة ، « تم تخصيصه لعلاج مرضى المسلمين المعوزين » [٨٦] .

٤ - حياة المتعة والأخلاقيات العامة

الاحتفال بالأعياد الدينية والفلكية :

في كل عام كان الشاغل الأكبر - لكل الأسر - يكمن في الاحتفال في سرور تام وبالطريقة اللائقة بالعيدين الدينيين الكبيرين في الإسلام ، أي ، عيد الأضحى وعيد الفطر [٨٧] ، كان عيد الفطر ، الأول في ترتيب التقويم الإسلامي ، يعني ، بطلوع هلال شوال ، الفراغ من أداء فريضة الصوم السنوية الممثلة في شهر رمضان [٨٨] ، كان هذا الصوم مرعيًا بدقة من قبل كل الأفراد البالغين في الأسرة ، اللهم إلا بعض الإعفاءات التي نظمتها قواعد الدين بصورة محكمة ، وحين يأتي في الصيف فإنه يعوق بطريقة ما السير الطبيعي للحياة اليومية ، حيث يخصص الصائمون ساعات الصباح ، وحين تشتد الحرارة للنوم ، ولكن على العكس - حين تغرب الشمس- وما كاد الناس يتناولون الوجبة الأولى ، حتى تدب الحياة في الشوارع ، وتفتح المتاجر أبوابها حتى ساعات متأخرة من الليل ، ويأتي دور الباعة الجائلين لبيع الحلوى والمشروبات الطازجة حتى يكاد كل منهم يكفي حاجة زبائنه ، وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان كانت تضاء المساجد جميعها ، حيث تمتلىء بالرواد الأتقياء ، وذلك كإشارة تعلن - بعد طول انتظار - عن قدوم العيد والعودة مرة أخرى إلى إيقاع الحياة الطبيعي .

أما عيد الأضحى ، الذي يحتفل به يوم العاشر من ذي الحجة - بعد التحلل من الصوم بما يزيد قليلاً عن تسعة أسابيع ، فقد كان بالنسبة للأسرة المسلمة دافعًا خاصةً للبهجة ، حيث لا يكف أحد ، من الأغنياء أو الفقراء ، عن الوفاء بواجب الأضحية فيذبح خروفًا على الأقل ، وهكذا فإن مثل هذا الواجب كان يمثل بالنسبة لأرباب الأسر الفقيرة والمحتاجة شاغلاً كبيراً ، ولكنهم كانوا يصرون ، قبل أيام من العيد ، على شراء الخروف العائلي وشراء الملابس الجديدة لزوجاتهم وأبنائهم ، وكان رجال البرجوازية الذين يملكون عدداً من المزارع يتلقون في هذا اليوم من مزارعيهم ، أكثر من ضأن وعُلف جيداً ، هذا بالإضافة إلى بعض المؤن البسيطة مثل الدجاج ، والبيض والخضراوات والفواكه ، في القرن الثاني عشر ، قام ابن قزمان القرطبي بعمل وصف مبهج في العديد من أزجاله [٨٩] ، متوجهًا إلى أحد حُماة الأدب والفنون ،

للاهتمام الذى يوليه غالبية آباء تلك الفترة ، والهم الذى يصيبهم بسبب هذا الشراء السنوى للخروف ، ولكن فى نفس الوقت ، يتحدث عن البهجة التى كانت تعم بسببه فى كل بيت ، وذلك لأن مثل هذا العمل سوف يأتى بوليمة يتناوب عليها الأطفال والكبار من أفراد الأسرة على مدى عدة أيام .

وقدوم العيدين يعنى بالطبع أداء الصلاة الخاصة بهذه السُنّة فى جماعة ، بالمُصلى ، الكائن خارج حدود المساكن ؛ وكان يؤم الناس فى هذه الصلاة إما القاضى أو صاحب الصلاة (٩٠) ، ولأداء هذه السنة كان الرجال جميعهم ، وربما النساء أيضاً ينتقلون بالجملة إلى المصلى فى الهواء الطلق ، حيث ينغمس الجميع فى أعمال الشكر والتدفقات العائلية ، ثم العودة فى الحال إلى المدينة ، حيث قد وصل الاحتفال بالعيد قمته ، وسط نشاط غير معهود .

وبعد حلول القرن العاشر بكثير بدأ الاحتفال بعيد المولد النبوى ، فى إسبانيا الإسلامية والمغرب على حد سواء ، وذلك فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، وعلى النقيض من هذا ، ويبدو أن ذلك كان يحدث فى كل الفترات الزمنية ، لم يكف الناس عن الاحتفال ، فى المدن والقرى على حد سواء ، بعيدين فلكيين ، عُرفًا فى الغرب والشرق باسميهما التاليين : النيروز والمهرجان ، هذان العيدان – اللذان ، يرتبط بهما كل من المسلمين والمستعربين بنفس الدرجة ، قد تغلبا على العيدين الدينيين للمسلمين وذلك لحلولهما فى صيف واحد ، حيث أتيا محددين من قبل التقويم القيصرى ، كما رأينا ، كان معمولاً به دائمًا فى شبه الجزيرة الإيبيرية لتحديد الفترات المختلفة للعام المالى والزراعى .

وبالنسبة لتاريخ عيد النيروز ، والذى كان فى بدايته محدداً باليوم الأول من السنة الشمسية الفارسية ، فقد عانى ، حين اتخذه العالم الإسلامى عيداً ، العديد من التعديلات المتلاحقة ، ففى إسبانيا يبدو أن الاحتفال به كان يقع فى يوم الاعتدال الربيعى ، دون أن نخلط هذا بالاحتفال برأس العام الميلادى ، أى الأول من يناير من التقويم القيصرى ، والذى ما زال يحتفل به كل فلاحى الشمال الأفريقى ، ويبدو أن المؤلفين الأندلسيين قد نسوا أن يخبرونا عن التاريخ الحقيقى للاحتفال بعيد النيروز فى إسبانيا ، ولكن ، على العكس ، يخبرنا هؤلاء بأن ذلك العيد كان يعتبر أكثر الأعياد

مناسبة لحفلات الزواج ، وأن العادة جرت على تكليف البعض بصناعة عجائن تشكل في هيئته « مدينة » محاطة بسور ، وهو الأمر الذى يعيد إلى أذهاننا دائماً صورة « كعك الملوك » فى مناسبة عيد الغطاس (٩١) .

أما فيما يتعلق بعيد المهرجان ، الذى كان الاحتفال به فى الرابع والعشرين من شهر يونيو - كما أشار ابن حيان على وجه التحديد فى الفقرة التى ذكرناها آنفًا إلى التغييرات التى أدخلها زرياب على الزى - كان يأتى متوافقًا مع « عيد القديس يوحنا » ، وفى القرن العاشر ساد ، من أجل تمييز هذا التاريخ ، اسم « أنصاره » ، وظل حيًا إلى الآن ، على التسمية الفارسية القديمة ، كما كان هذا العيد فرصة أيضًا لكى تقوم كل أسرة بإعداد وتناول الولائم الخاصة ، وكذلك الشعائر الدينية ، حيث إن هذا لن يتكرر بعد ذلك طوال العام ، وكما نرى ، فإن الأعياد ، الدينية منها والفلكلورية ، كانت - على وجه الخصوص - بالنسبة للعامة من سكان المدن وسكان الريف على الأقل ، فرصة لتحسين الوضع الروتينى واستبدال الطعام القليل اليومى بآخر يزيد عنه كمًا ونوعًا (٩٢) .

- احتفاليات الشارع : El espectaculo de la calle

لم تكن شوارع الأندلس تُعدم أيام الحركة والبهجة التى دعت إليها العودة الدورية لهذه الأعياد العديدة ، والتى كانت تلك الشوارع تقدم فيها ، داخل مدنها المختلفة ، إلى أولئك الذين يجدون أوقاتًا لا يشغلهم فيها شىء ، المناسبات العديدة للتسلية والتنزه دون ما هدف محدد ، وفى الشوارع الضيقة المجاورة لسوق الملابس ، وسوق الحرير ، حيث كان الباعة يترصدون الزبائن ، كانت ثلة من الناس تجتمع بعد الغداء لحضور المزاد المنعقد هناك ، والذى كان يعلن عنه من قبل السماسرة ، أما فى الميادين ، فقد كان سكان المدينة والفلاحون القادمون إليها لقضاء حاجياتهم يقيمون حلقة حول « المبهرج » البهلوانات الذين ، فى تخفيهم فى زى القرويين ، كانوا يقلدونهم فى تعبيراتهم البلهاء ودهشتهم فى أول لقاء لهم بالمدينة ، وفى مكان آخر ، كان هناك المشعوذون ، الذين يحضر إليهم الناس على إثر قرعهم للطبول ، بالإضافة إلى البهلوانات والملهين يمارسون ألعابهم الأكروباتية ، وآخرون يعرضون خيال الظل الصينى ، والبعض الآخر الذى يقوم بقراءة الطالع (الحاسب) والحكاءون (القاص)

الذين يروون جانباً من سيرة الرسول أو حكايات غريبة وعجيبة أو قصصاً بذيئة [٩٣] ، كان جمهور الفضوليين يتكون من أناس عديدين يختلط بهم السقاءون ، والنجارون الذين يحملون في أيديهم أطباقاً يتمايلون بها ينبعث منها دخان كثيف ، واللصوص والقوادات ، ودائماً ما كانت تقع المشاجرات ، ويتبادل الحاضرون اللكمات والشتائم ، أو كانت تُسمع صيحات أحد المشترين حين يتنبه إلى أن حافظة نقوده قد سرقت منه ؛ ولكن حضور بعض رجال الشرطة كان كافياً لإعادة النظام وتفريق جموع الناس .

أما يوم الجمعة ، وهو يوم تخرج النساء فيه ، فقد كان يشهد حضوراً كبيراً للناس فى طريق المقابر ، وذلك بمجرد الفراغ من أداء الصلاة فى المسجد الجامع ، يشهد حضوراً من الجنسين ، الرجال والنساء ، كان التدفق من قبل رجال ونساء قرطبة يتوجه على وجه الخصوص صوب مقبرة الربض Arrabal ، عابراً المعبر الرومانى ناحية شقندة ، وفى الطريق ، كانت مجموعة من المتأنقين ، فى أبهى حلة وصورة ، تبحث عن المغامرات وتترصد النساء اللاتى يذهبن وحدهن ، فتواتيهم الجرأة على توجيه الكلمات إليهن ومغازلتهن بكلمات تشبه – بلا شك – تلك التى يوجهها شباب اليوم إلى السيدات فى مدينة الأندلس [٩٤] وحين تغرب الشمس يسرع الجميع فى العودة إلى بيته ، وإذا ما أقبل الليل ، ما كان يُسمع سوى وقع أقدام جنود الدورية فى الشوارع ، وبعض رواد الأماكن الليلية الذين يذهبون إلى بيوتهم فى وقت متأخر أو شرذمة من اللصوص التى تسير متأهبة لمهاجمة المارة ، وتجريدهم من أمتعتهم وهم غافلون .

ولكن الاحتفاليات التى كانت تحظى بحضور عدد كبير من الناس بعيداً عن شوارع المدينة التى تبعث على الضجر والملل ، بالإضافة إلى تنفيذ الأحكام الكبرى (الإعدام) وعرض جثث الذين تم إعدامهم على منصات خشبية ، هى العروض العسكرية ، التى كانت تنظم فى مناسبات وظروف خاصة واستثنائية ، مثل وصول سفير ما أو خروج العاهل لحضور عرض عسكرى أو تجهيز ضائقة ، وهى نشاطات كانت تجرى ، داخل قرطبة ، على مسرح مشترك ، ألا وهو الطريق المؤدى إلى مقر إقامة الخليفة فى مدينة الزهراء ، كانت تلك العروض تبهر الجموع الحاضرة ، وخاصة عروض الفرسان المبهرة التى يشترك فيها أفراد الحراسة ، وكتائب السود ، الخيل فى

حرائر ملونة من قبل الفرسان الشابين والملابس القيمة التى كان يرتديها الجنرالات والضباط الذين كانت تلمع فوق رؤوسهم الخوذات الذهبية أو الفضية كما لو كان يشع منها ألف شعاع معكوس(٩٥) .

- **الصيد والألعاب : La caza y las juegos**

لقد رأينا كيف أن إسبانيا الإسلامية كانت سوقًا رائجة لاستهلاك قدر كبير من اللحوم الواردة من أنشطة الصيد المختلفة، سواء من الطيور أو غيرها ، فهناك الحجل ، والحمام المطوق ، وعلى وجه الخصوص الأرنب الجبلى ، ولكن بما أن هذه اللحوم لم تكن لتؤكل فى بداية الأمر إلا إذا كانت مذبوحة وفقًا للنصوص الشرعية ، فقد كان هناك من يمارس الصيد فى الخفاء فيصطادها فى شرك ثم يبيعها لتجار المدن .

كانت رحلات الصيد تعد نوعًا من التسلية المفضلة بالنسبة للعاهل الأندلسى ، ولحاشيته ولأفراد الطبقة الأرستقراطية ، وكثيراً ما تحدث المؤرخون عن غزو مجموعات تمتطى ظهور الجياد لرحبة قرطبة أو المساحات التى كانت تغمرها مياه الوادى الكبير ، والتى كانت تلك المجموعات تذهب إليها فى الشتاء ، بحثًا عن الإوز الوحشى ، والبط ، وعلى وجه الخصوص طيور الكركى ، والتى كانت تعد الغنيمة الأثمن منذ القرن التاسع وكان يتم اصطيادها باستخدام الصقور(٩٦) ، إن تربية الصقور - التى تركت بصماتها فى علم أسماء المدن فى شبه الجزيرة (٩٧) - كانت أمراً شائعًا جداً فى إسبانيا ، وكانت هناك أنواع كثيرة منها : فما كان يسمى منها " شد هانق " كان يمثل نوعًا خاصًا ، وفقًا لتقويم قرطبة (٩٨) ، ظهر فى إقليم بالنسيا ، ونوع آخر ، كان الطلب عليه كثيراً أيضاً ، تربى فى منطقة لبلة Niebla ، والذى تسمى باسمها ، فأصبح يعرف باسم " اللبلى " أو، النبلى " ، (٩٩) ؛ وأخيراً ، فقد كانت أراضى لشبونة ، وفقًا لما يذكره أحمد الرازى (١٠٠) ، تشتهر بصقورها ، التى كانت تحط فى سرعة لا نظير لها حين تنقض على فريستها .

وإلى جانب عمليات الصيد التى كانت تقوم على العنف ، بين المجتمع الأندلسى ، كانت هناك موضة للصيد بالكلاب ، لا تقل أهمية عن تلك ، ففى الأقاليم الوعرة ذات

الأشجار الكثيفة ، وخاصة على سفوح سلسلة الجبال السمراء المعروفة باسم " سيراموورينا " ، كانت تقام التجمعات للاحتفال بعمليات القنص والصيد الأكبر ، والتي فيها نرى كما هائلاً من الخنازير البرية ، والظباء والأيائل ، بعد إثارتها من قبل أسراب الكلاب السريعة ، تأخذ طريقها ، يرقبها المراقبون ، إلى منطقة مكشوفة من الغابة ، حيث تذبح بالسكاكين (١٠١) ، وفي بعض الأحيان كان العاهل القرطبي يتغيب عن محل إقامته لعدة أيام لخروجه في رحلة من رحلات الصيد ؛ ولكن مثل هذا الخروج كان في الغالب محط نقد كبير من قبل سكان العاصمة (١٠٢) .

وفى فترتى الإمارة والخلافة على حد سواء ، ساد نوع آخر من أنواع التسلية المحببة والمفضلة بين علية القوم ، ألا وهو المتمثل فى لعبة الصولجان ، والتى كانت لعبة شائعة فى نفس الوقت فى الشرق العباسى (١٠٣) ، من بين آخرين من خلفاء الدولة الإسبانية الأموية ، قام الحكم الأول بممارسة هذه اللعبة وتميز فيها ، وربما أنه فى تلك الفترة ، كما حدث بعد قرون لاحقة فى غرناطة ، كانت تنظم ، فى ميدان محاط بسور خشبى ، بعض مصارعات الحيوانات ، وخاصة تلك التى كانت تدور بين الثيران والكلاب ، وهى ما يمكن النظر إليها على أنها كانت تمثل فى فترة العصور الوسطى النواة الأساسية لمصارعات الثيران ، أما المصارعات التى كانت تجرى فى أماكن مغلقة ، فيبدو أنها ترجع إلى فترة لاحقة على القرن العاشر ، وهو الأمر الذى ينطبق أيضاً على سباق الخيول ، حيث إن فن الفروسية لم يتزايد فى إسبانيا إلا بعد أن قام الفرسان المغاربة ، وعلى وجه الخصوص الضباط الأفارقة ، والذين تم إحضارهم إلى إسبانيا حين زاغت شمس الأمويين ، بتعليم هذا الفن للجنود الإسبان ، وفقًا للطرق والتعاليم الواردة من الشمال الأفريقى .

أما لعبة الشطرنج ، التى أدخلت إلى الساحة القرطبية فى القرن التاسع على يد الموسيقى زرياب أو على يد مهاجر عراقى آخر ، قد حازت بداية من تلك الفترة النجاح الأكبر فى إسبانيا الإسلامية (١٠٤) ، وتم اتخاذها كلعبة ، إلى جانب المصطلحات الخاصة بسير اللعبة والقطع الموضوعة على اللوحة ، من قبل بلاط ليون ، تحت نفس الاسم الشرقى ، بعد أن اعتراه شىء من التشويه فأصبح ينطق « أخيدريث » وسرعان ما أصبحت الأندلس تعج بالكثير من الخبراء فى هذه اللعبة ، والتى أطلق عليها الغزال « لعبة الشيطان » وذلك فى قصيدة موجهة إلى ابن أخيه ، الذى كان من الشغوفين

بهذه اللعبة [١٠٥] ، وفى القرن الحادى عشر ظل الشطرنج يواصل أهميته حتى أصبح موضة بين الناس ، حتى أن بعض الخلفاء ، مثل المعتمد بن عباد ، كان يملك لوحات خشبية قيمة وأخرى من العاج المطعم بالذهب [١٠٦] .

ولنضف هنا بضع كلمات عن ألعاب القمار ، والتى رغم أنها محرمة من قبل الإسلام إلا أن ذلك المنع والتحريم لم يصل إلى حد التطبيق الحرفى إلا فى حالات استثنائية ، فى الشرق والغرب على حد سواء [١٠٧] ، ولا يوجد بين أيدينا سوى معلومات زهيدة عن مثل هذه الألعاب ، وكل ما يمكن استنتاجه من جملة أطلقها المحتسب (ابن عبدون) [١٠٨] وبعض الألفاظ المدونة فى المحفوظات هو أنه فى القرن الحادى عشر ، وقبل ذلك بلا شك ، كانت الأندلس بما فيها قرطبة تعج بالعديد من لاعبى النرد ونوع آخر يطلق عليه الداما (القرق) ، وهى ألعاب كانت تؤدى بممارسيها إلى حالة من الإفلاس التام فى بعض الأحيان .

- حرية العادات : La liberted de costumbres

كان الرقباء المتشددون ، الذين لم تكن تخلو صفوف الفقهاء منهم فى مختلف المدن الأندلسية ، يحملون فى كل فترة على الحرية التى تنتاب عادات جزء كبير من أبناء وطنهم ، ونظراً لأن هؤلاء الرقباء لم يكن يلحقهم اللوم - ولم يكن ذلك فى كل الأحوال وفقًا لما نملكه بين أيدينا من دلائل - فليس أمامنا إلا أن نعطيهم الحق ، ويبدو - فعلاً - أن المجتمع الأندلسى ، فى القرن التاسع والقرون التاية ، لم يكن يحسد فى شىء ، فيما يتعلق بالعادات الداعرة ، المجتمع البغدادى فى نفس الفترة الزمنية ، وحتى نعى مثل هذا الأمر يكفينا أن نقرأ بعض صفحات كتاب « طوق الحمامة » ، والتى يروى فيها ابن حزم بكل سرور طرائف أكثر من وعرة ، دون أن يرد على ذهنه ولو للحظة حذفها من روايته أو تقديمها على أنها أحداث استثنائية .

ومن الخطأ الجسيم أن نعتقد بأن حب المرأة كان يتحكم فى فترة العصور الوسطى فى الحياة العاطفية والجنسية للرجل الأندلسى ، أيًا كانت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها والوسط الذى نشأ فيه ، ومما لا شك فيه أنه أحب النساء كثيراً ؛ ولكن هذا التوجه كان يكبح داخله فى حالة نادرة وجهة أخرى ، خلقية إلى حد ما ، ألا وهى الميل نحو الشذوذ .

ومـا إن عرضنا هذه الملاحظة ، يبـدو من غيـر المفيـد الإلحـاح فى هذا الجـانب ، وحتى نثبت أن اللواط كان شائعًا بكثرة فى إسبانيا الإسلامية بحيث أصبح فى فترة معـينة أسلوبًا طبيـعيًا للعلاقـات الجنسيـة ، فيكفى أن نذكر ، من بين أحداث أخرى عديدة ، حب الولد للخليفة الحكم الثانى (١٠٩) ، وهو بيت الشعر الساخر الذى أطلقه ضد القاضى بن السـالم (١١٠) ، أو الطرفة الغريبة – التى يشير إليها ابن حزم بكل تفاصيلها ، وكذلك الضبى كاتب التراجم والسير (١١١) – والتى تتلخص فى توضيح كيف أن أحمد بن كليب ، الشـاعر والنحوى القرطبى ، قـد مات كمداً فى عام ١٠٣٥ (٤٢٦ هـ) بسبب أن واحـداً من أبناء بلدته ، من عائلة أندلسية رفيعة ، لم يتجاوب مـعه فى حبه وهواه ، وبعد ذلك ، نرى أن ديوان ابن قزمان يعج بالتلميحات إلى مثل هـذا الحب غير المشروع ، والـذين أصبـح الطـواشي مـن أول المصـابين بـه والبـالغين من الإسلافيين الذين طال بهم الأمـد فى أحضـان القـصور الملكية وبيوت الأشراف . وكذلك ، فما كانت مدينة مثل قرطبة وبقية المـدن الأندلسية الكبرى تعدم وجود المخنثين المحترفين (١١٢) ، الذين كانوا يقدمون أنفسهم لمن يدفع أكثر .

وفيما يبدو ، فإن الدعارة الأنثوية لم تتأثر بمثل هذه المنافسة ، حيث كان زبائنها فى الغـالب يتـمـثلون فى الغـوغـاء من أهل المدينة ، وخـاصـة من الفـلاحين الذين كـانوا يفدون إلى المدينة لشراء حاجياتهم ، كانت العاهرات من النسـاء يفضلن الخان كمكان لممارسة نشاطهن ، ولكن يكلفن بدفع ضريبة معينة لبيت المـال (١١٣) ، وهو الأمر الذى يفسر لنا ذلك الاسم الذى أطلق عليهن فى اللغة الإسبانية نظراً لاشتقاقه من العربية ، ولكنه كانت توجد فى بعض المدن ، مثل قرطبة على وجه الخصـوص ، بيوت دعارة ، أطلق عليها بنفس الطريقة بيوت الخراج (دار الخراج) (١١٤) .

إن سـهولة الحصول على الخمور وتناولها فى المدن الأندلسية قد أدت إلى تزايد مـخـاطر حـرية العـادات (١١٥) ، ولا ننسى أنه فى القرن التـاسع كـان يوجـد فى مكان يعرف بشقندة Secunda (١١٦) سـوق للخمـور استـأجره أحد المستـعربين(١١٧) ؛ كانت هذه السوق ، التى أعيد فتحها بعد إغلاق لفترة طويلة ، وذلك بسبب العائد الكبير الذى كان يعود على الخزانة العامـة من ورائه(١١٨) ، تمون العديد من الحانات ، التى تعمل بإذن رسـمى وغيـرها على حد سـواء ، والتى كـانت تمارس نشاطها وتقدم خدماتها

للشاربين فى مختلف أحياء العاصمة ، كانت تلك الأماكن المعدة للشراب (الحانة أو الماخور) [١١٩] تعج بالعديد من الزبائن إذا ما قامت على إدارتها بائعات ، جميلات ، غير ضنينات بالغرام والهوى[١٢٠] ، فى مثل تلك الحانات والمواخير تواجد الزبائن من المسلمين جنبًا إلى جنب مع المستعربين ، فالعديد من الإشارات الأدبية يجعلنا ندرك أنه فى ضواحى المدن ، وخاصة حول الأديرة المسيحية[١٢١] ، كانت توجد بعض الأماكن التى تقدم وجبات خفيفة ، شبيهة جدًا بالفنادق التى نراها على الطريق فى الوقت الراهن .

كانت صحبة المخنثين أو النساء الساقطات وقضاء الليالى فى الحانات بين هستيريا الثملين بفعل الخمر أمورًا ، بداهة ، كثيرة الشيوع فى قرطبة مثلها فى ذلك مثل بغداد أو أى مدينة كبيرة أخرى من مدن الشرق فى نفس الفترة ، وما كانت تغنى ، هنا وهناك ، التهديدات والتوبيخات التى كان يطلقها الفقهاء من أجل إيقاف مثل هذه الإباحية ، كما لم تكن مفيدة فى هذا المجال أيضًا أعمال القمع الوحشية من قبل رجال الشرطة ، كان بعض الفجرة الضالعين يتهمون عن طريق إشهار قانونى بالخسة والدناءة (تجريح) ، وهو الأمر الذى كانوا يعيرونه قليل انتباه ، ولكنه كان يمثل عقوبة شائعة فى إسبانيا ، حيث هناك مدونات ما زالت تحفظ لنا مثل هذه الإجراءات[١٢٢] ، وآخرون - الأمر الذى يعد أكثر خطورة - كانوا يتعرضون للاتهام بجرائم الزندقة لكلمات خرجت من أفواههم ضد تعاليم الدين فى لحظة لعبت فيها بنت الراح بعقولهم[١٢٣] ، رغم أنها كانت تمثل ، أكثر من كونها تعبيرًا ، التنديد العام بحياة فاضحة مكشوفة أمام أعين الجميع ، أما فى الخفاء ، على النقيض من ذلك ، وبرصانة نسبية تعمل على الحفاظ على المظاهر ، فقد كان مسموحًا بخرق قواعد السلوك القويم بصورة أكثر مما هو مسموح به لعامة الشعب ، من قبل الطبقة الأرستقراطية ، ففى قصورهم وأبعادياتهم الواقعة فى أجوار المدن ، كان عليه القوم يقومون دون ما عقاب فى كل الأحوال وبدون معرفة بأدنى حدود التوقف - بتكريس أوقات طويلة للشراب ، وإطفاء الظمأ الذى يحسونه تجاه المتع والملذات وإطلاق العنان ، كوسيلة لإطفاء هذا الظمأ ، لزيغ الشهوانية [١٢٤] .

الموسيقى والرقص : La musica y la danza

كان الغناء والموسيقى والرقص يمثلون ، فى القرن التاسع ، فى إسبانيا وبقية العالم الإسلامى ، أنواع المتع والتسلية الدنيوية الأكثر اعتباراً وتقديراً ، وما من حفلة راقصة أو مناسبة للمتعة ، إذا ما صدقنا الروايات التى أوردها الشعراء والأدباء ، إلا وظهر فى المقام الأول الأهتمام بالموسيقى والرقص ، أو بالأحرى الغناء ، حيث ما كانت الموسيقى والرقص بين جنبات الشرق أو الغرب الإسلامى ، إلا لازمًا من لوازم مثل تلك المناسبات (١٢٥) .

ولقد ترك لنا المؤلفون الأندلسيون ، وخاصة ابن بسام – بالنسبة لفترتى الخلافة وملوك الطوائف – أوصافًا صاخبة وصادقة لبعض الحفلات الليلية ، التى كان يقدمها هذا أو ذاك من أفراد الخاصة بمدينة قرطبة ومدينة أشبيلية أو غيرهما من المدن ؛ وفى تلك الحفلات ، كان المدعوون ، بمجرد أن يتناولوا طعامهم وشرابهم الوفير الذى يلعب بعقولهم ، يشهدون عرضًا غنائيًا راقصًا كهدية إليهم وذلك على إيقاع نغمات تعزفها فرقة مكونة من العازفين والعازفات ، وأكثر هذه الأوصاف استحضاراً على ما يبدو هو ذلك الذى يذكره أحد المؤلفين الشرقيين (١٢٦) وفقًا لما يرويه أحد الأدباء الذى تواجد فى ملقة عام ١٠١٦ (٤٠٧ هـ) ، أى ، فى فترة حكم على بن حمود التى سرعان ما زالت وتوارت ، فى هذه الحكاية يروى لنا كيف أن هذا الأديب ، الذى تواجد مريضًا أو ساهراً فى سريره ، بعد تأذيه من الصخب الصادر من حفلة ليلية فى أحد البيوت المجاورة ، اختلط فيها الغناء بالأصوات غير المتناغمة الصادرة عن المزاهر والطبول ، وقد وقع فى غيبوبة لسماعه تلك الموسيقى الطائشة والتى كانت تعزف بمخفات ، وأصبحت تدق مسامعه ، نهض من فراشه ، ومن خلال سطح يطل جيداً على البيت الذى يشهد هذه الحفلة الصاخبة ، تمكن من مشاهدة العرض ، الذى يصفه لنا هكذا : « كانت هناك ، فى وسط مبنى هائل ، حديقة كبيرة ، تجمع فى وسطها عشرون شخصًا من المدعوين ، وأمامهم كؤوس الخمر والفواكه ذللت لهم تذليلاً ، مجموعة كبيرة من عازفات المزاهر والطبول وأدوات موسيقية أخرى أمامهن قائمة لا يعزف عليها أحد ، وفى الجانب الآخر ، كانت إحدى الفتيات تجلس ، حاملة المزهر

فوق ركبتها ، كان الحاضرون جميعًا يحدقونها بنظراتهم ، وأما هي ، فبينما كانت تعزف ، أخذت تغني الشعر ، بيتًا تلو الآخر » .

ومما لا شك فيه أنه كان على المرء أن يصبح أميرًا أو عظيمًا من عظماء القوم حتى يصبح بمقدوره أن يتباهى بمثل هذا العرض الفاخر وتلك الحفلات المبهرة ، والتي كانت في بهائها تنم عن أصول بغدادية تفوق كونها مجرد عادات أندلسية خالصة . ومن البديهي أن مثل هذه العروض كانت تقدم تنوعًا كبيرًا ، قبل أن تصل إلى هذه الدرجة ، قليلاً أو كثيرًا ، من الانحطاط الذي أوصلها إلى حد تحولت معه إلى سهرات ماجنة ، كيف لنا أن نتخيل ، ولا حتى في أكثر صور الخيال جموحًا ، جموع الرقص التي حدثنا عنها ابن خلدون (١٢٧) : تلك الراقصات في زي الرجال ، الممتطيات ظهور الخيل الصغيرة المصنوعة من الخشب (كراج) المعلقة من ظهورها ، فيظهرن ، وفقًا لخطة مسرحية أعدت سلفًا ، كما لو كن فرقة نزال حقيقية ومتفردة ؟

ويبدو أنه – على عكس ذلك – لم يكن منكرًا في الأوساط الرفيعة ، وكذلك البلاط الملكي نفسه – فالأمير محمد الأول ، من بين آخرين ، كان هاويًا لدرجة كبيرة (١٢٨) – الحضور إلى حفلات الموسيقى والرقص بقليل من التطلعات والتي كانت تستبدل فيها الآلات الموسيقية المعقدة المستخدمة من قبل الفرق العراقية بمزاهر بسيطة ذات إيقاع صاخب ، وكذلك البوق في صحبة الدف وبعض الصناجات البسيطة .

وقد أطلق على مثل هذه الحفلات الموسيقية ، كما هو اليوم ، اسم « زمرة » كانت تكلف مالاً قليلاً ، حتى عند الاستعانة ، إلى جانب العازفين ، بإحدى الراقصات ، خفيفات الحركة والدوران ، واللاتي كن ينتسبن إلى أصول قادشية (١٢٩) ، ذكرها جوبينال Juvenal ومارشيال Marcial ، وظللن حريصات على هذه الهواية على مدى قرون لاحقة باعتبارها ميراثًا جميلاً في كل أرجاء الأندلس ، شهد هذا النوع من الحفلات والمناسبات في طابعها الأيبيري الأصيل الغناء والرقص ، ولهذا فقط استدعتها قريحة بن قزمان ، في القرن الثاني عشر ، في أزجاله ، بصورة تفوق تلك الأخرى من الحفلات الموسيقية ذات التراث الزريابي ، وعلى إيقاع المزمار والدف أخذت تتهادى مواكب الزفاف عبر شوارع قرطبة (١٣٠) ، وعلى نفس الإيقاع كان المشعوذون والمغنون الجائلون زبائنهم ، وبمقدورنا أن ندرك بأن هذه الموسيقى الحكيمة

(الراقـيـة) ، ذات النمط العـراقـى ، والتى يطلق عليـهـا فى هذه الأونة « الموسـيـقى الأندلسيــة » فى فاس وتونس ، فى الوقت الذى هاجرت فيه إلى مثل هاتين المدينتين مع أخر زمرة من الموريسكيين ، قد كانت مصاحبة لأخرى أطلق عليها « الموسيقى الشـعـبـيـة » والتى تعـد بمثابـة تعبـير حـقـيقى وعبـقرى من نتـاج العقلية والعبـقرية الأندلسية ، بما لها من أقفال بسيطة الإيقـاع وتصحبها الرقصـات المحتشمة والعفوية التى تشكل إيقاعاتها ونغماتها ، وهى لا تختلف كثيراً عن تلك التى تصحب برفـقة الجيتار التطورات الإيقاعية المتوافقة للراقصات الاشبيليات أو الغرناطيات أو تستهل الأغانى الشعبية الأجشة للغناء المعروف باسم « الفلامنكو » .

* * *

هوامش الفصل السابع

(١) تأتي الدراسة الوحيدة التي وردت بشيء من التفصيل عن الحياة الخاصة للمسلمين الإسبان ، تحت الخلافة والعصر الذي تلاها ، والتي حاول الكتاب إنجازها حتى الآن ، هي دراسة قام بها هـ. بيرس H. Peres في الجزء الثالث من الأدب الشعري المعنون : Poesie andaluse (ص٢٩٣-٣٩٢) وهي دراسة تقوم – خاصة ، على أساس من معلومات في الأدب الشعري ، ورغم أنها من أجل ذلك لاتعكس سوى صورة جزئية ومشوهة في كثير منها عن الحقيقة الواقعة ، لايمكن الحط من شأنها ، وهناك دراسة أخرى تتعلق بإسبانيا المسيحية في نفس تلك الفترة وهي :

Estampas de la vida en Leon durante el Siglo X de C. Sanchez-Albornoz.

(٢) على الرغم من طابعها الروائي ، وكون قوائم الملحقين الثالث والرابع (صفحات ١٨٦ – ٢١١) تأتي خاصة في صورة قيمة لدراسة مقارنة عن العقار (البيوتات) والملابس ، وكذلك فيمكن الاطلاع على :

- R. Le Torneau, Fes avant le protectorat, pp. 481 - 568.

- A. Mazaheri, La vie quotidienne des Musulmans au Moyen Age, X au XIII, Siecle, Pavis, 1951.

– حول الأسرة في إسبانيا المسيحية في العصر الوسيط ، يمكن الاطلاع ، خاصة ، على :

- L. G. De Valdeavellano, Hist, de Esp., I, pp. 684-686.

(٣) انظر :

- Levi - Provencol, en relisant le "Collier de la Colombe", apud. Al-Andalus, XV, 1950, p. 344.

(٤) مجموعات القيسي ، ص ٩٧ ، والجزيري ، ص ٥٧

(٥) كانت توجد في قصور الخلافة ، كما يذكر ابن حيان ، في المقتبس ، الجزء الأول ص ١٩٤ ، سيدة تدير الحركة والأعمال النسائية ، تسمى قهرمانة ، يأتمر بأمرها الطاهيات والخادمات .

(٦) انظر العمل المذكور : صفحات ٢٦٧ – ٢٦٨

(٧) كان المؤلفون الإسبان المسلمون يظهرون رصانة فائقة عند الحديث عن الخرافات العديدة بلا شك ، التي كانت شائعة في أرض الأندلس ، كما هي شائعة اليوم في الأراضي المغربية ، وخاصة بين النساء ، ومن المؤكد أن ممارسات السحر والشعوذة كانت تتمتع بإنتشار كبير مثل قراءة الطالع ، وبالإضافة إلى المهتمين بقراءة الأبراج الفلكية ، كان هناك عدد من أولئك الذين يفسرون الأحلام (المعبرون) انظر من أجل هذا : ابن الفرضي ، التاريخ رقم ٤٥٥ ، حيث يورد سيرة أحد المتخصصين في هذا الفن ، والمتوفى عام ٩٩٨ (٣٨٨) ، وكذلك : ابن باشكوال ، الصلة ، رقم ٢١٨ر١ – ولابد من الاطلاع أيضاً على :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 307 - 309.

(٨) انظر :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 398 - 400.

(٩) يمكن الاطلاع على بعض الملاحظات القيمـة فى هـذا الصـدد مثل التى وردت فى :

- C. Sanchez - Albornoz, La manjar espanola hace mil anos, en espana yel islam, Buenos Aires, 1943, pp. 83-141.

(١٠) انظر :

- E. ewtermarckp Les cevenonies du mariage au Moroc, lrad. J. Arin, Paris, 1921; R. Le Toumeau, Fes avant le protectoral, pp. 504-533.

(١١) الضبى ، بغية الملتمس ، ص ١٩٠ ، وكذلك :

- Levi - Provencal, En relisant le "Collier de la Colombe", Apud Al-andalus, XV, 1950, p. 364.

(١٢) وفقًا لما يذكره ابن سهيل ، أحكام كبرى ، ص ١١٥ ، من المخطوط الموجود بالرباط ، هناك طبيبة تلقت مبلغ أربعة دنانير نظير كشفها الطبى على فتاتين .

(١٣) مجموعة الجزيرى ص ٥٩٠ ، ٦٠

(١٤) نفس العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ١١٨ ، إشارة رقم ١٠٧ ، لقد رأينا أنه فى فترة الإمارة ، كان الأمراء الأمويون يعرفون فى أوروبا المسيحية بكنيتهم أكثر من أسمائهم ، وقد استمر الحال هكذا حتى القرن الخامس عشر ؛ وهكذا وصل اسم آخر ملوك بنى نصر فى غرناطة إلى الأجيال التالية معروفاً بالكنية «أبو عبدالله» أكثر من اسمه «محمد» .

(١٥) خصص ابن قزمان واحداً من أفضل أزجاله لامرأة تدعى أم الحكم (رقم ٦٢) ، كما أن هناك امرأة تدعى نجيمة كانت بطلة أغنيته المشهورة والتى تنتهى فيها كل المجموعات باسم مصغر يأتى متسقاً فى القافية مع هذا الاسم (رقم ١٠) .

(١٦) فى قائمة بنات الأمير عبد الرحمن الثانى ، التى يطرحها ابن حيان ، فى المقتبس الجزء الأول ص ١٩٥ ، نجد العديد من الأسماء النسائية العربية تحمل نهاية التصغير أو التكبير ، على سبيل المثال ، فطيمة «تصغير فاطمة» أو عيشونة (تكبير عائشة) .

(١٧) ابن سهل ، الأحكام الكبرى ، صفحات ٧٨ - ٩٩ - ١٥٤ من مخطوط الرباط .

(١٨) العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ٢٧٧

(١٩) انظر :

- Levi - Provencal, Islam d'Occident, I, p. 119. Peves, Poesie andaluse, p. 294.

(٢٠) ابن باشكوال ، الصلة ، رقم ٣٠٠ (ترجمة فيلا ، ص ٤٧٠ وإشارة رقم ٢) ، يقدم لنا النص الذى كان يقال بصوت مرتفع لحظة الدفن «فقط ستكون الشفاعة العظمى لمن أحب السنة والجماعة الإسلامية» ، انظر ، اشارة مرجعية رقم ٨٤٦ ، وهو يتكلم عن قرطبى توفى عام ١٠١٠ (٤٠١) ، حيث توجد معلومات غريبة

وملفتة للنظر ، تنسب إلى ابن حيان ، وذلك عن الطقوس الجنائزية ، والتي تكمن في استعمال عراقة بيضاء من القطن ، بالإضافة إلى الكفن ، هذا بالإضافة إلى عادة تبخير الجثمان باستخدام المجمر .

(٢١) حول هذا الموضوع يمكن الاطلاع على :

- Levi-Provencal, Ins Oriptions arabes d'Espagne pp. XXI-XXII.

(٢٢) نفس العمل : صفحات ٢٢ - ٢٥

(٢٣) على سبيل المثال مدفن السيدة مرجان ، في مدافن الأرابال ، التي أشار إليها النباهي ، في مرقبة ، ص ٧٩ ، متحدثا عن القاضي زرب (ابن زرب) (ص ٧٨ ، رقم مرجعي ٧٤) .

(٢٤) قام خ ، ريبيرا J. Ribera بتخصيص دراسة عن التعليم في إسبانيا الإسلامية ومراحله المتعددة وذلك بعنوان :

- La ensenanza entre los musulmanes espanoles y reimpresa en las disertaciones y opusculos, I, pp. 229-359.

(٢٥) مجموعات القيسي ، ص ١٠٠ ، ١٠١ ، والجزيري ص ٥٩ ، واستخدمها المؤلف Ribera ، العمل المذكور ص ٣٥٤) .

(٢٦) انظر على سبيل المثال : ابن الفرضي ، تاريخ رقم ٤٢٠١ ؛ ابن الأبار ، التكملة رقم ٣١٢

(٢٧) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII. pp. 47-51.

(٢٨) انظر مؤخراً :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 24-25.

(٢٩) انظر :

- Prolegonenes, Irad, De Slanf, III, pp. 288-289.

(٣٠) هذه الرسالة التي تستحق النشر والترجمة بكاملها ، تأتي مفعمة بوجهات النظر ذات الأهمية الكبرى ، على الرغم من أنها شخصية للغاية ، وذلك عن صورة العلوم التي سادت إسبانيا في القرن التاسع ومن الأعمال الكلاسيكية التي كانت أساساً للتعليم ، ولاندرى عنها أكثر من نص واحد ، في مخطوط موجود بمكتبة شاهد على باشا باسطنبول قام بتحليله أسين بالاثيوس :

(Un Codice inexplorade del : Cardobes Ibmn Hazm, en Al-Andalus, II, 1934.

وأما تحليل مراتب العلوم فيأتي في الصفحات ٤٦ - ٥٦) .

(٣١) في صورة ثانية من التعاقد ، القيسي ، ص ١٠٢ ، يذكر بأن أستاذ المدرسة يصبح لزاماً عليه أن يعلم الطالب القواعد ، والفنون الجميلة والآداب والشعر ، (فيما عدا شعر الخمريات والهجاء) .

(٣٢) انظر على وجه الخصوص :

- J. Gallotti. Le jardin et la maison arabe au Moroc, 2 Vols., Paris, 1925 p R. Le Tourneau, Fes avant le protectorat, pp. 445-499.

ومعه تخطيط هيكلي للدور السفلي بأحد البيوت البرجوازية متوسطة المستوى ، والذى من الممكن أن ينطبق بسهولة على أندلسيًا فى العصور الوسطى .

(٣٣) انظر ، على سبيل المثال ، الضبي ، بغية الملتمس ، رقم ١٢٥٤ر١ ، وهو يتحدث عن بعض الأسباب المرتجلة من قبل الشاعر ابن القيصرى .

(٣٤) جاء نص ابن لويون مترجما إلى الفرنسية فى :

(Esp. Mus., X-sicele) pp. 174-175.

وذلك وفقاً للنص العربى المنشور فى :

- La Crestomatia arabigo - espanola de lerchundi y simonet, Granada, 1881, pp. 136-137.

كما تمت ترجمة هذا النص عدة مرات إلى الإسبانية ، يمكن الاطلاع ، خاصة ، على :

- E. Garcia Gomez, Silla del Moro, Madrid, 1948, p. 112.

(٣٥) جاء هذا اللفظ خاصاً بالأندلسيين ، وذلك إذا ما صدقنا التعريف الذى يورده المقرى، نفح الطيب ، الجزء الثانى ، ص ٨٨ ، انظر أيضاً :

- Levi - Provencal, Fragments hist, sur les Berberes, p. 11k Peres, Poese andalouse, p. 315, nota l.

(٣٦) ابن سهل ص ٦٨ – ٧١ من مخطوط الرباط .

(٣٧) هكذا يقال فى مجموعة الجزيرى ص ٢٤

(٣٨) يمكن الاطلاع على :

- Simonet, Glosario de roces lber-y lat., p. 589.

(٣٩) الصلة ، رقم ٦٩

(٤٠) على وجه الخصوص ، بعض القصائد لابن مسعود ، جمعها أيضا ابن بسام فى الزخيرة ،١،٢، ص ٧٤ – ٧٨

(٤١) انظر أيضاً :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 315-316.

(٤٢) انظر :

- Le Tourheau, Fes avant le protectorat, pp. 562-563.

(٤٣) انظر :

- Brunschvig, Berbevie ovientale, II, p. 272, nota 7.

(٤٤) انظر :

- M. Rodinson, Recherches sur les documents arabes relatifs a la cuisine, Paris, 1950.

(٤٥) النباهى ، المرتبة العليا ص ٧٩

(٤٦) انظر نفس المرجع ، المجلد الرابع ص ١٧٢ (وفقًا لابن حيان ، المقتبس ، المجلد الأول ص ١٥١) .

(٤٧) حول المرقص يمكن الاطلاع على :

- Saqati, Manuel hisp, de hisba, glosario, pp. 33-34i Sevilla a los comienzos del siglo XII, p. 124.

(٤٨) حول الإسفنج والمجبنات يمكن الاطلاع على :

- Esp. Mus. X siecle, p. 189 y nota I.; Sevilla a comienzos deo siglo XII, p. 125.

(٤٩) انظر نفس العمل ، ص ١٨٠

(٥٠) حول الهريسة يمكن الاطلاع على :

- Sevilla a comenzos de siglo XII, p 117.

(٥١) انتقل هذا اللفظ زبيب ، إلى اللغة البرتغالية ومازال موجودًا بها ، ويتم إطلاقه على المشهيات عامة.

(٥٢) انظر ، على سبيل المثال ، ابن بسام ، الزخيرة ١ ، ٢ ص ١٧٧

(٥٣) يمكن الاطلاع على :

- Conard, op. Cit. p. 101, nota 6.

(٥٤) حول هذا الطعام الأندلسى ، الذى تنسب طريقة طهيه أيضا إلى زرياب ، انظر (ابن حيان ، المقتبس) .

(٥٥) العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ٤٨٥ انظر أيضًا :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 114.

(٥٦) وفقا لما ورد فى (Vocabulista, p. 318) فإن مصدع وليمة كان معمولاً به فى إسبانيا الإسلامية ويطلق على «الأكلات التى تقدم فى الأفراح» .

(٥٧) انظر المقرى ، نفح الطيب ، الجزء الثانى ص ٢٠٢ – ٢٠٥ وكذلك :

- Brunschvig, Berberie orientale, II,, p. 271.

(٥٨) انظر .

- Dictionnare detaille des noms de vetements chez les Arabes, Amsterdam, 1945.

(٥٩) إن أفضل الأعمال حول الملبس الحديث فى الشمال الأفريقى هو الذى قام به :

- G. Marcais, Le costume musulman d'Alger, Paris, 1930.

- Brunschvig, Berberie ovientale, II, pp. 276-381.

(٦٠) حول هذا الفقيه القرطبي يمكن الاطلاع على العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ١٥٢ - رقم مرجعي ٤٧

(٦١) أحكام كبرى ص ٦٨ - ٧١ من مخطوط الرباط .

(٦٢) يبدو أن عملية حجاب الوجه لم تكن معمولا بها في الواقع العملي ، ولهذا لم يكن واجبا على المرأة الالتزام به في مدن الأندلس ، فحين التقى الرمادي مع جالوا ، أتت إليه هذه مكشوفة الوجه .

(٦٣) المقتبس ، الجزء الأول ، ص ١٥١ ، وأيضاً المقرى ، النفح ، الجزء الثاني ص ٨٨

(٦٤) انظر نفس العمل - الجزء الرابع ، ص ٢٥١ ، مرجع رقم ١٥٤

(٦٥) يمكن الاطلاع على :

- Peres, Poesie andaluse, pp. 300-303.

(٦٦) في الجزء الذي تم اكتشافه حديثاً من المقتبس لابن حيان ، الجزء الأول ص ٢٢٩ ، نجد خبرا غريباً حول الأقمشة العراقية التي كانت تصنع سرا في بغداد للأمير محمد الأول ، بحيث يرى اسمه مكتوبًا على طرف الثياب باستخدام نفس النسيج .

(٦٧) حول الملابس المتخذة من قبل بلاط ليون في القرن العاشر ، انظر :

- M. Gomez Moreno, Iglesias mozarabes, pp. 126-128.

- A. Steiger, Zur Sprache der Moazraber, en Romanica Helvitica, XX, 1943, pp. 624-723.

(٦٨) وفي مقابل مايؤكده تيان ، (Tyan, organisation judiciaire, I, pp. 311-312) يمكن مقارنة ذلك بما ورد في :

- Brunschvig, Breberie orientale, II. p. 279.

(٦٩) الخشني ، قضاة قرطبة ، النص ص ١٠٩ ، وكذلك في المقتبس لابن حيان ، الجزء الأول ، ص ١٢٢

(٧٠) انظر نفس العمل ، المجلد الرابع ص ٤٥٧

(٧١) في جزء يذكره المقرى ، النفح ، الجزء الأول ص ١٢٧ - ١٢٨

(٧٢) بداية من هذه الفترة فقط يبدو أن اليهود ، بالإضافة إلى المسيحيين ، قد رأوا أنفسهم مجبرين على ارتداء أزياء ذات ألوان خاصة ، ووضع الزنار (النطاقة) .

(٧٣) ومن جانبه ، يذكر ابن الخطيب في الإحاطة ، الجزء الأول ، ص ٣٥ ، لامها ، ص (٢١) ويقدم لنا في القرن الرابع عشر بعض التفاصيل عن الزى الغرناطي ، والذى ظهرت فيه التأثيرات المغربية والأفريقية .

(٧٤) انظر :

- Saqati, Manuel hisp, le hisba, glosario, pp. 14-16.

(٧٥) فيما يتعلق بالمغرب الحديث يمكن الاطلاع على :

- Le Toumeau, Fes avant le protectoralt, pp. 247-250.

وللاطلاع على تاريخ حمامات أخرى غير الخليفية يمكن الاطلاع على :

- L. Torres Balbas, eu Al-Andalus, VII, 1942, pp. 206-210.

(٧٦) انظر نفس العمل ص ٢١٩

(٧٧) انظر :

- Levi - Provencal, Inscriptions arabes d'Espagne, unim. 219 - p. 195.

(٧٨) طوق الحمامة ، طبقة Petvof ، ص ٩٠ ، وجارثيا جوميث ص ٢١٣ وليفي بروفنسال ، ص ٣٥٩

(٧٩) انظر نفس العمل ص ٢٢٨

(٨٠) نفس العمل المجلد الرابع ص ١٧٠ ، رقم مرجعي ٨١

(٨١) مجموعة القيسي ص ٩٠

(٨٢) انظر :

- Sivilla a comienzos del diglo XII, p. 164.

(٨٣) انظر العمل نفسه ص ٢٤٧ – رقم مرجعي ١٢٦

(٨٤) انظر ، على سبيل المثال ، ابن سهل ، أحكام كبرى ص ١٠٥ ، من مخطوط الرباط .

(٨٥) الزخيرة ١ ، ٢ ، ص ٧٢ – ٧٣

(٨٦) انظر :

- Levie - Provencal, Inscriptions arabes d'Espagne, num, 176, pp. 164-166.

(٨٧) مثلما حدث في بقية الغرب ، ففي إسبانيا كان يحتفل أيضًا بعيد ثالث من الأعياد الدينية ، عيد «عاشوراء» العاشر من محرم ، والذي يصوم المسلمون فيه ويتم الاحتفال به بإعداد هائل للطعام ، كما يحتفل به – بعد ذلك ، في أفريقيا والمغرب ، بملابس تنكرية .

(٨٨) في اليوم الذي ينتصف فيه شهر شعبان ، أي أسبوعين قبل حلول شهر رمضان ، كان هذه اليوم يعد من الأيام المباركة السعيدة ، كما هو الحال الآن في المغرب ، وكان يصدر فيه عفو عن المساجين ، كما في الأعياد الكبرى . (انظر العمل المذكور ص ٩٠ – ٩١) .

(٨٩) انظر بداية الزجل رقم ٤٨ من الديوان .

(٩٠) انظر نفس العمل ص ٧٨ – ١٩٩ – ٢٠٠) .

(٩١) عن الاحتفال بالعيدين الفلكيين في إسبانيا الإسلامية ، انظر :

- Esp. Mus. X : siecle, page, 172, nota, I.

- Peres, Poesie andalouse, pp. 303-305.

(٩٢) العمل المذكور ص ٢٧٦ – ٢٧٧

(٩٣) حول هذه الأمور كلها يمكن الاطلاع على :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, pp. 54 y. 190.

- M. Asin, los caracteres y la conducta (trad, de la Risala ji mundamat al nafis de Ibn Hazm) Madrid, 1916, p. 33 y nota I (pp. 33-36).

(٩٤) نتذكر هنا اللقاء الذي جمع بين الشاعر الرمضي والأمة جالوا على الجانب الأخر من جسر قرطبة مثلما يصوره ابن حزم والضبي ، وانظر أيضاً :

- Levi - Provencal, En relisant le "Collier de la Colonbe" en Al-Andalus, XV, 1950, pp. 340-341 y nota 3.

(٩٥) هناك العديد من العروض التي كانت تتم في عهد الحكم الثاني تظهر في الجزء الثالث من المقتبس لابن حيان ، مأخوذة من المؤرخ عيسى الرازي ، ص ٥١ ، رقم مرجعي ٧٧

(٩٦) العمل المذكور ، المجلد الرابع ص ١٢١ – ٧١٠٠ وحول الصيد باستخدام الصقور يمكن الاطلاع على :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 346-349.

(٩٧) البيازيرة محلة في شمال البرتغال : انظر :

- D. hopes, Toponimia arabe de Portugal, en Revista lusitana, vol. XXIV, Oporto, 1926, p. 10).

(٩٨) ص ٢٥ ، ١٤ ، ٤٩

(٩٩) انظر نفس العمل : ص ٩٢

(١٠٠) اقتباس برتغالي في :

- Cronica geral de Espanha de 1944, ed. L.F. Lindley Cintra, Lisboa, 1952, T. II, p. 67.

(١٠١) حول الصيد بالكلاب انظر :

- Peres, ob. Cit. Pp. 345-346.

(١٠٢) نفس العمل : المجلد الرابع ، ص ٧٧ ، رقم مرجعي ٦٧

(١٠٣) انظر على وجه الخصوص :

Mez, Ren, Isl, trad, Vilak p. 486.

(١٠٤) حول لعبة الشطرنج في إسبانيا الإسلامية انظر :

- F. M. Parega Casanas, Libro del ajedrez, de sus problemas y sutilezas, de autor arabe desconocido, Madrid, Granda, 1935, T. II, pp. 73-78.

(١٠٥) ابن حيان ، المقتبس ، ا ، ص ٢٣٣

(١٠٦) انظر على وجه الخصوص :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 344 Y nota 2.345.

(١٠٧) انظر :

- Mez, Ren, Isl. Trad. Vila, pp. 485-486.

(١٠٨) انظر :

- Sevilla a comienzos del siglo XII, p. 182.

(١٠٩) نفس المرجع ، المجلد الرابع ، ص ٣٧٦ - مرجع إشارى رقم ٨

(١١٠) نفس المرجع ، المجلد الرابع ، ص ٤٠٨ ، إشارة مرجعية رقم ٣٩

(١١١) انظر :

- Levi - Provencal, En relisant le "Collier de la colombe" en Al-Andalus, XV, 1950, pp. 357 Y 363-368.

(١١٢) هذان اللفظان يردان فى Volcabulista . وكذلك عند Saqati فى :

- Manuel hisp. De hisba, glosario, p. 26.

(١١٣) وكذلك بالنهاية الرومانثية (Era) التى تدل على أسماء الوظائف المؤنثة Jarachera (خراجية) .

(١١٤) معجم ابن عبدون ، يذكر فيها مقابلاً لكلمة فندق . وعند ابن عذارى ، فى البيان ، الجزء الثالث ، ص ٨١ نجد التعبير : دار البنات .

(١١٥) حول تصنيع الخمر فى إسبانيا الإسلامية ، يمكن الاطلاع على نفس المرجع ، ص ١٥٩

(١١٦) لايبدو أن الأندلسيين كانوا يفرقون بين الخمر والنبيذ ، الكلمة التى كانت تطلق فى الشرق على «خمر التمر» يمكن الاطلاع على :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 367-368.

(١١٧) نفس العمل ، الجزء الرابع ص ١٣٠

(١١٨) انظر على وجه الخصوص :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 366-376 Y nota l.

(١١٩) يوجد هذا اللفظ فى مؤلف بن حيان ، المقتبس ، الجزء الأول ص ١٣٠ حين يتحدث عن عباس بن ناصح الجزيرى ، من أشهر الشعراء فى القرن التاسع .

(١٢٠) انظر على وجه الخصوص :

- Peres, Poesie andalouse, pp. 368.

(١٢١) انظر العمل نفسه ص ١٢٦

(١٢٢) مجموعة الجزيرى ص ١٠١

(١٢٣) انظر ص ٢٩٧

(١٢٤) حول حرية العادات فى إسبانيا المسيحية فى القرن العاشر يمكن الاطلاع على :

- Sanchez Albornoz, Estampas, pp. 149-15 Y nota 28.

(١٢٥) حول الموسيقى فى إسبانيا الإسلامية يمكن الاطلاع على :

- J. Ribera, la musica de las cantigas de Santa Maria, Madrid, 1922, e Historia de la musica arabe medieval y su influencia en la espanola, Madrid, 1927.

(١٢٦) الشيروانى ، حديقة الأفراح ، القاهرة ١٣٠٢ صفحة ، ص ١٢٧

(١٢٧) انظر :

- Prolegomenes, trad, de Salane, II, p. 421. Peres, Poesie andaluse, p. 390.

(١٢٨) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ ف ، ٢٥٩

(١٢٩) انظر :

- R. Menendez Pidal, Poesia arabe y poesia europea, Madrid, 1941, p. 14.

(١٣٠) نفس المرجع ، ص ٢٦٠ – ٢٦١

الفصل الثامن

الحياة الدينية والفكرية

تمارين الفصل الثامن :

١ - نظرة عامة على الإسلام فى الدولة الإسبانية :

الأموية - صحة المعتقد والغيرة الدينية - الردة وجرائم الزندقة - المسجد الأندلسى - الجهاد - الحج .

٢ - المذهب المالكى الأندلسى والإسهامات العقائدية الشرقية :

المدرسة المالكية فى إسبانيا الأموية - تغلغل المذهبين الشافعى والظاهرى الدعوة لمذهب المعتزلة - حياة الزهد - ابن مسرة وأتباعه .

٣ - التأثير الشرقى على الثقافة الأندلسية ورعاية الحكم الثانى للآداب والفنون :

الإسهامات الشرقية حتى منتصف القرن العاشر - الحكم الثانى ، رعايته للفنون وحبه للكتب - نظرة عامة على تاريخ الخلافة - الثقافة العلمية فى ظل الخلافة الازدهار الفنى .

١- نظرة عامة على الإسلام فى الدولة الإسبانية - الأموية

صحة المعتقد والغيرة الدينية :

سوف يتم الحديث هنا فقط من خلال وجهة نظر تاريخية عن النشاط الدينى والفكرى للأندلس تحت إمرة الأمويين ، لأنه فى حالة اللجوء إلى دراسة مفصلة عن جوانب عديدة عن ذلك النشاط ، والتى قد تم التعرض لبعض منها بصورة مبسطة ، فإن ذلك يعنى تجاوزًا كبيرًا لما نهدف إليه ، وكذلك فإنه يعنى عنوة ، بالإضافة إلى الشروح الفنية المسهبة ، ذكرًا لأعمال ومؤلفين فى سلسلة طويلة ومملة ، ولهذا كله ، فأكثر من قيامنا بتكرار معلومات يمكن العثور عليها فى الكتب البسيطة التى تتحدث عن الإسلاميات والأدب العربى ، نود أن نقصر حديثنا على تقديم وصف بسيط المناخ الدينى والعلمى فى إسبانيا الإسلامية فى فترتى الإمارة والخلافة ، وأن نبرز كيف أن المملكة القرطبية ، ســـواء فى مجال العلوم الإسلامية أو مجال المعارف الدنيوية - على الرغم من عزلتها السياسية ورغم بعض المحاولات التى كانت تجرى على استحياء للتخلص من التبعية ، والتى كانت تقتصر على مجال الشعر الشعبى - لم تتوقف عن إظهار الولاء الروحى للمشرق ، وأن نشير ، فى نهاية المطاف إلى استمرارية الإسهامات التى أرسلت بها بقاع العالم الإسلامى الأخرى إلى منطقة بعيدة ، وكيف أنها قد تلقت هذه الإسهامات ، ولكن علينا أن نبين بالتحديد فى صورة مبسطة كيف كان السلوك الدينى للمسلم الأندلسى فى القرنين التاسع والعاشر .

على مدى جميع مراحلها التاريخية خلال العصور الوسطى تميزت إسبانيا باحترامها الشديد للمعتقدات الدينية الصحيحة ، حين أعيد بناء دعائم المروانيين ، أصبح التحمس للمعتقد الدينى قاعدة أساسية للمملكة القرطبية والتى كان عليها - فى ظل الإمارة - أن تقتل دون ما رحمة تلك المحاولات الإلحادية الصغيرة والقضاء فى الحال على المحاولات النادرة التى كانت تهدف إلى تطعيم الجسد الأندلسى بدعوات الخوارج التى ظهرت فى الشمال الأفريقى[1]، فحين أسس عبدالرحمن الثالث الخلافة ، أصبح الاتجاه السنى سائدًا أكثر من أى فترة سابقة باعتباره المالك المطلق ، وذلك بهدف تكوين جبهة صد فى مواجهة الإلحاد الإسماعيلى والذى أقام عليه الفاطميون

دعائم أفكارهم من أجل تأسيس امبراطوريتهم ، دون أن يعملوا على إخفاء نواياهم فى رغبتهم الشديدة فى إضافة إسبانيا نفسها إلى تلك الامبراطورية ، وباسم الدين جعل الناصر خلافته في مواجهة الخلافة المضادة التى أعلن عنها الفاطميون ، وكذلك فقد أعلن المنصور بن أبى عامر نفسه نصيرًا للدين حين بدأ الحرب المقدسة ، بلا هوادة ، ضد المسيحية على أرض الأندلس ، وبالتالى ، فليس بمقدورنا أن نتهم بالمغالاة أولئك المؤلفين الأندلسيين حين يطلبون فى عزة المجد لوطنهم لأنه استمر على وفائه التام ، دائماً ودون ماملل أو تعب : للمذهب السنى ، فى ممارسة العبادة وتطبيق تعاليم وقواعد الإسلام على حد سواء .

ليس أمرًا مستغرباً أن يجد الدين لنفسه مكاناً ساميًا داخل دولة ثيوقراطية فى بنيتها مثل إسبانيا الأموية ، وأنه هو الذى حدد هويتها وطابعها وصاغ بصورة نهائية معظم مظاهر الحياة الاجتماعية ، وماعُدمنا المناسبات التى أبرزنا فيها سيادة العامل الدينى على ردود الأفعال الطبيعية والشائعة فى الأندلس فى مواجهة الظروف الأكثر شيوعاً فى حياته العادية ، ولكنه يعد من الخطأ من جانبنا أن نعتقد بأن مثل هذا الوضع الذى جرت عليه الأمور كان بحال من الأحوال خاصا بالأندلس . ففى نفس الفترة ، فى الشرق والغرب على حد سواء ، كان المؤمنون – أهناك حاجة لقول هذا ؟ يدورون فى فلك شبكة من المبادئ والتعاليم التى كانت تنظم سلوكهم الدينى والاجتماعى بصورة مماثلة ، وماكان لهم قدرة على التنصل أو الزيغ عن مثل هذه المبادئ ، إذ معنى ذلك وقوعهم هدفا للتأنيب واللوم من إخوانهم فى الدين ، وكذلك العقوبة الصارمة من قبل السلطات المخولة ، وعلى الرغم من الاختلافات – التى هى بسيطة فى الغالب الأعم – فى تفسير بعض العقائد الخاصة بكل واحدة من المدارس القضائية – الدينية التى كانت متواجدة على الساحة الدينية ، فإن نفس القانون الحياتى – الذى كان على الفرد أن يخضع له – وفى نفس مجموعة الممارسات الثقافية – التى كان على الفرد أن يقوم بها باستمرار وورع ، كانت سائدة أيضا فى دمشق والقيروان ، كما كانت سائدة فى بغداد وقرطبة ، ليس هناك مايسمى بالإسلام السورى أو العراقى . من الأحرى القول : إنه ليس هناك من إسلام أندلسى إلا بالقدر الذى يكتسب فيه هذا الإسلام ، حتى دون الرغبة على الإطلاق فى اتخاذه موقفاً

مستقلاً أو تعرضه لأدنى التغييرات فى جوهره – داخل إطاره الجغرافى والتاريخى – شكلاً خاصاً ومظهراً محافظاً وقديماً .

إن القدم والاتجاهات المحافظة هى ، بالفعل ، كما نبهنا لذلك مراراً وتكراراً ، تمثل الملامح التى اكتشفناها فى وجه إسبانيا الأموية ، وذلك بمجرد أن نوجه ناظرينا إلى عينيها ، وهناك ملمح آخر من بين هذه الملامح كثيراً ماأشير إليه ، هو قوة واستمرارية الغيرة الدينية للمسلمين الأندلسيين وربما أنه لم يحدث فى مكان آخر ، فى العصور التى نتحدث عنها ، إن تم الإعراب عن مثل تلك الغيرة بهذه الصورة من الإسهاب والتنظيم ، وكذلك بمثل هذه الحالة من الطواعية الشديدة ، مثلما كان الوضع فى إسبانيا ، من جانب الطبقات الدنيا والعليا فى المجتمع على حد سواء عن هذا الحماس الدينى ، وعن هذه الدقة فى ممارسة العبادة ، نملك بين أيدينا ألف دليل وإشارة لها قيمتها التى لايمكن أن نرفضها ، وحتى حين تؤثر على الجموع فى المدينة أكثر من تأثيرها على جموع القرى ، والتى كانت تضم – على جانب آخر – عددا من الأتباع المستعربين يفوق عدد المسلمين ، إن الوضع الذى تعرض له ابن حزم ، الذى أعلن بأنه كان يجهل ، حتى انتهى من فترة المراهقة ، جزءً من الشعائر الخاصة بالصلاة ، يعد ، على مايبدو ، أمراً عرضياً ، إن لم يكن حكاية أسطورية [٢] ، وإنه ليكفى أن نقوم بتصفح الأدب الذاتى الأندلسى حتى نقف على مدى النفوذ الذى كانت تتمتع به المبادئ والفروض الخاصة بالعبادة – والذى كان محل قبول من جانب الغالبية العظمى من المؤمنين – على سير الحياة اليومية .

تلك المثابرة الدينية من قبل المسلم الأندلسى لم تكن حالة طارئة ، ولكى يتسنى لنا تفسير هذا الأمر علينا أن نلجأ مرة أخرى إلى عامل العنصر البشرى ، ونتذكر تلك الكوكبة التى تكوّن منها المجتمع الإسلامى فى شبه الجزيرة خلال العصور الوسطى : أقلية من العرب ، ونسبة كبيرة من البربر الأصليين ، وأغلبية كثيفة من الإسبان المولدين ، لانعتقد بأننا سنكون مخطئين إذا مازعمنا بأنه – أكثر من العرب – كان هؤلاء الأندلسيون من ذوى الأصول البربرية والأهالى الأصليين من المسلمين الجدد هم الذين – جيلاً بعد آخر – أخذوا على عاتقهم مسئولية الحفاظ على سيادة الدين فى وطنهم غير ملموسة ، مؤيدين فى صرامة مطلقة فروضه وساهرين من أجل الحفاظ

على إطاره الحيوى من أى تغيير ، بنفس الطريقة التى فرض بها الفاتحون فى القرن الثامن ذلك الدين على كبارهم حين أعلنوا فى وقار رسمى قبولهم للإسلام [٣] ، وإن ميزة يتحلى بها الأفراد الذين ينتمون إلى أصول بربرية هى فى الأساس تلك التى تتمثل فى روحهم الدينية ، والتى من الممكن اعتبارها أيضاً - بقدر ما - ميراثاً خاصة للشعب الأيبيرى ، وإذا ماأضفنا إلى هذه الاتجاهات الخاصة الثقل الذى كان يمثله القهر الاجتماعى ، والذى لم يكن يقل فى سطوته وقوته فى الأندلس عنه فى بقية العالم الإسلامى المعاصر لتلك الفترة ، فسوف يتسنى لنا فهم السبب الذى دفع بالرحالة الشرقيين ، حين وصفهم لإسبانيا ، لإبراز الغيرة الرحيمة لدى الغالبية العظمى من سكان البلد .

ولقد قام الفقهاء - فى الأندلس وبقية العالم الإسلامى - بدور رئيسى فى تغذية هذه الغيرة الدينية ، أو إذا ماأردنا فلنقل «رجال الدين» وماكنا نقدم الفرص التى نبين فيها بجلاء الأهمية المتزايدة لأولئك الممثلين لكنيسة بلا إكليروس ، المهووسين بما لديهم من معارف ، وماهم عليه من مكانة اجتماعية ، وتطلعهم للدخول إلى صفوف حاشية الملوك والخلفاء حتى يكون لهم التأثير الواضح فى كل مايتخذونه من قرارات ، إن لم يكن تطلعهم إلى ماهو أبعد من ذلك ، إملائها عليهم ، وكانوا يساعدون دائماً - على الأقل فى المدن - على إيجاد روح من الشك المتبادل ، ويثيرون الوشايات ، ويبدون استعدادهم الدائم للتعرض بلا رحمة لأولئك الأشخاص من إخوانهم فى الدين الذين يمكن أن يوجهوا لهم اتهاما بالضعف والفتور فيما يتعلق بسلوكياتهم الدينية ، لقد ساهم نظام الحسبة أيضا ، والذى قام بنشاط لامثيل له فى بلد آخر غير إسبانيا ، بقدر كبير ، من جانبه ، فى الحفاظ على وضع أتباع الملكية فى قرطبة داخل إطار المبادئ والقواعد الدينية ، وذلك حين ظل يذكرهم ، فى بعض الأحيان دون ما تأملات تذكر ، بالواجبات الأساسية ، وفقا للمذهب المالكى ، التى كان لزاما عليهم أن يخضعوا لها .

التحول إلى الإسلام وجرائم الزندقة :

على مدى تاريخ إسبانيا الأموية لم تسجل أكثر من حالات فردية متفرقة من التحول إلى الدين الإسلامى ، حيث إن أسلمة الأندلس قد أصبحت أمراً واقعاً فى فترة إرساء

قواعد المروانيين ، وذلك كما أسلفنا من قبل حين سنحت لنا فرصة عرض الأمر في بداية هذا العمل ، وإذا ماحدث اعتناق للإسلام فيما بعد من قبل المسيحيين واليهود الإسبان ، حيث كان هو الدين الرسمي للدولة ، فقد كان ذلك في مرات نادرة الحدوث ، ويمكن القول بأنهم كانوا يقبلون على الإسلام لا بدافع من قناعة داخلية ، وإنما من أجل الحصول على مكانة شخصية يستفيدون منها ، وإنه لمن غير المفيد أن نتعرض مرة أخرى للتسامح الذى أظهرته الدولة الملكية في قرطبة تجاه أتباعها ، ولكنه في الأندلس مثل غيرها من بقية العالم الإسلامي ، إذا ماكان من السهل أن يدخل غير المسلم إلى دائرة الإسلام ، فقد كان من الصعوبة بمكان ، بمجرد أن يدخل إلى إطار الجماعة ، أن يخرج منه عن طريق الردة .

إن كتاب الجزيرى [٤] يحتوى على نموذج هام لمحضر التحول إلى الإسلام ، ومجرد ظهور مثل هذا الأمر في المجموعة يجعلنا نفترض أن القضاة كانت تواتيهم الفرص أحيانًا لاستخدامه في الناحية العملية ، على مدى مشوارهم القضائي ، وقد كان على هذا العضو الجديد أن يعترف بأنه قد اعتنق الإسلام عن قناعة شخصية وبرغبة كاملة في اعتناقه ، كما كان عليه ، عند إعلان الشهادة ، أن يتعهد بإلزام نفسه بأداء الواجبات الدينية الجديدة التي يقرها الإسلام مثل الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . كان تحول هذا العضو الجديد إلى الإسلام يسجل من قبل القاضي ، في حضرة شهود عموم ، وكانت الصيغة المكتوبة لهذا الانضمام إلى الجماعة الإسلامية تختلف بحسب الشخص مسيحياً أو يهودياً . كما كانت تختلف أيضاً في حالة ماإذا كان الشخص مرتدا ويريد العودة إلى حظيرة الإسلام وذلك الشخص الذى يعتقد أنه على علم بكل شعائر العبادة .

وللحقيقة ، فإن الإسلام باتخاذه موقفاً تحررياً نسبياً مع الذميين ، نراه قد عانى ، في الأندلس ، وخاصة في القرن التاسع ، من بعض المخاطر ، وعلى وجه الخصوص ذلك الخطر المتمثل في هزيمته في المناطق والأقاليم التي كان يصعب الوصول إليها وإحكام القبضة عليها في شبه الجزيرة من قبل المسيحية المستعربة ، ولنتذكر حالات الزواج المختلط التي كانت شائعة في أسرة بنى قاسي الأراجونية والعودة الاستعراضية من جانب ابن حفصون إلى دين آبائه وأجداده ، وعلى الرغم من أنه ليس هناك من نص يؤكد لنا هذا الأمر ، فعلى مايبدو أنه قد تواجد داخل النظام الطبيعي للأشياء في البداية ، وخاصة بين الطبقات الريفية في قرطبة : «مسيحيون متخفون»

أظهروا من ناحية الشكل فقط انضمامهم الاسمي إلى الإسلام - وفي الوقت الذي حدث فيه التمرد الطويل من قبل عبد الرحمن بن مروان - «ابن الجليقي» ، في فترة حكم الأمير محمد الأول ، تمكن السكان من المولدين في المناطق الجبلية من الثغر الأدنى من مد يد العون والترحيب ببعض الدعايات التي انتشرت تهدف إلى العودة إلى المسيحية والتي قام بتنظيمها إكليروس من المستعربين ، وفي إحدى الحملات التأديبية التي وجهها هاشم ابن عبد العزيز صوب هذه الأرض الثائرة ، كان رد فعل الجنرال الشهير عنيفاً ضد مثل هذه الأمور ، وهنا خضعت مجموعات عديدة من الرهائن لاختبار حفظ القرآن ، إذ كان عليهم أن يقوموا بترديد جماعي لسورة من القرآن يتم اختيارها صدفة ، وذلك إذا ما أرادوا النجاة من الموت بحد السكين ، وإنه لمن غير المفيد أن نقول بأن هذا الاختيار قد راح ضحيته مجموعة كبيرة (٥) .

ولكن ، بصفة عامة ، فإن الإسلام الأندلسي لم يفقد في شبه الجزيرة أصوله وجذوره بين كل أولئك ، أيًا كانت أصولهم ، الذين ولدوا بين أحضانه وشبوا بين ربوعه. ولم يكن الدين الإسلامي يبدي شديد غضبه أمام حالات الزيغ غير ذات المعنى ، والتي من الممكن إصلاحها وتصويبها عن طريق الشخص نفسه بعدوله عنها ، ولكن مثل هذا السلوك كان متبعاً فقط في حالة عدم حدوث أمر يعمل على إثارة وغضب الرأي العام ، وإذا ماحدث هذا ، فما كانت هناك من وسيلة سوى أن يهم الجهاز القضائي بالتحرك ودون أن يتردد في إنزال أقصى العقوبات وخاصة في حالة صدور شتائم ضد الدين أو النبي (٦) .

ومن أجل تمييز هذه الجرائم التي تمس الدين ، فقد استخدم المحللون والمؤلفون للوثائق القضائية ، في الأندلس وبقية العالم الإسلامي على حد سواء ، مصطلح الزندقة (وهو المصطلح الذي كان يطلق في الأصل على المخالفين في العقيدة لما تدين به الدولة مما يهدد أمنها) ، ويحفظون لنا صدى بعض هذه القضايا ، والتي كانت تستمر وقتاً طويلاً ، ولكنها كانت تمثل النقطة الساخرة التي كان يدور حولها حديث الجميع في قرطبة . ومن بين هذه القضايا ، نشير بإيجاز ، إلى تلك التي وقعت عام ٨٤١ (٢٢٧هـ) ، وانتهت بتطبيق حكم الإعدام على شخص يدعى يحيى بن زكريا الخشاب ، والذي نظر لاسمه هذا واسم أبيه ، لابد أنه مسلم جديد ، ولكن البعض كان يطلق عليه أيضا اسم ابن أخت عجب ، لكونه كان ابن أخت المحظية التقية للحكم الأول ، والتي قامت ببناء مسجد ومصحة لعلاج أمراض البرص والجذام على أبواب العاصمة ، وماكان تدخل عمة المتهم أمراً ذا فائدة في إثناء همة العاهل عن توقيع العقوبة ،

حيث جعلهم ينفذون فيه العقوبة بسبب كلمات خارجة عن اللياقة قالها فى حق النبى وماكانت تستأهل تطبيق حد الإعدام فيه ، الذى دأب على المطالبة به فى حماس شديد الفقيه عبد الملك بن حبيب ، على الرغم من أن هذا الفقيه قد عفى عن أخيه - مروان - فى نفس هذا العام من اتهام مماثل .

وهناك قضية لحالة أخرى من الزندقة ، يقدم لنا الفقيه ابن سهل تفاصيل كثيرة عنها (٧) قضى فيها إبان عهد الحكم الثانى، أحد قضاة قرطبة والذى كان يشغل فى نفس الوقت منصب قاضى كورة استجة Ecija وقبرة Cabra ، وكان يدعى قاسم بن محمد بن قاسم ، فى هذه المرة وصل الأمر إلى حد خطير جداً ، فقد أتى جمع من الناس يشهدون ضد رجل يدعى «أبو الخير» ، ويتهمونه بأنه قد قام بالتشهير والسب العلنى بين جموع قرطبة فى حق النظام القائم ومهاجمته أيضاً ، كما سب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بينهم أبو بكر وعمر ، وقد أعلن أن غالبية نصوص القرآن ماهى إلا محض أساطير ، وأنه إذا ماكانت البقية الباقية من نصوصه مقبولة ، فإنه يرى فى نفسه القدرة على صياغتها فى صورة أفضل مما هى عليه ، وكذلك فقد كان يفتخر بشربه الخمر وحملها إلى السوق ، وأكثر من ذلك ، فقد سُمع يقول : «لو أنى أملك بين يدىَّ خمسة آلاف فارس ، لدخلت عنوة مدينة الزهراء ، ولقتلت كل من ألقاه ، وأعلنت الدعوة لنظام «أبو تميم» (أى المعز «الفاطمى») ، أو قوله : «إذا ما ارتفعت تسعة سيوف تعلن إسقاط الخليفة ، فسوف يكون سيفى هو عاشرها ، وبالطبع ، فإن مثل هذه الآراء غير المتعقلة التى قالها صاحبها - بكل تأكيد - تحت تأثير بنت الراح التى لعبت بعقله فأصبح ثملاً ، لم يكن بالإمكان أن تمر دون عقوبة ، وكما يمكن لنا أن نتصور ، فإن الحكم قد صدر بتطبيق حد القتل على المذنب (٨) .

المسجد الأندلسى :

فى ذلك الإطار الصارم للمذهب المالكى ، نجد أن الحياة الدينية للمسلم الأندلسى لاتكاد تقدم ملامح أصيلة تستأهل الاشارة إليها ، كانت الممارسات للشعائر الدينية مرسومة منذ البداية ولأمد طويل ، وماكان نصيب المحاولات التجديدية فى الشعائر القديمة التى انتقلت إلى مملكة قرطبة ، إلا أن استحضر واستوجب جام غضب رجال الدين على القائمين بتحريك مثل هذه المحاولات ، ونحن لن نتوقف ، بعد ، أمام دراسة

مفصلة لواحد تلو الآخر لتلك الواجبات الأساسية التى تخص المؤمن ، وعلى وجه الخصوص الصلاة والصيام ، كما أننا لن نتحدث عن الاحتفال بالأعياد الدينية ، والتى أفضنا الحديث عنها حين تكلمنا عن الحياة الخاصة (٩) ، وسوف نفعل نفس الأمر بالنسبة لما يتعلق بمكان العبادة ، أو بمعنى آخر المسجد ، قاصرين حديثنا على بعض الملاحظات العامة .

وبعيداً عن المسجد الكبير (المسجد الجامع) ، فقد كانت كل مدينة من المدن الهامة فى إسبانيا الإسلامية تحتوى على عدد معين من مساجد الأحياء ، التى كانت تقام على نفقة أهل الخير من الأغنياء المسلمين ، سواء فى حياتهم أو بعد مماتهم تنفيذاً لوصية يوصون بها ، كانت تلك المساجد تحمل أسماء من يقوم بإنشائها من الرجال أو النساء ، وكما رأينا ، كانت تعد بالمئات فى قرطبة ، وبعض هذه المساجد كانت تبنى فى البيوت الخاصة ، وذلك كنوع من الزوايا ، والتى كانت تحظى – فى غالبيتها ، رغم أن ذلك لم يكن أمراً حتمي الوقوع – بوجود مئذنة صغيرة يؤذن من خلالها للصلاة ، كانت بسيطة المساحة ، وكثير منها كان متهدماً ، وماكانت تفتح أبوابها إلا فى ساعات الصلاة ، ويعمل بكل منها موظف ، يقوم إلى جانب الإمامة بدور المؤذن والحارس ، وأحياناً يؤدى دور المعلم فى المدرسة (١٠) ، أما بالنسبة للأماكن التى يتكون منها المساجد فقد كانت بسيطة للغاية : صالة مستطيلة ، ووجهتها صوب القبلة ، بما فى ذلك المحراب ، وأمامها يوجد فناء به بئر وغرفة صغيرة للوضوء ، أما الأرض فكانت تغطى بالحصير المصنوع من الحلفاء ، والذى كان يتم تغييره وتجديده حين لايصبح صالحاً للاستخدام .

أما المسجد الجامع – الأكثر اتساعًا – حيث كان يتسع فى البداية لاستيعاب جميع المؤمنين فى المدينة فى صلاة الجمعة ، فقد احتل فى إسبانيا – كما قلنا من قبل – مكاناً كانت تقام عليه كنيسة قديمة ، وكانت الأماكن التى يشتمل عليها بسيطة هى الأخرى فى غالب الأمر ، وماكان من حال أنيقة وزينة رائعة فى مسجد قرطبة يبدو أنها كانت أمراً استثنائياً ، وقد كان ذلك المسجد مقسماً إلى مساحات محورية وجانبية بواسطة أقواس محملة فوق أعمدة مصنوعة ، أو على أعمدة قديمة جدًا ، كان الهواء

والضوء يملأن جنبات المسجد ، عبر الفتحات الواسعة التى كانت توصله بالصحن ، وكانت هذه المنطقة تعرف ببيت الصلاة التابع للمسجد الكبير ، وكانت تمثل بالنسبة لمسلم المدينة المبنى المدنى الوحيد الذى بمقدوره الدخول إليه فى حرية تامة ، وفى قرطبة على الأقل ، كان هناك على يمين المحراب بين سور القبلة والصف الأول للمصلين مكان «محفوظ» مصنوع من الخشب المشغول ، يسمى المقصورة – كما قلنا من قبل – وكان محمد الأول هو أول من أمر باستخدام هذه المقصورة ، التى كان يدخلها العاهل باعتبارها المكان الآمن ، حين يأتى لأداء صلاة الجمعة ، وبداية من فترة حكم عبد الله ، كان يدخل إلى هذه المقصورة عبر باب خاص ، بعد أن يقطع عبر ممر ، كان ينقذه من غوغاء الشارع الكبير فى قرطبة ، المسافة البسيطة التى كانت تفصلها عن القصر ، وبين المحراب والمقصورة كان يرتفع المنبر ، المصنوع من خشب نسيجى قيم وشرائح عاجية ، وكان عبارة عن منبر مرتفع ، يصعد إليه الإمام عبر عدة درجات سلمية (١١) ، كان الخطيب يعتلى هذا المنبر ليلقى الخطبة الأسبوعية ويقرأ على مسامع الحاضرين البلاغات الرسمية ، أما فيما يتعلق بالأثاث فقد كان بسيطاً جداً ، فهناك باب مفتوح فى السور الداخلى يؤدى إلى الصالة ، التى أحكم غلقها جيدا ، لوجود بيت المال بها ، أو خزينة الأموال المجموعة من تبرعات أهل الخير ، وفى بعض الأحيان ، كانت تحوى بين أركانها بعض المنقولات أو المخطوطات الثمينة (١٢) ، وفى بعض الأحيان كانت صحون المساجد وساحات الصلوات تشتمل على مقصورات جانبية تسمى «السُقف» موضوعة على ارتفاع يصل منتصف الأسوار وكانت مخصصة فى الغالب للنساء ، ومن بين المحلات الأخرى التابعة للمسجد ، بالإضافة إلى المئذنة ، كانت تبرز صالة الوضوء ومحل آخر ، كان يطل مباشرة على الشارع ، حيث كانت تحمل إليه فى ساعات معينة جثث من فارقوا الحياة لأداء صلاة الجنائز عليها .

ومن أجل رعاية ونظافة المسجد الجامع كان هناك حضور دائم لمجموعة من الأفراد ، تقوم بأعمال الكنس ، وفرش الحصير ، وإضاءة الثريات فى ليال معينة (وخاصة ، على مدى شهر رمضان) ، ونقل المياه والقيام بكل الأعمال الضرورية . وهناك العديد من الأئمة والمؤذنين الذين كانوا يؤدون وظائفهم بالتناوب على مدى الأسبوع ، فيما عدا يوم الجمعة حيث يجب على الجميع الحضور وشغل عدد

من الأماكن الثابتة ؛ من أجل تكرار حركات ونداءات صاحب الصلاة وبهذا يهتدى بهم المصلون الذين لم يكن بمقدورهم العثور على مكان فى الصلاة المعدة للصلاة وكان عليهم البقاء في صحن المسجد أو حتى على رصيف عال بعض الشيء بجواره ، كما كانوا يغدون وفى نيتهم الحرص على تقديم يد العون إلى صاحب الصلاة (إمام الصلاة) ، حين كانت تقام بمناسبة الأعياد الكبرى أو أى حد طارئ فى المصلى ، الكائن بساحة خارج المدينة فى الهواء الطلق .

الجهاد La guerra santa

من بين الواجبات الأساسية التى فرضها الإسلام على أتباعه هناك اثنان ، نظراً لعوارض تاريخية وجغرافية - كان لهما أهمية خاصة فى الأندلس : فريضة الجهاد وفريضة الحج ، ولن يكون هباءً أن نتعرض هنا بإيجاز لكل فريضة منهما .

فى القرن العاشر ، كانت شبه الجزيرة الأيبيرية تمثل - داخل العالم الإسلامى الغربى - أرض الحرب المقدسة المتميزة ، دار الجهاد ، التى أصبح بإمكان كل مسلم أن يفد إليها ، إذا ما أراد ، ليحارب سنوياً «فى سبيل الله» ضد الكفار ويبحث فى ميدان القتال عن الشهادة ، التى تضمن له فى الحياة الاخرة نجاة دائمة خالدة ، ولقد تحدثنا ، حين تكلمنا عن التنظيم العسكرى للخلافة [١٣] ، عن الظروف والشروط التى كانت تضعها السلطة المركزية لقبول ، حين كانت تعد طوائفها السنوية لمواجهة المسيحية الإسبانية ، خدمات العديد من الشباب المتطوع للحرب (الجهاد) ، والذين كانوا ينخرطون فى صفوف العسكريين ويتدافعون بهذا المنظور من كل أنحاء المملكة وحتى من الشمال الأفريقى ، كان هذا الجمع من المتطوعين يصدر عن مختلف الطبقات الاجتماعية حتى من أدنى الطبقات ، على الرغم من أن هؤلاء المتطوعين كانوا يتحركون وراء قصد خفى للحصول على مكاسب مادية من وراء مشاركتهم تلك فى بعض الأحيان ، فلم يكن ذلك مانعا من انجرافهم نحو هذا الجهاد بدافع من الحماس الذى يتسم بالزهد بعض الشئ والبحث عن الحرب المجيدة وتقديم حياتهم فى خدمة دينهم ، وقد كانت جانبية الجهاد ، الذى كان يتسم كلية بأسلوب العصور الأولى للإسلام ، قد أمد الجيوش القرطبية ، فى عهدى الإمارة والخلافة على حد سواء ، بمدد

لايستهان به – على الرغم من أن فاعليته القتالية العسكرية كانت متوسطة ، من الجنود – كان من بينهم عدد كبير من رجال الدين ، ولقد حفظ لنا ابن الفرض أسماء العديد من الفقهاء القرطبيين ، والبيريين والبلنسيين الذين وجدوا موتاً بطولياً ، أو وقعوا في الأسر ، في ظل حكم الناصر ، سواء إلى جانب هذا العاهل ، في الوقت الذى أصيب فيه بانكسار كبير عام ٩٣٩ (٣٢٧هـ) في «خندق» شنت منكش Simancas [١٤] ، وإما بعد ذلك بعشرين عاما ، عام ٩١٧ (٣٠٥هـ) ، حين شرع الجنرال القديم أحمد بن أبى عبدة الحصار الكارثة على صان استيبان دى جورماث San Esteban de Gormaz[١٥] ، وهناك أحد الفقهاء الذى رغم بلوغه سن الثمانين لم يتردد في الانضمام عام ٩٦٣ (٣٥٢هـ) إلى الحملة التى خرج بها الحكم الثانى لقتال قشتالة Castilla ، ولكن قواه قد خانته في مدينة طليطلة ، ومات هناك [١٦] ، وآخرون قاموا بالخروج جنباً إلى جنب مع المنصور في صوائفه ، أو حتى قيامهم بجعل أنفسهم في رباط لسنوات عديدة على الحدود ، وذلك من أجل المساهمة ، بتعريض حياتهم للخطر ، في صد ، إلى جوار الحاميات المتمركزة في القلاع ، الهجوم الذى كان يوجهه المسيحيون ضد جبهة نهر الدويرة Duero ، وفي بدايات القرن العاشر ، وجه القرشى القرطبى ابن القط نداء للحرب المقدسة (الجهاد) إلى الجماهير من العامة في إسبانيا الوسطى وذلك للاشتراك معه في الهجوم التعس على ألفونصو الثالث ، والذى انتهى بموت وهزيمة الأول أمام أسوار سمورة Zamora ، في عام ٩٠١ (٢٨٨هـ) [١٧] .

الحج : La peregrinacion

إذا ماكان المسلم الذى تواجد على أرض إسبانيا الإسلامية قد وجه نفسه على بعد خطوة من الوفاء ، كلما أمكن له ذلك وأراده ، بواجب الجهاد ، فهناك أمر مختلف تماماً ، وأحياناً له نفس مخاطر الأول ، كان يتمثل في رغبته في أداء الواجب الآخر ، الذى يحظى بنفس القدر من الثناء ، أداء ولو مرة واحدة على الأقل في الحياة فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية ، وكان عليه أن يهجر وطنه مدة شهور طويلة ويترك طوال هذه الفترة أعماله وبيته ، دون أن يخفى عليه كم تكون المخاطر التى يتعرض لها في هذه الرحلة الطويلة ، والتى يصبح عليه خلالها أن يعبر براً وبحراً ، في ذهابه وإيابه على حد سواء ، حوض البحر المتوسط على اتساعه كله ، كانت هذه

الرحلة تعد – في ذاتها – نوعًا من الجهاد ، وكان يلزم للشروع فيها في السنوات الأولى للإسلام أن يتمتع الشخص بإيمان أكثر حرارة وقوة من ذلك الذي يدفع صوب الحجاز ، في ساعات قليلة بالطائرة أو أيام قليلة في الباخرة ، بالمسلمين من أفريقيا وأسيا . ويبدو ، مع ذلك ، أنه بالرغم في صعوبات الانتقال ، فقد كانت فريضة الحج تمثل ، في القرن التاسع ، ذهاباً وإياباً لاينقطعان ، بين شبه الجزيرة الأيبيرية ومهد الإسلام ، بالنسبة للأندلسيين الذين ينتمون إلى مختلف الطبقات الاجتماعية وإلى كل الأجناس : ، ويبدو أن تلك المسافة لم تقلل ، في أي فترة من فترات العصور الوسطى ، حماس هؤلاء المسافرين الذين تميزوا بالجرأة وعدم الخوف من المخاطر من أجل قيامهم بأداء شعائر فريضة الحج في نفس الأماكن المقدسة وكذلك الذهاب إلى المدينة المنورة – حيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم – لزيارته ، دون أن يشغلوا أنفسهم بالعقبات الكبرى التي كان عليهم تحديها وتخطيها .

ولسوء الحظ فنحن نعلم شيئاً قليلاً ، بالنسبة للفترات الأولى من العصور الوسطى عن الطريقة التي كان يتم بها القيام بمثل تلك الرحلة الطويلة التي كانت تقل الحاج الأندلسي حتى أراضي الجزيرة العربية وتعيده بعد ذلك إلى موطنه الأصلي ، وكان لابد من الانتظار طويلاً حتى يأتي إسبان مثل ابن رشيد أو ابن جبير حتى يأخذ كل منهما على عاتقه رواية الظروف التي أحاطت برحلته ، وفيما يتعلق بالفترة الأموية ، لابد لنا من أن نسعد – كما هي العادة ، على الأقل بصفة مؤقتة – لوجود المعلومات القليلة التي يوردها كاتبو السير الذاتية ، والتي تحتوي على أخبار تتحدث عن نسبة معتبرة من الفقهاء قاموا بأداء فريضة الحج ، ومن الممكن لنا أن نتصور بأن السفر عنر البحر لم يكن يحظى سوى بتأييد نسبة تقل كثيراً عن أنصار السفر عن طريق البر ، فما كان السفر عبر البحر مكلفاً فقط ، وإنما كان محفوفاً بالمخاطر ، فهناك احتمالات التعرض للغرق وسط القراصنة الذين يمارسون نشاطهم في مياه البحر ، منهم المسيحيون ومنهم المسلمون ، وفي كل عام ، مع ذلك ، كانت هناك مجموعة من السفن التي تبحر من الموانئ الأندلسية في ألميرية Almeria ودانية Denia أو بلنسية Valencia ، فتأخذ طريقها بمحاذاة الضفاف الشرقية ، تحمل على متنها العديد من المسافرين ، وحين تحط في ميناء الاسكندرية أو أحد الموانى السورية ، لم يكــن أمام هؤلاء المسافرين

من خيار سوى مواصلة ماتبقى من الرحلة عن طريق البر ، ففى عام ١٠٢٨ (٤١٩هـ) ، قام سيد أراجوان التوجيبى ، محمد بن أحمد بن صمادح ، الذى أصبح ابنه معن أميرًا مستقلاً لألميرية ، وكان هو نفسه حاكماً لمدينة وشقة Huesca ، بتدشين سفينة فى ميناء دانية Denia بهدف القيام برحلة لأداء فريضة الحج ، فجهزها بكل مايلزم بعناية فائقة ، ثم استقلها فى وقت طيب ، يصحبه فيها حاشية عديدة ، إلا أن عاصفة هبت فأغرقت السفينة بين الشاطئ الشرقى وجزيرة بسطة Ibiza ، ومات غرقاً مع عدد كبير من رفقائه [١٨] .

وإذا لم يكن السفر بالطريق البرى يلحق بالمسافرين نفس هذه المخاطر ، إلا أنه كان يعرضهم لمخاطر أخرى كانت محطاً للتفكير من جانب كل من يهم بركوب البر ، فما أن يضعوا أرجلهم على الطريق ، بعد سفر طويل عبر البحر ، داخل أراضى الشمال الإفريقى حتى يجدوا أنفسهم أمام طريق لانهاية له ، يبلغ طوله آلاف الكيلومترات ، يتطلب السير فيه مدة تصل إلى شهور يقاسى فيها المسافر عناءً كبيرًا ، وخاصة من أجل أن يتمكنوا من عبور تلك السهول الأفريقية والصحراء الليبية ، حيث يظهر لهم عند أطرافها ، كما لو كان فردوسًا حقيقيًا ، وادى النيل وحدائقه الخضراء اليانعة ، كان القليل من المسافرين يحظى بركوبة يمتطيها ، رغم أن امتلاكها يعنى التعرض للمخاطر ، فما كان قطاع الطرق يتورعون عن اغتصابها منه . وهكذا ، كان الحجاج ، الذين لايحملون نقوداً أو أية أحمال أخرى غير القليل من الثياب ، يتقدمون فى سيرهم نهارًا صوب تلك القبلة ، التى كانت وجهتهم السامية ، وفى كل مرحلة تنتهى يحاولون نسيان متاعبها لكى ينخرطوا فى أداء بعض الشعائر ، ويشكروا الله ويحمدونه ويطلبون منه العفو والرضا ، ومما لاشك فيه أنه من كل البلاد ، بعد معاناة قاسية مماثلة ، توافد أيضا كثيرون آخرون من الحجاج شطر الأماكن المقدسة ؛ ولكن ، ألم يكن المجهود الأكبر هو ذلك الذى بذله هؤلاء الأندلسيون الذين ، بتعرضهم لكل ألوان الخطر ، تحملوا عناء السفر من أجل هذا الحج البعيد ، رغم أنهم فى عودتهم إلى بلادهم سوف يحصلون على ذلك اللقب الذى يحسدهم عليه الآخرون ، لقب الحاج ، وحصولهم كذلك على التقدير والاحترام الواجبين من قبل أبناء وطنهم ؟

وماعثرنا فى أى ركن من أركان الأدب الأندلسى المعاصر للأمويين على أية معلومة يمكن لنا أن نستند إليها فى القول بأن الدولة ، مثلما حدث بعد ذلك فى الغرب الإسلامى ، قد تدخلت من أجل التنظيم الرسمى لرحلات الحج التى يقوم بها رعاياها ، مجمعة إياهم فى ركب كبير يمكن له أن ينضم إلى ركاب المغرب وأفريقية فى طريقهم صوب الأماكن المقدسة ، كان إسهام الظروف السياسية فى مثل هذا المجال قليلاً جدا ، وفيما يبدو ، أنه كان على كل فرد أن ينظم مراحل رحلته بما يتاح له من وسائل خاصة .

ومن ناحية أخرى ، ففى إسبانيا - مثلما كان يحدث فى بقية العالم الإسلامى - كان مقبولاً فى تلك الفترة أن يقوم شخص بإنابة آخر مكانه لأداء فريضة الحج باسمه ، فيرسل مكانه مبعوثاً شخصياً كبديل له ، وقد لجأ إلى هذا الإجراء فى الغالب فى العصور الوسطى ملوك الإسلام فى الغرب [١٩] ، الذين كانوا يرفضون ترك دويلاتهم من أجل أداء تلك الفريضة ، رغم أن ذلك يعد واجبا عليهم كما هو واجب على أتباعهم ، ومثل ذلك الحل كان شائعاً جداً فى إسبانيا ، حيث إنه فى كتابه الخاص بالعقود ، قد احتفظ لنا الجزيرى الأندلسى [٢٠] بنموذج واحد من هذه العقود ، والذى بمقتضاه كان يتعهد فرد من الناس ، بعد أن يدفع إليه مبلغ من المال يساوى ثلث ميراث الشخص المتوفى بالقيام بتلك الفريضة باسم من انتقل إلى الآخرة ، مثل هذا العقد يعد وثيقة بالغة الأهمية ، حيث يعد واحداً من أقدم النصوص العربى التى تقدم لنا ، بدقة متناهية تفاصيل مناسك الحج التى قام بعض المؤلفين المسلمين المتأخرين بوصفها لنا بشىء من التفصيل .

لم تكن هناك مغالاة فى الأهمية التى كان يمثلها النظام الإسلامى للحج بالنسبة لإسبانيا الأموية ، فعلى الرغم من أن رغبة مملكة قرطبة كانت ، فى القرنين التاسع والعاشر ، تكمن فى محاولة الانغلاق داخل حدودها ورفض أى تغلغل سياسى من جانب الخلافة العباسية ، وكذلك بصورة أكبر مع مرور الزمن من قبل الخلافة الفاطمية إلا أنها لم تتمكن من أن تمنع رعاياها بصورة قانونية من الخروج بصفة مؤقتة لأداء فريضة لها سلطانها ، وبهذه الطريقة فتحت الأبواب أمام التأثيرات الخارجية ، وأباحت على الرغم منها ، الاتصال الروحى بالشرق ، فبفضل الحج ، تمكن

فقهاء الأندلس من نشر مذهب المدينة المنورة فى ربوع بلادهم ، وبعد ذلك ، ساهم الرحالة القرطبيون ، فى عهد عبد الرحمن الثانى ، فى إدخال الموضات والعادات المأخوذة من الحضارة البغدادية إلى أراضى الأندلس ، وقد كان ذلك كذلك لأنه فى أغلب الأحوال كان حجاج شبه الجزيرة الأيبيرية ، الذين يمتلكون قاعدة من المعلومات مكنت لهم في العلوم الشرعية ، ينتهزون سفرهم الش المشرق لكى يمدوا ، على مدى سنوات دائماً ، إقامتهم فى الجزيرة العربية ، أو حتى السفر إلى العراق أو إلى أماكن أبعد من هــذا ، وعليه فقــد كان انتقالهم من أجل تحقيق هدفين : أداء مناسك الحج و «البحث عن العلم» أو طلب العلم .

أ - المذهب المالكى الأندلسى والإسهامات العقائدية الشرقية (٢١)

المدرسة المالكية فى إسبانيا الأموية :

إذا ماكانت إسبانيا الأموية قد تميزت دائمًا بأنها قلعة صحة المعتقد الدينى ، فقد كانت تعد – فى نفس الوقت – إحدى القلاع الحصينة للمذهب المالكى ، ولكنه مذهب قد تجمد فى وقت قريب والذى نطلق عليه هنا ، فى رفاعية «المذهب المالكى الأندلسى» .

فى الواقع – وبداية من القرن التاسع – أصبح المذهب المالكى هو المذهب الرسمى المقبول فى المملكة القرطبية ، وأصبح فقهاء الأندلس ، فى غالبيتهم – يمثلون الجبهة المكلفة بحراسة هذا الاحتكار المذهبى ، والذى لم يتأخر فى تحوله إلى شلل فكرى يتناقض تمامًا مع ذلك النشاط الذى كانت تمارسه وتنشره فى نفس الفترة المدارس الشرقية فى المواد الشرعية والقضائية ، وقد كان الأدب الذى واكب المذهب المالكى ، والذى اصطبغ فى الغالب بلون مالكى كثيف ، يقدم طابعًا وشخصية أحادية الجانب تعمل على إثارة الشكوك ، لأنه إذا لم نعر الانتباه إلا إلى هذا الجانب ، فإن إسبانيا الإسلامية ، تحت حكم الأمويين ، قد رفضت بكل شدة كل تدخل من جانب المدارس الدينية الأخرى ، حتى تتمكن من الحفاظ ، عن طريق الدعم المتواصل من قبل السلطة الموقتة ، على التبعية للمدرسة المالكية الوحيدة من أن تمس ، وهذا هو ماحدث بالفعل فى بعض فترات معينة ، فى فترتى الإمارة والخلافة على حد سواء ، سواء أكان ذلك بسبب التأثير الذى مارسه رجال الدين من أنصار المذهب المالكى على عاهل قرطبة ، أو بسبب أن من كان يمارس السلطة – وخاصة فى فترة الوصاية على الإمارة – وجد فى مثل هذا الموقف فائدة سياسية لشخصه ، ولكن كان هناك أيضاً عدد من الملوك الذين عرفوا كيف يتخلصون من هذا التأثير ويعلنون السماح ، حين لايقدرون على التشجيع ، بدخول تيارات جديدة من تلك التى لاتقدم على إلحاق الأذى والضرر بصحة المعتقدات ، وهو الأمر الذى كان بمثابة الركيزة الأساسية للنظام ، ولدينا دلائل عديدة

على مثل هذا التسرب ، وخاصة خلال فترتى حكم محمد الأول والحكم الثانى ، على الرغم من أن الأدب المناصر للمذهب المالكى يتلاشى ذكرها أو يصمت عنها ، مطالباً بأعلى صوته أن يكون للمدرسة التى يمثلها النشاط الوحيد المشروع ، داخل الأندلس ، فى مجالى الدين والقانون .

وحتى يتسنى لنا تقويم هذا النشاط دون اللجوء إلى استخدام معلومات قليلة الموضوعية ، فنملك بين أيدينا ، لحسن الحظ ، مصدرين غير متساويين فى الانتشار ، ولكنهما معاصرين تقريباً ، وخاصة الأول منهما ، يتمتعان بقيمة وثائقية من الدرجة الأولى ، مجموعة السير الذاتية لابن الفرضى والرسالة الصغيرة لابن حزم عن «فضل الأندلس La exclencia de La Andalus» ودائماً ماكانت الفرص سانحة لذكر اسم هذا المجادل الإسبانى الكبير الذى عاش فى القرن الحادى عشر ، وذلك حتى نتذكر بأننا ندين له ببعض التفاصيل عن الحياة السياسية والاجتماعية داخل البيئة الإسبانية ، سواء فى الجمهرة Chamhara ، المكتوب الذى يهتم بمعالجة الأنساب ، أو فى كتابه الشهير طوق الحمامة Collar de Paloma ، أو فى نقط العروس ، وهذا العمل الأخير – فى رأينا – يتضمن محتوى وخطة يبدوان لنا فقيرين ، إلا أنه يشتمل على كم وافر من المعلومات القيمة عن العالم الأندلسى . أما «الرسالة» لابن حزم حول فضائل وطنه[٢٢] ، رغم قصرها ، تحتوى على تلخيص أخاذ للنشاط العقائدى لبلاده ، إذ بما أنه لايذكر فيها فقط رجال الدين من أنصار المذهب المالكى ، وإنما يتعرض بالذكر أيضا لبعض الشافعية والظاهرية (المدرسة التى كان ينتمى إليها المؤلف) ، فبالإمكان أن تصبح ذات فائدة عند القيام بأى وصف تفصيلى بعض الشيء للدور الذى قامت به الأندلس ، حتى عهد الطوائف ، فى وضع القواعد الفقهية ودراسة الحديث ، والعلوم الدينية ، وفيما يتعلق بابن الفرضى ، الذى يعترف ابن حزم بأستاذيته له ، فإن لـه الفضـل أيضـًا فى عدم قصر كلامه فى مجموعة سيره الذاتية على المالكية فقط (الأمر الذى كان من الضرورى أن يتركه متقوقعًا فى نفس الإطار الضيق الذى يجول فى كتاب الطبقات) ، وكذلك فى فتحه الطريق الذى يجب أن يسير عليه مواصلوه بداية من أواخر القرن الحادى عشر : ابن باشكوال وابن الزبير وابن الأبار ، وقد كان هذا التراث المعتبر من

المعلومات التى جمعها ابن الفرضى - والذى سوف نتحدث فى مكانه المناسب عن موته المأساوى فى قرطبة عام ١٠١٣ (٤٠٣هـ) ، محل تقدير من جانب ابن حيان حيث اعتمد عليه كمصدر أولى ، حين أراد أن يرسم فى كتابه (المقتبس) النشاط الفكرى فى شبه الجزيرة الأيبيرية على مدى الفترات التى حكم فيها الملوك من السلسلة المروانية .

نحن فى حل الآن من التعرض بالتفصيل مرة أخرى للظروف - التى أشرنا إليها فى بداية هذا العمل[٢٤] - التى أحاطت بدخول مذهب الإمام مالك إلى أرض الأندلس ، أو مدرسة المدينة ، وذلك فى أواخر فترة حكم الأمير هشام الأول أو فى السنوات الأولى لحكم ابنه الحكم الأول ، والتى كانت كلها على مقربة من مطلع القرن التاسع ، وكذلك فقد أسلفنا أيضاً القول فى كيفية سيادة هذا المذهب بسرعة على ذلك الذى كان سائراً حتى دخوله إلى المملكة القرطبية ، والتى كانت حتى ذلك الوقت تتخذ فى ثبات تام كمذهب لها تلك «العقيدة المذهبية السورية» مذهب الفقيه الأوزاعى الدمشقى ، والذى كان تلميذه الرئيسى فى أرض قرطبة هو صعصاع ابن سلام الشامى ، كان محركو مثل هذا التغيير ، والذين وجدوا ترحيباً بهم لدى أتباع عبد الرحمن المهاجر (الداخل) ، من رجال الدين الأندلسيين ، من أصول عربية أو بربرية ، والذين بدأوا فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، مع مالك نفسه أو مع تلاميذه، فى دراسة نظام المدرسة المدنية ، وأحضروا إلى قرطبة نسخًا من العمل الرئيسى لمؤسس هذه المدرسة ، ألا وهو كتابه الشهير «الموطأ» ، والذى يمثل أقدم الكتب القضائية الإسلامية التى وصلت إلينا ، هؤلاء الفقهاء - زياد ابن عبد الرحمن ، يحيى بن مضر ، عيسى بن دينار والبربرى يحيى بن الليثى - لم يكونوا فقط من قاموا بنشر المذهب المدنى فى إسبانيا ، وإنما أيضاً سيكونون بمثابة الممثلين الأوائل لهذه الزمرة من رجال الدين الأندلسيين المؤثرة والتى ستعمل على صبغ المذهب المالكى الأندلسى ، لا فى العاصمة وحدها ، بل فى إلبيرة Elvira وأشبيلية Sevilla أو طليطلة Toledo ، بالتزمت والتصلب ، وهما أمران سوف يصبحان - فيما بعد - ميزتين يتميز بهما المذهب المالكى على مدى البقية الباقية من فترة حكم الأمويين .

إن المذهب المالكى الأندلسى – والذى يمكن دراسته من خلال وجهة النظر العقائدية مقارنة بالمدارس الدينية الأخرى ، ولكن ليست هذه هى المناسبة التى يمكن لنا فيها أن نبدأ مثل هذا الدراسة – فى حاجة – بلا شك – إلى أن يقيم فى ضوء النظريات التى ظهرت حديثاً عن تطور الاتجاهات المتعددة للفقه في العصور الوسطى(٢٥) ، ومع هذا ، فسوف نلجأ إلى ذلك الرأى الذى تبناه فى هذا الصدد اثنان من علماء الإسلاميات المعاصرة ، وكلاهما بعيد عن التقدير اليوم : جولد تسهير (٢٦) وآسين بالاثيوس (٢٧) ، وفى رأى هذين العالمين ، قامت المدرسة الإسبانية للفقه بإعلان رفضها المبكر لدراسة الأحاديث النبوية ، التى كانت تمثل القاعدة التى قام عليها مذهب إمام المدينة ، ليعلنوا التزامهم بالكتب المختصرة التى تتناول فتاوى في موضوعات خاصة من القضايا الفقهية ، وذلك بنفى الوضع الذى صيغت عليه من قبل رجال الدين من فقهاء المالكية من الأجيال التالية ، إن الاستخدام الاستثنائى لهذه الكتب من الفروع قد أدى سريعاً إلى وجود طريقة سهلة وروتينية ، من شأنها أن تعمل جبراً على وضع العراقيل أمام التطور الفكرى واستبعاد البحث عن حلول للقضايا الإشكالية بالعودة مباشرة إلى المصادر المنزلة من القانون الإسلامى والاجتهاد الشخصى ، وكانت نفس هذه الروح هى السبب الذى أدى بالمالكية الأندلسيين إلى معارضة استخدام المواد القائمة على دعم من الأحاديث حتى يمكن أن يستنبط منها تطبيقات قضائية ، وفقاً للطريقة العقلية «لعلم الأصول» (أصول الفقه) ، بنفس الطريقة التى صيغت بها هذه العلوم فى أوائل القرن التاسع على يد الإمام الشافعى ، المؤسس للمذهب الذى يحمل اسمه ، كان هذا الاستخدام الاستثنائى للكتب المختصرة للفروع عاملاً من العوامل التى جرفت المذهب المالكى الأندلسى إلى التقليد المحض ، والذى كان يعتريه قليل من التغيير في بعض الأحيان عن طريق الممارسات المحلية ، ولقد امتد الوقت بمثل هذا الحال للأوضاع إلى فترة أبعد من فترة الخلافة ، كما كان هذا سبباً أساسياً فى تجميد الإسلام فى الغرب خلال فترة حكم المرابطين .

وتلزمنا صفحات كاملة لكى نعدد أسماء الفقهاء الأندلسيين الذين برزوا على طريقتهم داخل إطار هذا المذهب المالكى المتشدد المحافظ ، وسوف نقصر حديثنا هنا

على بعض الشخصيات منهم ، والتى حازت شرف ذكرها فى رسالة ابن حزم ، ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر فى المقام الأول تلاميذ مالك نفسه أو أتباعه المباشرين ، الذين أدخلوا إلى الأراضى الأسبانية المذهب المدنى : عيسى بن دينار ، والذى بسبب مشاركته فى المؤامرة التى حيكت فى قرطبة ضد الحكم الأول ، كان عليه أن يختفى لبعض الوقت ، حتى حصل على العفو ، عبد الملك بن حبيب ، المتوفى عام ٨٥٣ (٢٨٨هـ) الذى نسبت إليه أعمال كثيرة ، من بينها قصة تبدو أسطورية بكاملها ، ويحيى بن يحيى ، الذى أصبح فى منتصف القرن التاسع عميداً حقيقياً لجماعة الفتوى بالعاصمة ، ورغم أنه أصر على رفض منصب القضاء ، إلا أنه أملى على الأمراء اختيار قضاتهم وفرض عليهم أشخاصا يحلون محلهم على مر الوقت ، هؤلاء الثلاثة من علماء الدين ، الذين أعطوا للمدرسة المالكية الأندلسية شكلها الخاص ، كانوا هدفا فيما بعد لقول ابن لبابة ، أحد أتباعهم : «ابن دينار كان فقيه الأندلس ؛ وكان ابن حبيب عالمها ، ويحيى ابن يحيى أكثر من شهد الناس له بالعقل ، أما عبد الملك بن حبيب ، الذى اشتهر أكثر ماشتهر بكتابه «الواضحة» والذى يعد تعليقاً على كتاب الموطأ للإمام مالك ، فقد كان له تلميذ من أشهر أتباعه يعرف باسم محمد العبثى ، المتوفى عام ٨٦٩ (٢٥٥هـ) المؤلف لكتاب أسماه «العتبية» (٢٨) والذى حاز التقدير والتبجيل فى إفريقيا ، فى رأى ابن حزم ، وهناك فقيه آخر من نفس الفترة ، عاش فى قرطبة ، هو يحى ابن ابراهيم ابن مزين ، قام بالتعليق على كتاب الإمام مالك وكتب مجموعة من السير الذاتية عن الشخصيات المذكورة فيه ، وبعد فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، أصبح الفقيه القرطبى الشهير مولى محمد بن عمر بن لبابة فقيه قرطبة ، والمتوفى عام ٩٢٦ (٣١٤هـ) ، والذى أصدر مجموعة من الفتاوى ذكر معظمها ابن سهل فى «مؤلفه» ، وبعد ذلك ؛ وحتى نهاية الخلافة ، فى قرطبة وبقية المدن الأندلسية الكبرى على حد سواء ، مثل علماء الدين الإسلامى من أتباع المذهب المالكى فيلقا كبيراً ، ورغم همتهم فى شرح الموطأ أو المدونة للقيروانى سحنون ، أصبحوا يكرسون جهودهم لغرس نهج كتاب الطبقات ، والذى تميز فيه على وجه الخصوص عبد الله بن أبى دليم وأحمد ابن عفيف .

تغلغل المدرستين الشافعية والظاهرية :

فى النصف الثانى من القرن العاشر ، وحين دهش الجغرافى المشرقى المقديسى[٢٩] أمام من أخبره من أبناء الغرب الإسلامى بأن المذهب الحنفى لايوجد له نصير واحد فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، مع وجود الكثير من أتباعه فى المغرب ، كانت الإجابة على دهشته هذه أن مثل هذا الأمر راجع للأمير ، حيث قام عاهل قرطبى ، لم يذكر اسمه ، فأعلن قوله : «يكفينا فقيه المدينة ، فلا أريد مذهبين فى أرضى» ، وقد بلغ الأمر بالحكام ، كما يذكر المقديسى فى وصفه [٣٠] إلى طرد أى شخص يتم التأكد من ممارسته للمذهبين الحنفى والشافعى من أرض الأندلس ، ولكن - كما سنرى - فإن مثل هذا التقدير كان أمرا شكليا فقط .

وبالفعل ، إذا ماكان المذهب الحنفى ، على مايبدو ، لم يحظ مطلقاً بأى فضل على أرض الأندلس فى عهد الأمويين ، فلم يكن الوضع هكذا بالنسبة للمذهب الشافعى ، الذى بدأت جذوره تنبت - وفقاً لشهادة ابن حزم وابن الفرضى - بداية من فترة حكم محمد الأول ، كان هذا العاهل هو أول من سمح من بين الأمراء فى الدولة الإسلامية فى الأندلس - إذا لم يكن أولهم تشجيعًا ، على الرغم من معارضة الفقهاء المالكيين - ببعض المحاولات لتوسعة مجال القضاء ، دون الخروج من دائرة صحة المعتقد ، كان المشروع الأول فى العاصمة الذى بشر بالمذهب الشافعى ، الذى كان ينتمى إليه فى المشرق ، هو القرطبى قاسم بن محمد بن سيار ، وبقناعة منه بضرورة اللجوء إلى إجراءات استنباط القواعد القضائية عبر دراسة القرآن والسنة والاستناد إلى رأى الإجماع ، وكذلك إلى القياس ، قام بفتح مدرسة فى قرطبة لتعليم مثل هذه الأمور ، بموافقة ضمنية من محمد الأول ، الذى من أجل أن ينقذ هذا الفقيه من مدرسة الفقهاء المناصرين للمذهب التقليدى ، قام بتعيينه كاتبًا خاصًا له ، واحتفظ به فى هذا المنصب حتى وفاته فى عام ٨٩٠ أو ٨٩١ (٢٧٧ - ٢٧٨هـ) .

ولقد تثبت الموقف التحررى للأمير محمد الأول بصورة أكبر حين أظل برعايته عالماً قرطبيًا آخر ، احتل نفس المكانة التى كانت للطبرى : هو بقى بن مخلد ، هناك بقية باقية من الشخصيات غير المشهورة مثل هذا الفقيه الأندلسى ، والذى ذكرنا آنفاً بضع كلمات عن مشواره ، الذى حكى لنا عنه بطريقة مسهبة ابن حيان [٣١] ، فبعد رحلة طويلة قطعها إلى المشرق ، تابع خلالها حلقات العلم التى نظمها أشهر الأساتذة والمعلمين فى تلك الفترة ، وعلى وجه الخصوص محمد بن حنبل ، عاد إلى قرطبة حتى

يقيم فيها دراسات الحديث - والتى كانت ممنوعة - عرف كيف يؤهل العديد من التلاميذ الذين تمكنوا بعده من تشريف هذا الفرع من العلوم (وخاصة ، ابن وضاح) ، ووصل به الأمل فى دروسه أن يشرح الأحاديث التى جمعها ابن أبى شيبة ، وقد رأى فقهاء قرطبة هذا الأمر فضيحة غير محتملة (٣٢) ، ولهذا فقد ضجوا بالشكوى منه إلى الرأى العام ، وظل من دعا إليه واقعاً تحت الإدانة بالإلحاد والمروق ، حين قام محمد الأول ، الذى أحيط علماً بالأمر من قبل وزيره هاشم بن عبد العزيز ، بالقضاء على البطانة ثم دعى بقيا إلى استئناف دروسه فى الحديث ، بعد أن وعده بعدم تعرض أحد له ، وقد شهد بعض كتاب السير بأن بقى بن مخلد المتوفى عام ٨٨٩ (٢٧٦هـ) هو من علماء الشافعية ، رغم أن هناك جمعاً آخر يبرز عدم انتمائه الدائم إلى أى اتجاه مذهبى .

كان هناك عدد كبير من الفقهاء والمنتمين إلى المذهب الشافعى بعد أن ألقوا دروسهم فى إسبانيا ، وخاصة فى عهد الحكم الثانى (٣٣) ، وقبل ذلك ، فى ظل حكم الناصر ، كان هؤلاء - على مايبدو - يعيشون فى الظل ، وقد حدث لهم نفس الشىء مرة أخرى ، فى فترة وصاية المنصور ، حين أحكم وثاق الحصار المالكى من جديد ، وذلك فى الوقت الذى أعلن فيه الجغرافى المقديسى رأيه الذى ذكرناه آنفاً . وفى ظل حكم الناصر ، ظهر داع عنيد للمدرسة الشافعية هو ابن الخليفة نفسه، ولى العهد عبد الله ، الذى كما ذكرنا (٣٤) قد حكم عليه بالموت فى عام ٩٥٠ (٣٣٨هـ) من قبل والده ، وذلك بسبب تورطه فى مؤامرة حيكت ضده ، وبعد فترة الإمارة ، خلال السنوات المائجة الأولى التى سبقت فترة الخلافة ، عاد المذهب الشافعى ليجد له أنصاراً فى قرطبة ، وأكثرهم شهرة هو ابن حزم ، والذى ، بعد أن بدأ مشواره بين صفوف المدرسة المالكية ، قام أيضاً لوقت طويل بدراسة المذهب الشافعى ، قبل أن يستقر رأيه أخيراً على المذهب الظاهرى ، الذى كان يمثل العلم الإسبانى الأبرز بالنسبة لهذا المذهب وأعمل ذهنه ككاتب ومجادل فى خدمته .

لقد تأسس المذهب الظاهرى ، الذى لم تتح له الفرصة للتواجد فى الإسلام الحديث مثلما حدث مع المذاهب الفقهية الأربعة - فى العراق ، فى القرن التاسع - على يد داود ابن على المتوفى عام ٨٨٣ (٢٧٠هـ) ، عمل مذهبه هذا ، الذى تميز بانحيازه الشديد للأخذ بالمعنى الحرفى أو الظاهرى للقرآن والأحاديث باعتبارهما مصدراً التشريع ، على تهيئة المناخ أمام تطوير نظام عقائدى يقوم على قاعدة من النظر الحر

فى النصوص المنزلة دون استثناء للجوء أحياناً إلى المجهود الشخصى فى تقويم الأشياء ، وهو مايعرف بالاجتهاد .

ولقد وطئت أقدام المذهب الظاهرى أرض إسبانيا فى نفس الوقت الذى دخلها فيه المذهب الشافعى ، وأصبح مثله فى ذلك مثل المذهب الشافعى ، هدفا للعداء المفتوح المعلن من قبل الأوساط المالكية المحافظة ، وكان الذى أتى بهذا المذهب إلى أرض الأندلس وقنن تعاليمه هو تابع قرطبى لداوود بن على ، يسمى عبد الله بن محمد بن قاسم ، إبان حكم الأمير محمد الأول ، ولكن الممثل الرئيسى للمذهب الظاهرى الأندلسى فى القرن العاشر هو - على مايبدو - ذلك القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ، الذى تحدثنا عن مشواره فى مكانه المناسب ، وأشرنا إلى بعض الملامح المميزة لشخصيته المستقلة [٣٥] ، وإذا ماكان لنا أن نصدق كاتبى سيرته الشخصية ، فإنه قد انتسب فى العامين اللذين أمضاهما فى المشرق إلى مذهب داوود ، والذى ظل على وفائه له حتى وفاته فى عام ٩٦٦ (٣٥٥هـ) ، رغم الحماس الذى أبداه ، فى الوقت الذى شغل فيه منصب القضاء ، فى الابتعاد قليلاً عن المذهب المالكى ، الذى كان متوافقا مع اجتهاده الخاص . وبعد وفاة هذا القاضى ، عانى المذهب الظاهرى مرارة العيش فى الظل مثلما حدث مع المذهب الشافعى ، حتى وجد من يحمل رايته ، «بعد أن كان مصنفًا فى الطرف الأقصى من المعتقد الصحيح» [٣٦] فى شخص ابن حزم ، والذى استند على هذا المذهب فى حربه الشعواء ضد المدرسة المالكية ، التى تأصلت جذورها فى وطنه .

الدعوة لمذهب المعتزلة . حياة الزهد :

ليس هناك بين صحة المعتقد والهرطقة الخالصة البسيطة من حد فاصل سوى خطوة واحدة [٣٧] ، ويبدو أنه لم يكن فقط ممكناً - بل أكيداً - أن الأندلسيين قد أقدموا على تلك الخطوة فى القرن العاشر ، رغم إحاطتهم لأنفسهم بالاحتياطات اللازمة حتى لايقعوا فى أيدى حملات التفتيش التى لاترحم فتدينهم إدانة دامغة لا استئناف فيها ، وما نعرف قط - بما لايدع مجالا الشك - وبشئ من التفصيل علام ارتكزت الدعوة الإسماعيلية التى أصبحت منظمة بداهة فى إسبانيا ، خلال فترة حكم عبد الرحمن الثالث ، على يد مبعوثين سريين للفاطميين ، وعلى الأخص فى الأقاليم الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط فى أندلسيا والجهة الشرقية ، وهى المناطق

التي يسهل التأثير عليها نظراً لموقعها الجغرافي وانعزالها النسبي عن قرطبة ، ماهو التأثير الممكن في الأندلس ، قبل وبعد فترة الإمارة ، إذا ماكان قد رغب أو تمكن من الظهور ، في السلوك الديني للعامة من الناس التواجد على ساحة العاصمة من قبل المجموعة المجندة من «بنودمار» و «بنوبرزال» التي كانت تنتمي إلى فرقة الإباضية ، القادمة من جنوب أفريقيا ؟ في القرن الحادي عشر ، أشـــار ابن حزم - كما أسلفنا القول [٣٨] - إلى تواجد نواة من السكان الشيعيين في بلفيق Velefique التابعة لألميرية Almeria ، وهي النواة التي نود معرفة معلومات أفضل عنها ، وقد أخبر البعض عن القاسم بن حمود - الذي تمكن قبل سقوط الخلافة بقليل من الجلوس لعدة أشهر على كرسي الخلافة - بأنه كان يعتنق الآراء الشيعية [٣٩] ، التي تعد - بلاشك - نفس آراء السادة الأدارسة ، والذين أدت نشاطاتهم العدائية في شمال المغرب خلال القرن العاشر إلى إخماد مملكة قرطبة ، أيًا كان الوضع ، فيبدو أن العدوى الشعبية لم تتمكن من أن تحصل في إسبانيا إلا على بعض المكاسب المتفرقة والتي لم يكن لها مستقبل يذكر .

وعلى العكس من ذلك ، فإن مذهب المعتزلة قد وجد في البلاد عدداً من الأتباع أكثر اعتباراً من ذلك الذي تذكره الآداب التاريخية والخاصة بالسير الأندلسية ، وبنفس القدر الذي تم به إدانة المذهب الشيعي كان نصيب هذا المذهب المؤيد لحرية الرأي ، كما يعلن ذلك دون مواربة المقدسي في رأيه الموحد عن الإسلام في الأندلس [٤٠] ، ولكن هذه الطائفة المذهبية قد لجأت بصورة أفضل من الهرطقة الإسماعيلية إلى بعض أعمال التخفي ، والتي بفضلها تمكن أتباعها من ممارستها ، وبث تعاليمها حتى بين تلاميذها المعروفين وراء الأكمة ، دون الظهور أمام الوسط الاجتماعي وجلب المضار لنفسها وأتباعها من جراء محاربة المحافظين المالكيين ، الحراس الغيورين للمعتقد الصحيح الصارم .

وليس من السهل تحديد التاريخ الذي بدأ فيه الاعتزال بالظهور رويداً رويداً بين العناصر الغير معلومة في المجتمع الإسباني ، ولكن على مايبدو أن ذلك لم يحدث قبل فترة حكم محمد الأول ، وذلك عندما بدأت أعمال الجاحظ ، تلميذ المعتزلي النظّام ، في الانتشار بوفرة في الأوساط الفكرية على الساحة القرطبية وغيرها من ساحات أهم المدن التابعة للمملكة [٤١] ، إن الاطلاع على مجموعة السير لابن الفرضي يسمح لنا بتحديد وجود نواة صغيرة من هؤلاء المعتزلة الأندلسيين في أواخر القرن التاسع ،

والذين كانوا فى نفس الوقت فقهاء يحظون بالتقدير من جانب أهليهم ومواطنيهم ، وعلى سبيل المثال ، فهناك القرطبى عبد الأعلى بن وهب ، الذى درس فى المشرق وأفريقيا ، وكان عضواً مشاركًا فى مدرسة الشورى فى مدينته التي ولد فيها ، وكان محل تقدير واعتبار حتى وفاته في عام ٨٧٥ (٢٦٢هـ) ، وذلك باعتباره نصيراً المعتقدات المذهبية الإلحادية عن حرية الإنسان ونفى خلود الروح [٤٢] ، وأبرز من هذا كان وضع المعتزلي الشهير ، من أصل قرطبى ، خليل بن عبد الملك بن كليب [٤٣] ، والذى اشتهر أكثر بلقبه خليل الغفلة ، وكان معاصراً لبقى ابن مخلد ، والذى بعد أن عاد من رحلته الدراسية في الشرق «بدأ يتحدث فى وضوح وعلانية عن الإرادة المستقلة للإنسان ومقدرته على أن يحدد بكل حرية أفعاله (الاستطاعة) ، دون أن يخفى نفيه لقبول الجبرية» [٤٤] ، على الرغم من تفاديه للقضايا شديدة الخطورة ، وخاصة مسألة خلق القرآن ، ماتعرض للمضايقة قط - على مايبدو - طيلة حياته ؛ ولكــن بمجرد موته - فى تاريخ غير محدد - هجم الفقهاء على بيته وأحكموا قبضتهم على كتبه ، التى - باستثناء تلك التى تناول فيها القضايا الفقهية - أضرمت فيها النيران .

ومن أتباع خليل الغفلة هذا كان ذلك القرطبى الذى سافر هو الآخر إلى المشرق ، يحيى بن يحيى ، المعروف بابن السمينة [٤٥] ، والذى أثنى سعيد الطليطلى على سعة وتنوع معارفه وعلومه ، فأطلق عليه لقب المعتزلى الشهير ، وقد أصيب فى أواخر أيامه بداء النقرس فأقعده عن الحركة زمناً طويلاً داخل بيته ، ووافته منيته عام ٩٢٧ (٣١٥هـ) بعد أن كون أتباعا ودون أن يخفى انضمامه للآراء المؤيدة لنظرية الاستطاعة التى كان يمارسها أستاذه .

وبعد ذلك أسدل ستار الصمت على الاعتزال فى إسبانيا أثناء فترة الخلافة ، بالقدر الذى لم يحقق لهذه المدرسة العقائدية الاختلاط بآراء ابن مسره ، وبالقدر الذى أصبح فى لفظ الاعتزال ، حسب التعبير الذى يذكره جولد تسهير [٤٦] ، لايعنى بالنسبة لكتاب السير الأندلسيين أكثر من كونه «لفظاً عاماً وغامضًا ، يطلق على بعض الأفراد المستقلين الذين ناصروا اتجاها مضادا للأنشطة الدينية الصحيحة» ، وبعض المعتزلة المشرقيين الذين حاولوا الإقامة فى إسبانيا أعيدوا إلى بلادهم مرة أخرى بمجرد اكتشاف حقيقتهم ، وذلك مثلما وقع الأمر بالنسبة لمعتزلى بغدادى يدعى أبو الطيب بن أبى بردة ، الذى وصل إلى قرطبة عام ٩٧١ (٣٦١هـ) واستُقبل بكل ترحاب من قبل

الحكم الثانى ، واعتبره الفقيه الأول فى زمانه ، ولكن بمجرد أن تم كشف حقيقة انضمامه إلى صفوف المعتزلة حتى تلقى أمراً بمغادرة البلاد (٤٧) .

هل بدأت فكرة الاعتزال منذ ذلك العهد فى الوصول إلى الطبقات العامة ، غير المثقفة فى الغالب ، بصورة مباشرة ؟ لا تواتينا الجرأة على تأكيد مثل هـذا الأمر ، على الرغم من أن ابن حزم (٤٨) يطلق تسمية المعتزل على سكان حى كامل من أحياء الأندلس ، وادى بنى توبة ، وعلى كل ، فيبدو أن تطور وانتشار مذهب الاعتزال هذا كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الزهد والتصوف ، والتى نملك عنها - فى تلك الفترة نفسها - معلومات أكثر دقة .

فها هو ميجل أسين Miguel Asin قد رأى بكل وضوح كيف أنه ، فى فترة الخلافة كانت الطريقة الوحيدة الممكنة للبقاء من قبل أولئك الذين أرادوا الهرب من وصاية رجال الدين الأندلسيين ، وتعليم حفنة قليلة من التلاميذ والأتباع أموراً من المستحيل تعليمها علنا دون أن يتعرض من يقوم بها لمخاطر جمّة ، هى اللجوء إلى حياة الاعتزال والزهد ، وحين أصبحت حياتهم هكذا ، تمكنوا، على العكس ، دون أن يتعرضوا للعقاب من أن يحملوا إلى المذهب العقائدى الصحيح تلك الأفكار الإلحادية القادمة من المشرق» (٤٩) ، وفى ظل ما أظهره هؤلاء من ورع مثالى ، حظى جميعهم بالمزيد من المكانة السامية أمام السلطة والفقهاء ، وعلى وجه الخصوص ، أمام العامة من الناس ، لقد كان هؤلاء - بصورة ما - رواد التصوف الغربى ، مجموعة من المنعزلين ، على مسافة من المدن فى الجبال والغابات ، فرضوا على أنفسهم الحرمان والتعذيب الجسدى ، وباختصار ، كانت حياتهم فى كل شىء تقارن بحياة الزهاد من المستعربين الذين سكنوا فى تلك الفترة الأديرة الواقعة فى سفوح جبال الأندلس .

هؤلاء المتصوفة ، الذين عرفوا بأسماء عديدة مثل عابد ، ناسك ، زاهد ، وأحيانا ، بالإضافة أيضًا إلى اسم الصوفى ، كان كُتّاب السير يرسمونهم كأناس قطعوا بإرادتهم كل صلة بينهم وبين الحياة الدنيوية ، ومن بينهم آخرون حافظوا على علاقتهم بالأوساط المثقفة ، على الرغم من أنهم كانوا يتميزون بأصالة طريقتهم فى الملبس وقواعدهم وتعاليمهم التقشفية فى الحياة ، فقد كانوا يمارسون المهن اليدوية المتهنة التى تعينهم على الحياة ، وفى بعض الأحيان بلغ بهم الأمر للانضمام إلى إحدى الطوائف الذاهبة للقتال على الحدود ، ومن بين كل هؤلاء المتصوفة يوجد واحد كثيراً

ماتناول سيرته الضبي [٥٠] ، كان يُدعي محمد بن طاهر ، وعند عودته من المشرق ، حين أعلن عن رغبته في عدم العيش بين أركان بيت أسرته في مرسيه ، بني لنفسه كوخا من الحلفاء والنباتات الصغيرة ، بالقرب من إحدى القرى ، وسط بستان صغير كان يمتلكه ، عاش هناك معتزلا ، لايأكل سوى الفاكهة والخضراوات التي يزرعها ، فارضًا على نفسه نوعًا من العقوبة ، وماكان يرتدي غير الصوف الخشن ، وماكان يغيب إلا عند مشاركته في أعمال الجهاد التي كان يقوم بها ابن أبي عامر ، مثل تلك الصائفة التي استولى فيها المسلمون على قلمرية Coimbra وسمورة Zamora ، وفي نهاية حياته استقر في طلبيرة Talavera ، إلي جوار نهر التاجه ، فشارك في كل الغارات التي شنت على مواقع المسيحيين ، وفي إحدى هذه الهجمات وافته المنية ، بعد شهور قليلة ، عام ٩٨٩ (٣٧٩هـ) [٥١] .

وأثناء فترة الخلافة ، استقبلت إسبانيا أيضًا عددا من أولئك المتصوفة السائحين ، الذين تجمعوا بكثرة فيها خلال القرون التالية وخاصة في الجبهة الشرقية ، وأخيراً في مملكة غرناطة ، وابن الفرضي ، على سبيل المثال ، يدرج في معجمه للسير الإشارة إلى أحد متصوفة خراسان الذي عاش فترة وجيزة على أرض قرطبة عام ٩٦٩ (٣٥٨هـ) [٥٢] ، وآخر من أصل أنتيوكي Antioquia ، وصل إلى قرطبة عام ٩٨٣ (٩٨٣هـ) [٥٣] .

ابن مسرة وتلاميذه :

في معبد صغير بسلسلة جبال قرطبة ، على مسافة بسيطة من العاصمة ، في السنوات الأولى من القرن العاشر ، بدأ شخص يدعي محمد بن عبد الله بن مسرة ، تحت مظهر لرجل ورع كرس حياته للتقوى ، التأمل في نظام لاهوتي وفلسفي جديد للغاية بالنسبة للأندلسيين ، وتدريسه لعدد قليل من التلاميذ ، وفي البداية ، أدت فضائله الروحية والنظام الصارم لحياته الدينية إلى تمتعه باحترام مواطنيه من أهالي قرطبة ، وبعد ذلك بدأت الشائعات تسري والاتهامات السرية تتوالي ضده لقيامه بنشر أفكار تتعلق بمذهب المعتزلة وبناء نظام فلسفي يقول بوحدة الكون ، كان مثل هذا الاتهام بالإلحاد خطوة أولية . وحين شعر بأن حياته مهددة بالمخاطر ، استسلم ابن مسرة لفكرة الخروج من أرض الوطن ، فجاب أركان المشرق ، وأدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى قرطبة ، حيث بدأ منها حياة الزهد من جديد واستأنف دروسه حول معتقداته

ومبادئه ، وماتأخر به الوقت فى تحمل أنواع الحرمان والتعذيب النفسى ، وفى عمر يقل عن الخمسين عاماً لقى حتفه فى أواخر عام ٩٢١ (٣١٩هـ) .

لا نملك بين أيدينا تفاصيل كافية عن حياة ابن مسرة حتى نقرر ما إذا كان قد صاغ منهجه قبل أو أثناء رحلته إلى المشرق ، فى رأى جولد تسهير [٥٤] ، «وضح عليه تأثير النظرية الأفلاطونية الجديدة ، التى كانت شائعة الانتشار فى تلك الفترة فى بلاد المشرق ، التى تحقق شكلها الكامل فى مذهب الإسماعيلية» ، وفقاً لما يقوله نفس هذا العالم ، مستنداً لأقوال ابن الفرضى ، فإن ابن مسرة «قد مارس المنهج الرمزى القرآنى المفرط» وكان المؤسس لمدرسة كانت ستدخل فى الإسلام الأندلسى «حركة سرية لحرية الفكر» . فى بحثه الجميل عن ابن مسرة ، يصل ميجل أسين بالاثيوس Miguel Asin Palacios إلى نتائج مختلفة بعض الشىء [٥٥] ، فهو يفصل داخل إطار المنهج المسرى ، المنهج اللاهوتى للفيلسوف ، ويحاول أن يضع وسائل تمييزية لكل منهما ، مستنداً إلى تقديرات الأندلسيين من أمثال ابن حزم وسعيد الطليطلى ، وتقديرات الشرقيين من أمثال الشهر زورى والشهر ستانى ، وتكمن أصالة الفلسفة المسرية فى نظرية مأخوذة عن فكرة وحدة الكون عند الأفلاطونية الجديدة ، وهى للعلم ، عبارة عن «وجود مادة روحية ، يشترك فيها كل المخلوقات ، فيما عدا الله عز وجل» ، وعلى أساس من هذه النظرية بنى ابن مسرة مفهومه عن وحدة الكون ، ومبادئه عن حرية الفكر وإصدار الحكم ، والذى لايخضع لسبق العلم الإلهى ، وتطهير النفس عن طريق العالم المادى حتى تعود إلى إطار العالم الروحى .

كانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها التعبير عن مثل هذه الآراء العقلية فى إسبانيا ، والتى أثارت ضجة فاضحة وسط الرأى العام ، على الرغم من أن قلة من المبتدئين قد عزتهم تلك الآراء ، ومن بين هؤلاء الأتباع والتلاميذ من امتدت به الحياة إلى مابعد حياة ابن مسرة ، فعملوا على نشر أفكاره ، دون أن يتعرض لهم أحد ، على مايبدو ، فى أول الأمر ؛ ونشروا كتبه ، التى افتقدناها فى الوقت الراهن ، والتى لابد أنها وجدت قراءً على درجة من الوعى كثيرى العدد مما جعلهم يثيرون الفقهاء فى قرطبة عليهم ، فى السنوات الأخيرة لفترة حكم الناصر ، بالتحديد فى عام ٩٦١ (٣٥٠هـ) ، تلقى فقيه العاصمة ، المدعو محمد بن زرب ، الذى عرف مؤخراً بنشرة لتفنيد لمنهج بن مسرة ، من الخليفة ، إلى جانب فقيه آخر ، الزبيدى ، الذى سيكون فى المستقبل مؤدب الأمير هشام الثانى ، سلطات تامة لكى الجرح ، فقام ابن زرب

بإصدار أمر بالقبض على كبار تلاميذ ابن مسرة ، وأجبرهم على أن يسبوا علناً آراءه ويعدلون عنها ، ثم أمر بأن تحرق فى حضرته ، وأمام أبواب المسجد الجامع بقرطبة ، النسخ الشخصية التى كانوا يحوزونها من أعمال أستاذهم (٥٦) ، وبعد ذلك حين وصل ابن زرب بعد موت الحكم الثانى إلى منصب قاضى العاصمة ، أحيا من جديد حركة التفتيش ، وذلك بموافقة الحاجب ابن أبى عامر ، ضد أتباع ابن مسرة ، والذين خمدت دعوتهم بعض الشىء أثناء فترة حكم ثانى خلفاء بنى مروان .

فى تلك الأثناء - ٩٧٩ (٣٦٨هـ) - وقعت مؤامرة ضد العرش ، والتى تحدثنا عنها بعض الشىء آنفًا (٥٧) ، نجم عنها ، بين عقوبات كثيرة أخرى ، قتل وصلب صاحب الرد عبد الملك ، أحد أبناء القاضى الشهير منذر بن سعيد البلوطى ، المتوفى قبل هذا التاريخ بخمسة عشر عاما ، ويبدو أن عبد الملك هذا ، الذى اتهم أيضًا باعتزاله ، قد دخل إلى جانب ثلاثة من أخوته سعيد ، وعبد الوهاب ، وحكم على وجه الخصوص ، إلى ساحة المذهب المسرى ، وأصبح ، فى تلك الفترة واحداً من أنشط الدعاة له فى قرطبة ، وكذلك فقد أدى المنهج الذى تبناه معتزل سلسلة جبال قرطبة إلى تكوين نواة فى نفس الفترة من التلاميذ والتابعين الذين أصبحوا على قناعة فى منطقة بجانة Pechina ، وبعد ذلك أصبح هذا المذهب شقاقًا داخل المدرسة المعروفة فى الشرق الإسلامى .

وعلى كل ، فما كان بمقدور الحماس المالكى الإسبانى غير المتسامح ، والذى نال التشجيع من قبل ملوك الطوائف ، أن يقتلع المذهب الذى أرساه ابن مسرة من جذوره فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وماقدر حتى على منع انتشاره ، ورغم أن معلوماتنا غير دقيقة وجيدة عن مصير هذا المذهب فى الأزمان اللاحقة ، إلا أنه فى استطاعتنا أن نؤكد بأن مؤسسه كان على الساحة الأندلسية أول من بذل مجهوداً فى سبيل نشر التأمل الفلسفى وحركة فكرية برزت على الساحة فى صورة كاملة بداية من نهايات القرن الحادى عشر ، وخاصة التطور المتلاحق لحياة التصوف الجماعى التى اصطبغت بصبغة إسبانية خاصة .

٣ - التأثير الشرقى على الثقافة الأندلسية

ورعاية الحكم الثانى للآداب والفنون :

الإسهامات الشرقية حتى منتصف القرن العاشر :

لقد تحدثنا عن كيف أن الواجب الدينى المتمثل فى أداء فريضة الحج قد هيأ الظروف فى كل فترة أمام توافد الأندلسيين ، الراغبين فى أن ينهلوا من مصادر المعرفة الإسلامية ذاتها على مراكز الثقافة الشرقية ، ففى العهد الأموى ، لم تكن المدينة فقط ، بل أيضًا بغداد وبقية المدن العراقية الكبرى (٥٨) ، هى مراكز الجذب الرئيسية لهؤلاء الرحالة الذين لايكلون ولايتعبون ، يهوون العلم ولايأملون فى العودة إلى بلادهم إلا بعد أن يكتسبوا كما هائلا من المعارف يضمن لهم الحظية بالتقدير والمكانة الرفيعة فى ديارهم ، ولكن لم تكن تلك الحالة من التعطش للعلم فى الغالب هى المحرك الوحيد لأولئك النفر من الأندلسيين للشروع فى مثل هذا الترحال المضنى ، فقد تحرك البعض مدفوعًا بالفضول وحب الاستطلاع أو لتمتعه بروح المغامرة ، أما البعض الآخر ، فقد ذهب بدافع من حبه لاعتبارات دنيوية تجارية ، مثل تجارة البضائع النادرة ، التوابل ، العبيد وأدوات الرفاهية(٥٩) ، وفى المقابل - على الرغم من حالة الصمت التى تسود كتابات الأدباء الشرقيين عن هذا الجانب من العالم الإسلامى فى هذه الخصوص ، باستثناء بعض الجغرافيين القلائل ، نجد أن إسبانيا الأموية ، منذ بداية فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، وعلى وجه الخصوص فى القرن العاشر ، قد بدأت تحظى بشهرتها كأرض متميزة ومرحبة نسبياً بالنسبة البعض ، شريطة أن يكون معتقدهم الدينى المذهبى معصوماً ، من أصحاب الدين أو الأدب والذين أتوا للبقاء بصفة دائمة أو مؤقتة ، منذ منتصف القرن العاشر ، كانت تلك العمليات من الهجرة المؤقتة أو النهائية من قبل رجال الثقافة وغيرهم من طالبى العلم تتضاعف وعملت على تهيئة الظروف على أرض قرطبة لتكوين نوع من الجالية ، ليست بالكبيرة ، ولكنها كانت مؤثرة بكل تأكيد ، من الأشخاص الذين ينحدرون من أصول أفريقية ومصرية وسورية وعراقية ، بالإضافة إلى أناس من أماكن نائية من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، إن

مجموعة السير من المختارات لم تتوانى ، من ناحية أخرى ، فى الحديث عن هؤلاء الغرباء المسلمين ، الذين ما إن استوطنوا إسبانيا دون نية فى العودة مرة أخرى إلى بلادهم الأصلية ، لم يتأخر بهم الوقت فى الانخراط فى المجتمع الأندلسى وفى أن يصبحوا مقبولين تماماً من قبل ذويهم الجدد .

لقد تحدثنا أيضاً عن الظروف التى تهيأت لمثل هذه التبادلات فى منتصف القرن التاسع ، فى ظل مملكة عبد الرحمن الثانى الهادئة ، فى الوقت الذى أتى فيه الموسيقى زرياب بموضات العراق إلى قرطبة وأطلع الارستقراطية الأندلسية على جوانب الترف والرفاهية فى الحضارة البغدادية ، ولكن لم يكن زرياب – فى تلك الفترة – هو الشرقى الوحيد الذى استقبلته قرطبة بكل ترحاب ، فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أن الشاعر إبراهيم بن سليمان الشامى ، الذى وصل إلى قرطبة قبل وفاة الحكم الأول ، بعد أن كان على اتصال بأبى نواس وأبى العتاهية ، كان أحد المقرِّظين المشهورين فى بلاط من أتى بعد هذا الأمير ، وكذلك فى بلاط محمد الأول ، خلال فترة حكم هذا الأمير ، الذى سار على نفس النهج التحررى لوالده ، كان هناك أيضاً العديد من أبناء المشرق ، الفقهاء والمثقفون من الأدباء ، الذين أمضوا مدة داخل قرطبة أو ظلوا للعيش فى رحابها على الدوام ، لقد بدأت الحركة تقل بعض الشىء على مايبدو ، فى بدايات القرن العاشر ، ربما بسبب أن عبد الرحمن الثالث أصبح يخشى ، تحت غطاء سفريات الدراسة ، من تسريب عدد من الجواسيس العباسيين أو الفاطميين إلى مملكته ، مثلما حدث بالنسبة لأحمد بن محمد بن هارون (٦٠) ، الذى على مدى سنوات عدة ، خلال فترة حكم الأمير عبد الله ، جاب أركان مملكة قرطبة ، التى أدخل إليها بعضاً من أعمال ابن قتيبة والجاحظ ، حتى يتسنى له الدخول فيما بعد فى دائرة خدمة الشيعى عبدالله ، الذى عينه سكرتيراً له ، ولكن كان مرور عقود من الزمن كافياً حتى تكون هناك ، على العكس ، خلال فترة حكم الحكم الثانى ، وحتى قبلها ، فى الفترة التى سبقت بلوغه العرش ، حالة من الإلحاح الشديد على النزوح إلى العاصمة الأندلسية ، من قبل علماء شرقيين وأدباء وشعراء وفقهاء والذين جذبهم إلى ذلك المقصد ماكانت تتمتع به قرطبة من شهرة فى الأوساط الفكرية القديمة والبعيدة والترحيب المؤكد الذى سوف يستقبلون به فيها ومعاملتهم فى إطار من الحرية والتقدير .

في نوبة الذهاب التى ظهرت وترسخت بهذه الطريقة ابتداءً من القرن التاسع ، بين الأندلسيين والمشرق وبين الشرقيين وإسبانيا على حد سواء ، كانت مدينة القيروان تمثل على مدى ذلك التاريخ محطة وسيطة ، ففي أواخر فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، تواجد على أرض إلبيرة Elvira مالايقل عن سبعة فقهاء نقلوا ، في نفس الوقت ، المعلومات التى تلقوها في العاصمة الأفريقية مباشرة عن الفقيه الشهير سحنون [٦١] ، وحتى نجاح حركة الفاطميين ، ظلت القيروان بمثابة المنافس الفاعل لقرطبة في الفقه المالكي ، وكان عدد كبير من الأندلسيين قد وفد لمدة طالت أم قصرت للحياة فى تلك المدينة ، فى رحلتي الذهاب والعودة من وإلى المشرق ، وقد تواجد على أرضها دائمًا منذ زمن سحيق عدد كبير من الأسر المكونة من الحكماء والتجار الذين كانوا يفتخرون بأصولهم الأندلسية ، من أمثال أسرة «بنو خيرون» ، الذين تركوا بصماتهم فى العلوم التاريخية وعلوم الكتابات القديمة القيروانية [٦٢] ، فهذا هو الفقيه الإسبانى ، إبراهيم ابن النعمان ، قد مات فى مدينة سوسة عام ٨٩٦ (٢٨٣هـ) [٦٣] ، من جانبهم ، فى القرن العاشر قام العديد من الفقهاء بالبحث عن مهرب فى الأندلس ، بعد فرارهم من الهرطقة الفاطمية ، ومن بينهم القرشى المدعو حكم بن محمد المتوفى فى قرطبة عام ٩٨٠ (٣٧٠هـ) [٦٤] .

وماكان من هذه النوبة من الذهاب والإياب إلا أن فتحت آفاقاً جديدة أمام الدوائر الفكرية فى الأندلس ، وكذلك فقد عملت على تحفيز شهيتها للمعرفة فى مجالى العلوم الدينية والآداب على حد سواء ، هذا بالإضافة إلى مجال العلوم الصحية ، وفى فترة وجيزة أمكن التأكد من الإقبال الكبير الذى حظيت به فى قرطبة بعض الأعمال الكبرى من الأدب العربى فور وصولها إلى أراضيها ، هذا بالإضافة إلى انتشارها السريع والهمة التى أبديت فى نقدها والاقتباس منها ، كان أهم الأدباء الأندلسيين الذين ساهموا – أثناء حكم الأمير محمد الأول ، أى قبل فترة الخلافة – فى أقلمة بعض هذه الكتب مع المناخ الجديد فى بلده ، هما فرج بن سلام وعثمان بن المثنى ، وقد أقام الأول الذى كان مهتمًا بدوره بتأليف المعاجم ، وكتابة الشعر ودراسة الطب ، صداقة خلال إحدى رحلاته إلى العراق مع الجاحظ وأحضر إلى قرطبة كتاب البيان والتبيين ، إلى جانب كتب عديدة أخرى ورسائل لنفس هذا الكتاب [٦٥] ، أما الثانى الذى امتدت به الحياة طويلاً وكان لفترة طويلة المؤدب الأول لأولياء العهد من أبناء الأمراء ، فقد كان

مستمعاً مواظباً فى المشرق لدروس الشاعر الشهير «أبو تمام» والذى نشر ديوانه فى قرطبة (٦٦) .

إنه من غير المفيد الإلحاح فى الحديث عن هذه الرعاية الروحية التى أولتها إسبانيا الإسلامية للمشرق العربى قبل الوصول إلى فترة الخلافة ، التى كانت من ألمع فترات تاريخها ، فى اليوم الذى تم فيه المعالجة التفصيلية للثقافة الأندلسية ، ففى المقام الأول ، لم يمكن تجنب الحديث عن هذا الانتقال المتواصل لأفضل أعمال الأدب المشرقى إلى الطرف الآخر من العالم الإسلامى ، وإن حدث قيام القرطبى ابن عبد ربه فى بدايات القرن العاشر بإنهاء مؤلفه الموسوعى الواسع المعروف باسم «العقد الفريد» ومن دون أن يخرج من بلده ، يعد فى ذاته كافيا بصورة موسعة للتأكيد ، إذا ماكان ذلك ضرورياً ، على التسرب التدريجى للمعارف الشرقية ، التى حين بلغت فترة الخلافة ذروتها ، طفت على السطح ومهدت الطريق لأن تظهر فى إسبانيا بعض الأعمال ذات الأهمية الحقيقية .

وابن عبد ربه هذا ، أقدم المؤلفين الأندلسيين الذى حاز شهرة دائمة فى الأدب العربى ، وطبع كتابه العقد مرات عديدة ، كان واحداً من المقرظين الرسميين للدولة المروانية ، منذ بداية فترة حكم محمد الأول وحتى منتصف فترة حكم الناصر ، ولد عام ٨٦٠ (٢٤٦هـ) – وتوفى ، بالفعل عن عمر طويل – عام ٩٣٩ (٣٢٨هـ) ، كانت قريحته الشعرية فقيرة للغاية ، فما كانت تتمتع بالقوة التخيلية والصلبة التى كان يحظى بها الغزال فى شعره الساخر ، على الرغم من أنه فى رحلة قام بها إلى المشرق ، حين لقائه بالمتنبى ، الشاعر الكبير ، عامله بكل تكبر وغطرسة ، وعمله الرئيسى ينتهى بقصيدة تعليمية حول تاريخ الإسلام ، والتى تعد من الشعر المتوسط الحال ، وماتكاد تأتى بجديد على الإطلاق ، حتى عن إسبانيا . وباعتباره شاعر البلاط الذى وجد نفسه مضطرا لممالقة أسياده – الأمويين – وماوجد أى غضاضة من أن يعلن فى تلك القصيدة موقفه المعادى لعلى ، لدرجة أنه حذف من اسمه مايشير إلى أنه صهر النبى (٦٧) ، ومع هذا فإن أكثرمايؤخذ على مؤلف العقد ، وينصرف أيضاً نفس الشيء على كثير من أبناء وطنه المتأخرين ، هو أنه ، بما أن الأمر يتعلق بعمل له كثير الاعتبار ويتم فيه عرض هائل للجوانب والمظاهر الأساسية للعالم حتى عصره ، ألا يفرد أدنى مساحة لبلده ، إذا مااستثنينا العديد من الأبيات التى تضمنتها القصيدة الأخيرة المشار إليها . وعلى مايبدو أنه قد كان مصرا بدرجة كبيرة على التزام مثل هذا

الصمت ، ولكن كم كانت ستحمل هذه المعلومات الصادرة في كتابه عن إسبانيا من وثائق عن إسبانيا المروانية إذا ماوضع فى اعتباره أن يلفت انتباه قرائه بعض الشيء إليها ! فحين عثر الوزير الشهير البويهى فى منتصف القرن العاشر ، الصحاب بن عباد ، على نسخة من العقد وقرأها ، بحثًا عن أية أخبار عن إسبانيا ، ولكن مجهوده ذهب سدى ، فصاح بحق : هذه بضاعتنا ردت إلينا (٦٨) .

الحكم الثانى ، رعايته للفنون وحبه للكتب :

ليس هناك من عاهل في الدولة الأموية حتى عبد الرحمن الثالث ، لايتحدث المؤرخون باستفاضة عن ثقافته الواسعة وفضوله الروحى الشخصى ، ولكن المديح الأكبر – والذى لايتأتى – فى هذه المرة يمثل حدا زائدًا عما يلزم – هو الذى يخصصه هؤلاء للأمير الذى كان ، فى نفس الوقت ، الأقوى والأكثر علمًا بين أفراد أسرته : إنه الخليفة الحكم الثانى المستنصر بالله (٦٩) .

وكما نذكر (٧٠) ، كان الحكم الثانى يبلغ الأربعين من عمره حين خلف والده على عرش قرطبة ، الذى ظل قابعًا على كرسيه طيلة خمسة عشر عامًا ، وحين عين وريثاً للعرش منذ فترة بعيدة ، طاف أماكن عديدة لأوقات طويلة ، قبل أن يحصد ميراث الخلافة ، وذلك حتى يكمل فى الفروع العديدة للمعرفة الإسلامية والدنيوية التعليم الكامل الذى أتاحه له الناصر ، حين اختار لأبنائه الأساتذة القرطبيين ممن ذاع صيتهم ، وما تأخر المستنصر القادم ، الذى تميز باستعداد خاص للدراسة ، فى أن يكتسب ثقافة إسلامية عميقة ، والتى – على الرغم من أنها لم تتجاوز كونها شأنا خاصًا – جعلت منه واحدا من أفضل فقهاء العاصمة ، وأصبح مؤهلا تماما لكى يتناول بلياقة فى جلسات الشورى ، ولكن ماحدث فى إسبانيا ، كما كان يحدث فى الشرق الإسلامى ، فإن المتعلمين ماكانوا يريدون الاقتصار فى دراستهم على فرع واحد من فروع المعرفة فى فترة إعدادهم العلمى ، وإنما كانت لديهم الرغبة فى تحصيل علوم أخرى بجوار تخصصهم ، فيحصل لهم بهذا التنوع الذين ينشدونه ، أى بالإضافة إلى سلسلة العلوم الفقهية – الدينية ، يحصلون القواعد اللغوية وعلوم المعاجم والبلاغة والأدب والشعر والتاريخ وعلوم الأنساب ، بالإضافة إلى علم الفلك والطب ، وماهناك من صفة أفضل من صفة «مشارك» ، والتى كانت تطلق على أولئك الذين يرغبون فى

الافتخار بأنهم يمتلكون زمام كل هذه المعارف ، أو على الأقل لديهم دراية بها ، حسنا : فإن كاتبى سيرة الحكم الثانى يتوافقون فى رسم شخصية لنا فى صورة شخص موسوعى المعرفة ويتمتع بفضول عال ومتيقظ ، وكل مانعرفه عن علم هذا الأمير والدفع الذى أعطاه فى مملكته للتأمل الفكرى يجعلنا نعتقد فى مثل هذه الشهادات .

وأكثر هذه الشهادات اعتباراً هى تلك التى تجعل من الحكم الثانى محل الثقة الذى يرجع إليه فى توثيق المعلومات الخاصة بالسير الذاتية والمراجع العلمية ، وباستمرار من أجل دعم معلومة ما ، تشتمل المراجع الأندلسية على إشارة مضمونها ، إن هذه المعلومة ترد من ملاحظة كتبها بخط يده الخليفة القرطبى الثانى ، «إن رأيا خطيًا للحكم المستنصر – فى رأى الحميدى – يعد بالنسبة لعلماء أرضنا حجة دامغة ، حيث إن هذا العاهل كان عالماً معتمداً وصادقًا» [٧١] ، ومثل هذا الأمر يجعلنا نعتقد بأنه ، قبل بلوغه العرش أو بعده – على حد سواء – قد أمضى ابن الناصر يوميا ساعات طويلة يحمل قلمه فى يده ، مسجلا المخطوطات التى يطالعها . ومن المحتمل أنه بالإضافة إلى ذلك كان يرأس أحيانًا اجتماعات الفقهاء والأدباء الذين كانت توجه إليهم الدعوة للحضور إلى قصر قرطبة أو إلى مدينة الزهراء [٧٢] ، وعلى وجه الخصوص أثناء السهرات الطويلة التى كانت تعقد على مدى ليالى شهر رمضان .

ويبدو أنه من غير الصحيح ، مع هذا الحديث عن «بلاط أدبى» للحكم الثانى[٧٣] . ومهما كانت كبيرة تطلعاته وميوله نحـــو الدراسة وحماسه الورع وتقواه ، فليس من المصدق أن هذا العاهل ، فى صالح حاشيته الدينية والعلمية ، قد ضحى بما للحياة الخليفية من صخب وبريق ، الوضع الذى كان قائماً خلال الأيام الأولى التى ورث فيها العرش ، ولكن الروح الليبرالى ، الذى ورثه من والده ، والرغبة فى أن يترك للأجيال الثالثة ذكرى رجل رعى العلوم والفنون حق الرعاية ، والرغبة فى اجتياز كل العقبات ، حتى يجعل من مكتبة الخلافة واحدة من أثرى مكتبات العالم الإسلامى ، كل هذه الخصال، دون أن تكون أمرًا استثنائيًا بين أمراء العرق المروانى ، أمكن لها أن تتوافر – بفضل السلام الذى كانت تتمتع به المملكة وازدهار بيت المال – فى هذا العاهل والذى وقف الحظ بجانبه أكثر مما وقف إلى جوار من سبقوه ومن أتوا بعده .

وبما أنه في منتصف القرن العاشر أصبح الشرق العربي (وعلى الأخص بغداد) ، وحضارته ونشاطه الفكرى تحظى فى كل يوم بمكانة أكبر فى الأندلس ، كان الحكم الثانى أفضل من نبه إلى هذه المكانة وفهم منتهاها ، ولهذا فحين أتى دوره ، فتح ذراعيه فى مملكته أمام أولئك الذين حصلوا العلوم من أبناء المشرق ورأوا أنفسهم مضطرين للخروج من أوطانهم لسبب أو لآخر ، كما وجه الدعوة لآخرين لكى يقيموا إقامة دائمة على أرض قرطبة ، بعد أن وعدهم بالرعاية الكريمة ، وقبل سنوات عديدة من موت عبد الرحمن الثالث بدأت تسجل ، بإيقاع سريع وبلا هوادة ، مثل تلك الإقامات فى العاصمة من قبل المهارجين الجدد ، فى البداية ، فى عام ٩٤١ (٣٣٠هـ) ، كان وصول العالم اللغوى الشهير «أبو على القالى» ، الذى يرجع بأصوله إلى أرمينية ، والذى بعد أن قضى مايقرب من ربع قرن من الدراسة فى بغداد ، وبعد أن وجد نفسه فى موقف حرج من الناحية المادية ، بدأ الطريق متوجهًا إلى إسبانيا وأبدى رغبة فى البقاء بها ، وإذا ماصدقنا ماقاله كاتبو سيرته من أبناء الأندلس ، فقد استقبل بكل ترحاب وإعجاب ، حيث استقبل كضيف رفيع من قبل الحاكم البحرى ابن الرماحص حين نزل فى مدينة ألمرية Almeria ، ووصل إلى قرطبة فى صحبة سكرتير للمستشارية أرسل إليه خصيصًا لهذا الغرض «هذا الأديب العالم ، الذى له أن يفتخر بأن تتلمذ على يد أساتذة من ذوى الشهرة العالية مثل ابن دريد وابن قتيبة ، شكل مدرسة فى الأوساط التعليمية بالعاصمة وأعاد من جديد فى صورة حديثة تعليم علم اللغة العربية فى هذه المدرسة ، وحين أصبح خالى الذهب من المشاغل المادية ، تمكن من أن يكتب بكل حرية روحية مؤلفه الكبير – الأمالى – الذى خصصه للناصر ، وحتى اللحظة التى مات فيها، عام ٩٦٧ (٣٥٦هـ) كان يحرص على تثقيف التلاميذ وإعدادهم ، والذين برز من بينهم الزبيدى الإشبيلى ، الذى عينه الحكم مؤدبا لابنه هشام الثانى .

وقبل أن يصل ثانى خلفاء بنى مروان إلى العرش أقام فى قرطبة أيضا ، بدعوة منه أو بموافقته ، شرقيون من ذوى الشهرة القليلة ، على سبيل المثال ، شاعر بغدادى يدعى المهند ، الذى وصل إلى العاصمة فى عام ٩٥١ (٣٤٠هـ) ، وبعد أن أصاب حظاً من الثراء فى قرطبة واشترى مزرعة فسيحة ، انزوى بين جنباتها ليعيش حياة التأمل[٧٤] ، ولكن سيعد تطويلاً كبيراً أن نقوم هنا بتعداد الرجال الكثيرين الذين

توافدوا على العاصمة الأندلسية من أصحاب الأدب ، واللغة أو من الفقهاء الشافعيين ، القادمين من العراق وسوريا أو من مصر (٧٥) ، والذين ذكر كاتبو السير الأمر الكثير عن مشوار حياتهم ، وعلى كل ، فإن أول مايتبادر إلى النظر هذا التأثير الحاسم الذى مارسه في تلك الفترة ذلك التوافد من قبل المهاجرين على ازدهار مختلف فروع المعرفة في الأندلس ، ومن بين هؤلاء كانت زمرة من الأفارقة البارزين ، على سبيل المثال - حتى لانذكر أكثر من حالتين - القيروانيين محمد بن حارث الخوشاني ، الذى اشتهر على وجه الخصوص بتاريخه عن قضاة قرطبة ، والمؤرخ محمد بن يوسف الوراق ، اللذين وافتهما المنية ، بفارق عامين بينهما ، قبل أن تنقضى مدة حكم الحكم الثانى (٧٦) .

إن المحللين وكاتبى السير ، لم يجمعوا فقط على امتداحهم لكرم الخليفة مع هؤلاء الضيوف الذين وفدوا إلى أرض قرطبة ، وإنما هم مجمعون أيضًا على إظهارهم لنا كيف أن هذا الكرم قد وصل ، وقت تحين الفرصة ، إلى خارج حدود مملكته ، فهاهو ابن حيان يحكي - على سبيل المثال - أن الحكم الثانى قد أرسل بهدايا ثمين لبعض مشاهير الآداب فى المشرق ، وبالتحديد إلى «أبو عمر الكندى» ، مؤرخ الحكام والقضاة المصريين . كما قام مبعوث خاص بحمل مبلغ ألف دينار من جعبة العاهل القرطبى إلى أبى الفرج الأصفهانى الشهير ، حتى يحصل على نسخة من مؤلفه كتاب الأغانى ، الذى لم يكن قد انتشر فى أرض العراق بعد . وفى الفترة نفسها ، جاب مبعوثو العاهل القرطبى العالم العربى لكى يشتروا له المخطوطات ، وفى بغداد نفسه كان هناك نساخ ، يدعى محمد بن طرخان ، لم يكف عن استخراج العديد من النسخ لتلك الأعمال ، التى كان العاهل يرغب فى الحصول على نسخة منها (٧٧) .

وحسب رأى كل المؤرخين الإسبان المسلمين ، فقد كانت مكتبة الحكم الثانى ، فى أواخر فترة حكمه ، ثرية بدرجة كبيرة (٧٨) ، وحسب مايذكر البعض ، فقد كانت تحتوى على مالايقل عن ٤٠٠٫٠٠٠ مجلدًا ، كانت واقعة داخل قصر قرطبة ، وزودت بكتالوج مفهرس يتكون ، كما يفصل ابن حزم (٧٩) ، من أربعة وأربعين دفترًا يحتوى الواحد منها على خمسين صفحة ، ومما لاينسى أن المكتبة التى كانت تحتوى على عدد معتبر من المخطوطات كانت توجد بقصر الخلافة قبل منتصف القرن العاشر ، وحين

اختفى من الساحة ولى العهد عبدالله ، الذى كان مولعًا بالكتب هو الآخر ، أصبحت الكتب فى حوزة أخيه ، ولكن هذا ، حتى قبل أن يصل إلى سدة العرش ، هو الذى نظم فى قرطبة خدمة حقيقية للبحث عن الكتب التى كانت تنقص المجموعة الملكية ، والتى أمر بتسليمها لجمع كبير من الوراقين المحترفين حتى يهموا فى الحال بعمل النسخ اللازمة ، ونحن نحتفظ بأسماء العديدين من هؤلاء الوراقين ، الذين برز من بينهم صقلى هاجر إلى قرطبة ، وهناك امرأة أيضًا عملت بهذه المهنة ، الشاعرة لبانة (٨٠) ، عمل إلى جانبهما أدباء آخرون أوكلت إليهم مهمة خاصة تكمن فى مقابلة النصوص الأصلية بالنسخ ، والتأكد من أن هذه النسخ لاتحوى أى نوع من الأخطاء أو الثغرات (٨١) .

إن تكوين مكتبة معتبرة (٨٢) – تم تطهيرها بعد ذلك بسنوات على يد المنصور من كل الكتب الموضوعة فى دليلها وذلك من قبل حاشيته غير المتسامحة من فقهاء المالكية ، ثم شتت كتبها ، ومما لاشك فيه أنها قد أعدمت عند سقوط الخلافة (٨٣) – يعد كافيًا ، إلى جانب التوسعة الفخمة للمسجد الجامع بقرطبة ، لتأكيد شهرة الحكم الثانى .

وبعده ، أراد بن أبى عامر أن يضيف إلى ألقابه الشرفية أيضًا سمعته كداع للآداب والفنون ، فأحاط نفسه بالحكماء ، واستضاف فى قرطبة سعيد البغدادى ، واصطحب فى رحلاته ديوان شعرائه المأجورين (٨٤) ، ولكنه لم يتمكن من الوصول حتى ولو من بعيد إلى تلك المكانة التى تساويه بسلفه الشهير ، وماتمكن من ذلك أى فرد من أفراد الأسرة الحاكمة المروانية فيما بعد ، وعلى كل ، فإن الدفع الذى أعطاه الحكم الثانى للنشاط الدراسى على أرض الأندلس لم يكن له أن يعود القهقرى ، فى أقرب وقت ، حين هدأت الاضطرابات الناجمة عن الحرب الأهلية ، ظهرت إسبانيا تحت ظل عرش ملوك الطوائف ، على الرغم من تقسيمها السياسى ، كوريث تأهل لأن يحوز التراث الثقافى الموروث عن الأمويين ، وفى الأثناء التى تابعت العلوم القضائية الدينية وعلوم اللغة سيرها المعهود فى طريق تعلمها من قبل الكثيرين ودراستها بنفس الحماس على أرض عواصم الممالك الصغيرة التى قامت على أطلال الخلافة ، نجد أن آداب الفنون الدنيوية قد بلغت حدًا كبيرًا من التطور ، وفقط بداية من النصف الأول من القرن الحادى عشر بدأت هذه الآداب تنتج ، فى النثر والشعر على حد سواء ، بعد الأعمال الكبرى ، التى وإن ظلت على صلة وثيقة بالنزعة الكلاسيكية البغدادية لم تكن

مجرد استشفاف للأعمال الشرقية الكبرى ، ويتجاوز هذه الصفحة ، خرجت إلى النور عناوين أخرى جديدة تجرى في عروقها الأصالة الأندلسية ، والتي من خلالها حاول النقد الحديث أن يكتشف تعبيراً ، تلقائياً وحراً في النهاية ، «للحس الإسباني» .

وليس بمقدورنا أن نتخذ موقفاً ، حين نقوم رسم إجمالي بسيط ، بالنسبة للمشاكل المطروحة بسبب وجود هذا الأدب الفنى ، بالقدر الذى بدأ يتكون فيه قبل سقوط الأمويين ، حيث إن تلك المشاكل تؤثر فيما يبدو على الموضوعات الشعرية ، أو الشعر الذى كان فى بعض الأحيان «موجهًا» أو «سياسيًا» ، وفي أحيان أخرى كان يرى خاليا من أى اهتمام بالأمور السياسية [٨٥] ، وكذلك فلن نتعرض للأسباب التى مازال يكتنفها الغموض الحالك ، والتى كان بمقدورها أن تسبب ، قبل أن تزول الإمارة القرطبية ، ميلاد الأجناس ذات الخصوصية الإسبانية من الموشحة والزجل [٨٦] ، وإن الحلول المقترحة حتى الآن لحل مثل هذه القضايا تبدو - بغض النظر عن ذلك - فى جانب كبير سابقة لأوانها ، ونحن على قناعة بأنه ليس من الممكن الوصول إلى نتائج مقبولة عن تطور الأدب الدنيوى فى الأندلس حتى القرن الحادى عشر ، طالما أن المنتجات الكثيرة المعاصرة للإمارة ، والتى مازالت فى معظمها حتى الآن دون استغلال أو طبع ، لم تكن محطًا للدراسة النقدية وإبداء الرأى فيها على ضوء التاريخ السياسى والاجتماعى لكل هذه الفترة ، التى مازالت حتى اللحظة الراهنة لم تكتشف إلا فى القليل النادر منها .

نظرة عامة على تاريخ الخلافة :

كان على إسبانيا الانتظار حتى القرن العاشر ، ومجئ عبد الرحمن الثالث حتى تجد أول مؤرخ حقيقى لها [٨٧] ، وهو فى هذه المرة أيضًا واحد من أبناء المشرق الذين أقاموا فى شبه الجزيرة الأيبيرية : إنه الشهيد أحمد بن محمد بن موسى الرازى ، الذى أتى ولده عيسى ليصبح بدوره مؤرخًا رسميًا بارزًا للدولة الأموية ، وذلك فى خدمة الخليفة الحكم الثانى .

ومثل هذا التأكيد فى حاجة إلى بعض الشروح ، فعادة ما اعتبر محمد والد أحمد الرازى بالفعل مؤرخا أيضًا للأندلس ، ومن هذا المنصب خلق فى الأسرة تقليداً احترمه الابن والحفيد فيما بعد ، كما يعتقد بأنه حتى قبل محمد ، لم تعدم إسبانيا الإسلامية وجود المحللين الذين أرخوا للممالك التى حكمها أمراء سابقون ، ولكن كل هذه النظريات قد تهدمت من أساسها بمجرد اكتشاف جزء جديد من المقتبس لابن حيان

الذى احتوى على فقرة كتبت بقلم عيسى الرازق نفسه ، وبالتالى بقلم الشخص الوحيد فى العالم الذى لايشك فى قوله في هذا الخصوص إلا فيما ندر ، حول الظروف التى أدت بجده إلى القيام لمرات عديدة بزيارة مملكة قرطبة ، وحب التاريخ من قبل والده أحمد .

لقد كان على الأمير محمد الأول – فيما يرويه عيسى الرازى بإيجاز – [٨٨] أن يكون على علم تام بقدر الإمكان بنشاط الخلافة العباسية ، ولهذا الغرض فقد جمعت بينه وبين أمراء البربر فى الشمال الأفريقي علاقات حميمة ، وعلى وجه الخصوص مع الرستميين في تاهرت Tahart والمدراريين فى سيتشيلماسا Sichilmasa والذين كانوا يرسلون إليه بتقارير الجواسيس المجموعة عن الوضع السياسى فى بغداد وسوريا ومصر وإفريقيا [٨٩] ، كل هذا كان معروفًا ، ولكن الأمر الذى لم يكن معروفًا بقدر كبير هو قيام العاهل القرطبى بتوثيق علاقاته بالقيروان ، وخاصة بإبراهيم بن الأغلب ، وأن هذا قد أرسل إليه ، مبعوثًا يحمل هدايا ثمينة وهو على وجه التحديد محمد الرازى تاجر من الراى Rayy بفارس ، دعته تجارته إلى الحضور للأراضى الأفريقية ، وبعد أن استقبل بحفاوة من قبل الأمير محمد الأول ، عاد الرازى إلى المشرق ، وحتى يشكر العاهل القرطبى على الحلم الذى عامله به ، قام بأداء فريضة الحج نيابة عنه وأرسل إليه بالعديد من التقارير حول الوضع السياسى فى العراق . وقد تلقى دعوة للمرة الثانية للعودة إلى إسبانيا عام ٨٨٤ (٢٧١هـ) ، فذهب يحمل معه ، حتى يبيعها له ، أمة يونانية تنحدر من أصول طيبة ، تعلمت بحق أصول اللغة والأدب العربى ، بالإضافة إلى أنها تحفظ دواوين كاملة من الشعر الجاهلى ، والفترة الأولى من العهد الإسلامي ودواوين من الشعر الأندلسى ، وكذلك فقد كانت مغنية ذائعة الصيت ، ماالذى حدث بالضبط ؟ إن مزقًا مشئومًا بالمخطوط منعنا من معرفة ماحدث . أما النتيجة فكانت أن المشرقى ، الذى أصيب بالاستياء لعلمه بالاهتمام الفاتر الذى استقبل به البلاط مغنيته ، قطع علاقته بمحمد الأول ، وفى أواخر فترة حكم هذا الأمير توجه المشرقى مرة أخرى صوب أفريقيا ، وبمروره بأراضى سيتشيلماسا اتخذ لنفسه زوجة وواصل أعماله ، التى كانت تتركز بلاشك حول تجارة الإماء السوداوات . ولكن ، بعد وفاة محمد الأول ، فى عام ٨٨٦ (٢٧٣هـ) ، عاد خلفه ، الأمير المنذر فوجه

الدعوة إلى محمد الرازى للحضور إلى قرطبة ، والذى سرعان ماعاد إليها ، وإن كان ذلك لمدة قصيرة ، حيث بعد أن توفي المنذر أمام ببشتر Bobastro كان عليه أن يعود مرة أخرى إلى أفريقية ، ولكنه لم يتمكن من العودة إليها ، ففي الطريق داهمه المرض ومات في إلبيرة Elvira عام ٨٩٠ (٢٧٧) ، وإلى هذه المعلومات الدقيقة لم يضف شيئًا عيسى ، حين نصبح على يقين من أنه إذا افترضنا – وهذا شئ قليل الاحتمال – أن كتاب الرايات ، الكتيب الوحيد الذى ينسبه ابن مزين إلى محمد بن موسى الرازى ، والذى خصصنا له فى فصل سابق بضع كلمات [٩٠] ، ولم يكن يعرفه الابن ولا الحفيد (ابن وحفيد الرازى) ، دون الحديث عن «أبو مروان بن حيان» ، أفضل العارفين بمدونات التاريخ الأموى .

ولكن الأهمية العظمى لهذا الاستشهاد الذى أتى به المقتبس لم يتوقف هناك ، فحين يتحدث عيسى الرازى عن ولده أحمد ، يستخدم عبارة دقيقة وواضحة على السواء ، وهذه هى الترجمة الحرفية لها : «كان أحمد ، والدى ، عندما توفي والده طفلا فى الثالثة من عمره ، عاشت أسرته معه على أرض الأندلس ، وهنا شب وترعرع . ودرس العلوم الدينية وأبان عن ميل إلى علوم الأدب ، ولكنه كان يختزن فى ذاكرته الروحية حبًا كبيراً للتاريخ والبحث التاريخى ، وهذا نوع من الدراسة لم يكن قد تخصص فيه حتى ذلك الوقت أحد من الأندلسيين ، بدأ بجمع المعلومات من كبار السن والرواة ، ثم جمع ونسق فى انسجام هذه الوثائق فى صورة مؤلف للتاريخ ، وقد كان بهذا العمل أول من قنن فى إسبانيا قواعد التأليف فى التاريخ ، الأمر الذى قرّبه من العاهل وسمح له بأن يعلى من وضعه ، ومن وضع ابنه من بعده ، كلاهما قدم للأندلسيين علماً لم يكن حتى تلك اللحظة ممارساً بصورة ناجحة .

هل هناك حاجة لإبراز غاية هذه التأكيدات ، التى لم يكف ابن حيان بصراحته المعهودة عن تكرارها ، فى حالة عدم تأييدها على الإطلاق ؟ إنه بالتالى من المؤكد حقًا أنه فى القرن التاسع ، وبحق أكثر فى القرن الثامن ، أخذ بعض المحللين العرضيين ، وجامعى الأخبار المجهولين والأسطوريين أحياناً ، على عاتقهم جمع المعلومات والأخبار التى لم يحاولوا نشرها خارج إسبانيا ، والتى احتلت الجزء الأكبر فيها ذكريات فترة الفتح الغابرة ، وكما يؤكد عيسى الرازى بحق ، كانت تمثل تاريخا شديد الفقر ، يعتمد على قليل نادر من الوثائق ، وماوصل إلينا منها شىء على الإطلاق .

وإذا كان الأمر هكذا ، فلم لانعتبر بنايات العلم من المهام التى تصنع هباءً ، وفى بعض الأحيان نعتبرها تغريراً ، تلك البنايات التى أقامها على أرض رملية بعض المتخصصين المعاصرين لتاريخ إسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى ، والذين لم يتعودوا على استخدام النصوص الأصلية ، لشرح تطور مأمول للجنس التاريخى فى الأندلس بداية من الفترة القديمة ؟ من أين تأتى هذه الكوكبة من النظريات المأخوذة من تلك المجموعة البسيطة من الأخبار التاريخية قليلة القدر ، والتى أتت تسمى - بأسلوب ذى مغزى - أخبار مجموعة ؟ والآن ونحن نملك بين أيدينا ليس فقط للشهادة الأساسية للمؤرخ الذى دون تاريخ فترة الحكم الثانى ، وإنما - أيضا - لكل القرن التاسع على وجه التقريب ، ذلك الإطار التاريخى الذى يحتوى على ترصيع لاستشهادات المقتبس ، نجد أنفسنا فى ظروف مواتية لتقويم الإنتاج التحليلى للأندلس داخل إطاره السياسى والاجتماعى الحقيقى والعمل على صبغه بصبغة مميزة على الدوام ، دون أن يخشى مجئ الأحداث فى التو بما يمكن أن يكذب مانقول ، إن الأمر يتعلق بتدوين تاريخ البلاط ، المتمركز حول شخص الخليفة ، الأمر الذى يعد شيئا داخليا يدع فى رؤية على جانب ما كل مامن شأنه أن يفت فى مكانه الدولة . ولكن مهما كان التدوين التاريخى «موجها» أيضًا ، لابد من أخذه كما هو ، دون أن ننتظر تحقيقه يوما ما بوثائق من الأرشيف أو عن طريق استدراكات تأتى بين دفات كتب مخالفة .

وكلما وجه المرء ناظريه إلى جانب تاريخى ما ، أيا كان ذلك الجانب ، من تاريخ إسبانيا الأموية ، يجد ابن حيان تجاهه ، فدون كتابه المقتبس ما وجدنا بين أيدينا معلومة تذكر للرازى وابنه ، ولا للمؤرخين الآخرين على مدى القرن العاشر ، الذين تزودوا بالعلم فى هذا المجال على أيديهما وفى مدرستهما ونالا شهرة كبيرة : القرشى معاوية بن هشام ابن الشابانيسى ، والحسن ابن محمد بن مفرج ، قرطبى آخر من أصل عربى [٩١] وبدونه ماكان لنا أن نحقق - بفضل الاستشهادات الوفيرة - الجزء الأكبر من تاريخ بن القوطية ، ولا بعض الفقرات المطولة لمجموعات الخوشانى وابن الفرضى ، فى أشكال أقل اختصاراً من تلك التى كانت مطبوعة ، وأخيراً ، فبدون ابن حيان ماكان من الممكن أن يرى النور ذلك المولف المنهجى لابن عذارى ، وربما لم يكتب - بالتالى - تاريخ دوزى .

وهناك – مع ذلك – مصدر هام للغاية بالنسبة لتاريخ الخلافة ، والذى لم يتحدث ابن حيان عنه فى كتابه المقتبس ، ويحق ، حيث أننا لانملك بين أيدينا حتى الآن من هذا العمل ، الذى كتب فى القرن العاشر ، أكثر من جزء بسيط جداً ، والمأخوذ بأكمله عن عيسى الرازى ، إنها المكملات الضرورية للتاريخ ، المؤلف من قبل أريب بن سعد ، على نمط مواصلة تاريخ الطبرى ، بالطريقة التى أدرجها دوزى ، بشكل اصطناعى من ناحية ، فى طبعته لكتاب البيان لابن عذارى ، ولى السنوات المحددة لهذا ، أى ، من ٢٩١ إلى ٣٢٠ من الهجرة ، ولكن ، من ذا الذى يخبرنا بأن هذه الفقرات الأندلسية من تاريخ أريب لاتعد هى الأخرى مجرد استشفاف بسيط لتاريخ أحمد الرازى ؟ فى هذه الحال أيضاً يصبح من التسرع إصدار الرأى ، وإذا ما أتى اليوم الذى نعثر فيه على الأجزاء الأخرى من المقتبس التى تتناول القرن العاشر ، فمن المحتمل أن تسلط أضواء جديدة على الصلات المشتركة التى تربط كل هذا الزخم من الخيال التاريخى المدون ، الذى يدور حول حكاية تاريخية – فى رأينا – لم تحن اللحظة – حتى الآن – لصياغتها ، ولاحتى داخل فترة الخلافة فحسب .

الثقافة العلمية فى ظل الخلافة :

فى منتصف القرن العاشر ، حين وصل عبد الرحمن الثالث إلى سدة الحكم ، شهدت إسبانيا الإسلامية تطوراً معتبراً فى الثقافة العلمية ، والتى ساهم فيها التأثير الحاسم القادم من أعماق الشرق والدفع الشخصى للأمير الوريث الحكم ، وحول المكانة التى كانت تحظى بها «العلوم القديمة» المأخوذة عن الإسلام المستمد من الإيرانية وخاصة الهيلينية ، حتى هذه الفترة فى الاهتمامات الدراسية للأقلية المثقفة فى قرطبة ، ستكون معلوماتنا غير دقيقة إذا لم نحز بين أيدينا ذلك الكتاب القيِّم الذى ألفه عالم طليطلى فى القرن الحادى عشر ، سعيد بن أحمد ، تحت عنوان طبقات الأمم Categorias de las naciones ، هذا الكتيب ، الذى يعد أول تاريخ للعلوم ألف فى الإسلام ، أصبح محطا للإشارة والذكر والاستخدام فى الشرق على مدى العصور التالية ، وفيما يتعلق بإسبانيا ، يعد الكتيب مصدرا ثريا للمعلومات الدقيقة والتفصيلى عن الانطلاقة ، فى أواخر أيام الخلافة ، التى أتيحت فى هذا البلد لدراسات الطب ، والعلوم الطبيعية ، والفلك ، والرياضيات .

يبدو أنه في بداية فترة الخلافة ، ونفس الشيء أثناء فترة الإمارة ، كانت علوم الطب الذى لم يكن ممارسًا حتى ذلك الوقت من قبل المسلمين الأندلسيين ، ميراثًا لمتخصصين شرقيين أو لبعض الممارسين الإسبان واليهود والمسيحيين ، وهناك بعض الأطباء الذين تعلموا في العراق حضروا إلى قرطبة للاستقرار على أرضها منذ بداية فترة حكم عبد الرحمن الثانى ، وأحد هؤلاء - يونس بن أحمد الحرانى ، الذى أصبح طبيب العاهل - قد أجبر - على أن يعد بأمر من الفتى ناصر شرابًا مسموما للأمير ، إلا أن الطوشى نفسه قد أجبر على تناوله (٩٢) ، كان ليونس بن أحمد هذا أسلافًا في قرطبة ، اثنان منهم ، وهما بلاشك من أحفاده - عمر وأحمد ، حملا لقب الحرانى ، خرجا من أرض الأندلس أثناء حكم الناصر ليكملا معارفهما الطبية فى بغداد ، وأمضيا فيها مدة عشر سنوات يدرسان أعمال جالينو Galeno وتعلما طب العيون ، وها هو سعيد الطليطلى يقدم لنا العديد من أسماء الأطباء الآخرين ، الذين تم إدراجهم فى ديوان خاص فى عهد الحكم الثاني، ولهذا فقد كانوا يتلقون دعمًا رسميًا ، ذهب البعض منهم للدراسة في المشرق ، والبعض الآخر نال تعليمه فى القيروان ، مدفوعين بولعهم بشهرة ابن الجزار الذى ذاع صيته ، ومؤلف كتاب زاد المسافر ، الكتاب الذى ترجمه قسطنطين أفريكانو إلى اللاتينية تحت عنوان الزاد الأخير ، ومن بين الأطباء المسيحيين يذكر خالد بن يزيد ابن رومان ، ومن بين اليهود ، ذلك الشهير حسداى بن شبروت والذى قام بدور سياسى هام ى بلاط الناصر خلال النصف الأول من القرن العاشر .

وفى نفس الفترة تم اتخاذ خطوة حاسمة ، حين تخصص أطباء قرطبة ، وعلى رأسهم حسداى بن شبروت (٩٣) ، وذلك بمساعدة الراهب البيزنطى نيكولاس ، فى فك رموز وترجمة نسخة من «المادة الطبية» لديوسكوريدس الذى أرسله قسطنطين السابع كهدية للناصر ، إلى جانب نسخة من عمل المؤرخ الإسبانى للقرن الخامس ، باولو أوروسيو ، وهنا هم بالعمل فريق من الأطباء وعلماء النبات ، الذين برز من بينهم القرطبى ابن جلجل ، وذلك بمساعدة المترجم البيزنطى ، فى كتاب ديوسكوريدس بداية من ٩٥٢ (٣٤٠هـ) ، وقد أدى هذا العمل إلى إحداث نوع من المفاخرة بدراسة علوم الصيدلة والنبات ، والتى واصلت مشوارها بفخر داخل إسبانيا الإسلامية ، وعديد من

المتخصصين الذين عملوا فى قرطبة فى إعداد ونقل كتاب المادة الطبية أصبحوا معروفين ومتميزين فيما بعد كأطباء البلاط فى عهدى الحكم الثانى والمنصور ، كان هذا هو وضع عبد الرحمن بن إسحق ابن الهيثم ، ومحمد بن القطانى ، وابن ساماجون ، وعلى وجه الخصوص، أبو القاسم خلف الزهراوى ، الذى ترك حين وفاته ، فى عام ١٠١٣ (٤٠٢هـ) ، موسوعة كبيرة عن الطب الجراحى ، والتى ترجمت أجزاء عديدة منها إلى العبرية والبروفنسالية وكانت نواة وهدفًا لترجمة لاتينية قام بها خيراردو دى كريمونا .

والفلك ، رغم اعتباره علمًا غير مشروع ، استمال على الدوام فى إسبانيا ، أو على الأقل منذ القرن التاسع وحتى أواخر القرن الحادى عشر ، اهتمام العديد من العلماء ، والذى كان موجهًا - حسب ماهو مسموح به - إلى مجال التوقيت أو تحديد أوقات الصلاة ، وحول الأمراء والخلفاء ومن بعدهم ملوك الطوائف ، تجمع علماء التنجيم الذين يكشفون الطالع وكانوا كيماويين ، وماكانت توقع عليهم عقوبات سوى الحرمان من هذا الاسم ، وعلى كل ، فإن دراسة علم الفلك - مثله فى ذلك مثل العلوم الرياضية - قد تطورت فى الأندلس دون عقبات تذكر تحت رعاية الحكم الثانى ، الذى تأسست فى عهدة مدرسة استمدت هيبتها ومكانتها من اسم مسلمة المجريطى ، أشهر أبناء مدريد الذين يمكن لهم الافتخار بهم ، ولقد اشتهر مسلمة هذا الذى أتى من المشرق إلى أرض الأندلس بتلك الموسوعة الشهيرة لإخوان الصفا ، والمتوفى عام ١٠٠٨ (٣٩٨هـ) ، على وجه الخصوص ، بنقله التعادلات الفلكية للخوارزمى ومؤلف الاسطرلاب وبعض الأعمال عن الرياضيات التطبيقية والسحر (٩٤) .

وعلى أساس من كتاب سعيد الطليطلى ، بإمكاننا أن نستمر هنا فى ذكر تعداد غير مفيد . وإن مايجب التوقف عنده هو تلك الدفعة ، فى مجالى العلوم الخاصة بالثقافة الدينية والثقافة العلمية على حد سواء ، التى أعطاها أمير ليبرالى ، فى بيئة صالحة وترك فيها الباب مفتوحًا على مصراعيه أمام كل مايأتى من الشرق الإسلامى والبيزنطى ، وعلى الرغم من رد الفعل الذى ظهر خلال عصر ملوك الطوائف ، إلا أن التقليد قد أرسيت قواعد بعد ، وحين يأتى اليوم الذى يعترف فيه بحق بالدور الذى قامت به إسبانيا الإسلامية باعتبارها حاملة الشرارة الأولى فى الغرب المسيحى

فى الثقافات الهيلينية والبغدادية ، لابد من أن يسطع فى المقام الأول ذلك الاسم العظيم : اسم الحكم الثانى ، الحكيم المعصوم راعى الآداب والفنون وصاحبهما أيضا .

الازدهار الفنى :

لكى نفتح الطريق أمام هذا التحسس فى الحياة الفكرية لإسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر ، فيبدو أنه من الضرورى أن نقول على الأقل ، بضع كلمات عن الازدهار الذى مر به الفن الأندلسى فى تلك الفترة - وهو الفن الذى جرت العادة فى إسبانيا على أن يطلق عليه اسم الفنى «الإسبانى العربى» ، وفى فرنسا «الإسبانى المغربى» - على الرغم من أنه يعد اليوم بدرجة كبيرة أفضل الجوانب استغلالاً وشهرة من بين الجوانب الأخرى للحضارة القرطبية ، حيث قد أعطى مجالاً منذ مايقرب من ربع قرن ، سواء فى إسبانيا أو فى فرنسا ، لكتابة الأبحاث المفصلة ، التى توصلت إلى نتائج نود أن نذكرها هنا باختصار ، دون الدخول فى أغوارها العميقة (٩٥) .

فى سلسلة تطور الفن الأموى الإسبانى نجد أن العمارة الدينية تشغل - بداهة - المكانة الأولى ، حيث هى أكثر الحلقات دراسة مفصلة ، وذلك بفضل البقاء المعجز على قيد الحياة للمسجد الجامع بقرطبة ، والذى نفرد لتاريخه الأثرى وصفًا تناولناه فى صفحات سابقة بشىء من التفصيل ، إن التوسعة التى قام بها الحكم الثانى قد شكلت العديد من المشاكل للمهندسين المعماريين ومؤرخى الفن ، مثل مشكلة «القباب متقاطعة الدعائم» ، وعلى وجه الخصوص ، مشكلة الزخرفة ، التى هى أيضاً الشاغل الأساسى لآثار العمارة المدنية ، والتى تبرز من بينها لأهميتها المجموعة الأثرية ، التى لم يكتمل حفرها تماماً حتى الآن ، لمدينة الزهراء .

ومن أجل هذه الزخرفة ، لجأ الفن الخلافى فى إسبانيا إلى استخدام مواد متعددة : المرمر ، والحجر الجيرى ، والأستوق (ملاط من كلس ومرمر) ، وصلات الطين المحروق والطين المبرنق ، أما الأقواس فكانت إما محدبة أو مفصصة ، بها أحجار ذات ألوان متناوبة ، حرص على اتباع أسلوبها فيما بعد الفن الرومانى الذى برز فى أوبيرنيا Auvernia ، هذا إلى جانب « كشفات حلى تيجان الأعمدة » ، أما تيجان الأعمدة ، ليست قديمة ، فهى صورة طبق الأصل من النماذج الرومانية ، وتنتمى إما إلى الهيكل الكورينثى أو الآخر (المعقد) - الذى يشتمل على كشوف مشدوفة وحلى

مزدوجة عريضة – أما بالنسبة للعناصر الخاصة بالرسوم الهندسية فى عملية الزخرفة ، فهى بين هندسية وزهرية وخطوط قديمة ، تكثر عناصر الزخرفة الإيبجرافية القديمة ، والنقوش ، والتى تأتى فى صورة رسوم لاتتسم بالبهرجة الزائدة ، منحوتة من الحجارة أو مرسومة بمكعبات من الفسيفساء ، أما الزينة الهندسية فتمتد عبر مشربيات من الرخام المفرغ ، طبقاً لرسم من الزوايا الملصقة ، ولكن أكثر أنواع هذه الزخرفة ثراءً هى الزخرفة الزهرية ، بفضل استخدام عناقيد العنب (الكرم) ، وخاصة ، المقرعة المزدوجة الأقنثوسية ، وبالنسبة لأسقف مسجد قرطبة فقد ظلت تفخر بوجود بصمات بها ترجع إلى الزخرفة المرسومة ، التى أصبحت على علاقة بالفن الفاطمى وحتى بالفن الطولونى ، وأخيراً ، فقد كانت تضم إلى المجموعة الزهرية المرسومة فى الزخرفة مجموعة أخرى من صور الأشخاص والحيوانات ، وبالأخص ، فى كتل مرمرية ، مثل تلك التى يحتفظ بها فى مدريد وغرناطة ومراكش .

أما فيما يتعلق بالعمارة العسكرية – التى مازالت آثارها تتمثل حتى الآن فى بعض النماذج ، من بينها قلاع جورماث Gormaz وطريفة Tarifa وبرج الحمة Banos de la Encina ونماذج أخرى من القرن التاسع ، مثل قصبة ماردة La Alcazaba de Merida – فإنها تتميز باستخدام الكتل الحجرية ، أو فى بعض الأعمال الاستراتيجية ذات الأهمية البسيطة ، التى كانت تتميز باستخدام القوالب الطوبية ، كان تصميم السور المحيط بالقلاع لايأخذ فى العادة شكلاً ثابتاً : فإذا ماكان يحيط بمنطقة صخرية يصبح فى شكل الناتئة البارزة ، وإذا أحاط بغيرها ، أخذ شكلاً مربعاً أو مستطيلاً [٩٦] .

ويعد فن الأثاث المنقول فى الأندلس أحد أمجاد الخلافة ، فمعظم الصناديق العاجية المحفوظة ترجع فى تاريخها إلى القرن العاشر ، وفى الغالب مـاأتت هذه الصناديق تحمل التاريخ الذى صنعت فيه محفوراً عليها بخط كوفى ، كانت هذه الصناديق ، التى صنعت داخل ورش رسمية فى قرطبة ومدينة الزهراء ، تحتوى فى زواياها المختلفة وأغطيتها على ميداليات كبيرة مزخرفة بمشاهد مصورة ، وأخرى تتحدث عن رحلات الصيد أو مصارعات الحيوانات ، مثل الأسود ، والفيلة أو الصقور ، تظهر كلها على خلفية من الرسوم الزهرية ، وبعض هذه الصناديق كانت تصنع فى أشكال اسطوانية ، وفى البعض الآخر ، كانت الرسومات المميزة لها تصنع بدلاً من العاج من الفضة المذهبة والمنقوشة .

وأما المشغولات البرنزية فكانت وثيقة الصلة والارتباط بالمشغولات البرنزية الفاطمية . فمن هذه المادة صنعت مصابيح الزيت ، والمهاريس ، والأباريق المستخدمة في غسيل الأيدى ، والتى كانت تصنع فى شكل الظباء ، أو الطواويس أو الأسود وغيرها من الحيوانات ، هناك بعض التوقيعات المكتوبة بلغتين مختلفتين – مثل الطاووس الموجود بين جنبات متحف اللوفر ، الذى يحمل نقشًا باللغة العربية يقول : «عمل قام به عبد الملك المسيحى» ، وباللغة اللاتينية : (عمل سليمان) وهى أمور تجعلنا نفكر فى أن مثل هذا النوع من العمل تخصصت فيه أياد عاملة فنية من المستعربين .

هناك بعض الاكتشافات الحديثة تطلعنا على جانب من الفن المنقول لفترة الخلافة ، والذى ظل مجهولاً حتى وقتنا هذا ، إنه جانب الجواهر والحلى ، وبالفعل ، فقد تم الكشف ، فى لوخا Loja عن مجموعة كبيرة من الحلى المصنوعة من الذهب والفضة ، هذا بالإضافة إلى كمية كبيرة من الدراهم التى كانت مستخدمة فى أواخر القرن العاشر (وهو الأمر الذى يعد دليلا على أن هذا الكنز البسيط قد توارى بين حبات التراب فى لحظة الفتنة القرطبية) ، وفى نفس الوقت تقريبًا ، ثم الكشف عن مجموعة أخرى من الحُلى المصنوعة من الفضة ، فى منطقة جاروتشا Garrucha (التابعة لإقليم المرية Almeria) ، والتى أضحت هى الأخرى تثرى المجموعات التى يضمها معهد بلنسية دون خوان ، بمدريد ، وهى عبارة عن أسورة ، وخلاخل توضع عند كعب الرجل ، وسلسلة من الأطواق ، ومن بعض الرواشم المزخرفة بحجارة ثمينة محدبة الشكل ناصعة وبعض الفراغات الصغيرة التى تغطى بتطعيمات من الأحجار الثمينة ، تستخدم – بلا شك – كصدرية أو دبوس للزينة .

ولقد أخرجت أعمال الحفر التى تمت فى البيرة Elvira ومدينة الزهراء إلى النور كمية هائلة من قطع السيراميك والزجاج ، بعضها موقع عليه ومزخرف بأشكال لحيوانات مختلفة ، بينما البعض الآخر يسطع من خلاله بريق معدنى ، كان الزجاج يصنع فى القرن التاسع فى قرطبة [٩٧] ، وبالنسبة لصناعة الخزف الفخارى ، فتأتى مشابهة وشديدة التقارب مع مثيلتها فى أفريقيا المعاصرة لها ، وأما الزخرفة المزججة فتظهر دائماً فى صورة التلوين المزدوج باللون الأخضر والبنى للمنجنيز .

ولنشر – أخيرًا – إلى التطور الذى وصلت إليه فى القرن العاشر صناعة النسيج الرفيع القيمة فى دور الصناعة الخلافية ، وذلك وفقاً لتقنية وافدة من بغداد [٩٨]

وباستخدام تعبيرات زخرفية يبدو على البعض منها أنها تنتمى إلى نقـوش فاطمية ، أو حتى قبطية ، ومثال طيب على ذلك ، هو القطع العظيم من النسيج الحريرى ، باسم هشام الثانى والمحفوظ بمدريد (٩٩) .

على الرغم من أن العمارة الأهلية والدينية للأمويين الإسبان قد أثرت بشكل ملحوظ وجدير بالاعتبار ، كما هو مدلل عليه بصورة موسعة اليوم فى نشر الفن المستعرب ، فقد كان مع ذلك عبر فنه المنقول الذى تزخر به قرطبة بصورة كبيرة ، وفى وقت مبكر ، هو خاتمها فى زخرفة حياة الأبهة فى إسبانيا المسيحية ، وبإمكاننا أن نغامر بالقول بأن ورش الحلى والجواهر ونجارة الأبنوس فى العاصمة ، هذا بالإضافة إلى المصانع المنتجة للحرائر الفخمة ، كانت تزاول نشاطها فى القرن العاشر بالنسبة لإسبانيا المسيحية وجنوب فرنسا ولملكة قرطبة على حد سواء ، وبفضل التجارة بين موانئ البحر المتوسط، قام الشرق بفنونه الصغيرة ، بتزويد الأندلس بنماذج عراقية ومصرية ، متجددة باستمرار ، والتى لم يجد الصائغون والنساجون الأندلسيون أمامهم بدًا من تقليدها ، أو على الأقل يجعلونها نصب أعينهم كعلامة على الذوق والموضة السائدة . تلك الصناعة المتعلقة بالبذخ والترف ، التى من المناسب أن نضيف إليها تصنيع الكهرمان الأسود والجلد المنقوش ، ساهمت فى نشر صيت قرطبة فى أوروبا الغربية فى العصر الوسيط ، ربما بقدر مماثل لصيتها فى مجال الأعمال العسكرية التى قام بها خلفاؤها وقوادها ، أو مثـل صوائفهم التى أخرجوها ضـد الثغـر الإسبانى أو قشتالة ، أو ليون ، أو حتى ضد الأراضى المضببة لإقليم جاليثيا المشهور بأرض الحوارىّ سنتياجو ، وهى صوائف ذاع صيتها وقل نتاجها .

هوامش الفصل الثامن

(١) المرجع الأصلي ، الجزء الرابع ص ١٠٦

(٢) انظر :

- M. Asin Palacios, Abenhazm de Cordoba, I. Pp. 106-107.

وفقاً لياقوت ، إرشاد الأريب ، الجزء الخامس ص ٨٩) .

(٣) ومن جانب أخر ، فإن هذا لايعني - بطريقة ما - اعترافا برفعة العنصر العربي ، الأمر الذي ترفضه نظرية الشعوبية ، انظر :

- Goldziher, Die su'ubijja unter den Muhammedanem in Spainen, en ZDMG, T. III, 1889, pp. 601 - 620.

(٤) ص ١٠٨ ، ابن سهل ، أحكام كبرى ص ٢٣٤ ، من مخطوط الرباط .

(٥) ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الأول ص ٢٧٧

(٦) العمل المذكور ص ١٥٢ رقم إشارى مرجعى ٤٦

(٧) ابن سهل ، أحكام كبرى ص ٢٤٦ - ومايليها ، من مخطوط الرباط .

(٨) هناك قضية أخرى خاصة بالزندقة ، تم رفعها في طليطلة ضد أحد الأفراد المدعو ابن حاتم الأزدى عام ١٠٦٥ (٤٥٧) . انظر : ابن سهل ، أحكام كبرى ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ من مخطوط الرباط .

(٩) العمل المذكور ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

(١٠) انظر : مجموعات القيسي ص ١٠٢ ، والجزيرى ص ٥٩

(١١) يوجد منبر من القرن العاشر ، محفوظ بمسجد الأندلسيين بفاس ، يحمل في مسنده نقشاً مكتوباً يظهر فيه : اسم هشام الثانى ، ومحمد بن أبى عامر بتاريخ ٣٧٥ (٩٨٦) . انظر حول هذا الموضوع .

- H. Terrasse, la Mosquee des Andalus a Fes, Paris, S.A. pp. 35-40.

(١٢) انظر :

- Idrisi, Description de L'afrique et de L'Espagne, Texto, pp. 210-211, trad. P. 260. Levi - Provencal, la Penisule Iberique, pp. 185. 186.

(١٣) العمل المذكور ص ٤٥ - ٤٦

(١٤) ابن الفرضي ، تاريخ ، أرقام ٣ ، ٣٢٠ ، ٥٤٢

(١٥) نفس المرجع ، عدد ١٥٧٢

(١٦) نفس المرجع ، عدد ٢٣٣

(١٧) العمل الأصلي ، مجلد ٤ ، ص ٢٤٢

(١٨) انظر : ابن الأبار ، التكملة ، عدد ٤٠٢

(١٩) العمل المذكور ص ٣٢١ – ٣٢٢ حين يتحدث عن الأمير محمد الأول .

(٢٠) ص ٩٠ ف ، ٩١ ر .

(٢١) حول المدارس الدينية القضائية فى إسبانيا الأموية انظر :

- M. Asin Palacios, Abenhazam de Cordoba, I, pp. III Y ss.

(٢٢) حفظ لنا من قبل المقرى ، النفح ، II ، ص ١٠٩ – ١٢١

(٢٣) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٤٧٢

(٢٤) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٩٦ – ٩٨

(٢٥) انظر :

- J. Schacht, the origins of Muhammedan Jurisprudence, Oxford, 1950.

(٢٦) فى مقدمته لكتاب :

- L' Livre d'Ibn Toumert, Argel, 1903k pp. 23 - 25.

(٢٧) ابن حزم القرطبي (Abenhazam de Cordoba) ، الجزء الأول ص ١٢١ – ١٢٢

(٢٨) العنوان الدقيق لهذه الدراسة هو «المستخرجة من الأسماع» وقد كان هذا العمل هدفا لتعليق كبير من جانب ابن رشد ، كتاب البيان والتحصيل .

(٢٩) أحسن التقاسيم (B.G.A., 17) ، ص ٢٣٧

- Trad. Ch. Pellat, Description de l'occident musulman, p. 45.

(٣٠) نفس العمل المذكور ص ٢٣٦ (الترجمة ص ٤١) .

(٣١) العمل المشار إليه ، الجزء الرابع ص ١٨٨

(٣٢) ظل القاضى القرطبي أسبغ ابن خليل ، الذى كان معاصراً للأمير محمد الأول ، قائماً فى منصب المفتي على مدى خمسين عاماً (رئيس هيئة للإفتاء الأندلسية) وقد اشتهر بآرائه ضد دراسة الأحاديث والاستعانة بها ، بهذا الصدد يمكن الاطلاع على :

- Goldziher, Introduccion al divred' Ibn Toumert, pp. 25-26.

(٣٣) انظر على وجه الخصوص :

- M. Asin, Abehazam de Cordoba, I, pp. 123-127.

(٣٤) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٣٢٧

(٣٥) العمل المذكور ص ٧٩ – ٨٠

(٣٦) انظر :

- Brunschvig, Polemiques midievales autour du rite de Malik, p. 395.

(٣٧) حول مذهب الاعتزال ومذهب ابن مسرة فى إسبانيا الإسلامية ، يعد المصدر الأساسي هو :

- M. Asin Palacios, Ibn Masarra y su escuela; origenes de la filosofia hispano - musulmana, en la reedicion de obras escogidas, I, Madrid, 1946, pp. 1-216.

(٣٨) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ١٠٦

(٣٩) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٤٨١ وإشارة مرجعية رقم ٣٢

(٤٠) فى المقطع المذكور ، ص ٣٠٨ ، إشارة مرجعية رقم ٣٠

(٤١) العمل المذكور ص ٣١٥

(٤٢) ابن الفرضي ، تاريخ ، عدد ٨٣٥ : وأسين بالاثيوس ، ابن مسرة ص ١٨٠

(٤٣) ابن الفرضي ، تاريخ ، عدد ٤١٧ ، أسين ، ابن مسرة ص ١٨١ - ١٨٢

(٤٤) انظر :

- Goldziher, Inrod. Al divre d'Ibn Toumert, p. 67.

(٤٥) ابن الفرضي ، تاريخ ، رقم ١٥٧٨ ، ســـــعيد الطليطلي ، الطبقات ، ترجمة Plachere.

(٤٦) انظر :

- Introduccion al Livre d'Ibn Toumert, p. 68

(٤٧) ابن الفرضي ، تاريخ ، رقم ١٤٠١ ، جولد تسهير ، العمل المذكور ، ص ٦٧

(٤٨) العمل المذكور ، المجلد الرابع ، ص ١٠٦ عدد ٨١

(٤٩) انظر :

- Asin, Ibn Massarra, P. 35.

(٥٠) البيان ، عدد ١٥٤

(٥١) هناك زاهد أندلسي مشهور عاش في القرن العاشر هو العالم اللغوى «عثمان بن محامس» من إستجه ، مات عام ٩٦٦ (٣٥٦) : ابن حزم ، كتاب الأخلاق والسير ، القاهرة ١٩٠٨ ، ص ٥٦

- Trad. M. Asin, los caracteres y la conducta, Madrid, 1916, p. 84.

وابن الفرضي ، التاريخ ، عدد ٨٨٩ ، الضبي ، بغية الملتمس ، عدد ١١٩٣

(٥٢) ابن الفرضي ، التاريخ ، عدد ٥٠

(٥٣) نفس المرجع ، عدد ٢٠٢

(٥٤) انظر :

- Introdu. Al Livre d'Ibn Toumert, p. 68.

(٥٥) يمكن العثور عليها بصورة مختصرة فى :

- Suplemento de la ENC. ISL., Po. 99-101.

(وهو جزء مخصص لابن مسرّة) .

(٥٦) التاريخ المحدد لهذا يبدو مرتين فى النباهى ، مرقبة .

(٥٧) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ٤٠٨ ، وفى نفس هذا الجزء ص ٨٠ ، إشارة مرجعية رقم ٨٧

(٥٨) أقام بعض الأندلسيين فى تلك الفترة فى كريت لبعض الوقت ، أو حتى إقامتهم فى تلك الجزيرة ، يمكن الاطلاع على : ابن الفرضى ، تاريخ ، أعداد ١٤٢١ ، ١٥٨٦

(٥٩) ابن الفرضى ، تاريخ ، أعداد : ١٨٤ – ٢٢٥

(٦٠) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ١٩٩

(٦١) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٧

(٦٢) يمكن الاطلاع على :

- B. Roy Y P. Poinssot, Inscriptions arabes de Kairouan, Paris, 1950, pp 63.

(٦٣) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ١٣

(٦٤) نفس المرجع ، عدد ٣٧٥

(٦٥) نفس المرجع ، عدد ١١٣٦ – ابن حيان ، المقتبس ، I ، ص ٢٢٩

(٦٦) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٨٨٩ ، ورقم ١٥٠٩ سوف نجد سيرة ذاتية لشخص عاش فى منتصف القرن العاشر ، وقام بتأليف بعض التعليقات على أشعار أبى تمام ومسلم بن الوليد .

(٦٧) حول هذه النقطة يمكن الاطلاع على : ابن الأبار ، التكملة ، عدد ١٤٠

(٦٨) انظر ياقوت ، إرشاد الأريب ، طبعة مارجيليوث ، II ، ص ٦٧

(٦٩) انظر :

- P. Melchor M. Antuna, La corte literaria di Alhaquem II en Cordoba, Tirada aparte de Religion, Y Cultura (Revista de Los PP. Agustinos de El Escorial) 1929.

(٧٠) العمل المذكور ، الجزء الرابع ، ص ٣٧٠

(٧٢) الضبى ، البيان ، عدد ٣٢٧، ابن الأبّار ، الحلة ، ص ١٠٣

(٧٢) وفقًا لما يذكره مؤلفه ، فإن الأمالى للقالى كان هدفاً ، في كل يوم من أيام الخميس ، لجلسة عمل يرأسها الخليفة في أحد قصوره .

(٧٣) هذا هو أيضًا مايراه إميليو جارثيا جوميث فى عمله: الشعر العربى – الأندلسى ص ٥٤

(٧٤) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٦٢٠ ؛ الضبى ، البيان ، عدد ٨٥٩

(٧٥) ابن الفرضى – تاريخ ، عدد ١٤٠٣

(٧٦) انظر :

- R. Brunchvig, un aspect de la Litterature historico - geographique de L'Islam, en Melanges Gaudefroy - Demombunes, pp. 149 - 152.

(٧٧) ابن الأبار ، الحلة ، ص ١٠٢

(٧٨) انظر :

- J. Ribera, Bibliofilos y bibliotecas en la Espana musulmana, en Disertaciones y opusculos, I, pp. 181-182.

(٧٩) فى جمهرته ، ص ٩٢

(٨٠) ابن الفرضى ، تاريخ ، عدد ٨٨٤ ، ابن باشكوال ، الصلة ، عدد ١٤١٣ ، الضبي، بغية الملتمس عدد ١٥٨٩

(٨١) الضبى ، بغية الملتمس ، عدد ٩٤

(٨٢) كانت هناك فى القرن العاشر في قرطبة مكتبات خاصة ، رغم أنها لم تصل فى مكانتها إلى تلك التى كانت تتمتع بها مكتبة الخليفة ، ولكنها كانت مكتبات تتمتع بأهمية على مدى فترات طويلة ، انظر - بهذا الصدد - ابن باشكوال ، الصلة، عدد ٦٧٩ ، وهو يقدم لنا تفاصيل عديدة عن القاضي عبد الرحمن بن فطيس ، الذى كان يعمل تحت إمرته سبعة من النساخين ينقلون بدون توقف مخطوطات عديدة .

(٨٣) حول تشبيه محتويات مكتبة الحكم من قبل الواضح ، في أوائل القرن الحادى عشر ، يمكن الاطلاع على الجزء الرابع ، ص ٤٧١ ، عدد ٢٠

(٨٤) حول ديوان شعراء المنصور يمكن الاطلاع على : الطبي ، بغية الملتمس ، أرقام ٨٩٠ ، ١٠٣٦ ، ١١٢٣ ؛ وخاصة ابن الخطيب ، الإحاطة ، طبعة القاهرة ، الجزء الثانى ص ٧١ - ٧٢

(٨٥) انظر :

- E. Garcia Gomez, Poesia arabigo - andaluza, breve sintesis historica, Madrid, 1952.

(٨٦) انظر لمؤلف هذا العمل ، عمله التالى :

- Poesie arabe d'Espangne et poesie d'Europe medie vale in Islam d'Occident, I, pp. 281-304.

(٨٧) انظر :

- F. Pons Borgues, Ensayo bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo - espanoles, Madrid, 1898.

(٨٨) ابن حيان ، المقتبس ، ١ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤

(٨٩) العمل المذكور ، الجزء الرابع ، ص ١٨٤

(٩٠) العمل المذكور ، ص ١١٢ ، إشارة مرجعية ، ٥٧

(٩١) حول هذين المؤرخين ، يمكن الاطلاع على :

- Heri-Provencal, y Garcia Gomez, Una cronica anonima de'Adb al Rahman III el Nasir Tntrod, pp. 20-22.

(٩٢) العمل المذكور ، الجزء الرابع ، ص ١٧٦

(٩٣) انظر :

- M. Meyerhof, Esquisse historique de la phormacologie et botanizue chez les Musulmans d'Espagne, en Al-Andalus, III, 1935, pp. 3-13.

(٩٤) العمل المذكور ، ص ٣٠

(٩٥) انظر :

- Manuel de G. Marcais, el Art hispano - mauresque de H. Terrasse; M. Gomez Moreno; G. Marcais, L'Art de L'Islam, Paris, 1946, p. 90-103.

(٩٦) العمل المذكور ، ص ٣٨

(٩٧) العمل المذكور ، الجزء الرابع ص ١٧٤ ، وكذلك في نفس الجزء ص ١٨٥

(٩٨) ابن الفرضي ، تاريخ ، عدد ١١٩٧ ، حيث يذكر سيرة أحد المشايخ القرطبية ، محمد بن عبيد بن أيوب ، المتوفى عام ٩٢٩ (٣١٧) ، الذى انتهز سفره فى دراسة إلى بغداد حتى يبدأ فى صناعة النسيج (الديباج) . وحين عاد إلى إسبانيا ، تخصص فى هذه الصناعة .

(٩٩) العمل المذكور ، ص ١٨٤ ، إشارة مرجعية رقم ٢٠٢

ملحق بالأشكال الواردة

بالجزء الأول من المجلد الثانى

شكل ١٨ : دراهم شرقية من القرنين السابع والثامن الميلاديين ، عُثر عليها فى « جرّاف» (برشلونة) .

شكل ١٩ : دراهم شرقية وأندلسية من القرنين السابع والثامن الميلاديين ، عُثر عليها فى « جرّاف» (برشلونة) .

شكل ٢٠ : دنانير أندلسية محفوظة بالجمعية الأمريكية الإسبانية (نيويورك) :

١ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ١٠٢ هـ .

٢ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣١٧ هـ (عبد الرحمن الثالث) .

٣ - ثلث دينار ، ٣٢١ هـ ، لا يحمل اسم المكان المسكوك فيه .

٤ - دينار ، مسكوك فى مدينة الزهراء ، عام ٣٥٧ هـ (الحكم الثانى) .

٥ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٨٠ هـ (هشام الثانى) .

٦ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٩٠ هـ .

شكل رقم ٢١ : دنانير أندلسية محفوظة بالجمعية الأمريكية الإسبانية (نيويورك):

١ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ١١٦ هـ .

٢ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ١٦٥ هـ (عبد الرحمن الأول) .

٣ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٢٥٤ هـ (محمد الأول) .

٤ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٢١ هـ (عبد الرحمن الثالث) .

٥ - دينار ، مسكوك فى مدينة الزهراء ، ٣٥٩ هـ (الحكم الثانى) .

٦ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٣٩١ هـ (هشام الثانى) .

٧ - دينار ، مسكوك فى الأندلس ، عام ٤٠٦ هـ (سليمان المستعين) .

شكل ٢٢ : منظر كهوف مسكونة بمدينة « وادى أش » (غرناطة) .

شكل ٢٣ : مزارع زيتون فى الأراضى المحيطة بمدينة « جيان » .

شكل ١٢٥ : قطع شطرنج ، من الزجاج الحجرى المنحوت ، من أخر Ager .

شكل ١٢٦ : مشهد لموسيقى تعزف فى البلاط وأمام الحاشية الملكية . تفصيل جاء على علبة من العاج بمتحف اللوفر بباريس .

شكل ١٢٧ : مسلمون مغاربة أثناء أدائهم لصلاة العصر .

شكل ١٢٨ : نقش كتابى تأسيسى لمسجد تم إنشاؤه عام ٩٤٤ (٣٣٣) ، تم العثور عليه فى جواردامار ومحفوظ بمتحف الفنون الجميلة بموريثا .

شكل ١٢٩ : منارة فى كنيسة سان خوان دى كوردوبا .

شكل ١٣٠ : منبر مسجد الأندلسيين ، بمدينة فاس .

شكل ١٣١ : ظهر منبر مسجد الأندلسيين ، بمدينة فاس ، يبدو لنا فيه إسمى هشام الثانى والمنصور بن أبى عامر .

شكل ١٣٢ : خاتمة مخطوط من مكتبة الحكم الثانى بقرطبة ، تاريخ ٩٧٠ (٣٥٩) ، محفوظة بمكتبة مسجد القيروان بمدينة فاس .

شكل ١٣٣ : قلعة طريف (قادش) .

شكل ١٣٤ : لوحة تذكارية حول إنشاء قلعة طريف (قادش) على يد عبد الرحمن الثالث ، الذى تم الانتهاء منها فى شهر صفر عام ٣٤٩ (أبريل ٩٦٠) .

شكل ١٣٥ : قلعة بانيوس دى لا إنثينا (جيان) .

شكل ١٣٦ : نقش كتابى تذكارى لإنشاء أحد الأبراج على يد الحكم الثانى فى قلعة بانيوس دى لا إنثينا (جيان) ، انتهى العمل به فى شهر رمضان عام ٣٥٧ (أغسطس عام ٩٦٨) ، محفوظة بمتحف مدريد الوطنى للآثار .

شكل ١٣٧ : تفصيل لفوارة برونزية ، واردة من قرطبة ، محفوظة داخل متحف مدريد الوطنى للآثار .

شكل ١٣٨ : طاس برونزى يسمى الأميرية . محفوظ بمتحف قرطبة للآثار .

شكل ١٣٩ : حلى من الذهب فى كنز لوخا (غرناطة) ، محفوظة بمتحف معهد دون خوان البلنسى بمدريد .

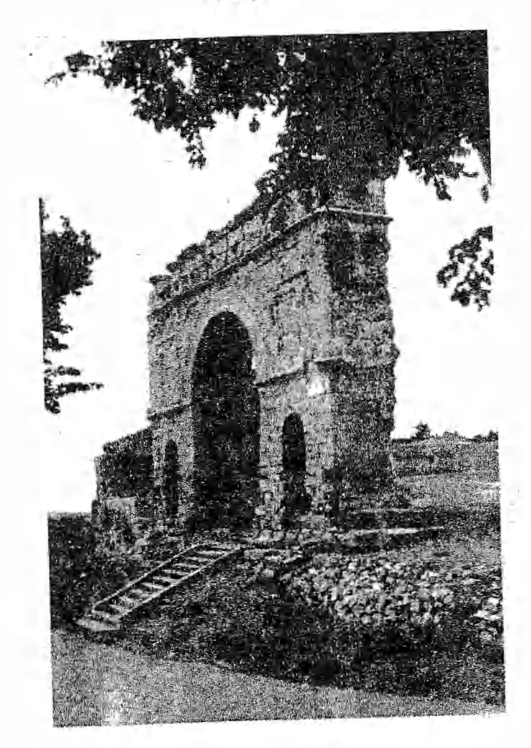
شكل ١٤٠ : خلخال من الفضة من كنز كاروتشا (ألميرية) ، محفوظ بمتحف معهد دون خوان البلنسي بمدريد .

شكل ١٤١ : سوار فضي من كنز جاروتشا (ألميرية) ، محفوظ بمتحف معهد خوان البلنسي بمدريد .

شكل ١٤٢ : دملج فضي من كنز لوخا (غرناطة) ، محفوظ بمتحف معهد دون خوان البلنسي بمدريد .



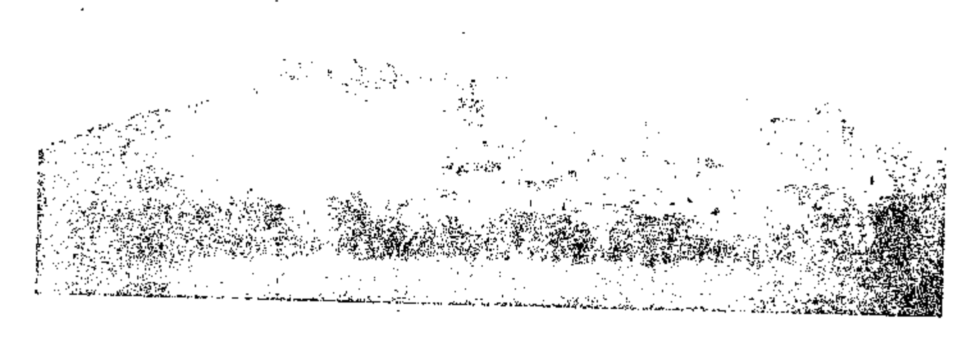
شكل رقم (١)



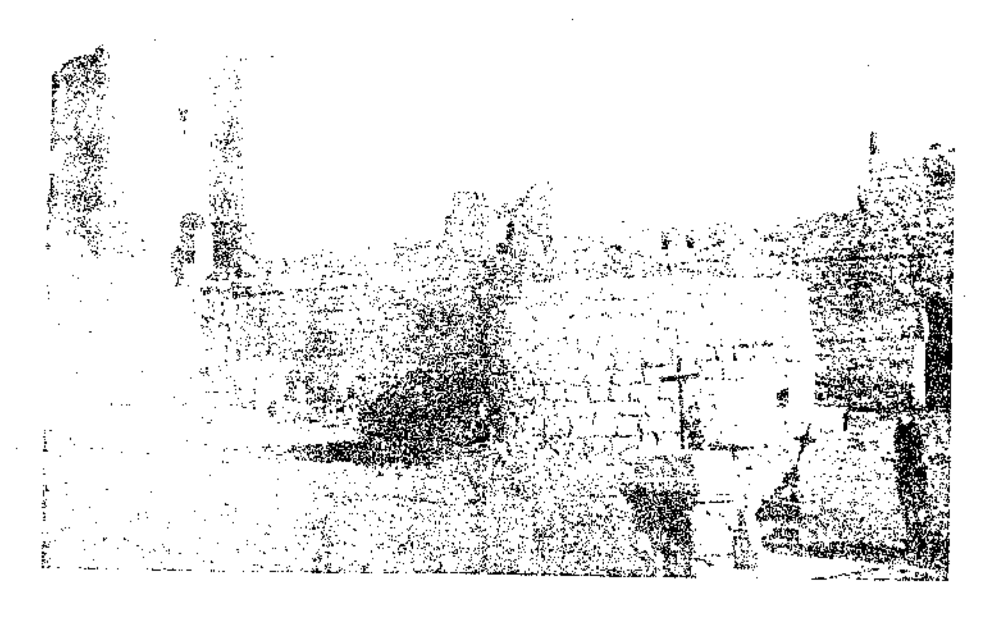
شكل رقم (٢)



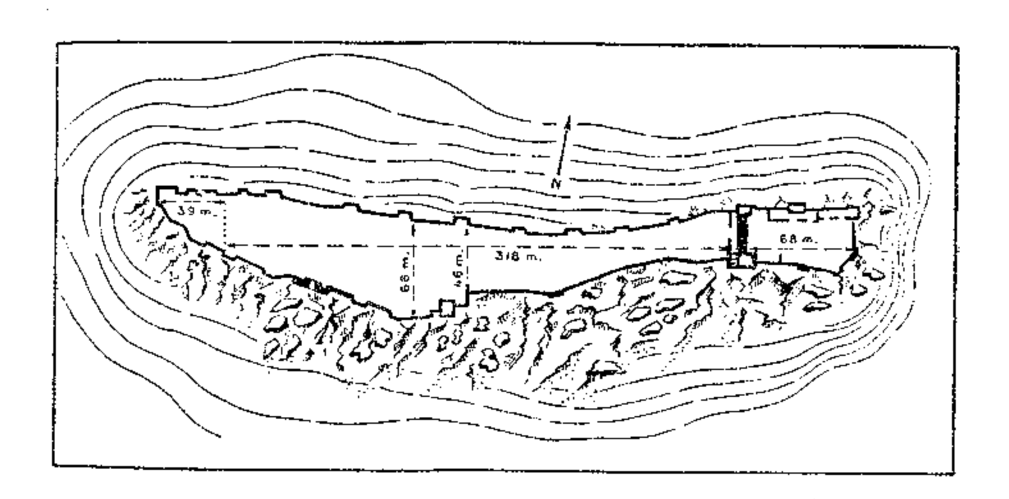
شكل رقم (٣)



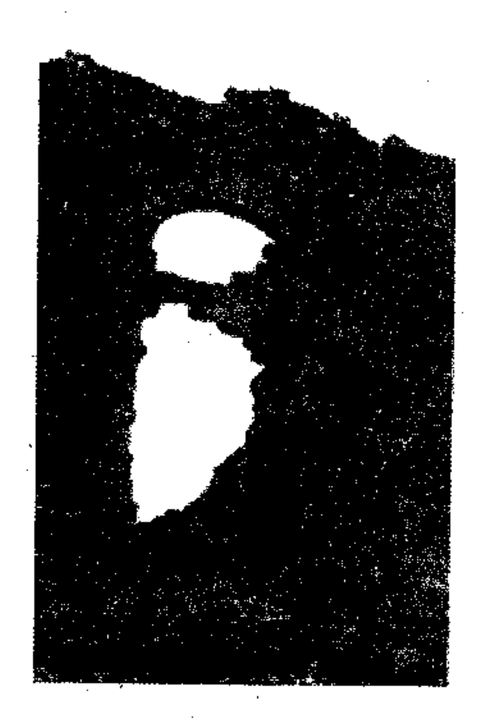
شكل رقم (٤)



شكل رقم (٥)



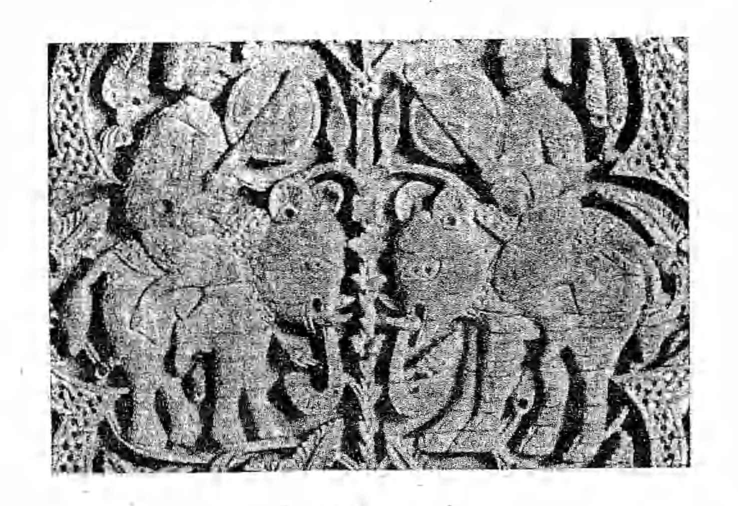
شكل رقم (٦)



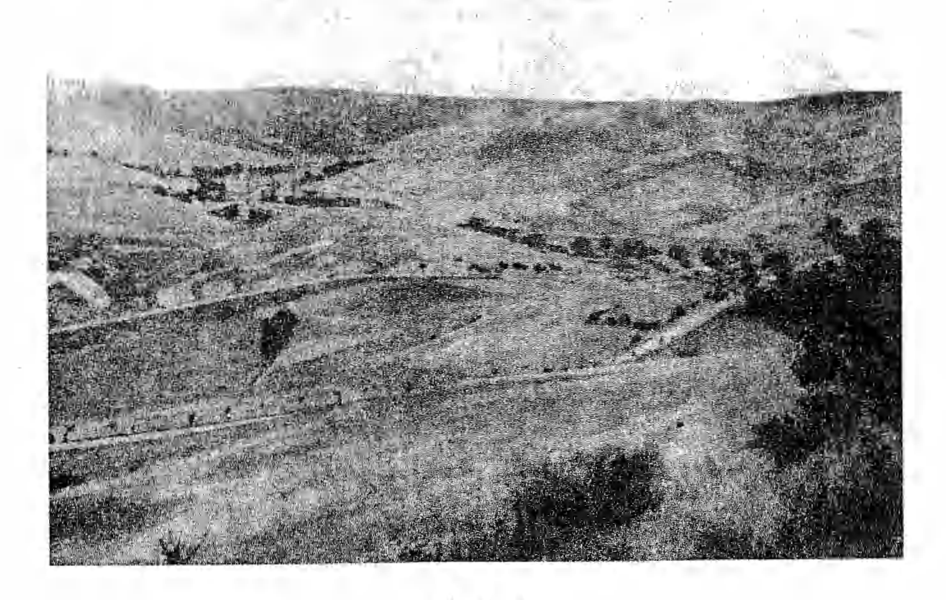
شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)



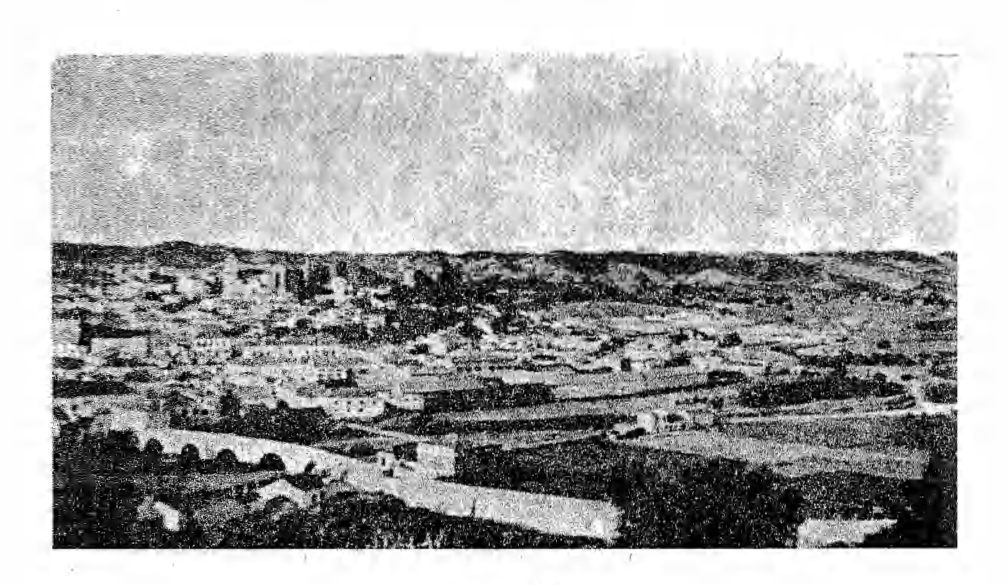
شكل رقم (٩)



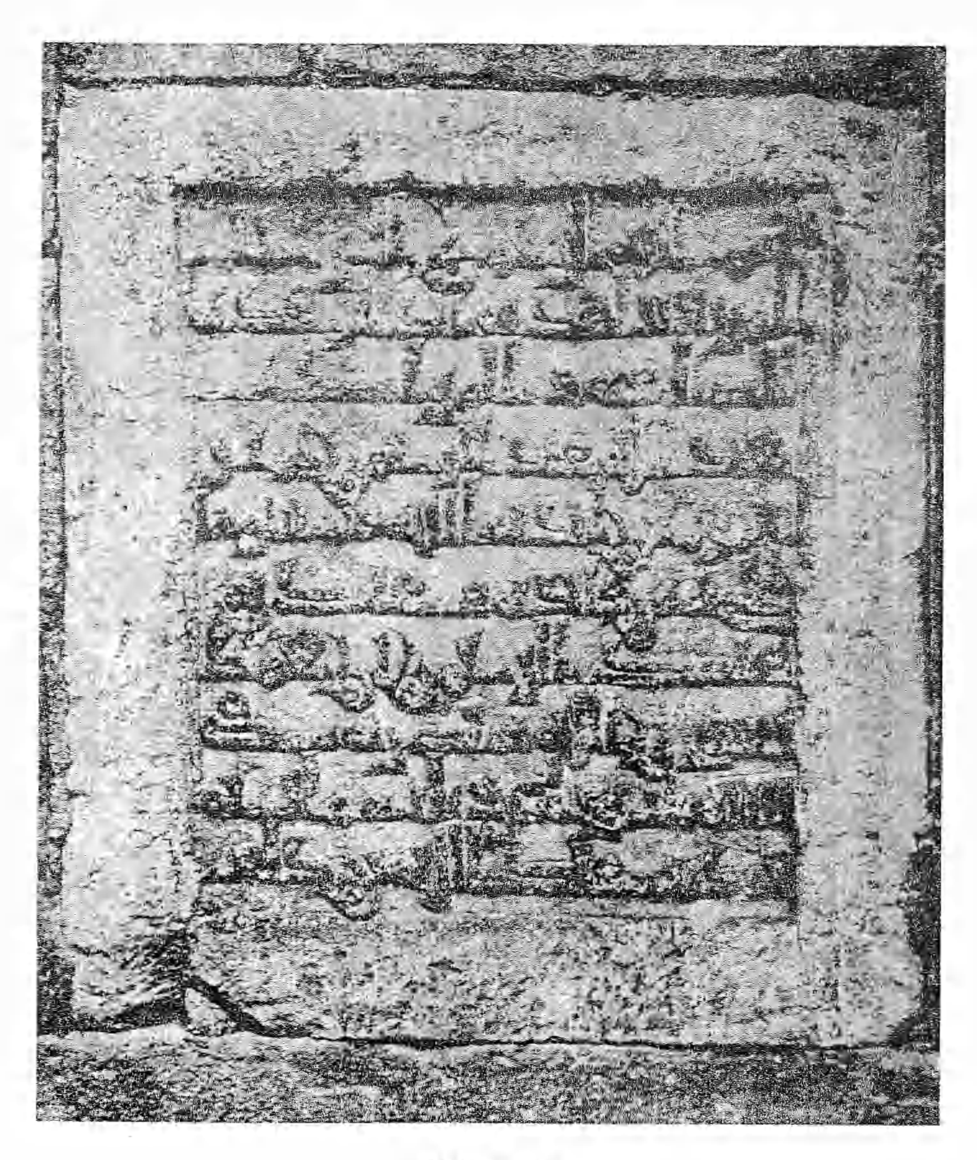
شكل رقم (١٠)



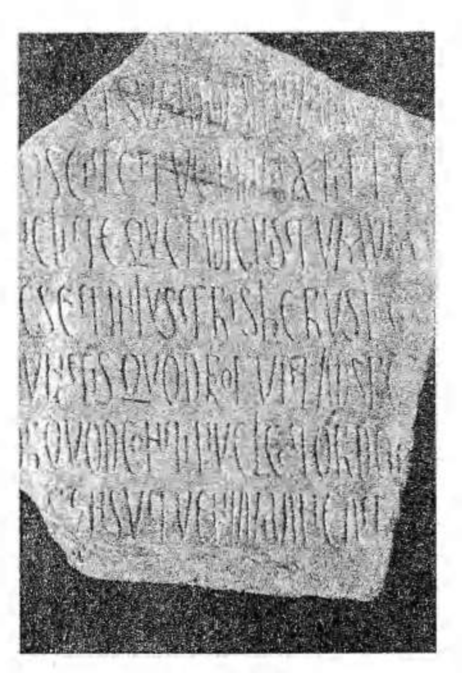
شكل رقم (١١)



شكل رقم (١٢)



شكل رقم (١٣)



شكل رقم (١٤)



شكل رقم (١٥)



شكل رقم (١٦)



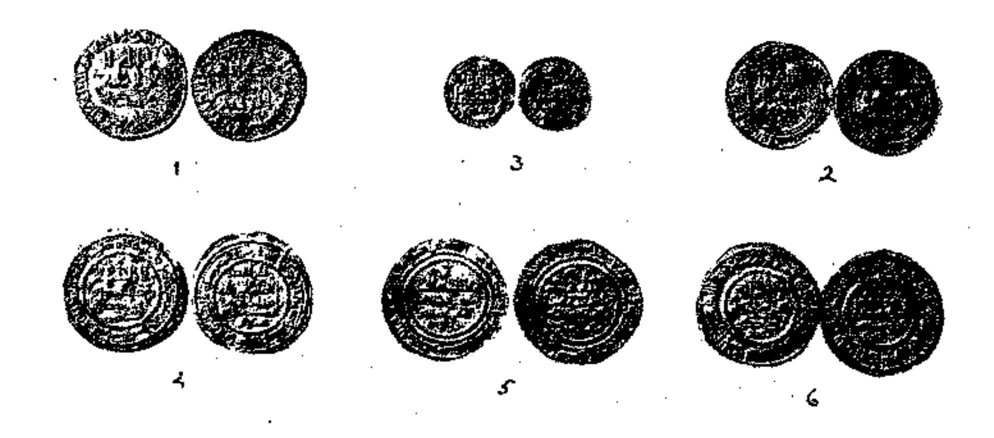
شكل رقم (١٧)



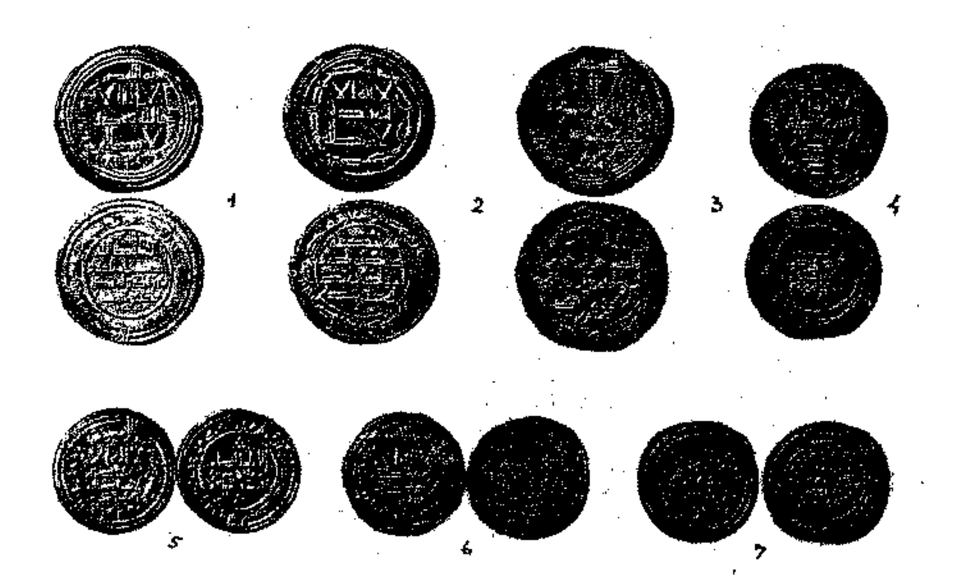
شكل رقم (١٨)



شكل رقم (١٩)



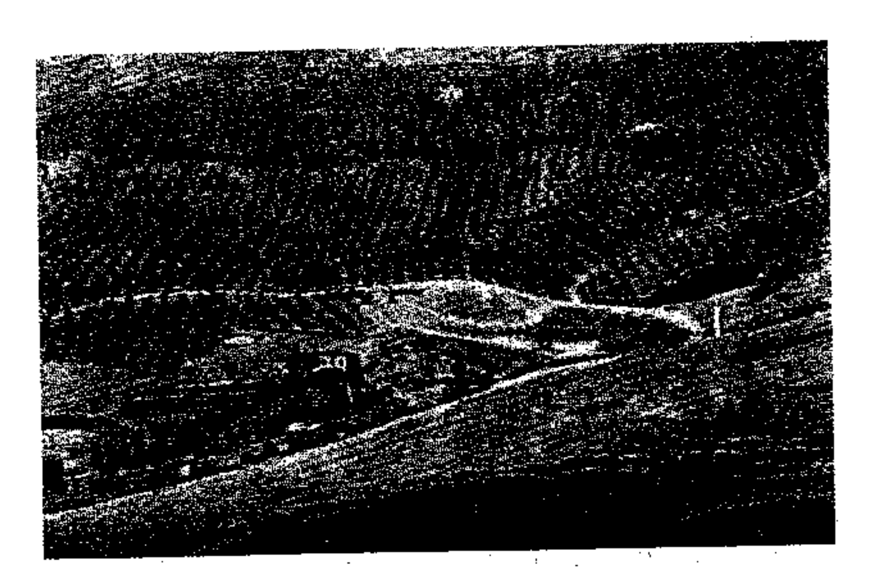
شكل رقم (٢٠)



شكل رقم (٢١)



شكل رقم (٢٢)



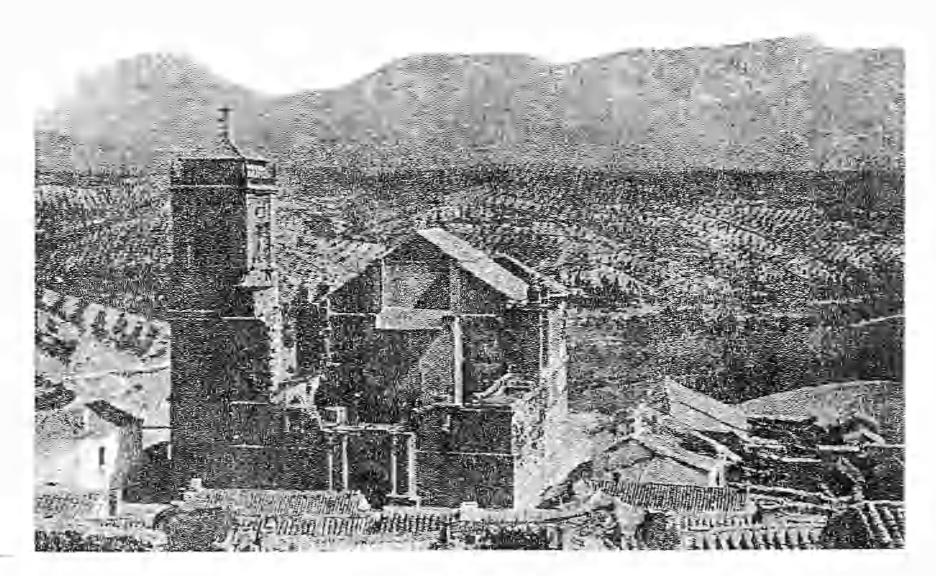
شكل رقم (٢٣)



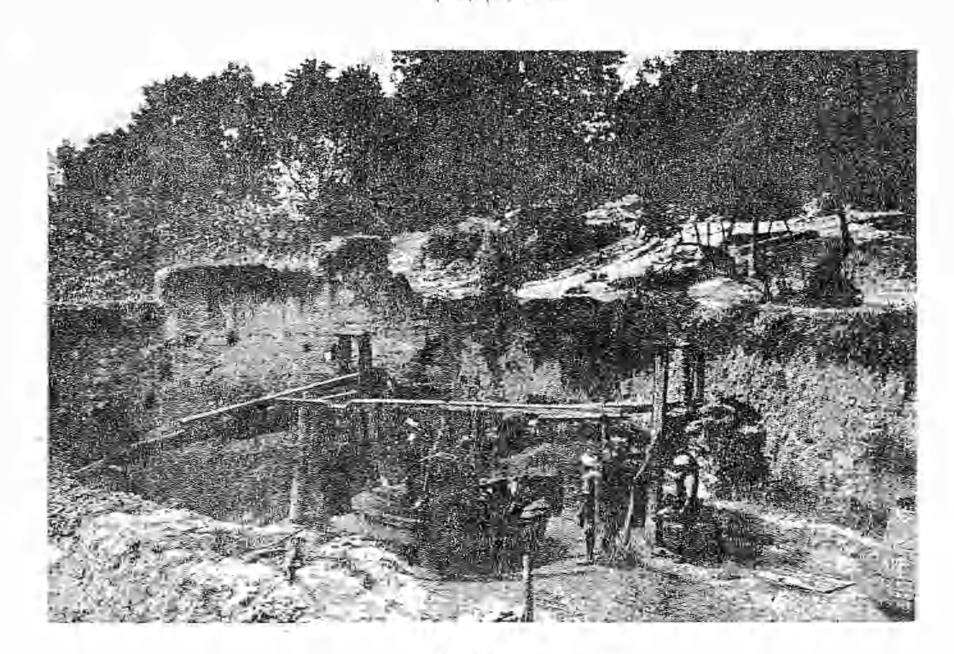
شكل رقم (٢٤)



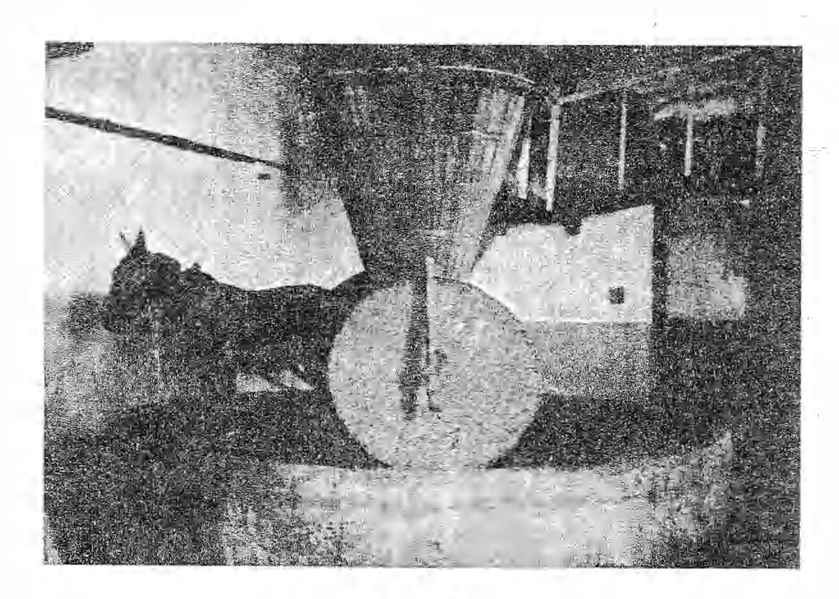
شكل رقم (٢٥)



شكل رقم (٢٦)



شكل رقم (٢٧)



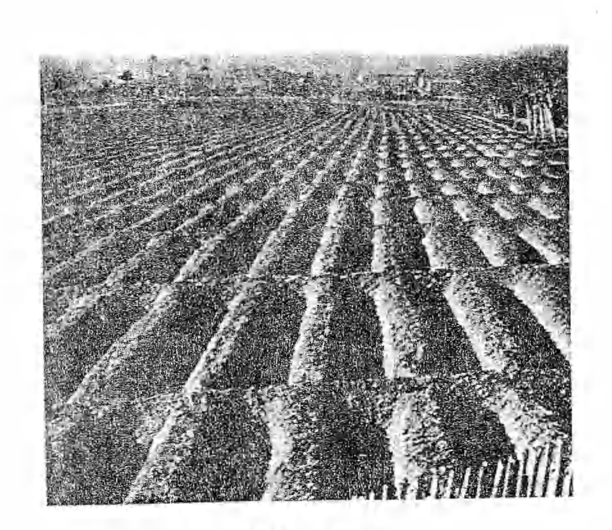
شكل رقم (٢٨)



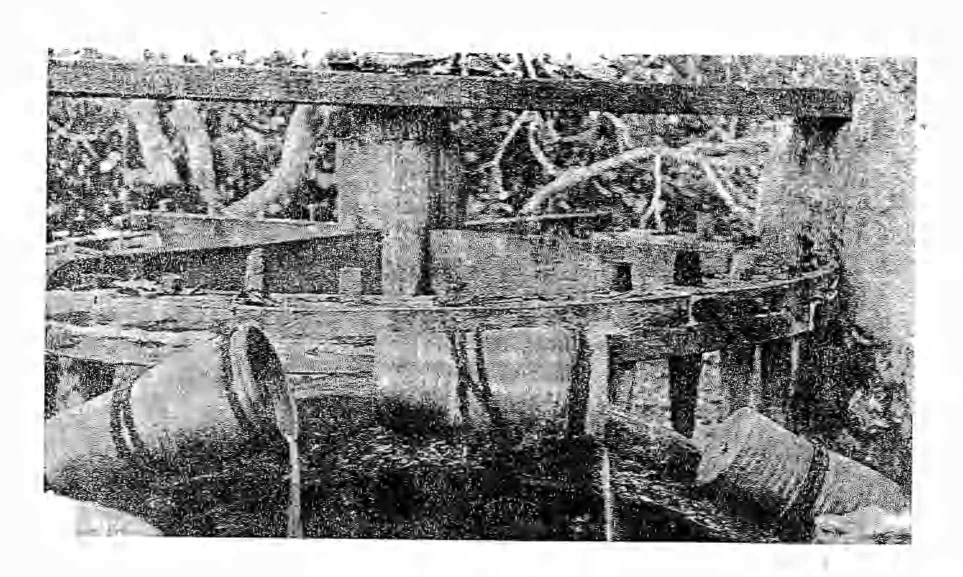
شكل رقم (٢٩)



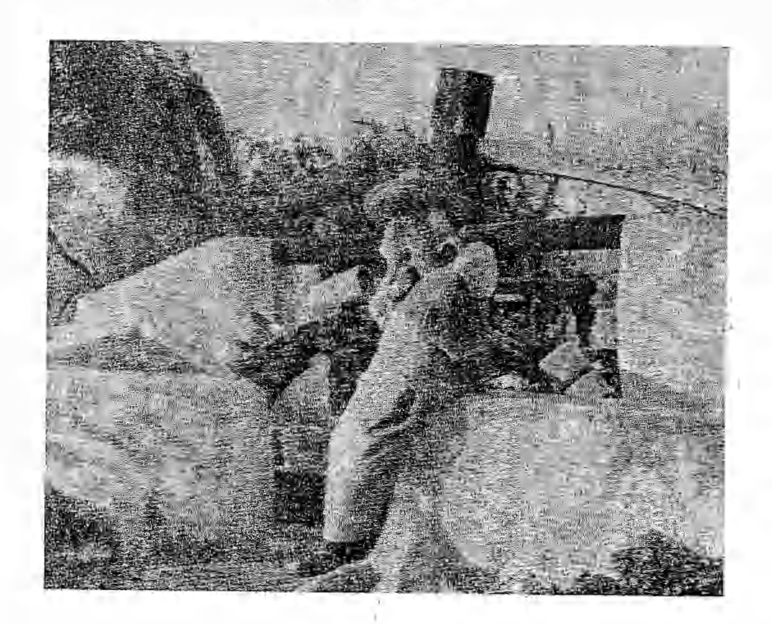
شكل رقم (٣٠)



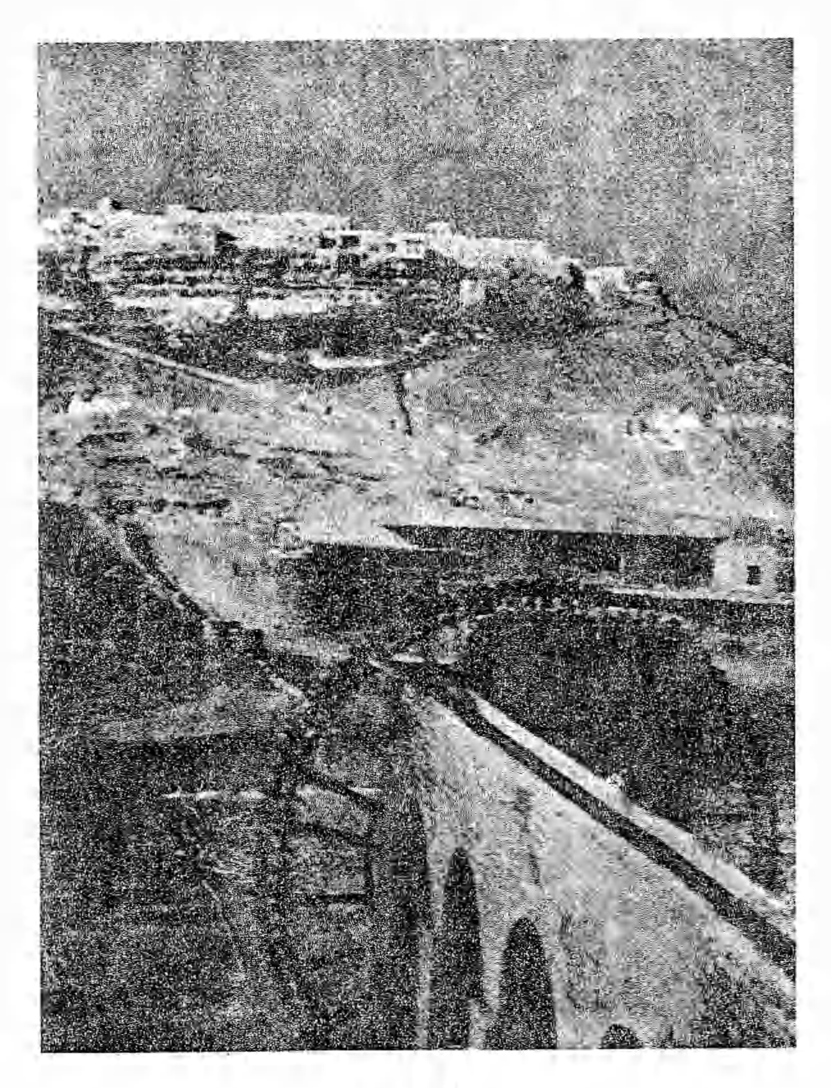
شكل رقم (٣١)



شكل رقم (٣٢)



شكل رقم (٣٣)



شكل رقم (٣٤)



شكل رقم (٢٥)



شكل رقم (٢٦)



شكل رقم (٢٧)



شكل رقم (٢٨)



شكل رقم (٣٩)



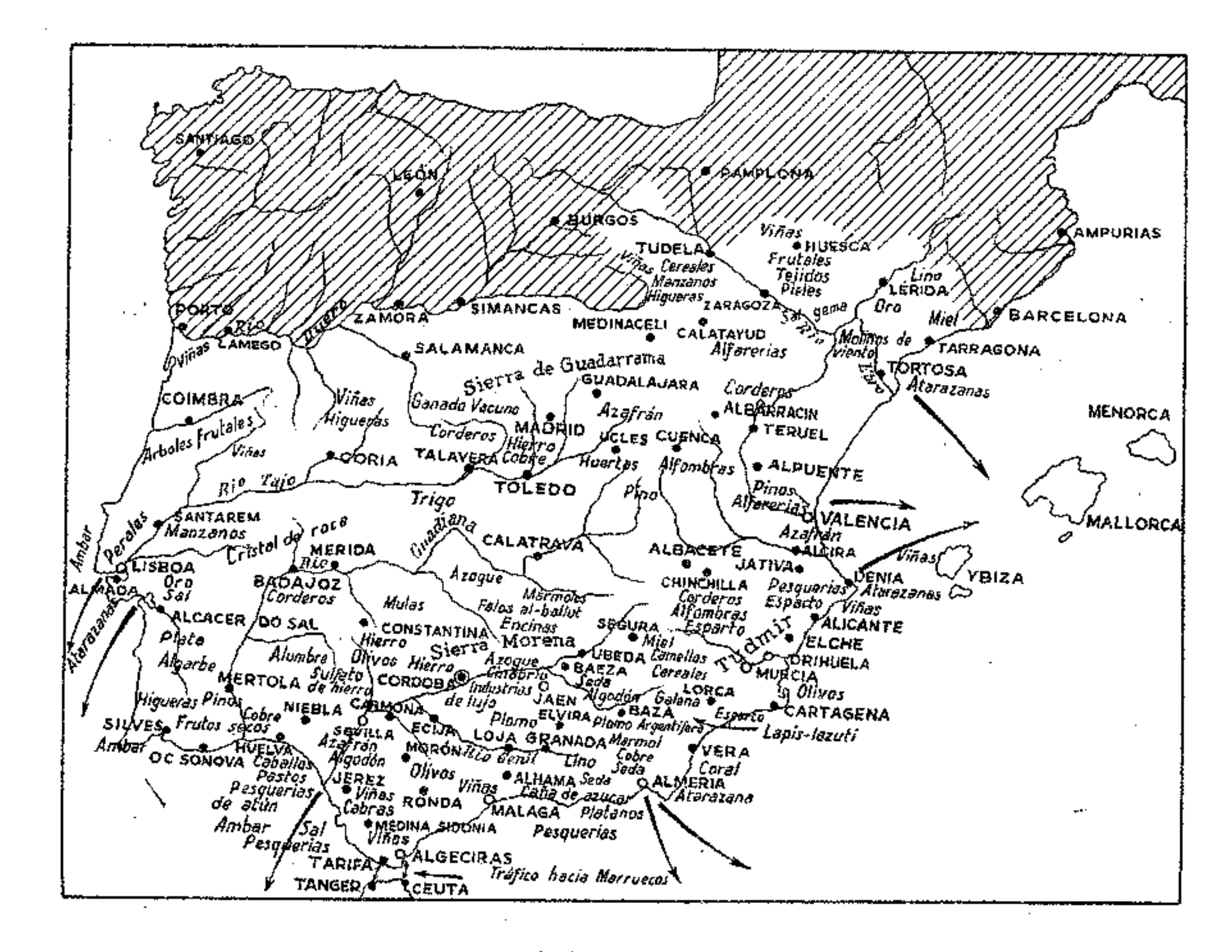
شكل رقم (٤٠)



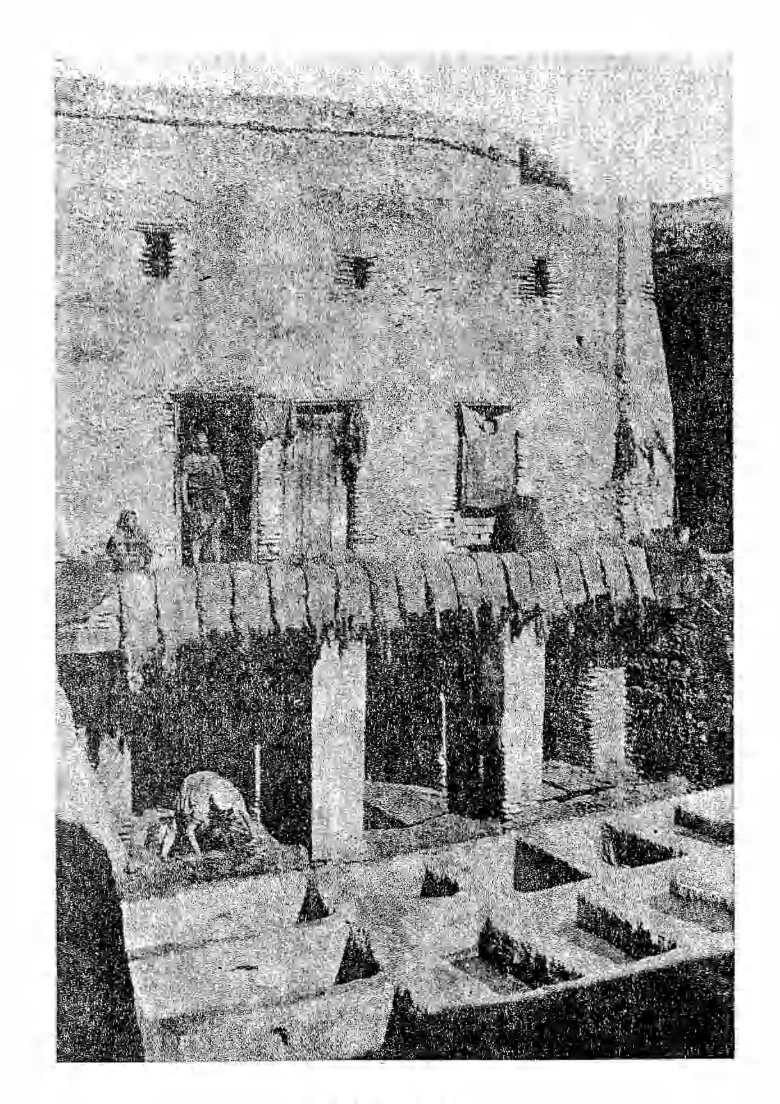
شكل رقم (٤١)



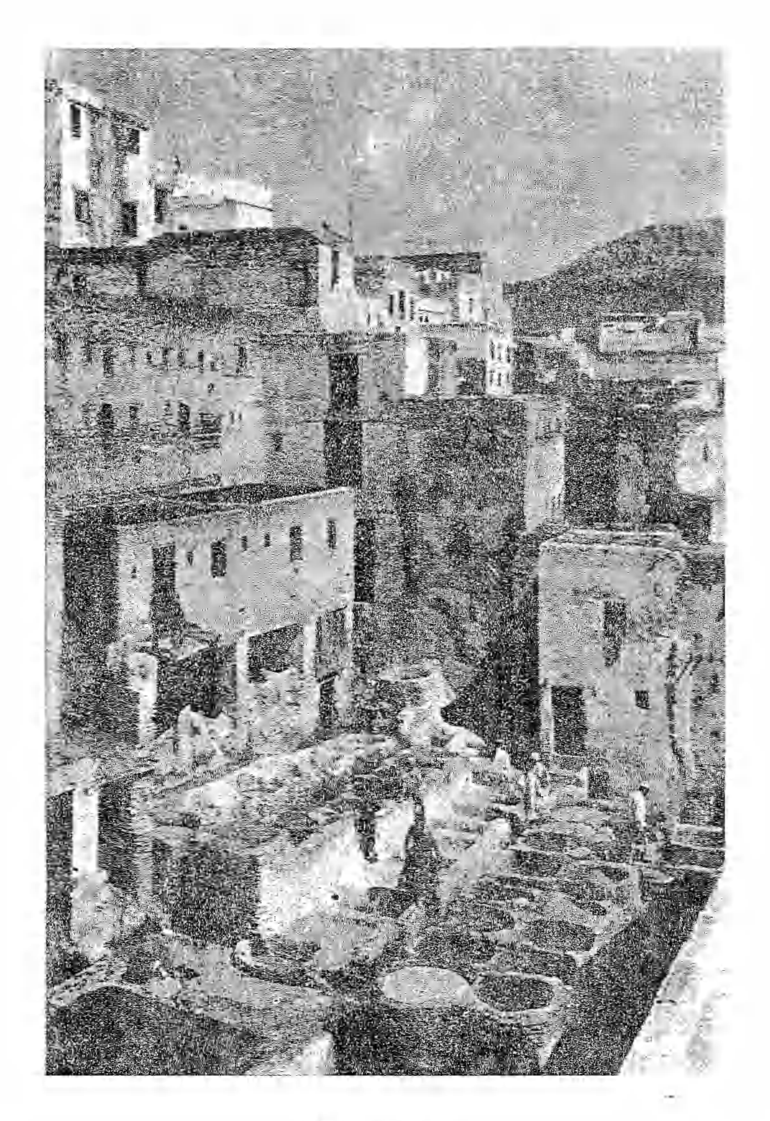
شكل رقم (٤٢)


SANTIAGO
LEÓN
PAMPLONA
BURGOS
TUDELA
HUESCA
AMPURIAS
Viñas
Cereales
Manzanos
Higueras
Frutales
Tejidos
Pieles
LERIDA
Lino
Oro
Miel
BARCELONA
ZARAGOZA
Sal gema
PORTO
ZAMORA
SIMANCAS
MEDINACELI
CALATAYUD
Alfarerias
Molinos de viento
TARRAGONA
TORTOSA
Atarazanas
LAMEGO
SALAMANCA
Sierra de Guadarrama
GUADALAJARA
Corderos
ALBARRACIN
TERUEL
MENORCA
COIMBRA
Arboles frutales
Viñas
Higueras
Ganado Vacuno
MADRID
Hierro
Cobre
Azafrán
UCLES
CUENCA
Alfombras
ALPUENTE
Pinos
CORIA
TALAVERA
TOLEDO
Huertas
Pino
Río Tajo
Trigo
VALENCIA
MALLORCA
Ambar
Perales
SANTAREM
Manzanos
Cristal de roca
Guadiana
MERIDA
CALATRAVA
ALBACETE
ALCIRA
JATIVA
YBIZA
LISBOA
ALMADA
Atarazanas
Oro
Sal
BADAJOZ
Río
Azoque
Mármoles
Falos al-ballut
Encinas
CHINCHILLA
Pesquerias
Espacto
DENIA
ALCACER DO SAL
Plata
Algarbe
Alumbre
Mulas
CONSTANTINA
Hierro
Olivos
Sierra Morena
SEGURA
Miel
Esparto
ALICANTE
ELCHE
Tudmir
ORIHUELA
MURCIA
MERTOLA
Sulfeto de hierro
CORDOBA
Industrias de lujo
JAEN
UBEDA
Camellas
BAEZA
Seda
Cereales
Algodón
Galena
LORCA
CARTAGENA
Lapis-lazuti
Higueras
Pinos
Cobre
NIEBLA
CARMONA
SEVILLA
ECIJA
LOJA
GRANADA
Plomo
ELVIRA
BAZA
Plomo Argentifero
Marmol
SILVES
Frutos secos
HUELVA
OC SONOVA
Caballos
Pastos
Pesquerias de atún
Algodón
JEREZ
Cabras
MORÓN
RONDA
ALHAMA
Caña de azucar
MALAGA
Platanos
ALMERIA
Atarazana
VERA
Coral
Sal
MEDINA SIDONIA
ALGECIRAS
TARIFA
TANGER
CEUTA
Tráfico hacia Marruecos

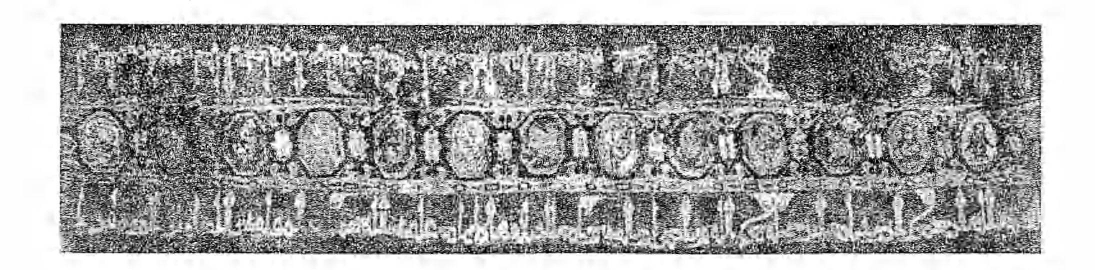
شكل رقم (٤٣)



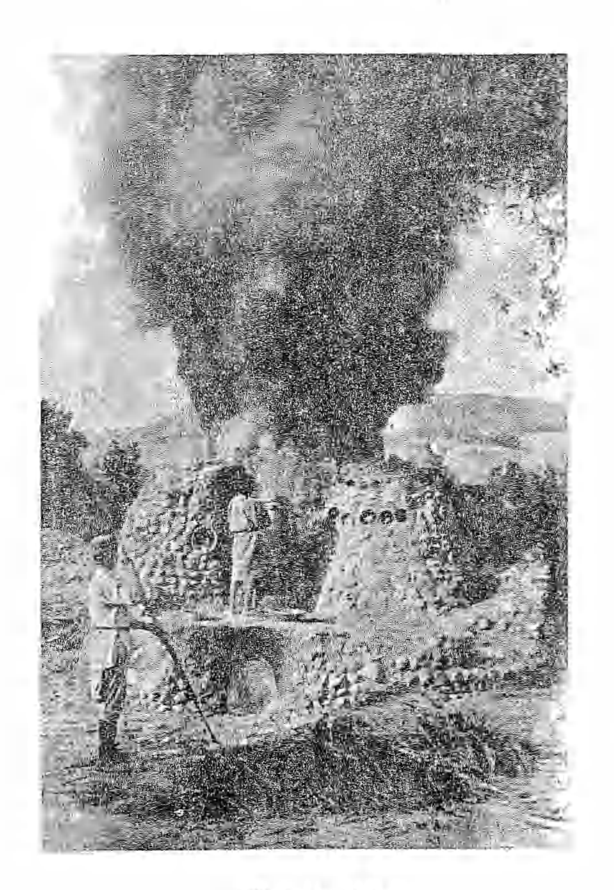
شكل رقم (٤٤)



شكل رقم (٤٥)



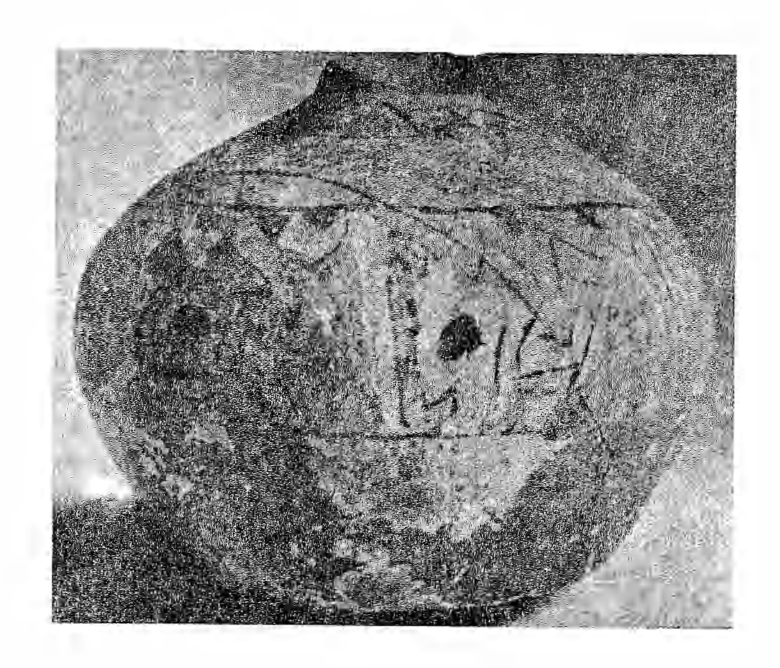
شكل رقم (٤٦)



شكل رقم (٤٧)



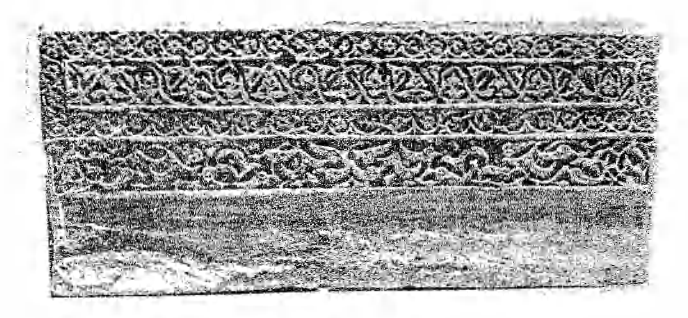
شكل رقم (٤٨)



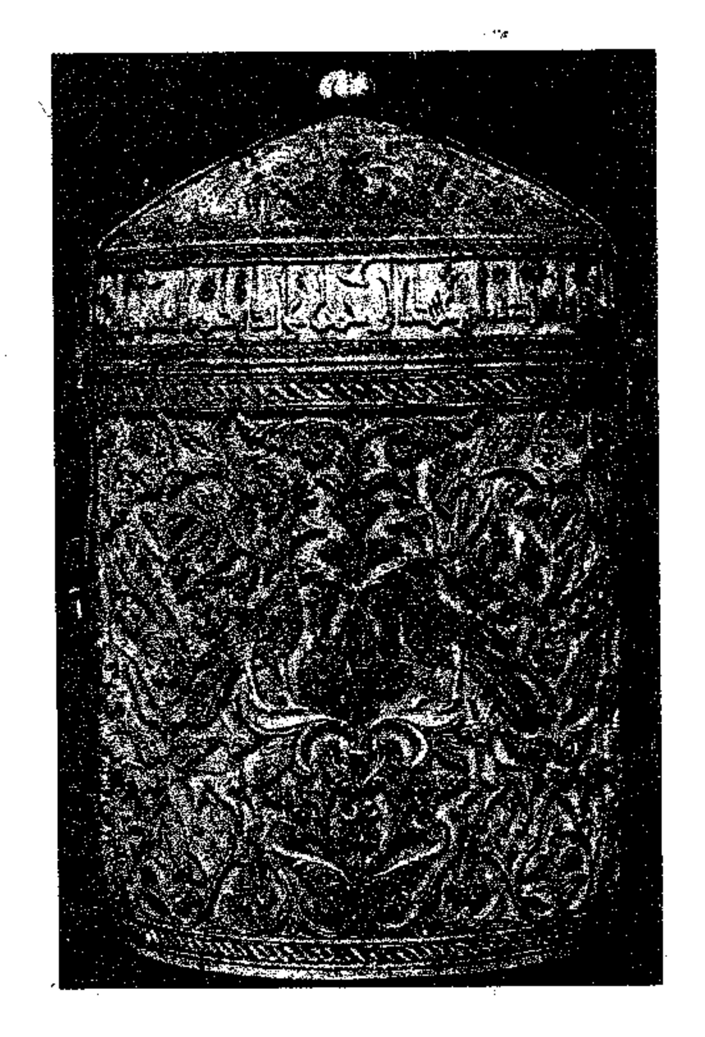
شكل رقم (٤٩)



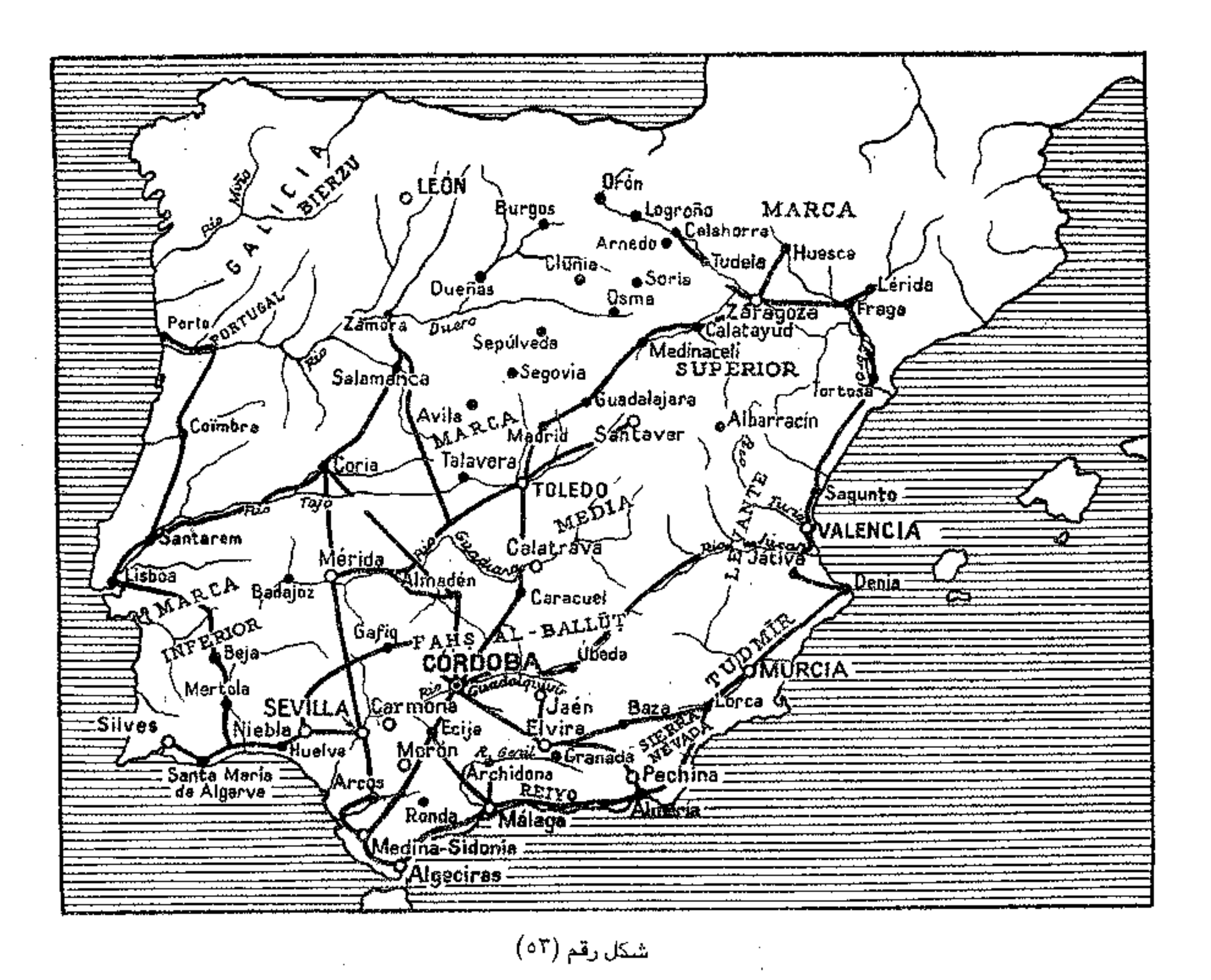
شكل رقم (٥٠)



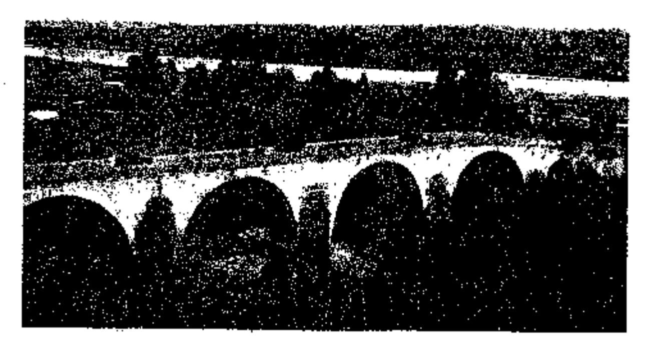
شكل رقم (٥١)



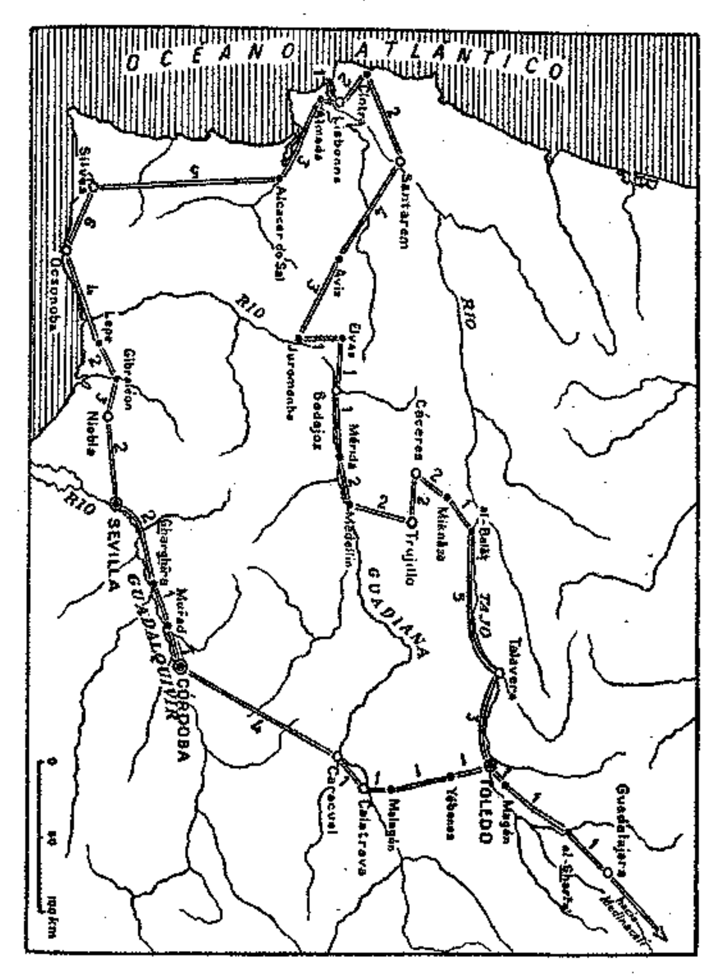
شكل رقم (٥٢)


GALICIA
BIERZU
LEÓN
Burgos
Orón
Logroño
MARCA
Calahorra
Arnedo
Tudela
Huesca
Clunia
Soria
Dueñas
Osma
Lérida
Fraga
Zaragoza
Calatayud
Porto
PORTUGAL
Zamora
Duero
Sepúlveda
Medinaceli
SUPERIOR
Salamanca
Segovia
Tortosa
Guadalajara
Avila
MARCA
Madrid
Santaver
Albarracín
Coimbra
Coria
Talavera
TOLEDO
MEDIA
Sagunto
LEVANTE
Turia
VALENCIA
Tajo
Santarem
Calatrava
Júcar
Játiva
Mérida
Almadén
Guadiana
Lisboa
Badajoz
Caracuel
Denia
MARCA
INFERIOR
Gafiq
FAHS AL-BALLŪṬ
Úbeda
Beja
CÓRDOBA
TUDMĪR
MURCIA
Guadalquivir
Mertola
SEVILLA
Carmona
Jaén
Baza
Lorca
Silves
Niebla
Écija
Elvira
SIERRA NEVADA
Huelva
Morón
R. Genil
Granada
Santa María de Algarve
Archidona
Pechina
Arcos
REIYO
Ronda
Málaga
Almería
Medina-Sidonia
Algeciras

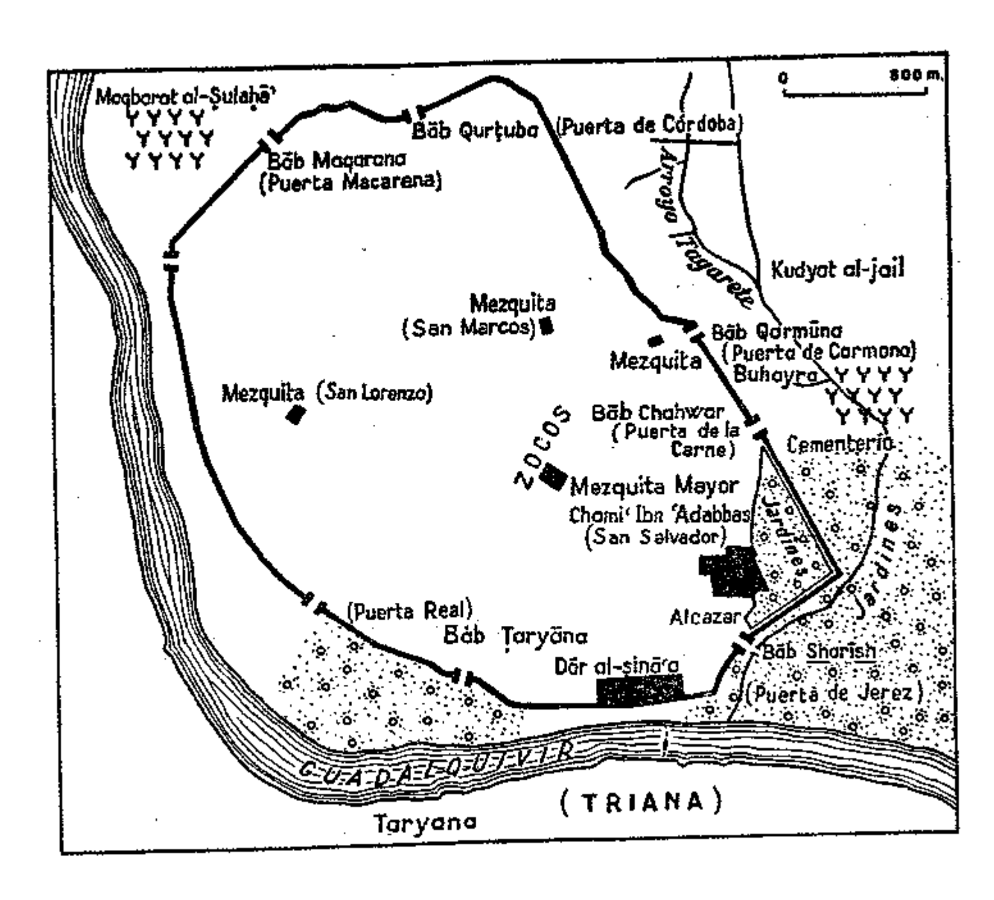
شكل رقم (٥٢)



شكل رقم (٥٤)

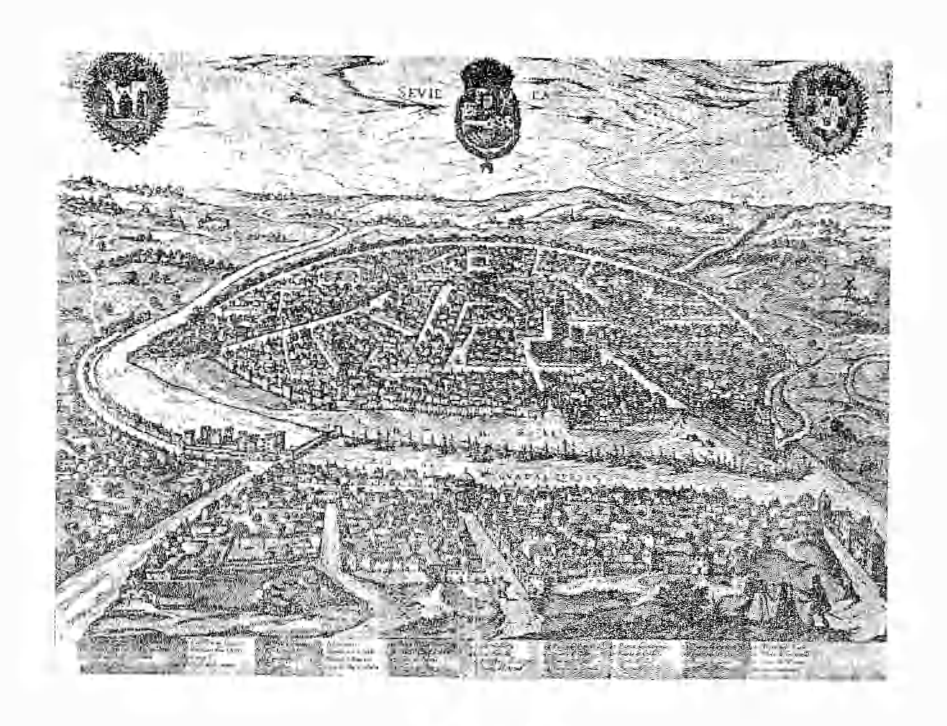


شكل رقم (٥٥)



Maqbarat al-Ṣulaḥā'
Bāb Maqarana
(Puerta Macarena)
Bāb Qurṭuba
(Puerta de Córdoba)
Arroyo Tagarete
Kudyat al-jail
Mezquita
(San Marcos)
Bāb Qarmūna
(Puerta de Carmona)
Mezquita
Buhayra
Mezquita (San Lorenzo)
Bāb Chahwar
(Puerta de la Carne)
ZOCOS
Cementerio
Mezquita Mayor
Chami' Ibn 'Adabbas
(San Salvador)
Jardines
Jardines
Alcazar
(Puerta Real)
Bāb Ṭaryāna
Bāb Sharish
Dār al-sināʿa
(Puerta de Jerez)
GUADALQUIVIR
(TRIANA)
Taryana

شكل رقم (٥٦)



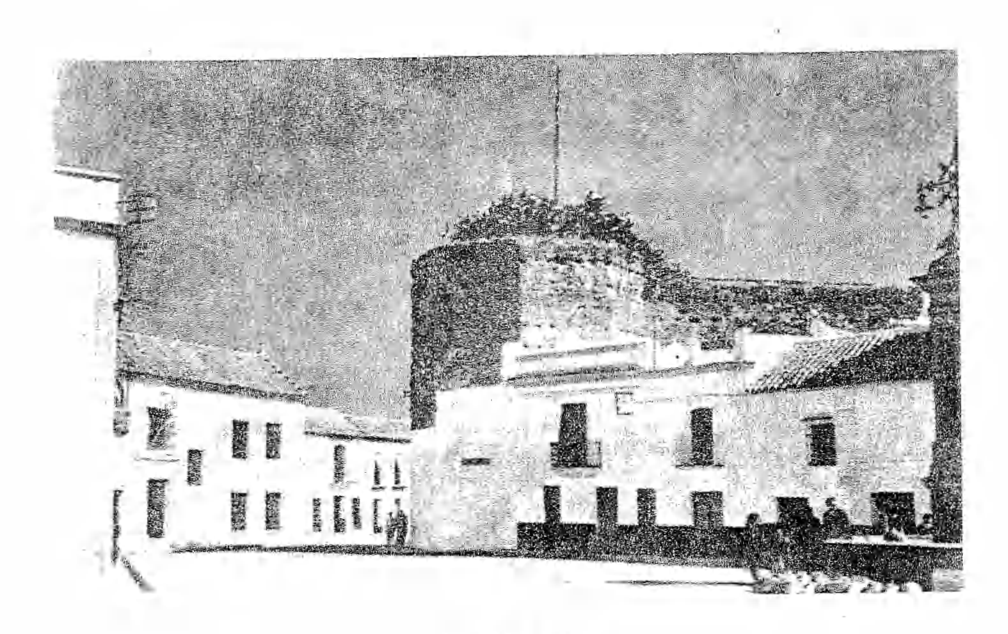
شكل رقم (٥٧)



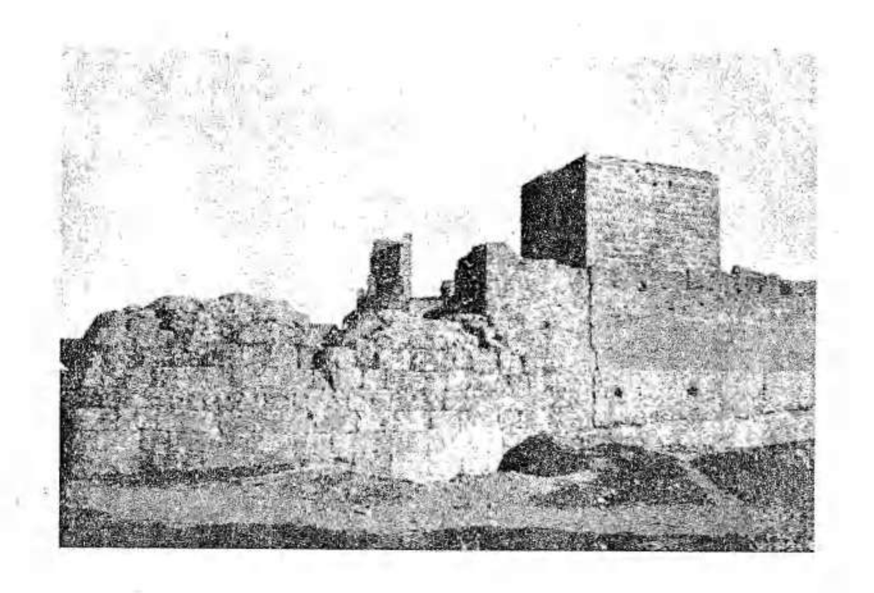
شكل رقم (٥٨)



شكل رقم (٥٩)



شكل رقم (٦٠)



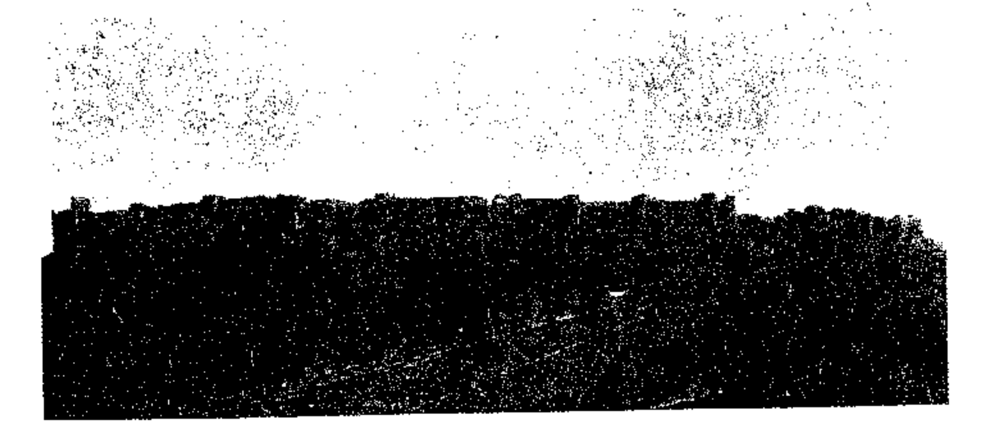
شكل رقم (٦١)



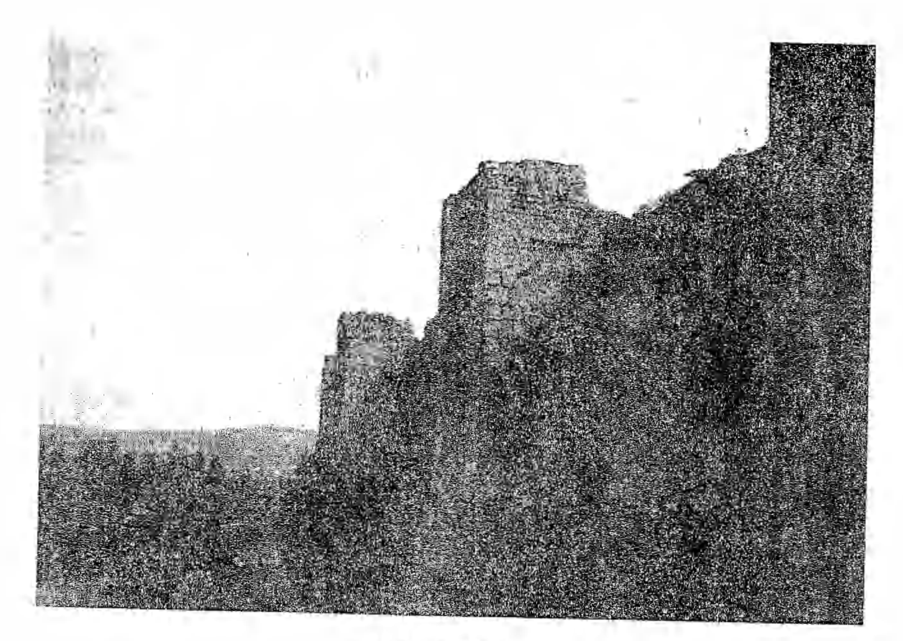
شكل رقم (٦٢)



شكل رقم (٦٣)



شكل رقم (٦٤)



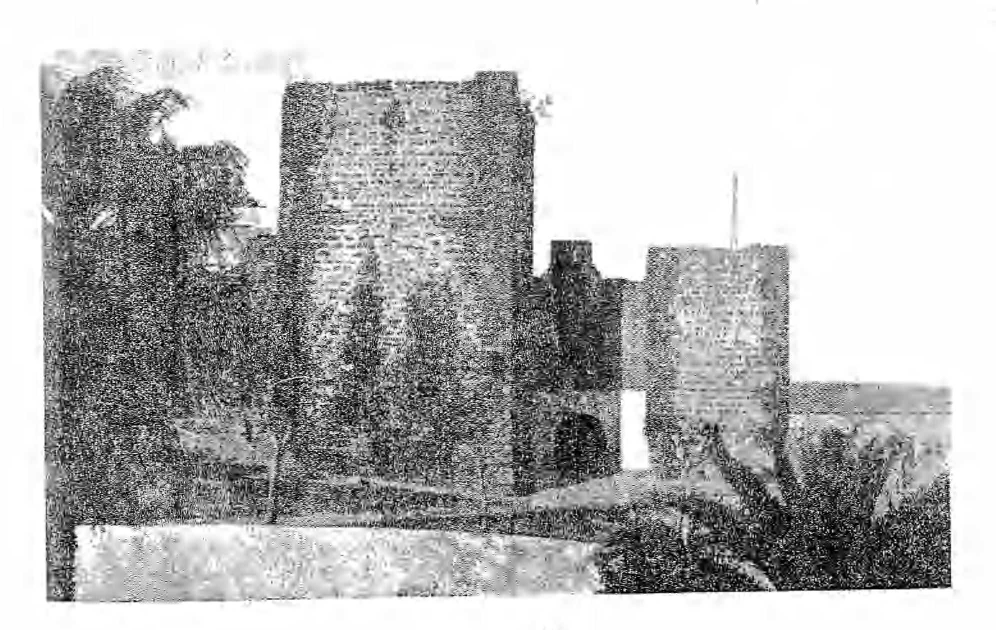
شكل رقم (٦٥)



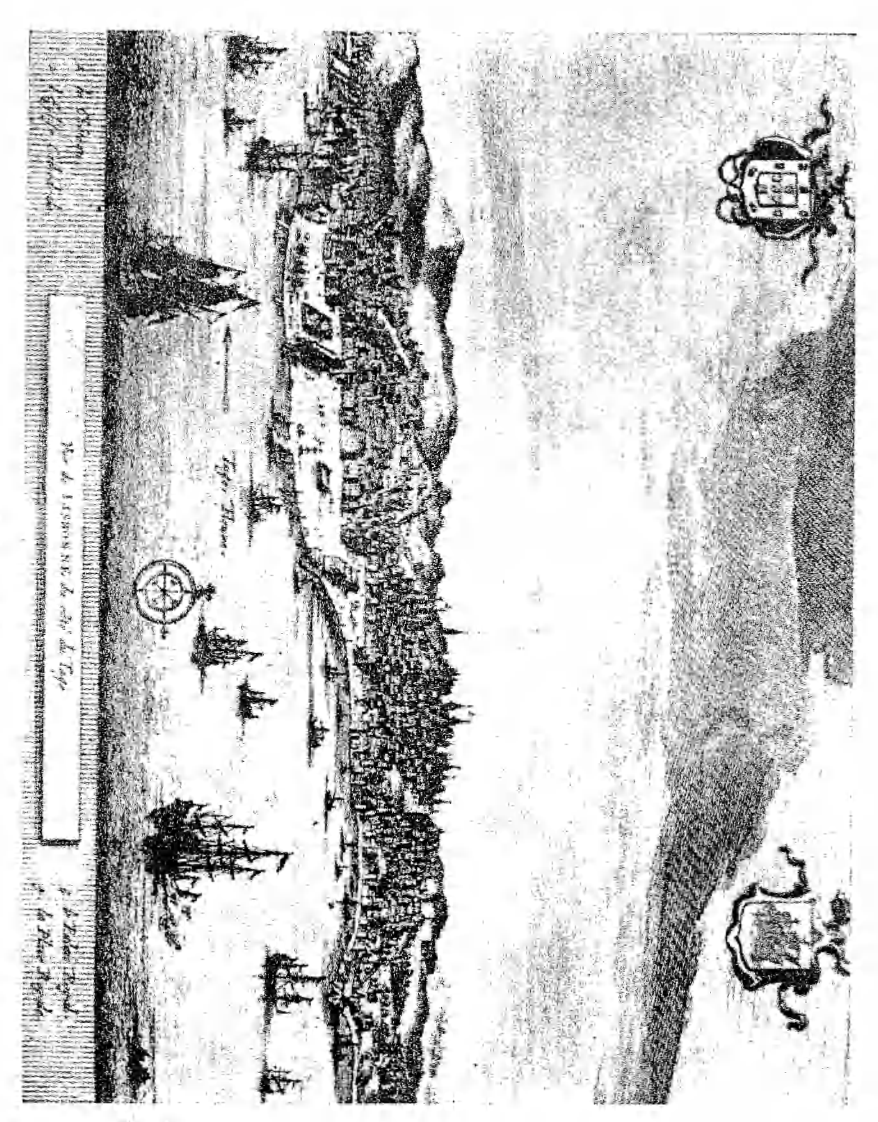
شكل رقم (٦٦)



شكل رقم (٦٧)



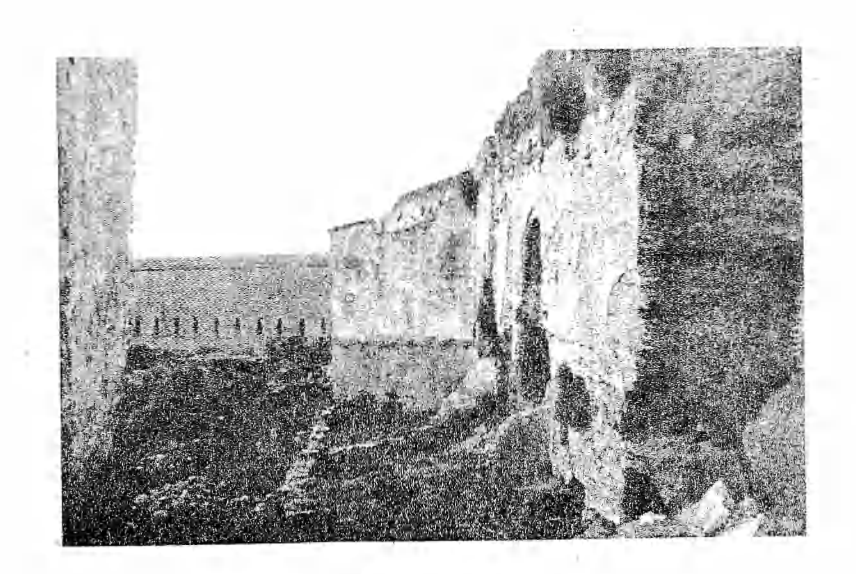
شكل رقم (٦٨)



شكل رقم (٦٩)



شكل رقم (٧٠)



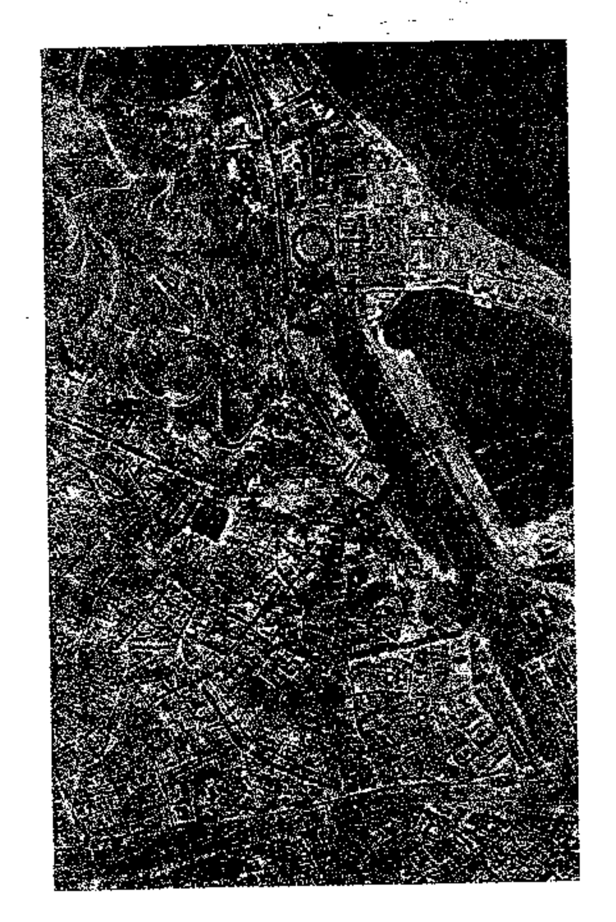
شكل رقم (٧١)

Musallā
y cementerio
Jardines
Guadalmedina
(Wādī l-madīna)
Bab al-Wādī
Mezquita mayor
Dār al-Ṣināʿa
Puerta del Mar
Puerta (?)
Alcazaba
RABAḌ FONTANĀLLA
Rābiṭa
Chabal Fāro
N

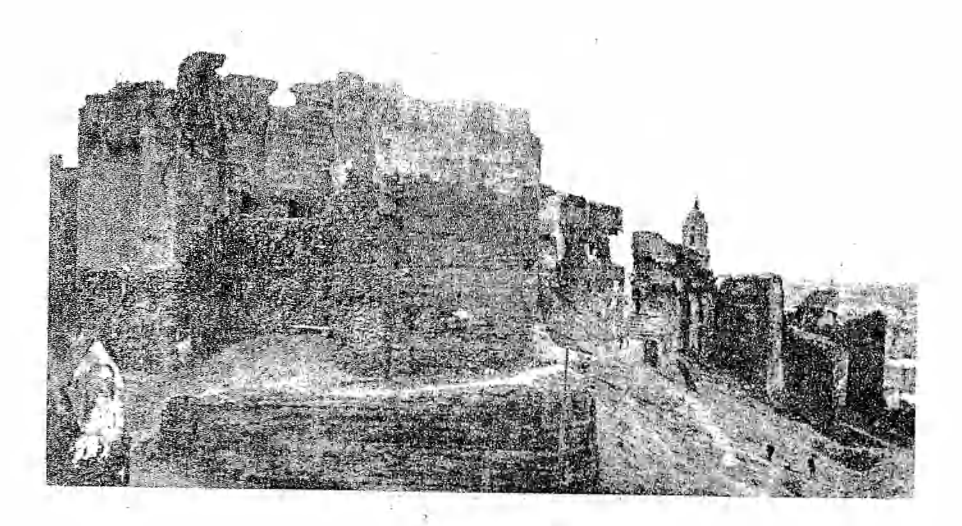
شكل رقم (٧٢)



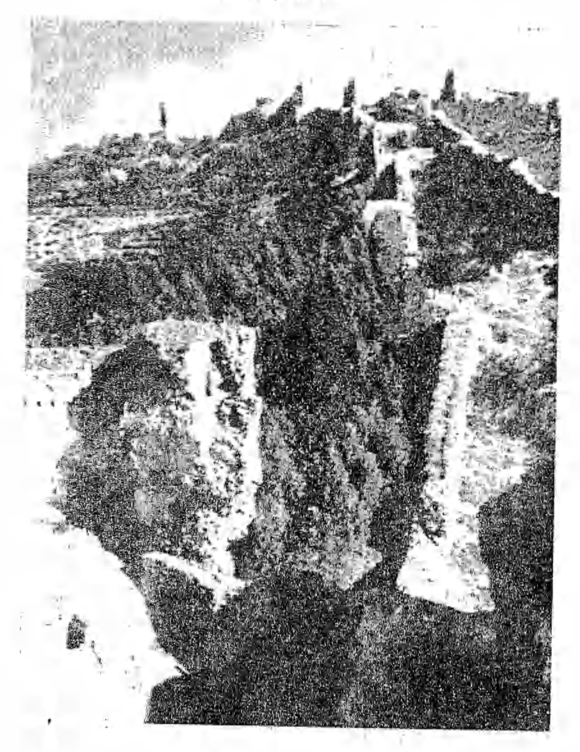
شكل رقم (٧٣)



شكل رقم (٧٤)

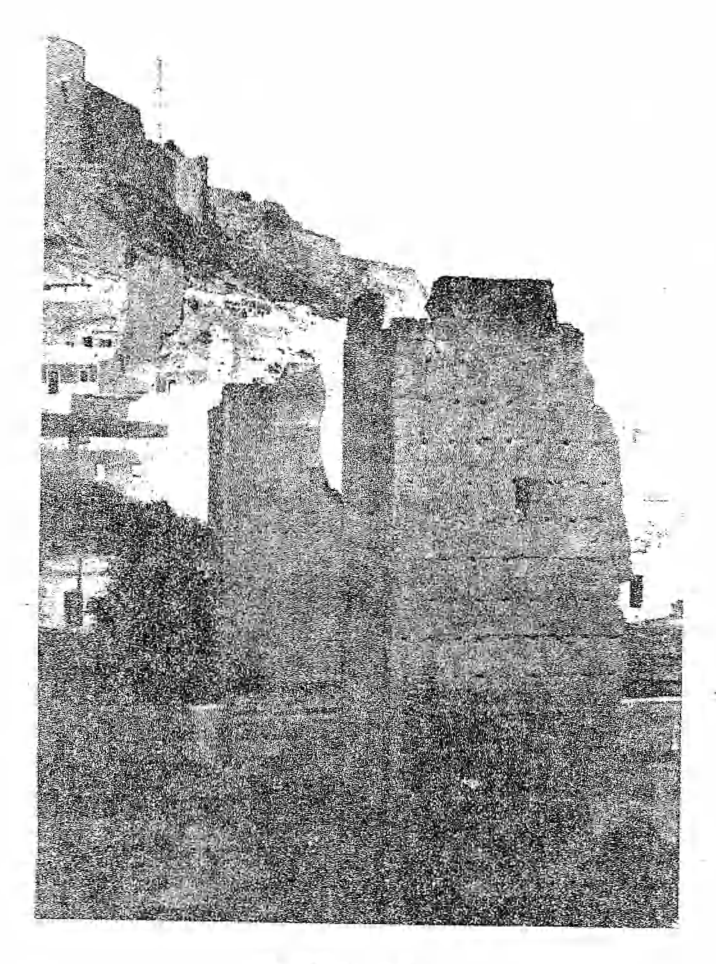


شكل رقم (٧٥)

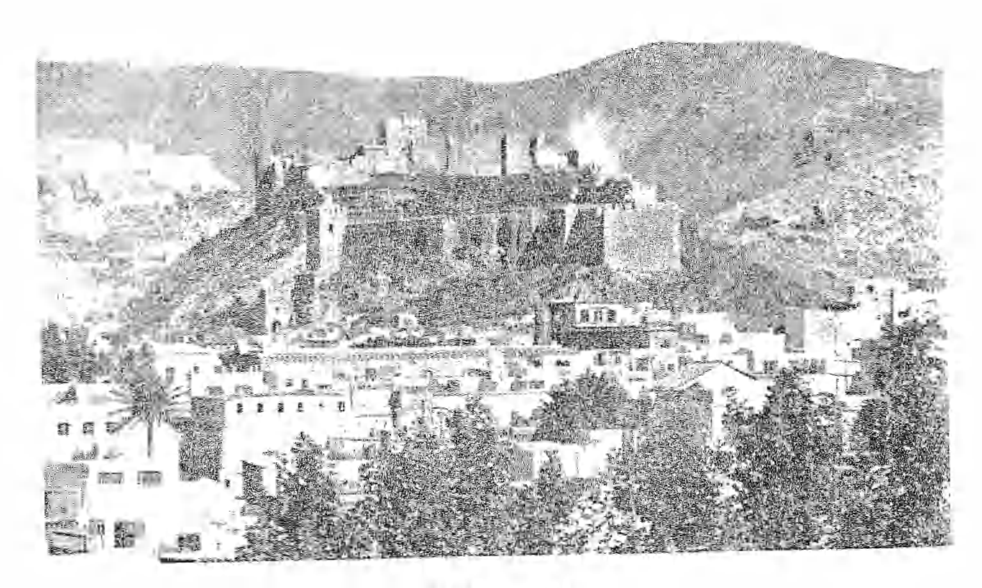


شكل رقم (٧٦)

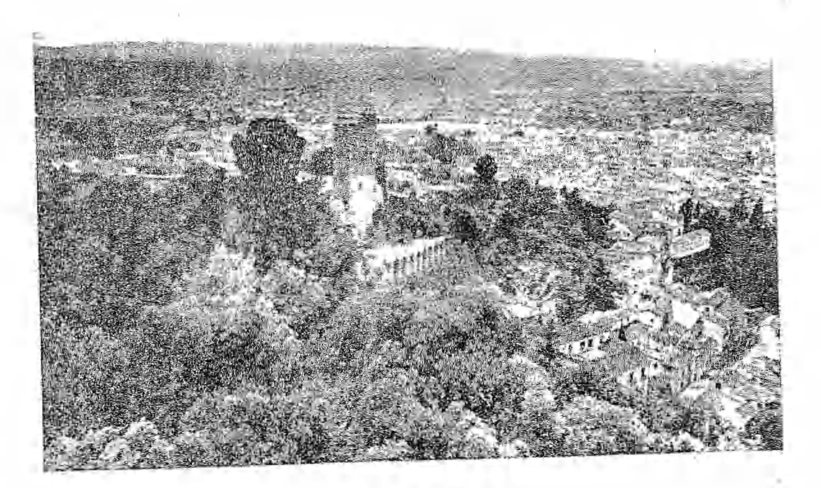
شكل رقم (٧)



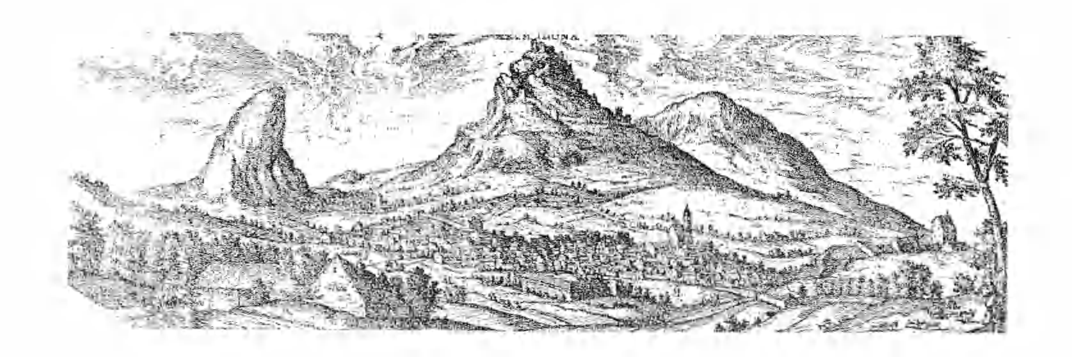
شكل رقم (٧٨)



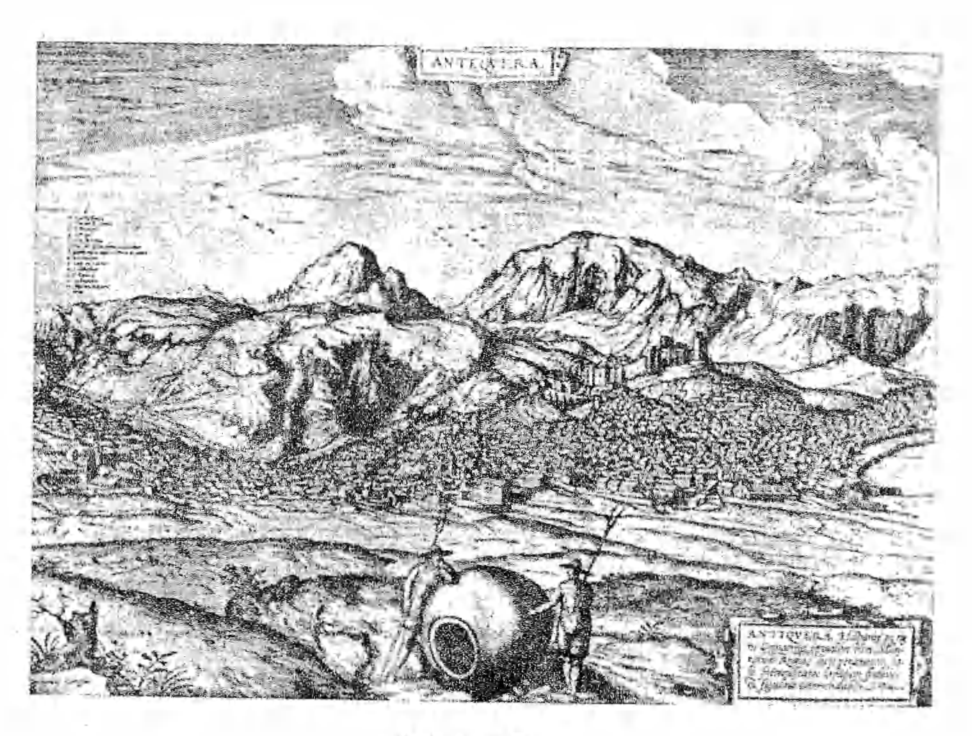
شكل رقم (٧٩)



شكل رقم (٨٠)



شكل رقم (٨١)



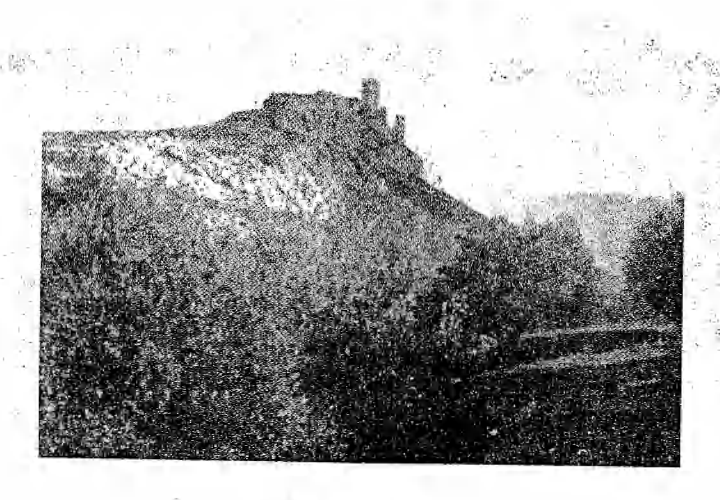
شكل رقم (٨٢)



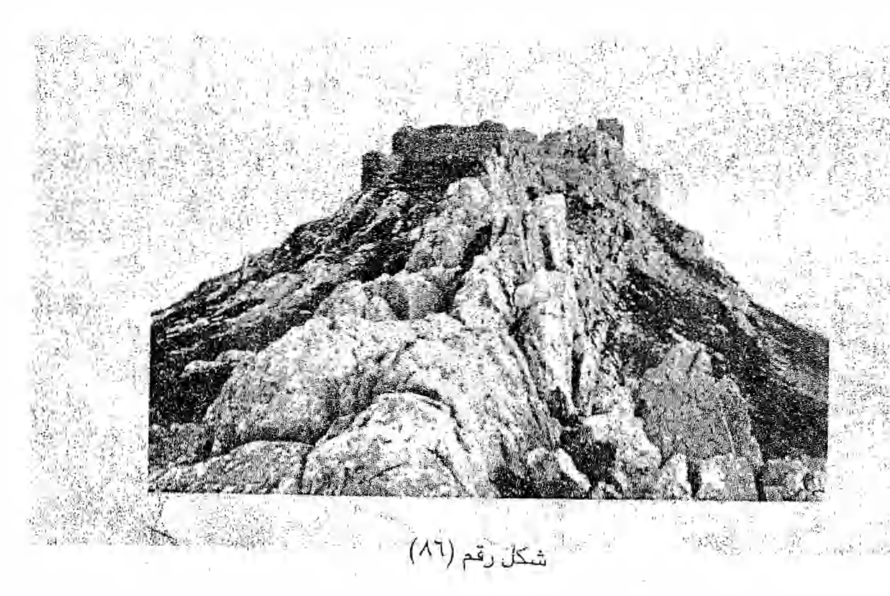
شكل رقم (٨٣)



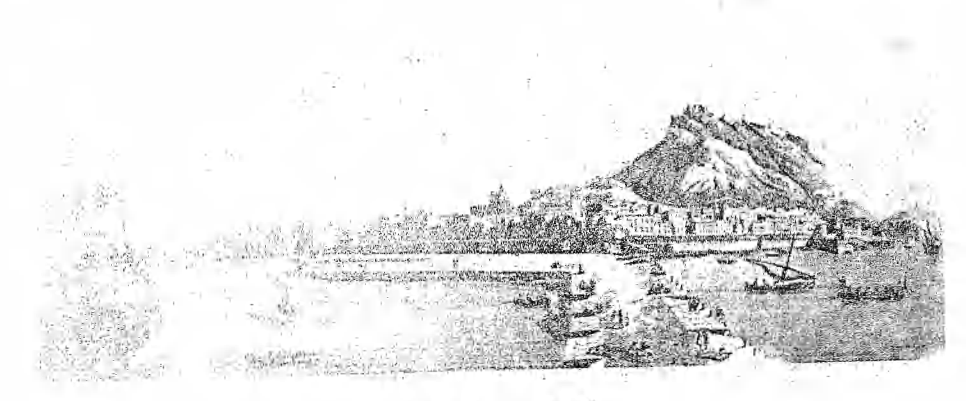
شكل رقم (٨٤)



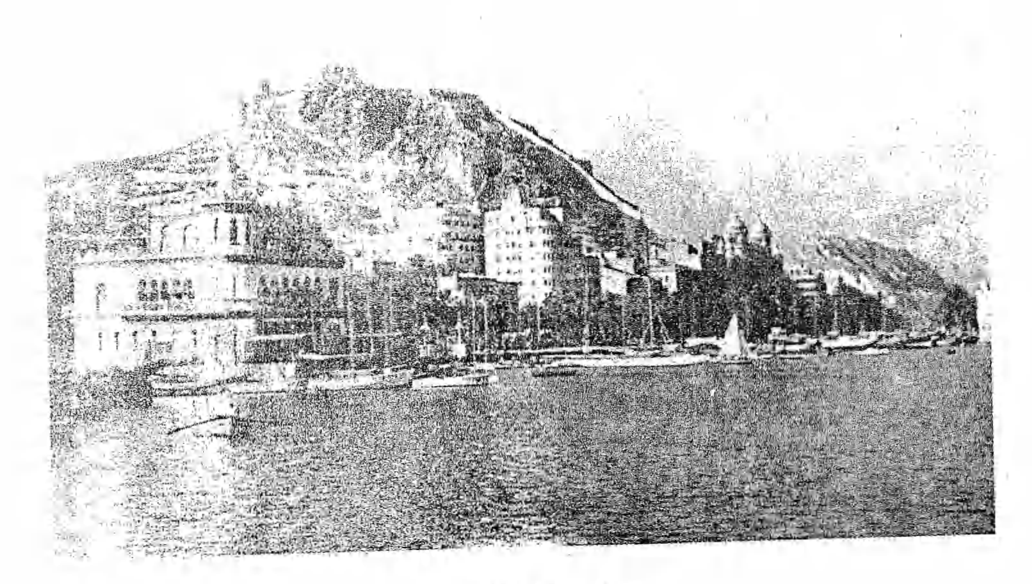
شكل رقم (٨٥)



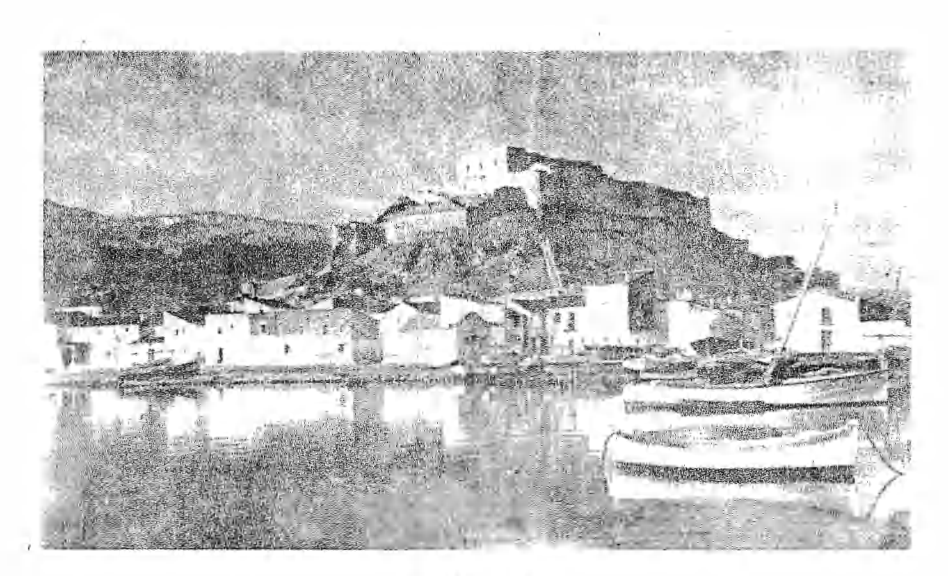
شكل رقم (٨٦)



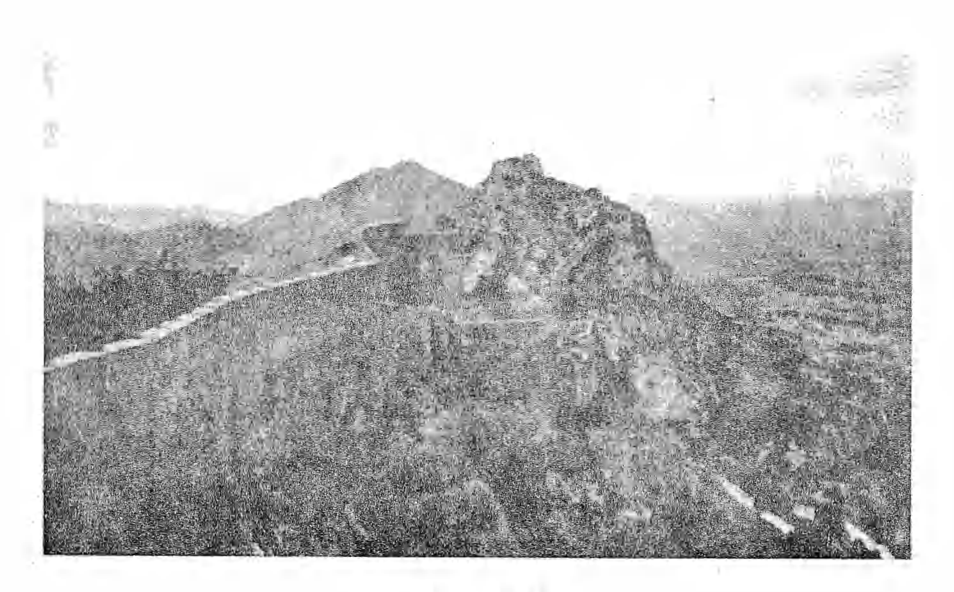
شكل رقم (٨٧)



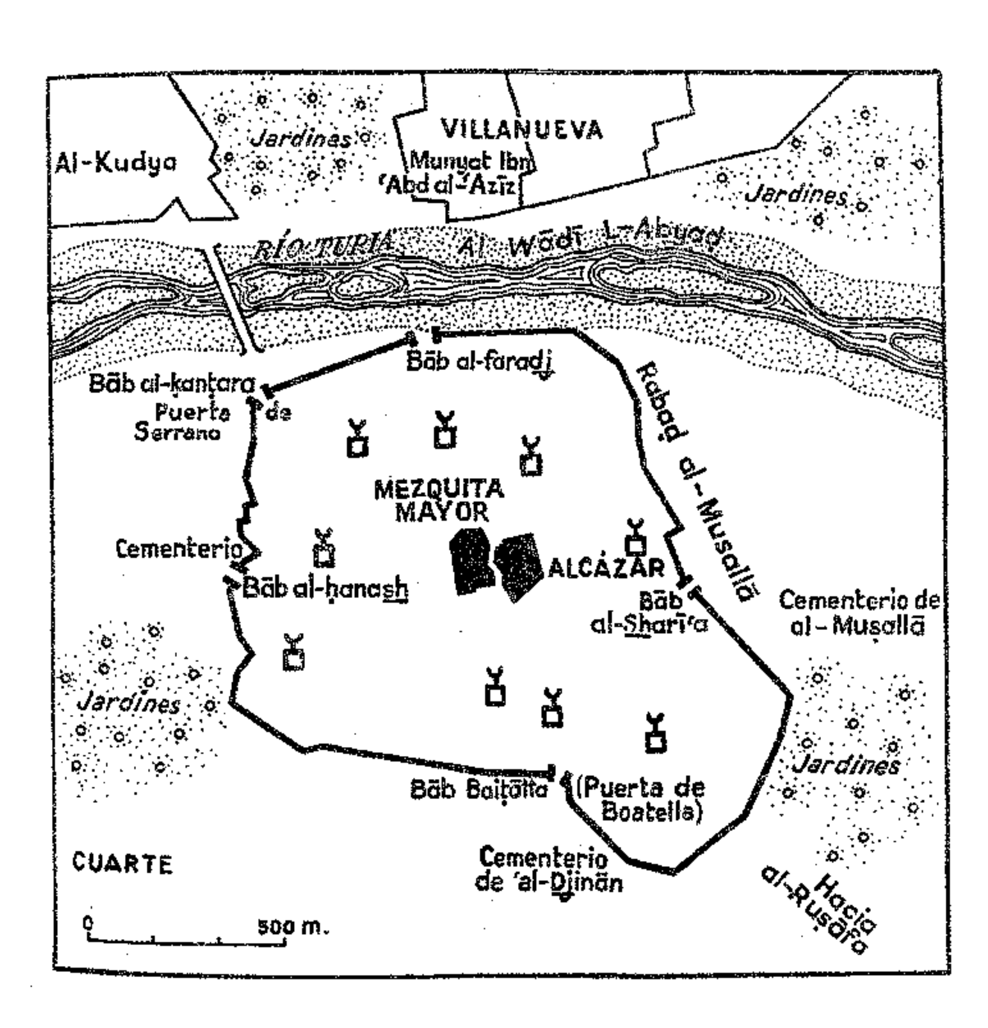
شكل رقم (٨٨)



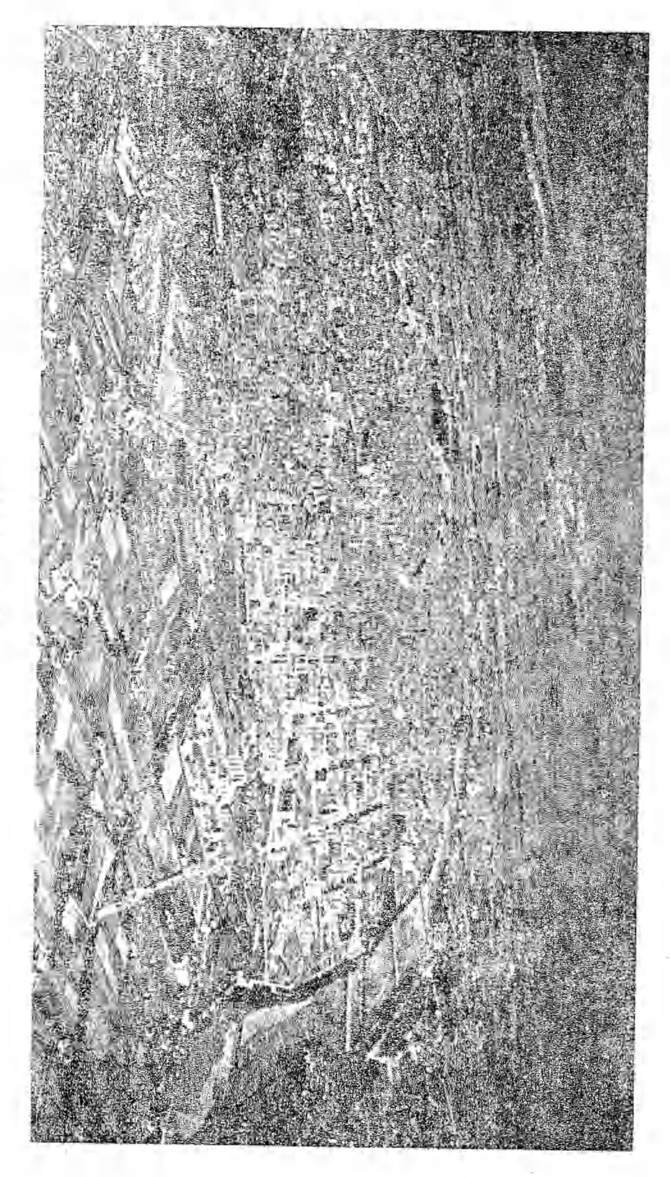
شكل رقم (٨٩)



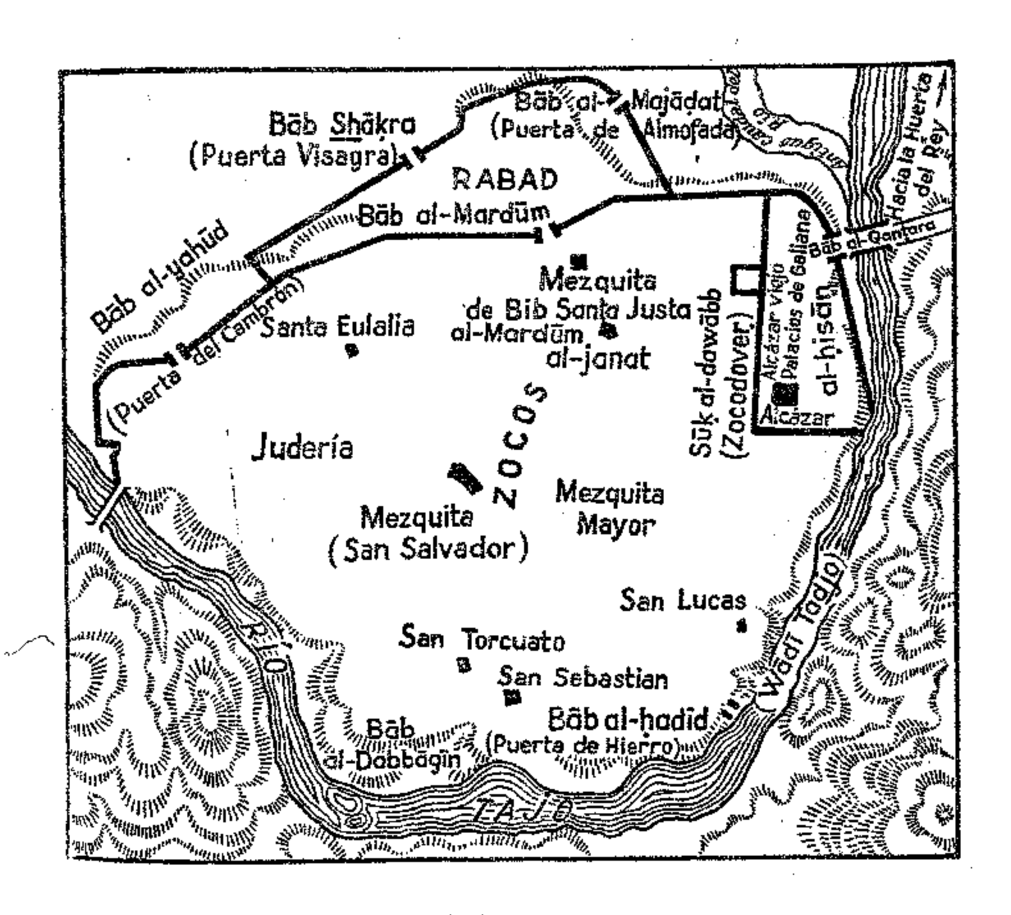
شكل رقم (٩٠)


Al-Kudya
Jardines
VILLANUEVA
Munyat Ibn 'Abd al-'Azīz
Jardines
RÍO TURIA
Al Wādī L-Abyaḍ
Bāb al-faradj
Bāb al-kanṭara
Puerta de Serrano
Rabaḍ al-Musallā
MEZQUITA MAYOR
Cementerio
ALCÁZAR
Bāb al-ḥanash
Bāb al-Sharīʿa
Cementerio de al-Muṣallā
Jardines
Jardines
Bāb Baiṭālla
(Puerta de Boatella)
CUARTE
Cementerio de 'al-Djinān
Hacia al-Ruṣāfa
0
500 m.

شكل رقم (٩١)



شكل رقم (٩٢)


Bāb Shākra
(Puerta Visagra)
Bāb al-Majādat
(Puerta de Almofada)
RABAD
Bāb al-Mardūm
Bāb al-yahūd
(Puerta del Cambrón)
Santa Eulalia
Mezquita
de Bib Santa Justa
al-Mardūm
al-janat
Hacia la Huerta del Rey
Bāb al-Qantara
Alcázar Viejo
Palacios de Galiana
al-ḥiṣān
Alcāzar
Sūk al-dawābb
(Zocodover)
ZOCOS
Judería
Mezquita
(San Salvador)
Mezquita
Mayor
San Lucas
San Torcuato
San Sebastian
Bāb al-ḥadīd
(Puerta de Hierro)
Bāb
al-Dabbāgīn
Wādī Tadjo
TAJO

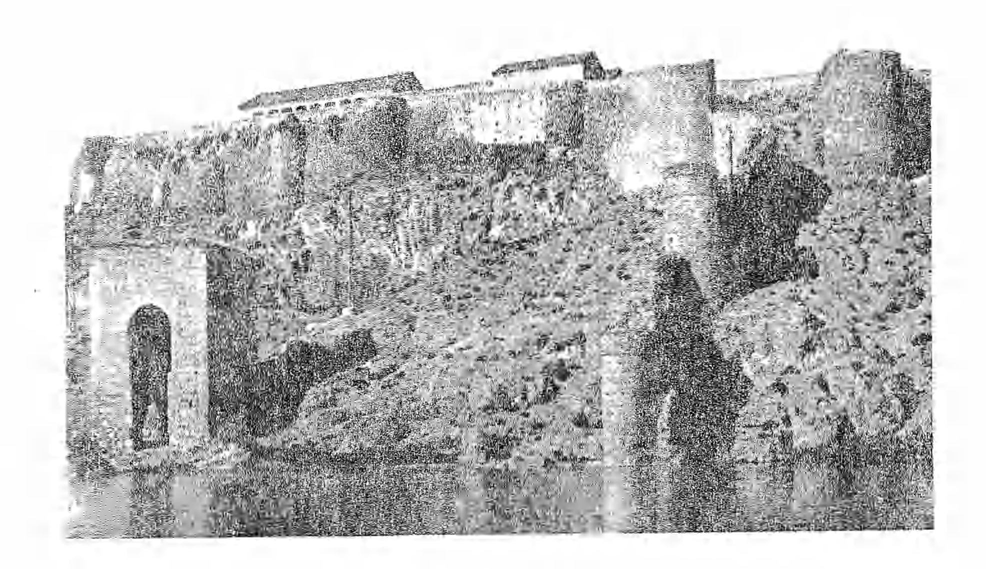
شكل رقم (٩٣)



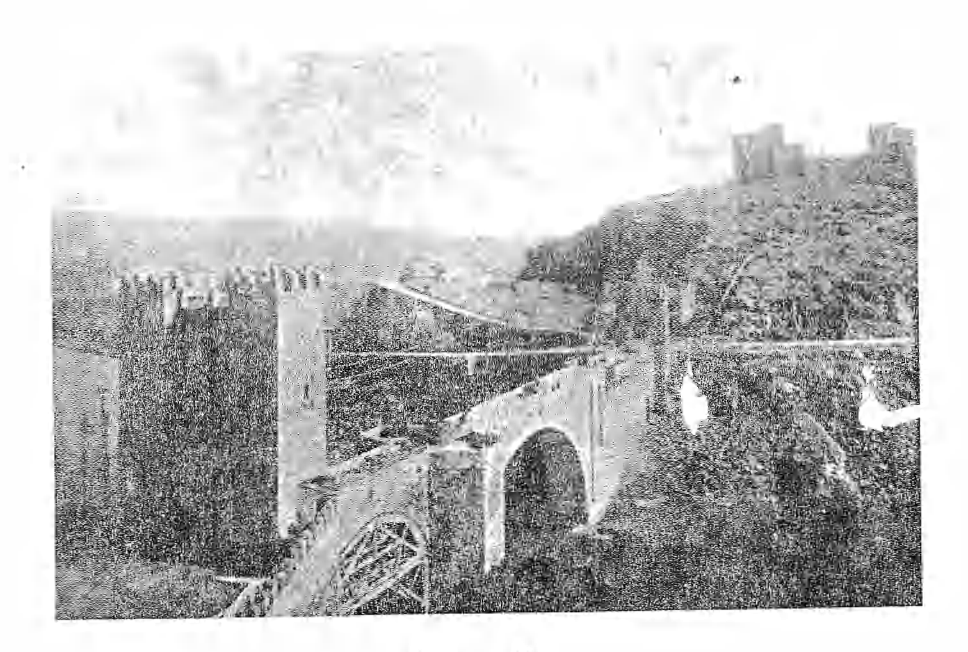
شكل رقم (٩٤)



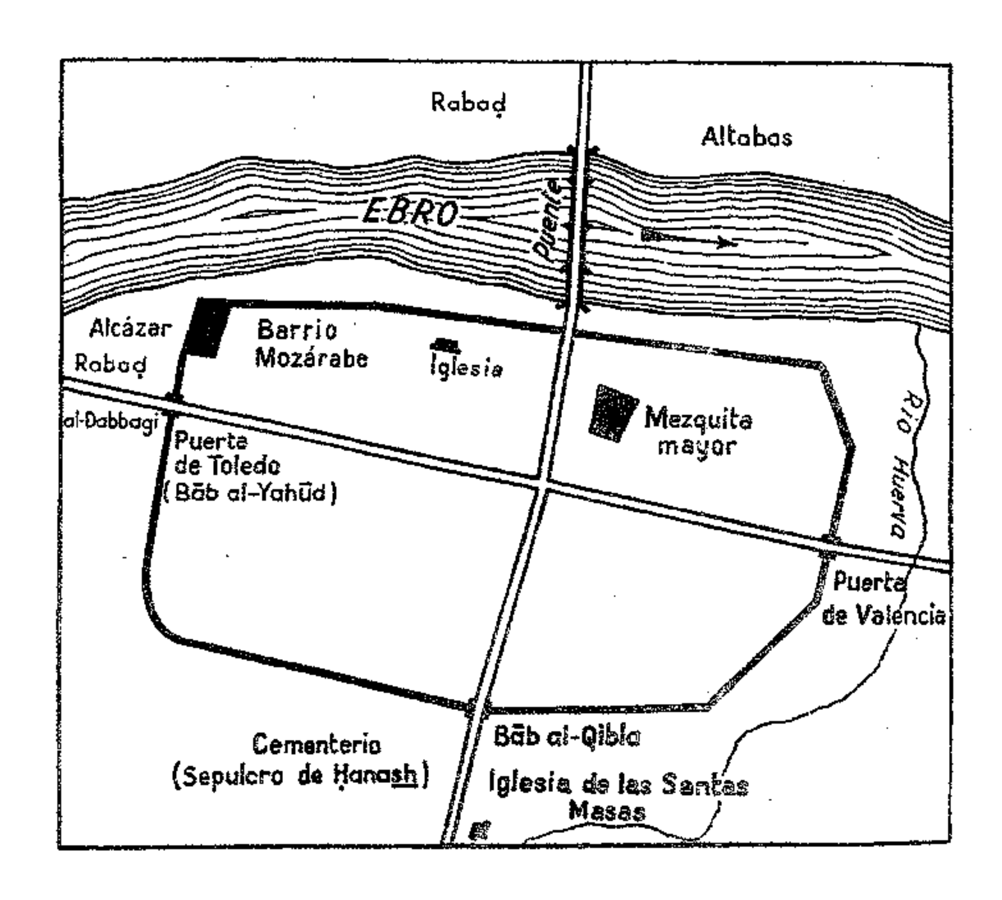
شكل رقم (٩٥)



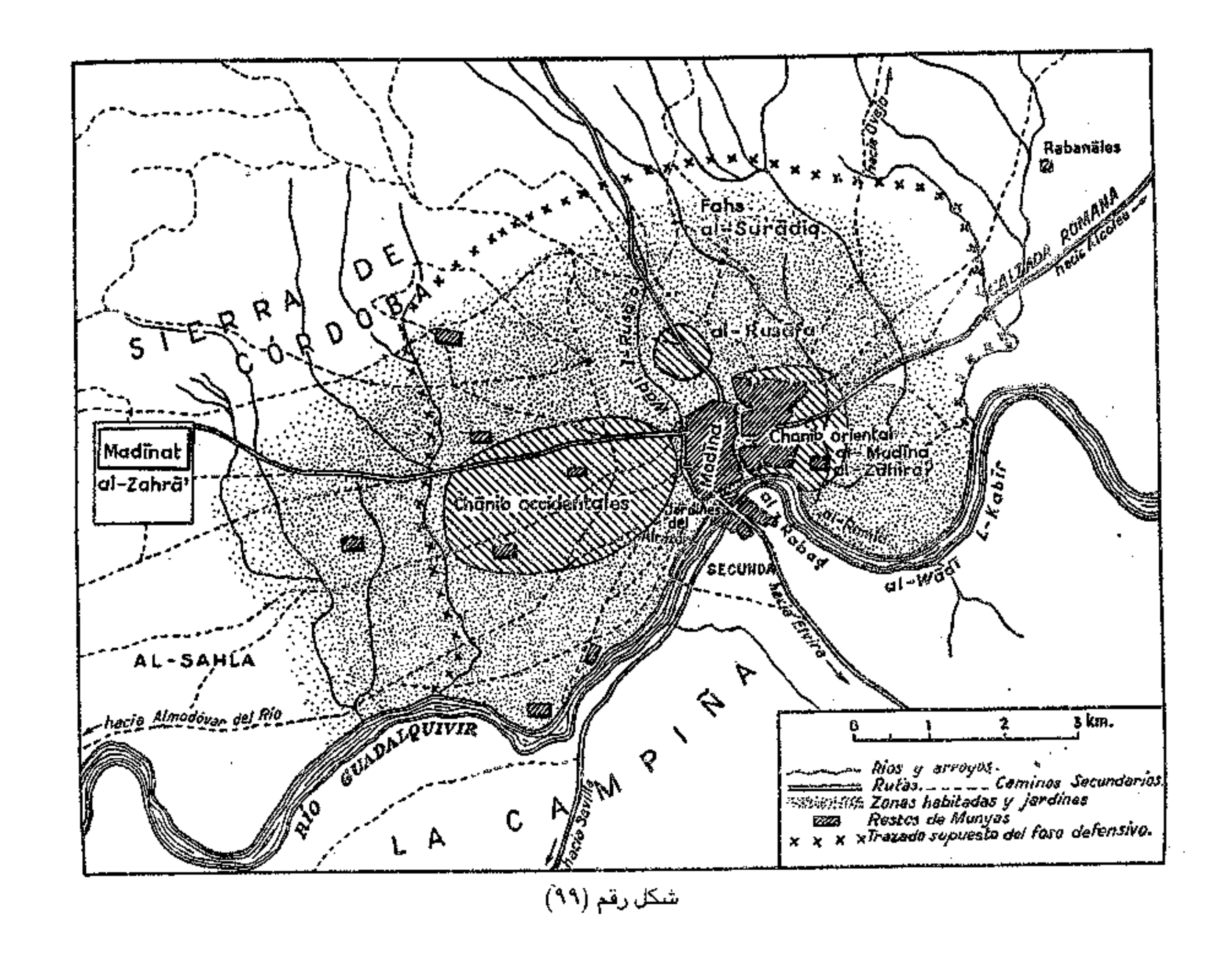
شكل رقم (٩٦)

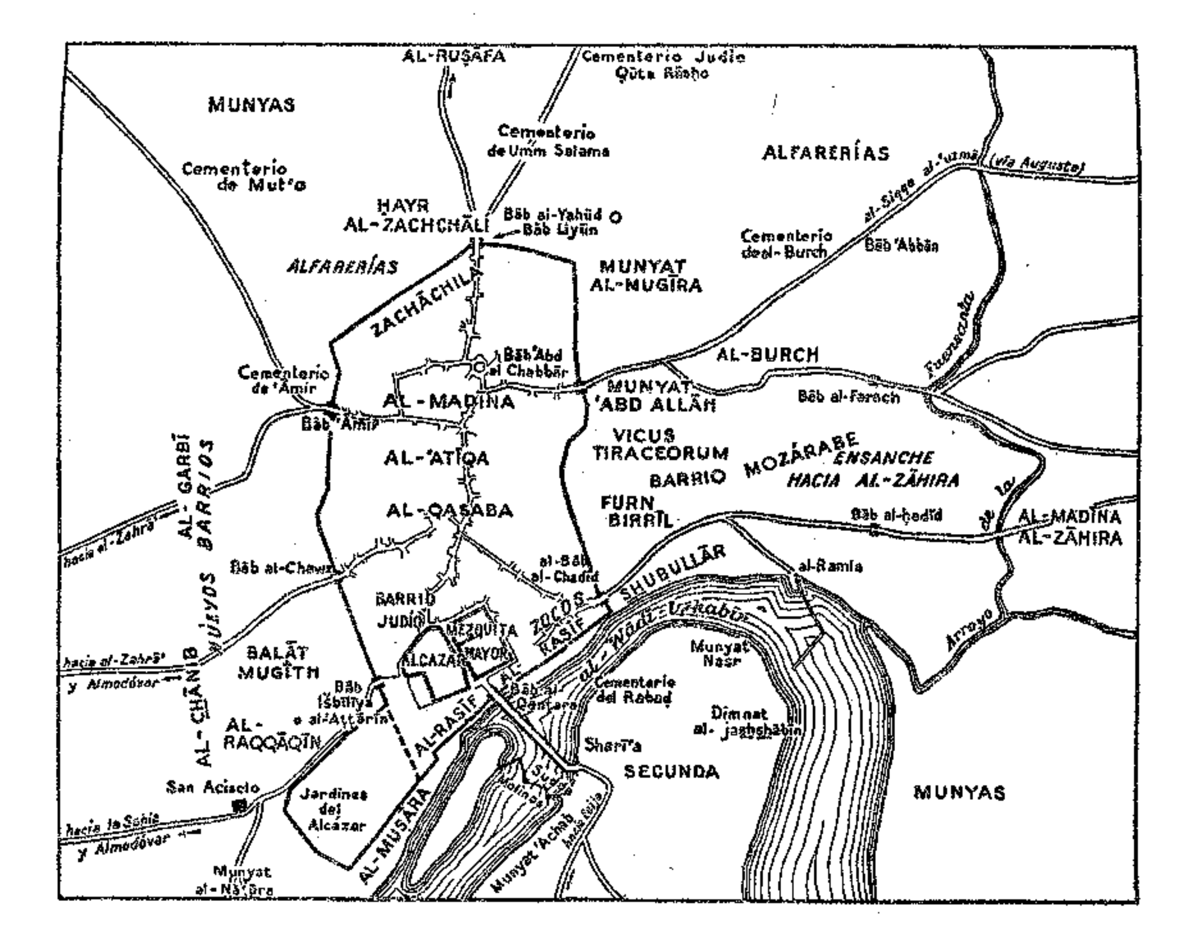


شكل رقم (٩٧)


Rabad
Altabas
EBRO
Puente
Alcázar
Rabad
Barrio
Mozárabe
Iglesia
Mezquita
mayor
Río
Huerva
al-Dabbagi
Puerta
de Toledo
(Bāb al-Yahūd)
Puerta
de Valencia
Bāb al-Qibla
Cementerio
(Sepulcro de Ḥanash)
Iglesia de las Santas
Masas

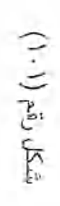
شكل رقم (٩٨)


Madīnat al-Zahrā'
SIERRA DE CÓRDOBA
Fahs al-Surādiq
Rabanāles
CALZADA ROMANA
hacia Alcolea
hacia Ovejo
al-Ruṣāfa
Wādī l-Ruṣāfa
Chānib occidentales
Madīna
Chānib oriental
al-Madīna al-Zāhira?
SECUNDA
al-Rabaḍ
al-Ramla
al-Wādī L-Kabīr
hacia Elvira
AL-SAHLA
hacia Almodóvar del Río
RÍO GUADALQUIVIR
LA CAMPIÑA
hacia Sevilla
0 1 2 3 km.
Ríos y arroyos.
Rutas. Caminos Secundarios
Zonas habitadas y jardines
Restos de Munyas
x x x Trazado supuesto del foso defensivo.
شكل رقم (٩٩)

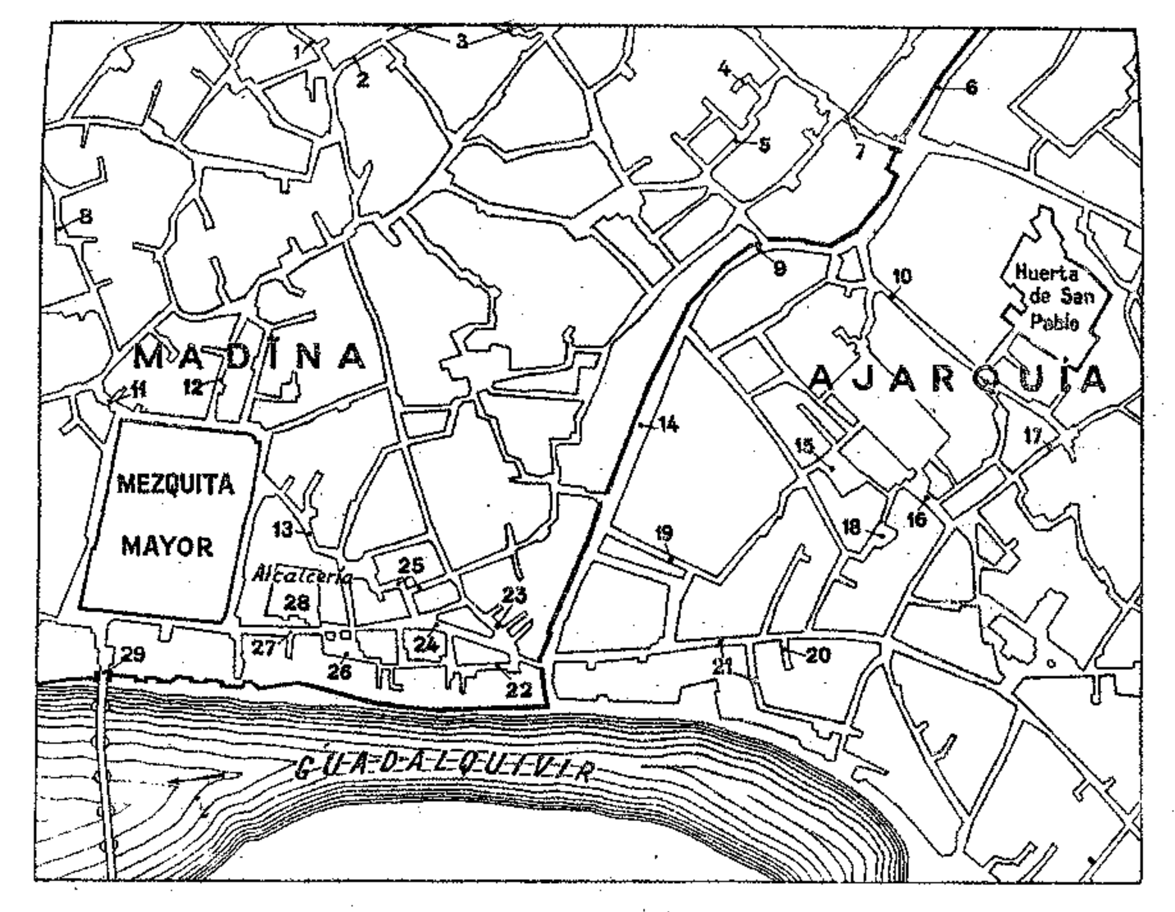


AL-RUṢAFA
Cementerio Judío Qūta Rāshō
MUNYAS
Cementerio de Umm Salama
ALFARERÍAS
Cementerio de Mut'a
HAYR AL-ZACHCHĀLĪ
Bāb al-Yahūd o Bāb Liyūn
Cementerio deal-Burch
Bāb 'Abbās
ALFARERÍAS
MUNYAT AL-MUGĪRA
ZACHĀCHILA
Bāb 'Abd al Chabbār
AL-BURCH
Cementerio de 'Āmir
AL-MADĪNA
MUNYAT 'ABD ALLĀH
Bāb al-Faranch
Bāb 'Āmir
AL-'ATĪQA
VICUS TIRACEORUM
BARRIO MOZÁRABE
ENSANCHE HACIA AL-ZĀHIRA
AL-GARBĪ
NUEVOS BARRIOS
AL-QAṢABA
FURN BIRRĪL
Bāb al-Ḥadīd
AL-MADĪNA AL-ZĀHIRA
Bāb al-Chawz
al-Bāb al-Chadīd
SHUBULLĀR
al-Ramla
BARRIO JUDÍO
MEZQUITA MAYOR
ZOCOS
RAṢĪF
al-Wādī al-Kabīr
Arroyo de la Fuensanta
BALĀṬ MUGĪTH
ALCAZAR
Munyat Naṣr
AL-CHĀNIB
Bāb Išbīliya o al-'Aṭṭārīn
Bāb al-Qanṭara
Cementerio del Rabad
Dimnat al-Jashshābīn
AL-RAQQĀQĪN
AL-RAṢĪF
Sharī'a
SECUNDA
San Acisclo
Jardines del Alcázar
Molinos
MUNYAS
AL-MUSĀRA
Munyat 'Achab
Munyat al-Nā'ūra

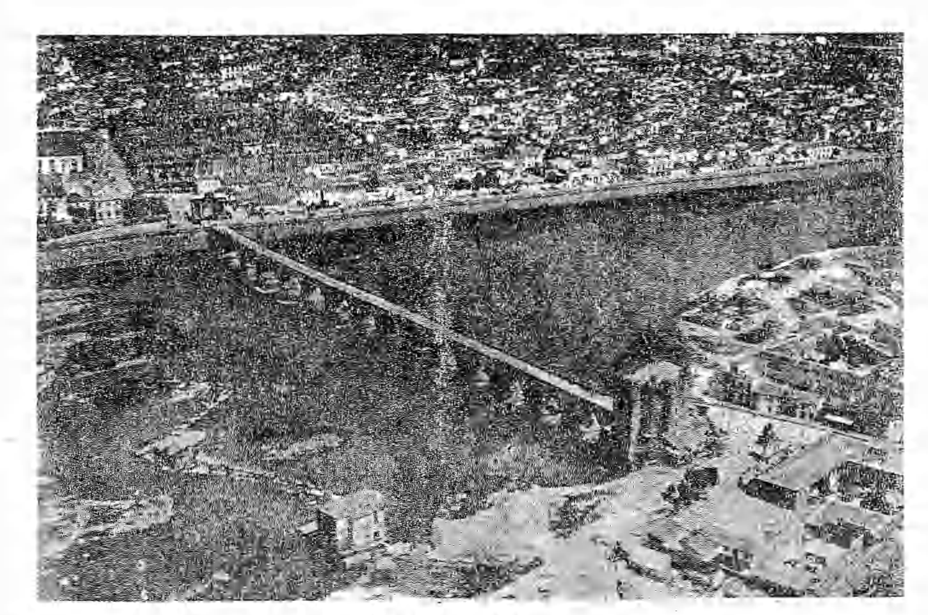
شكل رقم (١٠٠)



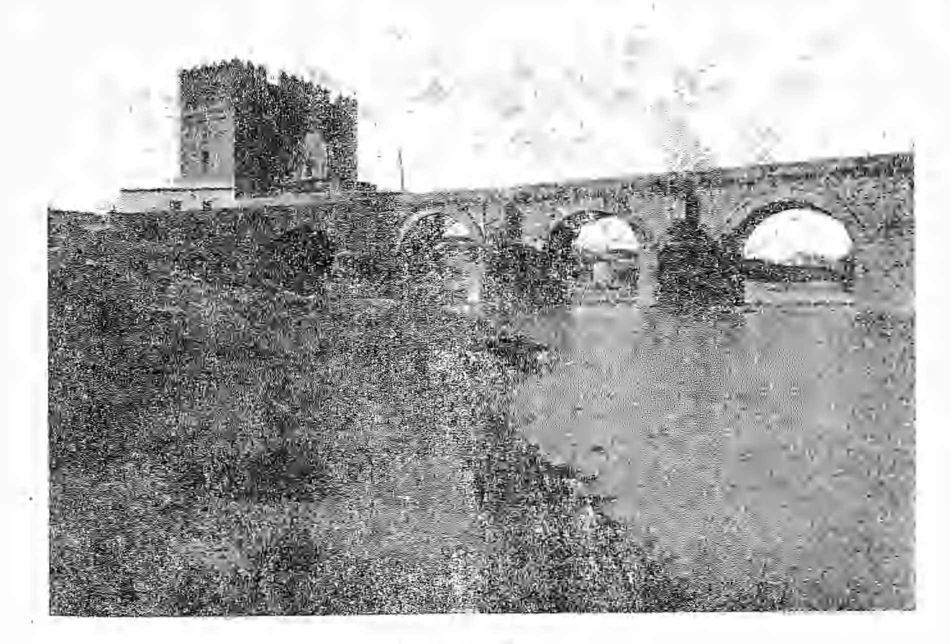
شكل رقم (١٠١)


MADĪNA
AJARQUĪA
MEZQUITA
MAYOR
Alcaicería
Huerta
de San
Pablo
GUADALQUIVIR
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29

شكل رقم (١٠٢)



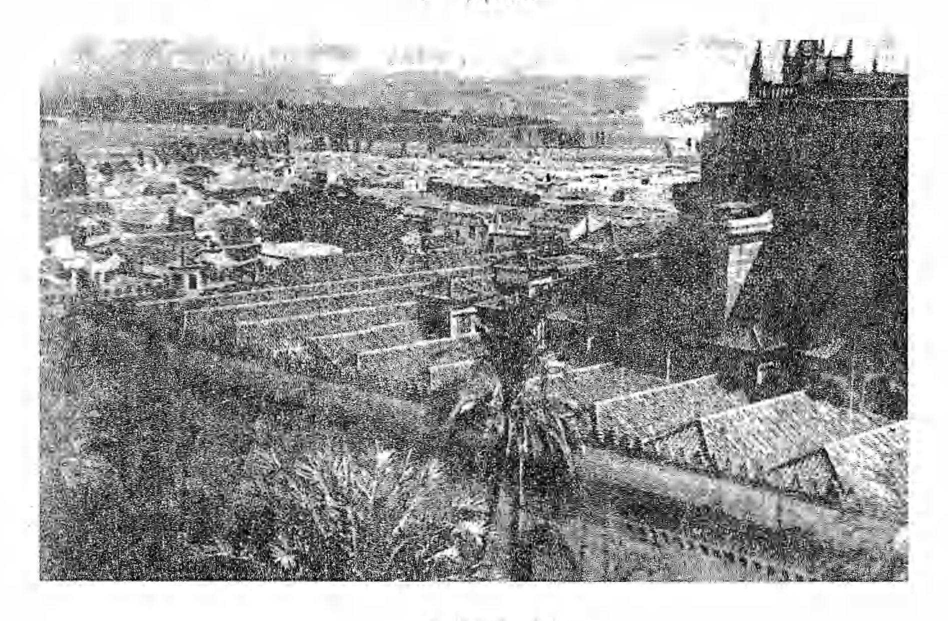
شكل رقم (١٠٣)



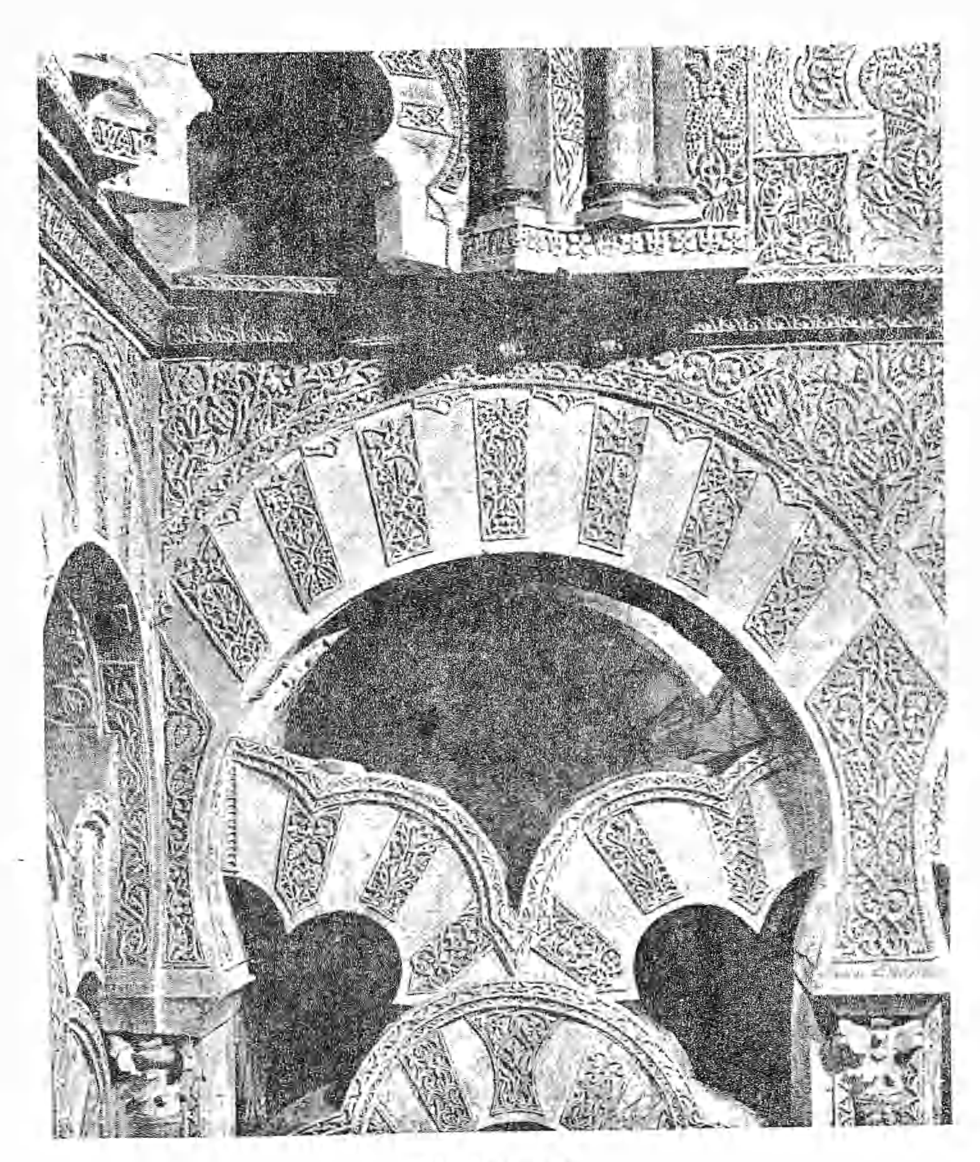
شكل رقم (١٠٤)



شكل رقم (١٠٥)



شكل رقم (١٠٦)



شكل رقم (١٠٧)

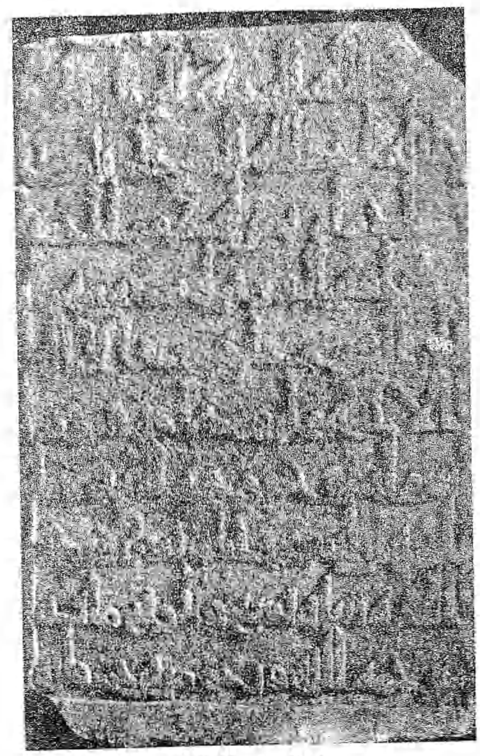
شكل رقم (١٠٨)



شكل رقم (١٠٩)



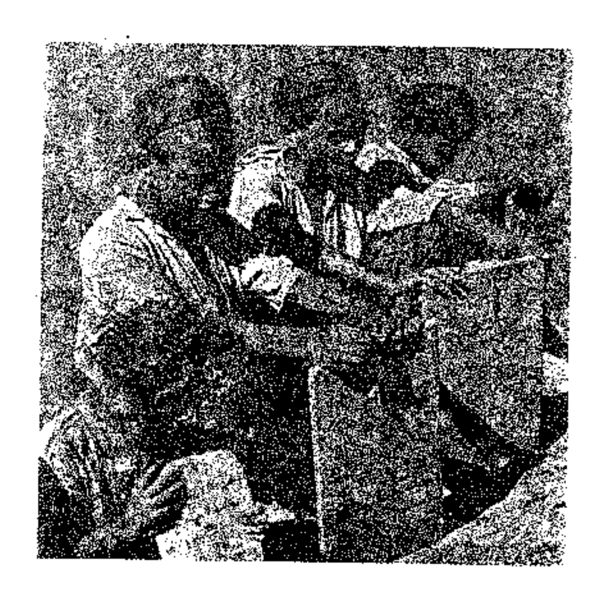
شكل رقم (١١٠)



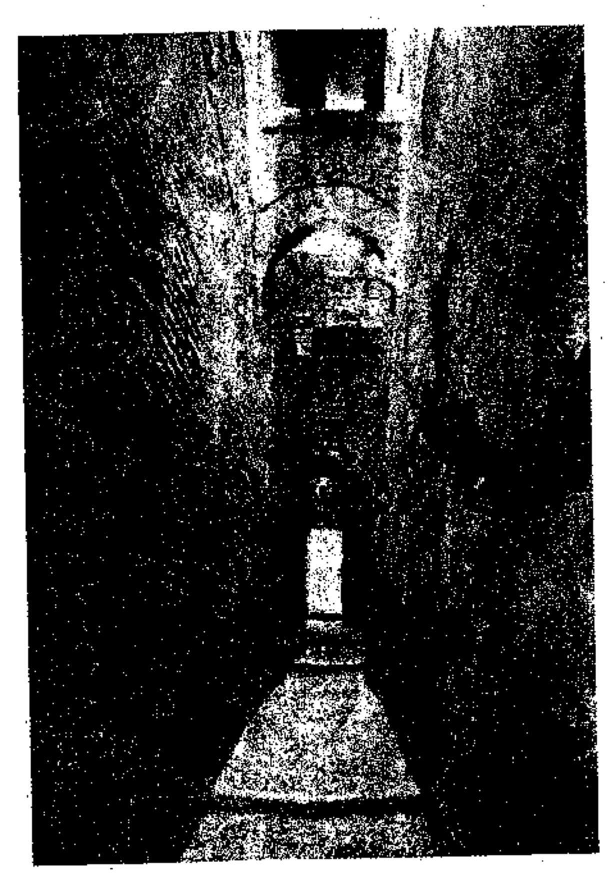
شكل رقم (١١١)



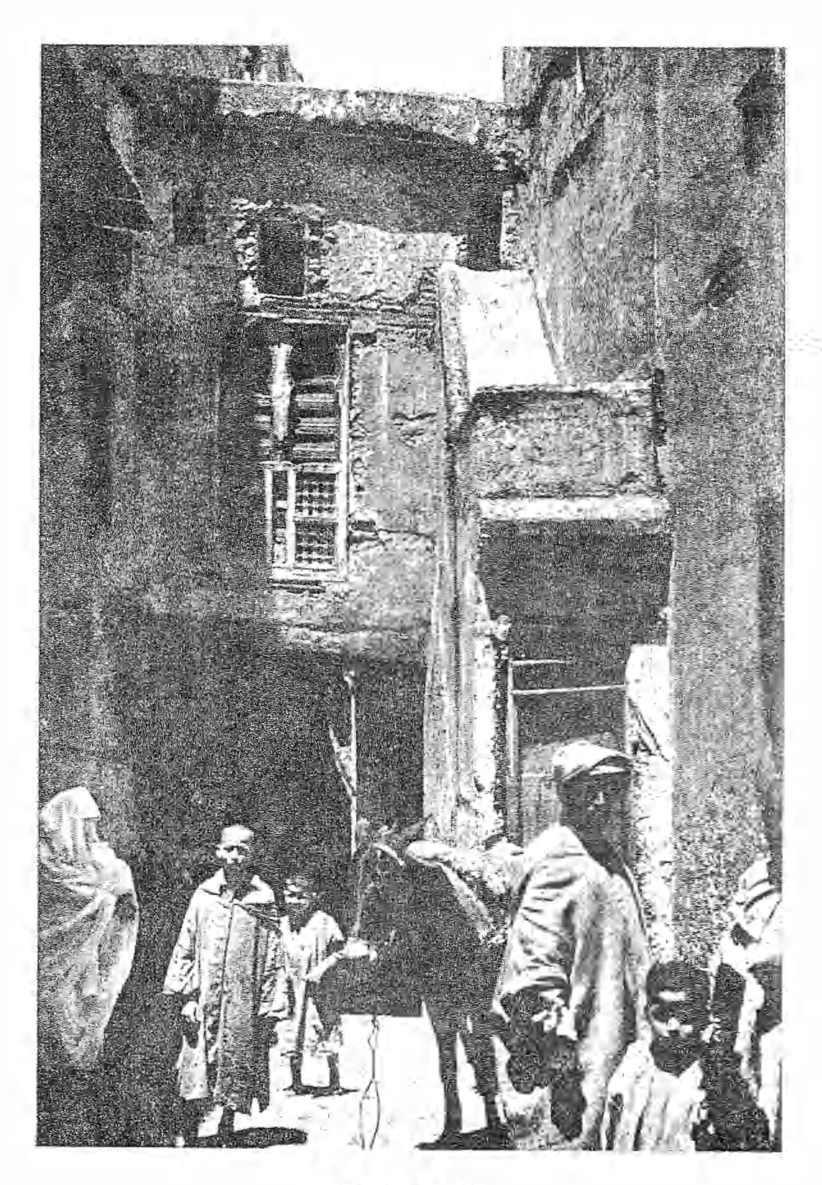
شكل رقم (١١٢)



شكل رقم (١١٣)



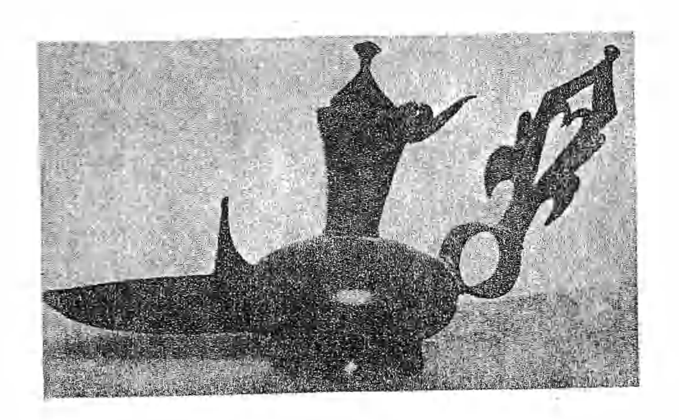
شكل رقم (١١٤)



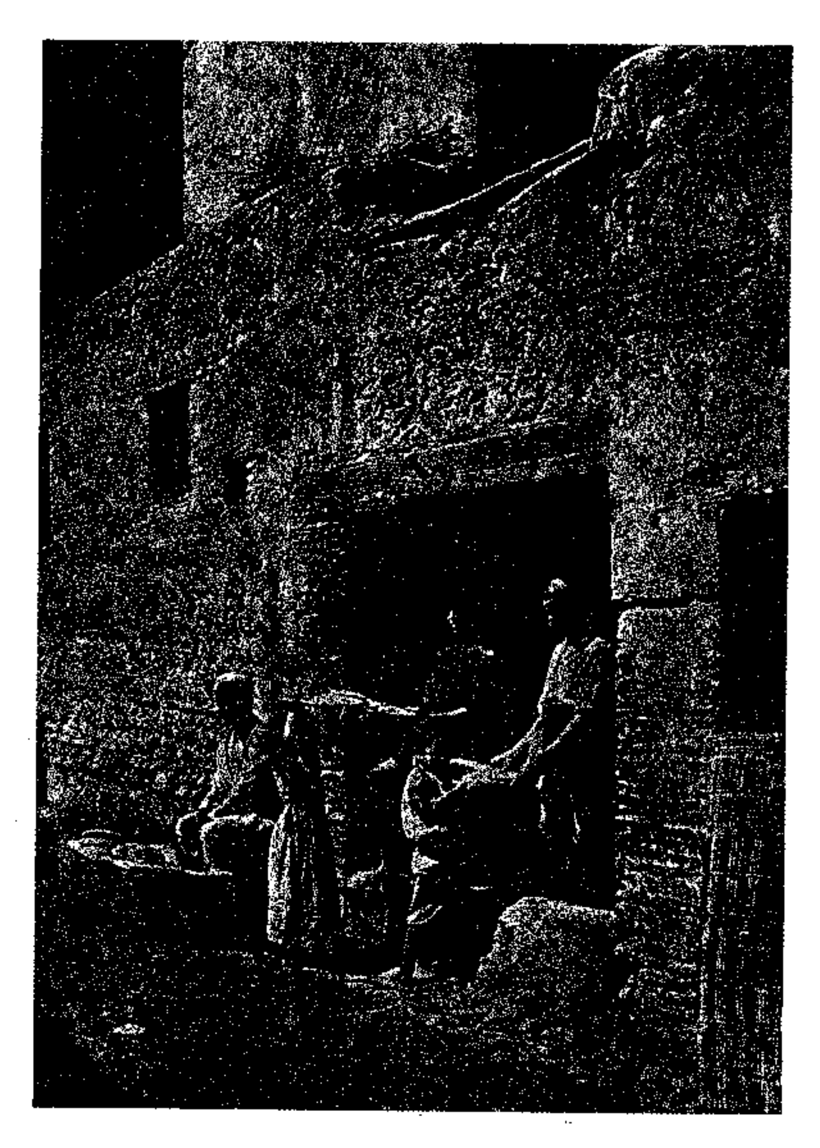
شكل رقم (١١٥)



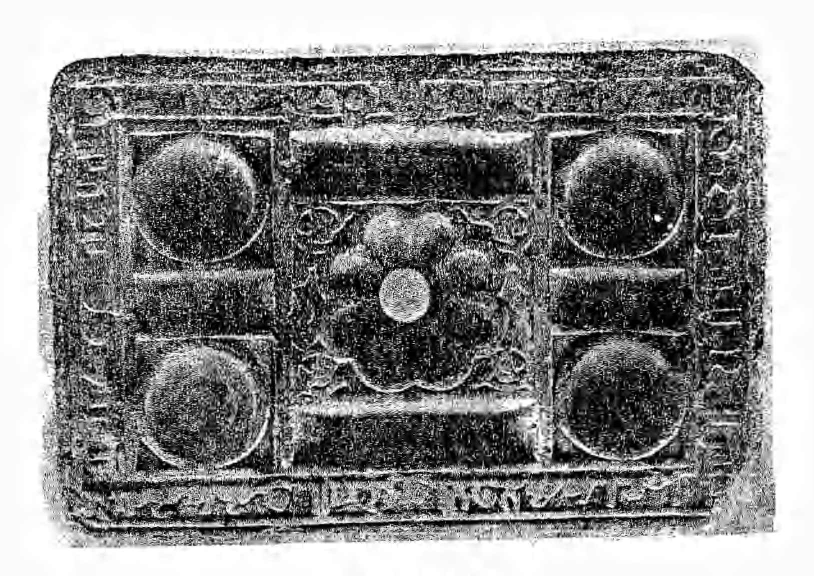
شكل رقم (١١٦)



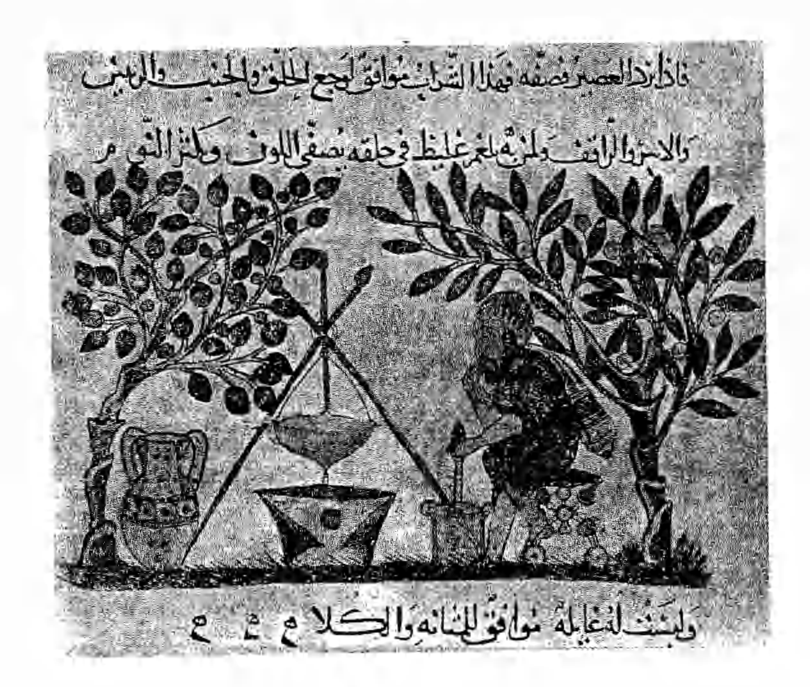
شكل رقم (١١٧)



شكل رقم (١١٨)



شكل رقم (١١٩)



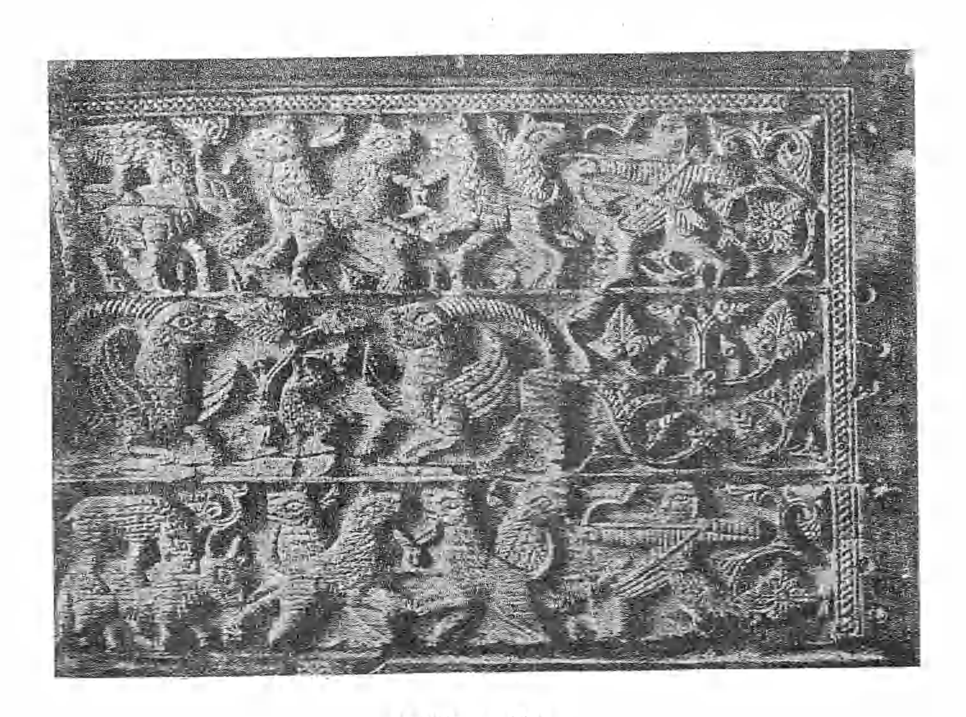
شكل رقم (١٢٠)



شكل رقم (١٢١)



شكل رقم (١٢٢)



شكل رقم (١٢٣)



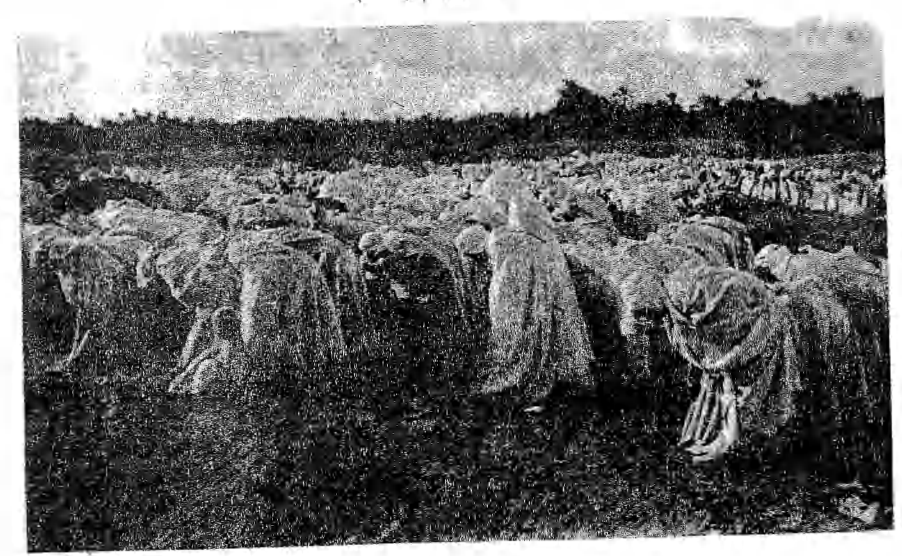

شكل رقم (١٢٤)




شكل رقم (١٢٥)



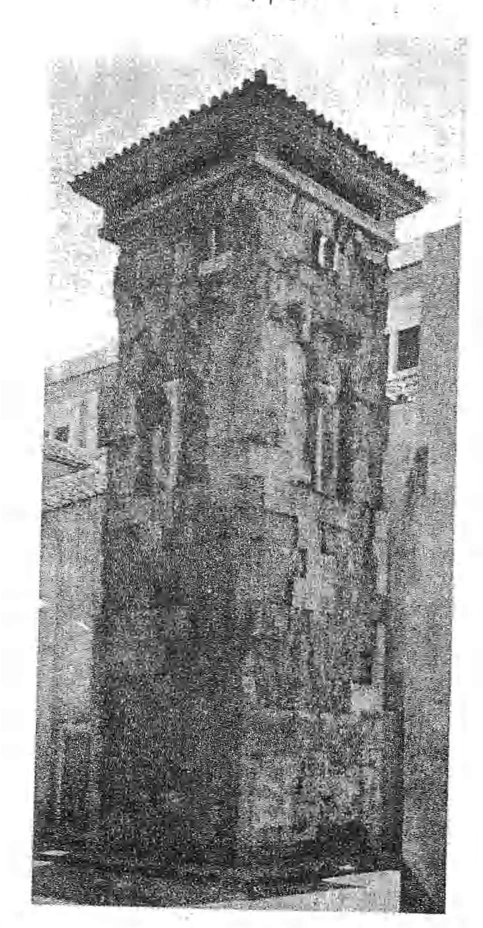
شكل رقم (١٢٦)



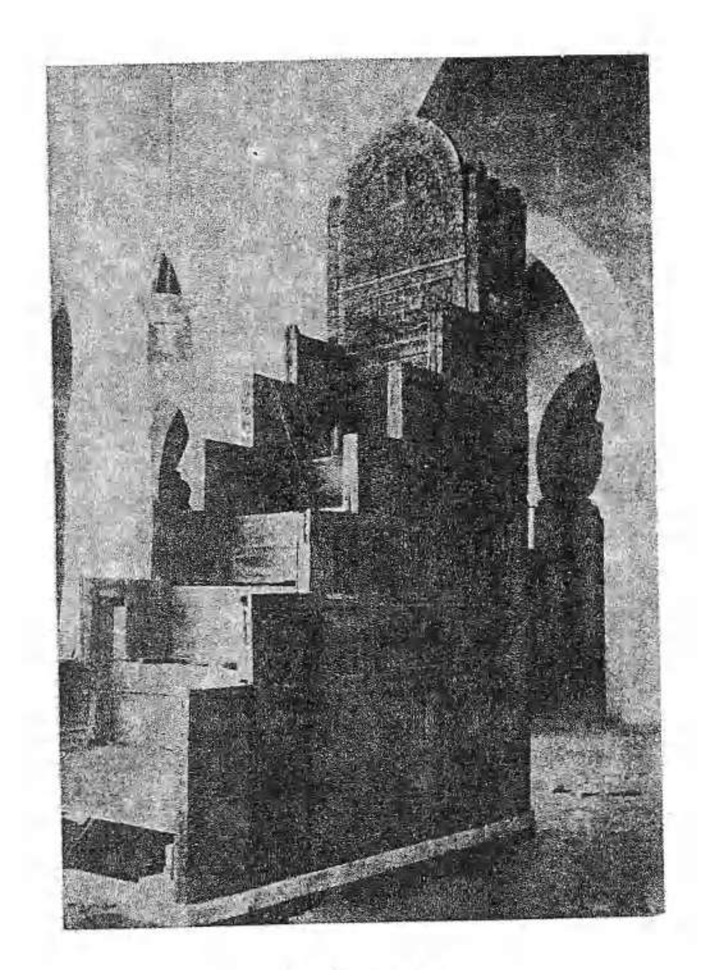
شكل رقم (١٢٧)



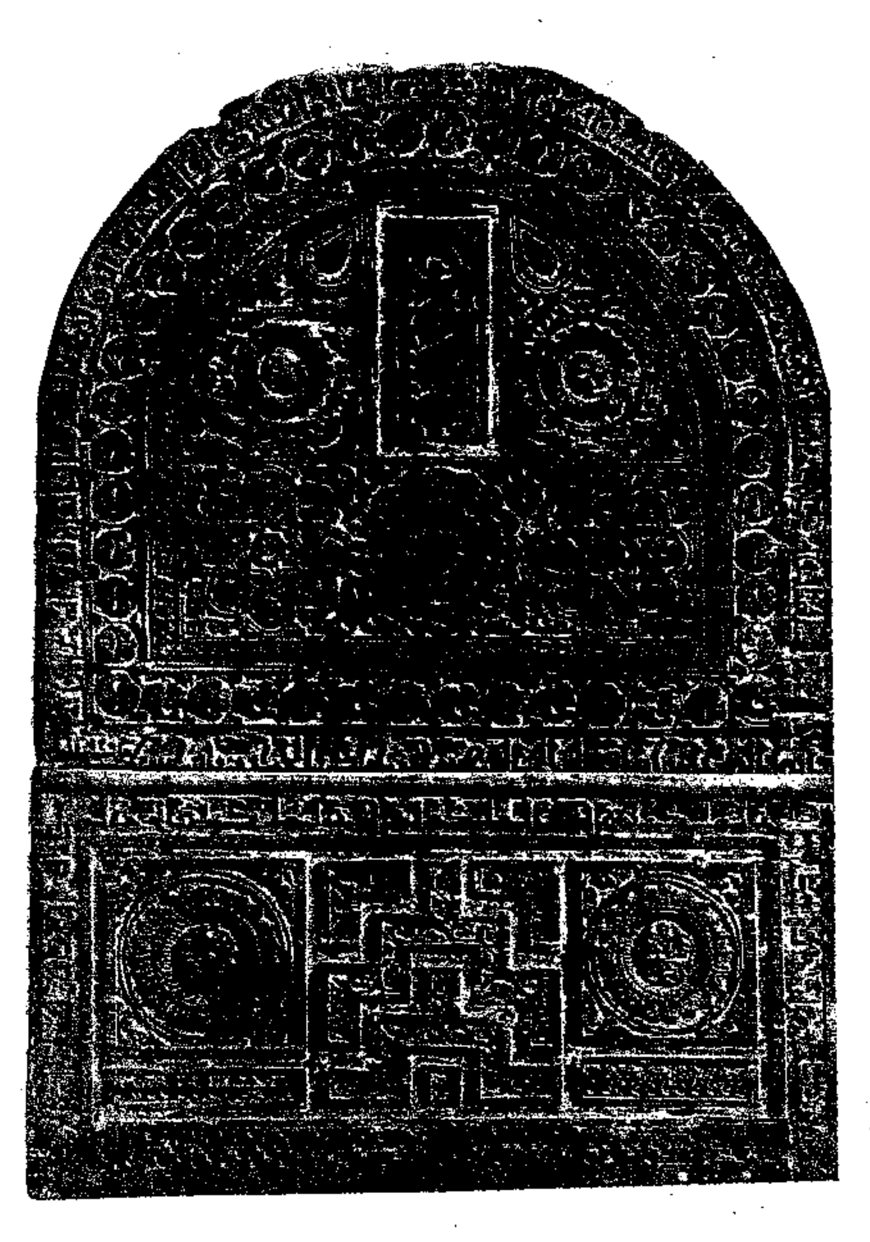
شكل رقم (١٢٨)



شكل رقم (١٢٩)



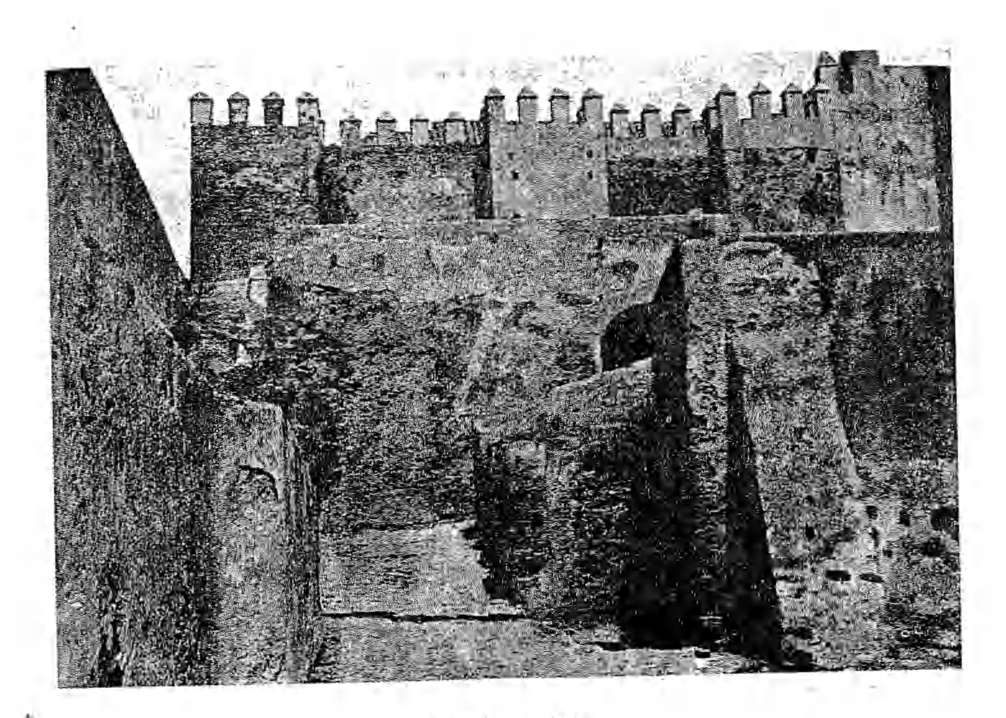
شكل رقم (١٣٠)



شكل رقم (١٢١)



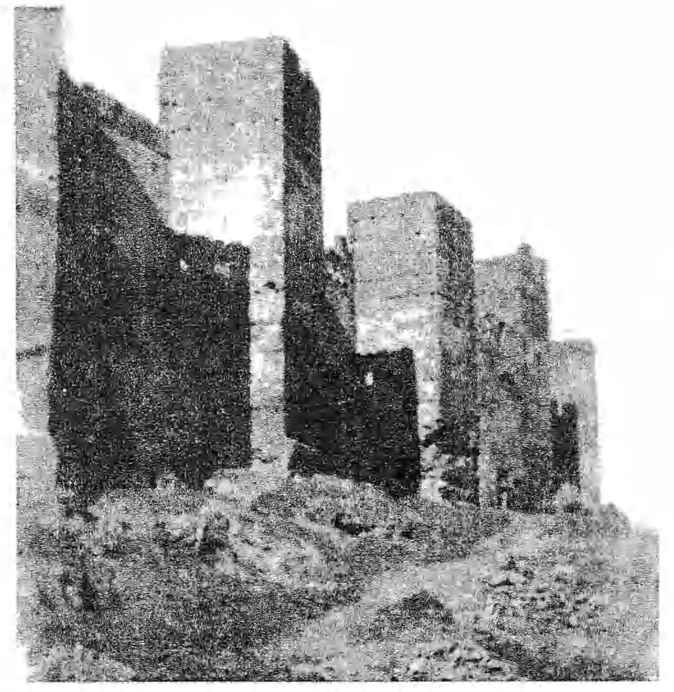
شكل رقم (١٣٢)



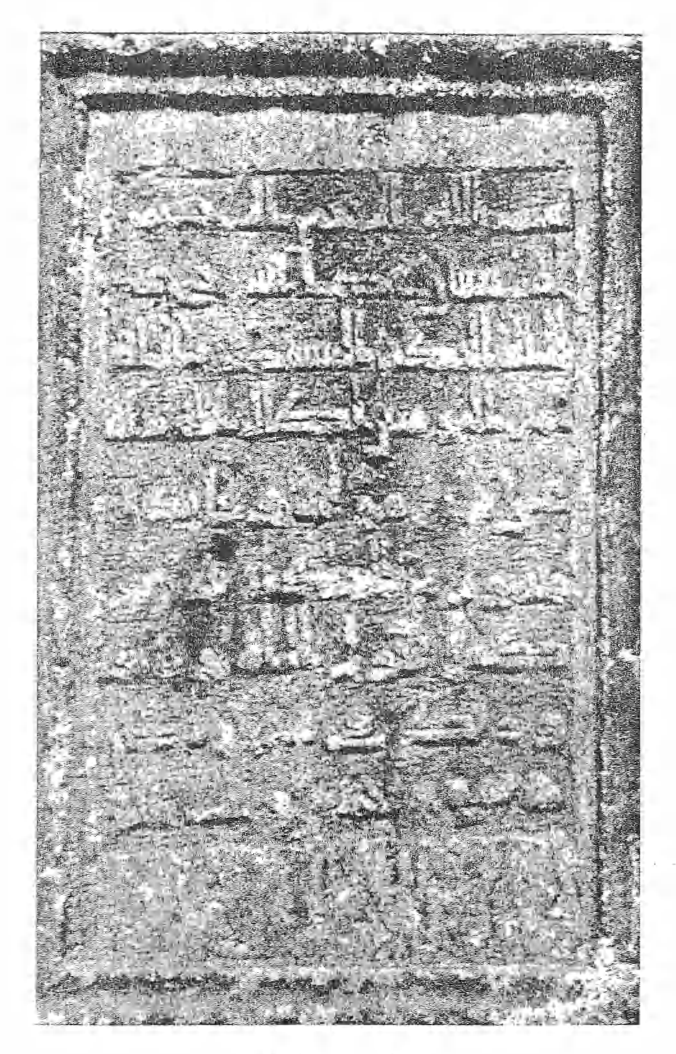
شكل رقم (١٣٣)



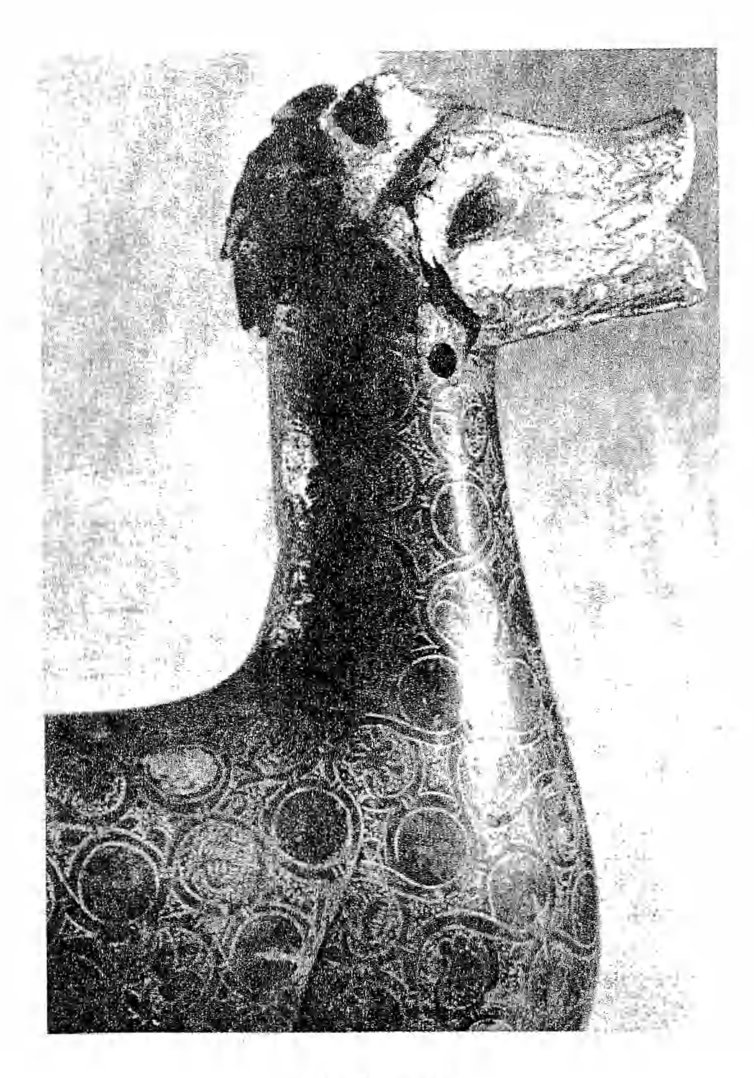
شكل رقم (١٣٤)



شكل رقم (١٣٥)



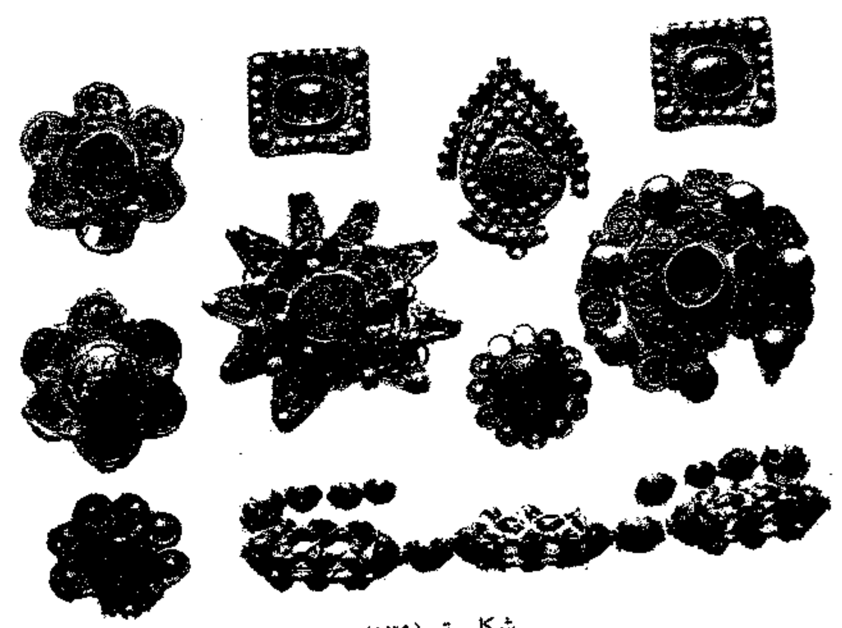
شكل رقم (١٣٦)



شكل رقم (١٣٧)



شكل رقم (١٢٨)



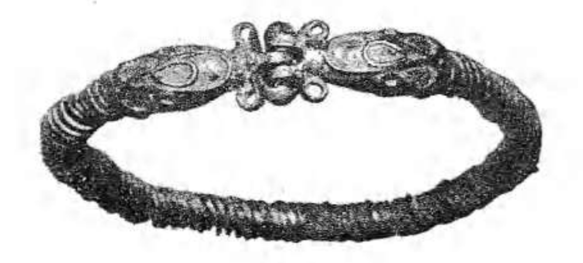
شكل رقم (١٢٩)



شكل رقم (١٤٠)



شكل رقم (١٤١)



شكل رقم (١٤٢)

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدعيمي	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض .
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض .
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلي
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دي ثرباتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	راية التمرد	سادي پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلي
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان

١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وألان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد

١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فرديناند دوسوسير	جوناثان كللر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محمود محى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى
٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣٣-	فكرة الاضمحلال	أرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزي (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادي	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩-	العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلارافر – رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١-	في انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبري محمد حسن عبدالنبي
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفي بروفنسال	علي عبدالرءوف اليمبي
٢٤٤-	الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق علي منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	علي إبراهيم منوفي
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوي
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينيك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	علي بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومي
٢٥٤-	الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الفجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
٢٦١-	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	علي يوسف علي
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	لويس عوض
٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية	توماس سي. باترسون	شوقي جلال

٢٧٢-	الأبيرة الأثرية في مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣-	الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١-	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	نخبة من المترجمين
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦-	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣-	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨-	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩-	الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠-	يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن

٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤-	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	آ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٤٧ / ٢٠٠٢